

الموسوعة الميسرة في
الإعجاز العلمي
في القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة

الموسوعة الميسرة في

الأخبار العالمية

في القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة

جمع وترتيب

بشحاتر ضيق

دار الفتح الإسلامي

الخلفاء الراشدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطب مع محفوظات

رقم الإيداع:

دار الفتح الإسلامي

الإسكندرية - مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي

٠١٠٠٦٧١٤٧٦٨ / ٠١٠٠٢٧٧١٠٦٠

دار الخلفاء الراشدين

الإسكندرية - ٣ ش عمر - أبو سليمان
أمام مسجد الخلفاء الراشدين

٠١٠٠٥٠١٣١٥١ / ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ

* قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۗ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ۗ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ۗ أَيْبُنِيهِ ۗ فَتَعْرِفُونَهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ ۗ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿النمل: ٩١ - ٩٣﴾ .

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۗ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿النساء: ١٦٦﴾ .

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ سَتُرِيهِمْ ۗ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ۗ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ ﴿فُصِّلَتْ: ٥٣﴾ .

كَلِمَاتٌ لَيْسَتْ عَابَرَةً

* «إِنَّ الْقُرْآنَ يَشْتَمِلُ عَلَى بَيَانٍ كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْجَمَادِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَ وَالْإِنْسَانِ، وَيَصِفُ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَشَمْسَهَا وَقَمَرَهَا وَدَرَارِيهَا وَنُجُومَهَا وَالْأَرْضَ وَالْهَوَاءَ وَالسَّحَابَ وَالْمَاءَ مِنْ بَحَارٍ وَأَنْهَارٍ وَعَيُونٍ وَيَنْبِيعٍ، وَفِيهِ تَفْصِيلٌ لِكَثِيرٍ مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَّمِ، وَبَيَانٌ لِطَرِيقِ التَّشْرِيعِ السَّوِيِّ لِلْأُمَّمِ، وَقَدْ حَفِظَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِيهِ بِكَلِمَةٍ وَحُرُوفِهِ مُنْذُ ثَلَاثَةِ عَشَرَ قَرْنًا وَنَيْفٍ، ثُمَّ عَجَزَتْ هَذِهِ الْقُرُونُ الَّتِي ارْتَقَتْ فِيهَا جَمِيعُ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ أَنْ تَنْقُصَ بِنَاءَ آيَةٍ مِنْ آيَاتِهِ، أَوْ تُبْطِلَ حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِهِ، أَوْ تُكَذِّبَ خَبْرًا مِنْ أَخْبَارِهِ ...»

وَاشْتَمَلَ الْقُرْآنَ عَلَى تَحْقِيقِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً فِي عَصْرِ نُزُولِهِ، ثُمَّ عُرِفَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا انْكَشَفَ لِلْبَاحِثِينَ وَالْمُحَقِّقِينَ مِنْ طَبِيعَةِ الْكَوْنِ وَتَارِيخِ الْبَشَرِ وَسُنَنِ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ»^(١).

الشيخ محمد رشيد رضا رحمته الله

* «الإعجاز العلمي في الحقيقة لا ننكره، لا ننكر أن في القرآن أشياء ظهر بيانها في الأزمنة المتأخرة، لكن غالى بعض الناس في الإعجاز العلمي، حتى رأينا من جعل القرآن كأنه كتاب رياضة، وهذا خطأ.

فنقول: إن المغالاة في إثبات الإعجاز العلمي لا تنبغي؛ لأن هذه قد تكون مبنية على نظريات، والنظريات تختلف، فإذا جعلنا القرآن دالاً على هذه النظرية ثم تبين بعد أن هذه النظرية خطأ، معنى ذلك أن دلالة القرآن صارت خاطئة، وهذه مسألة خطيرة جداً. ولهذا اعتنيت في الكتاب والسنة ببيان ما ينفع الناس من العبادات والمعاملات، وبيّن دقيقتها وجليلها حتى آداب الأكل والجلوس والدخول وغيرها، لكن علم الكون لم يأت على سبيل التفصيل.

(١) بتصرف يسير من تفسير المنار (١/ ١٧٢، ١٧٥).

ولذلك فأنا أخشى من انهماك الناس في الإعجاز العلمي وأن يشتغلوا به عما هو أهم، إن الشيء الأهم هو تحقيق العبادة؛ لأن القرآن نزل بهذا، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)»^(١).

الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمته

* «إنني أشهدُ بإعجاز الله في خلق كل طُورٍ من أطوار القرآن الكريم، ولستُ أعتقد أن محمدًا صلوات الله عليه أو أي شخص آخر يستطيع معرفة ما يحدث في تطور الجنين لأن هذه التطورات لم تُكتشف إلا في الجزء الأخير من القرن العشرين، وأريد أن أؤكد على أن كل شيء قرأته في القرآن الكريم عن نشأة الجنين وتطوره في داخل الرحم ينطبق على كل ما أعرفه كعالم من علماء الأجنة البارزين»^(٢).

الأستاذ الدكتور، كيث مور (Keith Moore)

أستاذ علم التشريح وعلم الأجنة في جامعة تورنتو بكندا

* «بالنظر إلى مستوى المعرفة في أيام محمد فإنه لا يمكن تصوُّر الحقائق العلمية التي وردت في القرآن على أنها من تأليفٍ بشريٍّ. لذا فمن الإنصاف تمامًا أن لا يُنظر فقط إلى القرآن على أنه التنزيل الإلهي فحسب بل يجب أن تُعطى له منزلة خاصة جدًا للأصالة

(١) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (٢٦/٢٨).

(٢) قال ذلك في مؤتمر الإعجاز العلمي الأول للقرآن الكريم والسنة المطهرة والذي عقد في القاهرة عام ١٩٨٦. وقد أوضح شكل العلقه والمضغة ومراحل الخلق المذكورة في القرآن، وأضاف طبعة من كتابه الذي يدرس في أكابر الجامعات - سماه "Developing Human with Islamic Addition" (تطور الإنسان بإضافة إسلامية)، والذي تُرجم إلى ثمان لغات.

راجع مقال: "Western Scholars Play Key Role In Touting 'Science' of the Quran" "العلماء الغربيون يلعبون دورًا هامًا في الترويج لـ"علوم" القرآن"، لدانييل جولدن، والذي نُشر بجريدة (وول ستريت جورنال الأمريكية The Wall Street Journal) بتاريخ ٢٣ يناير ٢٠٠٢.

التي تقدمها المعطيات العلمية التي وردت فيه والتي إذا ما دُرِسَت اليوم تبدو وكأنها تتحدى تفسير البشر»^(١).

الجراح الفرنسي موريس بوكاي

* «إنني أؤمن أن كل شيء ذُكِرَ في القرآن منذ ١٤٠٠ سنة لا بد أن يكون صحيحاً، ويمكن إثباته بالوسائل العلمية، وحيث إن النبي ﷺ لم يكن يستطيع القراءة والكتابة فلا بد أن محمداً ﷺ رسولٌ جاء بهذه الحقيقة، لقد بُعِثَ هذا عن طريق وَحْيٍ من خالقٍ عليم بكل شيء، هذا الخالق لا بد أن يكون هو الله، ولذلك فإنني أعتقد أنه حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»^(٢).

البروفسور تاجاتات تاجاسون،

عميد كلية الطب بجامعة شاينج ماي بتايلاند.

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، لموريس بوكاي (ص ٢٢٢).

(٢) مجلة الإعجاز العلمي، الصادرة عن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، العدد الثاني.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:

١٠٢). ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١). ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾. (الأحزاب: ٧٠-٧١).

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

لقد أرسل الله ﷻ نبينا محمداً ﷺ إلى الناس كافة على اختلاف عصورهم وثقافتهم، ومداركهم وأيديه بيِّنات متنوعة تتناسب مع جميع من أرسل إليهم إلى يوم القيامة؛ فمعجزة الفصاحة في كتاب الله أخضعت فصحاء العرب، ومعجزة البشارات أقامت الدليل لأهل الكتاب على صدق رسول الله ﷺ، ومعجزة الخوارق أرغمت الكافرين المعاندين وأوضحت لهم حجة النبي ﷺ الساطعة. ومعجزة الإخبار بالغيب تجلت ولا تزال تتجلى، وتتحقق على مر القرون والعصور.

ومن الإخبار بالغيب ما تجلّى في عصرنا من حقائق أخبر عنها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، واعترف بها أهل الاختصاصات الكونية العلمية الدقيقة في عصرنا ليكون ذلك دليلاً لكل عاقل في عصرنا على أن هذا القرآن نزل من عند الله، وأن العلامة الإلهية الشاهدة بأنه من الله هي العلم الذي تحمله الآيات، وتجليه الاكتشافات

العلمية الدقيقة بعد رحلة طويلة من البحث، والدراسة، وباستخدام أدق الآلات التي لم تُصنع إلا في عصر الثورة الصناعية الحاضرة.

إن البشرية كلها في زمن النبي ﷺ لم تكن تعلم تلك الأسرار، بل كان يَغْلِبُ على تفكيرها الأسطورة والخرافة، لكن القرآن الكريم أوقفهم على الحقائق؛ لأن القرآن الكريم لو كان من عند النبي محمد ﷺ وهو مملوء بالوصف لمظاهر الكون: الأرض، السماء، الجبال، البحار، الأنهار، الشمس، القمر، النبات، الحيوان، الإنسان، الرياح، الأمطار، وغير ذلك؛ فإن حديثه عن هذه المظاهر الكونية سيعكس لنا علم النبي محمد ﷺ وثقافته عن المخلوقات وأسرارها كما يعكس لنا علم مجتمعه وبيئته وعلوم عصره في ذلك المجال، وهي علوم غلبت عليها السذاجة والخرافة والأسطورة فكان ينبغي أن نجد القرآن عندنا مملوءاً بالخرافة والأسطورة والخبر الساذج عند حديثه عن الكون وأسراره، كما هو شأن كل الكتب التي دُوِّنت في تلك الأزمنة بما فيها الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى التي طرأ عليهما التحريف (التوراة والإنجيل).

هذا إذا كان القرآن من عند محمد ﷺ، أما إذا كان القرآن من عند الله ﷻ؛ فسنراه في حديثه عن المخلوقات وأسرارها يسبق مقررات العلوم الحديثة، وهذه الاكتشافات العلمية تلهث وراء القرآن، فتقرر ما فيه من حقائق وتؤكد ما فيه من مقررات في شتى المجالات والله ﷻ وعد بذلك، قَالَ تَعَالَى: ﴿سَرِيهَمٌ أَيْتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥٣).

ويمكن تلخيص الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في كلمة واحدة: إن العلم الحديث قد استطاع أن يُحْطَىٰ كُلُّ تَفْسِيرٍ لِلْكَوْنِ قَالَهُ الْعُلَمَاءُ قَبْلَ قَرْنٍ وَاحِدٍ مِنَ الزَّمَانِ ولكن العلم الحديث لم يستطع أن يُحْطَىٰ آيَةً وَاحِدَةً مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

فما سرُّ أن يقف العلم هذا الموقف من القرآن.

إنَّ الإجابة على هذا السؤال تفرض واحداً من أمرين:

- إما أن يكون محمد ﷺ هو الذي خلق هذا الكون وهو يتكلم عن شيء صنعه بيده، وهذا رأى باطل، بل مستحيل.

- وإما أن يكون خالق الكون هو الذي علّم محمدًا ﷺ هذا القرآن، فالقرآن منزل من عند الله.

فالقرآن الكريم يمكن اعتباره معجزة علمية من ناحيتين:

- عدم تناقضه مع معطيات العلم التي هي حقائق على الرغم من كونه يتناول إلى العديد من القضايا التي لها صلة بعلوم مختلفة.
- توافقه مع معطيات العلم في الكثير من المسائل التي هي من اختصاص القرون الأخيرة، والتي هي قرون الانفجار المعرفي.

إنّ قضية عدم التناقض هي الأهم في مسألة الإعجاز العلمي، لأنّه من غير المألوف إطلاقاً أن لا يتناقض كتاب يرجع إلى ما قبل ١٤٠٠ سنة مع معطيات العلم المعاصر. فكيف إذا عرفنا أنّ القرآن يتحدث بكثافة حول قضايا كثيرة تنتمي إلى فروع العلوم المختلفة!!

ويزداد الأمر إعجازاً عندما نعلم أنّ الرسول ﷺ نشأ وترعرع أمياً ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ، بِيَمِينِكَ إِذًا لِآزْتَابِ الْمُبْتَلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾** (العنكبوت: ٤٨ - ٤٩). وقد عاش ﷺ في مجتمع تحيط به ظلمات ثلاث:

- ١- **ظلمة أمية العصر:** حيث إنّ الحضارات البشرية كانت في حالة من الركود والتراجع الفكري والحضاري لأكثر من قرنين سابقين على زمن البعثة.
- ٢- **ظلمة أمية المجتمع:** فلم يشهد المجتمع المكي وما حوله نهوضاً حضارياً. وكانت الأمية هي الظاهرة السائدة، ومعرفة الكتابة هي الشذوذ. ومن ينظر إلى بساطة ببيان الكعبة يدرك ذلك.
- ٣- **ظلمة فقدان المعلم:** فلم تعرف مكة المدارس.

كيف يمكن لبشر، بعد كل هذه الظلمات، أن يتكلم في فروع العلوم المختلفة، ثم هو لا يتناقض في مسألة واحدة، على الرغم من مضي ١٤٠٠ سنة، وعلى الرغم من النهوض العلمي الهائل في العصور الأخيرة؟!

المقصود بعدم التناقض:

نُقل القرآن الكريم إلينا بالتواتر، أي أنه قطعي الثبوت إلى الرسول ﷺ وفي القرآن الكريم ألفاظ لا تحتمل أكثر من معنى، مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٦٣)؛ فكلمة ﴿وَاحِدٌ﴾ لا تحتمل أكثر من معنى، أي أنها قطعية الدلالة. وقد سمى البعض ما يثبت بقرآن لا يحتمل أكثر من معنى حقيقة قرآنية. أما الحقيقة العلمية فهي القانون الذي أثبت العلم وأقام عليه الأدلة القطعية.

فعندما يُقال: لا تناقض بين القرآن الكريم ومعطيات العلم فإن المقصود بذلك أن لا تناقض بين حقيقة قرآنية وحقيقة علمية. وهذا يعني إمكانية حصول تناقض بين نظرية علمية وحقيقة قرآنية، أو حقيقة علمية وقرآن يحتمل أكثر من معنى ويكون التناقض مع أحد المعاني المحتملة.

لقد حاول الطبيب الفرنسي المشهور موريس بوكاي أن يكتشف تناقضاً بين حقائق العلم وحقائق القرآن الكريم فلم يستطع. وقد أشار بوكاي إلى ذلك في كتابه "التوراة والإنجيل والقرآن والعلم".

فكيف يمكن لبشر عاش قبل ١٤٠٠ سنة أن يتحدث في قضايا تمس شتى العلوم ثم لا يتناقض في مسألة واحدة، على الرغم من التباين الهائل بين المعطيات العلمية للعصور الحديثة ومعطيات العصور القديمة؟! أليس هذا خرقاً للمألوف والعادة، وهل نجد في تاريخ البشرية مثلاً على ذلك غير القرآن الكريم؟!

توافق ليس من معطيات العصور القديمة:

بعد الحديث عن عدم التناقض يأتي الحديث عن التوافق بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية. وحتى يكون التوافق إعجازاً لا بد أن تكون المسائل المطروحة تتعلق بعلوم هي من اختصاص العلم المعاصر، أي العلوم التي نعلم تماماً أنها معطيات

العصور الحديثة ولا يسهل الزعم بإمكانية توصل الإنسان إليها في الماضي.

فعلى سبيل المثال، لو أخبرَ الرسول ﷺ أن نبتة معينة تعالج مرضًا معينًا، فإن ذلك لا يُعتبر من باب الإعجاز العلمي، لاحتمال أن يكون البشر قد توصلوا إلى ذلك من خلال التجربة.

أما التفصيل في الحديث حول تطور الجنين في رحم أمه فإن ذلك من باب الإعجاز، لأن معرفة مثل هذا الأمر يحتاج أولاً إلى اكتشاف المجاهر، ثم إلى اكتشاف الأشعة السينية والموجات فوق الصوتية... الخ، وذلك كله لم يكن متيسراً للبشر قديماً. وعندما تكثر الأمثلة المتعلقة بالتوافقات المتنوعة، والمنتمة لأكثر من فرع من فروع العلم، يصبح الأمر أشد إعجازاً. وبذلك يحصل التكامل المطلوب بين مبدأ عدم التناقض ومبدأ التوافق.

ولكن من الملاحظ أن بعض من يكتبون في الإعجاز العلمي، يعمدون إلى التوسع المؤدّي إلى التعسّف وتحميل النصوص ما لا تحتل، رغبةً منهم في جذب الناس وتقريبهم إلى الدين.

وهذا مسلك ياباه الدين الحنيف، وهو بناءً على أسس هشة غير متينة. من هنا ينبغي التنبه إلى ذلك والتدقيق والتمحيص قبل إصدار الحكم بوجود الإعجاز العلمي. وقد كان الإعجاز العلمي بوابة لمئات بل آلاف من الغربيين وخاصة العلماء منهم لدخول الإسلام. ولكن منه ما هو حق، ومنه ما هو باطل، ومنه ما هو كلام مشكوك فيه، أما ما هو حق فنقبله، وأما ما هو باطل فنرفضه، وأما ما هو مشكوك فيه فإذا كانت هذه الأشياء اكتشافات علمية إذا صدّقوا فيها فهي صحيحة.

وهذا الكتاب محاولة لجمع وتصنيف ما كُتِب في الإعجاز في القرآن الكريم والسنة النبوية^(١)، وإعادة تصنيف تلك الكتابات كما يلي:

- القرآن الكريم المعجزة الخالدة.
- الإعجاز التأثري للقرآن.
- الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.
- الإعجاز الغيبي في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.
- الإعجاز العلمي ضوابط ومحاذير.
- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.
- الإعجاز العلمي في السنة الصحيحة.
- بحوث في حاجة إلى مزيد من التأصيل والدراسة.
- أخطاء في الإعجاز العلمي.
- أكاذيب في الإعجاز العلمي.

أسأل الله ﷻ أن يجعل هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين. وفق الله الجميع لما يحب ويرضى. وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه - سيدنا محمد - وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

شحاتة محمد صقر

sakrmhma@yahoo.com

(١) وهذه المحاولة قد تحتاج إلى تعديل، والدين النصيحة، فإن وجد أهل العلم بها أخطاء فعليهم ألا يخلوا بإرسال الصواب فيها على البريد الإلكتروني للمؤلف sakrmhma@yahoo.com، وإن شاء الله يتم تصويب هذه الأخطاء في طبعة لاحقة.

الفَصِيحُ الْأَوَّلُ
القرآن الكريم
المعجزة الخالدة

أَشْبَهْنَا مَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْبَهْنَا مَنْ لَا نَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ

قَالَ تَعَالَى:

﴿سَأُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥٣).

آيات الأنبياء

إنه ما من نبي إلا وكانت له آية تدل على صدقه في كونه مرسلًا من ربِّ العالمين، ويدل على ذلك قول النبي ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

لكن هذا لا يلزم منه أن تكون آيات الأنبياء عليهم السلام قد حُكيت لنا، فنحن لا نعرف آيات يونس عليه السلام، ولا سليمان عليه السلام، ولا يحيى عليه السلام، ولا إدريس عليه السلام، وعدم معرفتنا بها لا يعني عدم وجودها، بل نؤمن بوجودها بدلالة الحديث النبوي.

والأنبياء عليهم السلام تكون لهم أكثر من آية، وتتمايز هذه الآيات في عظمتها، لذا لا يلزم أن تكون كل آية من آياتهم مما برع فيه أقوامهم، وإنما يقال: مما يدركه أقوامهم، فعيسى عليه السلام كان يحيي الموتى بإذن الله، ويبرئ الأكمه بإذن الله، وكذلك كان يخبر قومه بما يدخرونه في بيوتهم، فهل برع القوم في كل هذه الأمور؟! (١)

وكذا نبينا محمد ﷺ؛ كانت أعظم آياته القرآن الكريم، وكان من آياته انشقاق القمر، والإسراء إلى بيت المقدس، والمعراج إلى السماء، وغيرها كثير، فهل برع العرب في كل موضوع هذه الآيات؟!

(١) يذكر بعض العلماء أن قوم عيسى عليه السلام قد برعوا في الطب، وليس لهذه المعلومة أصل صحيح، فقومه هم اليهود، ولم يشتهر اليهود بالطب، ولعل قولهم هذا كان نتيجة لمقدمة عقلية (أي: أن كل نبي يأتي بمعجزة من جنس ما برع فيه قومه)، وكانت معجزة عيسى عليه السلام تتعلق بإبراء المرضى وإحياء الموتى، فظنوا في قوم عيسى عليه السلام معرفة الطب والعناية به، وإلا فما الذي برع فيه قوم عيسى عليه السلام لما قال لهم إنه يُخبرهم بما يدخرون في بيوتهم؟!

لذا فإن الأصوب أن يُقال: إن مقام النظر أن تكون الآية مما يدركها قوم النبي سواء برعوا فيها أو لم يرعوا، تحدّى بها النبي، أو لم يتحدّ بها، عارضها قومه أو لم يعارضوها، كانت ابتداءً أو كانت بطلب من القوم.

وقد شاع تسمية آيات الأنبياء ﷺ بالمعجزات، حتى غلب لفظ المعجزة على لفظ الآية في آيات الأنبياء، والوارد في القرآن تسميتها بالآية والبرهان والسلطان والبيّنة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيَّضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ (طه: ٢٢)، وقوله تعالى: ﴿أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيَّضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِٖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ (القصص: ٣٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (إبراهيم: ١٠ - ١١).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثُفٌ مِّنْ رَبِّكُمْ هَدِيَهُ نَاقَهُ اللَّهُ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ (الأعراف: ٧٣).

والآية: العلامة الدالة على صدق الرسول ﷺ بأنه مُرسل من ربه، وهذا المصطلح هو الغالب في القرآن والسنة من بين المصطلحات الأخرى التي جاءت فيها،

وبقي هذا المصطلح في كلام الصحابة والتابعين وأتباعهم^(١)، حتى برز أهل الجدل، ودخلوا في جدالهم فيما بينهم أو مع بعض الزنادقة الذين يطعنون في الإسلام، وقد ينتسبون إليهم أحياناً؛ فلما برز هؤلاء ظهر عندهم الحديث عن (المعجزة)، وكانت كشأن غيرها من المصطلحات الحادثة البعيدة عن مصطلحات الكتاب والسنة، لكن قدر الله لها الشيعوع والذبيوع.

ولو وازنت بين مصطلح القرآن والسنة (الآية)، وهذا المصطلح الحادث (المعجزة) لظهر لك أن مصطلح القرآن والسنة لا يحتاج إلى تلك الشروط التي عرّف بها هؤلاء مصطلح المعجزة؛ لأن الآية هي العلامة الدالة على صدق النبي، وهي مستلزمة لذلك إذا نطق بها، وعلى هذا جميع آيات الأنبياء ﷺ. أما مصطلح المعجزة، فاحتاج من يقول بها إلى تقييدات لها سمّوها (شروط المعجزة)، وقد بُنيت هذه الشروط شيئاً فشيئاً حتى تكاملت إلى سبعة شروط عند المتأخرين، وما دعاهم لذلك إلا الحرص على عدم انخرام التعريف الذي اختاروه لآيات الأنبياء وسمّوه بالمعجزات.

وبما أن الأنبياء ﷺ ليست لهم معجزة واحدة، فإن ما يذكره بعض العلماء من شروط للمعجزة فإنها لا تتناسب مع معجزات الأنبياء، ومن أهم الشروط التي ذكروها: أن المعجزة تكون مقرونة بالتحدي، وهذا الشرط لا يتناسب مع كثير من معجزاتهم، بل إنها كلها - إلا القرآن - لم يتحدّ بها، فبعضها عارضها الكفار ظناً منهم أنه بمقدورهم الغلبة على النبي ﷺ كحال السحرة مع موسى ﷺ، وبعضها طلبها المشركون آية للتصديق، ولم يتحدّهم بها النبي ﷺ؛ كانشقاق القمر، وبعضها حدث

(١) لماذا لم يتكلم الصحابة والتابعون وأتباعهم عن (المعجزة وإعجاز القرآن) كما هو الحال عند من بعدهم؟ الذي يظهر أن الأمر مرتبط بالحاجة، فإعجاز القرآن كان مستقرّاً في أذهانهم، ولم يكن في عصرهم من يشكّ في هذا أو يتكلم فيه؛ لذا لم تقع الحاجة إلى الكلام المسهب فيه، واقتصر الأمر على تفسير الآيات المتعلقة بالمعجزات من جهة بيان المعاني فحسب.

بين قوم مؤمنين؛ كانبجاس الماء لموسى عليه السلام، وما كان كذلك، فليس مقامه مقام التحدي، وبعضها حدث للنبي صلى الله عليه وآله قبل نبوته؛ كشق الصدر الذي كان له قبل بعثته.

ومن هنا تعلم أن اشتراط التحدي في تسمية المعجزة ليس بسديد، وإنما الذي دعا إليه هو حصر الحديث عن آيات الأنبياء بالآية العظمى لبنينا صلى الله عليه وآله، وهي القرآن الكريم الذي تحدى الله به الإنس والجن.

ومما وقع من شروط المعجزة، وليس موافقاً لواقع معجزات الأنبياء دعوى (أن تكون المعجزة مقارنةً لدعوى النبوة)، والحال أن هناك معجزات كانت قبل دعوى النبوة، وهناك معجزات حصلت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله، ومن ذلك ما ظهر بعده من معجزات غيبية أخبر عنها القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٢﴾ وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ (الجمعة: ١ - ٣)، فقد دخل غير العرب في دين الله أفواجاً بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله تصديقاً لهذا الخبر.

ومما ينبغي التنبيه له في موضوع (معجزات - آيات - الأنبياء) أنها ليست هي الطريق الوحيد لإثبات نبوة الأنبياء، لذا تجد أن أغلب الناس يؤمنون بدون أن يظهر لهم البرهان والحجة على معجزة من المعجزات، ومما يدل على ذلك الأمثلة على ذلك ما وقع من أسئلة هرقل (ملك الروم) لأبي سفيان، فقد استدل هرقل على صدق النبي صلى الله عليه وآله بأحواله، والأحوال من أعظم ما يمكن فيه معرفة الكاذب من الصادق.

وإن كثيراً من الناس آمنوا برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وآله، ولم يكن طريق إيمانهم به هو المعجزات، بل كان إيمانهم بأقل من ذلك بكثير، وهذا معروف مشتهر بين من يدعون الكفار إلى توحيد الله وتعبيد الناس له.

ومما ينبغي التنبيه له في موضوع (إعجاز القرآن) أن هذا المصطلح أحدث بلبله في التفريق بين ما تُحَدِّثُ به العرب صراحة وبين (دلائل الصدق) الأخرى التي فيها التبرهنات، ساءها العلماء (أنواع الإعجاز القرآني)؛ كالإخبار بالغيوب، فظنَّ بعض الناس أنها

داخلة في التحدي، والصحيح أنها دلائل صدق، لكنها ليست مما تُحدى الله به الإنس والجن.

وأوضح الأدلة على ذلك أن الله ﷻ قد تحدّاهم بأن يأتوا بسورة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٣). وإذا جمعت الوجوه التي حُكيت في أنواع الإعجاز وجدت أنها لا تكون في كل سورة، بل تتخلف في كثير من السور، فالذي ينتظم في السورة ولا ينخرم هو التحدي بالنظم والبيان دون سائر الأنواع المُقحمة في الإعجاز القرآني. فأتت لا تجد إعجازًا (غيبياً) في كل سورة، ولا تجد إعجازًا (علمياً) في كل سورة، ولا تجد إعجازًا (تشريعياً) في كل سورة، لكن لا يمكن أن تخلو سورة من الإعجاز الكائن في النظم والبيان العربي.

فالذي يوجد في كل سورة بلا استثناء هو الوجه المتحدى به، وهو ما يتعلق بالنظم العربي لهذا القرآن (لغةً وبلاغةً وأسلوباً) بأي اصطلاح اصطلاح عليه العلماء؛ كقول بعضهم: الإعجاز البلاغي، وقول آخرين: الإعجاز البياني... إلخ، فإن مرجعها إلى النظم العربي المتميز لهذا القرآن الكريم.

وليس المراد في نقد مصطلح (المعجزة) التخلي عن هذا المصطلح الذي توارد عليه العلماء جيلاً بعد جيل، وإنما المراد تصحيح بعض ما وقع في هذا الموضوع، والاجتهاد في ردّ تعريف المعجزة إلى مصطلح الكتاب والسنة قدر الطاقة.

ويمكن تعريف المعجزة بالآتي: آية النبي المختصة به، الخارقة للعادة، التي لا يقدر الخلق على الإتيان بمثلهما، الدالة على صدق النبي تارة، وعلى غير ذلك تارة.

من دلائل نبوة النبي ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ:

إن المسلم حين يؤمن بنبوة النبي ﷺ إنما يؤمن بعقيدة راسخة رسوخ الجبال الرواسي، ورسوؤها مصدره أنها عقيدة قامت على العلم والدليل والبرهان، ودلائل النبوة الشاهدة بنبوة نبينا ﷺ متنوعة وكثيرة، ويجمعها أقسام ستة:

الأول: الغيوب التي أخبر عنها النبي ﷺ وتحققت حال حياته أو بعد وفاته كما أخبر عنها، ومن هذا النوع أيضًا ما أخبر به ﷺ من الإعجاز العلمي الذي شهد بصحته العلم التجريبي الحديث.

الثاني: المعجزات الحسية التي وهبها الله للنبي ﷺ كتكثير الطعام وشفاء المرضى وانشقاق القمر.

الثالث: الدلائل المعنوية، كاستجابة الله ﷻ دعاءه ﷺ، وعصمته له من القتل، وانتشار رسالته ﷺ، فهذا النوع من الدلائل يدل على تأييد الله ﷻ له ومعيته لشخصه ثم لدعوته ودينه، ولا يؤيد الله دعيًا يفترى عليه الكذب بمثل هذا.

وأما رابع أنواع دلائل نبوته ﷺ فهو أعظمها وأدومها، إنه القرآن الكريم معجزة الله التي لا تُبليها السُّنُونُ ولا القرون، هذا الكتاب معجزة خالدة ودليل باهر بما أودعه الله من أنواع الإعجاز العلمي والتشريعي والبياني، وغيرها من وجوه الإعجاز.

وخامس أنواع دلائل النبوة إخبارُ النبوات السابقة وتبشيرها بمقدمه ﷺ، فهو النبي الذي أخذ الله الميثاق على الأنبياء أن يؤمنوا به وينصروه حال بعثته، قَالَ تَعَالَى:
﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٨١).

وأما سادس أنواع دلائل النبوة فأخلاق النبي ﷺ وأحواله الشخصية الدالة على كماله ونبوته، إذ لم تجتمع فيه هذه الصفات وتلك الكلمات إلا من تأديب الله له، فقد أدبه فأحسن تأديبه.

إعجاز القرآن

القرآن الكريم كتاب مُعْجَزٌ ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢) أعجزَ العربَ ببلاغته وبيانه الشامل للفظ والتركيب والمعنى، وقد اعتنى علماء المسلمين بإعجاز القرآن الكريم فألفوا رسائل وكتبًا كثيرة في ذلك الوقت، كما كتب فيه المعاصرون رسائل ومؤلفات قيِّمةً أيضًا وإن كان الجانب الأبرز وقت نزول القرآن هو إعجازه البياني، إلا أن إعجاز القرآن يشمل جوانب عديدة. وقد تحدى أن الرسول ﷺ العرب بالقرآن على مراحل ثلاثة:

١- تحداهم بالقرآن كله، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ قُلْ لِيَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨).

٢ - ثم تحداهم القرآن بعشر سور من القرآن؛ وذلك في قول الله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَفْتَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَاَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (هود: ١٣، ١٤).

٣ - ثم تحداهم بسورة واحدة من القرآن في قول الله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَفْتَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (يونس: ٣٨)، وقول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣).

ومع صدق هذا التحدي عجزَ العربُ عن تحدي القرآن، وقد كانت "العربية" في ريعان شبابها وقوتها وإلى اليوم وحتى آخر الزمان. إن إعجاز القرآن من الأدلة على صدقه، وأنه من عند الله تعالى حقًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ

اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴿ (النساء: ٨٢).

إن من المعلوم والثابت الذي يُدْعَن له كل منصف ويصدق به كل عاقل أن القرآن الكريم فيه من الاعجاز العظيم ما يدل على أنه من عند الله ﷻ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣).

وجوه إعجاز القرآن:

القرآن مُعْجِزٌ في ألفاظه وأسلوبه وفي بيانه ونظمه وفي تشريعاته وأحكامه الرامية لتكوين مجتمع إنساني مثالي واقعي، كما أنه مُعْجِزٌ فيما احتوى من علوم ومعارف لم يجمعها كتاب قبله ولا بعده، وتحققت باكتشافات العلماء لبعضها في العصور المتأخرة كحقائق ثابتة. وقد اشتهر في كتب علوم القرآن من وجوه الإعجاز اللغوي.

إن القرآن الذي عجز العرب عن معارضته لم يخرج عن سنن كلامهم ألفاظاً وحروفاً تركيباً وأسلوباً، ولكنه في اتساق حروفه وطلاوة عبارته وحلاوة أسلوبه وجرس آياته ومراعاة مقتضيات الحال في ألوان البيان في الجمل الاسمية والفعلية، وفي النفي والإثبات، وفي الذكر والحذف، وفي التعريف والتنكير، وفي التقديم والتأخير، الحقيقة والمجاز، وفي الإطناب والإيجاز وفي العموم والخصوص، وفي الإطلاق والتقييد، وفي النص والفحوى.

هكذا في كل ما سبق نجد القرآن هو القمة التي تعجز أمامها القدرة اللغوية لدى البشر أجمعين، وعلماء اللغة العربية هم أدرى الناس بذلك وهم يعلمون أن قريشاً الذين نزل القرآن بِلُغَتِهِمْ هم أوضح العرب لساناً وأقدرهم بياناً، بل هم حكام أسواق البلاغة والبيان في عكاظ، وذوي المجنة والمجاز، وهم من أدرك عظمة بيان القرآن، وجلال كلامه، وقد تحداهم الله أن يأتوا بمثله فلم يقدرُوا على ذلك.

إنّ كلام الله ﷻ ليس ككلام البشر، وأوجه إعجاز القرآن كثيرة جدا منها:

أولاً: الإعجاز اللغوي:

فهو في أعلى طبقات البلاغة والفصاحة التي لا يأتي بمثلها بشرٌ ولهذا كان فيه تحدٍ لكفار قريش. فالقرآن الكريم فيه القمة في فصاحة الألفاظ وفي البلاغة، فتركيب الكلام والآيات وتركيب الجمل في الآية الواحدة يدل على أنه الغاية في البيان، ولا يمكن للجن والإنس لو اجتمعوا أن يكونوا دائماً على أعلى مستوى في هذا النظم. قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (الإسراء: ٨٨).

ثانياً: الإعجاز التشريعي:

عرفت البشرية في عصور التاريخ ألواناً من المذاهب والنظريات، والنظم والتشريعات التي تستهدف سعادة الفرد في مجتمع فاضل، وكتب الكثير من الفلاسفة عن المدينة الفاضلة، ولكن واحداً من تلك المذاهب لم يبلغ من الروعة والجلال مبلغ القرآن في إعجازه التشريعي؛ فهو يبدأ بتربية الفرد حيث يحرر وجدانه بعقيدة التوحيد، ويأمر بأداء العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج، ويدعوه إلى الأخلاق الحسنة كالإيثار والجلود، والكرم، والصبر، والأمانة، ويغرس في نفسه المسؤولية الفردية.

وينتقل القرآن إلى بناء الأسرة؛ لأنها نواة المجتمع فيشرع الزواج ويقيم رباط الأسرة على الود والرحمة، والسكن النفسي، والعشرة بالمعروف ومراعاة خصائص الرجل وخصائص المرأة.

ويقرر القرآن كيفية قيام الدولة التي تسود المجتمع، وصفات حكومتها فهي حكومة تقوم على الشورى. وهي حكومة تقوم على العدل المطلق في نطاق القدرة البشرية. والتشريع في الحكومة المسلمة ليس متروكاً للناس، وإنما هو مقرر من الله ﷻ في القرآن والسنة النبوية المطهرة.

والقرآن يقرّر صيانة الضرورات الخمس للحياة الإنسانية، إذ يستحيل قيام كيان اجتماعي يسوده العدل والأمن النفسي والاجتماعي إلا بالمحافظة على الدين، والنفس، والعرض والمال والعقل.

ويقرر القرآن أيضًا العلاقات الدولية في الحرب والسلم بين المسلمين وجيرانهم، أو معاهدتهم، وهي أرفع معاملة عُرِفَتْ في عصور الحضارة الإنسانية، وبهذه التشريعات أخرج القرآن خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله وَعَلَيْكُمْ.

فالقرآن مُعْجَزٌ في تنظيمه لأحوال البشر في جانب العقائد والعبادات والأخلاق، وفي تنظيمه لجميع مصالح الأفراد والمجتمعات والسياسات والدول؛ فقد نظم الإسلام حياة الإنسان في نفسه، ومع غيره؛ فهناك آداب الزوجية، وحقوق الوالدين والأبناء والأصدقاء والجيران، وولاية الأمر، والمجتمع، والمسلمين بعامّة، ونظم العلاقة بغير المسلمين.

ثالثًا: الإعجاز التأثري:

القرآن له سلطان على النفوس، وليس هناك من كلام البشر ما له سلطان على النفوس في كل الكلام، ولكن القرآن له سلطان على النفوس؛ لأنه كلام الله وَعَلَيْكُمْ. وهذا القرآن سببٌ عظيمٌ جدا للتأثر كثير من الكفرة بالإسلام.

عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ أَمْ خَلِقُوا مِنْ عَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ ﴾ (الطور: ٣٥ - ٣٧) قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ، وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِي « (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ) ».

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ سُورَةَ النِّجْمِ فَسَجَدَ بِهَا فَمَا بَقِيَ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ إِلَّا سَجَدَ، فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ كَفًّا مِنْ حَصَى أَوْ تُرَابٍ، فَرَفَعَهُ إِلَى وَجْهِهِ وَقَالَ: «يَكْفِينِي هَذَا». قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ بَعْدُ قَتَلَ كَافِرًا» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

رابعاً: إعجاز الهداية:

وهي أن هذا الدين هو دين الفطرة التي فطر الناس عليها، فإذا حلَّ في أمةٍ استوطنها؛ فصار جزءاً من كيائها، وما دخل أرضاً إلا وبقي فيها رغم ما يصيب أهلها من الابتلاء في دينهم.

خامساً: الإعجاز الغيبي:

سواء الغيب الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وهذا دليل على صدق النبي ﷺ وإعجاز القرآن؛ وهذا الدليل مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ أَنْهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران: ٤٤). وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْقِذِينَ﴾ (هود: ٤٩). وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلَزَّتْكَ الْمُبْطَلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨ - ٤٩). فإذا كان النبي ﷺ ليس موجوداً في تلك الأمكنة، ولا يستطيع أن يقرأ ولا يكتب، دل هذا قطعاً أن هذه الأخبار إنما هي من عند الله ﷻ، الذي لا تخفى عليه خافية.

ومن إخباره بالغيب المستقبل؛ قوله تعالى: ﴿الْم ﴿١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٢-٦)، وقد تحققت غلبة الروم بعد سنوات قليلة.

سادسًا: الإعجاز العلمي:

الإعجاز العلمي هو: إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ مما يظهر صدقه فيما أخبر به عن ربه ﷻ وهو باب من أبواب الإعجاز الغيبي.

ونحن في زمان انتشر فيه سلطان العلم المادي وتباهى الإنسان بمعرفته لكثير من الأمور التي خفيت عمن قبله من الأجيال، ولكن كثيرا من هذه الأمور التي يدعي الإنسان اكتشافها ومعرفتها، نجد أن القرآن الكريم قد تحدث عنها وبينها فعلى سبيل المثال تكوين الإنسان في بطن أمه تحدثت عنه آيات كثيرة من القرآن قبل أربعة عشر قرنا من الزمان بينما لم يتعرف علماء الطب على ذلك إلا في زمن متأخر.

وقد اهتم عدد من العلماء المسلمين بهذا الشأن فأنشؤوا ما يسمى "بهيئة الإعجاز العلمي في القرآن" لبيان سبب القرآن في توضيح كثير من أمور العلم التي يدعي كثير من العلماء الماديين أنها لم تعرف إلا في هذا الزمان.

وقد ذكر الإمام السيوطي من وجوه إعجاز القرآن:

١ - حُسْنُ تَأْلِيْفِهِ وَالتَّمَامُ كَلِمِهِ وَفصاحته وبلاغته الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام وأرباب هذا الشأن.

٢ - صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومنهاج نظمها ونثرها الذي جاء عليه ووقف عليه مقاطع آياته وانتهت إليه فواصل كلماته ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له.

٣ - ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيّبات وما لم يكن فوجد كما ورد.

٤ - ما أنبأ به من أخبار القرون الماضية والشرائع السالفة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك فيورده على وجهه ويأتي به على نصه وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب.

٥- ما تضمنه من الإخبار عن الضمائر كقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلَيْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٢)، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَنْجُبُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَّالَوْهَا فَيَنْسُوا الْمَصِيرَ﴾ (المجادلة: ٨).

٦- ومنها آيات وردت بتعجيز قوم في قضايا وإعلامهم أنهم لا يفعلونها فما فعلوا ولا قدروا كقوله ﷺ في اليهود: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٩٤ - ٩٥).

٧- ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم والهيبة التي تعترهم عند سماع تلاوته.

٨- ومنها كونه آياته باقية لا يعدم ما بقيت الدنيا مع تكفُّل الله بحفظه.

٩- ومنها جمعه لعلوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب ولا أحاط بعلمها أحد في كلمات قليلة وأحرف معدودة.

الفصل الثاني
الإعجاز
التأثيري للقرآن الكريم

أشبهت إنان للإله الله أشبهت إنان محمد رسول الله

قال تعالى:

﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥٣).

الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم

الإعجاز التأثيري للقرآن: هو وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم أشار إليه السابقون، ويتمثل فيما يتركه القرآن الكريم من أثر ظاهر أو باطن على سامعه أو قارئه ولا يستطيع هذا السامع أو القارئ مقاومته ودفعه ولا يقتصر ذلك على المؤمنين به. أو هو تأثير القرآن الكريم في النفس الإنسانية عندما تسمعه، وتفاعلها معه حتى لو كانت نفسًا كافرة.

وقد أمر الله تعالى في كتابه بإسماع المشركين القرآن الكريم ليكون ذلك عونًا على دعوتهم للإسلام. **﴿قَالَ تَعَالَى: «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾** (التوبة: ٦).

وقد لاحظ كثير من علماء التفسير والقرآن والبلاغة في القديم والحديث تأثير القرآن الكريم في القلوب وأثره في النفوس فاعتبروا ذلك التأثير من وجوه إعجاز القرآن وعبروا عنه بعبارات متفاوتة.

وكان أول من اعتبر هذا التأثير القرآني وجهًا خاصًا من وجوه الإعجاز هو الإمام أبو سليمان الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨هـ، فقد نص عليه نصًا في رسالة (بيان إعجاز القرآن) فقال: «في إعجاز القرآن وجهٌ آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن، منظورًا ولا منشورًا، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق

وتغشأها الخوف والفرق (١)، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها.

فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب، أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأوّل وأن يركنوا إلى مسالمتهم، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيماناً (٢).

أثر القرآن الكريم على المؤمنين:

كلما ازداد الإنسان المؤمن من القرآن ازداد حُباً في الله ﷻ، وهذا راجع إلى الإيثار، وراجع إلى أن القرآن فيه زيادة في الهدى والشفاء للقلوب، فالأوامر والنواهي والأخبار التي في القرآن هي هدى وشفاء لما في القلوب، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ (فصلت: ٤٤). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: ٨٢). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: ٢).

وهذا سلطان خاص على الذين آمنوا في أنه يهديهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور في المسائل العلمية وفي المسائل العملية، لهذا ما تأتي فتنة ولا اشتباه إلا وعند المؤمن البصيرة لما في هذا القرآن. فالمؤمن الذي يقرأ القرآن ويعلم حدوده ويعلم معانيه عنده النور في الفصل في المسائل العلمية والعملية، وهذه لا يُلقاها إلا أهل الإيثار.

وعندما نتبّع أثر كلام الله تعالى - القرآن الكريم - فيمن سمعه وتدبّره من البشر فإننا نجد أنّ أول من يتأثر بكلامه هم من تلقّوه، وكلفهم الله ببلاغه للبشر وهم

(١) عراها: أصابها، غشيها، ألربها. وجب القلب: خفق واضطرب ورجف. فرق: فرع، جزع واشتد خوفه.

(٢) بيان إعجاز القرآن، ص: ٧٠.

الأنبياء والرسل، يقول الله تعالى بعد أن تحدّث عن بعض الأنبياء والرسل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝﴾ (مريم: ٥٨).

فبعد أن ذكر ﷺ هؤلاء الأنبياء المكرمين، وخواص المرسلين، وذكر فضائلهم ومراتبهم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ أي: أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق، ومنة لا تسبق، من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعمت عليهم، وأن من أطاع الله، كان ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصّٰدِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩).

وأن بعضهم ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: من ذريته ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ أي ومن ذرية إبراهيم، ومن ذرية يعقوب، فهذه خير بيوت العالم، اصطفاهم الله، واختارهم، واجتباهم ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾.

وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صما وعميانا.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ دلالة على أن آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة.

وجل في القلوب:

لقد حاز المؤمنون عند ربهم درجة عالية رقيقة لتأثرهم بالقرآن الكريم، تأثراً عملياً صادقاً، له نتائجه في واقع حياتهم وحياة مجتمعاتهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿الأنفال: ٢ - ٤﴾.

لما كان الإيمان قسمين: إيماناً كاملاً يترتب عليه المدح والثناء، والفوز التام، وإيماناً دون ذلك، ذكر الإيمان الكامل فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت ورهبت، فأوجب لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم، فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلون، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم، أو وجلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون في قلوبهم على ربهم في جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدينية، ويثقون بأن الله تعالى سيفعل ذلك. والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل إلا به.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ من فرائض ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة، كحضور القلب فيها، الذي هو روح الصلاة ولبها. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ النفقات الواجبة، كالزكوات، والكفارات، والنفقة على الزوجات والأقارب، وما ملكت أيماهم، والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين اتصفوا بتلك الصفات ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده. وقدم تعالى أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها، وفيها دليل على أن الإيمان، يزيد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة وينقص

بضدها. وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه وينميه، وأن أولى ما يحصل به ذلك تدبُّر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه.

ثم ذكر ثواب المؤمنين حقاً فقال: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عالية بحسب علو أعمالهم. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعد الله لهم في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

سجود وخشوع:

ويزداد أثر القرآن في النفوس فيجعلها طيعة لأوامره، منقاداً لإشارته مستلهمة لما فيه تحشع أجسادهم في سجود، وتلهج ألسنتهم بذكر الله ﷻ، وتنفطر أقدامهم في قيام الليل والناس نيام، وتفيض أنفسهم قبل أيديهم بالإنفاق في سبيل الله. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٥ - ١٧).

ذكر ﷻ المؤمنين بآياته، ووصفهم، وما أعد لهم من الثواب، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي إيماناً حقيقياً، من يوجد منه شواهد الإيوان، وهم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ بآيات ربهم فتليت عليهم آيات القرآن، وأنتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودُعوا إلى التذكر، سمعوها فقبلوها، وانقادوا، و﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي: خاضعين لها، خضوعاً ذكر الله ﷻ، وفرح بمعرفته.

﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا بقلوبهم، ولا بأبدانهم، فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقَّوها بالقبول، والتسليم، وقابلوها بالانشراح والتسليم، وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم.

﴿ نَسْجَانِي جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَصَاحِجِ ﴾ أي: ترتفع جنوبهم، وتترعج عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو ألد عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى. ولهذا قال: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ أي: في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: جامعين بين الوصفين، خوفًا أن تُردَّ أعمالهم، وطمعًا في قبولها، خوفًا من عذاب الله، وطمعًا في ثوابه.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الرزق، قليلا كان أو كثيرا ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه، ليدل على العموم، فإنه يدخل فيه، النفقة الواجبة، كالزكوات، والكفارات، ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي، خير مطلقًا، سواء وافق غنيًا أو فقيرًا، قريبًا أو بعيدًا، ولكن الأجر يتفاوت، بتفاوت النفع، فهذا عملهم.

وأما جزاؤهم، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق النفي. أي: فلا يعلم أحد ﴿مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح السرور، واللذة والحبور^(١).

فكما صلوا في الليل، ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قشعريرة الجلود:

يقول الله تعالى عن القرآن العظيم: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ (الزمر: ٢٣).

(١) حبر الشخص: سره وكرمه ونعمه.

فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن، علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه أجمل المعاني، لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه، متشابهها في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف، بوجه من الوجوه. حتى إنه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاهه، حتى في معانيه الغامضة، ما يبهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم.

﴿ مَثَانِي ﴾ أي: تُتَنَى فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتُنَى فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته، وحُسنه، فإنه ﷺ لما علم احتياج الخلق إلى معانيه الزكية للقلوب، المكتملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب، بمنزلة الماء لسقي الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بعدَ عهدُها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنتُ وأثمرت أنواع الثمار النافعة، فكذلك القلب يحتاج دائماً إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرةً واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعاً، ولم تحصل النتيجة منه.

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثر في قلوب أولي الألباب المهتدين، فهذا قال تعالى: ﴿ نَفَسَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ لما فيه من التخويف والترهيب المزعج، ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي: عند ذكر الرجاء والترغيب، فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر.

﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿ هُدَىٰ اللَّهُ ﴾ أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم، ﴿ يَهْدِي بِهِ ﴾ أي: بسبب ذلك ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ من عباده.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي: القرآن الذي وصفناه لكم. ﴿ هُدَىٰ اللَّهُ ﴾ الذي لا طريق يوصل إلى الله إلا منه ﴿ يَهْدِي بِهِ ﴾ مَنْ يَشَاءُ ﴿ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ممن حسن قصده.

﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق للإقبال على كتابه، فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء.

فهذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار لما يفهمونه من الوعد والوعيد والتخويف والتهديد، تقشعرّ منه جلودهم من الخشية والخوف، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء، هو تلاوة الآيات وسماع أولئك، نغمات الأبيات من أصوات المغنين والمغنيات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خرّوا سجّداً وبكياً بأدب وخشية ورجاء ومحبة هؤلاء لم يكونوا عند سماع الآيات متشاغلين لاهين عنها، بل مُصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها فلذا إنما يعلمون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

الثالث: إنهم يلزمون الأدب عند سماعها فتقشعرّ جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلمون بما ليس فيهم بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة.

أمثلة على تأثير القرآن الكريم في نفوس المؤمنين:

الأمثلة على تأثير القرآن الكريم في نفوس المؤمنين عديدة، على مدار التاريخ الإسلامي، وفي مقدمة الذين أثر فيهم القرآن، من نزل على قلبه القرآن محمد ﷺ الذي كان يتأثر وهو يتلو القرآن، ويتأثر وهو يسمع القرآن، ويبدو التأثير دموغاً غزيرة تذرّفها عيناه الشريفتان.

وكان رسول الله ﷺ أوّل المتأثرين بالقرآن الكريم تأثراً باطنياً وظاهرياً وكفى سلوكه شاهداً على ذلك وبرهاناً عليه، فقد قال عبْدُ الله بنُ الشَّخِيرِ رحمته عليه: «رَأَيْتُ

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمَرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ» (رواه أحمد، والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي).

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْهِ وَهُوَ عَلَى الْمُنْبَرِ. فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُورَةِ النَّسَاءِ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤١). فَظَنَرْتُ إِلَيْهِ وَعَيْنَاهُ تَدْمَعَانِ. (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني).

ولقد أثر القرآن الكريم في نفوس الصحابة رضي الله عنهم تأثيرًا عظيمًا قادهم إلى الانتقال من الشكر والكفر والجاهلية إلى الإسلام. ومن أوضح الأمثلة على ذلك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان رقيق القلب إذا قرأ القرآن لم يملك عينيه من البكاء. (رواه البخاري ومسلم).

من مظاهر تأثير المؤمنين:

- ١- تنافسهم في حفظه وقراءته في الصلاة وفي غير الصلاة.
- ٢- عملهم به وتنفيذهم لتعاليمه في كل شأن من شؤونهم تاركين كل ما كانوا عليه مما يخالف تعاليمه، ويجافي هداياته، طيبةً بذلك نفوسهم طيبةً أجسامهم سخيةً أيديهم وأرواحهم حتى صهرهم القرآن في بوتقته وأخرجهم للعالم خلقًا آخر مستقيم العقيدة قويم العبادة طاهر العادة كريم الخلق نبيل المطمح.
- ٣- استبسالهم في نشر القرآن والدفاع عنه وعن هدايته، فأخلصوا له وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه وهو مدافع عنه، ومنهم من انتظر حتى أتاه اليقين وهو مجاهد في سبيله مُضَحِّ بنفسه ونفيسه.
- ٤- ذلك النجاح الباهر الذي أحرزه القرآن في هداية العالم، فقد وجد قبل النبي ﷺ أنبياء ومُصلِحون وعلماء ومشرِّعون وفلاسفة وأخلاقيون وحكام ومتحكمون فما تسنى لأحد من هؤلاء بل ما تسنى لجميعهم أن يُحدثوا مثل هذه النهضة الرائعة التي أحدثها النبي محمد ﷺ في العقائد والأخلاق وفي العبادات والمعاملات وفي السياسة والإدارة وفي كافة نواحي الإصلاح الإنساني.

وبسبب هذا الدستور الصالح الإلهي المصدر أحياء موات الأمة العربية في أقل من عشرين سنة، فهبوا بعد وفاته ﷺ ينقذون العالم ففتحوها ملك كسرى وقيصر، وفتحو المشرق والمغرب، وخفقت رايتهم على نصف المعمورة في أقل من قرن ونصف قرن من الزمان.

القرآن الكريم هدى وشفاء ورحمة للمؤمنين:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء: ٨٢) قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَادَانِهِمْ وَقُرْءَانٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٤). فالقرآن هدى وشفاء ورحمة للمؤمنين، فهو علاج لأمراض القلوب (الشبهات والأهواء) وأمراض الأبدان، فهو شفاء، وكلمة شفاء نكرة فهي تشمل كل أنواع الشفاء.

فعندما تسمع القرآن فهو يشفيك من الداء الذي تعاني منه نفسياً ويُقوي قدرتك على مقاومة الداء؛ ويُفجّر طاقات الشفاء الكامنة في أعماقك، وهو رحمة لك حين تتخذه منهجاً، وتطبّقه في حياتك فيمنحك مناعة تحميك من المرض، فهو طبّ علاجي وطبّ وقائي في آنٍ واحد.

والقرآن هدى للمؤمنين، يهديهم لطريق الرشد والصراط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة، ما به تحصل الهداية التامة وشفاء لهم من الأسقام البدنية، والأسقام القلبية؛ لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفى القلب.

تأثير القرآن في نفوس الكفار:

إن أحد كفار قريش - وهو الوليد بن المغيرة - لما سمع القرآن مدحه وأثنى عليه فقال: «إِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُتَمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطُمُ مَا تَحْتَهُ».

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُعِيرَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَانَتْ رَقٌّ لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: «يَا عَمُّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرُونَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا». قَالَ: «لَمْ؟». قَالَ: «لِيُعْطَوْكَه فَيَأْتِيَكَ أَيْتٌ مُحَمَّدًا لِيُتَعَرَّضَ لِمَا قَبْلَهُ». قَالَ: «قَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا».

قَالَ: «فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكَرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهِ لَهُ». قَالَ: «وَمَاذَا أَقُولُ؟ فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجَنِّ، وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَوَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُتَمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطُمُ مَا تَحْتَهُ»^(١). قَالَ: «لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ».

قَالَ: «فَدَعْنِي حَتَّى أَفَكِّرَ»، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: «هَذَا سِحْرٌ يُؤْتِرُ يَأْتِرُهُ مِنْ غَيْرِهِ فَنَزَلَتْ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾»^(٢). (رواه الحاكم في المستدرک، وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني).

فإذا كان هذا تأثير القرآن في مُشْرِكٍ حتى يستشعر هذه الطلاوة وتلك الحلاوة فكيف بمسلم عمر قلبه بالإيمان وأشرق نفسه بنور القرآن. ويروي التاريخ أن الإحساس بتأثير القرآن الكريم كان يجذب رؤساء الكفار المعاندين ليلاً لاستماع تلاوة النبي ﷺ في بيته، على ما كان من نهيهم عن سماعه وتواصيهم بذلك.

(١) (الرجز): إنشاد الشعر، وهو بحر من بحوره عند العروضيين. (أثر الحديث): ذكره ونقله عن غيره. (طلاوة/ طلاوة/ طلاوة): حُسن، وروْنق. (مُغْدِق): كثير المياه.

(٢) قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ ١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ١٢ وَبَيْنَ شُهُودًا ١٣ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَانًا عِنْدَنَا ١٦ سَأَرْهُقُهُ صِعُودًا ١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقِيلَ كَيْفَ فَذَرَّ ١٩ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ فَذَرَّ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ٢٤ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ٣٠ (المدثر: ١١ - ٣٠).

يُرَوَى أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَأَبَا سُفْيَانَ وَالْأَخْنَسَ بْنَ شَرِيْقٍ خَرَجُوا لَيْلَةً لِيَسْمَعُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فِي بَيْتِهِ، فَأَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَجْلِسًا لِيَسْتَمَعَ مِنْهُ، وَكُلُّهُمْ لَا يَعْلَمُ بِمَكَانِ صَاحِبِهِ، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا أَصْبَحُوا وَطَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ، فَتَلَاوَمُوا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «لَا تَعُودُوا فَلَوْ رَأَيْتُمْ بَعْضُ سَفَهَائِكُمْ لَأَوْقَعْتُمْ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا».

ثُمَّ انْصَرَفُوا، حَتَّى إِذَا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةَ، عَادَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إِلَى مَجْلِسِهِ، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِثْلَ مَا قَالُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ. ثُمَّ انْصَرَفُوا، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّلَاثَةَ، أَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَجْلِسَهُ، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ، فَقَالُوا: «لَا نَبْرَحُ حَتَّى نَتَعَاهَدَ أَنْ لَا نَعُودَ»، فَتَعَاهَدُوا عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ تَفَرَّقُوا.

فَلَمَّا أَصْبَحَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ أَخَذَ عَصَاهُ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ فِي بَيْتِهِ، فَقَالَ: «أَخْبِرْنِي يَا أَبَا حَنْظَلَةَ عَنْ رَأْيِكَ فِيمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ». فَقَالَ: «يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ أَشْيَاءَ أَعْرِفُهَا وَأَعْرِفُ مَا يُرَادُ بِهَا». فَقَالَ الْأَخْنَسُ: «وَأَنَا وَالَّذِي حَلَفْتُ بِهِ». ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى أَتَى أَبَا جَهْلٍ فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَيْتَهُ، فَقَالَ: «يَا أَبَا الْحَكَمِ مَا رَأَيْتُكَ فِيمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ؟». فَقَالَ: «مَاذَا سَمِعْتُ! تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشَّرَفَ؛ أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا، وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا، وَأَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا، حَتَّى إِذَا تَجَاثَيْنَا عَلَى الرُّكْبِ، وَكُنَّا كَفَرَسِيِّ رَهَانٍ، قَالُوا: مَنَّا نَبِيُّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ، فَمَتَى نُذْرِكُ هَذِهِ؟ وَاللَّهِ لَا نَسْمَعُ بِهِ أَبَدًا، وَلَا نُصَدِّقُهُ». فَقَامَ عَنْهُ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ. (رواه البيهقي في "دلائل النبوة").

تأثير القرآن في هداية غير المسلمين:

إنَّ أُمَّةً امتداد للإسلام في شتَّى بقاع المعمورة يُعَدُّ امتدادًا لِنُورِ الْقُرْآنِ وَتَأْكِيدًا عَلَى أَنَّهُ الْكِتَابُ الْحَقُّ الْمُنَزَّلُ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ. كَمَا أَنَّ هَذَا الْاِمْتِدَادَ الْإِسْلَامِيَّ الْيَوْمَ خَاصَّةً فِي دَوْلِ أَوْرُوبَا وَالْأَمْرِيكِيَّتَيْنِ وَاسْتْرَالِيَا مِنْ أَقْوَى الْأَدْلَةِ عَلَى صِلَاحِيَةِ هَذَا الْكِتَابِ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَقُدْرَتِهِ عَلَى مَخَاطَبَةِ عَقُولِ الْإِنْسَانِيَةِ فِي أَزْهَى عَصُورِ تَقَدُّمِهَا.

وقد كثرت الشهادات وفاضت الكثير من الأخبار على تأثر الكفار بالقرآن الكريم، قال المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد: «... (إننا) نجد حتى من بين المسيحيين مثل "ألفار" "Alvar" (الإسباني) الذي عُرف بتعصبه على الإسلام يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به».

ولقد أَلَفَ الدكتور مراد هوفمان سفير ألمانيا السابق بالمغرب كتاب (الإسلام كبدل)، وفيه شهادات كثيرة على إعجاز القرآن وصدقه وصدق النبي ﷺ وكمال التشريع.

آمنوا بعد سماع القرآن:

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَاتَّبَعَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ بَحْرِيٌّ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿المائدة: ٨٢ - ٨٦﴾.

فهذه فئة من الناس سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﷺ من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم ولانت قلوبهم وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثر العميق بالحق الذي سمعوا، ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذي تأثروا به هذا التأثر عند سماع القرآن، والشعور بالحق الذي يحملة والإحساس بما له من سلطان إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق، إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفاً إيجابياً صريحاً موقف القبول لهذا الحق والإيمان به والإذعان لسلطانه وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قويّة صريحة عميقة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

نموذجان لغير المسلمين المعاصرين كان القرآن الكريم سبباً في تربية وتهذيب أنفسهم، وذلك بالعودة بهم إلى رحاب التوحيد والإيمان:

الأول: محمد جون ويستر رئيس البعثة الإسلامية الإنجليزية:

وُلِدَ مسيحياً بروتستانتيًا عام ١٩٣٠م، تَحَيَّرَ في عقائد المسيحية والشيوعية، وعِنْدَمَا كان مقيمًا في أستراليا طَلَبَ نسخةً مِنَ القرآن الكريم مِنْ مكتبة سيدني العامة، وما أَنْ قرأ المقدمة لِلْمُتَرْجِمِ حَتَّى لَمَسَ تَعْصَبَهُ ضِدَّ الإسلام، فَأَغْلَقَ الْكِتَابَ وَتَرَكَه. وَبَعْدَ أسابيع كان في بيرث - غربي أستراليا - فَبَحَثَ عَنْ نسخة لِلقرآن شريطةً أَنْ يَكُونَ مُتَرْجِمًا مُسْلِمًا.

قال: «ولا أستطيع أَنْ أُعَبِّرَ في كلمات عَنْ مَدَى تَأْثِيرِي بِمُجَرَّدِ تلاوتي لِأَوَّلِ سورة الفاتحة بِآياتها السبع. ثُمَّ قرأتُ عَنْ حياة الرسول ﷺ، وَقَضَيْتُ بِضَعِ ساعاتٍ في المكتبة، في ذلك اليوم وجدتُ طَلْبَتِي وَبُغْيَتِي، ثُمَّ خرجتُ مِنَ المكتبة لِأَتناولَ فَنجانًا مِنَ القهوة، ثُمَّ وَقَعَ بصري على مسجد، فَقُلْتُ لِنَفْسِي: «قَدْ عَرَفْتُ الْحَقَّ، فعليك اتباعه على الفور»، فدخلتُ المسجدَ وَأَسْلَمْتُ».

الثاني: القس إبراهيم خليل فيلبس (إبراهيم خليل أحمد):

وُلِدَ في الإسكندرية عام ١٩١٩م نشأ نشأةً مسيحيةً ودرس بمعاهد الإرسالية الأمريكية، وحصل على دبلوم اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة، وكان راعياً لِإحدى الكنائس وأستاذًا للعقائد واللاهوت بكلية اللاهوت بمدينة أسيوط.

قال عن نفسه: «كان ذلك في إحدى الأمسيات من عام ١٩٥٥م سمعتُ القرآنَ مذاعًا بالراديو في قوله تَعَالَى: ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾ (سورة الجن: ١ - ٢).

كانت هاتان الآيتان بمثابة الشعلة التي أضاءت ذهني وقلبي للبحث عن الحقيقة، وفي تلك الأمسية عكفتُ على قراءة القرآن حتى أشرقت شمس النهار.

ثم قرأت مرة ثانية فثالثة فرابعة حتى وجدت قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

عند هذه الآية قرر أن يقوم بدراسة متحررة للكتاب المقدس، فقرر الاستقالة من عمله، وعكف على دراسة التوراة والأنجيل من عام ١٩٥٥م حتى ١٩٥٩م حتى أتاه اليقين في ٣١ مايو ١٩٦٠م فأشهر إسلامه وغير اسمه من إبراهيم خليل فيلبس إلى إبراهيم خليل أحمد، وقام بعد إسلامه بإلقاء عدد من المحاضرات في علم (الأديان المقارن) بالمساجد في مدن الإسكندرية والمحلة الكبرى وأسيوط والمنيا وسوهاج وأسوان وفي بعض كليات الجامعات المصرية، فاعتنق كثير من الشباب النصراني الإسلام عندما استبان له الحقيقة.

وفي عام ١٩٧٥م، طلب منه تقديم محاضرة بكلية أسيوط، فتكلم عن المسيح عليه السلام وعن الرسول ﷺ من خلال الأنجيل والتوراة، وكان للمحاضرة صدى واسع انتهى بإعلان ١٧ من الشبان أبناء الجامعة إسلامهم.

والتقى - مع الدكتور جميل غازي رحمه الله - ب ١٣ قسيساً عام ١٤٠١هـ بالسودان في مناظرة مفتوحة انتهت باعتناقهم الإسلام جميعاً، وهؤلاء كانوا سبب خير وهداية لغرب السودان حيث دخل الألف من الوثنيين وغيرهم دين الله على أيديهم، وله مؤلفات منها: "محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن". "المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي"، وغيرهما كثير.

أثر القرآن فيمن لا يعرفون من اللغة العربية شيئاً؛

إن القرآن الكريم كما أثر تأثيراً بليغاً في نفوس العرب كفاراً ومسلمين، وأثر في نفوس المسلمين من غير العرب، المؤملين به الخاشعين عند تلاوته، كذلك أثر في نفوس غير العرب حتى من الكفار الذين لا يعرفون من اللغة العربية شيئاً.

يحكي أحد الدعاة العرب أنه كان ضمن ستة من المسلمين على ظهر سفينة مصرية، تَخَرُّ بهم عُباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك، من بين عشرين ومائة راكب وراكبة أجنب ليس فيهم مسلم، وخطر لهم أن يقيموا صلاة الجمعة في المحيط على ظهر السفينة، وقد وافق قائد السفينة الكافر على إقامة الصلاة، وسمح لبحارة السفينة وطُهاثها وخدمها أن يصلوا معهم - ممن لا يكون منهم في وقت العمل - وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً؛ لأنها كانت المرة الأولى التي تقام فيها صلاة الجمعة على ظهر هذه السفينة.

وقام هذا الداعية بخطبة الجمعة، وإقامة الصلاة، والركاب الأجنب معظمهم متحللون يرقبون صلاتهم. وبعد الصلاة جاءهم كثيرون منهم يهتئونهم على نجاح (الْقُدَّاس)، فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتهم أنه (قُدَّاس)، فشرحوا لهم الحال، وأنه لا يُسَمَّى قُدَّاساً، وإنما هي صلاة الجمعة؛ ولكن امرأة من بين ذلك الحشد عَرَفُوا فيما بعد أنها أوروبية، كانت شديدة التأثر والانفعال، تفيض عيناها بالدمع، ولا تتمالك مشاعرها، جاءت لتسألهم عن شيء معين، وهي تبدي إعجابها بما فعلوا من نظام وخشوع.

جاءت لتسأل عن شيء معين وهي تقول: «أي لغة هذه التي كان يتحدث بها قَسِيْسُكُمْ؟»، وهي لا تتصور أن يقيم مثل هذا إلا قَسِيْس، فصَحَّحوا لها هذا الفهم وأجابوها بأن هذا ليس قسيساً بل إمامٌ مسلمٌ. قالت: «إن اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع عجيب، وإن كنت لم أفهم منها شيئاً!».

ثم كانت المفاجأة الحقيقية لهم وهي تقول: «ولكن ليس هذا هو الموضوع الذي أريد أن أسأل عنه! إن الموضوع الذي لفت انتباهي وأثر في حسي، وانطبع في قلبي هو:

أن الإمام - بعد أن تصحّحت الكلمة، وصحّحت - كانت تردُّ في أثناء كلامه فقرات من نوع آخر، يختلف عن بقية كلامه، نوعٌ أكثر عمقاً، وأشد إيقاعاً في النفس، إن هذه الفقرات التي كان يقولها أثناء الخطبة أحدثت في نفسي قشعريرة ورعدة، إنها شيء آخر».

وتفكروا قليلاً، ثم أدركوا ماذا تعني، إنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وأثناء الصلاة، وكانت مع ذلك مفاجأة لهم تدعو إلى الدهشة من امرأة أعجمية لا تفهم شيئاً من اللسان العربي، وتتأثر بتلك الطريقة.

أثر القرآن الكريم على المنافقين؛

لقد ترك القرآن الكريم أثره في نفوس المنافقين فصاروا يعيشون في خوف وحذر دائمين منه، لأنه يكشف عن خبيثة قلوبهم وينشر على المؤمنين ما أسرّه المنافقون وأبطونه في طوايا نفوسهم، قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِنِّي اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا فَدَّ كُفْرُكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعَدْبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (التوبة: ٦٤ - ٦٦).

إلى هذا الحد بلغ تأثير القرآن الكريم في نفوس المنافقين فهم يحذرونه حتى قبل أن ينزل، لأنهم أخفوا في قلوبهم أموراً، والقرآن سيكشفها بصدق لا مرأى فيه.

لقد تسأل المنافقون هذا السؤال العجيب الذي يتبين منه خوفهم الدائم على ما تخفيه قلوبهم أن يظهره القرآن ويكشفه يقول الله تعالى مصوراً حالهم: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٤ - ١٢٥).

فأما الذين آمنوا فقد أضيفت إلى دلائل الإيمان عندهم دلالة فزادتهم إيماناً وقد خفت قلوبهم بذكر ربهم خفقة فزادتهم إيماناً وقد استشعروا عناية ربهم بهم في إنزال

آياته عليهم فزادتهم إيماناً وأما الذين في قلوبهم مرض الذي في قلوبهم رجس من النفاق فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون، وهو نبأ من الله صادق وقضاء منه سبحانه محقق.

فأثر القرآن ومظاهر هذا التأثير واضحة في الفريقين: في المؤمن: زيادة في الإيمان واستبشار في الوجود، وفي المنافقين: زيادة في الرجس والشر والذنس، وخاتمة سيئة، وهو موت على الكفر.

فأثر القرآن مختلفٌ في الفريقين حسب نوع المتلقى وما لديه من استعدادات لاستقبال المؤثرات القرآنية أو موانع في أمراض القلوب المتنوعة، ومنها بالنسبة للتأثر بالقرآن كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ (فصلت: ٤٤). وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سيئ المزاج لو غُدِّيَ بما غُدِّيَ به السليم لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً.

تأثير القرآن الكريم على الملائكة:

ويظهر ذلك في استماعها لقراءة القرآن وتنزلها عند القراءة.

فَعَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ الْفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَتْ وَسَكَتَتِ الْفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يُحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ فَلَمَّا اجْتَرَّهُ ^(١) رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، حَتَّى مَا يَرَاهَا.

(١) أي: جرَّ أسيدُ ابنه يحيى من المكان الذي هو فيه حتى لا يطأه الفرس.

فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَقْرَأُ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، أَقْرَأُ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ»^(١)، قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَأَنْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجْتُ حَتَّى لَا أَرَاهَا»، قَالَ: «وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟»، قَالَ: لَا، قَالَ: «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَّتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ». (رواه البخاري).

ورواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مريده، إذ جالت فرسه، فقرأ، ثم جالت أخرى، فقرأ، ثم جالت أيضًا، قال أسيد: «فخشيت أن تطأ يحيى، فقممت إليها، فإذا مثل الظلّة فوق رأسي فيها أمثال السرج، عرجت في الجو حتى ما أراها، فعدوت على رسول الله ﷺ، فقلت: «يا رسول الله بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مريدي، إذ جالت فرسي»، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ ابن حضير»، فقرأت، ثم جالت أيضًا، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ ابن حضير»، فقرأت، ثم جالت أيضًا، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ ابن حضير».

فأنصرفت، وكان يحيى قريبًا منها، خشيت أن تطأه، فرأيت مثل الظلّة فيها أمثال السرج، عرجت في الجو حتى ما أراها، فقال رسول الله ﷺ: «تلك الملائكة كانت تستمع لك، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم» (رواه البخاري ومسلم).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: بينما رجل من أصحاب النبي ﷺ يقرأ سورة (الكهف)، وفرس له مربوط بشطنين^(٢) في الدار، فتغشته سحابة، فجعلت تدنو وتدنو، فجعل فرسه ينفر، فسلم، فخرج الرجل فنظر فلم ير شيئًا، وجعل فرسه ينفر،

(١) أي: كان ينبغي أن تستمر على القرآن وتعتنم ما حصل لك من نزول السكينة والملائكة وتستكثر من القراءة التي هي سبب بقائها.

(٢) شطنين: حبلين.

فَلَمَّا أَصْبَحَ؛ ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَقْرَأُ فُلَانٌ^(١)؛ فَتِلْكَ السَّكِينَةُ تَنْزَلَتْ بِالْقُرْآنِ»^(٢). (رواه البخاري ومسلم).

أثر القرآن الكريم في الجن:

كما كان للقرآن أثر بالغ وواضح على الإنس مؤمنهم وكافرهم كان له ذلك التأثير على الجن وهذا ما سجّله القرآن الكريم حيث قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنَّا مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ؛ يَعْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الأحقاف: ٢٩ - ٣٢).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ أُسْتَمَعَّ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (الجن: ١ - ٢).

أثر القرآن الكريم على الجماد:

القرآن له أثر عظيم لأنه كلام الله تعالى وهناك آيات تخبر عن أثر القرآن الكريم على الجبال لو خاطبها الله به وآيات تبيّن أثر القرآن على القلوب المؤمنة التي تحملها.

(١) أي: كان ينبغي أن تستمر على القرآن وتغنم ما حصل لك من نزول السكينة والملائكة وتستكثر من القراءة التي هي سبب بقائها.

(٢) قال النووي: «قيل في معنى السكينة هنا أشياء، المختار منها أنها شيء من مخلوقات الله تعالى فيه طمأنينة ورحمة ومعها الملائكة، والله أعلم. وفي هذا الحديث جواز رؤية آحاد الأمة الملائكة وفيه فضيلة القراءة وأنها سبب نزول الرحمة وحضور الملائكة وفيه فضيلة استماع القرآن». [شرح النووي على مسلم (٦/ ٨٢)].

أما أثر القرآن الكريم على الجبال والجوامد فيما لو خاطبها الله به ففي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَ سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ (الرعد: ٣١).

يقول تعالى مبينا فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَ﴾ من الكتب الإلهية ﴿سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ جنانا وأنهارا ﴿أَوْ كُلمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ لكان هذا القرآن. ﴿بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟ فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟

فهذا هو أثر القرآن على الجبال والأرض والموتى فيما لو خاطبها الله به وكلفها به وأمرها بتنفيذ ما فيه ولكن الله الحكيم سبحانه ما أراد ذلك، لقد شاء أن يكون القرآن خطاباً للبشر الأحياء ذوي القلوب والنفوس والمشاعر والأحاسيس فلماذا لا يتفاعلون معه؟ ولماذا لا يسعدون معه؟

وأخبرنا الله تعالى عن أثر القرآن الكريم على الجبل - فيما لو خاطبه به - فقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١).

فإن هذا القرآن لو أنزله الله ﷻ على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواضع القرآن أعظم المواضع على الإطلاق، وأوامره ونواهيها محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها.

الجبل الجامد يتأثر بالقرآن لو أنزله الله عليه، سيتصدع هذا الجبل من تأثير القرآن ويخضع هذا الجبل من خشية الله، ولكن الله تعالى ما شاء ذلك، إنما شاء إنزال القرآن على بشر وليس على جبل، فأنزله على قلب سيد الخلق محمد ﷺ وتأثر بالقرآن وتفاعل معه. وهذا القرآن خطاب للإنسان، فلماذا لا يتأثر كيانه بهذا القرآن، ولماذا لا يخضع قلبه من خشية الله منزل هذا القرآن؟

الفصل الثالث
الإعجاز التشريعي
في القرآن الكريم
والسنة النبوية الصحيحة

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ

قَالَ تَعَالَى:

﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥٣).

الشريعة الإسلامية خيرٌ كلها

نحن المسلمين على يقين من أن القرآن الكريم كلام رب العالمين، لأنه بيانٌ مُعْجِزٌ، وقد تحدى به المولى ﷺ العرب لأنه نزل بلغتهم، وقد كانوا أرباب البلاغة، وأساطين الفصاحة فعجزوا، وفضلوا أن يواجهوه بالقتال لعجزهم عن مواجهة ما تحداهم به بأن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو حتى بسورة من مثله.

ومن أوجه إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة الإعجاز في التشريعات، فإن ما اكتشفه الناس اليوم يؤكد أن التشريع الإسلامي مُعْجِزٌ ولا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثله، مما يدلّ دلالة قاطعة على أن هذا التشريع من عند الله العليم الخبير، وليس من عند النبي محمد ﷺ ولا صحابته رضي الله عنهم، لعدم مقدرتهم على معرفة وإدراك كثير من حِكَم وأسرار هذه التشريع. ويجب أن يُعلم أنه ليست هناك مقارنة بين شرع الله وشرع البشر، فالأمر كما قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرَهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا

ولكن هناك ثلة من الجهال ظنوا أنفسهم عقلاء بينما هم في الحقيقة لا يعرفون الفرق بين السيف والعصا، وإلا فالمسلم يكفيهم أن يعلم أن هذا الحكم حكم الله فلا يرد على الله ﷻ حكمه بل يسلم تسليماً.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦).

إن شريعة الله ﷻ صالحة لكل زمان ومكان ويكفي أنها من عند الله ﷻ، وهذا الأمر واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكن هناك من يتعامى عن هذه الحقيقة الواضحة؛ فهم كما قال المتنبي:

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَفْهَامِ شَيْءٌ إِذَا احتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ

إن الشريعة الإسلامية ما شرعت إلا لتحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل، أي في الدنيا والآخرة، ودرء المفسد والاضرار عنهم في العاجل والآجل أيضاً، حتى إن بعض الفقهاء قال - وقوله حق - : « إن الشريعة كلها مصالح، إما درء مفسد أو جلب مصالح».

ودرء المفسدة لا شك في أنه وجه من وجوه المصلحة؛ لأن المصلحة لها وجه إيجابي وهو جلب نفع لم يكن، ووجه سلبي وهو دفع ضرر أو مفسدة. وجميع الأحكام بلا استثناء مصالح لا يخرج منها أي حكم كان سواء أكان من أحكام الاعتقادات أو العبادات أو غير ذلك.

نعم، قد يجهل البعض تفاصيل المصلحة في حكم من الأحكام، ولكن هذا الجهل ليس بحجة على انتفاء المصلحة، فإن الإنسان قد يجهل تفاصيل منفعة دواء ولكن جهله به لا يمنع من تحقيق المصلحة فيه، فإذا كان هذا واقعياً فيما يضعه إنسان فكيف لا يكون فيما يضعه خالق الانسان؟ هذه واحدة.

والثانية أن المصلحة المقصودة في التشريع الإسلامي لا تقتصر على مصالح الدنيا وإنما تتجاوزها إلى مصالح الآخرة أي إلى إعداد الانسان للظفر بالسعادة الدائمة بالجنة.

وهنا بعض الأدلة الجزئية على هذه الحقيقة:

١- قال تعالى في تعليق رسالة نبينا محمد ﷺ: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» (الأنبياء: ١٠٧)، والرحمة تتضمن قطعاً رعاية مصالح العباد ودرء المفسد عنهم، ولا يمكن أن تكون رحمة إذا أغفلت هذه المصالح.

٢- قَالَ تَعَالَى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (البقرة: ١٧٩)، فالقصاص شرع لتحقيق هذه المصلحة وهي الحياة للناس، أي الأمن

والاستقرار والاطمئنان وحقن الدماء بزجر مَنْ تسول له نفسه الاعتداء على أرواح الناس.

٣- قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩٠ - ٩١).

فتحريم الخمر يمنع عن الناس مفسدة الصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

٤- تشريع الرخص عند وجود المشقات في تطبيق الأحكام إذا كانت هذه المشقات فوق طاقة البشر المعتادة، ومن ذلك إباحة النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها بالتهديد بالقتل ونحوه، وإباحة المحرّم عند الضرورة مثل أكل الميتة ولحم الخنزير عند التعرض للهلاك جوعاً، وإباحة الفطر في رمضان للمريض والمسافر. ولا شك أن دفع المشقة ضرب من ضروب رعاية المصلحة ودرء المفسدة عن الناس.

٥- من محاسن الشريعة الإسلامية ملاءمتها لفطرة الإنسان وتليتها لحاجاته البدنية والعقلية والروحية، فمن محاسن الشريعة أنها حرمت كل ما يضر ببدن الإنسان وعقله، ومن ذلك تحريم المسكر لضرره، وتحريم قليله الذي لا يسكر لأنه سبيل إلى تناول كثيره، ولا يمكن لكل الناس التحكم في الكمية، والتشريع يكون للجميع، إلى غير ذلك من الحكم المعلومة والمجهولة.

٦- بر الوالدين من محاسن الشريعة الإسلامية؛ ذلك أنه اعتراف بالجميل، وحفظ للفضل.

٧- ويُعدّ الوقف من محاسن الشريعة الإسلامية الغراء، حيث أثبتت الدراسات الاقتصادية أنه أنجح وسيلة لاستمرار المؤسسات العلمية والاجتماعية في أداء وظيفتها ورسالتها.

٨- من محاسن الشريعة الإسلامية، أنها لم تُحرم شيئاً إلا عوضت خيراً منه، مما يسدّ مسدّه، ويغني عنه، فالله ﷻ، لم يضيق على عباده من جانب، إلا وسّع عليهم من جانب آخر، من جنسه، فإنه - لا يُريد بعباده عتتاً، ولا إرهاقاً، بل يُريد بهم اليسر والخير

والهداية والرحمة، فقد حرم الله عباده، الاستقسام بالأزلام، وعوضهم عنه دعاء الاستخارة، حرم عليهم الزنا، وأعضهم عنه الزواج الحلال، حرم عليهم شرب المسكرات، وأعضهم عنها بالأشربة اللذيذة.

ليس في الدين حرمان، كما يتوهم الجهلة، فكل شهوة أودعها الله في الإنسان، جعل لها قناةً نظيفةً تتحرك من خلالها، وكل حاجة، ألجأ الله إليها عباده، جعل لهم أكثر من سبب لتحقيقها، فالحلال يُغني عن الحرام. وهذا من محاسن الشريعة الإسلامية حيث إن البيوت المسلمة التي بُنيت على أساس الرضا والرغبة غالبًا ما تكون أكثر استقرارًا وطمأنينةً.

٩- والإسلام بتشريعه للطلاق يكون منسجمًا مع نهج التوسط بين الإفراط والتفريط، بخلاف غيره من الشرائع، والتي منها ما تبيح الطلاق على إطلاقه بلا محاذير ولو بغير سبب، ومنها ما يجعل الزواج مؤبدًا ولا تبيح الطلاق مطلقًا كما هو الحال في الغرب حيث عمت الفوضى في الحياة الاجتماعية وشاع اتخاذ الأخدان والعشيقات، فجاء الإسلام وجعل الطلاق حاجة من حاجات البشر لا يتم اللجوء إليها إلا عند الضرورة ووجود المبرر القوي لها.

١٠- ومن محاسن الشريعة الإسلامية أن جعلت الطلاق بيد الرجل، وذلك لأن المرأة سريعة الغضب شديدة التأثر وغالبًا تدفعها طبيعتها إلى الجري وراء عواطفها بلا تروٍّ، ذلك لأنها خلقت على رقة في الطبع، وبها من الغرائز ما يصلح أن تكون مصدرًا للحنان والأومة، إذ لو جعل الطلاق بيدها - وهي على ما تقدم من رقة العاطفة وسرعة الانفعال - لانهارت كثير من العلاقات الأسرية والزوجية في لحظة طائشة وبمجرد خصام عارض وهذا لا يمنع أن تكون هنالك نساء يتصفن بالحكمة والتروي ولكن أحكام الشرع تبنى على غالب الأحوال.

١١- من محاسن الشريعة الإسلامية تحريم الكذب لما فيه من مضار ومفاسد على الفرد والمجتمع.

١٢- مِنْ مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ إِجْبَابُ الْغُسْلِ مِنَ الْمَنِيِّ دُونَ الْبَوْلِ: فَإِنَّ الْمَنِيَّ يُخْرَجُ مِنْ جَمِيعِ الْبَدَنِ، وَهَذَا سَمَّاهُ اللَّهُ ﷻ: «سَلَالَةً»؛ لِأَنَّهُ يَسِيلُ مِنْ جَمِيعِ الْبَدَنِ، وَأَمَّا الْبَوْلُ فَإِنَّهَا هُوَ فَضْلَةُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ الْمُسْتَحِيلَةِ فِي الْمَعِدَةِ وَالْمَثَانَةِ؛ فَتَأْتُرُ الْبَدْنَ بِخُرُوجِ الْمَنِيِّ أَعْظَمُ مِنْ تَأْتُرِهِ بِخُرُوجِ الْبَوْلِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْإِغْتِسَالَ مِنْ خُرُوجِ الْمَنِيِّ مِنْ أَنْفَعِ شَيْءٍ لِلْبَدَنِ وَالْقَلْبِ وَالرُّوحِ، بَلْ جَمِيعُ الْأَرْوَاحِ الْقَائِمَةِ بِالْبَدَنِ فَإِنَّهَا تَقْوَى بِالْإِغْتِسَالِ، وَالْغُسْلُ يُخْلِفُ عَلَيْهِ مَا تَحَلَّلَ مِنْهُ بِخُرُوجِ الْمَنِيِّ، وَهَذَا أَمْرٌ يُعْرَفُ بِالْحُسِّ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْجَنَابَةَ تُوجِبُ ثِقَلًا وَكَسَلًا وَالْغُسْلُ يُحْدِثُ لَهُ نَشَاطًا وَخِفَةً. وَلَوْ شَرَعَ الْإِغْتِسَالُ مِنَ الْبَوْلِ لَكَانَ فِي ذَلِكَ أَعْظَمُ حَرَجٍ وَمَشَقَّةٍ عَلَى الْأُمَّةِ تَمَنُّعُهُ حِكْمَةً اللَّهُ وَرَحْمَةً وَإِحْسَانَهُ إِلَى خَلْقِهِ.

١٣- إِنْ إِبَاحَةُ السَّلْمِ وَتَحْرِيمُ الرِّبَا مِنْ مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ الْكَامِلَةِ، وَقَدْ أَبَاحَ اللَّهُ - السَّلْمَ لِحَاجَةِ الْعِبَادِ إِلَيْهِ، وَشَرَطَ فِيهِ شُرُوطًا تُخْرِجُهُ عَنِ الْمَعَامَلَاتِ الْمَحْرَمَةِ، فَهُوَ عَقْدٌ عَلَى مَوْصُوفٍ فِي الذِّمَّةِ بِصِفَاتٍ تَمِيزُهُ وَتُبَعِّدُهُ عَنِ الْجَهَالَةِ وَالْغُرْرِ إِلَى أَجْلِ مَعْلُومٍ بِثَمَنِ مَعْجَلٍ فِي الْمَجْلِسِ، يَشْتَرِكُ فِيهِ الْبَائِعُ وَالْمَشْتَرِي فِي الْمَصْلُحَةِ الْمُرْتَبَةِ عَلَى ذَلِكَ.

فَالْبَائِعُ يَنْتَفِعُ بِالثَّمَنِ فِي تَأْمِينِ حَاجَاتِهِ الْحَاضِرَةِ وَالْمَشْتَرِي يَنْتَفِعُ بِالْمُسْلَمِ فِيهِ عِنْدَ حُلُولِهِ؛ لِأَنَّهُ اشْتَرَاهُ بِأَقْلٍ مِنْ ثَمَنِهِ عِنْدَ الْحُلُولِ وَذَلِكَ فِي الْغَالِبِ، فَحَصَلَ لِلْمَتَعَامِلِينَ فِي عَقْدِ السَّلْمِ الْفَائِدَةُ مِنْ دُونَ ضَرَرٍ وَلَا غُرْرٍ وَلَا جَهَالَةٍ وَلَا رِبَا.

أَمَّا الْمَعَامَلَاتُ الرَّبُوبِيَّةُ فَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى زِيَادَةِ مَعِينَةِ نَصِ الشَّارِعِ عَلَى تَحْرِيمِهَا فِي بَيْعِ جِنْسٍ بِجِنْسِهِ نَقْدًا أَوْ نَسِيئَةً، وَجَعَلَهُ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَلِمَا لِلْعِبَادِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَظِيمَةِ وَالْعَوَاقِبِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي مِنْهَا سَلَامَتُهُمْ مِنْ تَرَكَمِ الدِّيُونِ عَلَيْهِمْ، وَمِنْ تَعْطِيلِهِمُ الْمَشَارِيعَ النَّافِعَةَ وَالصَّنَاعَاتِ الْمَفِيدَةَ اعْتِمَادًا عَلَى فَوَائِدِ الرِّبَا.

١٤- تَعَدُّدُ الزَّوْجَاتِ مِنْ مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمِنْ رِعَايَتِهَا لِمَصَالِحِ الْمَجْتَمَعِ وَعِلَاجِ مَشْكَالَاتِهِ، وَقَدْ تَنَبَّهَ بَعْضُ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ لِهَذَا الْأَمْرِ، وَاعْتَرَفُوا بِحَسَنِ

ما جاءت به الشريعة في هذه المسألة، رغم عداوتهم لها، إقرارا بالحق واضطراراً للاعتراف به، فمن ذلك ما نقله صاحب المنار في الجزء الرابع من تفسيره صفحة (٣٦٠) عن جريدة (لندن ثروت) بقلم بعض الكاتبات ما ترجمته ملخصاً:

«لَقَدْ كَثُرَتِ الشَّارِدَاتُ مِنْ بَنَاتِنَا، وَعَمَّ الْبَلَاءُ، وَقَلَّ الْبَاحِثُونَ عَنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ، وَإِذَا كُنْتُ امْرَأَةً تَرَانِي أَنْظُرُ إِلَى هَاتِيكَ الْبَنَاتِ، وَقَلْبِي يَتَقَطَّعُ شَفَقَةً عَلَيْهِنَّ، وَحُزْنًا، وَمَاذَا عَسَى يُفِيدُهُنَّ بَنِي، وَحُزْنِي، وَتَوَجُّعِي، وَتَفْجُوعِي، وَإِنْ شَارَكَنِي فِيهِ النَّاسُ جَمِيعًا؟ لَا فَايِدَةٌ إِلَّا فِي الْعَمَلِ بِمَا يَمْنَعُ هَذِهِ الْحَالَةَ الرَّجْسَةَ.

وَلِلَّهِ دَرُّ الْعَالَمِ الْفَاضِلِ (تُومَسْ) ، فَإِنَّهُ رَأَى الدَّاءَ، وَوَصَفَ لَهُ الدَّوَاءَ الْكَافِلَ لِلشَّفَاءِ وَهُوَ (الإِبَاحَةُ لِلرَّجُلِ التَّرُوجَ بِأَكْثَرِ مِنْ وَاحِدَةٍ) ، وَهِيَهِ الْوَاسِطَةُ يَرْوُلُ الْبَلَاءُ لَا مَحَالَةَ، وَنُصِبِحُ بَنَاتِنَا رَبَّاتِ بُيُوتٍ، فَالْبَلَاءُ كُلُّ الْبَلَاءِ فِي إِجْبَارِ الرَّجُلِ الْأُورُبِّيِّ عَلَى الْاِكْتِفَاءِ بِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، فَهَذَا التَّحْدِيدُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ بَنَاتِنَا شَوَارِدَ، وَقَذَفَ بِهِنَّ إِلَى التَّمَّاسِ أَعْمَالِ الرَّجَالِ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَفَاقُمِ الشَّرِّ إِذَا لَمْ يُبَحِّحْ لِلرَّجُلِ التَّرُوجَ بِأَكْثَرِ مِنْ وَاحِدَةٍ.

أَيُّ ظَنٍّ وَخَرَصٍ يُحِيطُ بِعَدَدِ الرَّجَالِ الْمُتَزَوِّجِينَ الَّذِينَ لَهُمْ أَوْلَادٌ غَيْرُ شَرْعِيِّينَ أَصْبَحُوا كَلًّا، وَعَالَةً، وَعَارًا عَلَى الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ؟ فَلَوْ كَانَ تَعَدُّدُ الزَّوْجَاتِ مُبَاحًا لَمَا حَاقَ بِأَوْلَائِكَ الْأَوْلَادِ وَبِأُمَّهَاتِهِمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الْهُونِ، وَلَسَلِمَ عَرَضُهُنَّ، وَعَرَضُ أَوْلَادِهِنَّ، فَإِنَّ مَرَّاحَةَ الْمَرْأَةِ لِلرَّجُلِ سَتَحُلُّ بِنَا الدَّمَارَ، أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ حَالَ خِلْقَتِهَا تُنَادِي بِأَنَّ عَلَيْهَا مَا لَيْسَ عَلَى الرَّجُلِ، وَعَلَيْهِ مَا لَيْسَ عَلَيْهَا، وَبِإِبَاحَةِ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ تُصْبِحُ كُلُّ امْرَأَةٍ رَبَّةَ بَيْتٍ، وَأُمُّ أَوْلَادٍ شَرْعِيِّينَ».

وقال جوستاف لوبون: «إن نظام تعدد الزوجات نظام حسنٌ يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تمارسه، ويزيد الأسر ارتباطاً، وتمنح المرأة احتراماً وسعادة لا تجدهما في أوروبا».

١٥- ومن محاسن الشريعة أن الأصل الشرعي هو: الحل في المعاملات

والشروط.

١٦- ومن محاسن الشريعة أَنَّ الْوَالِيَّ وَالْقَاضِيَّ وَالشَّافِعَ مَمْنُوعُونَ مِنْ قَبُولِ الْهُدْيَةِ (١)، وَهُوَ أَصْلُ فَسَادِ الْعَالَمِ، وَإِسْنَادُ الْأَمْرِ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، وَتَوَلِيَّةُ الْحَوْنَةِ وَالضُّعْفَاءِ وَالْعَاجِزِينَ، وَقَدْ دَخَلَ بِذَلِكَ مِنَ الْفَسَادِ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ ﷻ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ قَبُولَ الْهُدْيَةِ مِمَّنْ لَمْ تَجْرِعْ عَادَتُهُ بِمُهَادَاتِهِ ذَرِيعَةً إِلَى قَضَاءِ حَاجَتِهِ، وَحُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ، فَيَقُومُ عِنْدَهُ شَهْوَةٌ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ مُكَافَأَةً لَهُ مَقْرُونَةٌ بِشَرِّهِ وَإِغْمَاضٍ عَنِ كَوْنِهِ لَا يَصْلُحُ.

١٧- ومن محاسن الشريعة أَنَّهُ لَيْسَ لِلْقَاتِلِ مِنَ الْمِيرَاثِ شَيْءٌ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ تَوْرِيثَ الْقَاتِلِ ذَرِيعَةً إِلَى وَقُوعِ هَذَا الْفِعْلِ؛ فَسَدَّ الشَّارِعُ الذَّرِيعَةَ بِالْمَنْعِ.

١٨- ومن محاسن الشريعة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أَنْ يُخْطَبَ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ أَوْ يَسْتَأْمَ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ (٢) أَوْ يَبِيعَ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى التَّبَاغُضِ وَالتَّعَادِي.

١٩- ومن محاسن الشريعة أَنَّمَا نَهَتْ الْمَرْأَةَ إِذَا خَرَجَتْ إِلَى الْمَسْجِدِ أَنْ تَتَّطِيبَ أَوْ تُصِيبَ بَخُورًا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى مَيْلِ الرِّجَالِ وَتَشَوُّفِهِمْ إِلَيْهَا، فَإِنَّ رَائِحَتَهَا وَزِينَتَهَا وَصُورَتَهَا وَإِنْدَاءَ مَحَاسِنِهَا تَدْعُو إِلَيْهَا؛ فَأَمَرَهَا أَنْ تَخْرُجَ تَفِلَّةً، وَأَنْ لَا تَتَّطِيبَ، وَأَنْ تَقِفَ خَلْفَ الرِّجَالِ، وَأَنْ لَا تُسَبِّحَ فِي الصَّلَاةِ إِذَا نَابَهَا شَيْءٌ، بَلْ تُصَفِّقْ بِبَطْنِ كَفِّهَا عَلَى ظَهْرِ الْأُخْرَى، كُلُّ ذَلِكَ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ وَحِمَايَةً عَنِ الْمُفْسَدَةِ.

(١) عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَدَايَا الْعُمَّالِ غُلُولٌ» (رواه أحمد في المسند، وصححه الألباني). يعني: ليس للموظف أن يقبل الهدية، سواء كانت من موظف عنده، أو من مراجع من المراجعين الذين يأتون من الخارج لحاجاتهم، فلا يجوز لهم أن يهدوا للموظفين، ولا يجوز للموظفين أن يقبلوا منهم؛ لأن هذا من الغلول، فهدايا العمال من الرعايا وهداياهم لأمرائهم خيانتة؛ لأنها لا تكون إلا لأجل خيانتة فيما وكل إليهم من الأعمال، لأنه لا يهدي للعمال إلا مخافةً منه أو طمعاً فيه، فإذا أهدى العامل للأمير أو أهدي الرعية للعامل فهو لبيت المال ولا يحل للعمال قبولها لكن إن قبلها صارت لبيت المال.

(٢) المعنى: أن يكون قد اتفق مالك السلعة والراغب فيها على البيع ولم يعقدها، فيقول الآخر للبائع: أنا اشتريه، وهذا حرام بعد استقرار الثمن.

٢٠- ومن محاسن الشريعة أنّها نهت أن تُباع السلعة حيث تُباع حتى تُنقل عن مكانها، وما ذلك إلا أنه ذريعة إلى جحد البائع البيع وعدم إتمامه إذا رأى المشتري قد ربح فيها، فيعزّه الطمع، وتشح نفسه بالتسليم كما هو الواقع.

٢١- ومن محاسن الشريعة أنّها أمرت أن يُفترق بين الأولاد في المضاجع، وأن لا يُترك الذكر ينام مع الأنثى في فراش واحد؛ لأن ذلك قد يكون ذريعة إلى نسج الشيطان بينهما المواصلة المحرمة بواسطة اتحاد الفراش ولا سيما مع الطول، والرجل قد يعبث في نومه بالمرأة في نومها إلى جانبِهِ وهو لا يشعر.

٢٢- ومن محاسن الشريعة أنّها نهت عن بيع الثمار قبل بدو صلاحها لئلا يكون ذريعة إلى أكل مال المشتري بغير حق إذا كانت معرضة للتلف، وقد يمتعها الله عز وجل.

٢٣- ومن محاسن الشريعة أنها جعلت للقاذف إسقاط الحد بالعان في الزوجة دون الأجنبية، وكلاهما قد ألحق بهما العار، وهذا من أعظم محاسن الشريعة؛ فإن قاذف الأجنبية مُستغن عن قذفها، لا حاجة له إليه البتة؛ فإن زناها لا يضره شيئاً، ولا يفسد عليه فراشه، ولا يعلق عليه أولاداً من غيره، وقذفها عدوان محض، وأدى لمحصنة غافلة مؤمنة، فترتب عليه الحد زجراً له وعقوبة.

وأما الزوج فإنه يلحقه بزناها من العار والمسبة وإفساد الفراش وإلحاق ولد غيره به، وانصراف قلبها عنه إلى غيره؛ فهو محتاج إلى قذفها، ونفي النسب الفاسد عنه، وتخلصه من المسبة والعار؛ لكونه زوج بغي فاجرة، ولا يمكن إقامة البيّنة على زناها في الغالب، وهي لا تُقر به، وقول الزوج عليها غير مقبول؛ فلم يبق سوى تحالفها بأغلظ الإيمان، وتأكيدها بدعائه على نفسه باللعنة ودعائها على نفسها بالغضب إن كانا كاذبين.

ثم يفسخ النكاح بينهما؛ إذ لا يمكن أحدهما أن يصفو للآخر أبداً؛ فهذا أحسن حكم يفصل به بينهما في الدنيا، وليس بعده عدل منه، ولا أحكام، ولا أصلح، ولو جمعت عقول العالمين لم يهتدوا إليه، فتبارك من أبان ربوبيته ووحدايته وحكمته وعلمه في شرعه وخلقه.

من محاسن الشريعة فرض الحجاب على المرأة المسلمة ومنع الاختلاط بين النساء والرجال غير المحارم:

بل إنَّهَا نَهَتْ أَنْ تَصِفَ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ لِزَوْجِهَا حَتَّى كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَلَا يَخْفَى أَنَّ ذَلِكَ سَدٌّ لِلذَّرِيعَةِ وَحِمَايَةٌ عَنِ مُفْسِدَةٍ وَقُوعِهَا فِي قَلْبِهِ وَمَيْلِهِ إِلَيْهَا بِحُضُورِ صُورَتِهَا فِي نَفْسِهِ، وَكَم مَن أَحَبَّ غَيْرَهُ بِالْوَصْفِ قَبْلَ الرُّؤْيَةِ.

قال الشيخ أحمد بن عبد الرحمن الصويان: «كنت في زيارة لأحد المراكز الإسلامية في ألمانيا فرأيت فتاة متحجبة حجاباً شرعياً ساتراً قل أن يوجد مثله في ديار الغرب؛ فحمدتُ الله على ذلك، فأشار عليّ أحد الإخوة أن أسمع قصة إسلامها مباشرة من زوجها، فلما جلستُ مع زوجها قال:

«زوجتي الألمانية أبا لجدِّ، وهي طبيبة متخصصة في أمراض النساء والولادة، وكان لها عناية خاصة بالأمراض الجنسية التي تصيب النساء، فأجرت عدداً من الأبحاث على كثير من المريضات اللاتي كنَّ يأتين إلى عيادتها، ثم أشار عليها أحد الأطباء المتخصصين أن تذهب إلى دولة أخرى لإتمام أبحاثها في بيئة مختلفة نسبياً، فذهبتُ إلى النرويج، ومكثت فيها ثلاثة أشهر، فلم تجد شيئاً يختلف عمَّا رأته في ألمانيا، فقررت السفر للعمل لمدة سنة في السعودية.

تقول الطبيبة: «فلما عزمْتُ على ذلك أخذتُ أقرأ عن المنطقة وتاريخها وحضارتها، فشعرتُ بازدياد شديد للمرأة المسلمة، وعجبتُ منها كيف ترضى بذلك الحجاب وقيوده، وكيف تصبر وهي تُمتَهَن كل هذا الامتهان؟!»

ولمَّا وصلتُ إلى السعودية علمتُ أنني ملزمة بوضع عباءة سوداء على كتفي، فأحسست بضيق شديد وكانني أضع إساراً من حديد يقيدني ويشلُّ من حريتي وكرامتي (!!)، ولكنني أثرت الاحتمال رغبةً في إتمام أبحاثي العلمية.

لبثتُ أعمل في العيادة أربعة أشهر متواصلة، ورأيت عدداً كبيراً من النسوة، ولكنني لم أقف على مرض جنسي واحد على الإطلاق؛ فبدأتُ أشعر بالملل والقلق، ثم

مضت الأيام حتى أتممتُ الشهر السابع، وأنا على هذه الحالة، حتى خرجت ذات يوم من العيادة مغضبة ومتوترة.

فسألتنني إحدى الممرضات المسلمات عن سبب ذلك، فأخبرتها الخبر، فابتسمت وتمتت بكلام عربي لم أفهمه، فسألتها: «ماذا تقولين؟!»، فقالت: «إن ذلك ثمرة الفضيلة، وثمره الالتزام بقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَنَفِظَاتِ﴾ (الأحزاب: ٣٥).

هزتني هذه الآية وعرفتنني بحقيقة غائبة عندي، وكانت تلك بداية الطريق للتعرف الصحيح على الإسلام، فأخذتُ أقرأ القرآن العظيم والسنة النبوية، حتى شرح الله صدري للإسلام، وأيقنتُ أن كرامة المرأة وشرفها إنما هو في حجابها وعفتها، وأدركت أن أكثر ما كُتب في الغرب عن الحجاب والمرأة المسلمة إنما كتب بروح غربية مستعلية لم تعرف طعم الشرف والحياء!.

إن الفضيلة لا يعدلها شيء، ولا طريق لها إلا الالتزام الجاد بهدي الكتاب والسنة، وما ضاعت الفضيلة إلا عندما استُخدمت المرأة ألعوبة بأيدي المستغربين وأباطرة الإعلام^(١).

لقد أثبتت التجارب والمشاهدات الواقعية، أن اختلاط الرجال بالنساء يثير في النفس الغريزة الجنسية بصورة تهدد كيان المجتمع. كما ذكر أحد العلماء الأمريكيين وهو "جورج بالوشي" في كتاب "الثورة الجنسية". وقال بأن الرئيس الأمريكي الراحل كينيدي قد صرح عام ١٩٦٢ بأن مستقبل أمريكا في خطر لأن شبابها مائع منحل غارق في الشهوات لا يقدر المسؤولية الملقاة على عاتقه وأن من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين لأن الشهوات التي أغرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية.

(١) ثمرة الفضيلة، أحمد بن عبد الرحمن الصويان، مجلة البيان (العدد ١٦١).

إن دعاة الاختلاط لا تسوقهم عقولهم، وإنما تسوقهم شهواتهم، وهم يتعدون عن الاعتبار بما وصلت إليه الشعوب التي تبيح الاختلاط والتحرر في العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة. من ذلك ما أورده تقرير لجنة الكونجرس الأمريكية عن تحقيق جرائم الأحداث، من أن أهم أسبابها الاختلاط بين الشباب من الجنسين بصورة كبيرة. ولقد ثبت من خلال فحص كثير من الجرائم الخلقية أن الاختلاط هو المسئول الأول عنها.

وماذا يقول أنصار الاختلاط عن فضيحة وزير الصناعة في إنجلترا مع سكرتيرته التي أشارت إحدى الصحف إليها بأنها تنتظر مولودا منه، الغريب أن صحيفة التايمز البريطانية قد أشارت إلى أن مارجريت تاتشر، قد لعبت دورا رئيسياً في إقناع وزير الصناعة "باركتسون" بعدم الزواج من سكرتيرته والاستمرار مع زوجته على أمل ألا يُحطَّ بزواجه من السكرتيرة من قدره.

وهذا الخبر يحمل في مضمونه أثر الاختلاط بين وزير وسكرتيرته بدون محرم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يحمل عدم الاعتراف بما نجم عن هذا الاختلاط، وهذا يعنى بصورة غير مباشرة عدم الاعتراف بالاختلاط والاستمرار فيه فالاختلاط في عمومه يحمل من الآثار السيئة ما يجعل كثيرا من الدعاة المخلصين يدعون إلى تنظيمه في إطار محدد يمنع شروره. مما يعد رجوعا إلى الهدى النبوى الشريف منذ أربعة عشر قرنا.

دعوات غربية لتطبيق الشريعة الإسلامية

نشر موقع "الإسلام اليوم" أن كبرى الصحف الاقتصادية الغربية دعت إلى تطبيق الشريعة الإسلامية كحل مؤكد للخروج من الأزمة المالية العالمية التي تهدد بانهيار أسواق المال العالمية، بعد الأزمة الاقتصادية الخطيرة التي هزت أمريكا وأوروبا. فقد كتب (بوفيس فانسون) رئيس تحرير مجلة (تشانلنجز) في ٤/١٠/٢٠٠٩ هـ الموافق ٥/١٠/٢٠٠٨ موضوعاً بعنوان (البابا أو القرآن) تساءل الكاتب فيه عن أخلاقية الرأسمالية؟ ودور (المسيحية) كديانة، والكنيسة الكاثوليكية بالذات في تكريس هذا المنزع والتساهل في تبرير الفائدة، مشيراً إلى أن هذا النسل الاقتصادي السيئ أودى بالبشرية إلى الهاوية.

وتساءل الكاتب بأسلوب يقترب من التهكم من موقف الكنيسة قائلاً: «أظن أننا بحاجة أكثر في هذه الأزمة إلى قراءة القرآن بدلاً من الإنجيل لفهم ما يحدث بنا وبمصارفنا^(١) لأنه لو حاول القائمون على مصارفنا احترام ما ورد في القرآن من تعاليم وأحكام وطبقوها ما حل بنا ما حل من كوارث وأزمات وما وصل بنا الحال إلى هذا الوضع المزري؛ لأن النقود لا تلد النقود».

بدوره، طالب (رولان لاسكين) - رئيس تحرير صحيفة (لوجورنال ديفينانس) - بوضوح أكثر بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية في المجال المالي والاقتصادي لوضع حد لهذه الأزمة التي تهز أسواق العالم من جراء التلاعب بقواعد التعامل والإفراط في المضاربات الوهمية غير المشروعة.

(١) المصرف: البنك.

وعرض "لاسكين" في مقاله بافتتاحية الصحيفة التي يرأس تحريرها والذي جاء بعنوان: «هل تأهلت وول ستريت لاعتناق مبادئ الشريعة الإسلامية؟»، المخاطر التي تحدق بالأسماوية وضرورة الإسراع بالبحث عن خيارات بديلة لإنقاذ الوضع، وقدم سلسلة من المقترحات المثيرة في مقدمتها تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية برغم تعارضها مع التقاليد الغربية ومعتقداتها الدينية.

ومن ناحيتها، أصدرت الهيئة الفرنسية العليا للرقابة المالية - وهي أعلى هيئة رسمية تعنى بمراقبة نشاطات البنوك - قرارًا يقضي بمنع تداول الصفقات الوهمية والبيوع الرمزية التي يتميز بها النظام الرأسمالي، وهو ما يتطابق مع أحكام الفقه الإسلامي.

كما أصدرت نفس الهيئة قرارًا يسمح للمؤسسات والمتعاملين في الأسواق المالية بالتعامل مع نظام الصكوك الإسلامي في السوق المنظمة الفرنسية. والصكوك الإسلامية هي عبارة عن سندات إسلامية مرتبطة بأصول ضامنة بطرق متنوعة تتلاءم مع مقتضيات الشريعة الإسلامية.

كما أكد تقرير صادر عن مجلس الشيوخ الفرنسي أن النظام المصرفي الإسلامي مريح للجميع مسلمين وغير مسلمين ويمكن تطبيقه في جميع البلاد فضلًا عن كونه يلبي رغبات كونية.

وكانت لجنة المالية ومراقبة الميزانية والحسابات الاقتصادية للدولة بمجلس الشيوخ الفرنسي قد نظمت طاولتين مستديرتين في منتصف مايو ٢٠٠٨ حول النظام المصرفي الإسلامي لتقييم الفرص والوسائل التي تسمح لفرنسا بولوج هذا النظام الذي يعيش ازدهارًا واضحًا وجمعت أعمال الطاولتين في تقرير واحد.

وأعطت الطاولة المستديرة الأولى صورة عن أنشطة الصناعة المالية الفرنسية في سوق ما زال متركزًا في المنطقة العربية وجنوب شرق آسيا، والأهمية المتزايدة بالنسبة لفرنسا في أن تعتنى بهذا المجال المالي المعتمد على الشريعة الإسلامية.

كما ركزت الطاولة المستديرة الثانية على العوائق التشريعية والضريبية المحتمل أن تحول دون تطوير هذا النظام في فرنسا ومن ذلك مثلاً فتح مصارف إسلامية بفرنسا أو إقامة نظم تشريعية وضريبية على التراب الفرنسي تراعي قواعد الشريعة الإسلامية في المجال المالي أو إصدار صكوك.

وإطلاق صفة (الإسلامي) على منتج مالي أو معاملة مالية يعني احترام خمسة مبادئ حددها النظام الإسلامي المالي، وهي تحريم الربا، وتحريم بيع الغرر والميسر، وتحريم التعامل في الأمور المحرمة شرعاً (كالخمر والزنا)، وتقاسم الربح والخسارة.

كما سنحت للطاولة بحسب موقع الجزيرة نت الإطلاع على التجربة البريطانية في هذا المجال وما يمكن استخلاصه منها والإطلاع كذلك على الأفكار التي تُداول في فرنسا في ذلك الحين حول هذا الموضوع من طرف المتخصصين والسلطات العمومية.

وأكد التقرير تناقض الموقف الفرنسي من النظام المصرفي الإسلامي، فهناك اهتمام بهذا النظام وفي نفس الوقت يوجد جمود في التعاطي معه، فأغلب المجموعات المصرفية الفرنسية فتحت لها فروعاً في البلاد العربية والإسلامية تتعاطى مع النظام الإسلامي المالي، في حين ما زال موقف الفروع الرئيسية بفرنسا محجماً في التعاطي معه.

كما أنه لا توجد معوقات تشريعية أو ضريبية من شأنها أن تفسخ بيوعاً ذات صبغة إسلامية، بل إن بعض النصوص التشريعية الفرنسية في مجال الضرائب غير بعيدة عن النصوص الإسلامية.

ودعا التقرير إلى توسيع دائرة النقاش حول هذا الموضوع ليشمل إلى جانب لجنة مجلس الشيوخ الجالية المسلمة الموجودة في فرنسا والمكونة من خمسة ملايين ونصف مليون شخص. وتعد فرنسا متأخرة جداً في مجال احتضان هذا النظام مقارنةً مع الدول الأوروبية حيث كانت بريطانيا الرائدة في القبول به على أراضيها وقد أصدرت نصوصاً تشريعية وضريبية من شأنها أن تشجع النظام الإسلامي المالي وفتح بها أول مصرف إسلامي عام ٢٠٠٤.

وتظهر منافسة النظام المصرفي الإسلامي للنظام المصرفي الغربي في كَوْن معدل النمو السنوي للأنشطة الإسلامية يتراوح ما بين ١٠ إلى ١٥٪. كما بلغ مجموع الأنشطة المسيرة من قبل المصارف ومؤسسات التأمين الإسلامية ٥٠٠ مليار دولار نهاية عام ٢٠٠٧.

الآثار الاقتصادية السيئة للربا

إن القرآن الكريم قد حرّم الربا ومنع الناس من التعامل به، لما فيه من الظلم وأكل أموال الناس بالباطل، وهذا ما كان يدركه المسلمون في صدر الإسلام، وأمّا اليوم فإنّ العلماء والخبراء الاقتصاديين يدركون أضرار الربا ومفاسده تبعاً لتطور العمليات الاقتصادية ومنها: سوء توزيع الثروة، وهدر الموارد الاقتصادية، وضعف التنمية الاقتصادية والاستثمار، والتضخم، البطالة وغيرها، كلّ هذا يدلّ على أنّ هذا التشريع معجز، وأنّه من عند الله ﷻ ولا يستطيع البشر أن يأتيوا بمثله.

إن آثار الربا وأضراره ومفاسده - التي اكتشفها الناس اليوم نتيجة تطوّر العمليات الاقتصادية وتعقدها - تؤكّد أن تشريع الله في الربا معجز ولا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، مما يدلّ دلالة قاطعة على أنّ هذا التشريع من عند الله العليم الخبير، وليس من عند محمد ﷺ ولا صحابته رضي الله عنهم، لعدم مقدرتهم على معرفة وإدراك كثير من حكم وأسرار هذه التشريع.

إنّ التعامل بالربا فيه مفسد كثيرة، ومنع التعامل به فيه مصالح كثيرة للفرد والمجتمع، وهذا يثبت ويبيّن حقيقة الإعجاز الذي جاء به القرآن في هذا الجانب من التشريع. إن من أضرار الربا ومفاسده:

١- سوء توزيع الثروة:

تتركز عملية الإقراض بفائدة (الإقراض الربوي) على الأشخاص القادرين على تقديم ضمانات تسديد القروض وفوائدها، وهو ما يؤدي إلى تركّز ثروة البلاد في أيدي عددٍ قليل من الأشخاص، وتأييداً لهذا المعنى يقول الدكتور شاخت الألماني الجنسية والمدير السابق لبنك الرايخ الألماني: «إنّه بعملية غير متناهية يتّضح أن جميع مال الأرض صائر إلى عددٍ قليل جداً من المرابين، ذلك لأنّ المرابي يربح دائماً في كل عملية، بينما المدين معرض للربح والخسارة، ومن ثمّ فإنّ المال كلّ في النهاية لا بدّ بالحساب الرياضي أن يصير إلى الذي يربح دائماً».

ومن مظاهر سوء توزيع الثروة تسخير العمل لحساب رأس المال، حيث يقوم الإنتاج على عنصرين: العمل والمال، والعمل هو الأساس الأوّل، لأنّه هو الذي يوجد المال في الأصل، وموجب ذلك أن يتحمّل كل من العنصرين نصيبه من الربح والخسارة، فإذا أشركنا صاحب المال في الربح، وجب أن يشترك في الخسارة النّازلة، غير أن الفائدة تهدم هذا البنيان الطّبيعيّ، وتسخر العمل لحساب رأس المال، لأن المنتج وهو المدين دائماً، يضمن للمرابي رأس ماله، ونصيبه من الربح، دون أن يشارك هذا الأخير في الخسارة النّازلة.

وبناءً على ما سبق فإنّ الذين يتركّز عندهم المال فئتان:

الفئة الأولى: المرابون الذين يقترضون المال ويربحون دائماً.

الفئة الثانية: الأشخاص الأغنياء المقترضون القادرون على تقديم ضمانات تسديد قروضهم.

وهذا يؤدي إلى تداول المال بين المرابين والأغنياء القادرين على تقديم ضمانات مما يجعل المال متداولاً بين هؤلاء وهو مخالف لمنهج الإسلام.

إن الطريقة الإسلامية يهّمها أن يكون الأشخاص القائمين على المشاريع من أهل الأمانة والخبرة والالتزام، وهذا يؤدي إلى تحقيق العدالة الاجتماعية في توزيع الثروة والدخل بين الناس.

إن ربّ المال - في نظام المشاركة الإسلامي - لا يطلب ضمانات، لأنّه هو الضّامن للمال، بحيث يتحمّل خسارته إذا وقع مقابل تحمّل العامل ضياع عمله.

وهذه المقارنة منطقيّة تقبلها العقول السليمة، فلو قسمنا الناس إلى فئتين: فئة تقرض بفائدة وفئة تقرض بفائدة، أمّا التي تقرض فتربح دائماً، وأمّا التي تقرض فهي معرّضة للربح والخسارة، فإذا تم تداول كمية من المال بين هاتين الفئتين، فإن هذه الكمية صائرة إلى الذين يربحون دائماً، لأنهم يسترجعون رأس المال مضافاً إليه الفائدة، أمّا الفئة الأخرى فهي معرّضة للخسارة وأغلب الظنّ أنّها ستحصل ولو لمرة واحدة، فيتمّ تسخير جهدهم وعملهم لخدمة رأس مال الفئة الأولى.

ولا يمكن لنظام الفائدة أن يُعالج مشكلة الفقر أو يصلح الدول الفقيرة، فالتّزيف مستمر من الفقراء إلى أصحاب المال، وأصحاب المال تزيد أموالهم زيادة مستمرة، فالأغنياء يزدادون غنىً والفقراء يزدادون فقراً، ومديونية الدول الفقيرة في ازدياد وفوائد هذه الديون في ازدياد أيضاً.

٢- هدر الموارد الاقتصادية:

ينتج هذا عند الإقراض بفائدة لأموال لا يتم توجيهها إلى أنشطة ومشاريع ذات جدوى ومنفعة حقيقية لحياة الناس. فيتّم توجيه الاقتصاد وجهةً منحرفة من مشروعات صناعية وتجارية إلى نواذٍ للقمار والعهر والفساد بما يعود بالضرر على المجتمع، وكذلك تشجيع الناس على المغامرة والإسراف، بتسهيل وضع المال في أيدي المغامرين والجهلة والمُسرفين. فيؤدي هذا إلى هدر الموارد الاقتصادية.

إن هدر الموارد الاقتصادية ينتفي في الطريقة الإسلامية التي ينبغي أن توظّف الأموال في مشاريع ذات منفعة حقيقية لحياة الناس وللدورة الاقتصادية في البلاد. فالأموال في النظام الإسلامي لا تمنح كقرض لا يُعلم إلى أين يتّجه؟ إلى سلع استهلاكية أو متع ترفيحية أو أدوات كمالية.

٣- ضعف التنمية الاقتصادية والاستثمار:

من مقاصد النظم المالية الإسلامية والمؤسسات المصرفية الإسلامية المساهمة في التنمية وتحقيقها، وتمويل المشروعات الإنتاجية بنظام المشاركة وفقاً لقاعدة الغنم بالغرم. فالصيغ الإسلامية - كالمضاربة الإسلامية، والمشاركات، والاستصناع والسلم، والمربحات وغيرها - تتميز بأنها تتفاعل مع السلع لتولّد مجموعة من الأنشطة الاقتصادية التي توظّف أكبر عدد من عوامل الإنتاج ومنها عنصر العمل، وتساعد في علاج مشكلة البطالة والفقر وتحقيق الأمن الاقتصادي.

ويرى علماء الاقتصاد أن النقود لا تلد نقوداً، بل لابد من تدويرها من حلبة النشاط الاقتصادي، ثم تنقلب إلى سلع وخدمات، وتتفاعل مع عوامل أخرى لتحقيق النمو والتطور.

أما الإقراض بنظام الفائدة فإنه يؤدي إلى تضيق دائرة التمويل، لأنه يعتمد على ضمانات لا يقدر عليها إلا الأغنياء. ورب المال في نظام الفائدة أقل اهتمامًا بنجاح المشروع، ولا تهمّه الأمانة والخبرة والمقدرة في العمل، لأن أكثر ما يهّمه أن يكون المقترض غنيًا ومليئًا، وأن تكون فائدته ثابتة، ورأس ماله مضمونًا.

وبناءً عليه فكلما توسّع الناس في الضمانات فإنه يؤدي إلى تخفيض التمويل، وهذا يعني تقليل الاستثمار، والذي يأخذ فائدة مضمونة لا يهتم بنجاح المشاريع الاقتصادية، وهذا بدوره يؤدي إلى ضعف التنمية الاقتصادية.

وإن تقلّص دور الضمانات في نظام المشاركة مثلاً يساعد على توسيع دائرة التمويل بحيث تشمل الفئات الأقل من العمال المهرة. وتوسيع دائرة التمويل يؤدي إلى زيادة الاستثمار وتشجيعه، بحيث يشمل العمال المهرة كالحدادين والتجارين وأصحاب المعامل الصغيرة على اختلاف حرفهم.

إن الإقراض بنظام الفائدة يقوم على تحديد سعر الفائدة مسبقًا، وهذا يؤدي إلى حجب بعض المشروعات التي يقل مردودها عن الفائدة الواجب دفعها، أو يساويها، أو لا يزيد عنها إلا قليلًا.

فتحديد سعر الفائدة مقدّمًا - قبل أن يعلم أحد قيمتها الحقيقية بالضبط - ظلم للمقترض أو المقرض، فإذا ازدادت نسبة صافي الربح الفعلي عن سعر الفائدة وقع على المقرض ظلم بحرمانه من هذه الزيادة، وإذا قلّت نسبة صافي الربح الفعلي عن سعر الفائدة وقع على المقرض ظلم بإلزامه بسداد الفائدة بالكامل رغم زيادتها على الربح المحقق فعلاً. وهذا بيان للظلم الذي يقع على المقرض أو المقترض بسبب الإقراض بفائدة.

هذا بالنسبة إلى تحديد سعر الفائدة مسبقًا، أما ارتفاع سعر الفائدة فإنه يؤدي إلى إعاقة التنمية الاقتصادية، لأن رجل الأعمال عندما يفكر في توسيع مصنعه أو إنشاء مصنع جديد يرى أن سعر الفائدة سوف يلتهم ثمرة عمله فيحجم عن هذه المخاطرة، بل قد يُؤثر الكثيرون السلامة والكسل فيودعون أموالهم في البنوك أو شهادات الادخار

قانعين بما تدرّه عليهم من فوائد مُعرضين عن الخوض في مجال التنمية وإيجاد الرزق الحلال والعمل الطيب للناس.

ويؤكد هذه المعاني الاقتصادي المشهور "جون كينز" فيقول: «إن معدل سعر الفائدة يعوق النمو الاقتصادي لأنه يعطل حركة الأموال نحو الاستثمار في حرية وانطلاق، فإن أمكن إزالة هذا العائق فإن رأس المال سيتحرك وينمو بسرعة».

وبرهان ذلك أنه من المقرر محاسبياً احتساب الفائدة ضمن تكاليف الإنتاج، فتعتبر كأي نفقة من نفقات الإنتاج، مثل الإيجار والكهرباء والمياه. وبناء على هذا تزيد النفقات كلما زادت الفائدة، وتقل كلما قلت، وبالتالي فإن الأرباح تقل كلما زادت الفائدة وتزيد كلما قلت الفائدة، فارتفاع سعر الفائدة يؤدي إلى انخفاض صافي الربح، وهذا بدوره يؤدي إلى انكماش حجم الاستثمار، وإلى توقف التكوين الرأسمالي، وإلى هبوط الدخل القومي، وانخفاض القوة الشرائية، والعكس صحيح، ومن هنا يتضح أن من مصلحة الاقتصاد القومي القضاء نهائياً على الفائدة.

ومما يعيق التنمية الاقتصادية ويُضعف الاستثمار ما تفرضه السياسة النقدية للبنوك المركزية على البنوك الأخرى الخاضعة لها من ضرورة الاحتفاظ بنسبة معينة من إجمالي الودائع الخاصة بكل بنك في حساب خاص به لدى البنك المركزي فيما يُعرف بالاحتياطي القانوني بهدف حماية أموال المودعين من ناحية، وتحجيم دور البنوك في زيادة العرض النقدي، هذه السياسة النقدية - التي تلائم المصارف التي تعتمد على نظام الفائدة - تؤدي إلى تعطيل جزء من الأموال التي قدمها أصحابها لتلك المؤسسات بغرض استثمارها.

٤- التضخم:

يدور مفهوم التضخم حول الزيادة في كمية النقود تؤدي إلى ارتفاع في الأسعار، فهو ظاهرة تتمثل في انخفاض القوة الشرائية للنقود المقترضة أو ارتفاع الأسعار. ومن أسباب هذه الظاهرة زيادة كمية النقود.

وتأييداً لهذا يرى عالما الاقتصاد السويدي "فيكسل" والإنجليزي "كينز" أن التضخم يحدث عندما تزداد كمية النقود، حيث يزيد الطلب الكلي على السلع والخدمات أكثر من العرض الكلي لهذه السلع والخدمات.

ومما يدل على أثر الفائدة في التضخم أن صاحب المال لا يرضى إذا استثمر ماله في صناعة أو زراعة أو شراء سلعة أن يبيع سلعته أو الشيء الذي أنتجه إلا بربح أكثر من نسبة الربا، لأنه يفكر أنه استثمر المال وبذل الجهد واستعدّ لتحمل الخسارة، فلا بد أن تكون نسبة الربح أكثر من نسبة الربا، وكلما ازدادت نسبة الربا غلت الأسعار أكثر منها بكثير، هذا إذا كانت المنتج أو التاجر صاحب مال، وأما إذا كان ممن يقترض بالربا فرفعه للأسعار أمرٌ بدهيّ، حيث سيضيف إلى نفقاته ما يدفعه من الربا.

٥- البطالة:

أكبر مشكلتين يواجههما الاقتصاد الرأسمالي: البطالة والتضخم، وتزيد معدلات البطالة مع ارتفاع التضخم، فارتفاع الأسعار دون زيادة متناسبة في الأجور سوف تؤدي إلى الإقلال من الطلب على السلع، وبالتالي إلى انخفاض حجم الاستثمار والإنتاج ومن ثم زيادة معدلات البطالة.

لقد ساعدت الفائدة على وجود طبقة من البطالة المقنعة تمثلت في هؤلاء المدخرين الذين يقعدون عن العمل اكتفاءً بما توفره لهم الفائدة من دخل ثابت مما يحرم كثيراً من المشاريع من عمل هؤلاء المدخرين، وكذلك فإن أصحاب الأموال يفضلون إقراض أموالهم بالربا على استثمارها في إقامة مشاريع صناعية أو زراعية أو تجارية، ولهذا يقلل فرص العمل، فتنشر البطالة في المجتمعات التي يسود فيها التعامل الربوي.

ويؤيد هذه الفكرة الاقتصادي المشهور "كينز" فيقول: «إن العمالة الكاملة هي الواجب الأول للدولة ولا تتحقق إلا إذا أنزل سعر الفائدة إلى الصفر أو ما يقرب من ذلك، والعمالة الكاملة هي أن يجد كل راغب في العمل فرصته».

فيرى الاقتصادي كينز أن علاج مشكلة البطالة يكون بانعدام الفائدة أو بتخفيضها إلى أدنى حد ممكن، وهذا رأي علماء الاقتصاد الذين لا يدينون بالإسلام، مما يدل على أن الإسلام في موضوع الربا معجز.

وأما تعليل ذلك فإن الفائدة تؤدي إلى زيادة أسعار السلع فينقص الطلب عليها وينحسر الاستهلاك مما يؤدي إلى فائض في المنتجات، وقد يلجأ المنتجون في سبيل تخفيض الأسعار إلى تخفيض أجور العمال أو الاستغناء عن بعضهم.

أضرار الميسر بين الشريعة والحياة

الميسر هو القمار، وهو كل المغالبات التي يكون فيها عوضٌ من الطرفين من النرد والشطرنج، وكل مغالبة قولية أو فعلية بعوض.

وفي عصرنا الحديث تنوعت آلات الميسر وتعددت صنوفها حتى فاقت الحصر أو كادت، وقد تفاقم الأمر مع تطور وسائل الإعلام والاتصال، فخاطر الناس وتغالبا في المبارات الرياضية بين الفرق، وعبر الشبكة العالمية (الإنترنت)، ورسائل الجوال القصيرة، والمسابقات في القنوات التلفزيونية والإذاعية، وربما سموها ألعاباً أو جوائز أو غيرها من الأسماء اللامعة، وهي لا تغير من حقيقتها شيئاً.

فكل ذلك من الميسر والقمار المحرم شرعاً، إذ توفرت فيها كل أركان الميسر.

أركان الميسر:

- اللاعبون: هما المشارك أو المشاركون في اللعبة أو المسابقة من جهة، والمنظم للعبة أو المسابقة من جهة أخرى وقد يكون شخصاً واحداً أو شركة.
- آلة الميسر: وهي المسابقة أو اللعبة مثل مباراة رياضية بين فريقين، أو سباق بين خيول، أو مصارعة بين رجلين، أو إرسال رسالة قصيرة من الهاتف الجوال إلى الرقم الفلاني تتضمن كلمة معينة ثم تتم القرعة بين المرسلين فمن خرج سهمه كان هو الفائز.
- المال: الذي يُيسر (يقامر) به الطرفان وهو ما يشتريه اللاعب من أوراق، أو تكلفة المكالمات الهاتفية من جهة اللاعب المتصل، أو تكلفة الرسالة القصيرة التي يرسلها، وما ينفقه الشخص أو الشركة المنظمة للعبة أو المسابقة من أموال يدفعها إلى شركات الاتصال أو وسائل الإعلام.

• نتيجة اللعبة: التي لا بد أن تكون خسارةً أو ربحاً كنتيجة كل أنواع الميسر القديمة والحديثة، ومما يميز الميسر في عصرنا الحديث أن الخاسر دائماً هو جهة واحدة وهي الأضعف وهو من يجمع دراهمه ودنانيره من الفقراء والمساكين ومن أصحاب الدخل المتوسط، ويُخدعون بتخصيص نزر يسير مما جمع من أموالهم ليدفع إلى واحد أو اثنين منهم، فيصدقون بعقولهم العفنة أن ذلك فائز!!!، أما الشخص المنظم للعبة أو المسابقة فلن يخسر شيئاً بحال من الأحوال، إلا ما يخسره من دينه وذلك شر الخسائر، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَّا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ (الشورى: ٤٥).

حكم الميسر في الشريعة الإسلامية:

إن الإسلام يريد من المسلم أن يتبع سنن الله ﷻ في اكتساب المال، وأن يطلب النتائج من مقدماتها، ويأتي البيوت من أبوابها، والقمار يجعل الإنسان يعتمد على الحظ والصدقة والأمانى الفارغة، لا على العمل والجد واحترام الأسباب التي وضعها الله وأمر باتخاذها.

والإسلام يجعل لمال الإنسان حرمة فلا يجوز أخذه منه إلا عن طريقة مبادلة مشروعة، أو عن طيب نفس منه هبة أو صدقة، أما ما أخذ بالقمار فهو من أكل المال بالباطل.

وقد دل على تحريم الميسر قوله تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩٠-٩١).

ففى الآية الكريمة من صيغ التحريم وصف الميسر بأنه: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ مما يدل على تحريمه وأنه من الكبائر، وكذلك الأمر باجتنابه في قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ واجتناب الشيء هو التبعاد عنه بأن تكون في غير الجانب الذي هو فيه، ومن اجتنب شيئاً وابتعد منه لم يتعاطاه، ومن صيغ تحريم الميسر أيضاً الأمر بالانتهاء منه ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ فهو أبلغ في الزجر من صيغة الأمر التي هي: انتهوا.

أضرار الميسر الدينية:

هناك مفاسد دينية كثيرة تترتب من تعاطي الميسر والقمار ومنها أن في الميسر إثماً كبيراً فتعاطي الميسر عمل يستحق فاعله عقاب الله ﷻ ويعرضه لسخطه، وإثم الميسر أعظم بكثير مما قد يحصله من المال وعرض الدنيا الزائل، والله ﷻ لم يجعل الحرام طريقاً للكسب ولا سبباً للسعادة في الدنيا، بل إن تقوى الله ﷻ وفعل أوامره واجتناب نواهيه هي سبب كل خير في الدنيا والآخرة.

والميسر قرين الشرك وشرب الخمر: وهذه الصفة مما يزيد قبحة شرعاً، فالمنهيات على درجات، واقتران منهي من المنهيات بأكبر الكبائر في الذكر يزيده قبحاً وسوءاً، وقد نهى الله عن الميسر وقرنه بكبائر أخرى وعلى رأسها الشرك بالله تعالى فقال ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ والأنصاب حجارة كانوا يذبحون قرايبنهم عندها، وأما الأزلام فهي قِدَاحٌ كانوا يستقسمون بها، وكل ذلك من الشرك وهو أعظم ما عصي الله به ولا يغفر الله لمن مات عليه.

ومن أضرار الميسر أنه من موانع الفلاح، وذلك بمجرد ارتكابه بدون استحلال فيمنع من مطلق الفلاح لما يسحقه من يلعب بالميسر من غضب الله ﷻ وعذابه لأنه من كبائر الإثم، ويمنع من الفلاح مطلقاً إذا استحل الميسر وكذب الله ﷻ ورسوله ﷺ، ورمى الشريعة بالضيق والقصور فيخرج بذلك من الإسلام، ويستحق الخلود في النار والعياذ بالله.

والميسر يصد عن ذكر الله وعن الصلاة فمن يتعاطون الميسر يهدرون أوقات غالية في ممارسة اللعب بوسائل الميسر من أوراق أو كعاب وغيرها، وبمتابعة أخبار الفائزين والخاسرين، ويضيعون الجُمع والجماعات، ويعرضون عن مجالس ذكر الله وحلق العلم، ويغفلون عن المواعظ وعن تذكر الموت وعذاب القبر وعن أهوال الآخرة، فتصبح معيشتهم ضنكا بما يخسرون من أموالهم وبما يضيعون من أعمارهم ويفوتون من مصالحهم.

مفاسد الميسر الدنيوية:

إن للميسر مفاسد تتعلق بالحياة الدنيا فتعكرها وتنغص صفوها، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض تلك المفاسد، كما أن بعضها مشاهدة وملموسة من واقع الحياة اليومية للمشتغلين بالميسر، وهذه بعض تلك المفاسد الدنيوية:

١- إن الميسر يسبب العداوة والبغضاء بين الناس:

فالميسر بأنواعه وأشكاله عادة سيئة يؤدي انتشارها في المجتمع إلى العداوة والبغضاء، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَيْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾.

ووجه ذلك - والله أعلم - أن الميسر لا يخلو من ربح أو خسارة، وكلاهما حاصل على نحو باطل لا يقره دين ولا عقل، وليس كربح التجارة أو خسارتها، لأن التاجر المسلم أو العاقل يعترف بقضاء الله وقدره، ويسلم بنهاية الصفقات حسب المقدمات الصحيحة التي تُمليها طبيعة العرض والطلب، أما المقامر فيسعى وراء خيال وسراب ويركض خلف حظ موهوم، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، فيعض على أنامل الحسرة، ويلتفت فإذا حوله مياسروه يسخرون بملء أفواههم لما ربحوه من أموال الناس بالباطل، فهل بعد ذلك يُتصور بين الفريقين مودة أو رحمة، لا وهيهات !!

٢- إن الميسر من عوامل انتشار البطالة:

إن شيوع الميسر في المجتمع يعطلّ الصناعات ويخسّر التجارات وتهلك المزارع، كيف لا، والشياطين تَعُدُّ السدج من الناس بالغنى الفاحش والثراء الطاغى بمجرد مشاركة في لعبة الميسر.

٣- إن الميسر يساهم في تفشّي الجريمة:

إن صالات القمار، أو قل إن مجتمعات القمار لا تخلوا في أغلب الأحيان من جرائم السرقة والقتل ومن الشرب والخلاعة والميوعة، أما السرقة فلأن المشاهد للعبة القمار وكيف يخسر هذا بسرعة وكيف يربح ذلك في طرفة عين تستهويه العملية فيود المشاركة فيها بأي طريق ممكن، وغالبا ما يلجأ إلى السرقة لإشباع تلك الرغبة العارمة. وأما القتل فلما يسوء بعضهم أن يذهب ماله هباءً في دقيقة واحدة وربما تعب وكدّ في تحصيله، فيشتاط غضبًا، فيتحر هو، أو يقتل أصحابه ليسترد ما ذهب من ماله. والمجتمعات البشرية اليوم تعاني من ويلات هذه الأضرار والمفاسد، الناتجة عن الميسر الذي حرمه الله ﷻ وبين أضراره في كتابه ومن أصدق من الله حديثًا، ولا منجى ولا مفر من ضنك الحياة وضيق المعاش إلا بالرجوع إلى الله ﷻ والتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ.

إعجاز القرآن في الضبط الاجتماعي

ذكر العلماء أنّ الوحي يشتمل على كافة العلوم إما تفصيلاً أو تأصيلاً، أي: إما بتفصيلها أو بأصولها، ولا زال الوحي يؤكد أن عجائبه لا تنقضي، وأنّ العلماء كلما أمعنوا النظر فيه خرجوا بحقائق علمية في غاية الدقة.

ولما كان الأمر كذلك فقد فقدت المعرفة - باستبعاد الوحي - رافداً من أهم روافدها فدخلت في أزمة خانقة، وإذا كانت العلوم الطبيعية - رغم طبيعتها المادية ورغم دقتها وصحة جزئياتها - في الغالب - قد احتيج فيها إلى معطيات الوحي، فإنّ العلوم الاجتماعية والإنسانية هي أكثر حاجةً للوحي من تلك العلوم الطبيعية، وتتمثل هذه الحاجة في أمور كثيرة منها:

● إنّ العلوم الإنسانية والاجتماعية ذات طبيعة تختلف كل الاختلاف عن تلك العلوم الطبيعية، ولأجل ذلك يكثر فيها من التنظير ما لا يكثر في العلوم الطبيعية، الأمر الذي يجعل الإنسان أكثر تدخلاً فيها وأكثر تثبيتاً للأمر الذاتي.

● إنّ الصفة العلمية - حسب المفهوم الغربي - في العلوم الاجتماعية والإنسانية مهتزة إلى حد كبير، إذ أن أكثر موادها غير قابلة للتجريب والتحقق العلمي، الأمر الذي يتيح تدخل الأهواء والأخيلة البشرية في تفسير الظواهر تدخلاً مباشراً.

● إنّ العلوم الاجتماعية والإنسانية لما كانت ذات طبيعة قيميّة فقد احتلت المكانة السامية التي كان يحتلها وحي السماء في إرشاد الناس وتوجيههم لما يصلحهم دون الاستعانة بمعطيات هذا الوحي، الأمر الذي جعلها تتخبط تخبطاً شديداً دون أن تصل إلى شيء مقبول.

● إذا كان الوحي يساهم مساهمة فاعلة في تشكيل الرؤى الكلية للعلوم الطبيعية، وإذا افترضنا أنه لا يمكن دخوله في جزئيات هذه العلوم ذات الطبيعة المادية، حيث يمكن إدراك هذه الجزئيات من الواقع المادي المحسوس مباشرة في أكثر الأحيان - فإن هذا الافتراض في العلوم الاجتماعية والإنسانية غير مقبول ابتداءً، إذ أن هذه

العلوم تحتاج إلى الوحي ليس في تشكيل الرؤى الكلية ولا في بلورة النظريات فحسب بل يتعدى الأمر ذلك إلى جزئيات هذه العلوم وتفصيلها الدقيقة أيضًا، إذ أن طبيعة بنائها يقتضي ذلك.

● لما لم تجد العلوم الاجتماعية والإنسانية بعد استبعاد الوحي من سلطة مرجعية ترتكز عليها فقد اتخذت هذه العلوم من العلوم الطبيعية سلطةً مرجعيةً تحاول تقليدها في كل شيء، رغم الاختلاف الكبير بين الطبائع في كلا النوعين من العلوم، ولأجل ذلك ظهرت المفارقة الكبرى في نظريات هذه العلوم، الأمر الذي يستوجب إعادة الوحي إلى مضمار المعرفة حتى يخرج هذه العلوم من مأزقها المعرفية.

● لما احتلت هذه العلوم الاجتماعية والإنسانية المكانة العالية التي كان يحتلها الوحي في توجيه الناس وإرشادهم وأصبحت بديلاً له رغم عدم اعترافها بمعطياته، كانت ثمرة ذلك أنها لم تبين نفسها بناءً صحيحاً ولا اتخذت سلطةً مرجعيةً مناسبة ولا قدمت حلولاً معقولة للمشكلات خاصة مشكلات العالم الإسلامي المعاصر.

● أخذ العالم الإسلامي علومًا اجتماعية وإنسانية لم تنبع من ذاته، ولم تكن حلًا لمشاكله، وإنما كانت صدئًا لمشكلات الغرب الخاصة التي عمل على ترويج أنها مشكلات عالمية باعتبار أنه مركز العالم، ولأجل ذلك لم تنجح هذه العلوم في حل مشكلات العالم الإسلامي من جهة بينما ناقشت قضايا تعتبر جانبية في العالم الإسلامي من جهة أخرى.

● عملت العلوم الاجتماعية على تحقيق الأهداف الاستعمارية وفرض المعايير والأنماط الثقافية الغربية بكافة مناهجها وقيمها مع خنق الثقافة المحلية المناهضة.

● لما لم تكن العلوم الاجتماعية والإنسانية علومًا محايدة - فقد أدى اعتمادها في العالم الإسلامي إلى الجهل بالذات وعدم إدراك الفوارق الذاتية لكل من المجتمعات الإسلامية والغربية.

إعجاز السنن الاجتماعية القرآنية:

لا شك أن الذي يميز السنن والقوانين الاجتماعية القرآنية التي تفسر النشاط الإنساني عمومًا أنها تقود إلى الحق والصدق واليقين لتمثل علما قاطعا لا تشوبه الأهواء ولا تعتريه الظنون، فيصدق عندئذ التنبؤ من خلال هذه القوانين وتسعد المجتمعات في حياتها الدنيا عند التزامها بالأوامر الإلهية المعيارية أو تشقى بمخالفتها، إذ أن السنن القرآنية في طبيعة الكون والأصول الإنسانية الاجتماعية ثابتة محايدة ليس لها من تغيير ولا تبديل ولا تحويل، وذلك بخلاف النظريات والقوانين الاجتماعية الوضعية ذات الأصول المتحيزة التي لم تسلم من الأهواء والظنون.

وهذا الجانب الذي يثبت فاعلية القوانين والسنن القرآنية وتميزها يشكّل جانبا من جوانب الإعجاز العميقة التي تتجلى في صدق المعاني والقوانين القرآنية عند انطباقها على الواقع الإنساني والاجتماعي بصورة عامة.

ولاشك أن الأحكام القرآنية قد جاءت لتحقيق السعادة، ولهذا فقد عملت على تحصيل المصالح وتعطيل المفسد في كافة أشكال الفعل الإنساني، وهذا هو وجه الإعجاز في ذلك حيث إن الأحكام القرآنية محققة لمصالح العباد بصورة لا يمكن أن يحققها أيّ تشريع ديني أو بشري آخر. ولما أكمل الله للمسلمين الدين وأتمّ عليهم النعمة فإنه لم يغادر في كتابه العظيم مصلحة دنيوية ولا أخروية إلا نبه عليها.

القرآن وقضايا علم الاجتماع:

لقد القرآن العظيم اهتم اهتمامًا كبيرًا بتأسيس الحياة الاجتماعية وما ينشأ فيها من علاقات مختلفة، وأحكام القرآن وأوامره - في الغالب - هي قواعد تصوغ التفاعل الاجتماعي في كافة أشكاله وتحدد الأهداف والوسائل التي تمكن من تحقيق هذه الأهداف. وما علم الاجتماع عمومًا إلا علم يقوم بدراسة التفاعل الاجتماعي ويصوغ هذا التفاعل حسب الأهداف العامة للمجتمع ووسائل ذلك، وغاية ما يصبو إليه هذا العلم هو دراسة هذا التفاعل وتفسيره ووضع القوانين التي تحكمه.

ولعلم الاجتماع قضاياها المحورية الكبرى مثل قضايا الأسرة والتغير الاجتماعي وضبط السلوك الإنساني وغير ذلك، ويعتبر موضوع الضبط الاجتماعي من أهم قضايا علم الاجتماع ويحظى بعناية واسعة من قبل العلماء والدارسين، ويتمثل ذلك في العناية بدراسة ماهيته ووسائله وأثره على الأفراد والجماعات وأثر عمليات التطور التلقائية والتداخل الثقافي الحادث بين المجتمعات.

والضبط الاجتماعي هو مجموعة من القواعد والمعايير الرسمية وغير الرسمية المنظمة للسلوك الإنساني والتي تعمل على تنظيم وتوجيه سلوك الفرد من خلال مجموعة من الوسائل التي تحدد أنماط السلوك المقبول وغير المقبول اجتماعياً، ويختلف هذا المفهوم اختلافاً جوهرياً باختلاف الرؤى الفكرية، ومن هنا فإن هذا المفهوم يختلف في الرؤية القرآنية عنه في الرؤية الغربية، حيث دار هذا المفهوم في الفكر الغربي حول ثلاثة اتجاهات:

- الاتجاه الطبيعي الذي يدرس الضبط كما موجود دون التركيز على الأهداف أو المثل التي يعمل على تحقيقها، ودون تكوين رؤية معيارية له.
 - الاتجاه النفسي وهو الاتجاه الذي يأخذ فيه هذا المفهوم صبغة سيكولوجية ويتم فيه استخدام معايير علم النفس وعلم النفس الاجتماعي.
 - الاتجاه المثالي الذي يذهب إلى أن الضبط الاجتماعي عملية ذاتية يضبط فيها المجتمع نفسه بنفسه وبمعايير النسبية الخاصة.
- أما في الإسلام فإن الضبط ليس عمليةً نابعة من المجتمع نفسه، وإنما هو ضبط إلهي متعال، ويسعى هذا الضبط إلى صياغة الإنسان وتركيبته من خلال عملية لها أهدافها ومقاصدها التي تحقق للإنسان مصالح الدنيا والآخرة.

فلسفة الضبط الاجتماعي في القرآن:

يرتبط مفهوم الضبط الاجتماعي وطبيعته وماهيته في القرآن بالقيم والمقاصد الكبرى، ولهذا فإن النظم الاجتماعية والعلاقات الإنسانية والقواعد القانونية تقوم على المصالح الكلية التي يحددها القرآن، ولهذا فإن الضبط الاجتماعي بقواعده ووسائله

المختلفة في القرآن يحكم المجتمع ولا يحتكم إليه، وهذا النموذج يقدم إطاراً شاملاً ويحدد معالم منهج متميز للضبط الاجتماعي يظهر تميز الأحكام القرآنية ويبرز إعجازها في هذه التشريعات.

وقد ارتبط مفهوم الضبط الاجتماعي في القرآن بالإيمان ارتباطاً وثيقاً، فهو إطار فكري عقدي تنبثق عنه أشكال الفعل الإنساني، ولهذا ربط الله تعالى في القرآن في غير ما موضع الإيمان بعمل الصالحات، ولما كانت السنة مفسرة للقرآن ومبينة له فقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةٌ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وقد جمع رسول الله ﷺ حقيقة الدين وربطها بالقواعد الخلقية السلوكية ووضعها بين طرفين أولهما يمثل القمة والمرجعية لما هو دونه ومنها الطرف الآخر الذي يمثل أبسط نموذج لقواعد السلوك والضبط الاجتماعي والآداب العامة.

وسائل الضبط الاجتماعي في الفكر الغربي:

هنالك شبه اتفاق - في علم الاجتماع الغربي - على أن للضبط الاجتماعي قسمان رئيسيان من حيث الوسائل المستخدمة فيه، وهما:

١- الوسائل غير الرسمية: وتتمثل في:

● الطرق الشعبية، وهي الوسائل التي أقرها المجتمع ليصوغ أفرادها سلوكهم وفقاً لها.

● الآداب الاجتماعية، وهي تمتاز عن الطرق الشعبية بقوة إلزامية.

● العُرف، وهو الوجه التقني للعادات والتقاليد وآداب السلوك العامة.

٢- الوسائل الرسمية:

وتتمثل هذه الوسائل في مواد القانون، وتعمل من خلال المفهوم العام للضبط الاجتماعي في الفكر الغربي حيث إن المجتمع لا يمكن ضبطه إلا عبر الجزاءات التي

تفرض عبر الوسائل سواء على المستوى غير الرسمي من حيث تقبل الهيئة الاجتماعية لسلوك الفرد أو نبذه، ويتشكل المجتمع بناء على قوة هذه الجزاءات أما المستوى الرسمي فوسائله هي مواد القانون التي تقوم على تجريم بعض السلوك ووضع عقوبات متناسبة معه.

وسائل الضبط الاجتماعي في القرآن:

يعمل الضبط الاجتماعي في القرآن على تدعيم القيم من خلال التزكية النفسية حيث يتشكل الضمير الديني الذي يصبح وازعاً يضبط سلوك الفرد الذي تتطابق إرادته السلوكية مع القواعد الكلية للأحكام القرآنية ومقاصدها وأهدافها، ولهذا فإن الضبط الاجتماعي في القرآن يسعى إلى الوقاية من المفساد ولا يلجأ إلى العقوبات القانونية إطلاقاً إلا عند حدوث الخلل الظاهر، ولذلك فإن وسائل الضبط الاجتماعي في القرآن تكمن في الآتي:

الوسائل غير الرسمية:

● تُنظَّم العبادات والمعاملات، وترتبط العبادات والمعاملات بالإيمان، وهو مفهوم ذو صبغة ضبطية إلزامية لدى الفرد، حيث يقوم على الخضوع لأوامر الله وتعظيمها وإجلالها، وهذه العبادات هي عوامل ضبط للسلوك الداخلي والخارجي، وهي المحرك الفاعل فيه، وليس ذلك فحسب بل إن مفهوم العبادة مفهوم شامل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة في السلوك الإنساني إلا ويدرجها تحته مظلمته. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣).

● الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

هذه الوسيلة الضابطة من أهم خصائص المجتمعات المسلمة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ

اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿التوبة: ٧١﴾. وقد ربط الله تعالى - كما هو ملاحظ - بين ولاية المؤمنين لبعضهم وبين أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

وقد عاب على غيرهم عدم قيامهم بهذا الدور الفاعل في ضبط المجتمع فقال
تَعَالَى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ
لِنَسْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المائدة: ٧٨ - ٧٩).

الوسائل الرسمية:

حافظ القرآن بشدة على الكليات التي تصون كيان المجتمع وتحفظه وحرّم الجرائم التي تهدد ذلك الكيان لسوء عاقبتها وشدة خطرها، ولكنه لم يكتف في الزجر عن اقتراف الجرم بالترهيب من غضب الله وسخطه وعذابه يوم القيامة، إذ أن الوازع الديني قد لا يكون كافيًا في بعض النفوس، ولهذا شرع الله تعالى العقوبات التي تقوم على المحافظة على المصالح الكلية للمجتمع مراعيًا فيها حقوق الله وحقوق المجتمع وأفرادهم والحقوق المشتركة بينهما، ويتمثل في الآتي:

١- المحافظة على عقيدة المجتمع المسلم التي تحفظ تماسكه وشرع عقوبة الردة:

إنّ الارتداد يُدخل الخلل في صفوف المجتمع المسلم ويفككه ويضعف قوته ويشيع الاستخفاف به، وفي ذلك شرٌّ عظيم، لأنّ أخطر شيء على حياة الأمم والمجتمعات وكيانها هو الفوضى في الاعتقاد والاضطراب الفكري وعدم الثقة بما يظلمها من نظام.

ومن الواضح لكل عاقل أنّ كفر المرتد بعد إسلامه أخطر على الأمة من الكفر الأصلي، لأنّ الشك في الدين والتفكك في الجماعة قد يكون من العوامل الأساسية في نصر الأعداء ولذا لم يترك الإسلام للمرتد حرية الرجوع، إذ أجبره على هذا الرجوع بالتهديد بالقتل، هذا مع تركه حرية الاعتقاد للكافر الأصلي، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ (البقرة: ٢٥٦). قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ
مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩) (١).

ولما كانت الردة عن الإسلام من أخطر المفاصد التي تشكك في الدين وتفكك
الأمّة وتعمل على تفتيت كيانه فقد كان الارتداد أكثر خطورة من الكفر الأصلي، ولهذا
تشدّد الإسلام في أمر الارتداد وجعله مُحِبَطًا للأعمال الصالحة وماحيًا للحسنات قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَّ وَهُوَ كَاْفِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢١٧).

ولما كان الأمر كذلك فقد اتضح أنّ هنالك فرقًا كبيرًا بين المنافق والمرتد
ويتمثل ذلك في أن المنافق يُظهر الإسلام ويخفي الكفر في ذلة بينما المرتد يتبجح بارتداده
العلمي الظاهر متحديًا المجتمع بأكمله ومستهترًا بثوابته، ولهذا فإن المرتد يُمهّل فإن
تاب حُلِّي سبيله وإلا قُتِل حدًّا.

٢- المحافظة على أفراد المجتمع وشرع عقوبة القتل:

الإنسان من أعظم مخلوقات الله تعالى، ولذلك كانت المحافظة على النفس
البشرية من المقاصد التي عملت الشريعة الإسلامية على تثبيتها، ولأجل ذلك جعلت
للإنسان حرمة عظيمة من أكبر الحرمات وجعلت قتله من كبائر الذنوب وأعظمها
وأقبحها، وليس ذلك فحسب بل جعلت هذا القتل من الفظائع التي تستوجب غضب
الله تعالى.

(١) هاتان الآيتان الكريمتان والآيات الأخرى التي في معناها بيّن العلماء أنها في حق من تؤخذ منهم الجزية
كاليهود والنصارى والمجوس، لا يُكْرَهُونَ، بل يُحَيَّرُونَ بين الإسلام وبين بذل الجزية عن يد وهم صاغرون.
وقال آخرون من أهل العلم: إنها كانت في أول الأمر ثم نُسِخت بأمر الله سبحانه بالقتال والجهاد، فمن أبى
الدخول في الإسلام وجب جهاده مع القدرة حتى يدخل في الإسلام أو يؤدي الجزية إن كان من أهلها.

وقد حافظ الله تعالى على نفوس أفراد المجتمع المسلم فشرع القصاص لئلا يستسهل الناس القتل فيندم الأمن وتعم المجتمع الفوضى، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلهٗ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ أَلْبَابٍ لَّعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٨ - ١٧٩).

٣- المحافظة على مصلحة العقل وشرع عقوبة الخمر:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ (المائدة: ٩٠ - ٩١).

والخمر هي أم الخبائث ومصدر كل الجرائم الاجتماعية وباعثة كل رذيلة وهي تثير ما عملت الشريعة على محاربتة والقضاء عليه من العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع، ومعلوم أنّ الإنسان إذا فقد عقله أو غاب أو اختل لم يتميز عن الحيوان أصلاً. ولما كان الأمر كذلك فقد حذرت الشريعة من كل ما من شأنه أن يفسد العقل البشري الذي هو أعظم نعمة، يقول بتنام في كتابه "أصول الشرائع" مشيراً إلى إصابة الإسلام عند تحذيره من المسكرات: «النبذ في الأقاليم الشمالية يجعل الإنسان كالأبله وفي الأقاليم الجنوبية يصيرُه كالمجنون، وقد حرمت ديانة محمد جميع هذه المشروبات؛ وهذه من محاسنها».

وقال أحد الأطباء الألمان: «اقفلوا لي نصف الحانات أضمن لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات والملاجئ والسجون».

ومعلوم أنّ للخمر أضراراً كثيرة جداً، ومن هذه الأضرار الآتي:

- الخمر مذهبة للعقل، ومعلوم أنّ العقل هو الذي يميز الإنسان فإذا ما أفقدت الخمر هذا الإنسان عقله كان حاله حال الحيوان.

● للخمير على الجهاز العصبي أثرٌ بالغ السوء، حيث تُلحق به الهبوط والضعف والاضمحلال وتسبب أمراضًا خطيرة كشلل الأطراف والهذيان والارتعاش وفقدان البصر.

● كثيرًا ما يؤدي تسمم الجهاز العصبي الذي تسببه الخمر إلى الجنون، وقد ثبت بالإحصاءات الرسمية أنّ ٣٠٪ من المجانين الذين يعالجون في المستشفيات الخاصة بالأمراض العقلية كان جنونهم ناشئًا عن تعاطي المسكرات.

● إن أجهزة الجسم كالأوعية الدموية والكليتين والرئتين تكون في حالة السكر مضطرة للقيام بعملها مضاعفًا، ولذلك تقوم بنشاط غير طبيعي لمواجهة الظروف غير العادية، وذلك أمر خطير يجهد الجسم أيما إجهاد فتسهل حينئذ إصابته بالالتهابات العديدة.

● إن الخمر لا تتحول إلى دم كما تتحول سائر الأغذية النافعة بعد الهضم، وإنما تبقى هذه الخمر على حالها، فتزاحم الدم في مجاريه وعندئذ تسرع حركته وتخرج هذه الحركة عن وضعها الطبيعي، ومعلوم أن الخمر مادة كحول وزيادتها في الجسم لمدة طويلة يحدث التهابًا مزمنًا في الأعصاب والكلية وتصلبًا في الشرايين وتحجرًا في الكبد وضعفًا في القلب.

● للخمير تأثير على المعدة، إذ ترشح العصارة الفعالة في الهضم حتى يغلظ نسيجها وتضعف حركتها وقد تحدث احتقانًا أو التهابًا.

● يكون موت السكران محققًا إذا بلغت نسبة الكحول في دمه ستة في الألف.

● جعل الإنسان مستخلفًا في المال يقضى به ضرورياته وحاجاته وفق ما أمره الله، ولكن مدمن الخمر يضيع ماله في الخمر دون أن يحصل على ضرورياته في الحياة وبذلك يخسر دنياه وأخراه، وذلك هو الخسران المبين الواضح.

● إن من شأن شارب الخمر المدمن لها الفشل الاجتماعي والتقصير في حقوق الزوجة والأولاد فتراهم مهملاً لشؤونهم في الرعاية والعناية من جهة تاركًا حاجتهم وضرورياتهم دون تلبية، وبذلك تضيع أسرته ضياعًا لا يخفى على أحد.

● يقود شرب الخمر إلى مفاسد كالزنا الذي لا يتورع منه السكران في الغالب كما هو معروف، وبذلك يخرب السكران نظام المجتمع ونظام الشريعة التي أراد الله للناس أن يسيروا على نهجها ووفقاً لطريقتها.

● الخمر تثير العداوة والبغضاء بين الناس وربما أدى السكر إلى القتل كما هو معروف، وما ذلك إلا لأن الخمر تثير الشهوة والغضب، فتنتلق هاتان الصفتان دون عقل يضبطهما ودون حاجز يقيد حريتهما، فتنشأ بين الناس النزعات التي يكون فيها السب والقذف أيضاً، فيؤدي ذلك إلى البغض والكراهية، وربما أدى هذا في بعض الأحيان إلى الضرب والقتل أيضاً، ولهذا قال تعالى في الخمر: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾.

● الأمم والمجتمعات - في أصلها - مكوّنة من أفراد وأشخاص، فإذا اختل أمر الأفراد وانتشرت المسكرات اختل - باختلاله - أمر الأمة وأصبحت بالضعف والوهن والتفكك.

● من الأمور الواضحة أن الخمر تؤثر تأثيراً سالباً على القوى العاملة فتضعف نشاطها وتعطل طاقاتها وتقلل إنتاجها.

● الخمر تحل العقل من قيوده، فيكون ذلك مرتبطاً بإذاعة الأسرار وكشف الخفايا، فنجد السكران يذيع سره ولا يقوى على كتمه والاحتفاظ به في قلبه، فيفشي أخص أسراره وأسرار أسرته بل وأسرار دولته إلى الأعداء، وفي ذلك شر كبير ومصيبة عظيمة ليس بعدها من مصيبة.

ولهذا شرعت عقوبة الخمر للمحافظة على العقل من الاختلال أو الغياب أو الفساد، وحتى يرتدع شارب الخمر فإنه يعاقب في الشريعة الإسلامية بالجلد، ومقداره: أربعون جلدة، ويجوز أن يبلغ ثمانين جلدة، وذلك راجع لاجتهاد الإمام، يفعل الزيادة عند الحاجة إلى ذلك، إذا أدمن الناس الخمر، ولم يرتدعوا بالأربعين.

٤- المحافظة على تكاثر المجتمع وشرع عقوبة الفواحش وإشاعتها:

حافظت الشريعة الإسلامية على النسل وعملت من أجل استمراره وعدم تعطله لأنه يمثل الأجيال والمجتمعات التي تعمر الأرض، وقد حث الإسلام المسلمين على الزواج، وجعل له هدفاً أصيلاً وأهدافاً تبعية مكتملة لذلك الهدف، أما الهدف الأصلي فيتمثل في المحافظة على النسل وحفظه من الانقطاع وما عده مما يقصده الإنسان من منافع الزواج يعتبر من الأهداف التبعية المكتملة والمتمة للمقصد الأصلي وعلى هذا فإن فكرة تحديد النسل وتقييد تعدد الزوجات أمور تناقض قصد الشارع إن كانت في صورة مبدأ عام لحياة الأمة الإسلامية وأما في حالة الضرورة الخاصة فإن ذلك يقدر بقدره ويخضع لأحكامه.

ولاشك أن العقول السليمة والفطرة المستقيمة تقضى بأن تكون رابطة الزواج هي الطريق الوحيد لامتداد النسل والمحافظة عليه من الانقطاع. ويلزم من ذلك سد الطريق الذي يناقض مقتضى هذا الطريق أو يعرضه للخطر.

فرابطة الزواج هي السبيل الوحيد الذي يكفل للنسل البقاء والاستمرار في أسمى صور المحافظة؛ وعليه فإن طريق الزنا المقابل للزواج يعد محظوراً أمام جميع أفراد المجتمع من غير استثناء لأنه يناقض مقتضى نظام الزواج ويعرضه للفوضى والانهيار ويهدم كيان الأسر وبالتالي يعرض بقاء الجنس البشري لمخاطر عظيمة.

ورغم أن الجنس يؤدي إلى أصل عملت الشريعة على المحافظة عليه وهو النسل، إلا أن هذا الجنس إذا خرج عن منهاج الله تعالى كان وبالاً وخراباً على الأمم والمجتمعات ولأجل ذلك عملت الشريعة في المحافظة على هذا المنهاج بالآتي:

أ- شرعت عقوبة الزنا:

ولما كانت المحافظة على النسل وإثبات النسب في الشريعة الإسلامية أمراً منضبطاً وله قواعده وأركانه فقد أبطلت الشريعة كل ما عدها، وجعلت الزواج دائماً غير مؤقت بوقت معين، إذ ليس المقصود في الشريعة هو قضاء الشهوة فحسب بل المقصود هو حصول النسل وبقاؤه، ودوام الزواج يضمن رعاية النسل وتربية الأطفال، ولما كان

الأمر كذلك فقد أوجب الإسلام الإعلان عن الزواج حتى يعلم كل فرد من أفراد المجتمع أن هذه المرأة صارت مقصورة على هذا الرجل. ولما كان الأمر كذلك فقد ثبت أنّ الزنى أمر قبيح ومحرم وذلك لأمر كثيرة منها:

• الزنا خروج عن منهج الله تعالى وضوابطه ومعايره التي حددها في حفظ النسل وتربية الأطفال وإثبات النسب.

• الزنا ينشأ عنه أطفال لا راعي لهم فينشؤون مشردين في أغلب الأحوال دون أن يرعاهم أو يرببهم أحد.

• الزنا يؤدي في كثير من الأحيان - إذا حملت المرأة - إلى إزهاق أرواح الأطفال حيث تلقىهم أمهاتهم خوفاً من العار دون أن تأبه لحياتهم أو موتهم.

• زيادة النسل أمر مقصود في الشريعة، والزنا يمنع تكاثر الأمة، وذلك لأنّ كثرة الزنا تزهّد الإنسان في الزواج وتنفر من أعبائه.

• الزنا يفكك الأسر القائمة إذ أنه اعتداء على أعراض الغير من ناحية وخيانة عظمى للزوج أو الزوجة من ناحية أخرى فهو لأجل ذلك أمر منافٍ للفطرة والعقل الصحيح.

• الزنا ينقل الأمراض وبه تتجدد الأمراض، وقد ظهر السيلان والزهري ثم كانت الطامة الكبرى في طاعون القرن العشرين وما بعده " الإيدز " وفيروس الإيدز كما هو معلوم يدخل إلى جسم الإنسان عبر الاتصال الجنسي وغيره، وسرعان ما يبحث عن خلايا لتستضيفه ثم تستعد هذه الفيروسات لمعركة شرسة مع الخلايا الثانية المسئول الأول في جهاز المناعة، فيفقد الجسم قدرته على التصدي للأمراض الميكروبية، فيظل حاله كذلك حتى يموت صاحبه متأثراً بذلك.

وقد انتشر الزنا عند الغربيين في إطار البحث عن الحرية الفردية والتحرر من قيود الدين، وقد تبلور ذلك في الفلسفة التي سادت في عصر النهضة وما بعده، ثم بلغت الحرية الجنسية ذروتها بمذهب الحدائث وما بعد الحدائث التي توسعت فيها مفاهيم

الحرية الجنسية والإباحية المطلقة والإمعان في الحصول على المتعة الجنسية بكافة الوسائل.

وقد أدت إشاعة هذه الفاحشة إلى ظهور مرض الأيدز الخطير، وهو فيروس يتتبع كريات الدم البيضاء المدافعة عن جسم الإنسان فيدمرها الواحدة تلو الأخرى حتى يفقد الجسم أهم وسائل الدفاع ويصبح بعد ذلك عاجزاً كل العجز عن مقاومة الأمراض التي يتغلب عليها الجسم السليم في الظروف العادية، ويظل صاحبه كذلك حتى يقضي عليه بالموت بعد معاناة طويلة وآلام مبرحة، لفترات قد تطول وقد تقصر، بسبب انهيار جهاز المناعة في الجسم.

وقد انتشر هذا المرض بسرعة رهيبية في أوساط الشاذين جنسياً، وكان عدد المصابين بهذا المرض إلى بداية عام ١٩٨١ م لا يتجاوز العشرات، وأما اليوم فقد وصل العدد إلى ملايين الحالات، ولم يتمكن الأطباء حتى الآن من اكتشاف علاج يمكنه القضاء على فيروس الإيدز، كل ذلك على الرغم من أنه قد تم القضاء على كثير من الأمراض المعدية في هذا العصر نتيجة التقدم في الطب والعلاج، إلا أن الأمراض الجنسية تظل حتى الآن من أكثر الأمراض المعدية انتشاراً في العالم وصعوبةً في العلاج إضافة إلى ظهور أمراض أخرى مختلفة ومتنوعة بسبب انتشار الفاحشة وشيوعها وانتشار الشذوذ الجنسي في البلاد الإباحية.

ولا شك أن الأمراض الجنسية تشكل عقاباً إلهياً عاجلاً لمن تجرأ واعتدى على الفطرة الإنسانية السليمة وسلك غير سبيل الهدى بارتكاب الفواحش من زنى ولواط وسحاق وغيرها. وانتشار هذه الأمراض مع الإباحية الجنسية والعلاقات الفاجرة ما هو إلا تحقيق لنبوء سيد البشر وإعجاز نبوي لقوله ﷺ: «لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَصَّتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا». (رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني). (الْفَاحِشَةُ) أي الزنا. (الْأَوْجَاعُ) أي الأمراض. وهكذا نرى أن رسولنا الكريم ﷺ قد جنبنا هذه المفساد قبل دعوة المنظمات الصحية ومناشدها اجتناب الزنا.

إن هذا الحديث يكشف لنا عن سنة من سنن الله في المجتمعات حين تحيد عن منهج الله وتتمرد على الفطرة السليمة، وهو يكشف لنا كذلك الوجه الآخر القبيح لهذه الحضارة المعاصرة التي كشفت كل مستور، وانتهكت كل فضيلة، ولم يعد عندها معنى للشرف والعفة، فكان هذا المرض في هذا العصر لينتبه الناس ويستيقظوا ولا ينخدعوا بزيف الحضارة وبريقها، وليكون وصمة عار على أولئك الذين عزفوا عن الطريق السوي، واتخذوا الفاحشة والشذوذ وسيلة لتصريف شهواتهم، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أما عقوبة الزنا فالجلد مائة جلدة، قَالَ تَعَالَى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَايَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٢). وهذه الآية حكم عام لكنه مقصور على البكر من الرجال والنساء أما الثيب فحكمه الرجم بالحجارة حتى الموت رجلاً كان، أو امرأة، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة^(١).

(١) لقبح هذه الجريمة جعل الله عقوبة من فعلها الرجم حتى الموت إن كان مُحْصَنًا، والجلد مائة جلدة إن لم يكن مُحْصَنًا. فلا يخلو حال الزاني من أحد أمرين:

١- أن يكون مُحْصَنًا.

٢- أو يكون غير مُحْصَن.

أولاً: الزاني المحصن: ويشترط للإحصان الموجب للحدِّ الشروط التالية:

أ- أن يحصل منه الوطء في القُبُل، وذلك بأن يتقدم للزاني والزانية وطء مباح في الفرج.

ب- أن يكون الوطء في نكاح صحيح.

ج- أن يكون الرجل والمرأة حال الوطء بالغين حُرَّين عاقلين.

فالمُحْصَن: هو من وطئ زوجته في قُبُلها، بنكاح صحيح، وكانا بالغين عاقلين حُرَّين.

فهذه خمسة شروط لا بد منها لحصول الإحصان الموجب للحدِّ، وهي: البلوغ، والعقل، والحرية، والوطء في الفرج، وأن يكون الوطء بنكاح صحيح.

حده: إذا زنى المُحْصَن فإن حده الرجم بالحجارة حتى الموت، رجلاً كان، أو امرأة.

ب- شرعت الشريعة الإسلامية عقوبة اللواط:

إذا كان الزنا أمراً قبيحاً فإن اللواط أكثر قبحاً وبشاعةً وذلك لأنه منافٍ للفطرة السوية، وهو شذوذ وانحراف عن الطبيعة، وإذا كان قوم لوط الذين دمر الله مدينتهم وأمطر عليهم الحجارة قد انصرفوا عن فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليهم فما لوال إلى الذكور دون الإناث، فإن الحضارة الغربية السائدة الآن قد تولدت عنها الممارسات غير الشرعية بالصورة التي يندى لها جبين الإنسانية ففاقوا فيها قوم لوط أنفسهم الذين لم يكن لديهم سحر الثورة الجنسية المعاصرة بآلياتها التكنولوجية والإعلامية ووسائلها السمعية والبصرية الجذابة المعضدة بوسيلة العلم والتدعيم النفسي الذي تتلقاه من العلوم الاجتماعية العلمانية.

واللواط من أخطر الأمور على الإنسانية ومن مخاطره الآتي:

- ١- اللواط جريمة بشعة للغاية تخالف الفطرة السليمة والخلق القويم.
- ٢- اللواط أمر يعطل النسل الذي عملت الشريعة من أجل المحافظة عليه، وهذا التعطيل يكون في كلا الطرفين فاعلاً ومفعولاً كما هو معلوم.
- ٣- في اللواط من الأمراض ما لا يعلم خطورته إلا الله، ومن أخطر الأمراض المعروفة الإيدز الذي هو مرض ناتج عن الممارسة الجنسية المنحرفة التي يتعاطاها الشواذ جنسياً.

ثانياً: الزاني غير المحصن: وهو من لم تتوافر فيه الشروط السابقة في الزاني المحصن.

حده: إذا زنى غير المحصن فإن حده الجلد مائة جلدة، وتغريب عام، إلا أنه يشترط في تغريب المرأة وجود محرم معها. فعَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، فَدَّ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدٌ مِائَةٌ وَنَفْيٌ سَنَةٍ، وَالْتَّبْتُ بِالْتَّبِّبِ جَلْدٌ مِائَةٌ وَالرَّجْمُ». (رواه مسلم).

وتغريب الزاني: نفيه وإبعاده عن وطنه.

أما عقوبة اللواط فالقتل، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ فَأَقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

ج- شرعت الشريعة الإسلامية عقوبة القذف:

كما حافظ الإسلام على المجتمع من الفواحش فقد حافظ عليه من الإعلام الجنسي الهدام، فجعل الله تعالى لرمي الناس بالزنا باطلاً حدًّا معيّنًا في القرآن سواء كان كاذبًا أو كان صادقًا ولم يستطيع إثبات اتهامه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٤). فإذا شهد أقل من أربعة لم تثبت البيّنة، ويُحدّون حدَّ القذف ثمانين جلدة.

فإذا تجرأ مرتكب هذه الجريمة ولم يراع لمجتمع المسلمين حرمة فارتكب جريمته أمام أعين أفراده حتى توفر منهم أربعة شهود ففي هذه الحالة يعاقب هذا الجاني بما حاول من نشر الفساد في المجتمع وإلا فحسابه على ربه إن لم يره أحد.

وإذا كانت الشريعة الإسلامية الغراء قد عملت على المحافظة على المجتمع من مفاسد الزنا والرذائل الجنسية فقد عملت أيضًا على المحافظة على هذا المجتمع من عار الجنس المنفلت الذي تأباه الفطرة السليمة، ولأجل ذلك منعت رمي الناس بجريمة الزنا، ولتحقيق معنى الستر اشترطت الشريعة أربعة في الشهود.

ولما كان غرض الإسلام من تحريم القذف هو الستر وعدم إشاعة الفاحشة في مجتمع المسلمين فقد ذم الله تعالى الذين يجنون أن تشيع الفاحشة في مجتمع الذين آمنوا فقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور: ١٩).

وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد عملت على الستر فإن الحضارة السائدة الآن كما هو معلوم تسعى لإشاعة الفاحشة ونشر الزنا والرذيلة، وقد كرس وسائل الإعلام الغربية جهودًا جبارة لصناعة الجنس في الرواية والأدب والإعلانات والأفلام.

وليس ذلك فحسب بل عمدت وسائل الإعلام الغربية إلى تلطيف المفردات الجنسية المنفرة فسمت الزنا "الجنس مع شركاء متعددين" وسمت "اللواط" بـ "الجنسية المثلية" وقد جاء ذلك التعبير مرتبطاً عندهم بتغيير في الاتجاهات النفسية والاجتماعية نحو الجنس.

ولم يقف الإعلام الغربي عند حد إشاعة الفاحشة وتلميع صورتها الشوهاء بل إنه حاول تزييف الحقائق المتعلقة بأخطار هذه الممارسات، إذ نجده أتى في كارثة الأيدز بنظرية لا أساس لها من الصحة وهي أن الأيدز بضاعة أفريقية قد سببها القرد الأخضر للإنسان الأفريقي ثم انتقل إلى أمريكا.

والحق أن الإيدز لم يأت من أفريقيا ولم يسببه القرد الأخضر ولم يأت كذلك من مجرة فضائية مقتحمًا عليهم الكرة الأرضية ولم يصنع كذلك في أضيابير المعامل الحربية الأمريكية وإنما كان مرضًا جنسيًا ناتجًا عن الممارسة الجنسية المنحرفة التي يتعاطاها الأمريكيون الشواذ جنسيًا.

وقد اقتنعت المؤسسات الأكاديمية الأمريكية تمامًا بالأسباب الحقيقية لانتشار الإيدز إلا أن باحثيها قد لاذوا بالصمت وأخفوا نتائج أبحاثهم تفاديًا لسطوة الإعلام وخوفًا من جمعيات الشواذ جنسيًا وجمعيات الضغط كما حدث للباحث "سونانيد" حين أعلن أن نمط الحياة عند الشواذ هو وراء أزمة الإيدز.

يقول باحث أمريكي: «لقد أمعنت النظر والتحليل في المعلومات الطبية فوجدت نظريات الإيدز مليئة بالثقوب الواضحة والتناقضات المشوشة والمفارقات الواضحة، أنا لا أقول أكثر مما قال به الأدب الطبي عن الإيدز ولكن الفارق الوحيد أنني أستطيع أن أقول ذلك جهرًا وعلانية على صعيد الحياة العامة بينما لا يستطيع معظم الباحثين والعاملين في مجال الأيدز ذلك».

والحق أنه ما من أمة أو مجتمع تنشر الفاحشة وتشيعها إلا وقع عليها الوبال والكوارث والأزمات والأوجاع التي لم يسبق لها مثيل.

٥- المحافظة على الأموال وعقوبة سرقتها:

لما كان للمال في الشريعة الإسلامية أهمية كبيرة فقد عملت الشريعة على حفظه فشرعت عقوبة السرقة وهي قطع يد السارق من الكف، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٨).

وقد جاءت الشريعة بهذه العقوبة الشديدة لأن السارق يتعدى على حقوق الغير بصورة فيها استهانة بالآخرين وبحقوقهم كما أن فيها من الترويع ما فيها إذ ينتهك الحرز ويكسر ما أغلق ويروع أفراد المجتمع، ولهذا أوجب الله تعالى فيه القطع دون المختلس والمتهب، فالسارق لا يمكن الاحتراز منه فإنه ينقب الدور وينتهك الحرز ويكسر القفل ولا يمكن لصاحب المتاع الاحتراز بأكثر من ذلك فلو لم يشرع قطعه لسرق الناس بعضهم بعضاً وعظم الضرر واشتدت المحنة بالسارق بخلاف المتهب والمغتصب.

فإنَّ المتهب هو الذي يأخذ المال جهره بمرأى من الناس فيمكنهم أن يأخذوا على يديه ويخلصوا حق المظلوم أو يشهدوا له عند الحاكم وأما المختلس فإنه إنما يأخذ المال على حين غفلة من مالكة فلا يخلو من نوع تفريط يمكن به المختلس من اختلاسه وإلا فمع التحفظ والتيقظ لا يمكنه الاختلاس، فليس كالسارق بل هو بالخائن أشبه.

٦- المحافظة على أمن المجتمع وعقوبة الحرابة:

الحرابة من الأمور التي تقطع الطريق وتعطل حياة المجتمع في انتقال أفرادها من مكان إلى مكان، ومن الممكن أن تعوق هذه الحرابة مصالح الناس الكبرى ولأجل ذلك كانت من أكبر الكبائر واستحقت عقاباً شديداً، ومن مساوي هذه الجريمة البشعة الآتي:

- أخذ مال الغير دون وجه حق.
- ترويع الناس وتخويفهم.

● إلحاق الأذى بالآخرين وقتلهم أحياناً.

ولما كانت الحرابة من الجرائم التي تهدد أمن الناس وتعطل منافعهم التي تتوقف على الأسفار والضرب في الأرض للابتغاء من فضل الله فقد شرع الله تعالى للحرابة عقوبة شديدة، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِمَّنْ خَلَفَ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ حِزْبٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٣).

وبهذه الآية يتبين أن للحرابة عقوبات مختلفة هي:

- القتل والصلب، وفي هذه الحالة يكون المحارب قاتلاً وآخذاً للمال.
- القتل بدون صلب، وفي هذه الحالة يكون المحارب قاتلاً دون أخذ المال.
- قطع اليد والرجل من خلاف وفي هذه الحالة يكون المحارب آخذاً للمال بدون قتل.
- النفي من الأرض، وفي هذه الحالة يكون المحارب يخيف الطريق دون قتل أو أخذ مال.

النتائج المترتبة على الضبط الاجتماعي في كلا النموذجين القرآني والغربي:

لما كان مفهوم الضبط الاجتماعي وطبيعته وخصائصه تختلف اختلافاً جوهرياً نتيجةً لاختلاف الأسس والمنطلقات التي تبنى عليها الفلسفة العامة، فقد اختلفت النتائج التي تترتب على عملية الضبط الاجتماعي في كل من النظامين القرآني والغربي، ولأجل ذلك كانت النتائج التي تترتب على الضبط الاجتماعي الغربي كالآتي:

- فقدت وسائل الضبط الغايات العليا التي يجب أن تهدف إليها.
- فقدت وسائل الضبط عنصر القداسة والإلزام عند الفرد الموجهة إليه.
- سادت روح النسبية وافتقدت المجتمعات إلى القواعد المعيارية الثابتة المتعالية.

- ازدادت حدة الخلخلة في المجتمعات وظهر الفساد وتفشت الرذائل والانحرافات حتى سعت المجتمعات إلى تقنينها وإجازتها.
- ساد الشعور بعدم الثبات في قواعد التجريم وأهملت حالة التطابق بين السلوكيات والمعايير فتأكلت المجتمعات.
- أما في الإسلام فإن الأمر مختلف اختلافاً واضحاً ولهذا تميزت نتائج الضبط الاجتماعي القرآني بالآتي:
- إن حالة المطابقة بين السلوك والقواعد الخلقية المعيارية - التي يرجى الثواب عليها - إنما هي حالة طبيعية عند الفرد والمجتمع حيث إن المرتكز هو الإيمان الذي تغدو في إطاره حالات الانحراف شاذة ونادرة وبعيدة عن النمط العام.
- إن سيادة الأمن والانضباط والتواؤم الاجتماعي هي مكوّن أساس للمجتمعات المسلمة التي استجابت كلياً لعملية التزكية بما تحمل من أسس وقواعد، وهذه العملية إنما تركز على الروح الكلية للإسلام ولا تتأتى بالعقوبات والقوانين فحسب.
- إن أسس ومكونات الضبط في القرآن تؤدي إلى تهيئة الظروف النفسية والاجتماعية للأفراد والمجتمع حتى تطابق بين السلوك والمعايير، وهي كما تسعى لهذه التهيئة فإنها تسعى من جانب آخر إلى تخفيف منابع الشر والانحراف في النفس والمجتمع.
- أنشأ القرآن من النظم الاجتماعية ما هو كفيل بهذا الضبط المنشود، وذلك عن طريق آلية مستمرة لمتابعة التقيد بالمعايير، مثل آلية الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فضلاً عن المراقبة الداخلية للفرد.
- إن النظام القرآني يقوم على التحصين والوقاية ودرء المفاسد، وليس هو نظاماً علاجياً عقابياً يهتم بنتائج الأعمال ويغفل أسبابها، إذ أنه لا يلجأ إلى الحدود والعقوبات إلا في آخر المطاف وعند ظهور المفسدة المشهود عليها، ولهذا فإن هذا البناء لا يقوم على القوانين، بل إن أساسه المتين هو وجدان الفرد لا العقوبات القانونية.

• يتميز الضبط الاجتماعي في الإسلام بالثبات والمعيارية لا النسبية، كما يتميز بأنه إلهي المصدر، الأمر الذي يمنحه القداسة والاحترام عند أفراد المجتمع.

ولما كان الأمر كذلك فقد أحس الغربيون أنفسهم بإعجاز الضبط الاجتماعي الإسلامي في مستويات تزكية النفس البشرية وتهذيبها كما أحسوا بعجز نظامهم في الضبط الاجتماعي وفشله في هذه الجوانب إزاء النظام الإسلامي وإن لم يعترفوا بذلك صراحة، ويبدو ذلك واضحاً في أنهم يجلبون شيوخاً مسلمين إلى عتاة السجناء المجرمين عندهم ليهدبوا أخلاقهم ويحسنوا طباعهم ويضبطوا سلوكهم ليعودوا مواطنين صالحين يأمن المجتمع شر جرائمهم، وهو أمر معتاد في السجون الأمريكية كما هو معروف.

ولا شك أن تميز نظام الضبط الاجتماعي في القرآن يكشف عن إعجازه في هذا الوجه المتفرد الذي لا تستطيع التشريعات الإنسانية أن تأتي بمثله أو تفضي إلى مثل نتائجه، ومن أحسن من الله حكماً وضبطاً وتنظيماً للمجتمعات.

إعجاز التشريع الإسلامي في محاربة الزنا والتحرش الجنسي

الإسلام دين كل زمان ومكان لأنه من الله العليم الخبير الذي يعرف النفس البشرية حق المعرفة لأنه خالقها وبالتالي يعرف ما يصلحها، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (المالك: ١٤). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ (النجم: ٣٢). فالقانون الرباني ينظر للمشكلة بنظرة شاملة، لا تتنافى مع طبيعة واحتياجات النفس البشرية، فالإسلام تعامل مع هذه المشكلة بالترهيب من العقوبة المشددة، وبالوقاية من خلال التربية الإسلامية الصحيحة التي تقنن الشهوة ولا تكبتها، فتشجع علي الزواج وتمنع العلاقات الجنسية غير المشروعة وما يؤدي إليها.

أولاً: العقوبات الرادعة:

لقد فرض الإسلام العقوبات المشددة لمنع الزنا والتحرشات الجنسية، ولمنع خوض الألسنة في أعراض المحصنات ولردع الذين يجنون إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، كل ذلك مع التخويف بعذاب الآخرة.

وقد جعل الله ﷻ حد الحراية لمعاقبة كل من سولت له نفسه سفك الدماء وسلب الأموال وهتك الأعراض وإهلاك الحرث والنسل، والتحرش بالنساء يتضمّن إفساداً في الأرض، بحسابه متضمناً قطع الطريق على المتحرّش بها، أو إلجائها إلى الطريق الضيقة بغية النيل منها أو سماعها ما تكره، أو إجبارها على الرضوخ له بطريقة أو أخرى، وقد يتضمن إخافتها أو إرعابها لتحقيق مقصوده، وذلك يكون جريمة حراية متكاملة الأركان.

ولذا فإنّه يردُّ في حق المتحرشين بالنساء العقوبتان الدنيوية والأخروية الواردتان في قول الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا

مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿المائدة: ٣٣﴾. وذلك لقطع دابر هذه الجريمة من المجتمع.

ثانياً: الوقاية من خلال تربية النفوس على العفة:

تشيع الشريعة الإسلامية نور العفة بين الناس لكي تحول بينهم وبين الوقوع في الشهوات والعقوبات، فدعت إلى تخفيف نار الشهوة في النفوس بنهيها عن إتباع خطوات الشيطان التي تأمر بالفاحشة، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٢١).

وأمرت الشريعة بغض البصر لأهميته في كبح جماح الشهوة وحفظ الفروج للرجال والنساء، وحثت على ستر المرأة لزيبتها حتى لا يفتن بها الرجال، وفي مقابل كف النفس عن إشباع الغريزة الجنسية بالحرام، شجع المولى تبارك وتعالى على تيسير الزواج الحلال حتى لا يحدث كبت نفسي قد يؤدي إلى انفجار غير محسوب فقال تَعَالَى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٢). وأمر الإسلام بالعفاف في غير وجود الزواج فقال تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النور: ٣٣).

وجاء ﷺ بالدواء المعين على الاستعفاف فقال ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَعَصَّ لِلْبَصْرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ» (رواه البخاري ومسلم).

ولأن الاختلاط بين الرجال والنساء يوجب نار الشهوة ويؤدي إلى ما لا تحمد عقباه، فقد حرص شرعنا الحنيف على منع الاختلاط بين الجنسين، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (الأحزاب: ٥٣)، فقد دلت هذه الآية على أن الأصل احتجاب النساء عن الرجال، وعدم الاختلاط لاسيما في دور العلم، حرصاً على طهارة قلوب الرجال والنساء.

وقد منع رسول الله ﷺ الرجال الأجانب من الدخول على النساء، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا كُمْ وَالِدُخُولَ عَلَى النِّسَاءِ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمُو؟»، قَالَ: «الْحَمُو الْمَوْتُ» (رواه البخاري ومسلم).

فحذّر ﷺ من الدخول على النساء باسم فعل الأمر (يَاكَ)، والمعنى احفظوا أنفسكم واتقوا الدخول على النساء، فهو أمرٌ بآتقاء الدخول على النساء والأمر يفيد الوجوب، ونهى عن الدخول عليهن؛ لأن الأمر بالشيء نهى عن ضده، والنهي يفيد التحريم. وسمى رضي الله عنه دخول قريب الرجل على امرأته وهو غير محرّم لها باسم الموت، ولا شك أن تلك العبارة هي أبلغ عبارات التحذير.

وحرّم الإسلام خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية فقال رضي الله عنه: «لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ» (رواه الترمذي وغيره، وصححه الألباني).

وقد حرّم الإسلام اللمس المحرم، ومنه المصافحة باليد، لقوله رضي الله عنه: «لَأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ رَجُلٍ بِمَخِيطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ». (رواه الطبراني، وصححه الألباني، والمخيط: الإبرة).

دلائل إعجازية في غض البصر:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴿النور: ٣١-٣٢﴾. وقد أتبع الله حفظ الفرج بعد غض البصر إذ أن هذا وسيلة ذاك والبصر يريد الزنا لكل من الرجل والمرأة فالأمر سواء.

وقال رسول الله ﷺ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: «يَا عَلِيُّ لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ» (رواه أبو داود، وحسنه الألباني). وعن جرير رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَظْرَةِ الْفَجَاءَةِ فَقَالَ: «اصْرِفْ بَصْرَكَ» (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

وقال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فليأت أهله فإن ذلك يرد ما في نفسه». (رواه مسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «العَيْنَانِ زَنَاهُمَا التَّظَرُّ، وَالْأَذُنَانِ زَنَاهُمَا الإِسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زَنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زَنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرَّجُلُ زَنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَتَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ». (رواه مسلم).

وفي رواية: «العَيْنُ تَزِينِي، وَالْقَلْبُ يَزِينِي، فَزِنَا الْعَيْنِ التَّظَرُّ، وَزِنَا الْقَلْبِ التَّمَتَّى، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ مَا هُنَالِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وصححه الأرنبوط). وفي رواية: «وَزِنَا الْفَمِ الْقَبْلُ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ أَوْ يُكَذِّبُهُ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وقال الأرنبوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم»).

إن من الناس من يكون زناه حقيقياً بإدخال الفرج في الفرج الحرام ومنهم من يكون زناه مجازاً بمقدمات الزنا من النظر الحرام أو الاستماع إلى الزنى وما يتعلّق بتحصيله أو بالمس باليد بأن يمسّ أجنبية بيده أو يقبلها أو بالمشي بالرجل إلى موضع الزنا، أو اللمس أو الحديث الحرام مع أجنبية ونحو ذلك أو بالفكر بالقلب فزنا القلب: تمّيته واشتهاؤه ووقوع الزنا الحقيقي. فكل هذه أنواع من الزنى المجازي.

وسميت هذه الأشياء باسم الزنا لأنّها مقدمات له، ومؤذنة بوقوعه، ونسب التصديق والتكذيب إلى الفرج لأنّه منشؤه ومكانه، أي: يصدّقه بالإتيان بما هو المراد منه، ويكذّبه بالكف عنه. وقيل: معناه: إن فعل بالفرج ما هو المقصود من ذلك، فقد صار الفرج مُصدّقاً لتلك الأعضاء، وإن ترك ما هو المقصود من ذلك، فقد صار الفرج مُكذّباً.

وقد أشارت الأبحاث إلى أن المؤثرات الخارجية وأهمها البصر واللمس والشم والسمع على الترتيب هي التي تتحكم في إنطلاق الإثارة الجنسية وأن التغيرات الفسيولوجية وإفراز الهرمونات الجنسية التي تحفز السلوك الجنسي تأتي تبعاً لذلك.

الآثار السلبية لإطلاق النظر إلى المناظر المثيرة جنسياً:

- تزايد إفراز الهرمونات الجنسية والرغبة في إكمال الفعل الجنسي مما يؤدي إلى استثارة الجهاز العصبي بشدة ينتج عنها أضرار بدنية إذا لم يتم تفرغ هذه الطاقة (زيادة ضربات القلب - الإجهاد القلبي لزيادة إفراز الكاتيكول أمين).
- فقدان السيطرة على النفس نتيجة الانفعالات الشديدة والنشاط الزائد لمراكز المخ المتحكمة في الاستثارة الجنسية مما يجعل السلوك الإنساني خارج دائرة التحكم.
- الوقوع في الزنا وحوادث الاغتصاب.
- الانخراط في العادة السرية وهي إهدار للطاقة الحيوية للجسم وهي التي يحتاجها الجسم بشدة في عمليات النمو البدني والمهاري خاصة أثناء فترة البلوغ. وقد ثبت علمياً أن الانخراط الزائد في هذا السلوك يمكن أن يؤدي إلى أمراض عقلية.

دلائل الإعجاز في الكتاب والسنة:

إن الأمر بغض البصر عن المحارم يجنب الإنسان الإثارة الجنسية وبالتالي التغيرات الهرمونية والعصبية والبدنية التي تتوالى كرد فعل طبيعي لهذه الإثارة. كما أن غض البصر هو وسيلة حفظ الفرج إذ أن النظر يؤدي إلى الإثارة التي تؤدي إلى الرغبة الشديدة في إكمال الفعل الجنسي.

وهذه دراسة جديدة تؤكد صدق ما جاء في كتاب الله قبل أربعة عشر قرناً، حيث تؤكد دراسة هولندية جديدة أجراها أحد الباحثين على طلاب وطالبات في الجامعة أن مجرد حضور النساء الفاتنات والحديث معهن يسبب التشويش للرجال ويخفض أداءهم العقلي بشكل كبير.

ويقول العلماء إنه كلما كانت زينة المرأة وفتنتها أكبر كلما كان التأثير أكبر، ويفسر العلماء هذه الظاهرة بأن خلايا الدماغ التي تقوم بمعالجة المعلومات واتخاذ القرار تتأثر

بحضور المرأة والنظر إليها والحديث معها. وركزت هذه الدراسة على موضوع الجاذبية والفتنة والتبرج. فالنظر إلى المرأة المتبرجة يُفقد الرجل صوابه وبالتالي لا يتمكن من اتخاذ قرار صائب، على الأقل خلال وبعد النظر بفترة قصيرة حتى يزول التأثير.

إن الدراسات أظهرت أن تأثير المرأة المتبرجة أكبر بكثير من المرأة العادية، ومن هنا ربما ندرك لماذا حرم الإسلام تبرج المرأة، بل إن النبي ﷺ قد حذر المرأة من التبرج وأخبر بأنها لا تشم رائحة الجنة، إلا أن تتوب إلى الله تعالى.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا» (رواه مسلم).

قال النووي رحمته الله: «هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ مُعْجَزَاتِ النَّبُوَّةِ، فَقَدْ وَقَعَ مَا أَخْبَرَ بِهِ ﷺ، فَأَمَّا أَصْحَابُ السِّيَاطِ فَهُمْ غِلْمَانُ وَالِىِ الشُّرْطَةِ.

أَمَّا (الْكَاسِيَاتُ) فَفِيهِ أَوْجُهُ أَحَدُهَا: مَعْنَاهُ: كَاسِيَاتٌ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ، عَارِيَاتٌ مِنْ شُكْرِهَا، وَالثَّانِي: كَاسِيَاتٌ مِنَ الثِّيَابِ، عَارِيَاتٌ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ وَالِإِهْتِمَامِ لِأَخْرَجَتِهِنَّ، وَالِإِعْتِنَاءِ بِالطَّاعَاتِ. وَالثَّلَاثُ: تَكْشِفُ شَيْئًا مِنْ بَدَنِهَا إِظْهَارًا لِحَمَائِلِهَا، فَهِنَّ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ. وَالرَّابِعُ: يَلْبَسْنَ ثِيَابًا رَفَاقًا تَصِفُ مَا تَحْتَهَا، كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ فِي الْمَعْنَى.

وَأَمَّا (مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ): فَقِيلَ: زَائِغَاتٌ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا يَلْزِمُهُنَّ مِنْ حِفْظِ الْفُرُوجِ وَغَيْرِهَا، وَمُمِيلَاتٌ يُعَلِّمْنَ غَيْرَهُنَّ مِثْلَ فِعْلِهِنَّ، وَقِيلَ: مَائِلَاتٌ مُتَبَخَّرَاتٌ فِي مَشِيَتِهِنَّ، مُمِيلَاتٌ أَكْتَفِهِنَّ، وَقِيلَ: مَائِلَاتٌ يَتَمَشَّطْنَ الْمِشْطَةَ الْمَيْلَاءَ، وَهِيَ مِشْطَةُ الْبَغَايَا مَعْرُوفَةٌ لِهِنَّ، مُمِيلَاتٌ يُمَشَّطْنَ غَيْرَهُنَّ تِلْكَ الْمِشْطَةَ، وَقِيلَ: مَائِلَاتٌ إِلَى الرَّجَالِ مُمِيلَاتٌ لَهُمْ بِمَا يُبْدِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَغَيْرِهَا.

وَأَمَّا (رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ) فَمَعْنَاهُ: يُعْظَمْنَ رُءُوسَهُنَّ بِالْحُمْرِ وَالْعَمَائِمِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يُلْفَى عَلَى الرَّأْسِ، حَتَّى تُشْبِهَ أَسْنِمَةَ الْإِبِلِ الْبُخْتِ، هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ فِي

تفسيره، قَالَ الْمَازِرِيُّ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ يَطْمَحْنَ إِلَى الرَّجَالِ وَلَا يَغْضُضْنَ عَنْهُمْ، وَلَا يُنْكَسْنَ رُءُوسَهُنَّ.

وَاخْتَارَ الْقَاضِي أَنَّ الْمَائِلَاتِ تُمَشِّطُنَ الْمِشْطَةَ الْمَيْلَاءَ، قَالَ: وَهِيَ ضَفْرُ الْغَدَائِرِ وَشَدَّهَا إِلَى فَوْقَ، وَجَمَعَهَا فِي وَسَطِ الرَّأْسِ فَتَصِيرُ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ، قَالَ: وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّشْبِيهِ بِأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ إِنَّهَا هُوَ لَارْتِفَاعِ الْغَدَائِرِ فَوْقَ رُءُوسَهُنَّ، وَجَمْعَ عَقَائِصِهَا هُنَاكَ، وَتُكْثِرُهَا بِمَا يُضَفِّرُنَّهُ حَتَّى تَمِيلَ إِلَى نَاحِيَةِ مِنْ جَوَانِبِ الرَّأْسِ، كَمَا يَمِيلُ السَّنَامُ.

قَوْلُهُ عَلَى (لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ) يُتَأَوَّلُ تَأْوِيلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مُحْمُولٌ عَلَى مَنْ اسْتَحَلَّتْ حَرَامًا مِنْ ذَلِكَ مَعَ عِلْمِهَا بِتَحْرِيمِهِ، فَتَكُونُ كَافِرَةً مُخَلَّدَةً فِي النَّارِ، لَا تَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَبَدًا.

وَالثَّانِي: يُحْمَلُ عَلَى أَنَّهَا لَا تَدْخُلُهَا أَوْلَ الْأَمْرِ مَعَ الْفَائِزِينَ» (١).

من بديع الإعجاز التشريعي في الإسلام:

وَلَيْشَهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛

تحرص الشريعة الإسلامية على حمل الناس على طاعة أوامرهم ونواهيها طاعة اختيارية، تنبعث من أعماق النفس، وتعتمد في تحقيق هذه الطاعة على تنبيه وإيقاظ الشعور الإيماني في النفوس، وتذكير الناس باليوم الآخر وما فيه من الجزاء والحساب مع بيان ما في هذه الأوامر والنواهي من خير ومصلحة للناس في الدنيا والآخرة.

لكن هذا لا يكفي لحمل الناس على هذه الطاعة، وذلك لأن الناس ليسوا متساوين في يقظة الضمير الديني والإنساني، وتحقق الإيمان واستحضار اليوم الآخر وخشيته، وغلبة نوازع الشر والهوى وحب المنافع ولو كان ذلك على حساب الآخرين. وانطلاقاً من هذا الاعتبار فإن العقوبات التي توقعها الدولة على الذنوب والجرائم هي السبيل الملزم لتنفيذ أوامر الله ونواهيها.

(١) شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٩٠ - ١٩١).

فللعقوبة في الإسلام أغراض منها:

١- تحقيق العدالة: فحياة الإنسان، وممتلكاته، وعرضه من الأمور الواجبة الاحترام وبالتالي فليس من العدل في شيء ترك الإنسان الذي يتعرض لهذه الأمور دون أن يطاله شيء.

٢- تحقيق الردع: والردع هنا على نحوين:

• الردع العام: بإنذار الجماعة بشرها إذا ما ارتكب أحد أفرادها فعلاً يعد جريمة، أو بمثل العقوبة التي تصدر ضد الجاني إذا ارتكب فعلاً مجرمًا وتثبت مسؤوليته، فوظيفة العقوبة هنا تهديدية.

• الردع الخاص: أما وظيفة الردع الخاص فيما يتركه ألم العقوبة من أثر نفسي في المحكوم عليه يحول بينه وبين العودة إلى الإجرام مرة ثانية.

٣- إصلاح الجاني: فالعقوبة إنما قررت لإصلاح الجاني لا للانتقام من الجاني والشفقي منه، فالمجرم إذا شعر بالألم وأحس به فإنه سيشعر حتمًا بمقدار ما تسبب به للآخرين من الألم مما يوئد حالة صحوة الضمير في نفسه ذلك الذي يدفعه إلى تائبها مما يؤدي بالنتيجة إلى الإقلاع عن الأعمال الإجرامية.

ولنأخذ إشارات طائفة من المؤمنين لجلد الزانية والزاني كمثال على ذلك، قَالَ تَعَالَى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٢). فلماذا اشترط الآية الكريمة لكمال تطبيق الحد أن يشهد عليه عدد من المؤمنين؟ ولماذا لم تقل: "طائفة من الناس"؟

الجواب: الغاية من شهود المؤمنين لتنفيذ الحد هي:

١- يشهدون للحاكم أمام الله تعالى ثم أمام الناس أنه يحكم بما أنزل الله تعالى.
٢- يراقبون الجالد فلا يزيد في الضرب عن العدد المحدد (مائة جلدة) ولا ينقص منه، ولا يزيد من شدة الضرب عن الحد المعقول، ولا يتهاون في الجلد.

- ٣- فيه عذاب نفسى للمجلود أشد من الأذى البدني حيث يرى جَلده أعيانُ البلد وفضلاؤهم، وهذا لا يتحقق إن تم جلد الفسقة أمام بعضهم بعضًا، وبهذا يجزم أن لا يعود لمثله مرة أخرى.
- ٤- حين يعود الشهود إلى بيوتهم ويخبرون أهاليهم بما رأوا يتحقق الهدف الرئيس للعقوبة في الإسلام وهو الردع.
- ٥- قد تصدر أصوات أو حركات أو انكشاف للعورات، والشهود المؤمنون يحفظون السر.
- ٦- أن المؤمنين الذين يشهدون تنفيذ الحد يستغفرون للمجلود ويسألون الله سبحانه وتعالى أن يرزقه الصبر وأن يخفف عنه.

من إعجاز القرآن والسنة في الطب الوقائي والكائنات الدقيقة

وضع الإسلام منهجاً فريداً متكاملًا لحفظ الصحة البشرية، سبق به كل المعارف الإنسانية، يتكون من إرشادات لحفظ: صحة الجسم، وصحة العقل، وصحة السلوك الخلقي، والصحة النفسية.

ويُعَدُّ الالتزام بالطهارة وتحري النظافة، من أول ما أمر به الإسلام من تعاليم الخصال الحميدة، ومما يدلُّ على ذلك خطاب الله تعالى لرسوله ﷺ، بقوله تَعَالَى: ﴿وَيَأْتِكُمْ فُطُورٌ﴾ (المدرثر: ٤). إذ كانت تلك الآية، من أوائل ما نزل به الروح الأمين من تعليمات الشارع الحكيم، التي أظهرت ما للطهارة من مكانة رفيعة، جعلتها من أهمِّ معالم هذا الدين الجديد.

وما كان في إمكاننا قبل اختراع عدسات المجهر، أن ندرك الكثير من أسرار الحقائق الغائبة، التي أشار إليها القرآن والسنة، وأثبتتها بحوثُ العلماء المعاصرين، فقد تمَّ اكتشاف ما يسببه عالم الأحياء المجهرية الدقيقة، من الأمراض المختلفة، وظهرت بذلك لنا حقائق وحكم صحيحة، حملتها توجيهات الإسلام، فوضعتُ بها حجر الأساس لعملية بناء الطبِّ الوقائي الحديث، الذي يُعنى بمنع انتشار الأمراض، وتعزيز صحَّة الفرد والجماعة، وإغلاق منافذ الداء.

والطب الوقائي الحديث هو العلم المتعلق بالوقاية من الأمراض الجرثومية، والعضوية، والنفسية للفرد والمجتمع. وعليه تكون مسببات الأمراض الرئيسة ثلاثة:

- مسببات من الكائنات الدقيقة.
- مسببات من مركبات عضوية.
- مسببات من إضرابات نفسية.

وتعتبر الكائنات الدقيقة أمة من الكائنات الحية، التي لا ترى أعيننا معظمها، وتوجد في كل مكان؛ في الهواء والماء والتربة، وعلى أجسامنا وفي أفواهنا وأمعاننا، بل

وأحيانا في الطعام الذي نأكله، وبعضها مفيد وبعضها ضار، وتتكون من عائلات وأجناس وأنواع متباينة وعديدة، وتتفاوت في الصغر فأصغرها الفيروسات، التي يتراوح حجمها من ١٠-٣٠ نانومتر (١/بليون من المتر)، يليها الميكروبات التي يصل حجمها إلى ١٠٠٠ نانومتر، ثم الفطريات ثم الطفيليات الأولية، فالديدان المتطفلة بأنواعها المختلفة، وأخيراً الحشرات المفصليّة المتطفلة.

ويعتبر الجسم البشري أرضاً خصبة لأنواع كثيرة وقطاعات واسعة، من الكائنات الدقيقة؛ وخصوصاً في الأنف والحلق، وفي الجزء السفلي من القناة الهضمية، وعلى الجلد، وهي كائنات متخصصة لكل عضو ونسيج. وتعيش هذه الكائنات المتطفلة فيما بينها وبين الإنسان في علاقة ديناميكية وحيوية متوازنة. والجسم البشري في حالة اشتباك دائم مع هذه الكائنات الداخلية والخارجية التي تهاجم وتلحق به الضرر، يقاومها بكل الأسلحة التي يمتلكها، وقد سخر الله - له أسلحة عديدة، يغالب بها هذه الكائنات الغازية له، غير أنها قد تفلت من كل الوسائل الدفاعية أو تتغلب عليها، لتوقع الضرر بجسم الإنسان، لذلك كانت الوقاية منها، هي خير وسيلة للنجاة من شرورها والحد من أخطارها.

والوقاية من هذه الكائنات لا يكون إلا بأمور ثلاثة:

- قطع الطرق الموصلة لهذه الكائنات إلى جسم الإنسان.
- الحفاظ على أجهزة المناعة والدفاع لدى الإنسان وتقويتها.
- التخلص من مخازن هذه الكائنات أو تنظيفها بقدر الإمكان.

وتتوزع هذه المخازن بين ثلاثة مصادر:

- الإنسان.
- الحيوان.
- البيئة: التربة والماء.

ويعتبر الإنسان مخزناً لعدد كبير من الكائنات الدقيقة، في أماكن مهمة في جسمه تعمل كمخازن دائمة لها، وأبرزها: الجلد والفم والأنف والحلق والقناة الهضمية، والتي تحتوي عدد كبيراً من الميكروبات والفيروسات، والتي يمكن أن تبقى في الجسم لعدة أشهر أو سنوات.

وها هنا بعض التشريعات والتوجيهات الإسلامية التي تتعلق بالنظافة الشخصية والتي تخلص الإنسان من الكائنات الضارة وتشكل أحد الأسس في علم الطب الوقائي بمفهومه المتكامل في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية.

فقد حرصت نصوص الشريعة أن تستأصل هذه الكائنات من مخازنها وتحول بينها وبين إلحاق الضرر بالإنسان فأرست قاعدة النظافة الشخصية، لوقاية الفرد من الأمراض المعدية والعضوية والتي تتحقق بها فرضه الله ﷻ وبما سنّه نبيه ﷺ من الوضوء والغسل ونظافة الثياب وأماكن الصلاة وسنن الفطرة.

ولقد سمّت النصوص النظافة بالطهارة، وجعلتها جزءاً مهماً من الدين، بل هي شرطه، كما قال ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ» (رواه مسلم). وأثنى الله ﷻ على عباده المطهرين فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ (التوبة: ١٠٨). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

وجعل الإسلام وسيلة الطهارة الأولى هي الماء لأنه وسط غير ملائم لنمو الكائنات الدقيقة فيه متى كان نقياً. وقد فرض الله ﷻ وبين رسوله ﷺ أن على الإنسان المسلم إذا أراد أن يصلي فإنه يجب عليه أن يتوضأ، ومن فرائض الوضوء وسننه غَسْلُ الأجزاء المكشوفة من جلده، (الوجه واليدين والذراعين ومسح الرأس والأذنين وغسل القدمين وغسل الفم والأنف)، وقد يحدث ذلك خمس مرات في اليوم الليلة.

كما شرع الإسلام غسل جميع البدن على وجه الإلزام، وندب إليه في أكثر من مناسبة^(١)، بل حدد الفترة الزمنية التي لا يمكن تجاوزها بغير غسل، فقال ﷺ: «حَقَّ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، يَغْسِلُ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ» (رواه البخاري ومسلم). وهذا يحقق غاية الكمال في نظافة الجسم كله، ويزيل عدد هائلا من الكائنات الدقيقة التي تعيش على جلد الإنسان.

تذكر المراجع الطبية أن الجلد يعتبر مخزناً لنسبة عالية من البكتريا والفطريات، ويكثر معظمها على البشرة وجذور الشعر، ويتراوح عددها من عشرة آلاف إلى مائة ألف جرثومة على كل سنتيمتر مربع من الجلد الطبيعي، وفي المناطق المكشوفة منه، يتراوح العدد بين مليون إلى خمسة ملايين جرثومة/سم، كما ترتفع هذه النسبة في الأماكن الرطبة مثل: المنطقة الإربية (أصل الفخذ مما يلي البطن) وتحت الإبطن، إلى عشرة ملايين جرثومة/سم. وهذه الجراثيم في تكاثر مستمر.

والغسل والوضوء خير مزيل لهذه الكائنات، إذ ينظف الغسل جميع جلد الإنسان، وينظف الوضوء الأجزاء المكشوفة منه، وهي الأكثر تلوثا بالجراثيم، لذا كان تكرار غسلها أمرا مهما، وقد أثبتت عدة دراسات قام بها علماء متخصصون: أن الاستحمام يزيل عن جسم الإنسان ٩٠٪ من هذه الكائنات، أي أكثر من مائتي مليون جرثومة في المرة الواحدة، وهذه الجراثيم تلتصق بالجلد بواسطة أهداب قوية عديدة، لذا يشرع في الوضوء والغسل تدليك الجلد.

ولو استعرضنا مناطق الجسم التي يشملها الوضوء، لتبين لنا أحد وجوه الحكمة العظيمة منه، فالفم والأنف هما المدخلان الرئيسيان لأعضاء الجسم الداخلية، فنظافتهما من الجراثيم تعني حماية الأجهزة الداخلية من المرض والعطب.

(١) منها: غسل الجمعة، وقيل بوجوبه، والأحوط المحافظة عليه، والاعتسال للعديد، والاعتسال بعد الإفافة من الإغماء، والاعتسال للإحرام بالحج أو العمرة، والاعتسال لدخول مكة.

واليدان والذراعان، والوجه وشعر الرأس، والقدمان وأسفل الساقين، كلها أجزاء مكشوفة من البدن، وتتراكم عليها الجراثيم بكميات كبيرة، فغسلها بالماء ينقيها منها ويزيلها عنها، وكذلك أمرنا النبي ﷺ بتخليل أصابع اليدين والقدمين، وجعل من سنن الفطرة غسل عقدها، وذلك تعقيباً لما يمكن أن تحويه هذه المخابى من الجراثيم والفطريات الضارة وغير ذلك.

نظافة السيلين واجتناب النجاسات:

لقد أكد الإسلام على الطهارة، وجعلها شرطاً لصحة الصلاة التي تتكرر في اليوم خمس مرات، وأولى خطوات هذه الطهارة نظافة السيلين اللذين منها تخرج نفايات الجسد التي تحتوي على قدر هائل من الكائنات الدقيقة والسموم الضارة، وسماها الشارع نجاسات، وأمر بغسل الدبر والقبل بالماء؛ ليزيل أي أثر منها يمكن أن يعلق بالجسد أو بالثياب.

ولك أن تنظر في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن النبي ﷺ والذي أخبر فيه عن رجل يعذب في قبره؛ لأنه كان لا يتنزه من بوله لتدرك شدة الاهتمام بنظافة هذا المكان، والتخلص من هذه النفايات الضارة وما فيها من أعداد كثيرة من الجراثيم، وقد وجد أن إهمال نظافة الشرج والأعضاء التناسلية، قد يكون سبباً في إصابتها بمرض السرطان.

ولقد بدأ الغرب في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين، يطبق بعض هذه السنن؛ لِمَا وجد فيها من فوائد صحية، وقد ندرك حجم الخطر إذا علمنا أن الجرام الواحد من البراز في الشخص السليم؛ يحتوي على مائة ألف مليون جرثومة، وفي المريض بمرض التيفويد؛ قد يحتوي الجرام الواحد خمسة وأربعين مليوناً من بكتريا التيفويد، أما في مريض الدزنتاريا أو الكوليرا؛ فمن المستحيل إحصاء أعداد الجراثيم لكثرتها الهائلة.

نظافة الثياب وحسن المظهر:

إن الله ﷻ لم يأمر بتطهير البدن فقط، ولكنه أمر بتطهير الثياب فقال تَعَالَى: ﴿وَيَابِكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدر: ٤). وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَأَى رَجُلًا وَسِخَ الثِّيَابِ فَقَالَ: «أَمَّا يَجِدُ هَذَا مَا يُسْكِنُ بِهِ شَعْرَهُ؟» وَرَأَى رَجُلًا وَسِخَ الثِّيَابِ فَقَالَ: «أَمَّا يَجِدُ هَذَا مَا يُنْقِي بِهِ ثِيَابَهُ؟» (رواه الحاكم وصححه على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي).

وبهذه التدابير المحكمة في تحقيق نظافة مداخل ومخارج وجلد الإنسان، وملابسه، وأماكن جلوسه ونومه وصلاته، يتوقى من أخطار الكائنات الدقيقة وسمومها الضارة؛ والتي يمكن أن تكون سبباً في مرضه أو هلاكه. هذا فضلاً عن الفوائد النفسية للطهارة، التي تكون أثرًا وانعكاسًا لها، لكونها عبادة لله الخالق العظيم، وتعود بالنفع على جهاز المناعة فتقويه، وتزداد لديه المقاومة لكثير من الأمراض والعلل التي تهدد حياة الإنسان.

قطع الطرق الموصلة لهذه الكائنات إلى جسم الإنسان:

إن الشريعة الإسلامية تقطع الطرق الموصلة لهذه الكائنات إلى جسم الإنسان. وهو عامل رئيسي في الوقاية والحد من انتشار الأمراض والأوبئة. فقد حمت نصوص الشريعة الإسلامية هذا الإنسان، ووقته من شرور وأخطار هذه الكائنات، فشرعت التدابير التالية للحيلولة بين الكائنات الممرضة والإنسان:

١ - نظافة البيئة المحيطة بالإنسان:

لقد حرصت الشريعة على نظافة البيئة التي ستنعكس حتمًا على صحة الفرد والمجتمع والتي تتمثل في:

أ- نظافة المساكن والأفنية:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «طَهَّرُوا أَفْنِيَّتَكُمْ فَإِنَّ الْيَهُودَ لَا تُطَهِّرُ أَفْنِيَّتَهَا» (رواه الطبراني، وصححه الألباني). (الأفنية): جمع (فناء) وهو الساحة أمام البيت. وعدم تطهير الأفنية يؤذي الجيران أيضًا.

ب- نظافة الطرقات وأماكن التجمع:

حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى إِطَاةِ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَعَدِمِ التَّخْلِيَّ فِي طَرِيقِ النَّاسِ وَظَلَمَهُمْ فَقَالَ ﷺ: «عُرِضْتُ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي حَسَنَهَا وَسَيِّئَهَا، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الْأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا اللَّعَّانِينَ» قَالُوا: وَمَا اللَّعَّانَانِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ فِي ظِلِّهِمْ» (رواه مسلم).

والمراد باللعانين الأمرين الجالبيين للعن الحاملين الناس عليه والداعين إليه وذلك أن من فعلهما شتم ولعن يعني عادة الناس لعنه فلما صار سببا لذلك أضيف اللعن إليهما (الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ) معناه يتغوط في موضع يمر به الناس (أَوْ فِي ظِلِّهِمْ) المراد بالظل هنا مستظل الناس الذي اتخذوه مقبلا ومناخا ينزلونه ويقعدون فيه. إن المناطق الباردة الرطبة وذات الظل تعتبر جواً ملائماً لنمو أغلب أنواع البكتريا وبويضات الديدان وذلك لخلوها من تأثير الأشعة فوق البنفسجية القاتلة للجراثيم والبويضات، وبما أن البول والبراز يعتبران من مصادر هذه الجراثيم والديدان - حيث يحتوي الجرام الواحد من البراز على أكثر من مائة ألف مليون جرثومة - فقد نصح رسول الله ﷺ بعدم التبول والتبرز في الظل.

٢- حفظ الطعام والهواء والماء من التلوث:

إن جراثيم الأمراض والأوبئة تنتقل بشكل رئيسي من خلال الطعام والهواء والماء. فأمر الشارع الحكيم بأمور تصب كلها في حفظ هذا الثلاثي من التلوث بها:

أ- حفظ الطعام من التلوث:

يعتبر تناول الأطعمة الملوثة من أهم وسائل انتقال الأمراض كالتيفود، حيث تنتقل جراثيم المرض من براز المريض أو حامل المرض إلى الإنسان وذلك عن طريق اليد أو الأنية ونسبة حدوث ذلك تعتمد اعتماداً كبيراً على مستوى نظافة الفرد والبيئة وتطورها.

فها هو رسول الله ﷺ يبيث الثقافة الصحية بين المسلمين قبل أن تُكتشف الكائنات الدقيقة الممرضة ليقبهم أخطارها، فخصص يداً للأكل والمصافحة، ويداً لمباشرة الأذى والخلاء، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْيُمْنَى لِبُطْهُورِهِ وَطَعَامِهِ وَكَانَتْ يَدُهُ الْيُسْرَى لِحَلَالِهِ وَمَا كَانَ مِنْ أَدَى. (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

ب- حفظ الهواء من التلوث:

إن نفخ الرذاذ وزفره يؤدي إلى انتقال كثير من الأمراض المعدية كالأنفلونزا وشلل الأطفال والنكاف والحصبة الألمانية والرشح والتهاب الحلق والجذري والسل وغيرها من الأمراض وخاصة الفيروسية، لذلك وجه رسول الله ﷺ أتباعه عدم النفخ والتنفس في آنية الأكل والشرب، كما أمرهم بتغطية الوجه أثناء العطاس والشاؤب.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ النَّفْخِ فِي الشُّرْبِ. فَقَالَ رَجُلٌ: «الْقَدَاةُ أَرَاهَا فِي الْإِنَاءِ». قَالَ «أَهْرِفْهَا». قَالَ: «فَإِنِّي لَا أَرَوِي مِنْ نَفْسٍ وَاحِدٍ». قَالَ: «فَأَبْنِ الْقَدَحَ إِذَا عَنَ فِيكَ». (رواه الترمذي، وحسنه الألباني).

(القداة): ما يقع في العين والشراب من غبار ووسخ. (أَبْنِ): أبعُد.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَتَنَفَّسَ فِي الْإِنَاءِ أَوْ يُنْفَخَ فِيهِ. (رواه أبو داود، وصححه الألباني). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا عَطَسَ غَطَّى وَجْهَهُ بِيَدِهِ أَوْ بِثَوْبِهِ وَغَضَّ بِهَا صَوْتَهُ. (رواه الترمذي، وحسنه الألباني).

وقال ﷺ: «إِذَا تَنَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَضَعْ يَدَهُ عَلَى فِيهِ» (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

ج- حفظ الماء من التلوث:

يعتبر الماء الراكد جَوْاً ملائماً لنمو الكثير من البكتريا كالكوليرا والسالمونيلا والشيغلا وغير ذلك، كما تحتاج بعض الطفيليات الأولية والديدان كالزحام الأميبي والديدان المستديرة والبلهارسيا إلى الماء لإكمال دورة حياتها خارج جسم الإنسان، ويساعد التبول والتبرز على نمو هذه الطفيليات والديدان وسرعة تكاثرها وانتشارها، لذلك نهى رسول الله ﷺ عن التبول في الماء الراكد- الذي لا يجري- لكي يبقى الماء في وقاية من التلوث. فقال ﷺ: «لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ الَّذِي لَا يَجْرِي، ثُمَّ يَغْتَسِلُ فِيهِ» (رواه البخاري ومسلم).

كما أوصى رسول الله ﷺ بتغطية الآنية ورَبْطُ قِرْبِ الْمَاءِ مَنَعًا مِنْ تَلَوُّثِهَا مِنَ الْجَرَائِمِ الْوَافِدَةِ وَالتّي تُوْدِي إِلَى ظُهُورِ الْأَوْبَةِ وَانتِشَارِهَا فَقَالَ ﷺ: «عَطُّوا الْإِنَاءَ وَأَوْكُوا السَّقَاءَ فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزَلُ فِيهَا وَبَاءٌ لَا يَمُرُّ بِإِنَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ غِطَاءٌ أَوْ سِقَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ وَكَاءٌ إِلَّا نَزَلَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الْوَبَاءِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وقد أثبت الطب الحديث أن الأمراض المعدية تسرى في مواسم معينة من السنة، بل إن بعضها يظهر كل عدد معين من السنوات، وحسب نظام دقيق لا يُعرَفُ تعليله حتى الآن. من أمثلة ذلك: أن الحصبة، وشلل الأطفال، تكثر في سبتمبر وأكتوبر، والتيفود يكثر في الصيف أما الكوليرا فإنها تأخذ دورة كل سبع سنوات. والجدري كل ثلاث سنين. وهذا يفسر لنا الإعجاز العلمي في قول الرسول ﷺ: «فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزَلُ فِيهَا وَبَاءٌ» أي أوبئة موسمية ولها أوقات معينة.

ولو قاية الماء من التلوث أيضاً نهى النبي ﷺ عن إدخال المستيقظ من نوم يده في الإناء قبل أن يغسلها ويطهرها فلعله مس أو حك بها سوءته أو عضواً مريضاً متقرحاً من جسمه وهو نائم، قال رسول الله ﷺ: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ

فَلَا يَغْمِسُ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ حَتَّى يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

ولحفظ الماء من التلوث أيضاً نهى ﷺ عن الشرب مباشرة من فم السقاء (القربة)، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نهى النبي ﷺ عن الشرب من في السقاء. (رواه البخاري).

إن المليتر من اللعاب يحوي بلايين الجراثيم فعندما تخرج هذه البلايين في لعاب الشارب أثناء شربه من إناء كبير، يمكث فترة طويلة كمصدر لشرب كثير من الناس، تنهياً الفرصة لتكاثر هذه البلايين وتسبب تلوثاً لهذه الماء ويصير مصدر خطر لمن يشرب من هذا الماء بعد ذلك.

٣- عزل المرضى والحجر الصحي:

ومنعاً لانتشار الأمراض والأوبئة وضع رسول الله ﷺ قاعدتين أساسيتين تعتبران من أساسيات الطب الوقائي الحديث بعد اكتشاف مسببات الأمراض والأوبئة وهما قاعدتي العزل والحجر الصحي، ففي الأولى قال رسول الله ﷺ: «لَا يُورَدَنَّ مُرْرٌ عَلَى مُصِحٍّ» (رواه البخاري ومسلم). وفي الثانية قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونَ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا» (رواه البخاري ومسلم).

وهذا الحديث الشريف هو أساس الحجر الصحي الذي لم يُعرف إلا في القرن العشرين، فإذا وقع وباء مُعدٍ في بلدٍ ما يُضرب عليه حجر صحي، فلا يدخل إليه أحد خوفاً من أن يرمي بنفسه إلى التهلكة فيصاب بالوباء، ولا يسمح لأحد من داخله بالخروج خوفاً من أن يكون مصاباً بالمرض ولا يزال في دور الحضنة فينقل الوباء إلى خارج البلد ويعم انتشاره في الأرض.

لقد كانت الأوبئة الفاتكة والأمراض المعدية في العالم الإسلامي أقل بكثير منها في أوروبا، في نفس المرحلة بل إن موجات الطاعون التي كانت تقضي على ربع سكان أوروبا كانت تنكسر حدها عند حدود العالم الإسلامي.

٤- تجنب لحوم الحيوانات الخطيرة:

كما قد تنتقل الكائنات الدقيقة للإنسان عن طريق أكل لحم الحيوانات الخازنة أو المصابة بها أو تناول منتجاتها لذلك حرم الإسلام أكل لحومها أو حتى التعامل معها وسماها خبائث في قوله تعالى: ﴿وَيُحَدِّثُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ (الأعراف ١٥٧).

فحرم أكل لحوم الحيوانات الميتة والدم وأكل لحم الخنزير، والسباع والطيور الجارحة، وأكل الحيوانات والطيور التي تتغذى على القاذورات، واقتناء الكلاب والتعامل معها إلا لضرورة، وقد أثبت العلم أن هذه الحيوانات ولحومها تشكل بؤراً لتجمعات هائلة وخطيرة من الكائنات الدقيقة الفاتكة بالإنسان، فماذا قال العلم الحديث فيها؟

إن لحوم الميتة والدماء المسفوحة قد تحقق ضررها علمياً وظهر خطرهما على حياة الإنسان، وذلك لأن احتباس دم الميتة في عروقه المتشعبة ضمن أنسجتها ييسر للجراثيم التي تعيش متطفلة على الحيوان، في الفتحات الطبيعية والأمعاء والجلد، أن تنتشر بسرعة وسط اللحم من خلال السائل الزلالي في الأوعية والعروق، وتتكاثر بسرعة وينتج عنها مركبات كريهة الرائحة سامة التأثير، كما قد يموت الحيوان بسبب مرض معين فتنقل جرثومة المرض إلى الإنسان فتؤذيه وقد تهلكه، كما في مرض السل والجمرة الخبيثة وجراثيم السلمونيلا وداء الكلب.

وقد حرم الله ﷻ أيضاً الميتة بسبب الاختناق أو بسبب الرض سواء كان ذلك الرض بالوقذ أو الترددي من مكان عال أو بواسطة النطح من حيوان آخر وكذلك ما أكل السبع. إن تلك الأنواع إضافة إلى ما ينتج عن احتباس دمائها في أنسجتها من الأخطار السابقة فإن الاختناق يزيد من سرعة تعفن الجثة، والرض يسبب انتشار للدم تحت الجلد وداخل اللحم والأنسجة في الأماكن المرضوضة، وقد تكون به جروح تسهل عبور جراثيم الهواء إلى داخل الأنسجة فتعجل بتحللها وفسادها، وما تحمله

السباع من جراثيم وكائنات دقيقة فتاكة بين أنيابها تؤدي نفس النتيجة بأنسجة الحيوان ولحمه مما تجعله يشكل خطرًا داهما على حياة الإنسان حينما يأكل لحمه.

أخطار أكل الدم:

يعتبر الدم من أخطر الأوساط لنمو شتى الجراثيم وانتشارها وحينما يسفح الدم بالذبح أو الفصد فإنه ينغزل عن الأوعية الدموية التي تحفظ حيويته وتقيه من التلوث حيث تفقد كريات الدم البيضاء قدرتها على التهام الجراثيم وتموت خلايا جهاز المناعة، وتنهدم آلياته فتتكاثر الجراثيم بسرعة مذهلة، وتفرز سموماً فتاكة قد تكون أشد مقاومة لحرارة الطبخ من الجراثيم ذاتها.

أخطار الخنزير:

أما الخنزير فقد وصفه ﷺ بأنه رجس، والرجس الشيء القذر، والأقذار والنجاسات هي السبب الأكبر في إصابة الإنسان بالأمراض المختلفة لما فيها من جراثيم وطفيليات ممرضة، فالخنزير ينقل إلى الإنسان كثيراً من الكائنات الدقيقة الخطرة حيث يصاب الخنزير بعدد كبير من الأمراض البوائية لا تقل عن (٤٥٠) مرضاً ويقوم بدور الوسيط لنقل أكثر من (٧٥) مرضاً وبائياً للإنسان غير الأمراض العادية الأخرى التي يسببها أكل لحمه، مثل تليف الكبد وعسر الهضم والحساسية الغذائية وتصلب الشرايين وتساقط شعر الرأس وضعف الذاكرة والعقم، وتنشيطه لمرض الربو والروماتيزم وكثرة الأكياس الدهنية وعلاوة على آثارة السيئة على العفة والغيرة في التكوين النفسي.

وينقل الخنزير بمفرده (٢٧) مرضاً إلى الإنسان وتشاركه بعض الحيوانات في بقية الأمراض على أنه يقوم بدور المخزن والمصدر الأساسي لهذه الأمراض في نقلها إلى الإنسان مباشرة بنقلها إلى الحيوانات القابلة للعدوى، ثم منها إلى الإنسان. وينتقل أكثر من (١٦) مرضاً من الخنزير إلى الإنسان عن طريق تناول لحمه ومنجاته.

وأهم هذه الأمراض هي الحويصلات الخنزيرية والحمى المتموجة والدودة الكبدية وداء وايل، وداء المكسيات اللحمية، والتهاب السحايا والمشيمة، وداء

اليرقانات الشريطية الجواله، والدودة الوحيدة المسلحة، وداء المصورات الذيفانية المقوسة وداء الشعريات الحلزونية، والديدان السوطية، وداء السل، وداء المبيضات الفطرية، والالتهابات المعوية بجراثيم السالمونيلا والشايجالا وغير ذلك.

كما تنتقل عن طريق المخالطة والتربية والتعامل مع منتجات الخنزير ومخلفاته عدة أمراض لا تقل عن (٣٢) مرضًا، وأكثر الناس إصابة بها هم عمال الحظائر والمجازر والأطباء البيطريين.

وأهم هذه الأمراض علاوة على بعض الأمراض السابقة، الجمرة الخبيثة، الكلب الكاذب، الزحار الزقي، الحمى القلاعية، الجمرة الخنزيرية، التسمم الدموي، الأنفلونزا الخنزيرية، الحمى اليابانية الخنزيرية، الديدان الرئوية الخنزيرية، الجرب الغائر، السعار، داء النوم، الديدان القنفدية، وغير ذلك.

كما تنتقل عدة أمراض لا تقل عن (٢٨) مرضًا عن طريق تلوث الطعام والشراب بمخلفات الخنزير.

أخطار الكلاب:

لقد شدد رسول الله ﷺ النهي عن مخالطة الكلاب، وهي سباع مدجنة فيها من الطفيليات والجراثيم الدقيقة الشيء الكثير، والتي قد تسبب للإنسان أخطارًا محققة منها على سبيل المثال:

- احتواء أمعاء الكلاب على أعداد كبيرة من الديدان الشريطية والتي تنتقل إلى الإنسان عن طريق ابتلاع بيضها الموجود في الطعام أو الماء الملوث ببراز الكلاب.
- داء الكلب المعروف وبعض أنواع داء الليشمانيات.
- مرض الكيسة المائية الكلبيية والتي تكون الكلاب فيها هي السبب الغالب في إصابة الإنسان وحيواناته الأليفة والتي تتغذى على الجيف، ذلك لأن الكلب ينظف استه بلسانه فينتقل بيوض ديدان (الشريطية

المكورة المشوكة) والتي تعيش في أمعائه إلى الإنسان عن طريق الطعام أو الماء الملوث بها وتسبب له (داء الكيسات المائية الخطير).

- كثير من الأمراض الطفيلية وأخطرها مرض (عداري) والتي تسببه الدودة الشريطية (أكنوكاوكاس جرانيلوساس) والتي توجد في كل مناطق العالم التي تعيش فيها الكلاب على مقربة من الحيوانات الداجنة آكلة العشب.

من هذا وغيره ندرك السر في نهي الرسول ﷺ عن اقتناء الكلاب إلا لضرورة. حيث قال ﷺ: «لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ» (رواه البخاري ومسلم). وقال ﷺ: «مَنْ أَقْتَنَى كَلْبًا إِلَّا كَلَبَ صَيْدٍ أَوْ مَاشِيَةٍ نَقَصَ مِنْ أَجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قَيْرَاطَانٍ» (رواه البخاري ومسلم). كما ندرك السر في قوله ﷺ: «ظَهُورُ إِنَاءٍ أَحَدِكُمْ إِذَا وَلَغَ فِيهِ الْكَلْبُ، أَنْ يَغْسِلَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَوْ لَاهَنَّ بِالْتُّرَابِ» (رواه مسلم).

أخطار السباع والطيور الجارحة:

حرم رسول الله ﷺ أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير. فعن أبي ثعلبة خديجه عن أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع. (رواه البخاري). وعن أبي هريرة خديجه عن النبي ﷺ قال: «كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ فَأَكْلُهُ حَرَامٌ» (رواه مسلم). وعن ابن عباس، قال: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ، وَعَنْ كُلِّ ذِي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ» (رواه مسلم).

كما أمر النبي ﷺ بقتل الحيوانات الشديدة الضرر على صحة الإنسان كالفأرة من القوارض والغراب والحدأة من الطيور الجارحة، والكلب العقور من السباع المدججة، والحية من الزواحف.

ينتشر طفيل (الشعرنية ناتيفا) بين الدببة والثعالب القطبية ويصاب الإنسان بها فور تناول لحوم هذه الحيوانات أو الحيوانات الحاضنة لهذا الطفيل بصورة ثانوية كالقط، كما ينتشر طفيل (تريخينلا نلسوني) في الضباع وبنات آوي والنمور والأسود وبعض الحيوانات المفترسة الأخرى، وتقع معظم الإصابات البشرية في أفريقيا بتناول لحم

الخنزير الداجن والوحشي، وهما حاضنان ثانويان لهذا الطفيل لأنها يتغذيان على الجيف، كما تنتشر الطفيليات التي تعرف بالشعيرينات شبه الحلزونية، (تريخيليا سود وسيبراليس) في الطيور الجوارح (ذات المخلب) ويصاب الإنسان بالعدوى إذا تناول لحم الجوارح من الطيور كالنسور والعقبان والصقور وغيرها.

وقد أثبت علم التغذية الحديثة أن الشعوب تكتسب بعض صفات الحيوانات التي تأكلها لاحتواء لحومها على سُمّيات ومفرزات داخلية تسري في الدماء وتنتقل إلى معدة البشر فتؤثر في أخلاقياتهم. فقد تبين أن الحيوان المفترس عندما يهم باقتناص فريسته تفرز في جسمه هرمونات ومواد تساعده على القتال واقتناص الفريسة ولقد تأكدت الدراسات والبحوث من هذه الظاهرة على القبائل المتخلفة التي تستمرى أكل مثل تلك اللحوم إلى حد أن بعضها يصاب بالضراوة فيأكل لحوم البشر.

كما انتهت تلك الدراسات والبحوث أيضًا إلى ظاهرة أخرى في هذه القبائل وهي إصابتها بنوع من الفوضى الجنسية وانعدام الغيرة على الجنس الآخر فضلًا عن عدم احترام نظام الأسرة ومسألة العرض والشرف. وهي حالة أقرب إلى حياة تلك الحيوانات المفترسة، ولعل أكل الخنزير أحد أسباب انعدام الغيرة الجنسية بين الأوربيين وظهور الكثير من حالات ظواهر الشذوذ الجنسي.

أمر الإسلام بقتل الغراب:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَمْسٌ فَوَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الْحَرَمِ الْفُأْرَةُ، وَالْعُقْرَبُ، وَالْحُدْيَا، وَالْغُرَابُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

اتَّفَقَ جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى جَوَازِ قَتْلِهِنَّ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ وَالْإِحْرَامِ، فَكُلُّ مُؤَذِّجٍ يَجُوزُ لِلْمُحْرَمِ قَتْلُهُ، وَأَمَّا تَسْمِيَةُ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ فَوَاسِقٌ فَصَحِيحَةٌ جَارِيَةٌ عَلَى وَفْقِ اللَّغَةِ، وَأَصْلُ الْفَسْقِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْخُرُوجُ وَسُمِّيَ الرَّجُلُ الْفَاسِقُ لِحُرُوجِهِ عَنِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ، فَسُمِّيَتْ هَذِهِ فَوَاسِقٌ لِحُرُوجِهَا بِالْإِيذَاءِ وَالْإِفْسَادِ عَنِ طَرِيقِ مُعْظَمِ الدَّوَابِّ وَقِيلَ لِحُرُوجِهَا عَنِ حُكْمِ الْحَيَوَانَ فِي تَحْرِيمِ قَتْلِهِ فِي الْحَرَمِ وَالْإِحْرَامِ.

من جرائم الغراب الحديثة:

توفي عجوز استرالي يبلغ من العمر ٧٤ سنة بأحد مستشفيات ملبورن بعد أن نقره الغراب في عينه وكان ذلك في مدينة ميلدورا بولاية فيكتوريا. وذكرت وكالة أنباء إيه إيه بي الأسترالية أن الطائر انقض في وقت لاحق على سائح كوري يبلغ من العمر ٢٧ سنة وألحق بعينه جروحا خطيرة استدعت دخوله المستشفى. ونصح مسؤول الحياة البرية الذي قتل الطائر رميا بالرصاص سكان ميلدورا بارتداء خوذات رأس واقية ويفضل أن تكون مزودة بعيون غير حقيقية لإخافة الطيور المهاجمة. وتزداد الغربان شراسة في فصل الربيع وتنقض على من تعتقد أنهم قد يهاجمون أفراخها.

غراب شرس يهاجم أسرة:

تناقلت وكالات الأنباء هذا الحدث ونقله موقع الجزيرة على شبكة المعلومات العنكبوتية (الإنترنت) فقالت: تحدث كل يوم في العالم أمور عجيبة لا نستطيع أن نجد لها تفسيراً. مثلاً حدث في قرية ألمانية أمر عجيب، حيث هاجم غراب غريب امرأة وطفلة مرات عديدة، واحتار القرويون فيما يفعلون إزاء ذلك فدعوا رجال الشرطة لحل المشكلة. ولكن بسبب سرعة الغراب، فشل رجال الشرطة بعد محاولات كثيرة في اصطياده.

ثم خطرت لهم فكرة جميلة وهي وضع حبات القطن الصناعية اللذيذة للجهازه في سائل خمر قوى ليأكلها الغراب. ولم يمض وقت طويل حتى طار الغراب الشره إلى المكان الذي تنتشر فيه حبات القطن المغمورة بالخمير القوي وأكلها بلهفة. وبعد فترة وجيزة، سقط الغراب السكران على الأرض نائماً وأمسك به رجال الشرطة بسهولة وحملوا هذا الغراب إلى مركز حماية الحيوانات المحلي.

أضرار الغراب التي كشفها العلم الحديث:

أثبت العلماء أن الطيور الجارحة ومنها الغراب تعد مصدرًا لإصابة الإنسان بكثير من الأمراض الفيروسية والبكتيرية والطفيلية وتدعى وطريقة نقل هذه الأمراض تختلف حسب نوعية المرض إما عن طريق الفضلات التي تحتوي على الميكروبات

المسببة للأمراض والتي تتحول إلى مسحوق ينقله الهواء، وإما عن طريق الرذاذ من الفم وإما عن طريق تلوث الماء والغذاء بالفضلات المحتوية على الميكروبات التي تنقلها بعض الحشرات مثل الصراصير والذباب وإما عن طريق الدم بواسطة البعوض.

أولاً: الأمراض الفيروسية:

من الأمراض الخطيرة التي يتسبب في وجودها الغراب مرض الالتهاب الدماغى والعمود الفقري.

ثانياً: الأمراض البكتيرية:

من الأمراض البكتيرية التي تصيب الغراب والذي تسببه بكتيريا (*Chlamydia psittaci*) وتنقل إلى الإنسان عن طريق التعرض لإفرازات الطائر أو استنشاق رذاذ الهواء المحمل ببراز الطائر وتصيب الإنسان بالالتهاب الرئوي والتهاب عضلة القلب والتهاب الدماغ كما يصاب بميكروب (*Campylobacter jejuni*) ويصاب به الإنسان نتيجة تلوث الغذاء والماء ببراز الطائر وهو يسبب إسهال وحمى وآلام شديدة بالبطن.

ولقد لوحظ في عدن سنة ١٩٩١م أن الغراب كان سبباً في انتشار الميكروبات المسببة للإسهال وبالكشف عنها وجد أنها تشمل مجموعة (*Enterobacteriaceae*) والتي تضم كل من ميكروب (*salmonella*) والشيغلا والبروتيس) ومجموعة (*Vibrionaceae*) ومجموعة (*Pseudomonae*) ولقد وجد أيضاً من البكتيريا التي يصاب بها الغراب (*Spirochetes Burgdroferi Brorrelia*) والتي تنتقل إلى الإنسان عن طريق القراد وتسبب مرض يسمى (*Disease Lyme*) نسبة لمدينة لايم الأمريكية حيث اكتشف لأول مرة، ويسبب هذا المرض نتوءات صغيرة على الجلد وحمى ورعشة وغثيان واحتقاناً بالحلق والقيء، كما يسبب صداعاً حاداً وتضخم عضلة القلب وتقلصاً بالرقبة وآلاماً بمفصل الركبة وتورماً وآلاماً بالمفاصل الأخرى وأمراض انحلالية بالعضلات.

ثالثًا: الأمراض الطفيلية:

ومن الطفيليات التي تصيب الغراب الجيارديا (*Giardia Lamblia*) و (*cysts*) والهيمنوليبس (*Hymenolep. Nana*) وتنتقل إلى الإنسان عن طريق تلوث الغذاء وماء الشرب بالطور المعدي للطفيل وتصيب الإنسان بالإسهال.

ويصاب الغراب أيضًا بالتوكسوبلازما التي تسببها (*Toxoplasma gondii*) وتنتقل للإنسان عن طريق تلوث الغذاء بالطور المعدي الذي تنقله الحشرات عند تغذيتها على فضلات الحيوانات المصابة.

رابعًا: الأمراض الفطرية:

من الأمراض الفطرية التي يصاب بها الغراب نوع من الخمائر المغلفة التي تسمى (*Crptococcus neoformans*) والتي تخرج مع براز الغراب وتنقلها الحشرات إلى غذاء الإنسان فيصاب بها الإنسان خصوصًا عندما تضعف مناعته (كالمصابين بالإيدز أو الذي أجري له زرع أعضاء أو الذي يتناول دواء يسبب نقص المناعة، وأعراض هذا المرض هي: صداع والتهاب السحايا واختلال في الحالة العقلية واضطراب في الأعصاب الخارجة من الدماغ وإغماء وقيء).

الغراب مؤذي الحيوانات:

يتسبب الغراب في انتقال كثير من الأمراض المعدية إلى الحيوانات مما يؤثر على الثروة الحيوانية منها:

- مرض النيوكسل الذي يسببه فيروس (*Newcastle viros*).
- ومرض الجداري الذي يسببه فيروس (*Fowlpox virus*).
- ومرض الكوليرا ويسببه بكتريا (*Pasteuralla multocida*).
- ومرض الملاريا ويسببه طفيل (*Plasmodium reticulum*).
- ومرض الفلاريا ويسببه طفيل (*Chandlerellaquiscali*).

- ومرض الكوكسيديا ويسببه الحويصلة الجرثومية لهذا الطفيل وتسمى: (Isospora corviae).
- ومرض السركوستوزيس ويسببه طفيل (Sarcocystis spp).

النهي عن أكل لحوم الجلالة وشرب ألبانها:

نهى النبي ﷺ عن أكل لحم الجلالة وشرب ألبانها؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ حُومِ الْجَلَالَةِ وَالْأَبَانِهَا». (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني). والجلالة هي كل دابة تأكل الأقدار وخصوصاً العذرة (البراز)، التي تعتبر بيئة خصبة لنمو وتكاثر الديدان والطفيليات والجراثيم الضارة، إذ تحتوي على عدد هائل منها، يزيد على المائة بليون جرثومة في الجرام الواحد، لذلك فالعذرة تشكل مخزناً ومصدرًا رئيسيًا للخطر.

كما أثبتت الأبحاث العلمية أن الأقدار تحتوي على نسبة عالية ومتنوعة من السموم الخطرة على صحة الإنسان، فإذا تناولها حيوان أو طير انتشرت هذه الجراثيم في دمه ولحمه، وترسبت في أنسجته، وعندما يتناول الإنسان لحم هذا الحيوان أو لبنه، يصاب بالعلل والأمراض.

وجه الإعجاز:

لقد شرع الإسلام للمسلم ووجهه إلى كل طرق الوقاية من الأمراض والأخطار باجتنب أسبابها وتقوية كل وسائل الدفاع لمقاومتها والقضاء عليها، وإن المتدبر في هذه النصوص يلاحظ الإشارة الجلية أحياناً والإشارة الخفية أحياناً أخرى إلى المواد الضارة كمسببات للأمراض وحدوث العلل وانتشار الأوبئة بينما كان الناس في زمن الرسول ﷺ وقبل زمنه بل وبعده - حتى اكتشاف (باستير) الميكروبات - كانوا يعتقدون أن الأمراض تسببها الأرواح الشريرة والشياطين والنجوم ولا علاقة لها بنظافة أو نظام أو سلوك وكانوا يطلبون لها العلاج بالشعوذة والخرافات.

إن علم الطب الوقائي لم يتبلور ولم يظهر للوجود، إلا بعد اكتشاف علم الكائنات الدقيقة بأنواعها وخواصها المختلفة، وبعد التقدم العلمي والتقني الهائل في

معرفة مسببات الأمراض، والذي لم يحدث إلا في هذا القرن أما قبل ذلك فكان الناس فريقين: مسلمين وغير مسلمين، فالمسلمون لديهم نظام دقيق في الطب الوقائي، هو جزء من دينهم يتعبدون الله به، وينفذونه في سهولة ويسر، وأما غيرهم، فهذه شهادة علمائهم عليهم!

وفقد وصفت العالمة الألمانية (زيفريد هونكه) في كتابها المسمى "شمس الشرق تشرق على الغرب" انطباع (الطرطوسي) من زيارته لبلاد الإفرنج في تلك الآونة، وكيف كان وهو المسلم الذي يتوضأ، قبل كل فرض من فروض الصلاة الخمسة، يستنكر حال القذارة التي كان يحياها الشعب الأوربي، وأبدى دهشته من أنهم لا يغتسلون إلا مرة أو مرتين كل عام وبالماء البارد، أما ملابسهم فلا يغسلونها بعد أن يلبسوها كي لا تتمزق، ثم بينت الباحثة الألمانية تأثر المجتمعات الأوربية بعد ذلك شيئاً فشيئاً بالعادات الإسلامية الحميدة، بعد أن اتضحت فوائدها، ومنها إقامة الحمامات الخاصة والعامة.

ولقد كان البريطانيون يَعتَبِرُونَ أن الغسل مُضِرٌّ بالصحة حتى أنه قد يؤدي الى الموت والهلاك. وإنه كان من العيب والعار أن يُبنى حمام داخل بيت أمريكي، حتى إن أول حمام مجهز بمغطس بُنيَ في البيت الأبيض كان عام ١٨٥١م. ولقد أثار في حينه ضجة لأنه اعتبر عملاً مشيناً في ذلك الوقت. وفي فرنسا كان قصر فرساي الشهير على رحابته خالياً من حمام واحد.

لقد استعمرت بريطانيا جزر الساندويش وأرغمت سكانها المسلمين بالقمع والإغراء على أن يتحولوا إلى النصرانية ولكن كانت النتيجة كما ذكرها الطبيب البريطاني (برنارد شو) في كتابه "حيرة الطبيب": أن انتشرت بينهم الأمراض والأوبئة الفتاكة، وعلل ذلك بتركهم لتعاليم الدين الإسلامي؛ التي تقضي بالنظافة المطلقة في كل صغيرة وكبيرة؛ إلى حد الأمر بقص الأظافر وتنظيف ما تحتها.

إن عالم الكائنات الدقيقة كان غيبياً في زمن النبوة وبعده، حتى القرن الماضي، لكن التوجيهات الإسلامية في الطهارة والوضوء والغسل، والنظافة في المسكن والملبس

وأماكن التجمعات، والتوجيهات في المأكل والمشرب، والسلوك الخلقي العام والخاص، لتشير كلها بطريق أو بآخر إلى هذه العوالم الخفية وإلى مسببات الأمراض الأخرى، التي تضعف البدن وتوهن الصحة، وتصيب الجسم بالعلل والأمراض التي قد تؤدي به إلى الهلاك.

وهكذا أثبت العلم سبق القرآن الكريم والسنة النبوية في الإشارة إلى الكائنات الدقيقة، وقدم التشريع الإسلامي أنجح السبل في القضاء عليها، وحماية الإنسان ووقايته من أخطارها، ورأى العلماء بأعينهم صدق وحي الله ﷻ لرسوله ﷺ.

انظروا بتجرد:

يقال للعلماء: انظروا بتجرد إلى هذه الحقيقة العلمية في قول رسول الله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونَ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا» (رواه البخاري ومسلم). ولضمان تنفيذ هذه الوصية النبوية العظيمة فقد ضرب رسول الله ﷺ سورا منيعاً حول مكان الوباء، فوعد الصابر والمحتسب بالبقاء في مكان المرض بأجر الشهداء، وحذر الفار منه بالويل والثبور، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْفَارُّ مِنَ الطَّاعُونَ، كَالْفَارِّ مِنَ الرَّحْفِ، وَالصَّابِرُ فِيهِ، كَالصَّابِرِ فِي الرَّحْفِ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وصححه الألباني).

إذا قيل هذا الكلام لرجل صحيح منذ مائتي عام فقط وهو يرى صرعى المرض الوبائي يتساقطون حوله وهو بكامل قواه وقيل له: امكث في مكانك لا تخرج، لا اعتبر هذا الكلام جنوناً أو عدواناً على حقه في الحياة، ويفر هارباً بنفسه إلى مكان آخر خالٍ من الوباء، وقد كان المسلمون هم الوحيدون بين البشر الذين لا يفرون من مكان الوباء منفذين أمر نبيهم ﷺ ولا يدركون لذلك حكمة.

فلما تقدمت العلوم واكتشفت العوالم الخفية من الكائنات الدقيقة وعُرفت طرق تكاثرها وانتشارها وتسببها في الأمراض والأوبئة تبين أن الأصحاء الذين لا تبدو عليه أعراض المرض في مكان الوباء هم حاملون ميكروب المرض وأنهم يشكلون مصدر الخطر الحقيقي في نقل الوباء إلى أماكن أخرى إذا انتقلوا إليها، وبسبب اكتشاف هذه

الحقيقة نشأ نظام الحجر الصحي المعروف عالمياً الآن والذي يُمنع فيه جميع سكان المدينة التي ظهر فيها الوباء من الخروج منها كما يُمنع دخولها لأي قادم إليها فمن أطلع محمداً ﷺ على هذه الحقيقة؟

أيمكن أن يتكلم بشر عن هذه الحقائق الدقيقة منذ أربعة عشر قرناً من الزمان؟ اللهم إلا أن يكون كلامه وحياً يأتيه من عليم خبير بخلقه! حتى يرينا سبحانه آياته فنعرفها أنها من ربنا فنحمده على ما من علينا من تشريع وتكليف. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ وَأَيْنِيهِ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (النمل: ٩٣).

وهكذا أثبت العلم سبق القرآن الكريم والسنة النبوية في الإشارة إلى الكائنات الدقيقة، ومسببات الأمراض. وقد قدم الإسلام للبشرية أيسر وأنجح السبل في القضاء عليها وحماية الإنسان ووقايته من أخطارها، ورأى العلماء بأعينهم صدق وحي الله لرسول الله ﷺ.

سنن الفطرة ونظافة الفرد

إن سنن الفطرة التي أوصى بها النبي ﷺ تمثل أساس نظافة الفرد. وتأتي في رأس قائمة ما يندرج تحت تعليمات الطهارة من الوصايا، والتي يتضح منها عظيم حكمة الشارع حين حثّ على التزام تلكم التعليمات، وقد أثبتت تقارير العلم الحديث أهمية التقيد بمفرداتها وإرشاداتها.

وقد ورد في سنن الفطرة، أحاديث صحيحة تعددت رواياتها وألفاظها، إلا أنّها اتفقت على ذكر طائفة من الخصال الحميدة، فعن زكريّا بن أبي زائدة، عن مُصعب بن شيبة، عن طلق بن حبيب، عن عبد الله بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْقَاءُ اللَّحْيَةِ، وَالسَّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الْأَطْفَارِ، وَعَسَلُ الْبَرَاجِمِ، وَتَنْفُ الْإِيطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ». قَالَ زَكْرِيَّا: قَالَ مُصْعَبٌ: «وَنَسِيتُ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمُضْمَضَةَ».

قَالَ وَكَيْعٌ: «انْتِقَاصُ الْمَاءِ: يَعْني الْاسْتِنْجَاءُ» (رواه مسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ: «الْفِطْرَةُ خَمْسٌ - أَوْ خَمْسٌ مِنْ الْفِطْرَةِ - الْحِثَانُ، وَالْإِسْتِحْدَادُ، وَتَقْلِيمُ الْأَطْفَارِ، وَتَنْفُ الْإِيطِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قَالَ: «وُقِّتَ لَنَا فِي قَصِّ الشَّارِبِ وَتَقْلِيمِ الْأَطْفَارِ وَتَنْفِ الْإِيطِ وَحَلْقِ الْعَانَةِ أَنْ لَا نَتْرُكَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً». (رواه مسلم).

الفطرة في اللغة: الابتداء والخلقة والولادة على نوع من الطبع، وهي ما فطر الله عليه الخلق، وهي شعور يميل الإنسان إليه بطبعه وذوقه السليم، وقد جبل عليه في الأصل، وعدّ الخروج عنه إخلالاً بمعاني الإنسانية السويّة.

وقد ورد عن كثير من العلماء، أنّ الفطرة هي السنّة، والهدي النبويّ، والطريقة التي جاء بها الأنبياء، وأمر خاتمهم ﷺ باقتدائها.

لقد كشفت البحوث الطبية الأهمية الصحية البالغة لتطبيق هذه الخصال، وما يترتب على إهمالها من أضرار؛ فترك الأظفار مجلبة للمرض، حيث تتجمع تحتها ملايين الجراثيم. وتترك شعر العانة؛ هو المسئول عن مرض تقمل العانة المنتشر بكثرة في أوروبا، والذي يؤدي إلى تقرحات والتهابات في هذه المنطقة. وأما الختان فقد أثبتت الأبحاث أن غير المختونين يصابون بمعدل أكبر بأمراض المسالك البولية؛ بسبب عدد من الجراثيم؛ وخصوصاً ارشيا كولاي، والكبسيلا، كما ازدادت نسبة الصديد والبكتريا لديهم في البول، كما ثبتت العلاقة بين سرطان عنق الرحم، وبين عدم اختتان الرجال.

وغسل البراجم (عقد الأصابع) يزيل المستعمرات الجرثومية، التي تتخذ من ثنيات الجلد في هذه الأماكن كهوفا وأخاديد لها، ونتف الإبط ينظف هذا المكان المختبئ من الجلد؛ الذي تتجمع فيه الأوساخ، وتنمو فيه الجراثيم وخصوصاً الفطرية منها، كما أن بعض الجراثيم تهوى العيش على مادة الشعر نفسها في هذه الأماكن.

ولأهمية سنن الفطرة تلك، فإنه لا بدّ من سبر أغوارها، ودراسة كلّ سنّة منها على حدة، من جوانب طبية صرفة، لمعرفة ما حوّته من فوائد أثبتتها تقارير العلم الحديث.

قصّ الشارب:

الشارب هو ما ينبت على الشفة العليا من الشعر، وجمعه: شوارب.

وقد ورد في الحثّ على قصّ الشارب وتعهده بالعناية، أحاديث عديدة، منها قوله عليه السلام: «خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ: وَقَرُّوا اللَّحَى، وَأَحْفُوا الشَّوَارِبَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ). وقوله عليه السلام: «خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ أَحْفُوا الشَّوَارِبَ، وَأَوْفُوا اللَّحَى» (رواه مسلم). ومن ذلك قوله عليه السلام: «مَنْ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ شَارِبِهِ فَلَيْسَ مِنَّا». (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

ولقصّ الشارب العديد من الجوانب الصحية، إذ تستقر أعداد كبيرة من البكتريا وغيرها من الأحياء الدقيقة المتطفلة، في خلايا شعر الشارب الطويل، الذي يحيط بفتحة الفم، وهذا يعني بالضرورة أنّ تلك الكائنات، ستدخل الفم مع ما يدخله

من جزيئات الطعام والشراب، التي تؤمن بقاياها ضمن نسيج الشارب، بيئة مناسبة تتكاثر خلالها الأحياء المجهرية، مسببة الكثير من الأمراض الالتهابية.

من جهة أخرى، فإن وجود شعر الشارب إلى الأسفل من الأنف، يجعله عرضة لما يخرج منه من سوائل ومفرزات، ويزيد من رطوبة ذلك الوسط أيضاً، ما يصله من رذاذ اللعاب المتطاير، وهي عوامل تزيد من الأجواء والظروف المناسبة، لنمو الأحياء الدقيقة وتكاثرها.

وبناء عليه، سيصبح شعر الشارب الطويل بؤرة فاسدة، ترتع فيها المخلوقات الحية المجهرية وتتكاثر، من غير رادع أو مانع، يقف حيال ما تسببه من الأمراض، التي وفت تعليمات الشارع الحكيم أجسامنا منها، حين أمرت بقص الشارب.

إعفاء اللحية:

وقد جمعت الأحاديث، بين فضيلتي تخفيف الشارب وإعفاء اللحية، فقد أوجب النبي ﷺ إعفاء اللحية بقوله: «خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ، أَحْفُوا الشَّوَارِبَ وَأَوْفُوا اللَّحَى»، وقوله ﷺ: «جُزُّوا الشَّوَارِبَ وَأَرْخُوا اللَّحَى خَالِفُوا الْمَجُوسَ» (رواهما مسلم).
وحيثما دخل رسولاً كسرى على رسول الله ﷺ وَقَدْ حَلَقَا لِحَاهُمَا وَأَعْفِيَا شَوَارِبَهُمَا كَرِهَ النَّظَرَ إِلَيْهِمَا، وَقَالَ: «وَيْلَكُمْ، مَنْ أَمَرَكُمْ بِهَذَا؟»، قَالَ: «أَمَرَنَا بِهَذَا رَبُّنَا» - يَعْنِيَانِ كِسْرَى - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَكِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي بِإِعْفَاءِ لِحْيَتِي، وَقَصِّ شَارِبِي». (رواه الطبري في "تاريخه"، وحسنه الألباني).

يتعرض جلد الرجل خارج المنزل، إلى تأثير موجات أشعة الشمس المباشرة، وإلى تيارات الرياح الباردة والحارة، ولهذا تأثير سلبي في صحة ألياف الجلد والكولاجين^(١) في الوجه، إذ يقود تحربها إلى ظهور التجاعيد بصورة باكرة، ولشعر اللحية دوره الهام في التقليل من هجوم الأشعة الشمسية الضارة تلك، والتخفيف من

(١) الكولاجين: هو بروتين ذو خواص قوية، ويدخل في تكوين أنسجة الجسم.

تأثير حدة الرياح في جلد الوجه، مما يكفل سلامته، وخلوه مما قد يعتريه من أضرار لاحقة.

وقد أثبت الطب الحديث أيضًا، وجود علاقة مباشرة بين التعرض المستمر لأشعة الشمس من جهة، وظهور سرطان الجلد من جهة أخرى، ويسهم شعر اللحية هنا في وقاية الجلد من تأثيرات سلبية كتلك، عبر صدّه للكثير من موجات أشعة الشمس الضارة.

ومن مزارح حلق اللحية، ما يحدث أثناء استخدام آلة الحلاقة الحادة، من تهيج الجلد وتخرب أنسجته السطحية، وظهور الجروح الصغيرة، مما يؤدي إلى تآكل طبقة الجلد الخارجية، وما يتبعه من فتح منافذ العدوى أمام غزو الأحياء المجهرية الدقيقة، وتصبح طبقات الجلد العميقة مكشوفة، وأكثر عرضة للإصابة بما تسببه تلك الجراثيم والفيروسات والفطريات من أمراض جلدية مختلفة.

ومما ثبت من فوائد طبية أخرى في توفير شعر اللحية، ما نراه من عملها في تدفئة جلد الوجه في فصل الشتاء، وهو عامل وقائي يسهم في حماية العصب الوجهي، من التعرض المباشر لتيارات الهواء الباردة، وبالتالي وقايته من حدوث بعض حالات الشلل.

السواك:

ساك الشيء سَوَكًا أي دلكه، ومنه ساك فمه بالعود يسوكه، واسم العود: المسواك. يُصنع عود السواك من جذور شجرة الأراك أو من أغصانها، وقد يؤخذ من أشجار أخرى كالبشام والسرّح والزيتون، والأراك شجرة تنمو في السبخات المالحة، ويمكن ربيها بئاء البحر، وتكثر في صحارى المملكة العربية السعودية وسيناء والسودان وباكستان.

ولقد أثبتت الأبحاث وجود ما لا يقل عن ١٨٢ نبتة أو شجرة مختلفة الفصائل والتي تستخدم أعوادها لتحضير المسواك، من هذه الأشجار يوجد ما لا يقل عن ١٥٨ نبتة في قارة أفريقيا وحدها.

قال صلى الله عليه وآله: «السَّوَاكُ مَطَهْرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاءٌ لِلرَّبِّ» (رواه البخاري). أي: سبب لطهارة الفم، وسبب لرضاء الرب.

فالسواك مطهرة للفم حقاً، فقد ثبت تكون لويحة جراثومية تلتصق بالأسنان في غلالة رقيقة من اللعاب التي تسبح فيه، وهذه اللويحة أو الطبقة تتكون سريعاً حتى بعد تلميع الأسنان في أقل من ساعة، ويزداد سُمكها ويحدث فيها ترسبات رخوة، كلما تركت من غير إزالة، وقد ثبت أن هذه اللويحة الجرثومية التي تتكون على الأسنان هي المسؤولة عن أمراض اللثة ونخر الأسنان، لما تحويه من عدد هائل من الجراثيم؛ إذ يصل عددها داخل هذه اللويحة إلى حوالي مائة بليون جرثومة في الجرام الواحد.

وهذا يوضح لنا حكمة حث النبي صلى الله عليه وآله أمته على دوام استعمال السواك، في قوله صلى الله عليه وآله: «لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ» (رواه البخاري). وفي رواية لمسلم: «لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ». كما ثبت في الصحيحين أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله كَانَ إِذَا قَامَ لِلتَّهَجُّدِ مِنَ اللَّيْلِ يَشُورُ فَأَهُ بِالسَّوَاكِ» (يشوص): يُمر السواك على أسنانه ويدلكها به.

إن ركود اللعاب أثناء النوم، أحد العوامل التي تشجع تكاثر الجراثيم وازدياد ترسباتها في هذه اللويحة كما أن هذه اللويحة ليس لها علاقة بالأكل وفضلات الطعام، فهي دائمة التكوين، لذا نفهم الحكمة من ترغيب النبي صلى الله عليه وآله وحضه على السواك وملازمته له حتى أثناء الصيام.

وقد أثبتت نتائج عشرات الدراسات الحديثة، ما للسواك من فوائد صحيّة عظيمة، ومن ذلك دوره المؤكّد في تطهير الأسنان واللثة، وقدرته على أداء مهام فرشاة الأسنان والمعجون معاً، كما أنّ أليافه دقيقة تناسب عمليّة تنظيف الأسنان، وفيه الكثير من المواد التي وضحت فوائدها حديثاً، فدخلت في تركيب معاجين الأسنان.

وفي استعمال السواك المتكرّر، ولا سيّما عند كلّ صلاة، وقاية حاسمة من تسوّس الأسنان، وتنظيف مستمرّ، وإبادة باكرة للمستعمرات الجرثوميّة، التي تنمو بسرعة مذهلة ضمن اللثة، وبين ثنايا الأسنان، ويقضي السواك على الكثير من تلك

الأحياء المسببة للعديد من الأمراض الالتهابية، ويرجع ذلك إلى وجود مضادات حيوية تشبه البنسلين، ضمن مكونات نسيج هذا العود.

ويعدّ القَلَح^(١) أحد أهمّ مظاهر إهمال نظافة الأسنان، وهو تصبّع ينتج عن تراكم ترسّبات بعض المواد العضوية والمعادن وبقايا الطعام والبكتريا في سطح الأسنان، مكونة طبقة صلبة ذات لون أصفر داكن، وقد اكتشف العلماء، أنّ السواك غنيّ بمادتي السيليكا والكلوريد المزيلتين للقَلَح، ممّا يساعد في تلميع الأسنان وتبييضها، وحلّ ما يظهر بها من تصبّغات وشوائب.

وفي دراسة مقارنة قامت بها جامعة مينوسوتا الأمريكية، أظهر المسلمون الذين يواظبون على استخدام السواك، سلامة الأسنان واللثة لديهم، مقارنةً مع غيرهم ممّن يكتفون باستخدام فرشاة الأسنان العادية، وعُزي ذلك إلى احتواء السواك على مواد فعّالة ذات خواص مطهرة، مثل السنجرين وحمض التانيك Tannic acid وثلاثي ميثيل الأمين، وهي أيضًا من المواد القابضة، التي توقف نزف جروح اللثة.

وفي السواك أيضًا مواد أخرى، تغطّي طبقة ميناء السنّ وتدعمها، فتحميها من التشقّقات والتصدّعات، ممّا يقلّل من نسبة حدوث النخر وتسوّس الأسنان، وتطيّب تلك المواد أيضًا من رائحة الفم، ومنها: القلوّيات والمواد العطرية والصمغية ومادة الثيوسيانات.

ويدخل في تركيب نسيج السواك، معادن هامة تبني خلايا الجسم وتمدّها بالطاقة، ويتمّ امتصاص هذه المعادن عبر أنسجة الفم، أثناء عملية التسوّك، لتصل منها إلى مجرى الدم، الذي ينشرها إلى أنسجة الجسم المختلفة، ومن ذلك: معدن الحديد والكالسيوم.

(١) القَلَح (بفتح القاف واللام): صُفرة تعلق الأسنان، ووسخ يركبها.

ويحرّض استعمالُ السواك المنتظم أيضاً، عملية إفراز اللعاب من قِبل الغدد اللعابية في الفم، وينشّط أداؤها، وهذا عامل هامّ يسهم في صيانة صحّة تجويف الفم، والتخفيف من حدّة ما يظهر فيه من الأمراض المختلفة.

وتُظهر دراساتٌ أخرى نجاحَ السواك في علاج التهابات الحنجرة والوقاية منها، وما له من تأثير مهدئ للأعصاب والتوتر والقلق، ودور وقائي من ظهور داء السرطان في جوف الفم.

والسواك يحتوي على مادة مضادة للجراثيم شبيهة البنسلين؛ ذات التأثير الشديد في القضاء على الجراثيم، وثبت بالبحث أنه يقضي على خمسة أنواع على الأقل من الجراثيم الممرضة، والموجودة بالفم أهمها البكتريا السبحية والتي تسبب بعض أنواع الحمى الروماتزمية.

كما وُجد في السواك مادة السيليس التي تجرف الفضلات، وتزيح القلح وتساعد على تلميع الأسنان، كما يتوافر فيه بكثرة حمض العفص؛ وهو قاتل الجراثيم ومطهر قوي ويشفي جروح اللثة والتهاباتها. وقد وجد به أيضاً مادة من مركب أميني تخفض من الأس الأيدروجيني للضم (وهو أحد العوامل المهمة لنمو الجراثيم). وبالسواك تقل فرصة نمو هذه الجراثيم الموجودة بأعداد هائلة.

وقد أجريت دراسة سريرية على مستعملي السواك، ثبت خلالها أن السواك يزيل اللويحة الجرثومية قبل عتوها وتأثيرها على الأنسجة، وتكرار السواك يومياً إلى قبل الصلاة يؤدي إلى درجة عالية من نظافة الفم، وأن التهابات اللثة التي كانت موجودة قبل البحث قد تحسنت، وأوصى الباحثون باستخدام السواك الدائم للوقاية من أمراض الفم والأسنان.

نظافة الأنف من الجراثيم الممرضة:

أما استنشاق واستنثار الماء من الأنف؛ فله فوائد طيبة كثيرة؛ أهمها: أنه يزيل المفرزات المتراكمة في جوف الأنف، والغبار اللاصق على غشائه المخاطي؛ كغبار المنزل والطلع وبعض بذور الفطريات والعفنيات المتناثره في الهواء، ويرطب جوف الأنف

للمحافظة على حيوية الأغشية المخاطية داخله، كما أنه يزيل الكائنات الدقيقة التي تعلق في جوف الأنف وتستقر به.

ولقد أثبتت الدراسات والبحوث التي أجريت لغرض معرفة تأثير الضوء على صحة الأنف - أن أنوف من لا يصلون تعيش بها مستعمرات جرثومية عديدة وبكميات كبيرة من الجراثيم العنقودية والمكورات الرئوية والمزدوجة (والدفترويد والبروتوس والكلبسيلا)، وأن أنوف المتوضئين ليس بها أي مستعمرات من الجراثيم، وفي عدد قليل منهم وجد قدر ضئيل من الجراثيم ما لبثت أن اختفت بعد تعليمهم الاستنشاق الصحيح.

وقد وجد الباحثون أن نسبة التخلص من الجراثيم الموجودة بالأنف تزداد بعدد مرات الاستنشاق وأنه بعد المرة الثالثة يصبح الأنف خاليا تماما منها.

لذا فقد وصى النبي ﷺ بالمبالغة في الاستنشاق وتكراره ثلاثاً، ل يتم بهذا القضاء على مخزن من مخازن الكائنات الدقيقة، في هذا المكان المهم والحيوي، إذ هو المدخل للجهاز التنفسي.

المضمضة:

يقال: مَضَمَضَ الماءَ في فمه، إذا حرَّكه بالإدارة فيه.

إن مضمضة الفم بالماء ثلاث مرات، تخلصه من عدد هائل من الكائنات الدقيقة، حيث تستقر فيه أعداد وأنواع كثيرة منها، تزيد على ثلاثمائة مستعمرة، ويتراوح عدد الجراثيم في اللعاب حوالي مائة مليون جرثومة/مم، كما توجد بعض الفطريات والطفيليات الأولية بأعداد هائلة، وهي تتغذى على بقايا الطعام بين الأسنان، وينتج من نموها وتكاثرها أحماض وإفرازات كثيرة، تؤثر على الفم ورائحته وعلى لون الأسنان وأدائها، والمضمضة بالماء ثلاث مرات، في أوقات من اليوم قد تصل إلى خمسة أو أكثر، تخلص الفم من عدد هائل من هذه الكائنات وسمومها.

يعدّ تجويف الفم، بيئة مثالية لنمو الكائنات الحية الدقيقة، فهو وسط تتوافر فيه عوامل الرطوبة الدائمة، ودرجة الحرارة المناسبة، بالإضافة إلى وجود بقايا الطعام

والشراب بين الأسنان، وفي ثنايا اللثة، مما يؤمن الغذاء اللازم، لتبني الأحياء الدقيقة مستعمراتها، بأعداد كبيرة، إذ تنمو عشرات الأنواع من البكتريا المختلفة والطفيليات والفطريات والفيروسات في سائل اللعاب، وتجول الملايين منها في تجويف الفم.

تضمن عملية المواظبة على المضمضة إنقاصاً واضحاً، لما يتجمّع من الأعداد الكبيرة من الكائنات المجهرية التي تسكن تجويف الفم، وتسهم في الوقاية مما ينتج عنها من أمراض التهابية عديدة، وبخاصة إن تكرر هذا الفعل ثلاث مرّات، مع كلّ وضوء في أوقات الصلوات الخمس، ويزداد ذلك الأثر المرجوّ باستخدام عود السواك لتنظيف الأسنان، لإتمام عمليّتي التنظيف والتطهير المطلوبتين.

وتظهر لدى الكثيرين ممن جانبوا الصواب وأهملوا نظافة أفواههم، أمراض التهابية يسببها غزو الأحياء المجهرية وتكاثرها المخيف داخل تجويف الفم، ومن ذلك: الإلتهابات الفطرية المتكررة، ونخر الأسنان، وخرّاجات اللثة، والتهابات اللسان، وكثيراً ما يصبح المريض مصدر عدوى لمن جاوره، فينقل إليهم المرض بسهولة، أثناء اقترابه منهم.

كما تظهر في تلك الحالات أيضاً، الكثير من قرح الفم، ومنها ما يُعرف بالقلاع، وهي قرحة مؤلمة ذات سطح أبيض وقاعدة حمراء، وتبدو حول اللسان واللثة، وتكثر في حالات إهمال نظافة الفم والأسنان.

ومن أضرار إهمال المضمضة، ما يلاحظ من ظهور رائحة الفم الكريهة التي تُعرف بالبَخَر، وتنتج عن تراكم البكتريا ضمن بؤر مركّزة، تعمل في تخمير أنسجة الفم الداخلية، مما يؤدي إلى حدوث عملية التعفّن، وما يصحبها من إنتاج الأحماض المسببة لتلك الروائح، وهذا لا شكّ مصدر لنفور الناس وإزعاجهم، مما يسبب الضرر لهم، وهو ممّا يرفضه الإسلام ولا يرضى عنه.

استنشاق الماء:

الاستنشاق هو جذب الماء إلى المنخرين بالنفس، ويعني وصول الماء إلى داخل تجويف الأنف بشهيق خفيف، وضده الاستنثار، وهو دفع الماء من الأنف ليُخرج ما فيه.

ومما ذكر من أحاديث في هذا الباب، قوله ﷺ: «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ فِي أَنْفِهِ مَاءً ثُمَّ لِيَنْتَثِرْ». (رواه مسلم). ولأهمية هذه السنة، نرى الرسول الكريم ﷺ يأمر بالمبالغة في أدائها، فعن لَقِيْطِ بْنِ صَبْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنْ الْوُضُوءِ»، قَالَ: «أَسْبِغِ الْوُضُوءَ وَخَلِّ بَيْنَ الْأَصَابِعِ وَبَالَغِ فِي الْإِسْتِنْشَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا». (رواه أبو داود وغيره، وصححه الألباني).

يمكن لنا تشبيه الأنف بمصفاة دقيقة، تعمل في تنقية الهواء الذي يدخل إلى الصدر عبر عملية الشهيق، إذ تعلق الشوائب وذرات الغبار التي يحملها الهواء، بما ينبت في الأنف من الشعر، وتتكون بطانة الأنف الداخلية من نسيج مخاطي رطب ولزج، وهو فح قويّ تلتصق به الأحياء المجهرية التي تؤذي الجسم إن هي دخلت فيه، كالطفيليات والجراثيم وغيرها.

ويعدّ المخاط وما شابهه من مفرزات وسوائل تتراكم في نسيج الأنف الداخليّ، وسطاً نموذجياً لنموّ البكتريا والأحياء المجهرية الأخرى، ولعمليتي الاستنشاق والاستنثار، دور هام في تخفيف تراكم تلك السوائل، إذ تقومان بإزالة ما تجتمع منها في تجويف الأنف أولاً بأول، وفي ذلك إخلاء للكائنات المجهرية المسببة للكثير من الأمراض، كالتهاب الجيوب الأنفية، والتهاب البلعوم والحنجرة وذات الرئة والسلّ والأنفلونزا الموسمية، والمرض الجديد الذي عُرف باسم أنفلونزا الخنازير. ولاستنشاق الماء واستنثاره أيضاً، دور هام في إزالة ما علق بالأنف الداخليّ من ذرات الغبار، وبذور الفطريات والعفن، وجزيئات الريش والأبخرة الكيماوية، ولهذا دور فاعل في التقليل من تفاعلات الحساسية ونوبات الربو والتهابات الجهاز التنفسي.

وتكفل عملية الاستنشاق أيضًا ترطيب جوف الأنف الداخلي، وهذا يعني المحافظة على صحة الأغشية المبطنة لتجفيف الأنف، إذ إن الجفاف سبب رئيس في تشقق تلك الأغشية، وهذا يؤدي بدوره إلى حدوث الألم وظهور التحريش.

لقد وجد باحثو العديد من الدراسات، أنه بعد الفراغ من الاستنشاق للمرة الثالثة، يصبح جوف الأنف خاليًا من الكائنات المجهرية، وستراكم تلك الأحياء في الأنف بعد الاستنشاق بساعات، إلا أن الموضوع التالي سيزيحها ثانيةً عن أمكتتها، طالما التزمنا بتعليقات الرسول الكريم، حين نادى بتكرار ذلك خمس مرات على الأقل في اليوم واللييلة.

وفي دراسة جامعية مقارنة، ظهر باطن الأنف لدى من لا يتوصأ، شاحب اللون، ودهني الملمس، وفي مدخله تترسب الأتربة والقشور، وتبدو فتحة الأنف لزجة ودائكة اللون، ويتساقط هنا الشعر المتلاصق والمغبر بسهولة، خلافًا لباطن أنوف المتوصئين، فقد بدا لامعًا وخاليًا من ذرات الأتربة، وظهر شعر الأنف هنا نظيفًا سليمًا واضح المعالم.

ولوحظ في نفس الدراسة، نموّ مستعمرات جرثومية في أنف من لم يعتدّ الموضوع، وظهرت بها أنواع مختلفة من البكتريا، مثل: البكتريا العنقودية، والبكتريا العقديّة، والكلبسيلا، والبكتريا الرئوية، أما أنوف المتوصئين، فقد بدت هنا خالية من الجراثيم، ورغم أنّ بعضها أظهر وجود جراثيم قليلة، إلا أنها اختفت تبعًا، بتعليم أصحابها طريقة الاستنشاق والاستنثار الصحيحتين.

مساعدة المبالغة في الاستنشاق في علاج التهابات الجيوب الأنفية:

عَنْ لَقِيْطِ بْنِ صَبْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنْ الْوُضُوءِ»، قَالَ: «أَسْبِغِ الْوُضُوءَ وَخَلِّ بَيْنَ الْأَصَابِعِ وَبَالِغِ فِي الْإِسْتِنْشَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا». (رواه أبو داود وغيره، وصححه الألباني).

قال الأستاذ الدكتور هشام بدر الدين المشد^(١)، دكتورة أنف وأذن وحنجرة، إن التهابات الجيوب الأنفية منتشرة ويعانى منها كثير من الناس رجالا ونساء؛ كبارًا وصغارًا، وأكثر أعراضها انتشارا هو الصداع الذي قد يحيل حياة المريض إلى جحيم لا يطاق، ليس هذا فحسب إنما تكمن خطورتها الحقيقية فيما قد تسببه من مضاعفات قد تذهب بالبصر إذا لم يُحسَّن علاجها في الوقت المناسب.

وقال إن العلاج الطبى:

- علاج دوائى: مضاد حيوى (يستحسن أن يكون حسب مزرعة للحساسية)، مضاد للهستامين، قابض للأوعية الدموية وغسول للأنف.

- علاج جراحى: باستخدام الميكروسكوب أو المنظار الجراحى، وغسول للأنف قبل وبعد العملية فهو يستخدم كعلاج من المرض وكذلك كوقاية لعودته مرة أخرى، حيث يعمل على إزالة الإفرازات أولا بأول وكذلك يرطب الأهداب ويحميها من الجفاف الذى يعتبر من أهم أسباب الالتهابات.

وتكمن أهمية الغسول في نقطتين أساسيتين:

١- التنظيف والإزالة:

- للغبار والجراثيم التي يتعرض لها الأنف من الخارج، وهذا ما أثبتته دراسات علمية كثيرة منها على سبيل المثال رسالة الماجستير التي أجريت في طب الإسكندرية وخلصت إلى أن نمو الجراثيم الممرضة في المزارع التي أخذت من أنوف المتوضئين كان أقل كثيرا من مثيلاتها التي أخذت من غير المتوضئين.

(١) في بحث له بعنوان: الطب النبوي والتهاب الجيوب الأنفية.

• للإفرازات التي يتم إفرازها من الغشاء المخاطي للأنف.

٢- **ترطيب الأهداب:** والمحافظة على ليونتها وبذلك تعمل في بيئة مثالية حيث إن الجفاف من أشد أعداء هذه الأهداب.

وحتى يؤدي الغسول دوره كما ينبغي يجب ان تتوفر له صفتان أساسيتان:

١- **الاستمرارية:** وذلك لأن اللأنف يتعرض بصفة مستمرة للأتربة والميكروبات وكذلك الإفرازات التي تفرز من الأنف، فكما أن هذه الاشياء لا تتوقف، فيجب كذلك أن يكون الغسول باستمرار.

٢- **الغسول العميق:** حتى يصل إلى ثنايا التجويف الأنفي العميقة وبذلك يتمكن الغسول من تنظيف هذه المناطق الداخلية.

وأقصى ما طمحووا له في ذلك أن يستعمل المريض الغسول بصفة مستمرة كفرشة الأسنان، أى مرة أو مرتين يومياً على الأكثر.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع فقد أنشأوا له عدة مواقع على الشبكة العنكبوتية العالمية (انترنت) تتحدث كلها عن أهمية الغسول وكيفيته. وهناك مصادر أجنبية كلها تتحدث عن أهمية الغسول في العلاج الدوائي أو الجراحي، وتبعا لنوع الالتهاب فإنهم يضيفون بعض الإضافات إلى الغسول مثل كلوريد الصوديوم (ملح الطعام) أو كربونات الصوديوم أو مضادات الفطريات وذلك تبعا لنوع الميكروب المسبب للمرض ولكن تبقى العلة من استخدام الغسول ثابتة باستمرار وهى التنظيف والترطيب وبالشرطين المذكورين وهما الاستمرارية وأن يصل الغسول إلى عمق الأنف.

ولكن لأنهم لا يعرفون الهدى النبوي فقد تحيروا في ابتكار أجهزة عديدة تقوم بعملية الغسول وإيصاله إلى عمق تجويف الأنف وكذلك للجيوب الأنفية، وبالرغم من أن بعضها يقوم بهذه العملية بكفاءة فإن العيب الرئيسي يبقى وهو صعوبة استخدامها على المدى الطويل وتكرار ذلك حيث إن تكرار الغسيل واستمراريته هو الضمان

الوحيد لعدم التهاب الجيوب من الأصل وكذلك لعدم تكرار الالتهاب بعد العلاج والعيب الثاني لهذه الأجهزة هو ارتفاع ثمنها.

وتكمن عبقرية الحل النبوي في كفاءته وفاعليته في العلاج وكذلك الوقاية، ثم أيضا بسبب سهولة استخدامه وسهولة تكراره، وأهم من ذلك أنه ربما يكون بدون تكلفة على الإطلاق بل يثاب من يفعله بنية: (وَبَالِغٌ فِي الْإِسْتِنْشَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا).

ووجه الإعجاز في الحديث هو اختيار الرسول ﷺ المبالغة في الاستنشاق بالذات، فرغم أمره ﷺ بالإسباغ في أعضاء الوضوء كلها إلا أنه اختص الأنف بمزيد عناية واهتمام، ولأنه ﷺ أوتي مجامع الكلم، فقد اختار كلمة واحدة شملت كل الصفات اللازمة في الغسول، فالمبالغة تعني الكثرة الكمية والتنوع. فالمبالغة الكمية تعني كثرة عدد الغسلات، أي الاستمرارية التي أشرنا لها في صفات الغسول الفعال، بالإضافة إلى ترغيبه ﷺ في أحاديث كثيرة في أن يظل المسلم على طهارة باستمرار. وأما المبالغة النوعية فتعني المبالغة في إيصال الماء إلى داخل عمق تجويف الأنف حتى تصل إلى البلعوم في غير نهار الصيام.

ثم إن هذه الكلمة بالذات «المبالغة» تسترعي الانتباه، فما بال رسول الوسطية والاعتدال يدعو إلى المبالغة، فأمر الدين كله مبنى على التوسط والقصد، في الأكل وفي الإنفاق بل حتى وفي العبادات، فما الذي دعا المعصوم والذي لا ينطق عن الهوى ﷺ أن يعدل عن هذا المنهج الثابت المطرد إلى المبالغة؟ فلا بد أن ذلك لسبب مهم وحكمة بالغة.

فقد رأينا أن الشق العلمي في الموضوع، وهو أهمية غسول الأنف في علاج التهابات الجيوب الأنفية والوقاية منها، حقيقة علمية مؤكدة بالمراجع العلمية، فكثرة غسول الأنف لا بد أن يؤدي إلى تنظيفها وإزالة الإفرازات والجراثيم منها ومن ثم حمايتها من الالتهابات.

أما الشق الشرعي، فهو دلالة الألفاظ الواضحة في هذا الحديث العظيم فليس أدق ولا أبلغ من كلمة المصطفى ﷺ (وَبَالِغٌ فِي الْإِسْتِنْشَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا) لتحقيق ما يصبوا إليه العلماء في الوقاية والعلاج من الالتهابات المزمنة للجيوب الأنفية. فوصيتي لكم أيها المتوضئون، أن بالغوا في الاستنشاق وقايةً، وبالغوا في الاستنشاق شفاءً، وأهم من كل ذلك، بالغوا في الاستنشاق سنةً واقتداءً.

قص الأظافر:

قلم أظافره: أي قص ما طال منها، وقلمها: بالتشديد مبالغة في (قلم). يزداد تكاثر الجراثيم وغيرها من الأحياء الدقيقة، على ما يطول من الأظافر، وهو تناسب طردي، فكلما زاد طول الظفر، ازدهر نمو تلك الكائنات، وزاد تراكمها ضمن نسيجه وخلاياه.

وتحمل الأظافر الطويلة الجراثيم والفطريات، باتجاه الفم أثناء عملية الأكل، وهذا يعني دخولها إلى تجويف الفم، ووصولها منه إلى الجهاز الهضمي، مما يحمل بين طياته خطر ظهور العديد من الأمراض الالتهابية.

وكثيراً ما تظهر الجيوب الظفرية في نهايات الأنامل، تحت نسيج الظفر الطويل، وهي أمكنة تتراكم بها الأوساخ والجراثيم ومسببات العدوى، مثل بيض الطفيليات، ومفرزات الغدد العرقية والدهنية، وتصبح هذه الثنيات مرتعاً خصباً لنمو المستعمرات الجرثومية، ويغدو الظفر بذلك مصدرًا للأذى والعدوى في الكثير من الأمراض، كالإصابة بالديدان المعوية والزحار، والتهاب الأمعاء.

وتوضّح الدراسات الطبيّة المقارنة، كثرة ما يصيب الأظافر الطويلة من أمراض، مقارنة مع ما قلم منها، ومن ذلك: داء زيادة سماكة الظفر، الذي يظهر الظفر فيه مشوهًا وشديد السماكة، مما يعرضه لسهولة الكسر، نتيجة أيّ رصّ يصاب به.

ومن الأمراض الأخرى في هذا المجال: التهاب الأظافر، وداء تساقط الأظافر، وفيه يفصل الظفر من سريره، أو ينكسر جزء منه فيتساقط لاحقًا، ويكثر حدوث ذلك في الالتهابات الفطرية، التي تنتج عن تكاثر الفطريات تحت نسيج الظفر الطويل.

كما تنقل الأظافر الطويلة الكثير من الأمراض أثناء مصافحة صاحبها للآخرين، ويلحق الظفر الطويل أيضًا، الأذى بالأنسجة الأخرى، بسبب نهايته الحادة والمدببة، ويحدث ذلك أثناء حكّ الجلد أو العين مثلًا، مما قد ينتج عنه جرح تلك الأعضاء وخدشها.

وتؤكد الأبحاث الطبية أن الأظافر الطويلة لا يمكن أن نعقم ما تحتها ولا بد أن تعلق بها الجراثيم مهما تكرر غسلها لذا توصي كتب الجراحة أن يعتني الجراحون والمرضات بقص أظافرهم دومًا لكي لا تنتقل الجراثيم إلى جروح العمليات التي يجرونها وتلوثها.

إن عدم قص الأظافر وتركها تطول لتصبح (مخالب) بشرية، سواءً كان ذلك إهمالًا، أو جهلاً، أو كان متعمدًا على أنه تقليد (أو موضّة) هو خصلة ذميمة مخالفة لسنن الفطرة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية.

فالأظافر الطويلة فيها تشبّه وتقليد لأهل الكفر والضلال، وتطبيع للمسلمين بطابع الحضارة الغربية، وفيها أيضًا نزوع إلى الطبيعة الحيوانية وتشبه بالوحوش ذوات المخالب، كما أنه عمل لا يقبله الذوق الإسلامي الذي تحكّمه شريعة الله ونظرتها التكريمية للإنسان.

غسل البراجم:

البراجم هي العُقد في ظهر الكفّ والأصابع، والواحدة منها: بُرْجُمَة، وتعدّ نظافة اليدين عمومًا، إحدى السنن التي أولاهها الإسلام من عظيم العناية والرعاية الشيء الكثير، فقد حثّ على غسّلهما عدّة مرات في اليوم، وأثناء الوضوء، وقبل الطعام وبعده، وحين الاستيقاظ من النوم، وعند الفراغ من الخلاء.

وقد شدّد الإسلام على ذكر براجم اليد، لأنّ غسلها المستمرّ - كما يحدث مع المداومة على الوضوء - يقود إلى إزالة المستعمرات الجرثوميّة والفطرية، التي تتخذ من ثنايا الجلد في هذه الأماكن كهوفًا لها، تنمو خلالها وتتكاثر، بأعداد تصل إلى عدة ملايين في السنتيمتر الواحد من هذا الجلد.

ومما أثبتته العلم الحديث أيضًا، ما ليد الإنسان الملوثة من دور واضح، في نقل ما تحمله من الكائنات الحية المجهرية، نحو الفم والجهاز الهضمي، وإسهامها في ظهور الأوبئة وانتشارها بين الناس، عبر المصافحة والملامسة المباشرة، التي تنقل العدوى بين مريض وآخر، ولا شك أن سنة عظيمة كغسل البراجم، تكفل في الحد من تلك الظواهر المرضية الخطيرة.

ومن الأحاديث الأخرى التي حثت على تعهد نظافة اليد، قوله ﷺ: «إِذَا نَامَ أَحَدُكُمْ وَفِي يَدِهِ رِيحٌ غَمْرٍ فَلَمْ يَغْسِلْ يَدَهُ فَأَصَابَهُ شَيْءٌ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ». (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني). (الغمْر): دَسَمٌ وَوَسَخٌ وَزُهْمَةٌ اللَّحْمِ.

وفي هذا الحديث نهي صريح عن إهمال نظافة اليد بعد الفراغ من الطعام، إذ إن بقاء رائحة الأكل في يد النائم يجذب الحشرات، مما قد يعرضه إلى لسعاتها المؤذية، كما أن بقايا الطعام في براجم اليد يوفر بيئة مناسبة لنمو الجراثيم وتكاثرها، مما يسبب الالتهاب الذي يعرض في يد المريض لاحقًا، بظهور البثور والدمامل والخراجات المختلفة.

نتف الإبط:

يترافق نمو شعر الإبط، مع زيادة نشاط الغدد العرقية، التي تنتج مواد ذات رائحة مميزة ومنفّرة، تمتزج مع سائل العرق المفرز، وبخاصة إذا تراكمت في المنطقة ذرات الأوساخ والغبار.

ووفقًا لما أثبتته الدراسات الطبية الحديثة، فإن المواظبة على نتف شعر الإبط يُضعف إفراز الغدد العرقية والدهنية، ويُضعف أيضًا نمو الشعر مع مرور الوقت، كما تخفّف عملية النتف كثيرًا مما يصدر عن الإبط من رائحة كريهة، ويجدّد كذلك من إصابته بالأمراض الجلدية، كالسعفة الفطرية والتهاب الغدد العرقية والتهاب الجربيات الشعرية.

وفي إزالة شعر الإبط أيضًا وقاية من نمو القمل وغيره من الحشرات المتطفلة، ومنع لتكاثرها فيه، إذ تفضّل تلك الأحياء الاستقرار في بيئة غنية بالشعر الكثيف.

وقد أثبتت الدراسات الحديثة، أن كل سنتيمتر مربع من الجلد الطبيعي المكشوف، تنمو فيه أكثر من مليون جرثومة، وترتفع هذه النسبة وتتضاعف مرات عديدة في جلد الإبط، حيث تتكاثر الأحياء المجهرية في ثنايا الجلد هناك وتحت جذور الشعر، ولذلك فإن الحرص على نظافة الإبط، وإزالة ما ينمو فيه من شعر، يعدّ الخطوة الرئيسة لمكافحة نموّ الجراثيم والكائنات المجهرية الأخرى.

وتزيل عملية التنفّ شعَرَ الإبط من جذوره، وهي أفضل بكثير من حلقته، إذ إنّ الحلاقة لا تضمن وحدها إزالة كل الكائنات المجهرية، كما هو الحال مع عملية التنفّ، ومن الملاحظ أنّ الشعر النامي لاحقاً بعد عملية التنفّ يكون رقيقاً وناعماً، على خلاف عملية الحلق التي تجعل الشعر قاسياً وخشناً، ومن المعروف أيضاً أنّ الحلاقة تسبّب تحريش جلد الإبط، وقد تجرّحه مسببةً له بعض الالتهابات الجلدية.

حلق العانة:

العانة: ما ينبت من الشعر أسفل البطن، حول ذكر الرجل وقبّل المرأة. ومن المعلوم تشريحياً، أنّ العانة منطقة قريبة ممّا يخرج من السيلين، ولذلك يسهل تلوث ما ينبت فيها من الشعر، ببول الإنسان وغائطه، وهي منطقة غزيرة التعرّق، وغنيّة بالمفرزات الدهنية.

وتعيش في السنتيمتر المربع الواحد من منطقة العانة ملايين الجراثيم، ويقود إهمال إزالة شعرها، إلى تزايد أعداد تلك الكائنات الحية، وتجمّعها في مستعمرات ضخمة، تتراكم مع مفرزات العرق والدهون بصورة مستمرة وتدرّجية، وليس ثمة حل ناجع كحلق العانة لإزالة تلك الأدران.

ويقي حلق شعر العانة كذلك، من الإصابة بالأمراض الطفيلية مثل قمل العانة، الذي تسببه حشرة القمل التي تعيش في مناطق الشعر الغزير، كشعر فروة الرأس وشعر الإبط ومنطقة العانة، وتتغذى بامتصاص الدم، وتتكاثر بسرعة ملحوظة، ويمكن أن تنتقل من العانة نحو أماكن أخرى من شعر الجسم، وتظهر في الجلد المصاب بقع جلدية زرقاء، تنشأ عن عضّة الحشرة وما تفرزه من لعاب ومفرزات محرّشة، وينتج

عن ذلك التهابات جلديّة، تمتاز بحكّة شديدة، وقد تنقل الحشرة أيضًا بعض الأمراض، مثل مرض الحمّى الراجعة، ومرض التيفوس.

كما يقي حلق شعر العانة أيضًا، من الإصابة بداء الفطور الجلدية، ويتنشر ذلك بكثرة عند غير المسلمين، الذين يهملون حلاقة شعر عانتهم، ممّا يؤدّي إلى ظهور التقرّحات المزمنة والالتهابات الجلديّة بأشكالها المختلفة.

وتوضّح الدراسات التي أجريت على مرضى الجهاز البوليّ، أنّ تجمّع الأنواع المختلفة من البكتريا في منطقة العانة وما حولها، يضمن سهولة وصولها إلى مخرج البول، ومنه إلى الإحليل، مؤدّيًا إلى التهابه، وقد يكون الالتهاب قويًّا بمكان، فيسلك طريقه نحو أجزاء الجهاز البولي الأخرى، ليصل إلى المثانة والحالب والكلّي.

وتشير دراسة حديثة، إلى أنّ ثلث نساء الغرب يعانين من التهابات المثانة البولية المستعصية على العلاج، وذلك بسبب إهمالهنّ لنظافة منطقة العانة، وقذارة السبيلين الواضحة لديهنّ.

الإستنجاء:

إن الجرام الواحد من البراز، يحمل مئات الملايين من الجراثيم، ولنا بذلك أن نتخيّل ما قد ينتج عن إهمال النظافة الشخصية في تلك المنطقة، من ضرر وأذى بالغين.

وقد أفادت الدراسات العلميّة الحديثة، أنّ الحرص على نظافة السبيلين عامل هامّ في وقاية الجسم من حدوث سرطان الأعضاء التناسليّة، ولهذا تقلّ أعداد المصابين بهذا الداء بين صفوف المسلمين، لحرصهم على تقصّي النظافة بغسل القُبُل الدبر.

ويؤدّي أيضًا عدم إزالة آثار البول وبقائه في الأنسجة المجاورة، إلى حدوث مشكلات بوليّة عديدة، فهو وسط ملائم لنموّ الجراثيم وتكاثر الأحياء الدقيقة الأخرى، المسبّبة لأمراض الجهاز البولي والتناسلي، كالتهاب المثانة وغدة البروستات والقنوات المنويّة والبربخ والخصية، وقد ينتج عن ذلك ظهور العقم عند الرجال.

الختان:

ختن الصبي ختناً: أي قطع قلفته، وهي الجلدة التي تغطي الحشفة (رأس الذكر)، ويقطعها الختان من ذكر الصبي، والختان من محاسن الشرائع والفطرة التي سنّها الله تعالى لعباده، وكملّ بها محاسنهم الظاهرة والباطنة.

وقد دعا الإسلام إلى الختان دعوة صريحة وجعله على رأس خصال الفطرة البشرية، والأصل في مشروعية الختان قول النبي ﷺ: «الفِطْرَةُ خَمْسٌ: الْخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَنَتْفُ الْإِبْطِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الْأظْفَارِ» (رواه البخاري ومسلم). وقال ﷺ: «إِذَا تَقَى الْخِتَانَانِ وَجَبَ الْغُسْلُ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وابن ماجه وصححه الألباني).

وقد أثبت الطب الحديث ما للختان من فوائد جلييلة، إذ يؤدي العزوف عنه إلى بقاء جلد القلفة فوق رأس القضيب، وهو مكان قدر يزدهر فيه نمو البكتريا والفطور، ويزيد في ذلك مرور سائل البول، وتظهر حينها ترسبات تظهر في صورة مادة بيضاء، تمتزج خلالها الكائنات الحية الدقيقة، مع المفرزات الدهنية والعرقية، وما يتساقط من خلايا وأنسجة بصورة دائمة.

وكثيراً ما يحدث أن تدخل تلك المواد المؤذية عبر فتحة الإحليل، وتنتشر نحو المثانة والكلية مسببة الالتهابات البولية، وقد تصل إلى غدة البروستات والخصية والبربخ، وربما سبب ذلك الالتهابات الجنسية، التي تنتهي بالإصابة بالعقم وغيره من المضاعفات.

ويعدّ الختان أيضاً، عاملاً الوقاية الأكبر من حدوث سرطان القضيب، الذي ينتشر في الدول التي لا تختن مواليدها الذكور، كما هو الحال في الصين مثلاً، وفي ذلك يقول الدكتور "Dillner" وهو أحد المهتمين بأبحاث الختان في معهد الأورام في ستوكهولم، معلّقاً على هذه المسألة: «تقلل عملية الختان التي تجرى على المواليد، من نسبة إصابة القضيب بسرطان الخلايا الحرشفية».

وأيدت ذلك دراسة الدكتور "روبسون Robison"، فقال: «أكثر من ستين ألف حالة أصيبت بسرطان القضيب في أمريكا، ومن المدهش حقاً أن عشرة أشخاص فقط من هؤلاء كانوا مختونين».

وجاءت نتائج دراسات أخرى، فأوضحت قلة حالات سرطان غدة البروستات، وسرطان الخصية والبربخ، لدى ذكور المسلمين، نتيجة التزامهم بعملية الختان، ولبعدهم عن ارتكاب المحرمات كالشذوذ الجنسي والزنى.

ومن الملاحظ أيضاً كثرة الإصابة بالتهابات المجاري البوليّة، لدى غير المختونين، وتنصّ أبحاث أجريت على نصف مليون طفل أمريكي، على أن نسبة الالتهابات هذه، وصلت إلى ثلاثة وتسعين ضعفاً عند غير المختونين، وتنصّ دراسة أخرى على أن الختان في أمريكا، يمنع حدوث عشرين ألف حالة من داء التهاب الكلية عند الأطفال سنوياً.

وتنتشر الأمراض الجنسيّة بصورة أوضح، بين صفوف غير المختونين، مثل داء الهربس والزهري والالتهابات الفطريّة والسيلان والثؤلول الجنسي وداء نقص المناعة المعروف بالإيدز، وقد جاءت نتائج أكثر من ستين دراسة علميّة لتثبت صحة ذلك.

وقد شجعت نتائج هذه الدراسات والأبحاث العلميّة، الغرب على إعادة حساباته، ومراجعة مواقفه السابقة المعادية لسنة الختان، فظهر الاهتمام بها جلياً، وأخذ بعضهم يقترب بذلك خطوة من الفطرة، ويجري عملية الختان لنفسه رغم كبر سنّه.

وفي ذلك يقول أحد علماء الغرب: «لقد تراجعنا عن عدائي الطويل للختان، وشفقتُ مرحباً بقرار جمعية الأطباء في كاليفورنيا، بالإجماع على أن ختان الوليد وسيلة صحيّة فعّالة، وتشير الحقائق إلى أن ١٥٪ من الأطفال الذكور غير المختونين سوف يحتاجون إلى إجراء الختان في سنّ متقدّمة من العمر، بسبب حدوث تضيق في القلفة أو التهاب الحشفة المتكرّر».

وأصدرت الأكاديمية الأمريكية لطبّ الأطفال، إرشادات وتوجيهات، أعلنت فيها بصريح العبارة، ضرورة إجراء الختان على نحو منتظم على جميع المواليد من

الذكور، فوصل العدد إلى أكثر من مليون طفل يتم ختانهم سنويًا في الولايات المتحدة الأمريكية.

ومما يضاف إلى القائمة الطويلة التي تنتج عن إهمال الختان، ما ثبت من معلومات حول نقل الرجل الغير مختون، ما يصيبه من الالتهابات المختلفة إلى جسم زوجته، ومما يكثر حدوثه هنا في جسم المرأة: التهابات المهبل، والغدد التناسلية، وعنق الرحم، والمبيض، وقد يقود ذلك إلى الإصابة بالعمق الدائم، كما ثبت حديثًا أن إهمال الختان عامل هام في إصابة المرأة بسرطان عنق الرحم، وهو أقل حدوثًا لدى زوجات الذكور المختونين.

ختان الإناث رؤية طبية:

ختان الإناث الشرعي هو قطع أدنى جزء من جلدة في أعلى الفرج. وقد كان موجودًا في عهد الرسول ﷺ وقبله. عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ الْأَنْصَارِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَتْ امْرَأَةٌ تَحْتَنُ بِالْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا حَفَضْتَ فَأَشْمِي وَلَا تُنْهَكِي؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَحْطَى لِلْمَرْأَةِ وَأَحَبُّ إِلَى الْبُعْلِ» (رواه أبو داود، وحسنه الألباني). وفي رواية: «فَإِنَّهُ أَنْضَرُ لِلْوَجْهِ وَأَحْطَى عِنْدَ الزَّوْجِ» (رواه الحاكم، وصححه الألباني).

هذا الحديث يبين كيفية الختان الشرعي عمليًا. وَيُسَمَّى خِتَانُ الرَّجُلِ إِعْدَارًا، وَخِتَانُ الْمَرْأَةِ حَفْضًا. (فَأَشْمِي وَلَا تُنْهَكِي): أي: لا تُبَالِغِي فِي الْقَطْعِ. (أَحْطَى لِلْمَرْأَةِ) أي: أَنْفَعُ لَهَا وَالْأَذَى. (وَأَحَبُّ إِلَى الْبُعْلِ) أي: أَحَبُّ إِلَيَّ إِلَى الزَّوْجِ.

واختلف أهل العلم في الختان بين الوجوب والسُّنَّةِ على ثلاثة أقوال:

- القول الأول: الختان واجب على الذكر والأنثى.
- القول الثاني: الختان سنة للذكر والأنثى.
- القول الثالث: الختان واجب على الذكر ومكرمة للأنثى.

وقد رجح الدكتور محمد مختار الشنقيطي في كتابه (أحكام الجراحة الطبية) المساواة بين الذكر والأنثى في الحكم الشرعي للختان لأن الأدلة على مشروعيته مشتركة.

جاء في كتاب (العادات التي تؤثر على صحة النساء والأطفال) الذي صدر عن منظمة الصحة العالمية في عام ١٩٧٩م ما يأتي: «إن الخفاض الأصلي للإناث هو استئصال لقلفة البظر وشبيهه بختان الذكور ويعرف بالسنة... وهذا النوع لم تذكر له أي آثار ضارة علي الصحة».

كما أنه في بعض الأحيان يمارس في الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الأخرى لمعالجة عدم حدوث هزة الارتواء الجنسي عند المرأة في حالة زيادة حجم قلفة البظر أو ضيقها أو وجود التصاقات.

إن جراحة الختان من العمليات الجراحية القديمة والتي لا تزال تُجرى إلى الآن، وتعد من فروع العمليات الصغرى، وكانت تجرى في كل أنحاء العالم على درجات متفاوتة ولأسباب مختلفة في كل مراحل عمر الأنثى.

وهي بالنسبة لنا في عالمنا الإسلامي تعتبر قبل كل شيء امتثالاً للشرع لما فيها من إصابة الفطرة والاهتداء بالسنة التي حضت على فعلها دون فرق بين الرجال والنساء، وكلنا يعرف أبعاد شرعنا الحنيف وأن كل ما شرع لنا لا بد أن تكون مصلحته راجحة على مفسدته في جميع النواحي ومن بينها الناحية الصحية، وإن لم تظهر فائدته في الحال فسوف تُعرف في الأيام القادمة كما حدث بالنسبة لختان الذكور وعرف العالم بأجمعه فوائده وصار شائعاً في جميع الأمم بالرغم من معارضة بعض الطوائف له.

الأسباب الطبية لجراحة الختان:

أسباب عضوية:

- حجم القلفة وزيادة طولها.
- وجود التهابات بينها وبين البظر مما يؤدي إلى شدة حساسية البظر والألم عند لمسها.

- تراكم اللخن (التَّنُّ) مما يزيد من تكاثر البكتريا والتهابات الجهاز البولي الصاعد.

● الالتصاقات التي تحدث نتيجة لهذه الالتهابات، والتي تؤدي إلى قفل المجرى البولي والتناسلي خاصة في الأطفال قبل سن البلوغ وفي مرحلة الكبر (نسبة لقلة هرمون الإستروجين).

أسباب جنسية:

● قلة الارتواء الجنسي نسبة لضيق القلفة أو كبر حجمها وبعد البظر إلى داخل الجسم.

● شدة الشبق الجنسي نتيجة للالتصاقات والحكة وكثرة الانشغال بالمنطقة وملاستها.

أسباب نفسية:

● البرود الجنسي، الهستريا، التبول اللاإرادي، بعض حالات الاكتئاب النفسي، حالة اللنمفومينا (الهوس الجنسي).

موانع ختان الإناث ومضاعفاته:

إن ختان الإناث الذي شرعه الإسلام عملية جراحية بسيطة ومأمونة إذا أجريت من قبل طيبة وكانت الأدوات معقمة. ومضاعفاته نادرة جدًا ولا تتعدى مضاعفات العمليات البسيطة الأخرى كحدوث نزيف بسيط أو التهابات خفيفة. ولا بد من الكشف الطبي على الطفلة قبل القيام بإجراء الختان.

إن أهم موانع ختان الإناث تتطابق مع تلك التي تخص الذكور. وهي عدم وجود القلفة عند بعض الإناث والتشوهات الخلقية للجهاز التناسلي ووجود بعض أمراض نرف الدم، أو أن يكون الطفل مريضًا وغير مستقر صحيًا، ومن أهم موانع الختان عدم وجود الكادر المؤهل للقيام بهذه العملية، وفي هذه الحالة يُنصح بتأجيل الختان إلى وقت لاحق توجد فيه الكوادر المؤهلة.

فوائد ختان الإناث:

في ختان الإناث تُزال تلك الزائدة التي تمنع وصول المياه إلى الداخل فيصعب نقاء دماء الحيض والبول مما يؤدي إلى روائح كريهة.

إن ختان الأنثى أو خفضها الذي ورد في السنة له محاسن كثيرة منها:

- ذهاب الغلظة والشبق (وتعني شدة الشهوة والانشغال بها والإفراط فيها)، وذهابها يعني تعديل الشهوة عند المختونين من الرجال والنساء.
- منع الروائح الكريهة الناتجة عن تراكم اللخن تحت القلفة.
- انخفاض معدل التهابات المجاري البولية.
- انخفاض معدل التهابات المجاري التناسلية.

فوائد الختان الشرعي هي:

- تثبيت شرع الله وسنة المصطفى ﷺ.
- الطهارة والنظافة التي تؤدي إلى انخفاض في معدل الالتهابات البولية والتناسلية.
- تحسين الخلق حتى يكون الخلق على الفطرة الحنيفية.
- تعديل الشهوة.
- مراعاة النواحي الاجتماعية والنفسية الناتجة عن التخلي المطلق عن الختان وذلك بتثبيت البديل الصحي الذي ينشط محاربة العادة غير الشرعية والضارة.
- إعلاء شعيرة العبادة لا العادة.

الإعجاز التشريعي في تحريم لحم الخنزير

جاء تحريم لحم الخنزير في أربعة مواضع في القرآن العظيم:

١- قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ غَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣).

٢- قَالَ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَبِقَةُ وَالْمُوفِقَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ بَيَّسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣).

٣- قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٤٥).

٤- قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل: ١١٥).

إن لحم الخنزير ينفرد من بين جميع اللحوم المذكورة في آيات التحريم بأنه حرام لذاته، أي لعله مستقرة فيه، أو وصف لاصق به، أما اللحوم الأخرى فهي محرمة لعله عارضة عليها، فالشاة مثلاً إذا ذكيت فلعلمها حلال طيب ولا تحرم إلا إذا كانت ميتة أو ذبحت لغير الله.

والمؤمن يلتزم حين يأتيه الأمر أو النهي من الله، ويمكن أن نجتهد في تفهم علة الأمر والنهي، لكن تحريم لحم الخنزير بالذات تحريم معلل ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ فاجتهدنا

محصور إذن في محاولة فهمنا لخبث ذلك المحرم ورجاسته حتى نزداد شكرًا لله على نعمائه.

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة دالةً على تحريم بيع لحم الخنزير، ومن تلك الأحاديث قوله صلى الله عليه وآله: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ، وَالْمَيْتَةِ، وَالْخِنْزِيرِ، وَالْأَصْنَامِ» (رواه البخاري ومسلم).

وأجمع العلماء على تحريم لحم الخنزير، ولم يجعلوا التحريم مقصوراً على اللحم بل أفتوا بتحريم كل أجزائه، فالآيات القرآنية نصت على تحريم لحمه على جهة القطع، أما بقية أجزائه فلأنهم عدوا الخنزير من النجاسات والخبائث، وقد نصَّ الله تعالى في كتابه الكريم على تحريم الخبائث، والخنزير من جملة الخبائث، ومن نقل الإجماع على تحريم كل أجزائه الإمام النووي حيث قال: «وقد أجمع المسلمون على تحريم شحمه ودمه وسائر أجزائه»^(١).

ولكن ماذا نعرف عن الخنزير؟

الخنزير حيوان لاحم عشبي تجتمع فيه الصفات السبعية والبهيمية، فهو آكل لكل شيء، فيأكل القمامات والفضلات والنجاسات بشراهة ونهم، وهو مفترس يأكل الجرد والفئران وغيرها كما يأكل الجيف حتى جيف أقرانه.

والخنزير من الحيوانات السريعة النمو إذ تضع الخنزيرة ما بين عشرة إلى عشرين خنوصاً، وينمو الخنزير من أقل من كيلوجرامين عند الولادة إلى أكثر من مائة كيلوجرام خلال مائتي يوم. وسبب هذا النمو السريع زيادة كبيرة في هرمونات النمو، والهرمونات المنمية للغدد التناسلية، وهذا الأمر له علاقة بارتباط لحم الخنزير وشحمه بأنواع السرطان التي تزداد لدى آكلي لحم الخنزير وشحمه، ويوجد الدهن متداخلاً مع خلايا

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي (١٣ / ٩٦).

لحم الخنزير بكميات كبيرة خلافاً لبقية أنواع اللحوم مثل البقر والغنم والماعز والدجاج والتي يوجد فيها الدهن بشكل نسيج دهني شبه مستقل.

الأمراض التي ينقلها الخنزير للإنسان:

يبلغ عدد الأمراض التي تصيب الخنزير (٤٥٠) مرضاً، منها (٥٧) مرضاً طفيلياً، تنتقل منه إلى الإنسان، بعضها خطير بل وقاتل، ويختص الخنزير بمفرده بنقل (٢٧) مرضاً وبائياً إلى الإنسان.

وتشاركه بعض الحيوانات الأخرى في نقل بقية الأمراض، لكنه يبقى المخزن والمصدر الرئيسي لهذه الأمراض، هذا عدا الأمراض الكثيرة التي يسببها أكل لحمه كتليف الكبد، وتصلب الشرايين، وضعف الذاكرة، والعقم، والتهاب المفاصل، والسرطانات المختلفة، وغيرها كثير. ونحن على يقين بأن عدد الأمراض سيزداد مع مرور الأيام، وأن السنوات القادمة ستكشف أمراضاً جديدة تنتقل من الخنزير إلى الإنسان.

وهذه الأوبئة يمكن أن تنتقل من الخنزير إلى الإنسان بطرق مختلفة:

الأول: عن طريق مخالطته أثناء تربيته أو التعامل مع منتجاته (وتعتبر أمراضاً مهنية)، وهي لا تقل عن ٣٢ وباءً تصيب في الأغلب عمال الزرائب والمجازر والبيطريين، ومنها: أنواع من الفطور العميقة، والزحار، والديدان، والزحار الزقي، والحمى اليابانية الدماغية، والتهاب الفم البشري الساري.

الثاني: عن طريق تلوث الطعام والشراب بفضلاته، وهي لا تقل عن ٢٨ مرضاً منها: الزحار، والأسكاريس، والانسمام الوشيقي، والديدان القنظية والكبدية والمفلطحة وشوكية الرأس، والدودة المسلحة الخنزيرية والشعيرات الحلزونية وغيرها.

الثالث: عن طريق تناول لحمه ومنتجاته، وهي أكثر من ١٦ مرضاً منها داء المبيضات - داء الحويصلات الخنزيرية، الحمى المالطية - والدودة الكبدية، وداء وايل، والدودة الشعرية الحلزونية والشريطية والسل وغيرها.

ومما سبق يتضح أن الخطورة ليست قاصرة على تناول لحم الخنزير فقط، بل هي تشمل كل أنواع التعامل مع هذا الكائن الخبيث، وقد سبقت الإشارة في الحديث النبوي السابق إلى حظر التعامل مع لحم الخنزير أو دمه، وهذا يؤكد ما ذهب إليه العالم (كرول) من أن الحظر المفروض على المسلمين بعدم ملامسة الخنازير ليس بحاجة إلى تبرير^(١٢).

ومن هذه الأمراض التي تنتقل من الخنزير إلى الإنسان:

أولاً: البريونات:

١- مرض جنون البقر:

يسبب هذا المرض الفتاك أجساماً بروتينية صغيرة تسمى البريونات، وهذه الأجسام لها قدرة على إحداث أمراض خطيرة للحيوانات وللبشر أيضاً، ومصدر الخطورة يكمن في قدرة البريونات على تغيير شكل البروتينات الطبيعية الموجودة في خلايا مناطق حساسة - كالدمغ مثلاً - وتحويلها إلى بريونات، مسببة تلف الدماغ، فالجنون ثم الموت. ولقد أكدت التقارير العلمية أن الخنازير تصاب بهذا المرض، مما يجعل آكلي لحم الخنزير عرضة للإصابة بهذا المرض.

ثانياً: الفيروسات:

يصيب الخنزير مجموعة كبيرة من الفيروسات، منها ما تنقله الخنازير إلى الإنسان، فيسبب له أمراضاً فيروسية خطيرة، مثل:

٢- فيروس الأنفلونزا:

لقد تمّ عزل فيروس الأنفلونزا من عينات أخذت من الإنسان والخيل والخنازير والطيور الداجنة والبرية، وحتى من بعض الثدييات البحرية.

وكان أخطر وباء أصاب العالم من هذه الأنفلونزا: الوباء الذي حدث عام ١٩١٨م، وأطلق عليه آنذاك اسم "الأنفلونزا الأسبانية". فقد تفشى هذا الوباء في شتى أنحاء المعمورة، مخلفاً وراءه ملايين الجثث، وناشراً الذعر والهلع في كل مكان.

ويؤكد بعض الباحثين، بأنّ الفيروس المسبب لهذا الوباء المهلك تحوّر عن فيروس أنفلونزا الخنازير في الولايات المتحدة.

٣- فيروس نيبا:

لم يعرف العالم هذا الفيروس المميت قبل شهر أكتوبر من عام ١٩٩٨م، فقد عالج الأطباء في ماليزيا ٣٠٠ إصابة بما يشبه أعراض الأنفلونزا، سرعان ما توفي ١١٧ مريضاً منهم بفيروس "نيبا" الغامض، وأصيب العشرات منهم بتلف دماغي. ويعتقد الأطباء الماليزيون أنّ الفيروس الخطير ربما انتقل من خفاش الفواكه إلى الخنازير، ومنها إلى الإنسان، حيث أظهرت المتابعات الطبية أنّ جميع المصابين بالمرض كانت تربطهم علاقة قوية بالخنزير، مما حدا بالدوائر الصحية في ماليزيا إلى قتل مليون خنزير.

٤- فيروس الحمى القلاعية:

فيما يبدو ليس من سبيل إلى وضع حد لوباء الحمى القلاعية التي أهلكت الثروة الحيوانية البريطانية في بداية عام ٢٠٠١م، فبعد أيام قليلة من تشخيص الأطباء البيطريين ٢٧ إصابة بين خنازير أحد المسالخ الريفية، فرضت الحكومة حظراً على كافة عمليات نقل الحيوانات، لكن هذا الإجراء لم يخلّ دون انتشار المرض خارج بريطانيا، فسرعان ما انتشر الوباء في القارة الأوروبية، ولم يجد البريطانيون مناصاً من القيام بحملة واسعة النطاق للقضاء على الخنازير المصابة، ذهب ضحيتها ٣,٧٥ مليون من حيوانات المزارع.

يذكر أنّ مرض الحمى القلاعية انتشر عام ١٩٩٧م في جزيرة تايوان برمتها، في أقلّ من شهرين وطالت آثاره المدمرة ٦٠٠٠ مزرعة، وأسفر عن ذبح ٣,٨ مليون خنزير، ومن المعروف علمياً أنّ المرض ينتقل من الخنازير إلى الإنسان.

٥- فيروس التهاب الدماغ الياباني: ينتشر هذا الفيروس بين مربّي الخنازير في

مناطق شرق آسيا، وهو يصيب الطيور، وينتقل منها بواسطة البعوض إلى الخنازير، التي بدورها تنقله إلى الإنسان. ويسبب هذا الفيروس التهاب الدماغ في الإنسان، الذي يكون مميتاً في بعض الأحيان.

٦- فيروس الخنزير التفرحي:

سُجِّل أول ظهور لهذا الفيروس عام ١٩٦٦م في إيطاليا، ليظهر بشكل وبائي في بريطانيا عام ١٩٧٢م، حيث أصاب خلال السنوات العشر التالية أكثر من ٣٢٢ ألف خنزير في بريطانيا وحدها. ينتقل هذا الفيروس من الخنازير إلى البشر عن طريق المخالطة، حيث يسبب حمى وآلامًا في المفاصل والعضلات، يذكر أن الخنزير هو العائل الطبيعي الوحيد لهذا الفيروس.

٧- فيروس التهاب الدماغ والقلب:

تعتبر الجرذان مستودع هذا الفيروس الخطير، كما تعتبر الخنازير أكثر حيوانات الحظيرة إصابة بالمرض، وعادة ما تنتقل العدوى من الجرذان إلى الخنازير. يسبب هذا الفيروس التهاب الدماغ والقلب، مما قد يؤدي بحياة المريض.

ثالثًا: البكتيريا:

يصيب الخنزير مجموعة كبيرة من البكتيريا، حيث تنتقل منه إلى الإنسان، مسببة له أمراضًا خطيرة، بل وقاتلة. ومن أهم الأنواع الممرضة التي للخنزير علاقة بنقلها إلى الإنسان:

٨- بكتيريا الحمى المالطية:

تسبب مرض الحمى المالطية ثلاثة أنواع من البكتيريا، وهي تصيب الماشية والخنزير، حيث تنتقل منها إلى الإنسان. لكن أخطر الثلاثة هو النوع الذي يصيب الخنازير، إذ إنه يسبب للمصابين به من بني البشر التهاب السحايا، والتهاب عضلة القلب، والتهاب المفاصل، وتورم الطحال، وغير ذلك من الأمراض الخطيرة.

٩- بكتيريا السالمونيلا: تسبب هذه البكتيريا للإنسان عدة أمراض، مثل:

التيفوئيد وبارا التيفوئيد والتسمم الغذائي.

١٠- بكتيريا لستيريا: تسبب هذه البكتيريا مرض التهاب السحايا الدماغية،

وموت الأجنة، وتسمم الدم، وهذه الجراثيم شديدة الفتك بالإنسان، إذ تسبب له

التهاب السحايا، كما تفرز سموماً في دم المصاب، كما تبلغ نسبة الوفاة بالمرض ٤٠٪ من الحالات الشديدة. والذين أصيبوا بهذا المرض ونجوا من الموت بعد علاج شاق، عانوا الصمم الدائم وفقدان التوازن.

١١- بكتيريا الحمرة الخبيثة:

تنتقل بكتيريا الحمرة الخنزيرية الخبيثة من الخنزير إلى اللحامين واللباغين، وتكون بشكل لوحة محمرة مؤلمة جداً، وحارقة على الأيدي مع ارتفاع الحرارة والقشعريرة، والتهاب العقد والأوعية اللمفاوية.

١٢- بكتيريا يرسينيا:

يصيب الإنسان نوعان من بكتيريا يرسينيا هما: النوع الأول يسبب في الأطفال الإسهالات المصحوبة بالدم والمخاط. أما النوع الثاني فيسبب أحياناً تسمم الدم والتهاب المفاصل، كما يسبب أيضاً ألماً معوياً يشبه إلى حد كبير التهاب الزائدة الدودية، الأمر الذي قد يلتبس على الأطباء فيخطئون التشخيص.

ويعتبر الخنزير أكثر الحيوانات نقلاً لنوعي يرسينيا للإنسان، حيث يصاب المتعاملون بلحوم الخنازير وآكلوها بنوعي بكتيريا يرسينيا.

رابعاً: الأوليات/ وحيدة الخلية:

ينقل الخنزير للإنسان مجموعة من الكائنات الأولية، بعضها يحدث اضطرابات خفيفة له، والبعض الآخر يسبب أمراضاً خطيرة ومميتة. ومن أبرز الأمراض التي تسببها هذه الأوليات، ودور الخنزير في نقلها إلى الإنسان:

١٣- الزحار البلتيدي/ الزقي:

الطفيلي المسبب لهذا المرض هو نوع من الأوليات الهدبية (لها أهداب)، وهو أكبر الأوليات التي تصيب الإنسان، وهو النوع الوحيد من الأوليات الهدبية التي تصيب الإنسان، كما أنه من طفيليات الأمعاء الغليظة (القولون) في الخنازير والقردة وبخاصة الشمبانزي، ولأن فرص اتصال الإنسان بالقردة ضئيلة، فتبقى الخنازير من الناحية العملية المصدر الوحيد لعدوى الإنسان. ويوجد هذا الميكروب في براز الخنزير

وينتقل إلى طعام الإنسان بطرق عديدة، ليستقر في الأمعاء الغليظة، فيُحدث إسهالاً مصحوباً بالمخاط والدم، قد يؤدي للوفاة. وعادة لا ينتشر الزحار البلتيدي إلا بين مربي الخنازير أو المتعاملين معها (ذبحها ونقلها وتجارتها)، فتتلوث أيديهم بحوصلات الطفيلي المعدية.

١٤- داء النوم الإفريقي:

تنقل الطفيلي المسبب لهذا الداء الفتاك ذبابة التسي- تسي بطريق الحقن، وذلك عندما تلدغ الإنسان. ويسبب الطفيلي اضطراباً دماغياً، لا يلبث أن يتطور إلى مرض النوم، وفي حال إهمال معالجة المريض فإنه يدخل في غيبوبة ويموت، وللخنزير دور كبير في نقل هذا المرض.

١٥- مرض شاغاس:

هذا المرض أشد خطورة من النوع الأفريقي، والطفيلي المسبب له أشد فتكاً. ينتشر هذا المرض في أمريكا الجنوبية والوسطى، وأعراضه مشابهة لأعراض داء النوم الإفريقي، لكنه أكثر شراسة منه.

خامساً: الديدان المفلطحة:

ينقل الخنزير للإنسان عددًا من الديدان المفلطحة، غالبيتها يسبب له اضطرابات خطيرة. وأهم الديدان التي ينقلها الخنزير إلى الإنسان هي:

١٦- البلهارسيا اليابانية:

تصيب البلهارسيا أكثر من ٢٠٠ مليون نسمة، ويموت بسببها قرابة المليون شخص سنوياً. وتعيش هذه الدودة في الأوعية الدموية المعوية، حيث تضع بيوضاً تحترق هذه الأوعية الدموية، لتخرج إلى البيئة الخارجية، وتعيش هذه الديدان في جسم الإنسان مدة تصل إلى ٣٠ سنة، وتُحدث دماراً شديداً يؤدي أحياناً إلى الموت. ويصاب الخنزير بديدان البلهارسيا اليابانية والتي تنزل بويضاتها مع برازه، ومنه تنتقل للإنسان في كثير من بلدان العالم.

١٧- الدودة المتوارقة البسكية:

وهي من الديدان المعوية-الكبدية، والخنزير هو العائل الرئيس لنشر العدوى، وتعيش الديدان البالغة في الأمعاء مُحْدَثَةً التهابات موضعية ونزيفاً وتقرحات في جذر المعى الدقيق، وتتسبب في حدوث إسهال مزمن وفقر دم وقد تحدث استسقاء البطن مؤدية إلى الوفاة.

١٨- الدودة الكبدية الصينية:

تنتشر الدودة الكبدية الصينية في بلدان الشرق الأقصى كاليابان والصين، والخنزير العائل الرئيسي لها، تعيش هذه الديدان في القنوات الصفراوية الكبدية، حيث تتكاثر بأعداد كبيرة، وإذا ما كثرت أعدادها عند المصاب، أحدثت تضخماً في الكبد وإسهالاً مزمناً ويرقاناً شديداً ينتهي بالوفاة.

سادساً: الديدان الشريطية:

ينقل الخنزير للإنسان أنواعاً متعددة من الديدان الشريطية، بعضها بالغ الخطورة على حياته، والبعض الآخر يسبب له اضطرابات تتراوح ما بين الخفيفة والشديدة. وأهم الديدان الشريطية التي ينقلها الخنزير إلى الإنسان هي:

١٩- الدودة الشريطية المسلحة/ تينيا سولي:

والمشهورة أيضاً بالدودة الوحيدة. يعيش طورها البالغ في أمعاء الإنسان، ويبلغ طولها من ٢-٣ أمتار، لها رأس أصغر من الدبوس مزود بأربع ممصات ويطوق قمته طوق من الأشواك، يلي الرأس عنق قصير ينمو منه باستمرار قطع أو أسلات صغيرة تنمو كلما بعدت عن الرأس مكونة شريطاً يحتوي أكثر من ١٠٠٠ قطعة، وتنفصل الأسلات الناضجة الممتلئة بالآف البيوض، لتخرج مع براز المصاب، حيث تعيش في التربة الرطبة زمناً طويلاً إلى أن يأتي خنزير فيلتهمها وما فيها من بيوض.

وتعمل عصارات أمعاء الخنزير الهاضمة على حل هذه البيوض لتتطلق منها الأجنة، فتخترق جدار الأمعاء، لتسبح مع الدورة الدموية إلى كل أنحاء الجسم. وتستقر الأجنة في عضلات الخنزير مكونة حويصلات بطول ٦-١٨ ملم، في كل منها يرقانة لها

رأس صالح لكي يكون دودة جديدة. فإذا ما تناول الإنسان من اللحم المصاب دون أن ينضجه تمامًا لقتل ما فيه من اليرقات، فإنها تنطلق من الحويصلات في أمعائه لتخترق جدارها، وتدخل إلى دورته الدموية، لتستقر بعد ذلك في العضلات أو الرئتين أو الكبد أو القلب أو العيون أو الدماغ.

إن نمو هذه الحويصلات في المخ يؤدي إلى الإصابة بحالات من الصرع، وإلى شلل عضوي جزئي، مع دوار واضطرابات عصبية حسية. كما ينطلق منها إلى الدم ذيفانات سامة، قد تؤدي إلى الموت، ولا يعرف لهذا المرض علاج ناجح حتى يومنا هذا، ويعتبر الخنزير المصدر الوحيد لعدوى البشر.

٢٠- الدودة الشريطية العوساء العريضة:

يصاب الإنسان بالطور البالغ لهذه الدودة، التي تعتبر واحدة من الديدان المعوية، ويبلغ طول الدودة البالغة ١٠ أمتار، وتستطيع أن تضع عددا هائلاً من البيوض، يصل إلى مليون بويضة كل يوم.

٢١- الدودة شوكية الرأس:

هذا النوع من الديدان شائع في الخنزير، ولكنه أيضا يصيب الإنسان، فقد اكتشف بين فلاحي وادي الفولجا في جنوبي روسيا.

سابعاً: الديدان الخيطية أو الاسطوانية:

الديدان الخيطية أو الاسطوانية التي ينقلها الخنزير للإنسان متعددة الأنواع، ومتفاوتة الخطورة، لكنها جميعاً لا تخلو من إشكالات صحية تسببها للعائل. أما أهم هذه الديدان التي يرتبط نقلها إلى الإنسان بأكل لحوم الخنازير أو التعايش معها فهي على النحو التالي:

٢٢ - الدودة الشعرية الحلزونية/ ترايكنيلاً:

تعيش الديدان البالغة في أمعاء الإنسان والخنزير، وهي ديدان قصيرة يتراوح طولها بين ٢-٤ ملم. تتغلغل الإناث المثقلة بالبيوض بين الزغابات المعوية لتضع اليرقات هناك، فهي لا تضع بيضاً. تخترق اليرقات جدر الأمعاء إلى الدم وتطوف معه

تستقر في عضلات العائل، حيث تنمو إلى ١ ملم، ثم تلتف على نفسها وتحوصل. تظل اليرقات المكيسة داخل العضلات حية لمدة تصل إلى ٢٥ سنة في الإنسان، و ١١ سنة في الخنزير. وعندما يأكل إنسان لحم الخنزير المصاب، فإن الحويصلات تنحل في أمعائه، لتنتقل منها أجنة سرعان ما تتطور في أمعائه إلى الديدان البالغة.

والدودة الشعرية البالغة ليست مصدر الخطر الحقيقي على صحة الإنسان، بل اليرقات هي الخطر الداهم. فبعد التزاوج تموت الذكور، وتبقى الإناث الملقحة في جدران الأمعاء لتضع يرقاتها بعد أسبوع واحد. ولا تلبث هذه اليرقات وقتاً طويلاً قبل أن تحترق جدر الأمعاء، لتسير مع الدم إلى جميع أجزاء بدن الإنسان، حيث تستقر في عضلات الحجاب الحاجز والحنجرة واللسان والعين والقلب، محدثة الجنون أو الشلل أو العمى أو الاختناق أو الذبحة القلبية.

٢٢- ثعبان البطن الخنزيري:

تعيش الديدان البالغة في أمعاء الخنزير، حيث تضع بيوضها، التي تخرج مع البراز إلى البيئة الخارجية. وإذا ما دخلت هذه البيوض جسم شخص ما (بطريق مخالطة الخنازير)، فإنها تفقس وتخرج منها يرقات تحترق جدار الأمعاء، ثم تسير محمولة مع الدم حتى تصل الرئتين، فتثقب الأوعية الدموية وتموت داخل الرئتين، مسببة الالتهاب الرئوي الإسكاريسي الذي يعتبر من الأمراض القاتلة.

ثامناً: أمراض جسمانية غير طفيلية:

يحتوي لحم الخنزير على أنواع عديدة من المركبات الكيميائية الضارة، التي لا تتناسب ولا تنسجم مع مركبات جسم الإنسان، وبالتالي فهي تسبب له أمراضاً وعللاً متنوعة، تزداد وطأتها كلما تزايد استهلاك الشخص للحوم ومنتجات الخنزير. ومن هذه الأمراض:

٢٣- السرطانات:

يحتوي جسم الخنزير على كميات كبيرة من هرمون النمو والهرمونات المنمية للغدد التناسلية، لذا تزداد الإصابة بالسرطان لدى آكلي لحم الخنزير. فقد بينت

الدراسات وجود علاقة قوية بين استهلاك لحم الخنزير وسرطان الأمعاء الغليظة والمستقيم، وسرطان البروستاتا، وسرطان الثدي، وسرطان البنكرياس، وسرطان عنق الرحم وبطانة الرحم، وسرطان المرارة، وسرطان الكبد.

٢٤- السمنة وأمراض الشرايين والقلب:

يوجد الدهن متداخلاً مع خلايا لحم الخنزير بكميات كبيرة، خلافاً للحوم البقر والغنم والدجاج، والتي يكون فيها الدهن على شكل نسيج دهني شبه مفصول عن النسيج العضلي. وبالإضافة إلى ذلك فإن دهون الخنزير ترتبط بالمواد المخاطية النشوية، مما يجعل إزالتها من الجسم أمراً عسير، ذلك لأن الدهون الجليسيريديية الثلاثية للحيوانات آكلة العشب، تحتوي على حمض دهني غير مشبع على ذرة الجلسرول الثانية، وإنزيماة الإنسان الدهنية قادرة على هضمها بسهولة.

أما الدهون الجليسيريديية الثلاثية في الخنزير وفي آكلة اللحوم، فتحتوي على حمض دهني مشبع على ذرة الجلسرول الثانية، فلا تقدر إنزيماة الإنسان الدهنية على هضمها، ويسبب دهن الخنزير مجموعة من الأمراض نحو تصلب الشرايين، الذبحة الصدرية، جلطات القلب، ضغط الدم، سكري البول، وحصوات المرارة، وما يتبع ذلك من تعقيدات مرضية خطيرة، وبذلك ترسب في جسم آكلها من البشر، مُحدثةً أضراراً بليغة.

٢٥- التهاب المفاصل:

يحتوي لحم الخنزير على كميات كبيرة من حامض البولييك، ذلك لأن جسمه لا يتخلص إلا من قدر يسير من حامض البولييك، لا يتعدى ٣٪، بينما يتخلص الإنسان من ٩٠٪ من نفس الحامض، ونظراً لهذه النسبة العالية من حامض البولييك؛ فإن آكلي لحم الخنزير يشكون عادة من آلام روماتيزمية، والتهابات المفاصل، ومشاكل في الكلى.

٢٦- الأمراض التحسسية:

يحتوي لحم الخنزير على كميات عالية من مركبات الهستامين والإميدازول، تحدث عند آكلها أمراضاً تحسسية جلدية، مثل الأكزيما والشرى والتهاب الجلد

العصبي والحكة وغيرها. وإذا امتنع أكلوا لحم الخنزير عن أكله بشكل مطلق، فإن هذه الأمراض التحسسية تتلاشى.

٢٧- أمراض أوتار العضلات والغضاريف:

يحتوي لحم الخنزير على مواد مخاطية نشوية فيها مادة الكبريت، التي ترسب في أوتار العضلات والنسيج الغضروفي، مسببة رخاوة تلك الأنسجة ومحدثة تغيرات باثولوجية في المفاصل والعمود الفقري.

وبعد هذا كله فإننا نقف أمام معجزة من معجزات التشريع الإسلامي. فتبارك الذي أحل لنا الطيبات، وحرم علينا الخبائث، وها هو العلم الحديث يكشف لنا كل هذه الأمراض التي يسببها وينقلها الخنزير إلى الإنسان، وكل هذا يثبت التطابق بين ديننا وبين الحقائق العلمية الحديثة، وأن هذا الدين نزل بعلم الله تعالى.

الإعجاز التشريعي في التذكية (الذبح)

تعد قضية ذبح الحيوان التي شرعها الإسلام قبل الإفادة من لحم الحيوان - الذي أحله الله ﷻ - من جملة القضايا الساخنة التي يثيرها أعداء الإسلام بحقد للتشكيك في شرائعه وأحكامه؛ جهلاً منهم بطبيعة الأوامر الربانية التي لا يأتيها الباطل ولا يعترىها النقص والخلل.

وكثيراً ما دارت معارك كلامية وحوارات مفتعلة مع الأقليات المسلمة، في كل من بريطانيا، وأمريكا، وفرنسا، وغيرها حول هذه القضية. وتعد جمعية الرفق بالحيوان في هذه البلدان وغيرها من أبرز الجمعيات التي تثير هذه القضية، وتستنكرها، وتُظهر مناظر الأغنام بعد قيام المسلمين بذبحها وهي ترفس بأطرافها وتتلوى من الألم؛ متهمه القائمين بذلك بالوحشية والهمجية، وهذا - بالإضافة إلى كونه من مظاهر الحقد والتشويه - يعد جهلاً مركباً بما توصل إليه العلم الحديث في هذا المجال من الحقائق الدامغة.

ولا يضر دين الله الحق المنزل على رسول الله ﷺ كل هذه الافتراءات، فهو أسمى من أن تنال من حكمته السامية هذه الافتراءات الحاقدة وغيرها، فضلاً عن أن تضع أحكام الإسلام وشرائعه الربانية موضع الشك والاتهام، خاصة وأن التقدم العلمي يقدم الأدلة الواضحة على صحة تلك الشرائع الربانية، وحكمتها السامية، ومن ذلك ما نسمعه من كلام أهل الاختصاص في قضية ذبح الحيوان المقررة شرعاً.

أولاً: الدم من الناحية الشرعية والعلمية ووجه الإعجاز فيه:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ لَّا أَحَدٌ فِي مَآ أَوْحَىٰ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ (الأنعام: ١٤٥)، يتضح من الآية أن الدم المسفوح حرام، والمسفوح هو الكثير المصبوب، والسَّفْحُ للدم كالصَّب.

وقد اتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يُؤكَل ولا يُنتفع به، ما لم تعم به البلوى ومعفو عما تعم به البلوى والذي تعم به البلوى هو الدم في اللحم وعروقه، لأن الله تعالى قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ (المائدة: ٣). وحمل العلماء المطلق على المقيد إجماعاً فالدم هنا يراد به المسفوح لأن ما خالط اللحم غير محرم بإجماع وكذلك الكبد والطحال مجمع عليه.

التفسير العلمي لتحريم الدم:

الدم هو هذا السائل الأحمر القاني الذي يتكون من أخلاط عديدة منها الخلايا الحمراء الممتلئة بمادة الهيموجلوبين التي تقوم بنقل الأكسجين إلى مختلف خلايا الجسم، والخلايا البيضاء التي تدافع عن الجسم ضد غزو حاملات الأمراض من الجراثيم والطفيليات، والصفائح التي تتحطم حول نزيف الدم من أجل تجلطه.

ويحمل الدم سمومًا وفضلاتٍ كثيرة ومركبات ضارة، وذلك لأن إحدى وظائفه الهامة هي نقل نواتج استقلاب الغذاء^(١) في الخلايا من فضلات وسموم ليطرحة خارج الجسم عبر منافذها التي هيأها الله ﷻ لهذا الغرض، وأهم هذه المواد هي: البولة وحمض البول والكرياتنين وغاز الفحم كما يحمل الدم بعض السموم التي ينقلها من الأمعاء إلى الكبد ليصار إلى تعديلها.

وكذلك فإن الجراثيم الممرضة ربما انتقلت إليه عبر السكين التي ذبح بها الجزار، أو عبر الهواء المحيط، أو قد تنتقل من مصدر مجاور؛ فإذا انتقل عدد من الجراثيم إلى الدم فإن الجرثومة الواحدة تتضاعف هندسيًا كل نصف ساعة، فتتوالد الجرثومة الواحدة إلى اثنتين.

ولو اعتبرنا أن ١٠٠٠ جرثومة انتقلت إلى هذا الجرام من الدم فإنها تصبح بعد نصف ساعة ٢٠٠٠، وبعد ساعة واحدة يرتفع العدد إلى ٤٠٠٠، وبعد ساعة ونصف

(١) استقلاب: أيض: تحوُّل الغذاء إلى طاقة.

تصبح ٨٠٠٠ جرثومة، ثم يرتفع عدد الجراثيم إلى ١٦٠٠٠ جرثومة بعد ساعتين، وبعد ثلاث ساعات يكون العدد وصل إلى ٦٤٠٠٠ جرثومة تغزو هذا الجرام الواحد من الدم.

ومعلوم أن الدم أصلاً توجد فيه كميات هائلة من الجراثيم، بل إنه بعد وفاة الحيوان يصبح ملوثاً ضاراً جداً بصحة الإنسان، إذا تم شربه، أو حفظه في مكان ثم شربه بعد ذلك.

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو إذا كان فعل الجراثيم بالدم هو ما ذكر آنفاً فبالأكيد سيكون فعلها باللحم كذلك فلماذا يؤكل اللحم ولا نصاب بما يصاب به أكل الدم؟ والجواب على ذلك هو أن الجراثيم تبدأ بغزو السطح الخارجي عبر التهام الطبقة الصلبة التي يصعب على الجراثيم اختراقها، عندها تبدأ بالتهام ما يوجد في الطبقة الصلبة؛ فيتناقص عنها الغذاء ويموت عدد كبير منها لعدم قدرتها على التكاثف بسرعة. فإذا أراد الطباخ أن يطبخ هذه القطعة من اللحم فإنه يقوم بغسلها من الخارج؛ وعندها تكون كمية الجراثيم قد أزيلت بهذه العملية، ثم بالطبخ يتم القضاء على كمية أخرى من الجراثيم.

وعند تناول كمية كبيرة من الدم فإن هذه المركبات تمتص ويرتفع مقدارها في الجسم، إضافة إلى المركبات التي يمكن أن تنتج عن هضم الدم نفسه مما يؤدي إلى ارتفاع نسبة البولة في الدم والتي يمكن أن تؤدي إلى اعتلال دماغي ينتهي بالسُّبات.

وهذه الحالة تشبه مرضياً ما يحدث في حالة النزف الهضمي العلوي ويلجأ عادة هنا إلى امتصاص الدم المتراكم في المعدة والأمعاء لتخليص البدن منه ووقايته من حدوث الإصابة الدماغية. وهكذا فإن علماء الصحة لم يعتبروا الدم بشكل من الأشكال في تعداد الأغذية الصالحة للبشر.

ومن أهم الأضرار التي توصل اليها العلماء إلى تحديدها حتى الآن حين يتناول الإنسان "الدم"، شرباً أو أكلاً:

● يدعى الذين يستعملون دم الحيوان أنه غذاء جيد للإنسان، وهم مخطئون في هذا، فالدم يحتوي قدرًا ضئيلاً من البروتينات القابلة للهضم (كالألبومين والجلوبيولين والفيبرينوجين)، وكذلك الدهون، بينما يحتوي نسبة عالية من خضاب الدم (هيموجلوبين)، وهو بروتين معقد عسير الهضم، لا تحتمله المعدة. كما أن الدم إذا تخثر (تجلط) فإن هضمه يصبح أشد عسرًا، لعدة أسباب، منها أن الفيبرينوجين من أسوأ البروتينات وأعسرها هضمًا. كما يحتوي الدم غاز ثاني أكسيد الكربون، وهو من الغازات السامة، بل والقاتلة. وبالتالي فإن الإقدام على تناول الدم يؤدي إلى وقوع أضرار صحية جسيمة للإنسان.

● يدعى الذين يستعملون دم الحيوان، شرباً أو أكلاً، أنه مفيد في معالجة عوز الدم (فقر الدم أو الأنيميا)، وهم مخطئون، لأن الحديد هنا حديد عضوي، أي أنه أقل وأبطأ امتصاصاً في الأمعاء من الحديد اللاعضوي. فلا ضرورة إذن لاستعمال الدم كمصدر للحديد في حالات عوز الدم عند الإنسان، خصوصاً وأن الحديد اللاعضوي ليس عسيراً على أن يحصل عليه، بل توجد مواد صيدلانية توفر له ما يريد. هذا، إضافة إلى أن بروتينات المصل توجد بنسبة ضئيلة إذ تبلغ نسبة الألبومين والجلوبيولين والفيبرينوجين (وهو مولد الفيبرين أي اللفين)، ٧ جرام/١٠٠ مللي لتر من الدم في المتوسط. ثم إن خضاب الدم، أي هيموجلوبينه أو يحموره، يعد بروتينا عسر الهضم.

● إذا تناول الإنسان كمية متوسطة من الدم، فإنها قد تؤدي إلى حدوث اختلال ومرض دماغي يحدث على إثره سبات أو إغماء يعقبه الموت. تجري هذه الأحداث نتيجة ارتفاع نسبة البولة الدموية، وذلك بعد ما يتم حدوثه أيضاً للبروتينات الموجودة في الدم. وتتفاعل الجراثيم والميكروبات الموجودة في معدة الإنسان مع الدم المشروب (أو المأكول) وتنتج عن ذلك أحماض أمينية ضارة ومركبات نشادرية سامة.

تدخل هذه الأحماض والمواد إلى الدورة الدموية، ثم عن طريق الوريد الباطني تدخل إلى الكبد، فتؤدي إلى انخفاض أدائه الوظيفي. كما تدخل هذه الأحماض إلى الدماغ (المخ) فتؤثر في خلاياه تأثيرات ضارة، تتدرج من الحمول وفقدان الوعي، إلى الدهول، والغيوبة، ثم الموت.

● إذا تناول الإنسان دم حيوان، فإن يجموره (هيموجلوبينه) يخضع لعملية هضم، فيتحلل إلى جلوبين وهيماتين، ويتحد هذا الأخير مع مركب، أو يتحول إلى مركب جديد، وهو المركب الذي يتحد مع بروتينات دم الإنسان فيوقف عملها، فلا تؤدي وظائفها الحيوية الضرورية للجسم!! وقد يدخل جزء من يجمور الدم المشروب كما هو على هيئته الأصلية إلى الدورة الدموية للإنسان، ويصل إلى الكلى ويتحول فيها إلى مركب يؤدي إلى حدوث هبوط في وظائف الكلى!!

● الدم وسط لنمو أنواع كثيرة من الجراثيم والميكروبات، لدرجة أنه يستخدم في المعامل (المختبرات) لصنع المزارع الدموية والحصول على "مستعمرات"، أي جماعات جرثومية. ونضيف هنا أن العديد من السموم وثنائي أكسيد الكربون والكرياتينين واليورينا، وحمض اليوريا، والمواد الضارة الناتجة عن الأيض (الاستقلاب) وغيرها، يتناولها الإنسان في الدم الذي يشربه أو يأكله، فتمتص هذه المواد، وترتفع مستوياتها في الجسم.

فتصور كم من الأمراض يمكن أن تصيب الإنسان!! ومن المصادر العديدة للجراثيم التي تنمو في الدم كوسط غذائي ملائم لها: السكين (أو أداة الذبح)، والإنسان نفسه (الجزر أو القصاب)، والآنية التي يوضع فيها الدم، والحشرات المترمة أو الماصة للدم، والهواء، وقد يكون الحيوان ذاته مصابا بمرض جرثومي.

● يحتوي دم الحيوان على مضادات، يتفاعل معها الجسم ليولد الأجسام المضادة (أو الأجسام الضدية)، وقد يؤدي شرب الدم، وخصوصاً إذا تكرر، إلى تفاعل هذه المضادات مع الأجسام الضدية، فيؤدي هذا إلى حدوث حساسية شديدة.

• هناك عامل نفسى، إضافة إلى كل ما أسلفناه، يجب أن يدركه الإنسان العاقل جيدا في تحريم الإسلام لتناول دم الحيوان، ذلك هو التشبه بالوحوش في شرب الدماء، فكيف بالإنسان يتصور نفسه وهو يشرب كوبا من الدم على المقهى مثلا. إن هذا يتنافى مع الفطرة السليمة والنفس السوية.

لماذا لا يذبحون؟

والدول غير الإسلامية لا تبغي من وراء ذلك - غالبا - سوى تحقيق أكبر عائد وأرباح تجارية، إذ يزن دم كل ذبيحة عدة كيلوجرامات، إذ تمثل كمية الدم ١٣/١ من وزن الحيوان، تقريبا، فلو كان وزن الحيوان ٤٠٠ كيلوجراما مثلا، فإن الجهة المصدرة ستربح (٤٠٠ × ١٣/١) = ٣٠ كيلوجراما، تقريبا، إذا صُدِّرت الذبيحة بدمها، وإذا ذبح الحيوان بالطريقة الإسلامية فإنه يفقد ٣/٢ دمه، تقريبا، ويتبقى الثلث الأخير، وهو في الغالب غير ضار.

والذبح غير الإسلامي يؤدي إلى استنزاف ٨ كيلوجرامات على الأكثر من كل ذبيحة، فالذبح الإسلامي إذن سيؤدي إلى خسارة تجارية قدرها ١٢ كيلوجرامات للمتعهد، فإذا احتوى الطن الواحد ثماني حيوانات بعظامها، فإن المتعهد سيخسر (٨ × ١٢) = ٩٦ كيلوجراما، وإذا صُدِّر صفقة قوامها ٥٠٠ طنا مثلا، فإنه سيخسر (٥٠٠ × ٩٦) = ٤٨٠٠٠ كيلوجراما.

ولك بعد ذلك أن تتصور حجم الخسارة بالدولار، حسب سعر اللحوم العالمي، إذا طبق النظام الإسلامي في المذابح والمسالخ في الدول المصدرة للحوم، وكثير منها دول غير إسلامية، لا يهم المصدرون فيها سوى تحقيق الأرباح التجارية، ولذلك فإنهم يتعمدون حبس الدم في الذبائح، وذلك دون اعتبار لأية أضرار ستلحق بالناس، المهم هو المكاسب المالية، وليمرض المستهلكون، أو يموتوا، لا يهم.

وجه الإعجاز:

من هذا الاستعراض الموجز يتضح لنا بجلاء حكمة تحريم أكل الدم، ولو لم يرد في القرآن الكريم غير هذه الحقيقة العلمية لكانت كافية للشهادة على أن القرآن

المجيد هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسوله ﷺ، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأن النبي والرسول الخاتم ﷺ الذي تلقى القرآن المبين كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السماوات والأرض.

ثانياً: الميتة من الناحية الشرعية والعلمية ووجه الإعجاز فيها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣).

وقال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْنَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَحْصَةِ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣).

من هاتين الآيتين فهم ويفهم المسلمون أن الميتة - وهي اسم لما فارق الحياة من غير ذكاة شرعية - يحرم أكلها بأمر من الخالق الذي خلق الخلق وأمرهم بما يصلحهم في الدنيا والآخرة القائل: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ (النجم: ٣٢).

﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ هي التي تموت بالخنق: وهو حبس النفس سواء كان ذلك بفعلها كأن تُدخِل رأسها في حبل أو بين عودين أو بفعل آدمي أو بغيره وقد كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة إذا ماتت أكلوها. ﴿وَالْمَوْفُوذَةُ﴾ هي التي تضرب بحجر أو عصا حتى تموت من غير تذكية. ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ هي التي تتردى من علو إلى أسفل فتموت من غير فرق بين أن تتردى من جبل أو بئر أو مدفن أو غيرها والتردى مأخوذ من الردى وهو الهلاك وسواء تردت بنفسها أو تردت بفعل غيرها.

﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ هي التي تنطحها أخرى فتموت من دون تذكية.

﴿ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ ﴾ أي ما افترسه ذو ناب كالأسد والنمر والذئب والضبع ونحوها، والمراد هنا: ما أكل منه السبع لأن ما أكله السبع كله قد فني. ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي حرمت عليكم هذه الأشياء لكن ما ذكيتم فهو الذي يحل ولا يحرم. فمات بأي طريقة من هذه الطرق التي ذكرها القرآن ولم يُدَكَّ الذكاة الشرعية فقد حرم القرآن أكله، هذا هو الذي عليه العمل عند أهل الإسلام وهو الذي يدينون به لربهم ﷻ.

التفسير العلمي لتحريم أكل الميتة:

القاسم المشترك الذي يجمع بين تحريم القرآن الكريم للدابة المنخقة التي خنقت فماتت وبقي دمها في جسمها، والموقوذة التي ضربت بألة فماتت من غير تذكية، والمتردية التي وقعت من عال فماتت بصدمة عضلية، والنطيحة التي نُطحت، هذه الأربعة أنواع من الدواب التي حرم الله أكلها يجمعها قاسم مشترك واحد، هو أن الدم بقي في جسمها.

والميتة مستودع للجراثيم، ومستودع للأمراض الفتاكة، وقد اكتشف العلماء مؤخرًا أن هناك علاقة بين الأمراض التي يحملها الحيوان الذي يموت مختنقًا وبين صحة الإنسان. حيث يعمل جدار الأمعاء الغليظة للحيوان كحاجز يمنع انتقال الجراثيم من الأمعاء الغليظة - حيث توجد الفضلات - إلى جسم الحيوان وإلى دمه طالما كان الحيوان على قيد الحياة.

ومعلوم أن الأمعاء الغليظة مستودع كبير للجراثيم الضارة بالإنسان، والجدار الداخلي لهذه الأمعاء يحول دون انتقال هذه الجراثيم إلى جسم الحيوان، كما أن في دم الحيوان جدارًا آخر يحول دون انتقال الجراثيم من دم الحيوان، فإذا حدث للحيوان خنق فإنه يموت موتًا بطيئًا.

وتكمن الخطورة في هذا الموت البطيء عندما تفقد مقاومة الجدار المغلف للأمعاء الغليظة تدريجيًا مما يجعل الجراثيم الضارة تخترق جدار الأمعاء إلى الدماء وإلى اللحم المجاور.

ومن الدماء تنتقل هذه الجراثيم مع الدورة الدموية إلى جميع أجزاء الجسم لأن الحيوان لم يموت بعد، كما تخرج من جدار الدماء إلى اللحم بسبب نقص المقاومة في جدار هذه الأوعية الدموية فيصبح الحيوان مستودعاً ضخماً لهذه الجراثيم الضارة.

ثم تفتك هذه الجراثيم المتكاثرة بصحة الحيوان حتى الموت، وموته في هذه الحالة يعني وجود خطر كبير في جسد هذا الكائن الذي يموت مختنقاً.

أما الحيوان الذي يموت ضرباً فيصاب هذا الحيوان كذلك بالموت البطيء كالمختنق تماماً فيقع له ما وقع للمختنق؛ وزيادة على ذلك فإن الضرب يتسبب في تمزيق الأوعية الدموية في مكان الضرب، كما يمزق الخلايا فيه، فيختلط تركيب الدماء مع تركيب الخلايا مما يتسبب في حدوث تفاعلات للمواد السامة الضارة.

ولذلك تلحظ وجود تورم يقع في مكان الضرب إن هذا التورم الحادث سببه وجود التفاعلات الكيميائية الضارة التي أصبحت مولدات لمواد سامة إلى جانب التسليخ الذي يحدثه الضرب بجسم الحيوان. وبهذا يصبح الحيوان الذي مات من الضرب مستودعاً للجراثيم الضارة وخطراً على صحة الإنسان.

أما عن الحيوان الذي يسقط من مكان عالٍ وهو الذي يسمى: (المرتدية) فتكون حالته مثل حالة الذي مات بالضرب، ففي مكان السقوط يحدث التمزق ويبدأ بالموت موتاً بطيئاً. وحتى لو مات مباشرة بعد السقوط فإن الجراثيم تغزو الجسم بسرعة، ولذلك نجد أن العفونات سرعان ما تتصاعد من جسم هذا الكائن دليل على ما يوجد فيه من جراثيم وميكروبات خطيرة.

أما عن الحيوان الذي يموت بسبب التناطح فالموت بهذه الطريقة يشابه الذي يموت ضرباً ولكنة أخطر، ففي الغالب أن الحيوان عندما ينطح بقرنه تتم عملية النطح في منطقة البطن، وبالأخص في الأمعاء، فيدخل القرن ملوثاً بالجراثيم إلى الدماء في أمعاء الحيوان الآخر، وتجري الدماء في جسمه، ثم يموت تبعاً لذلك. ويشكل تناول لحم الحيوان في هذه الحالة خطراً محققاً على صحة الإنسان.

أما عن الحيوان الذي يموت بسبب افتراس حيوانٍ آخر له فمعلوم أن مخالِب السبع مملوءة بالجراثيم، فإذا غرسها في جسم هذا الحيوان سارت تلك الجراثيم في دمه؛ عندها يموت الحيوان ببطء ويصبح مستودعًا للجراثيم الضارة أما عندما يذبح الحيوان بالطريقة المعهودة عند المسلمين؛ نكون قد استخلصنا المصدر الأساسي لنقل هذه الجراثيم وهو الدم، ولا يمكن بعدها السماح بانتقالها إلى الأعضاء.

وإذا ذبح الحيوان قبل موته تخلص الجسم من هذه المادة التي تسبب انتقال هذه الجراثيم إليه؛ لأن الدم هو السائل الحيوي المهم في جسم الكائن الحي والذي يستطيع مقاومة ملايين الطفيليات بما يحويه من كرات بيضاء وأجسام مضادة مادام الكائن حيًا وفي درجة حرارته الطبيعية، فإذا مات الحيوان وتوقف الدم عن الجريان أصبحت الميكروبات بدون مقاومة، وفي هذه الحالة يكون أسلم الطرق هو الإراقة الكاملة لهذا الدم، وإخراجه من الجسم في أسرع وقت ممكن.

وجه الإعجاز:

مما تقدم يتضح بجلاء وبدون أدنى لبس التوافق العجيب والدقيق بين ما توصل إليه العلم الحديث وبين أوامر الشرع الإسلامي الحنيف، العلم الحديث يثبت أنه لا وسيلة للتخلص من الأسباب المؤدية إلى كثير من الأمراض إلا بالتذكية الإسلامية الشرعية، هذه الحقيقة يثبتها العلماء اليوم والإسلام يأمرنا بها قبل ألف وأربعمائة عام.

فمن أين لمحمد ﷺ هذا العلم؟ إنها شهادة الحق بأنه من عند الله ﷻ.

الحكمة التشريعية في تحريم النمص والوشم والتفج

قال عليه السلام: «لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَمَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيَّرَاتِ خَلَقَ اللَّهُ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

النَّامِصَةُ: الَّتِي تَنْقُشُ الْحَاجِبَ حَتَّى تُرْفَقَهُ. وَالْمُتَمَمِّصَةُ الَّتِي تَطْلُبُ فِعْلَ ذَلِكَ بِهَا، وَهَذَا الْفِعْلُ حَرَامٌ إِلَّا إِذَا نَبَتَ لِلْمَرْأَةِ لِحْيَةٌ أَوْ شَوَارِبٌ فَلَا تَحْرَمُ إِزَالَتَهَا.

الْوَاشِمَةُ: فَاعِلَةُ الْوَشْمِ وَهِيَ أَنْ تَغْرِزَ إِبْرَةً أَوْ مِسْلَةً أَوْ نَحْوَهُمَا فِي ظَهْرِ الْكَفِّ أَوْ الْمِعْصَمِ أَوْ الشَّفَةِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ بَدَنِ الْمَرْأَةِ حَتَّى يَسِيلَ الدَّمُ ثُمَّ تَحْشُو ذَلِكَ الْمَوْضِعَ بِالْكُحْلِ فَيَحْضُرُ وَقَدْ يُفْعَلُ ذَلِكَ بِدَارَاتٍ وَنُقُوشٍ، وَقَدْ تَكَثَّرَ وَقَدْ ثَقُلَتْ وَفَاعِلَةُ هَذَا وَاشِمَةٌ وَالْمَفْعُولُ بِهَا مَوْشُومَةٌ فَإِنْ طَلَبْتَ فِعْلَ ذَلِكَ بِهَا فَهِيَ مُسْتَوْشِمَةٌ وَهُوَ حَرَامٌ عَلَى الْفَاعِلَةِ وَالْمَفْعُولِ بِهَا بِاخْتِيَارِهَا وَالطَّالِبَةِ لَهُ، وَقَدْ يُفْعَلُ بِالْبِنْتِ وَهِيَ طِفْلةٌ فَتَأْتُمُ الْفَاعِلَةَ وَلَا تَأْتُمُ الْبِنْتَ لِعَدَمِ تَكْلِيفِهَا حِينَئِذٍ.

وَأَمَّا الْمُتَفَلِّجَاتُ فَالْمُرَادُ مُفَلِّجَاتُ الْأَسْنَانِ بِأَنْ تَبْرُدَ مَا بَيْنَ أَسْنَانِهَا الثَّنَائِيَا وَالرُّبَاعِيَّاتِ وَهُوَ مِنَ الْفَلَجِ وَهِيَ فُرْجَةٌ بَيْنَ الثَّنَائِيَا وَالرُّبَاعِيَّاتِ وَتَفْعَلُ ذَلِكَ الْعَجُوزُ وَمَنْ قَارَبَتْهَا فِي السِّنِّ إِظْهَارًا لِلصَّغَرِ وَحُسْنِ الْأَسْنَانِ لِأَنَّ هَذِهِ الْفُرْجَةَ اللَّطِيفَةَ بَيْنَ الْأَسْنَانِ تَكُونُ لِلْبَنَاتِ الصَّغَارِ فَإِذَا عَجَزَتِ الْمَرْأَةُ كَبُرَتْ سِنُّهَا وَتَوَحَّشَتْ فَتَبْرُدُهَا بِالْمِبْرَدِ لِتَصِيرَ لَطِيفَةً حَسَنَةً الْمُنْظَرِ وَتُوهِمُ كَوْنَهَا صَغِيرَةً وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا الْوَشْرُ.

وَهَذَا الْفِعْلُ حَرَامٌ عَلَى الْفَاعِلَةِ وَالْمَفْعُولِ بِهَا لِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَلِأَنَّهُ تَغْيِيرٌ لِحَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى وَلِأَنَّهُ تَزْوِيرٌ وَلِأَنَّهُ تَدْلِيسٌ وَأَمَّا قَوْلُهُ الْمُتَفَلِّجَاتُ لِلْحُسْنِ فَمَعْنَاهُ يَفْعَلَنَّ ذَلِكَ طَلَبًا لِلْحُسْنِ وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْحَرَامَ هُوَ الْمَفْعُولُ لَطَلَبِ الْحُسْنِ أَمَا لَوْ احتاجتْ إِلَيْهِ لِعِلَاجٍ أَوْ عَيْبٍ فِي السِّنِّ وَنَحْوِهِ فَلَا بَأْسَ.

الأضرار الطبية للنمص:

١- ارتخاء عضلات الجفن العلوي نتيجة التهيج المستمر للعضلات فأثبتت الدراسات العلمية أن كثرة النمص يؤدي إلى كثرة تهيج الجلد والعضلات المحركة للحاجب مما يؤدي إلى ارتخاء الجفن أعلى العين ويكون الارتخاء للجفن في الجزء الوحشي لقلة الدهن المساند تحت الجفن وعدم قوة التصاق العضلة الرافعة للحاجب مع الطرف الوحشي ولإصلاحه لابد من إجراء جراحات تجميلية وإن لم يعالج ارتخاء الجفن يؤدي إلى ضعف الإبصار والصداع وزغللة العين.

٢- صداع متكرر والتهاب الجيوب الأنفية، وقد أشارت الأبحاث في الولايات المتحدة إلى أن النمص يسبب صداع والتهاب الجيوب الأنفية. ويؤكد ارتباط الأنف بالحاجب ما يسمى انعكاس العطاس حيث يلاحظ العطس مع النمص ويفسر ذلك علمياً بتهيج مراكز العطس نتيجة تهيج أعصاب الأنف التي تتغذى عصبياً من العصب الخامس وهو نفس المصدر المغذي للحاجب.

٣- يقل شعر الحاجب وذلك لموت حوصلات الشعر والتأثير على المظهر الجمالي للمرأة مما دعى الغرب لاستعمال الوشم وزرع ولصق شعر الحاجب.

٤- حدوث أمراض جلدية مثل البهاق والثآليل عند من يعانون من ضعف المناعة.

٥- حدوث تغيرات جلدية مثل التهاب الوجه الاحمراري عند النساء والذي لم يستطع العلماء تحديد سببه إلى الآن.

٦- تسهيل حدوث سرطان خلايا الجلد القاعدي فقد تم اكتشاف علاقة بين سرطان الجلد وبين فيروس (human papillomavirus) والذي يوجد متعايشاً على الجلد وخاصة جلد الجبهة في الإنسان حيث الحاجبان.

٧- أدى النمص للحواجب باستخدام الخيط القطني إلى انتشار البهاق والبرص في حالة سجلت في الهند ونشر ذلك في ورقة عمل في المجلة البريطانية المتخصصة في تجميل الجلد.

الأضرار الطبية للوشم:

١- ثبت علمياً أن الوشم يسبب تسمماً في الدم وأنه الاحتمال الأكبر للإصابة بالالتهاب الكبدي الوبائي وأنه مسبب للحساسية الجلدية وقد يصل التسمم من الوشم في بعض الحالات لدرجة الموت.

٢- إمكانية الإصابة بسرطان الجلد والصدفية والحساسية التي تحصل في الجلد في بعض الحالات والالتهاب الحاد بسبب التسمم وخاصة عند استخدام صباغ صنع لأغراض أخرى كطلاء السيارات أو حبر الكتابة، وسوء التعقيم الذي يؤدي إلى انتقال العدوى بأمراض الالتهاب الكبدي وفيروس الإيدز والزهري، وقد تصل إلى التأثير في الحالة النفسية للموشوم فتؤدي إلى تغيرات سلوكية في شخصيته .

أما طبيعة المواد المستخدمة فهي ملونات ذات أصل حيواني ومساحيق من الكحل والفحم وعصارة النباتات أو أكسيد المعادن كالحديد والكوبالت، وهنا تكون الطامة الكبرى لأن الموشوم لا يدرك بأن البقع والألوان المستخدمة في الوشم هي مواد خاملة لذلك فهي تصبح جزءاً دائماً من مكونات خلايا البشرة.

٣- إن إزالة هذا الوشم توجب إزالة هذه الخلايا في حال قرر مستقبلاً ذلك، وهذه العملية تتم إما باستئصال الجلد في منطقة الوشم أو بصنفرة البشرة وخاصة السطحي منها، وهذه الطريقة يؤخذ عليها احتمال ابيضاض المنطقة المعالجة بها، والإزالة باستخدام الليزر أو بعمل رسم فوق الوشم الأصلي غير المرغوب به إما بالجراحة أو بوشم احترافي، وأخيراً بطريقة كيميائية كاستخدام الغبار الكالدوني أو سائل الآزوت. وإزالة الوشم بالجراحة يترك آثاراً مشوهة للجلد وهذا تغيير دائم لخلق الله كما ذكر الحديث النبوي.

٤- عندما يستخدم الليزر لإزالة الوشم يترك آثاراً سامة مسرطنة نتيجة حرارة الليزر التي تحول بعض المكونات لمواد مسرطنة ثم يمتصها الجلد.

الأضرار الطبية للتفلج:

ثبت علمياً أن الفم مليء بالجراثيم والكائنات الدقيقة الطبيعية التي تتحول إلى جراثيم ممرضة في حالة ضعف مناعة الإنسان، أو في حالة تحريك الأسنان وتعرض الأسنان للتفلج وللشد خاصة في الفك الأعلى حيث يمكن أن تهاجم الميكروبات الفم وتنتشر بطريقة متراجعة مباشرة لتصل إلى الجيوب الأنفية كما يمكن أن ينتشر الالتهاب إلى الجيب الكهفي داخل الدماغ.

وجه الإعجاز في الحديث النبوي: تغيير خلق الله، ولازم من لوازمه وهو الأضرار الصحية الناشئة عن حدوث هذا التغيير في الخلق.

الرفق بالحيوان بين الهدي النبوي الصادق ودعاوى الغرب الكاذبة

في ظل الهجمة على الإسلام والمسلمين التي تصاعدت بعد أحداث ١١ سبتمبر بدأت بعض الأبواق في الغرب وذيولهم في الشرق تتهم الإسلام والمسلمين بالقسوة والوحشية التي تطول من وجهة نظرهم الكاذبة الحيوانات.

وفي ظل الغزو الثقافي الذي هو هدف العولمة (الأمركة) يحاول الآخرون سلخ المسلمين عن ثقافتهم الإسلامية وتصدير ثقافتهم المزعومة بما تحمله من خلل واضح في التعامل مع الحيوانات بالتطرف بين من يعيبون ذبح الحيوانات لأكل لحومها وخروجاً على سنة الله في الكون، وبين من يعتنون عناية غير مطلوبة ببعض الحيوانات مثل الكلاب التي يعاملونها أفضل مما يعاملون أبناءهم.

وفي تطرف آخر نحو القسوة نجدهم يتهافتون لقتل الحيوانات لاستخدام جلودها وفرائها ملابس لهم، فضلاً عن أسلوبهم في تربية الحيوانات التي حولتها من عملية تربية بما تحملها من معاني الرعاية والعناية، إلى عملية «صناعة الحيوان» بما تحمله من ممارسات تعمل على العبث بنمو الحيوانات بشكل أكبر من الطبيعي من أجل زيادة الإنتاج وتحقيق أعلى قدر من الأرباح.

التأصيل الإسلامي لرعاية الحيوانات والعناية بها:

لقد تعددت الآيات في القرآن الكريم التي تتناول الحيوانات وتنوع أساليبها بشكل يظهر أن موقف القرآن الكريم من الحيوانات يتطلب العناية بها ورعايتها. وأشار القرآن الكريم إلى استخدام بعض الحيوانات آيات من آيات الله ومعجزاته التي أيد بها رسله وأوليائه، مثل بقرة بنى إسرائيل، وكلب أهل الكهف، وناقة صالح عليه السلام، وعصا موسى عليه السلام، التي انقلبت حية تسعى.

وفي مجال رعاية الحيوانات والعناية بها نجد السنة النبوية الشريفة زاخرة بأحاديث عدة كلها تدور حول الرفق بالحيوانات وعدم إيذائها، بدنياً ونفسياً، ومن ذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة من النهي عن ضرب الحيوانات خاصة في الأماكن الحساسة مثل الوجه، والنهي عن خزن اللبن في ضروع الحيوانات لما يسببه ذلك من ضرر واعتبار ذلك نوعاً من الغش وهو ما يعرف بالتصرية، والنهي عن لعن الدواب.

وقد حث الإسلام على الرفق والرحمة في استخدام الحيوانات فيما خلقت له بدون قسوة وعدم استخدامها في غير ذلك، وفي ذلك أحاديث صحيحة تنهى عن استخدام الحيوانات غرضاً في اللعب والمسابقة برميها حتى تموت وهو ما يسمى بالمثلة، أو الصبرة وهي أن تمسك وتجعل هدفاً فترمي حتى تموت.

وورد كذلك الأمر بالإحسان إلى البهائم واتباع الطرق السليمة عند الانتفاع بها حتى ولو عند الذبح للانتفاع بلحومها؛ فقد قال ﷺ «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ، وَلِيُحَدِّدَ أَحَدَكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلِيُرِيحَ ذَبِيحَتَهُ» (رواهُ مُسْلِم).

إن الصيد مباح في الإسلام، ويلزم أن يتم الصيد بأدواته المعروفة التي لا تؤذي الحيوان أو تعذبه، وقد جعل الإسلام حبس الحيوانات ومنع الغذاء والماء عنها موجب للعذاب فقد قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عُدَّ بَتِ امْرَأَةٍ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتُهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتَهَا وَسَقَتَهَا، إِذْ حَبَسْتَهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). (خَشَاشِ الْأَرْضِ): هوام الأرض وحشراتهما.

وفي المقابل فإن من رحم الحيوانات وساعدها على الحياة فإن الله يغفر له ذنوبه أيا كانت، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ التُّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: «لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ بِي». فَمَلَأَ حُقَّةً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ

رَقِي فَسَقَى الْكَلْبَ؛ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ؛ فَغَفَرَ لَهُ». قَالَوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟». قَالَ: «فِي كُلِّ كَيْدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ». (رواه البخاري)

(بَيْنَا): بَيْنَنَا. (يَلْهَثُ): لَهَثَ الْكَلْبُ: أَخْرَجَ لِسَانَهُ مِنْ الْعَطَشِ.

(الْتَرَى): الْأَرْضَ النَّدِيَّةَ. (خُفَّهُ): الْخَفَّ: مَا يُلْبَسُ فِي الرَّجْلِ مِنْ جِلْدٍ رَقِيقٍ.

(ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ): أَيَّ أَمْسَكَ أَحَدٌ حُقْفِيهِ الَّذِي فِيهِ الْمَاءُ بِفَمِهِ، وَإِنَّمَا إِحْتِاجٌ إِلَى

ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يُعَالِجُ بِيَدَيْهِ لِيَصْعَدَ مِنَ الْبُئْرِ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الصُّعُودَ مِنْهَا كَانَ عَسِرًا.

(رَقِي): صَعِدَ. (وَإِنْ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا): أَيَّ فِي سَقَى الْبَهَائِمِ أَوْ الْإِحْسَانَ إِلَى

الْبَهَائِمِ. (فِي كُلِّ كَيْدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ): أَيَّ كُلِّ كَيْدٍ حَيَّةٍ، وَالْمُرَادُ رُطُوبَةُ الْحَيَاةِ، أَوْ لِأَنَّ

الرُّطُوبَةَ لَازِمَةٌ لِلْحَيَاةِ فَهُوَ كِنَايَةٌ، أَيَّ الْأَجْرُ ثَابِتٌ فِي إِرْوَاءِ كُلِّ كَيْدٍ حَيَّةٍ.

وروى البخاري في (الأدب المفرد) أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ رَحِمَ وَأَوْ

ذَيْبَحَهُ عُصْفُورٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (سنده حسن).

يراعى الإسلام أن الحيوان له روح، وأن التعامل معه لا ينبغي أن يكون كما

تتعامل مع آلة صماء، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه نهى عن صَبْرِ الْبَهَائِمِ، وهو: أن تحبس

البهيمة، ثم تُضْرَبُ بِالنَّبْلِ وَنَحْوِهِ حَتَّى تَمُوتَ.

ففي «الصحيحين» عن أنسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أَنْ تُصَبَّرَ الْبَهَائِمُ. وفيها

أيضًا عن ابن عمر: أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ نَصَبُوا دِجَاجَةً يَرْمُونَهَا، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «مَنْ فَعَلَ هَذَا؟

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ مَنْ فَعَلَ هَذَا». وروى مسلم أن النبي ﷺ نَهَى أَنْ يُتَّخَذَ شَيْءٌ

فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا، والغرض: هو الذي يرمى فيه بالسهم.

وأمر النبي ﷺ أَنْ تُحَدَّ الشَّفْرَةُ، وَأَنْ تُوَارَى عَنِ الْبَهَائِمِ. (رواه أحمد، وإسناده

صحيح)، فالذبح بالآلة الحادة يُرِيحُ الذبيحة بتعجيل زهوق نفسها. وقال عمر رضي الله عنه:

«لَا تَعْجَلُوا الْأَنْفُسَ قَبْلَ أَنْ تُزْهَقَ». (رواه البيهقي وقال الألباني: إسناده يحتمل

التحسين).

وروى الخلال والطبراني من حديث عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَجُلٍ وَاضِعِ رِجْلَهُ عَلَى صَفْحَةِ شَاةٍ، وَهُوَ يُحَدِّثُ شَفْرَتَهُ، وَهِيَ تَلْحَظُ إِلَيْهِ بِبَصَرِهَا، فَقَالَ: «أَفَلَا قَبَلَ هَذَا؟ تُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَتَيْنِ؟» (صحيح).

وروى عبد الرزاق عن ابن سيرين أن عمر رأى رجلاً يسحب شاةً برجلها ليدبحها، فقال له: «وَيْلَكَ قُدَّهَا إِلَى الْمَوْتِ قَوْدًا جَمِيلًا».

وروى محمد بن زياد أن ابن عمر رأى قصاباً يُجْرُ شاةً، فقال: «سُقِّهَا إِلَى الْمَوْتِ سَوْقًا جَمِيلًا، فَأَخْرَجَ الْقَصَابُ شَفْرَةَ، فَقَالَ: «مَا أَسْوَقُهَا سَوْقًا جَمِيلًا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَذْبِحَهَا السَّاعَةَ»، فَقَالَ: «سُقِّهَا سَوْقًا جَمِيلًا».

وعن معاوية بن قرة، عن أبيه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَأَذْبِخُ الشَّاةَ وَأَنَا أَرْحَمُهَا»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللَّهُ». (رواه أحمد بإسناد صحيح). وقال مطرف بن عبد الله: «إِنَّ اللَّهَ لِيَرْحَمُ بِرَحْمَةِ الْعَصْفُورِ».

وقد روي من غير وجه عن النبي ﷺ أنه نهى أن تؤلَّه والدة عن ولدها، (أي يفرق بينهما) وهو عام في بني آدم وغيرهم. فروى البخاري في (الأدب المفرد) وأبو داود والحاكم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَأَنْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمْرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمْرَةُ فَجَعَلَتْ تُفَرِّشُ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا، رُدُّوْا وَلَدَهَا إِلَيْهَا». وَرَأَى قَرِيَةً نَمَلٌ قَدْ حَرَّقْنَاهَا فَقَالَ: «مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ؟»، قُلْنَا: «نَحْنُ»، قَالَ: «إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَدَّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ» (سنده صحيح). (الحُمْرَةُ): طائر صغير كالعصفور أحمر اللون. (تُفَرِّشُ): أي ترفرف بجناحيها وتقرب من الأرض.

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه أن النبي ﷺ دَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَاتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ فَقَالَ: «مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟» فَجَاءَ فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَفَلَا تَتَّبِعِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؛ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْيِيهِ» (صحيح رواه أبو داود). (حَائِطًا): أي بُسْتَانًا.

(فِي إِذَا): لِلْمُفَاجَأَةِ. (فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ): أَي لَمَّا رَأَى الْجَمَلَ النَّبِيُّ ﷺ.

(حَنَ): أَي رَجَعَ صَوْتَهُ وَبَكَى. (وَذَرَفَتْ): أَي جَرَتْ. (عَيْنَاهُ): أَي عَيْنَا الْجَمَلِ.
 (ذِفْرَاهُ): الذَّفْرَى مِنَ الْبَعِيرِ مُؤَخَّرَ رَأْسِهِ وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُعْرَفُ مِنْ قَفَاهُ.
 وقيل: ذِفْرَى الْبَعِيرِ أَصْلُ أُذُنِهِ. (وَتُدْبِيهُ): أَي تُكْرِهُهُ وَتَتَّبِعُهُ.
 وَعَنْ سَهْلِ بْنِ الْحَنْظَلِيِّ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ فَقَالَ:
 «اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً وَكُلُوهَا صَالِحَةً». (رواه أبو
 داود، وصححه الألباني). (قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ): أَي مِنَ الْجُوعِ. (الْمُعْجَمَةُ): أَي الَّتِي
 لَا تَقْدِرُ عَلَى النُّطْقِ. وَالْمَعْنَى: خَافُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الَّتِي لَا تَتَكَلَّمُ فَتَسْأَلُ مَا بَهَا مِنْ
 الْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَالتَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ. وَأَصْلُ الْأَعْجَمِ: الَّذِي لَا يَفْصَحُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَلَا يَجِيدُ
 التَّكَلَّمَ بِهَا عَجْمِيًّا كَانَ أَوْ عَرَبِيًّا سُمِّيَ بِهِ لِعَجْمَةِ لِسَانِهِ، وَالتَّبَاسُ كَلَامُهُ.
 (وَكُلُوهَا صَالِحَةً): أَي حَالِ كَوْنِهَا صَالِحَةً لِلْأَكْلِ أَي سَمِينَةً.

قال الألباني: «قوله (كلوها) قيِّدوها بضم الكاف من الأكل وعليه جرى المناوي
 في شرح هذه الكلمة، فإذا صحت الرواية بذلك فلا كلام، وإلا فالأقرب عندي أنها
 (كلوها) بكسر الكاف من وكل يكل كل أي اتركوها، هذا هو المتبادر من سياق
 الحديث.

ومن الآثار في الرفق بالحيوان (ذكرها الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة):

- أ - عن المسيب بن دارم قال: رأيت عمر بن الخطاب ضرب جملاً، وقال: «لم
 تحمل على بعيرك ما لا يطيق؟!» (رواه ابن سعد في "الطبقات"، وسنده صحيح).
- ب - عن عاصم بن عبيد الله بن عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً حدَّ
 شفرة وأخذ شاة ليذبحها، فضربه عمر رضي الله عنه بالدرة وقال: «أتعذب الروح؟! ألا
 فعلت هذا قبل أن تأخذها؟!» (رواه البيهقي). (الدرة: السوط).
- ج - عن محمد بن سيرين أن عمر رضي الله عنه رأى رجلاً يجر شاة ليذبحها فضربه
 بالدرة وقال: «سُقها - لا أم لك - إلى الموت سوفاً جميلاً». (رواه البيهقي).
- د - عن وهب بن كيسان أن ابن عمر رأى راعي غنم في مكان قبيح، وقد رأى
 ابن عمر مكاناً أمثل منه، فقال ابن عمر: «ويحك يا راعي حوُّها، فإني سمعتُ النبي
ﷺ يقول: «كُلُّ رَاعٍ مَسْؤُولٌ عَنْ رِعْيَتِهِ». (رواه أحمد، وسنده حسن).

هـ - عن معاوية بن قرّة قال: كان لأبي الدرداء جمل يقال له: (دمون)، فكان إذا استعاروه منه قال: لا تحملوا عليه إلا كذا وكذا، فإنه لا يطيق أكثر من ذلك، فلما حضرته الوفاة قال: «يا دمون لا تخصمني غداً عند ربي، فإني لم أكن أحمل عليك إلا ما تطيق». (رواه أبو الحسن الأحميمي في "حديثه").

قال الشيخ الألباني: «تلك هي بعض الآثار، وهي تدل على مبلغ تأثر المسلمين الأولين بتوجيهات النبي ﷺ في الرفق بالحيوان، وهي في الحقيقة نقطة من بحر، وفي ذلك بيان واضح أن الإسلام هو الذى وضع للناس مبدأ (الرفق بالحيوان)، خلافا لما يظنه بعض الجهال بالإسلام أنه من وضع الكفار الأوربيين».

الجوانب العملية في الإسلام لرعاية الحيوانات والعناية بها:

لقد وضع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أساسا لرعاية الحيوانات لترشيد سلوك المسلمين في معاملتهم مع الحيوانات وبما يساند التطبيق، وحيث إن الإسلام دين وحياء فإن هذه النصوص أخذت طريقها للتطبيق في الحضارة الإسلامية حيث تمثل رعاية الحيوانات إحدى موضوعات الفقه الإسلامى الذى يقوم على تقنين الشريعة الإسلامية، كما أن الرقابة على الرفق بالحيوان كانت أحد مهام المحتسب هذا فضلا عن ما يحفل به التاريخ الإسلامى من مظاهر عملية للرفق بالحيوانات:

أولاً: تمثل الحيوانات موضوعاً أساسياً في كتب الفقه وفى أبواب عدة منها أحكام زكاة الماشية، وأحكام الصيد والذبائح، وأحكام النفقة على البهائم، فقد أوجب الفقهاء على مَنْ ملك بهيمة القيام بعلفها، وأن لا يحمل عليها ما يضرها ولا يجلب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها لأنه خلق غذاء للولد فلا يجوز منعه منه، وإن امتنع عن الإنفاق عليها أجبر على ذلك كما يجبر على نفقة زوجته.

ثانياً: إن الوقف في الإسلام نظام لتوفير سبل الحياة الكريمة للمحتاجين والإسهام في الخدمات العامة التى ينتفع بها أفراد المجتمع، وهو من الصدقات الجارية التى ينتفع الواقف بثوابها مادام نفعها ممتد، والوقف هو حبس المال والتصدق بمنفعته على وجوه البر والخير، ومن هذه الوجوه التى أجازها الفقهاء الإنفاق على رعاية

الحيوانات، وهو أمر وجد صداه في التطبيق العملي نذكر شاهدا واحدا منها فلقد جاء: «أنه في العصر المملوكى وجدت كثير من المنشآت الوقفية التى خصصت لرعاية الحيوانات، فهناك منشآت وقفية كاملة خصصت للدواب مثل حوض الدواب الذى أوقفه السلطان قايتباى فى صحراء المهالك لتشرب الدواب أثناء سيرها من هذه الأماكن وتستريح من السير فى أماكن ظليلة بعيدة عن الشمس، وتعالج إن كانت مصابة أو مريضة فى العيادة الملحقة بالحوض، وتوجد اسطبلات لتنام فيها الحيوانات، وكانت الوقفية تنص على أن «يحصل أرباب الوظائف من البيطريين والمدربين والمسؤولين عن إطعام الحيوانات ورعايتها على رواتب من ريع أراضي زراعية موقوفة على ذلك».

ثالثا: نظام الحسبة فى الإسلام يقوم على وجود جهاز يختص بالرقابة على سلوك الناس فى جميع المجالات لضبط هذا السلوك وفق أحكام وتوجيهات الشريعة حيث يختص المحتسب وأعوانه برقابة هذا السلوك وتصحيح المخالفات فورا وإرشاد الناس إلى السلوك السليم، وبالإطلاع على كتب الحسبة وعلى الأخص كتاب "معالم القربة لأحكام الحسبة" لابن القرشى نجد فيها أبوابا عدة تتناول الرقابة على معاملة الناس للحيوانات، وهذه إشارات موجزة لما ورد بهذا الكتاب حول الاحتساب على الحيوانات:

- الرقابة على قيام أصحاب البهائم بعلفها وسقيها والإنفاق عليها.
- يمنع المحتسب البيّاعين من أن يضعوا الأحمال على ظهور الدواب - وهى واقفة- لأنها إذا وقفت والأحمال عليها أضرتّها وكان ذلك تعذيباً لها.
- ينبغى لأصحاب الدواب أن يتقوا الله سبحانه وتعالى فى استعمالها وأن يريحوها كل يوم وليلة لحاجتها إلى الراحة والسكون.
- فى الرقابة على الجزارين، أن لا يذبخوا بسكين كالة لأن فى ذلك تعذيب للحيوان.

● في الرقابة على البيطرة جاء: «علاج الحيوان أصعب علاجاً من أمراض الآدميين لأن الدواب ليس لها نطق تعبر به عما تجد من المرض والألم، وإنما يستدل عليها بالحس والنظر، فيحتاج البيطار إلى حسن بصيرة بعلل الدواب وعلاجها فلا يتعاطى البيطرة إلا من له معرفة وخبرة.

● ويمنع المحتسب من خصى البهائم.

● ويمنع المحتسب من نطاح الكباش ونقار الديوك (التحريش بين البهائم).

رابعاً: لقد كانت الحضارة الإسلامية سبّاقة إلى إنشاء جمعيات الرفق بالحيوان ومنذ زمن بعيد، فيروى أن الخليفة المعتصم بالله رأى ذات يوم، وهو على جواده كلباً مكسور الساقين يلهث من شدة العطش فدفعه الرفق بالحيوان إلى النزول عن جواده وصار يغترف من الماء بيديه من النهر ثم يتجه إلى الكلب فيسقيه، وقد فعل ذلك عدة مرات حتى ارتوى الكلب وحرك ذنبه شاكراً للإنسان برّه، ثم إنه عاد جمع الأمراء والأغنياء وألّف تحت رعايته جمعية الرفق بالحيوان.

الثقافة والممارسات الغربية في ضوء موقف الإسلام:

مما يؤسف له أنه في إطار الهجمة الشرسة على الإسلام والمسلمين من قبل الغرب نجدهم يطلقون الاتهامات المفضية والخاطئة على الإسلام والمسلمين بالقسوة في معاملة الحيوانات، والمقارنة الموضوعية بين موقف الإسلام وبين ثقافتهم وممارستهم من هذه القضية تظهر كذب ادعاءاتهم وتناقض مواقفهم، وهذا ما يمكن الاستدلال عليه من الآتي:

بالنظرة السريعة إلى بعض القوانين الغربية لرعاية الحيوانات نجد أن الإسلام كان سابقاً ومتفوقاً عليها في هذا المجال وهذا ما يظهر في سرد موجز لأهم محتويات هذه القوانين والتي تتمثل في الآتي:

١- الواجبات:

● وجوب إطعام الحيوانات.

● توفير المأوى المناسب.

- عدم الحد من الحركة.
- علاجها.

٢- الممنوعات:

- عدم التحميل فوق الطاقة.
- عدم الضرب.
- عدم تقديم طعام للحيوانات تسبب لها آلاما.
- تنظيم عملية قتل الحيوانات.
- تنظيم عملية ذبحها.
- منع البتر الكلى أو الجزئي لأحد أعضائها.
- منع التعذيب.

وبالنظر في هذه البنود نجد أن الإسلام سبق بها وفي تفوق واضح.

إن التناقض الواضح في الممارسات الغربية يظهر في التشدد والتطرف نحو الدعاوى بعدم انتفاع الإنسان بالحيوان فيما خلق له من العمل أو أكل اللحوم، وكذا في معاملة بعض الحيوانات وعلى الأخص الكلاب والقطط بعناية فائقة تزيد على عنايتهم بأبنائهم، وفي الوقت الذي تزيد لديهم ثقافة التدليل وفرط العناية للقطط والكلاب لا يتورعون عن ممارسات قتل الآخرين من غير جنسياتهم في الحروب وفي تصدير النفايات السامة والملوثة إليهم.

ومن ذلك التناقض ما نراه من النظرة النفعية غير الأخلاقية سواء في صناعة الحيوانات، أو في الصيد الجائر، للحيوانات البرية في الدول الأخرى للحصول على الجلود والعاج والفراء، وفي التحريش بين البهائم ممثلا في رياضة مصارعة الثيران.

إن الإسلام بأصوله وفروعه وتطبيقاته يسبق ويتفوق على جميع الحضارات في توفير الرعاية للحيوانات والرفق بها مما يجب معه على المسلمين الالتزام بدينهم وضبط سلوكهم وفق أحكامه وتوجيهاته حفاظاً على الهوية الثقافية لهم، كما أن في ذلك ما يرد

على الدعاوى الظالمة للإسلام، وما أحوج العالم اليوم إلى هذه التعاليم الإسلامية للاستفادة بها في قيام حياة آمنة ورغدة يتحقق فيها التوازن بين الموجودات من إنسان وحيوان ونبات.

الخمرداء وليس بدواء

لقد كان الأطباء يزعمون في الأزمنة الغابرة وعلى زمن الرسول ﷺ وبعده، وحتى عهد قريب أن الخمر دواء وأن شرها باعتدال معين على الصحة. والأطباء يصرون في زمنه والأزمنة التي قبله والتي بعده أنها دواء! حتى جاء الطب في العصر الحديث وأبان زيف ما كان الأطباء يقولونه من أن في الخمر منافع شتى وعديدة للبدن وإنها تهضم الطعام وتشحذ الأذهان وتصفي الكبد وإنها معين عظيم على الصحة!!

عَنْ وَائِلِ الْحَضْرَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ طَارِقَ بْنَ سُؤَيْدِ الْجُعْفِيِّ سَأَلَ النَّبِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الْخَمْرِ فَهِيَ أَوْ كَرَهُ أَنْ يَصْنَعَهَا فَقَالَ: «إِنَّمَا أَصْنَعُهَا لِلدَّوَاءِ»، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِدَوَاءٍ وَلَكِنَّهُ دَاءٌ». (رواه مسلم).

قال الإمام النووي رحمته الله في شرحه لهذا الحديث: «هَذَا دَلِيلٌ لِتَحْرِيمِ اتِّخَاذِ الْخَمْرِ وَتَحْلِيلِهَا وَفِيهِ التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ بِدَوَاءٍ فَيَحْرُمُ التَّدَاوِي بِهَا لِأَنَّهَا لَيْسَتْ بِدَوَاءٍ فَكَأَنَّهَا يَتَنَاوَلُهَا بِلَا سَبَبٍ» (١).

لقد أشار النبي ﷺ إلى حقيقة هامة قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة، تُكتشف في القرن الحادي والعشرين وهي أن الخمر ليست بدواء ولكنها داء وهذا ما أثبتته العلم الحديث. فقد اقترحت دراسات طبية كثيرة أن تناول كميات متوسطة من المشروبات الكحولية هو أمر مفيدٌ للقلب ويقى من نشوء أمراض الشرايين التاجية ويخفف من تداعياتها.

ومنها نشأ اعتقاد لدى الكثيرين من الأطباء وغيرهم من الناس أن هذا الأمر صحيح طبيًا وعلميًا ولا مجال لمناقشته أو مراجعة صحته من عدم ذلك. بل إن بعضًا من الدراسات قال تحديدًا إن الممتنعين عن تناول المشروبات الكحولية أكثر عرضة

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي (١٣ / ١٥٣).

للوفاة، وفي وقت مبكر من العمر، بأمراض القلب مقارنة بمن يتناولونه بكميات متوسطة!

لكن الحدث الأبرز علمياً وطبياً في شهر أبريل ٢٠٠٦، هو أن الباحثين من الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وضمن فريق عمل بحثي دولي، قالوا إن المراجعة العلمية الدقيقة لمجمل الدراسات الطبية في هذا الشأن لا تدل على صحة هذه المقولات البتة، وأنه بمراجعة فاحصة ودقيقة لأكثر من ٥٤ دراسة علمية في هذا المجال لا يمكن الاستنتاج منها مطلقاً أن تناول كميات متوسطة من الكحول يقي من أمراض القلب وخصوصاً أمراض الشرايين التاجية.

وتقول رابطة القلب الأميركية في نشراتها الحديثة أن تناول الكحول بكثرة يؤدي إلى ارتفاع الدهون الثلاثية في الدم، ويرفع من مقدار ضغط الدم، ويزيد من عرضة الإصابة بفشل القلب، كما يزيد من احتمالات الإصابة بجلطات الدماغ، واضطرابات إيقاع نبض القلب، والموت المفاجئ.

تناول الكحول يترك أثراً طويلاً الأمد على الدماغ:

كشفت دراسة علمية حديثة عن أن الخمر تضعف أداء المخ أكثر مما كان يعتقد من قبل. وقام العلماء بفحص تأثير الكحول على بعض الوظائف المعقدة التي يضطلع بها المخ مثل التفكير المجرد والتخطيط والقدرة على مراقبة ردود الأفعال استجابة لتأثير خارجي. ووجد الباحثون أن الأداء في هذه المناطق تأثر حتى بعد انخفاض نسبة تركيز الكحول في الدم إلى درجة لا يشعر بوجودها الشخص المعني. وقد بدأ التأثير على وظائف المخ المعقدة أكثر وضوحاً عندما بدأ تركيز الكحول في الدم في الانخفاض.

أكثر من مليون حادث في بريطانيا بسبب الكحول:

أكدت إحصائيات نشرت مؤخراً أن تناول الكحول هو السبب المباشر لأكثر من ما يعادل ٢, ١ مليون حادث وعملية عنف جرت في عام ٢٠٠٩ في بريطانيا، كما تظهر الإحصائية أن ٣٠ ألف شخص دخلوا المستشفيات خلال سنة واحدة في إنجلترا بعد إصابتهم بأعمال عنف نتيجة التناول المفرط للكحول.

وتوضح الإحصائية أرقامًا مذهلة فيما يتعلق بالموت المبكر، إذ أثبتت أن ٢٢ ألف شخص ماتوا مبكرًا بسبب الإفراط في تناول الخمر بكل أنواعها، وأن ١٧ مليون يوم عمل ضاعت بسبب الكحول أيضًا، وتؤكد الإحصائية الرسمية أن الإفراط في تناول المشروبات الكحولية يسبب خسائر تصل إلى نحو ٢٠ مليار جنيه إسترليني سنويًا في دولة مثل بريطانيا.

الوفيات الناتجة عن الخمر:

تعتبر الخمر أهم ثاني سبب للوفيات في الولايات المتحدة، وفي كل عام يتوفي ١٢٥٠٠٠ شخص بسبب تعاطي الخمر، وما تؤدي إليه من حوادث السيارات والطرق، وجرائم القتل، والوفيات الناتجة عن أمراض وبيلة وقعت بسبب شرب الخمر.

وهم كاذب:

ولا تزال الخمر تشرب حتى اليوم بناء على وهم أنها تدفئ الإنسان من البرد. وهي توسع الأوعية الدموية تحت الجلد فيشعر بالدفء ويفقد حرارة جسمه، كما أنها تمنع المناطق المخية المسؤولة عن تنظيم حرارة الجسم فيما يسمى (تحت المهاد) فيؤدي ذلك إلى فقدان حرارة الجسم.

ومن المأسى التي تحدث كل عام في أعياد الميلاد ورأس السنة أن يتوفي المئات في روسيا والولايات المتحدة وأوروبا من فقدان حرارة أجسامهم بعد شرب الخمر والانغماس فيها، والبقاء في الحداثق والأماكن المفتوحة فيموتون من البرد وهو يتمتعون بالدفء الكاذب.

وقد نشرت المجلة الطبية لأمريكا الشمالية عدد يناير ١٩٨٤م أن شرب الخمر هو أهم سبب لحدوث الوفيات الناتجة عن انخفاض درجة حرارة جسم الإنسان.

مؤلف معاصر يتحدث عن المنافع الموهومة للخمر!!!

ذكر سعيد جرجس كوبي في كتابه (أسرار الطب العربي القديم والحديث) في معالجته لبعض الأمراض استخدام السبرتو والويسكي لمعالجة البول السكري. فقد

جاء في الصفحة ٦٥ من الكتاب المذكور أن الويسكي مع دبس الرمان، تؤخذ بعد العشاء لمدة ١٥ يوماً كقيلة بالقضاء على البول السكري. وفي الصفحة التالية (٦٦) ذكر أن ملعقة السبرتو الأبيض على الريق مع ملعقة من دبس الرمان لمدة ١٥ يوماً تكفي لمعالجة الشخص من البول السكري وشفائه التام منه.

والحقيقة العلمية أن السبرتو من السموم الناقعة المحتوية على الكحول الإيثيلي والميثيلي والمسبب للوفيات المفاجئة بسبب تسمم عضلة القلب، والعمى بسبب إصابة عصب الإبصار.

وكوبلي هذا ليس طبيباً بل هو خوري في كنيسة في إحدى قرى لبنان وجد طريقه إلى الثروة والشهرة بسبب وصفاته الطبية الرهيبة القاتلة. وكتابه لا يزال يطبع ويوزع على نطاق واسع في العالم العربي، رغم أنه كله مبني على الخرافات، حيث تجد فيه أن لحم الهر يشفي من السل، والسبرتو تقضي على البول السكري، وقطعة من دهن الخنزير علاج للربو، والبصاق على قطعة من الفخار علاج لكل أوجاع الرأس... إلخ.

المنظمات الصحية العالمية والأبحاث العلمية تحذر من مخاطر شرب الخمر:

يقول تقرير منظمة الصحة العالمية رقم ٦٥٠ لعام ١٩٨٠م عن الكحول ومشكلاتها: «إن شرب الخمر يؤثر على الصحة، ويؤدي إلى مشكلات تفوق المشكلات الناتجة عن الأفيون ومشتقاته (الهرويين والمورفين)، والحشيش، والكوكايين والأمفيتامين، والباربيتورات، وجميع ما يسمى مخدرات مجتمعة. إن الأضرار الصحية والاجتماعية لتعاطي الكحول تفوق الحصر».

ويقول تقرير الكلية الملكية للأطباء النفسيين بالمملكة المتحدة (١٩٨٦م) عن مشكلة تعاطي الخمر: «إن الكحول مادة تسبب تحطيم الصحة بما لا يقاس معها الخطر على الصحة الذي تسببه المخدرات مجتمعة. وإن معظم المخاطر على الصحة العامة من العدد الكبير الذي يتناول كميات معتدلة من الكحول».

ويؤكد هذا المعنى تقرير الكلية الملكية للأطباء بالمملكة المتحدة والصادر عام ١٩٨٧م وعنوانه: "العواقب والمخاطر الصحية لتعاطي الكحول وباء خطير وشر

مستطير"، حيث يقول: «إن المخاطر الصحية المتعلقة بتعاطي الكحول ليست ناتجة بالدرجة الأولى من العدد القليل الذي يتناول كميات كبيرة من الكحول، ولكن الخطر الأعظم على الصحة العامة هو من العدد القليل الذي يتناول كميات كبيرة من الكحول باعتدال وانتظام. إن تعاطي ٦٠ جرامًا من الكحول يوميًا يؤدي إلى زيادة كبيرة في حدوث ضغط الدم والسكتات الدماغية، وأمراض الكبد، والعقم، وضعف الباءة، وأمراض الجهاز العصبي أما بالنسبة للمرأة فإن نصف هذه الكمية كفيلة بإحداث هذه الأمراض الوييلة».

ويذكر تقرير منظمة الصحة العالمية في الاجتماع الثالث والستين لعام ١٩٧٩م (الدورة ٣٢) أن تعاطي الخمر هي إحدى المشكلات الصحية الكبرى في العالم، وأن الاستمرار في تعاطيها يعيق التقدم الصحي والاجتماعي والاقتصادي في معظم المجتمعات بل وتشكل عائقًا كبيرًا في المجال الصحي، وتعتبر أحد العوامل الهامة جدًا التي تؤدي إلى تخطيم الصحة العامة والتي لا يوجد حل لها.

وفيما يلي استعراض مختصر للأمراض الناتجة عن شرب الخمر على عكس ما كان يظنه الأطباء القدماء:

القلب:

ارتفاع ضغط الدم (التوتر الشرياني)، السكتات الدماغية، هبوط القلب واضطرابات نبض القلب، زيادة ثلاثي الجلسرايد.

إن كل قطرة من الكحول يحتسيها الشارب تمر عن طريق القلب، ومع هذا الاجتياز يزداد تأثير القلب، فيزداد نبضه ليعمل فوق طاقته، مما يؤدي في النهاية إلى إرهاقه وتعبه.

ولقد كان الاعتقاد السائد إلى عهد قريب أن الخمر تنفع في علاج بعض أمراض القلب مثل الذبحة الصدرية (حناق الصدر) وارتفاع الضغط وغيرها. ولكن بفضل الله بدأ يتكشف زيف تلك الأوهام مع تطور الأبحاث الطبية الحديثة، ففي القرن

الماضي بدأت تتكشف العلاقة الوثيقة بين الإدمان على الكحول والإصابة بأمراض القلب المختلفة.

لقد أثبتت التجارب العلمية بأن تعاطي الكحول ولو لمرة واحدة يؤدي إلى زيادة فورية في محتوى خلايا القلب من الجليسرين، والتي تمر بعدة مراحل: حيث يبدأ القلب أولاً باستقطاب الدهون ثلاثية الجليسرين من الدم، ثم تحفز خلايا القلب لتكوين هذا النوع من الدهون بنفسها فيكثر بذلك مخزون القلب من الدهون.

كما وجد أن الكحول يساعد على امتصاص الدهون من الأمعاء فترتفع بذلك نسبتها في الدم وخصوصاً الكوليسترول، وكل تلك العوامل تساعد على تصلب الشرايين، حيث تتجمع الدهون وبخاصة الكوليسترول على جدران الأوعية الدموية، مما يؤدي إلى تصلبها ومن ثم تضيقها وتكون جلطة دموية، والتي تؤدي إلى فقدان العضو لكمية الدم التي يحتاجها فيصاب بالاحتشاء ثم الموت.

إن تعاطي الكحول ولو لمرة واحدة يؤدي إلى انسحاب عنصري البوتاسيوم والفوسفات من خلايا عضلة القلب، كما يزداد تركيز الصوديوم داخل هذه الخلايا مما يؤدي لاختلال في وظيفة القلب، وكل تلك الاضطرابات تعود غالباً لحالها الطبيعي بمجرد الإقلاع عن شرب الخمر. كما وجد أن الإدمان على الكحول يتسبب في نقص عنصر الزنك مما يؤدي إلى اختلال في وظيفة القلب كذلك.

وقد ظهر من خلال العديد من الدراسات أن الكحول يحدث خللاً في قدرة القلب على الانقباض ومن ثم انخفاض معدل ضخه للدم حتى في حالة عدم وجود أي أعراض مرضية في القلب. ويؤدي إلى اعتلال العضلة القلبية الكحولي: وهو مرض خطير يكثر عند الرجال المدمنين على شرب الكحول لفترات طويلة تمتد من (١٠) إلى (١٥) سنة، ويمثل الإفراط على تعاطي الكحول نحو (٢٠٪) من الأسباب المؤدية للإصابة باعتلال عضلة القلب.

الجهاز الهضمي:

التهاب الفم، البلعوم، المريء، نزيف المريء وسرطان المريء، التهاب المعدة الضموري، قرحة المعدة والاثني عشر، سرطان المعدة، التهاب الأمعاء، التهاب البنكرياس الحاد والمزمن، التهاب الكبد، دهنية الكبد، تليف الكبد، سرطان الكبد.

تقول مجلة *Medicine International* العدد ٦٢ لعام ١٩٨٩ م: «تؤدي الخمر إلى زيادة حدوث سرطان المريء، كما تسبب نزفًا في المريء ودوالي في أسفله، والتهابا مزمنًا فيه وتكثر الإسهالات والبواسير عند شربي الخمر، كما قد يحدث التهاب حاد في البنكرياس الذي قد يكون مميتًا».

الخمر والجنس:

٥٠٪ من جميع جرائم الاغتصاب تحت تأثير الخمر (منظمة الصحة العالمية).
معظم حالات الاعتداء على المحارم كانت بسبب تأثير الخمر (دائرة المعارف البريطانية).

وهي تؤثر تأثيرًا سميًا على الغدة التناسلية (الخصية) وعلى الجهاز العصبي غير الإرادي المنوط بعملية الانتصاب، كما أن الكبد المريضة بسبب تعاطي الخمر تفقد قدرتها على إزالة هرمون الأنوثة الذي تفرزه الغدة الكظرية. وبالتالي يصاب بالعنة وتضخم الأثداء.

المرأة والخمر:

جسم المرأة لا يتحمل نصف الكمية التي يتعاطها الرجل من الكحول.
اضطراب الدورة، كثرة الإجهاض وولادة أجنة ناقصة.
متلازمة الكحول الأجنة "Alcohol Fetal syndrome" صغر الدماغ والفكين والتخلف العقلي والبدني، وصغر حجم العينين مع عيوب خلقية في القلب.

الخمرة والجهاز البولي:

الخمرة تدر البول، ولكنها تؤدي إلى تنكروموات حليبات الكلية وهو مرض خطير يؤدي إلى الفشل الكلوي المزمن. وتسبب احتقان البروستاتا والمعاناة الشديدة للذين يعانون من تضخم البروستاتا.

الجهاز الدموي:

نقص جهاز المناعة ونقص الخلايا الليمفاوية المناعية، عدم تحرك خلايا الدم البيضاء لمواجهة الميكروبات، نقل المقاومة للأمراض مع نقص شديد في الفيتامينات، أنواع من فقر الدم أهمها بسبب نقص حامض الفوليك، انحلال خلايا الدم الحمراء، زيادة نشاط الطحال، تكرار النزف.

الجهاز التنفسي:

التهابات الجهاز التنفسي المتكررة والخطيرة، الالتهاب الرئوي وخراج الرئة والديبيلة، السل الرئوي، زيادة في سرطان الحنجرة.

الغدد الصماء والاستقلاب^(١):

فرط نشاط الغدة الدرقية أول الأمر ثم ينتهي بنقصان نشاطها وحدوث الميكسوديما.

فرط نشاط الغدة الكظرية (فوق الكلية).

هذا غيض من فيض من الأمراض التي يسببها تعاطي الخمر ومن أراد المزيد فليرجع إلى المراجع الطبية الحديثة أو إلى كتاب: (الخمرة بين الطب والفقهاء) وكتاب: The proplem of Alcohol and Solution in Islam (المشكلة في الكحول

(١) استقلاب: أيض: تحوُّل الغذاء إلى طاقة.

والحل في الإسلام) للدكتور محمد علي البار، وكتاب الدكتور حسان شمسي باشا (أطباء الغرب يحدرون من شرب الخمر) أو المراجع الطبية العديدة.

وجه الإعجاز في أحاديث النبي ﷺ في هذا الموضوع:

نهت أحاديث المصطفى ﷺ عن التداوي بالخمر، والتدفئة بها، وصرحت بأنها داء وليست بدواء أو شفاء في زمن كان العرب يعتبرونها فيه دواء وغذاء وباعثة على الكرم والشجاعة والسخاء، واستمر الأطباء عبر القرون المختلفة في اعتقاد ذلك الوهم وأنها مُعين على الصحة مخصّبة للبدن، شاحذة للفكر، مقوية للجسم، مهضمة للطعام، وأن شربها باعتدال من أهم أسباب الصحة والعافية، بل إن السُّكر والعريضة منها مرة أو مرتين في الشهر مفيد للصحة أيضا.

ثم جاء الطب الحديث فأوضح زيف جميع ما قالوه، وأنه الباطل، والبهتان، والأوهام. وبهذا يتضح أن ما قاله الحبيب المصطفى ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه وأن الخمر داء وليست بدواء كما زعم بعض الأطباء، وأنها لا تدفئ الجسم بل تؤدي إلى فقدان الحرارة وموت الإنسان من البرد بينما يشعر بالدفء الكاذب، وبذلك تكون أحاديث النبي ﷺ في هذا الموضوع معجزة علمية لم تظهر أبعادها إلا في القرن العشرين.

النهى عن الجلوس على مائدة يشرب الخمر عليها:

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يَتَعَدَّنَ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ» (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ).

لقد حرم الإسلام على المسلم الجلوس مع شارب الخمر وإن لم يشربه مع أهل المائدة لما فيه من التقاء على المنكر. والعلماء في العصر الحديث يحدرون من الجلوس على مائدة يُشرب عليها الخمر لأن الرائحة المنبعثة والتي يستنشقها الإنسان تؤدي إلى أضرار جسيمة أهمها:

- تؤثر المادة المتبخرة من كأس الخمر على الجملة العصبية للإنسان وتُحدث اضطرابات في نظام عمل الدماغ.
- يؤثر هذا البخار على معدل دقات القلب وضغط الدم ويؤدي إلى صداع واكتئاب وقد يدخل في غيبوبة، وذلك حسب الكمية المستنشقة.
- إن شرب الخمر "السليبي" له آثار مدمرة، فالأضرار الناتجة عن تعاطي الخمر لا تمسّ الشارب فقط، بل الجالس معه أيضًا يناله نصيب من الضرر. وقد كان الاعتقاد في الماضي أن الجلوس على موائد الخمر أمر طبيعي ولا ضرر منه، ولكن الدراسات العلمية أثبتت هذه الأضرار تمامًا مثل التدخين السلبي الذي يؤثر على غير المدخنين والجالسين مع المدخنين.

حكمة التشريع الإسلامي في تحريم الوطء في الحيض

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدَى فَأَعَزِّلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ رضي الله عنه النَّبِيَّ رضي الله عنه وَالرَّسُولَ صلوات الله وسلاماته عليه فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدَى فَأَعَزِّلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلوات الله وسلاماته عليه: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا التَّكَاحَ». (رواه مسلم).

أذى المحيض:

- يقذف الغشاء المبطن للرحم أثناء الحيض وبفحص دم الحيض تحت المجهر نجد بالإضافة إلى كرات الدم الحمراء والبيضاء قطعاً من الغشاء المبطن للرحم. ويكون الرحم متقرحاً نتيجة لذلك. فهو معرض للعدوى البكتيرية. ومن المعلوم طبيياً أن الدم هو خير بيئة لتكاثر الميكروبات ونموها وتقل مقاومة الرحم للميكروبات الغازية نتيجة لذلك ويصبح دخول الميكروبات الموجودة على سطح القضيبي يشكل خطراً داهماً على الرحم.
- ومما يزيد الطين بلةً أن مقاومة المهبل لغزو البكتيريا تكون في أدنى مستواها أثناء الحيض؛ إذ يقل إفراز المهبل الحامض الذي يقتل الميكروبات ويصبح الإفراز أقل حموضة إن لم يكن قلوي التفاعل.
- كما تقل المواد المطهرة الموجودة بالمهبل أثناء الحيض إلى أدنى مستوى لها، ليس ذلك فحسب ولكن جدار المهبل الذي يتألف من عدة طبقات يقل أثناء الحيض إلى أدنى مستوى لها.

- يمتد الالتهاب إلى قناة الحيض إلى أدنى مستوى لها.
- يمتد الالتهاب إلى قناة مجرى البول فالكُلَى.
- يصاحب الحيض آلام شديدة.
- تصاب كثير من النساء أثناء الحيض بحالة كآبة وضيق كما أن حالتها العقلية والفكرية تكون في أدنى درجاتها أثناء الحيض لذلك نهى رسول الله ﷺ عن تطليق النساء أثناء الحيض.
- تصاب بعض النساء بصداع نصفي قرب بداية الحيض وآلام مبرحة.
- تقل الرغبة الجنسية لدى المرأة أثناء الحيض.
- يسبب الحيض فقر دم للمرأة.
- تنخفض درجة حرارة المرأة أثناء الحيض درجة مئوية واحدة.
- تزيد شراسة الميكروبات أثناء الحيض وخاصة ميكروبات السيلان.
- تصاب الغدد بالتغير فتقل إفرازاتها.
- يُبطئ النبض وينخفض ضغط الدم فيسبب الشعور بالدوخة والفتور والكسل
- لا يتم الحمل أثناء الحيض.
- لا يقتصر الأذى على الحائض بل ينتقل الأذى إلى الرجل الذي وطئها أيضًا.
- ظهر بحث حديث قدمه البروفسور (عبد الله باسلامة) إلى المؤتمر الطبي السعودي جاء فيه: أن الجماع أثناء الحيض قد يكون أحد أسباب سرطان عنق الرحم ويحتاج الأمر إلى مزيد من الدراسة.
- وتنتقل الميكروبات من قناة الرحم إلى مجرى البول البروستات والمثانة.
- والتهاب البروستات سرعان ما يزمن لكثرة قنواتها الضيقة الملتفة والتي نادرًا ما يتمكن الدواء بكمية كافية من قتل الميكروبات المخفية

في تلافيفها. فإذا ما أزمّن التهاب البروستاتا فإن الميكروبات سرعان ما تغزو بقية الجهاز البولي التناسلي فتنتقل إلى الحالبين ثم إلى الكلى، وهو العذاب المستمر حتى نهاية الأجل.

- وقد ينتقل الميكروب من البروستاتا إلى الحويصلات المنوية فالحبل المنوي فالبربخ فالخصيتين، وقد يسبب ذلك عقمًا بسبب انسداد قناة المنى.

كيف عالج الإسلام مرض السمنة والوزن الزائد؟

تصدر في كل يوم النشرات والمقالات العلمية حول مخاطر السمنة والوزن الزائد، والأضرار التي يسببها تعاطي الطعام بكميات كبيرة. ونجد العلماء اليوم ينصحون بالاعتدال الغذائي وأن يقتصر الإنسان على كميات قليلة من الطعام حسب حاجة جسمه.

إن أي وزن زائد على المعدل الطبيعي هو بمثابة ثقل يرهق الجسم باستمرار وخصوصاً القلب. ولا يخفى علينا كيف يؤثر الشحم الزائد على القلب وانسداد الشرايين وتصلبها. وتظهر كل يوم مئات الوصفات الطبية والأدوية والأساليب لتخفيف الوزن.

ولكن العلاج النبوي يبقى الأمثل. فقد حدثنا الرسول الكريم ﷺ فقال: «مَا مَلَأَ آدَمِيَّ وَعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتُ يُقْمَنُ صُلْبَهُ فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَتُلْتُ لَطْعَامِهِ وَتُلْتُ لِشَرَابِهِ وَتُلْتُ لِنَفْسِهِ». (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

وفي رواية لابن ماجه، صححها الألباني: «مَا مَلَأَ آدَمِيَّ وَعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ حَسْبُ الْآدَمِيِّ لُقِيمَاتٌ يُقْمَنُ صُلْبَهُ فَإِنْ غَلَبَتِ الْآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَتُلْتُ لِلطَّعَامِ وَتُلْتُ لِلشَّرَابِ وَتُلْتُ لِلنَّفْسِ».

إن جميع الأبحاث حول إنقاص الوزن أو الوقاية من البدانة تؤكد على أن الحل الأمثل والعلاج الأكثر فعالية هو اعتماد نظام غذائي متوازن. أليس هذا هو ما أمر به الرسول الكريم ﷺ قبل العلم الحديث بقرون طويلة؟

ويقول الباحثون اليوم: إن أفضل طريقة لعلاج الوزن الزائد هو اعتماد نظام غذائي متوازن. وإن الذي يضر الشخص السمين ليس هو كثرة الطعام، بل الذي يضره هو جهله بالنظام الغذائي وتأثير المادة التي يأكلها على جسده.

فإذا أردت أن تخفف وزنك فعليك أولاً وقبل كل شيء أن تمتلك ثقافة غذائية، وهذا ما نجده في كلام حبيبنا محمد ﷺ عندما حذر من امتلاء البطن في قوله: «مَا مَلَأَ أَدِمِّيَّ وَعَاءٌ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ».

وقد أشار النبي ﷺ في هذا الحديث إلى عدة حقائق، فقد شبه النبي ﷺ المعدة (المشار إليها في الحديث بالبطن) بالوعاء. وأخبر النبي ﷺ أن ملء هذا الوعاء بكثرة الأكل شر على الإنسان. ونصح بالاكْتفاء من الطعام على قدر الاحتياج، وقسم النبي ﷺ حجم المعدة إلى ثلاثة أقسام وأخبر أن أكبر كمية من الطعام والشراب يمكن أن يتناولها المرء عند الحاجة الملحة هي مقدار ما يملأ ثلثي حجم المعدة. وأخبر النبي ﷺ أن ترك ثلث حجم المعدة خالياً من الطعام والشراب ضروري لنفس الإنسان.

وقد أثبت العلم الحديث هذه الحقائق وأيدها، وتقسيم حجم المعدة إلى ثلاثة أثلاث: ثلثين للطعام والشراب، وثلث للنفس، لم يُذكر سُدى في هذا الحديث بل لحكمة بالغة تجلت ووضحت في هذا الزمان، فلماذا هذا التقسيم وتحديد بالثلث؟ ثم كم مقدار هذا الثلث؟ وما الذي يحدث إذا تجاوز المرء ولم يلتزم بهذا التوجيه النبوي؟ لقد أمكن الإجابة على ضوء المعارف الطبية الحديثة.

فالمعدة هي جزء متسع من القناة الهضمية وتقع بين المريء والأمعاء الدقيقة ويقع معظمها تحت الغشاء المبطن للضلوع، وتتمثل على ظاهر البطن في المنطقة الشراسيفية، ومنطقة السرة ومنطقة الربع الأيسر الأعلى من البطن.

وتحيط بها من الداخل الأعضاء التالية:

من الأمام: الفص الأيسر من الكبد وجدار البطن الأمامي.

ومن الخلف: الجزء الباطني من الشريان الأورطي والبنكرياس والطحال والكلية اليسرى والغدة الكظرية.

ومن أعلى: الحجاب الحاجز والمريء والفص الأيسر من الكبد

ومن الأسفل: القولون المستعرض والأمعاء الدقيقة.

ومن الأسفل لليسار: الحجاب الحاجز والطحال.

ومن الأسفل لليمين: الكبد والاثناعشر.

وتتصل المعدة المريء عند الصمام الفؤادي وهذا يمنع رجوع الطعام إلى المريء كما تتصل بالأمعاء الدقيقة عند صمام البواب والذي يقفل عندما تحتوي المعدة على الطعام، ويقسم علماء الطب المعدة إلى ثلاث مناطق:

قاع المعدة، وجسم المعدة، ومنطقة الغار البوابي، وتتصل للمعدة الأعصاب الودية من الشبكة البطنية وهي المسؤولة عندما تثار وقت الشدة في تثبيط حركة الأمعاء وتثبيط إفراز العصارة المعدية، بينما تصل إليها الأعصاب نظيرة الودية من العصب المبهم، وهي المسؤولة عن تنشيط حركة الأمعاء وتنشيط إفراز العصارة المعدية، ويتجمع الطعام في المعدة في هيئة طبقات يبقى الجزء الأخير منه في قاع المعدة لبعض الوقت ثم يُخلط بالعصارة المعدية بالتدرج كما يبقى لبعض الوقت أيضًا لإضافة العصارة الحمضية على الطعام لوقف عمل أنزيمات اللعاب.

ويتركب جدار المعدة من ثلاث طبقات من العضلات: طبقة خارجية من ألياف عضلية طولية، وطبقة متوسطة من ألياف عضلية مستديرة، وطبقة داخلية من ألياف عضلية مائلة، وهذا التنظيم يسمح بالحركة الطاحنة المميزة لنشاط المعدة بالإضافة إلى حركتها الدودية، وتتقوى العضلات المستديرة في منطقة الغار البوابي والصمام البوابي؛ وذلك لإحكام إغلاق هذين الصمامين وقت الحاجة، أما الغشاء المبطن للمعدة فيكون في ثنيات طولية أو تجاعيد عندما تكون المعدة فارغة، وعند امتلائها تزول هذه التجاعيد وتصبح بطانة المعدة ذات ملمس مخملي، وتحت هذا الغشاء توجد غدد عديدة لإفراز العصارة المعدية، وتفرز المعدة حوالي لترين من هذه العصارات في اليوم.

ويعتمد إفراغ المعدة على نوعية الطعام بداخلها؛ فوجبة الكربوهيدرات تترك المعدة بعد ٢ - ٣ ساعات، بينما تتأخر وجبة البروتينات إلى فترة أطول، وأما وجبة الدهون فتمكث فترة أطول منها.

الحجم الأقصى للمعدة:

يختلف حجم المعدة بحسب كمية الطعام التي تحتويها. فحينما يدخل الطعام إلى المعدة نجدها تنتفخ تدريجياً للخارج مستوعبة كميات أكبر وأكثر من الطعام، حيث تتمتع الألياف العضلية للمساء في المعدة بخاصية المرونة، حتى تصل إلى أقصى حد لها وهو حوالي لتر ونصف اللتر.

ويظل الضغط داخل المعدة منخفضاً حتى تقترب من هذا الحجم بناء على قانون لابلاس القائل بأنه كلما ازداد قطر الجسم كلما ازداد التقعر في جداره، فلا تسبب زيادة قطر المعدة ارتفاعاً في الضغط داخلها إلا بدرجات ضئيلة جداً، وبما أن حجم المعدة حوالي ١,٥ لتر يمكن تقسيم حجم المعدة إلى ثلاثة أقسام متساوية سعة كل قسم نصف لتر (٥٠٠ مل).

ثلث حجم المعدة الفارغ ضروري لنفس الإنسان:

هناك علاقة حيوية بين المعدة والتنفس حيث تكمن المعدة في الجزء العلوي من التجويف البطني تحت الحجاب الحاجز مباشرة وتستقبل الطعام بعد مضغه وبلعه ومروره بالمريء. وللمعدة قدرة كبيرة على تغيير حجمها، فهي تبدو صغيرة عندما تكون فارغة، وتمتد كثيراً بعد تناول وجبة كبيرة، وعندئذ يشعر الإنسان بعدم الراحة وصعوبة في التنفس، ويعني ذلك أن المعدة قد امتلأت أكثر من اللازم حتى أصبحت تشغل حيزاً يزيد عن المعتاد فضغطت على الحجاب الحاجز. فأوجد هذا صعوبة في تقلصه وإعاقته عن الحركة إلى أسفل بالقدر اللازم لحدوث تنفس عميق.

دورة التنفس وعلاقتها بالمعدة:

تتكون دورة التنفس من الشهيق والزفير وفترة راحة بينهما، ويتسع القفص الصدري أثناء الشهيق نتيجة لنشاط عضلي - بعضه إرادي وبعضه غير إرادي - والعضلات الرئيسية التي تتحكم في التنفس الطبيعي الهادئ هي العضلات بين الأضلاع وعضلة الحجاب الحاجز، أما في التنفس الصعب أو العميق وهو تنفس طارئ فتدخل فيه عضلات الرقبة والصدر والبطن.

ويشكل الحجاب الحاجز فاصلاً بين التجويف الصدري والبطني؛ فهو يمثل أرضية للتجويف الصدري وسقفاً للتجويف البطني، ويقع في مقابل الفقرة الصدرية الثامنة في حال ارتخائه، وعندما تنقبض عضلته يتسع التجويف الصدري في الطول وذلك لاتصالها بالضلع الأول الثابت في الصدر، وعندئذ يقع الحجاب الحاجز مقابل الفقرة الصدرية التاسعة، كما يتسع التجويف الصدري من الجانبين والأمام والخلف بسبب انقباض العضلات بين الضلوع، وهذا الاتساع يؤدي إلى انخفاض الضغط داخل التجويف الصدري وارتفاعه داخل التجويف البطني، وعندما تزداد سعة القفص الصدري بواسطة هذه الانقباضات العضلية تتحرك الجنبية الجدارية مع أسطح الصدر والحجاب الحاجز، وهذا يؤدي إلى خفض الضغط داخل التجويف البللوري فتتمدد الرئتان.

ويؤدي تمددهما إلى انخفاض الضغط داخل الحويصلات والممرات الهوائية فيندفع الهواء إليهما لكي يتعادل ضغط هواء الحويصلات الهوائية مع الضغط الجوي. وقد وجد أن انخفاض هذا الضغط انخفاضاً طفيفاً يكفي لتحريك حوالي نصف لتر من الهواء إلى الرئتين في خلال ثانيتين وهي المدة اللازمة للشهيق، كما أن انخفاض هذا الضغط داخل التجويف الصدري يساعد في رجوع الدم الوريدي غير المؤكسد إلى القلب ويعرف بمضخة التنفس.

حجم هواء التنفس:

تذكر المراجع الطبية الحديثة أنه مع كل شهيق وزفير في التنفس الطبيعي تدخل إلى الرئتين وتخرج منها حوالي ٥٠٠ ملليمتر من الهواء مع كل تنفس وبما أن هذه الكمية تدخل وتخرج بانتظام كمد البحر فإنها لذلك تسمى الحجم المدي، وهو يقدر بجهاز خاص لقياس كمية الهواء المتبادل في عملية التنفس يسمى مقياس النفس.

الطعام وكيف يستفيد منه الجسم؟

يتكون الطعام الذي نأكله من البروتينات، والكربوهيدرات، والدهون، والفيتامينات مخلوطة بأثر بسيط من معادن الأرض، ولقد هيأها الله سبحانه في صور شتى، وألوان مختلفة، وطعوم جذابة، ليتناولها الإنسان بشغف.

ويستفيد الجسم من الطعام بتحويله إلى مكوناته الأولية وتحرر الطاقة الكامنة فيه بين جزئيات مواده وذراتها عبر عملية تسمى بالتمثيل الغذائي؛ والتي يمكن تلخيصها بعملية البناء والهدم. ففي عملية البناء تستخدم مكونات الغذاء المختلفة بعد تحليلها بالعصارات الهضمية وامتصاصها في بناء الخلايا الجديدة، والمركبات الحيوية المختلفة، وفي عملية الهدم يقوم الجسم بحرق مكونات الطعام بخطوات دقيقة ومتدرجة حيث تؤكسد فيها: الكربوهيدرات، والبروتينات والدهون، منتجة ثاني أكسيد الكربون، والماء، والطاقة.

ويستفيد الجسم من الطاقة التي حصل عليها في تشغيل أجهزته المختلفة، وفي الحركة، وفي إنتاج الحرارة اللازمة لحفظ درجة ثابتة لا تتغير، وما يزيد عن حاجته منها يخزن في مخازن خاصة تستجلب عند الحاجة إليها.

مصير الطاقة الفائضة:

تفيض الطاقة عن حاجة الجسم الفعلية وتختزن في داخله، إما على هيئة مواد غذائية مكثفة تنطلق منها الطاقة الكامنة فيها عند أكسدها، كالدهون المخزنة تحت سطح الجلد وداخل الجسم، والبروتينات المخزنة في العضلات وخلايا الأنسجة الأخرى، والجليكوجين المخزن في الكبد والعضلات.

ويتم اختزان الطاقة على هذه الهيئة أثناء المرحلة المتوسطة من التمثيل الغذائي، حيث تكون المركبات الكيميائية الناتجة من السكريات والأحماض الأمينية والدهون

متشابهة إلى حد بعيد، ويمكن عندئذ تحويل كل منها للآخر ومقادير هذه الطاقة المخزنة في الشخص البالغ الذي يزن ٧٠ كجم تصل إلى ١٦٦ ألف كيلو كالوري^(١) تشكل الدهون فيها أعلى نسبة، وهذه الطاقات تكفي لحياة الإنسان من شهر إلى ثلاثة شهور لا يتناول فيها طعاماً قط.

أو تحتزن الطاقة في روابط كيميائية لبعض المركبات ذات القدرة على اختزان كميات هائلة منها في المرحلة الأخيرة من الهدم، حيث تتحول جميع المركبات الكيميائية إلى ثاني أكسيد الكربون وذرات الهيدروجين التي تتأكسد لتكون الماء، وتطلق الطاقة من هذه التفاعلات، ولا تستطيع الخلايا أن تستخدمها مباشرة، ولكنها تحتزن في مركبات فوسفورية عالية الطاقة.

وخير مثال لهذه المركبات هو مركب الأدينوزين ثلاثي الفوسفات، والذي يعتبر المخزن الرئيس للطاقة في الجسم، حيث تحتزن الطاقة في هذا المركب العجيب حسب عدد روابطه الفوسفاتية، فالرابطة الثلاثية تحتزن كمية أكبر من الرابطة الثنائية، والثنائية أكبر من الأحادية، وتنطلق الطاقة منه على مراحل حسب رابطة الفوسفات أيضاً، فعندما تتحول إلى أدينوزين ثنائي الفوسفات تنطلق منه الكمية الأولى، وتنطلق الكمية الثانية عندما يتحول إلى أدينوزين أحادي الفوسفات، ثم يرجع المركب مرة أخرى إلى صورته - بعدما تحمل ذرات الأكسجين فيه مزيداً من الإلكترونات - مخزنةً بذلك كميات هائلة من الطاقة أثناء عملية الهدم، ليمد بها العمليات الحيوية في خلايا الجسم أثناء مرحلة البناء، وهكذا دواليك.

(١) الكالوري مُعادل قياس، ويعرف بأنه كمية الطاقة الحرارية اللازمة لرفع درجة حرارة جرام واحد من الماء درجة مئوية واحدة من ١٥ - ١٦ درجة مئوية، والوحدة الأكبر منه هو الكيلو كالوري ويساوي ١٠٠٠ كالوري.

إن الجزيء الواحد من الجلوكوز عندما يدخل إلى فرن الاحتراق في الخلية يُنتج ٣٨ جزيئاً من مركب الأدينوزين ثلاثي الفوسفات. وإذا علمنا أن الجزيء الواحد من هذا المركب يخزن طاقة من ١٠ - ١٢ كيلو كالوري، فانظر كم يعطي جزيء الجلوكوز الواحد من الطاقة المخزنة؟ وهل تتخيل كم يعطي الجرام منه، أو عدة جرامات؟ إنها أرقام فلكية! وهذا يمثل فقط (٤٠٪) من الطاقة المتحررة من جزيء الجلوكوز الواحد، أما الباقي وهو (٦٠٪)، فتنتقل كحرارة تنظم درجة حرارة الجسم. ويعتمد عدد جزيئات الأدينوزين ثلاثي الفوسفات الناتج من أكسدة الأحماض الدهنية على عدد ذرات الكربون في جزيء الحمض الدهني فالذي يحتوي على ٦ ذرات كربون فقط ينتج ٤٤ جزيئاً من مركب أدينوزين ثلاثي الفوسفات. والذي يحتوي منها على ١٦ ذرة ينتج ١٢٩ جزيئاً من أدينوزين ثلاثي الفوسفات، والذي إذا حوّل إلى وحدات الطاقة يبلغ ما يعطيه جزيء الحمض الدهني هذا ١٢٩٠ كيلو كالوري. فكم يعطي الجرام من الدهن؟.

توازن الطاقة:

لقد هياً الله ﷻ جميع الكائنات الحية بحيث تكون لها طاقة متوازنة مع بيئتها، تأخذ منها على قدر حاجتها، إلا الحيوانات المستأنسة، أو الحيوانات ذات البيات الشتوي أو الإنسان، والذي إن قلّت كمية الطاقة التي يتناولها في طعامه عن الطاقة اللازمة لعملياته الحيوية ونشاطاته المختلفة، يكون توازن الطاقة لديه سلبياً، ويحصل الجسم على ما ينقصه منها مما اختزنه من الجليكوجين، والبروتين، والدهون، وبالتالي ينقص وزنه، كما يحصل التخزين بتناول كمية من الطعام أكثر من الحاجة اللازمة، فيزيد الوزن تبعاً لذلك.

الأضرار الناتجة عن الإفراط في الطعام في الطب الحديث:

السمنة (البدانة) وما يصاحبها من أمراض:

ترتبط السمنة بالإفراط في تناول الطعام خصوصاً الأطعمة الغنية بالدهون، وهي مشكلة واسعة الانتشار، وقد تقترن بزيادة خطر الأمراض القلبية الوعائية، مثل

قصور القلب، والسكتة القلبية، ومرض الشريان التاجي، ومرض انسداد الشرايين المحيطة بالقلب، وارتفاع ضغط الدم، ومرض السكري، وارتفاع دهون الدم.

ولا شك أن جلطة القلب لها علاقة بالسمنة وكذلك حصيات المرارة وداء النقرس وهو مرض مزمن يسبب نوبات من الآلام المفصلية، وينتج عن زيادة الحامض البولي في الدم، فينشأ عن ذلك ترسب هذا الحامض البولي على شكل بلورات من يورات الصوديوم حول المفاصل، ومن أهم أسبابه: الإفراط في تناول الأطعمة الغنية بالمواد البروتينية (كاللحوم والأسماك) والأطعمة الغنية بالنيكلوبروتين (كالمخ والمخين والكبد ولوزة العجل).

وهناك أمراض أخرى لها علاقة بالسمنة أيضًا مثل: دوالي الساقين، فتق المعدة، الإمساك، التهابات، بطء شفاء الجروح، والتهاب المفاصل التنكسي.

وتحدث السمنة نتيجة لاضطراب العلاقة بين ثلاثة عناصر من الطاقة وهي: الكمية المستهلكة من الطعام، والطاقة المبذولة في النشاط والحركة، والطاقة المخزنة على هيئة دهون بصفة أساسية، فالإفراط في تناول الطعام مع قلة الطاقة المبذولة في الحركة يؤدي إلى ظهور السمنة خصوصًا مع توفر وسائل الحياة المريحة.

إن الإنسان العادي يستهلك حوالي ٢٠ طنًا من الطعام في فترة حياته، وحدوث نسبة ٢٥٪ من الخطأ في توازن الطاقة يؤدي إلى زيادة في الوزن تبلغ ٥٠ كجم، وهذه الزيادة عند شخص بالغ وزن ٧٠ كجم تجعل وزنه ١٢٠ كجم، وهذا من شأنه أن يبين مدى الدقة المطلوبة في تنظيم تناول الطعام للمحافظة على استقرار وزن الجسم.

ومن المعتقد أن السمنة تنجم إما عن خلل استقلابي (خلل في التمثيل الغذائي)، أو عن ضغوط بيئية، أو اجتماعية.

وقد تنجم البدانة أيضًا عن خلل في الغدد الصماء، أو عن أسباب نفسية واجتماعية متضافرة، تظهر على شكل إفراط في الأكل، وكثيرًا ما يتزامن حدوث الاضطرابات الاستقلابية^(١)، والضعوط البيئية، بحيث يكمل أحدهما الآخر فتتفاقم الحالة. وفي المقابل يرى كثير من العلماء أن الاضطراب النفسى الذي يفضى إلى الشراهة في تناول الطعام، والذي يتسبب في السمنة، قد يؤدي إلى ظهور اضطرابات في عملية الاستقلاب أو التمثيل الغذائي، وبالتالي فمن المتعذر تفسير الاضطرابات الرئيسة في توازن الطاقة - في حالة السمنة - بأنها عبارة عن التغير في أحد العناصر، ولكن يظل واضحًا تمامًا أن الإفراط في الأكل هو أحد العوامل الرئيسة في حدوث السمنة.

وهناك تغيرات كيميائية حيوية تصاحب السمنة:

أهمها تغير نمط استقلاب الدهون، إذ تزداد البروتينات الشحمية (نوع بيتا) في البلازما، والأحماض الدهنية الحرة، ويزداد تركيز الأنسولين في الدم زيادة كبيرة، مما يؤدي إلى تضخم البنكرياس، أو زيادة أنسجته، فيؤدي إلى زيادة إنتاج الأنسولين، والذي يتسبب في تكوّن الأحماض الدهنية في الكبد من المواد الكربوهيدراتية، وزيادة ترسب المواد الدهنية في الأنسجة الشحمية، وهذا يؤدي إلى ظهور أعراض مرض السكري، حيث تفقد مستقبلات الأنسولين الموجودة على الأنسجة الاستجابة للأنسولين.

التوازن الغذائي:

تؤكد جميع الأوساط العلمية المهمة بالغذاء وصحة الإنسان على ضرورة مراعاة التوازن الغذائي بين الطاقة المستهلكة، والطاقة التي يتناولها الإنسان من خلال الطعام. ويذكر العلماء أن الغذاء المتوازن يحتاج إلى قدر من المعلومات وحسن تخطيط.

(١) استقلاب: أيض: تحوّل الغذاء إلى طاقة.

والغذاء المتوازن لا يعتمد فقط على حجمه بل على نوعه، ويمكن تحديد كمية الطعام ونوعيته التي يحتاجها الفرد حسب نشاطه وعمله، بناء على المعلومات الآتية:

١- لابد أن يحتوي الغذاء على عناصره الأساسية من الكربوهيدرات والبروتينات والدهون والفيتامينات والمعادن والماء.

٢- ينبغي أن تكون نسبة الكربوهيدرات في كمية الغذاء لليوم الواحد حوالي ٦٠٪، ونسبة البروتينات حوالي ١٥٪، ونسبة الدهون حوالي ٢٥٪.

٣- تقسم كمية السعرات الحرارية اللازمة للشخص حسب طبيعة عمله من العناصر الثلاثة في الخطوة السابقة، على ما يعطيه كل جرام منها من السعرات الحرارية (إذ يمد الجرام الواحد من كل من الكربوهيدرات والبروتينات بـ ٤ كيلو كالوري، ويمده الجرام من الدهون بـ ٩, ٣ كيلو كالوري) وهكذا تحسب الكمية اللازمة بالضبط للفرد. وبذلك يمكن التحكم في كميات الطعام التي نتناولها على علم وفهم، فإن كان الشخص يعاني من البدانة فليتناول كمية أقل منها ويسحب من مخزونه من الطاقة باقي الكمية اللازمة لاحتياجاته اليومية وبالتالي يمكن أن يتخلص الإنسان من السمنة بسهولة فبتطبيق هذا الحديث العظيم نتوقى الأخطار والمهالك مع تحقق المنفعة والفائدة لأجسامنا وأرواحنا.

وجه الإعجاز في الحديث:

١- الإفراط في الطعام والشراب شر وخطر على صحة الإنسان:

لقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة منذ أربعة عشر قرناً من الزمان في عبارة بليغة موجزة هي: (مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ) وهكذا عُرِفَ هذا الشر بيقين في هذا العصر بظهور الأمراض الخطيرة المهلكة للإنسان الناتجة بسبب الإفراط في تناول الطعام، وذلك بعد تقدم وسائل الفحص والتشخيص الطبي الدقيق الذي أفضى لمعرفة حقيقة هذا الشر.

وبينما كان علماء المسلمين يحذرون الناس من أخطار التخمرة وكثرة الأكل عبر خمسة عشر قرناً استناداً لحديث نبهم ﷺ كان غيرهم يعتقدون أن كثرة الأكل مفيدة

غير ضارة ويتساقبون في ملء البطون بالطعام والشراب؛ ففي إنجلترا يتحدث الطبيب (تشرين) (١٦٧١ - ١٧٤٣م) عن عقيدة البروتستانت في الإفراط في الطعام والشراب فيقول: «لست أدري ما عليه الأمر في البلدان الأخرى، ولكن نحن البروتستانت لا نعتبر الإفراط في تناول الطعام مؤذيًا ولا ضارًا، حتى إن الناس يحتقرون أصدقاءهم الذين لا يملؤون بطونهم عند كل وجبة طعام».

وبعد أن أدرك هذا الطبيب - من بين جميع الأطباء المعاصرين له - أخطار كثرة الأكل، حمل الأطباء المسؤولية في عدم إرشاد الناس لهذه الأخطار فقال: «والأطباء لا يدركون أنهم المسؤولون أمام المجتمع وأمام مرضاهم بل أمام الخالق، لأنهم يشجعون الناس على الإفراط في الطعام والشراب، ذلك لأنهم بهذا يعملون على تقصير آجال كثير من مرضاهم».

ولم يتبته علماء أوروبا إلى هذه الأخطار إلا في عصر النهضة، فأخذوا يطالبون الناس بالحد من الإفراط في تناول الطعام وترك الانغماس في الملذات والشراب. فهذا أحدهم (لودفيك كارنارو) من البندقية يحذر أمته من هذه الأخطار، حيث كان مما قال: «يا إيطاليا البائسة المسكينة! ألا ترين أن الشهوة تقود إلى موت مواطنيك أكثر من أي وباء منتشر أو حرب كاسحة؟»، «إن هذه المآذب المشينة والتي هي واسعة الانتشار اليوم، لها من النتائج الضارة ما يوازي أعنف المعارك الحربية»، «لذلك يجب علينا ألا نأكل إلا بقدر ما هو ضروري لتسيير أجسامنا بشكل مناسب»، «وإن أية زيادة فيما نتناوله من كميات الطعام تعطينا سرورًا أنيًّا. ولكن علينا في النهاية أن ندفع نتائج ذلك مرضًا، بل موتًا في بعض الأحيان».

ولعل اكتشاف أمراض السمنة وأخطارها المهلكة وعلاقة ذلك بالشراسة وكثرة الأكل، يجعلنا نزداد يقينًا بعظم القاعدة الذهبية في حفظ الصحة البشرية المتمثلة في ترشيد الأكل والشرب والتي أرشد إليها قول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١).

من الذي أنزل على رسولنا ﷺ هذا العلم؟ إنه الله ﷻ.

٢ - إقامة الصُّلب والحد الأدنى من الطعام:

تختلف الحاجة للطعام من إنسان إلى آخر، حسب طبيعة عمله، ومن وقت إلى آخر عند الفرد ذاته، لكن هناك قدر مشترك من الحاجة إلى السرعات الحرارية يتساوى فيها بنو البشر جميعاً على وجه الإجمال، وهو المعدل الثابت من الطاقة التي يحتاجها الإنسان البالغ والتي تستخدم في حفظ العمليات الحيوية الأساسية داخل الجسم كتشغيل القلب والجهاز الدوري الدموي، والجهاز التنفسي، والهضمي، والبولي، والعصبي، وتسيير العمليات الضرورية لحفظ الحياة لنقل الأيونات عبر جدر الخلايا، والإشارات المختلفة عبر الخلايا العصبية، وسائر العمليات والتحويلات الكيميائية في التمثيل الغذائي، وهي تبلغ حوالي ٢٠٠٠ كيلو كالوري من السرعات الحرارية.

وتختلف حاجة الناس لأكثر من هذا حسب طبيعة أعمالهم، فتزيد للدارسين والباحثين وكل العاملين في المجال الفكري حوالي ٥٠٠ كيلو كالوري عن المعدل الثابت، بينما يحتاج الذين يمارسون أعمالاً شاقة؛ كرفع الأثقال وعمال البناء والمناجم وقطع الخشب مثلاً إلى حوالي ٣٥٠٠ كيلو كالوري، إضافة للمعدل الثابت في اليوم.

وقد يشير الحديث إلى هذه الحقيقة فقد يكون ذكر اللقيحات لإقامة الصلب كناية عن هذا المعدل الثابت الذي يحتاجه الناس جميعاً، ويمكن أن يتحقق بالقليل من الطعام حيث تنطلق منه الطاقة على مرحلتين: الأولى: الطاقة المباشرة التي يعطيها الجرام من عناصره الغذائية، والثانية: ما يعطيه الجزيء منها من الطاقة المخزنة في مركبات الأدونيزين ثلاثي الفوسفات وأشباهه وهي طاقة هائلة، وهذا يوضح الآن كيف خاض أولئك الرجال الأفذاذ من الصحابة الكرام ومن تبعهم الحروب والأهوال وكان زاد الواحد منهم حفنة من تمرات!

٣ - ملء ثلثي حجم المعدة هو الحد الأقصى:

كما يمكن أن تدرج الزيادة في الحاجة للطاقة عن المعدل الثابت في إشارة النص في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثُ لِطْعَامِهِ وَثُلُثُ لِشْرَابِهِ»، ويمكن أن

تفهم هذه الزيادة من أول درجاتها إلى أعلى معدل لها والتي يحتاجها العاملون في الأعمال الشاقة ولا يتجاوز أعلى حجم للطعام والشراب ثلثي حجم المعدة.

إن تحديد امتلاء ثلثي المعدة للطعام والشراب هو غاية في الإحكام وهو أقصى درجات الشبع عند المسلم بناء على هذا الحديث، فإن هذا الحجم عبارة عن لتر كامل من الغذاء المطحون مع الشراب، والذي يمكن أن يكون أحد مكونات الطعام فيه من الحساء أو يكون عصيراً أو ماءً، وهو ما يعادل على الجملة أربع كاسات ماء من الحجم الكبير، وتلك كمية هائلة من الطعام في الوجبة الواحدة.

فعلى المسلم ألا يصل إلى تناول هذه الكمية إلا إذا كان عاملاً في الأعمال الشاقة أو عندما تغلبه نفسه أو يقع في مأزق يضطره إلى تناول هذا القدر، بل عليه الاقتصار على أقل من ذلك تطبيقاً لنصيحة النبي الكريم ﷺ وعندما يطبق المسلم هذا الحديث بعناية فمع تحصيله الأجر العظيم لاتباعه سنة النبي ﷺ فإنه يمارس أيضاً أقوى وأنجع برنامج في التوازن الغذائي والتخلص من الوزن الزائد وأمراض السمنة وأخطارها.

٤ - امتلاء المعدة بالطعام يؤثر على أجهزة الجسم:

حينما تمتلئ المعدة تماماً تضطرب مضخة التنفس ولا يصل كل الدم الوريدي غير المؤكسد إلى القلب بسهولة. وإذا لم تنقبض عضلة الحجاب الحاجز بالقدر المطلوب بسبب امتلاء المعدة سيؤدي ذلك بدوره إلى عدم قدرة الرئتين على التمدد الكامل؛ نظراً لعدم إتمام اتساع القفص الصدري وبالتالي فلا يحصل تبعاً لذلك دخول الهواء بالحجم الطبيعي أو المدي إلى الرئتين، وتتدخل عندئذ عضلات الطوارئ في إحداث تنفس عميق مما يؤدي إلى ضغط محتويات التجويف البطني لتفريغ مساحة لاتساع التجويف الصدري، وهذا بدوره يؤدي إلى شدة واضطراب يؤثر على جميع أجهزة الجسم المختلفة.

أما إذا ترك ثلث المعدة أو أكثر منه فارغاً وهو ما يوازي حجمه حجم الهواء الطبيعي الداخل للرئتين (٥٠٠ مل) فإنه بذلك يؤدي إلى تنفس انسيابي مريح وانصباب سهل للدم الوريدي للقلب وبهذا يظهر الأثر الضار لامتلاء المعدة على كل من الجهاز

التنفس والدوري عند الإنسان. كما أن امتلاء المعدة بالطعام يؤثر سلباً على هضمه، حيث إن تمدد جدار المعدة يثبط نشاط عضلات هذا الجدار فيؤدي بدوره إلى تأخير وإعاقة الهضم.

٥- ثلث المعدة يطابق تماماً حجم هواء التنفس:

بالنظر والمقارنة بين أقصى حجم للمعدة يمكن أن تصل إليه وهو حوالي اللتر ونصف اللتر، وبين الحجم المدي للنفس الطبيعي للإنسان؛ والذي يبلغ في العادة حوالي ٥٠٠ ملليمتر من الهواء، يتبين لنا أن حجم الهواء الداخل إلى الرئتين يمثل ثلث حجم المعدة، وفي هذا إعجاز نبوي واضح حيث حدد النبي ﷺ هذه القياسات في زمن لم تُتَح فيه هذه الأجهزة الدقيقة التي تقيس حجم الهواء الداخل إلى الرئتين، وتحدد أقصى حجم لتمدد المعدة، وقياس الضغط بداخلها.

فمن أخبر النبي ﷺ بهذه الحقائق؟ ومن الذي أعلمه بفائدة مراعاة هذه القياسات الدقيقة التي لم تكن قد عرفت في عصره أو حتى في عصور متأخرة بعده؟ إنه الله ﷻ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٢ - ٤).

الإعجاز التشريعي لنظام الميراث في القرآن الكريم

من أوجه الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم تشريعه لنظام متميز في توزيع الميراث، في آيات ثلاث لا تزيد على خمسة عشر سطرًا، جاءت في سورة واحدة من سور القرآن الكريم، بنفس الأسلوب البياني، الذي لا يختلف في سموه حين يختلف موضوعه، حتى لو كان في موضوع خاص بالتشريع للمواريث والتركات قوي الصلة بالأعداد والأرقام.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبُوَاهُ فَلِلْمِثْلِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْمِثْلِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾ * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَرْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهَا وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهَا الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورِثُ كَعَلَّةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَاعَرٍ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿النساء: ١١﴾ - (١٢).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُؤُا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتْ أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُسِّنِ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿النساء: ١٧٦﴾.

إن الذي يدرس نظام الإرث في القرآن الكريم ويقارنه مع ما ورد في التوراة وكذلك في الأنظمة الوضعية يتأكد له أن هذا النظام لا يمكن أن يكون من وضع البشر وخاصة أنه جاء عن طريق رجل أمي عاش في وسط أمة أمية. هذا بالإضافة إلى أن التوراة والإنجيل والتي طالما تشدق بعض أتباعها بأن محمدًا ﷺ قد أخذ محتويات القرآن الكريم منهما يخلوان تمامًا من مثل هذا النظام البديع.

إن نظام الإرث في التوراة وكذلك في بعض الأنظمة الوضعية قد حرمت أقرب المقربين للمتوفي وهم أبوه وأمه وزوجته من الميراث بمجرد وجود ابن أو ابنة له ولم تراعي ما سيؤول إليه حالهم بعد وفاة من قد كان في الغالب يعيلهم.

لقد تحول كثير من عقلاء أهل الكتاب منذ فجر الإسلام وحتى يومنا هذا إلى دين الإسلام بسبب كمال النظام التشريعي فيه وعلى الخصوص نظام الإرث بعد أن تأكد لهم أن مثل هذا التشريع لا يمكن أن يسن من قبل رجل أمي.

بل مما زاد من دهشتهم وإعجابهم أن نظام الإرث هذا والذي تم فيه معالجة جميع الاحتمالات الممكنة لحالات الورثة من الدرجة الأولى قد تمت صياغته في عشرة أسطر فقط. إن مجرد استخدام الكسور كالنصف والثلث والربع والسدس والثلث في نظام الإرث في زمن يجهل فيه البشر وخاصة العرب منهم مثل هذه العمليات الحسابية هو أكبر دليل على أن هذا النظام لا يمكن أن يكون قد تم وضعه من قبل رجل أمي.

لقد كان من السهل لو كان هذا النظام من وضع رجل أمي أن يقع في ورطة حسابية باستخدام نظام الكسور هذا ولكن الدارس المتفحص لنظام الإرث في القرآن يكتشف مدى الدقة التي تم بها اختيار حصص الورثة باستخدام الكسور.

ومما يؤكد هذا الأمر أننا نجد اليوم ونحن نعيش في القرن الواحد والعشرين بعض المتعلمين والذين درسوا الحساب لمدة طويلة في المدارس والجامعات لا يستطيعون التعامل مع نظام الكسور هذا.

لا يوجد أي نص في أناجيل النصارى يتعلق بنظام الإرث ولذلك فقد اعتمد أهل الإنجيل في قوانين إرثهم على ما جاء في التوراة. وقد كان نظام الإرث عند العرب

أقرب ما يكون لنظام الإرث المذكور في التوراة فلا نصيب للنساء في التركة مع وجود الورثة من الرجال وغالبا ما يستحوذ الكبار من الأبناء على نصيب الصغار منهم.

ولهذا فقد كانت مهمة تغيير نظام الإرث هذا من أصعب المهام التي واجهها النبي محمد ﷺ وخاصة أن اليهود الموجودين في المدينة يعملون بنظام توريث مستمد من التوراة وهو مشابه للنظام الذي تتبعه العرب في جاهليتهم.

لقد جاء القرآن الكريم بنظام إرث جديد أنصف فيه جميع الورثة وخاصة النساء منهم واللاتي كُنَّ محرومات من تركة أقربائهن في نظام الإرث المطبق عند العرب وكذلك عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

لقد بدأ القرآن الكريم بإقرار مبدأ عظيم وهو أن للنساء نصيب من تركة أقربائهن كما للرجال مهما بلغت قيمة التركة وأن هذا الحق مفروضاً لهن من الله ﷻ وذلك في قوله تعالى: ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ (النساء: ٧).

وقد أكد القرآن الكريم كذلك على عدم هضم حقوق صغار الورثة من الذكور والإناث عند القسمة من قبل كبار الورثة وكذلك الحفاظ على أموال هؤلاء اليتامى من قبل إخوانهم أو أعمامهم أو من هم في كفالتهم وخاصة في غياب رقابة الدولة على إجراءات قسمة التركة وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلِيَخَشَّ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (النساء ٩ - ١٠).

وبعد أن وضع القرآن القواعد العامة لنظام الإرث بدأ بتحديد أنصبة كل من ورثة المتوفي سواء كان ذكراً أم أنثى وذلك في ثلاث آيات فقط لا يتجاوز عدد أسطرها العشرة وهي مليئة بالفرائض باستخدام نظام الكسور.

إن نظام الإرث الذي جاء به القرآن الكريم نظام مبتكر وفريد لم يسبق للبشر أن تعاملوا بمثله ولن يتمكنوا كذلك من أن يأتوا بنظام مثله أبداً. فهذا النظام قد تم وضعه على أسس واضحة ولأهداف بينة وليس بطريقة اعتباطية راعى فيه المشرع مصالح وورثة

الميت الأشد قرابة. إن أشد الناس قرابة للميت هم أباه وأمه وأبنائه وبناته وزوجته بحكم المعاشرة وهم أكثر الناس حزنًا عليه عند موته ثم يأتي في الدرجة الثانية أخوته وأخواته ثم أعمامه وعماته.

وعندما حصر الله ﷻ تركة الميت على الأب والأم والأبناء والبنات والزوجة ولا تتعدى إلى الأخوة والأخوات والأعمام والعمات إلا في حالات محددة فإنها حصرها لأسباب منطقية لا يمكن لعقل أن يجادل فيها.

فالأب والأم هما السبب في وجود هذا الإبن فأمه قد حملته تسعة أشهر في بطنها ثم أرضعته ثم قامت على خدمته في حال صحته ومرضه مدة طويلة وأبوه أنفق عليه من ماله والذي قد يكون حصل عليه بشق النفس فوفر له المسكن والملبس والطعام والشراب والتعليم ومعالجته عند مرضه مدة طويلة، وقد يكون الأب وكذلك الأم قد ساهما في بناء البيت الذي سكنه هذا الإبن وربما المصلحة التي كانت مصدر رزقه.

أما الزوجة فهي التي أنجبت أولاده وقامت على خدمته وخدمة بيته وخدمة أولاده وبذلك وفرت له الوقت لجمع هذا المال.

أما أبناء الميت وبناته فهم أحوج الناس لهذا المال إذا كانوا صغاراً وإما إذا كانوا كباراً فإنهم أحق الناس به فقد يكونوا ساهموا بجهدهم في تحصيل هذا المال مع أبيهم بالإضافة إلى أن هذا هو الاتجاه الصحيح لحركة المال المورث فهو ينتقل من الأباء إلى الأبناء.

وعلى هذا فإنه من الظلم الفادح أن يُحرم الأب والأم من تركة ابنهم بمجرد وجود أبناء وبنات لهذا الميت وقد يكونا في أمس الحاجة لمثل هذا المال عند هذه السن الكبيرة التي تقل فيها قدرتها على جلب الرزق وإذا ما أخذ الأب والأم شيئاً من التركة فهو جزء يسير مما أنفقاه على هذا الابن.

وكذلك فإنه من الظلم الفادح أن تحرم الزوجة حرماناً كاملاً من تركة زوجها سواء ترك أولاداً أم لم يترك كما هو الحال في نظام الإرث التوراتي أو في أنظمة الإرث

الحالية كنظام الإرث الفرنسي. فهل يعقل أن تذهب تركة زوجها إلى إخوانه وأخواته أو أعمامه وعماته وتحرم هي منه.

ولهذا فقد أنصف القرآن الكريم الأب والأم والزوجة في نظام الإرث الذي جاء به وأعطى للأب سدس التركة وللأم السدس كذلك وللزوجة الثمن عند وجود أبناء وبنات للميت وتزداد هذه النسب في حالة غياب الأبناء والبنات.

ولا بد هنا من الرد على الفرية التي يتشدد بها بعض الكفار من أهل الكتاب وغيرهم وهي زعمهم أن القرآن قد تميز للرجال على حساب النساء في نظام الإرث الذي جاء به فأعطى الرجل ضعف حصة المرأة.

الجواب:

إن مَنْ بَيْتُهُ مِنْ زَجَاجٍ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَرْمِيَ النَّاسَ بِالْحِجَارَةِ فَالْنَّصُّ الْوَارِدُ فِي التَّوْرَةِ الْمَحْرُفَةُ قَدْ حَرَّمَ الزَّوْجَةَ تَمَامًا مِنَ الْمِيرَاثِ وَحَرَّمَ الْبَنَاتِ وَالْأَبَ وَالْأُمَّ كَذَلِكَ بِوُجُودِ الْأَوْلَادِ الذَّكَوْرِ.

وإذا رجعت لنظام الإرث الفرنسي أو بقية أنظمة الإرث في العالم غير الإسلامية فستجد مدى الإجحاف الذي يلحق بالزوجة والأب والأم عند تقسيم تركة الميت.

إن القرآن الكريم لم يتحيز للرجال في أنصبة الميراث على حساب النساء إلا بسبب طبيعة النظام الاجتماعي السائد في المجتمعات البشرية والذي يقوم على قوامة الرجال على النساء وكذلك مراعاة الفروق الطبيعية بينهما.

إن قوامة الرجال على النساء نظام قائم منذ أن خلق الله البشر ولا زال قائماً إلى يومنا هذا في معظم المجتمعات البشرية وسيبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإن أي محاولات لتغيير مثل هذا الواقع لن تفلح أبداً ما دام أن المجتمعات تقوم على النظام الأسري والذي تكون فيه في الغالب القوامة للرجال بسبب ما ميزهم الله به من قوة الجسم.

والدليل على عدم تمييز القرآن الكريم للرجال هو تساوي نصاب الأب والأم في حالة وجود أولاد للمتوفى وكذلك تساوى نصاب الأخ والأخت من الأم في تركة الكلاله. وحين يحدد القرآن الكريم نصاب الابن بضعف نصاب البنت فهو إنصاف لهذا الابن وليس تمييزاً له وذلك لأسباب كثيرة أولها أن الأعباء المادية المترتبة على الرجال في الأنظمة الاجتماعية السائدة تفوق تلك المترتبة على النساء فهم الذين يقومون ببناء مساكن الزوجية التي لا تشارك النساء فيه بشيء وهم الذين يدفعون المهور وهم الذين ينفقون على زوجاتهم وأولادهم وهم أقدر على العمل بشتى أنواعه بسبب تركيبهم الجسمي وهم أقدر على الحفاظ على الأموال التي يرثونها وكذلك تنميتها وهم أقدر كذلك على حمايتها في مجتمعات لا يصمد فيها إلا القوي وهذا هو واقع البشر منذ أن خلقهم الله وسيبقون كذلك.

إن مزايا التشريع الإسلامي في الميراث شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء، وإنما لتدل على أن القرآن الكريم كلام الله العليم الخبير، لأن هذا التقسيم المحكم العادل الذي جاء به الإسلام لم يسبق له مثيل فيما عرف من قوانين العالم ولا عند قدماء المصريين، ولا الأغريق، ولا الرومان، بل ولا تزال القوانين الأوروبية والأمريكية وغيرها من الدول التي تقرر مبدأ التوارث تتعثر دون أن تصل إلى ما وصل إليه الإسلام من عدل وإحكام. ويمكن إيجاز هذه المزايا في النقاط التالية:

١- تولى الله سبحانه وتعالى توزيع الميراث على مستحقه بنفسه ولم يترك ذلك لغيره، فجميع أحكامه منصوطة.

٢- يمتاز نظام الميراث في الإسلام بأن تنفيذه نابع من ضمير الجماعة الإسلامية كما هو الشأن في جميع تشريعات الإسلام لا يمكن لمحتال أن يحتال عليها أو يتهرب منها مع راحة ضميره، واطمئنان نفسه، إلا إذا كان لا إيمان له أو كان ضعيف الإيمان.

٣- يمتاز نظام الميراث في الإسلام بأن توزيع التركة معلق بإرادة الشارع لا بإرادة الوارث أو المورث، ومن ثم فالميراث هو الملك الوحيد الذي ينتقل من شخص إلى آخر دون اشتراط رضاهما، ولم يترك الإسلام للمالك إلا حرية التصرف في حدود

الثالث حيث أباح له التصرف فيه بالوصية لتدارك ما عساه قد فاته من صلة قرابة أو زيادة في أجره وثوابه.

ومع ذلك حرم هذا الحق إن كانت الوصية فيما لا يجوز شرعاً، لأن المفروض في الإسلام أن يستغل الإنسان ماله فيما يعود عليه بالنفع في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً. كما أن الأصل أنه لا وصية لوarith حتى لا يختل هذا النظام الرباني الدقيق.

٤- بني توزيع الميراث على أساس القرابة، فأعطى الإسلام الأقرب فالأقرب دون تفرقة بين صغير وكبير، ذكر أو أنثى، ولذلك أعطى الأولاد أكثر حظاً من غيرهم في الميراث، لأنهم امتداد لشخص المالك - وهم في الغالب - ضعاف، ومع ذلك لم يستأثروا بالميراث بل يشاركونهم فيه غيرهم كالأب أو الجد أو الأم أو الجدة، وإن كانوا يأخذون أقل من الأولاد.

٥- لاحظ الإسلام في تقسيم الميراث الحاجة لذلك أعطى الأبناء أكثر من الآباء لأن الأبناء مُقبلون على الحياة. بينما الآباء مدبرون عنها، وأعطى الذكر ضعف الأنثى أحياناً لأنه أكثر حاجة منها إلى العون المادي لما عليه من واجبات تفوق ما عليها.

٦- يقوم توزيع الميراث في الإسلام على أساس تفتيت الثروة حتى لا تتجمع في يد شخص واحد، وبالتالي تصبح ثروة الأمة في يد أفراد قلائل من الممكن أن يتحكموا في مقدراتها ويستغلوا كل شيء فيها لأهوائهم ونزواتهم، ولكن هذا النظام الذي أقامه الإسلام يؤدي إلى تفتيت الثروة، ثم إعادة جمعها، ثم إعادة توزيعها وهكذا دواليك.

٧- كرم النظام الإسلامي في هذا الصدد المرأة، واحترم الأمومة، فأعطى المرأة نصيباً من الميراث بينما حرمتها كثير من التشريعات، وأعطى من يتصلون إلى المورث بسببها كما في أولاد الأم، والجدة للأم، وهذا بلا شك تكريم للأمومة، وإعزاز لها.

٨- هذا نظام محكم صاغه القرآن الكريم في ثلاث آيات فقط (الآيات رقم ١١، ١٢، ١٧٦ من سورة النساء)، بنفس اللغة الدقيقة الجميلة التي تخاطب العقل والوجدان، لتهيئة النفوس، وقدم لأحكامه بآيات قليلة لقبوله، فقال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ

نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ
أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَأَيْتَامٌ وَالْمَسْكِينُ
فَارزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلِيخَشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً
ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا ظُلْمًا إِنَّهَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿النساء: ٧ - ١٠﴾.

وعقب عليه بالآيتين (رقم ١٣، ١٤ من سورة النساء) للحض على العمل به،
والتحذير من الخروج عليه. فقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ
نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿النساء: ١٣ - ١٤﴾.

٩ - أحكام الميراث كما وردت في القرآن الكريم من الثوابت التي لا تقبل
التغيير، ومهمة المجتهد تنحصر في تنزيلها على الواقع لتوجهه وتحكم عليه، وهي قابلة
للتطبيق في كل البيئات إلى أن تقوم الساعة.

الإعجاز التشريعي في أحكام العدة وبراءة الأرحام

بقي الاعتقاد منذ عهد "أرسطو" في القرن الرابع الميلادي ولعدة قرون في فكرة التولد الذاتي للجنين من دم الحيض بناءً على توهم تولد العفن من غير سبب، وبعد اكتشاف المجهر في القرن السابع عشر أعلن "هارفي" عام ١٦٥١م أن الأجنة إفرازات من الرحم لعدم تمكنه من رؤية المراحل الأولى لتكونها، ولكن اكتشاف "جراف" عام ١٦٧٢م لحويصلة المبيض التي سُميت باسمه واكتشاف أجسام في أرحام الأرناب بدت شبيهة لأجنة حديثة قد جعله يستبعد علاقتها بالرحم ويعلن علاقتها بالمبيض الذي سماه خصية المرأة.

واكتشف "لويس باستير" في القرن التاسع عشر أن العفن سببه كائنات دقيقة مُيزت فصائلها بأسماء متنوعة مما أدى إلى القضاء على وهم التولد ذاتياً للكائنات الحية، وهكذا أخذت المعرفة البشرية تتطور شيئاً فشيئاً حتى عُرف الكثير عن آلية الإنجاب وعرفت علاقة الدورة الرحمية بدورة المبيض وتؤكد وقوع الإخصاب في منتصف الدورات.

ولم يكن أحدٌ يعلم زمن التنزيل شيئاً عن آلية التبويض والإنجاب بل اعتبرت إمكانية الحمل قائمة حتى في الحيض وإذا اجتنب الحيض فهو للتوهم بأفضلية الابن ثمرة الطهر، ولم يكن أحد يعلم زمن الإخصاب ولا يدرك أن ظهور الحمل موعده بعد ثلاث دورات معتادة وأن الحامل تبدأ استشعار حركة الجنين في العادة بعد أربعة أشهر تماماً من الواقع المثمر.

وفي تشريع حكيم يعالج القرآن عدة حالات اجتماعية ويحدد مواعيد ظهور علامات الحمل واستيفاء أدلة تنفيه وفق مصطلح الفقهاء "براءة الأرحام" ويوزعها بما يناسب أحوال النساء:

١- حالة المطلقات ذوات دورة الحيض المنتظمة المعتادة المعبر عنها بالقروء: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (البقرة: ٢٨٨)، والتربص يعني الترقب ويتعلق هنا بعلامة تؤيد وقوع الحمل: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ ومع انقطاع الحيض والعلامات الثانوية يتأكد الحمل بنمو الرحم وبروز البطن بعد ثلاث دورات معتادة أي ما يقارب ثلاثة أشهر وهي الغالب في المدة التي تحصل فيها ثلاثة قروء عملاً بالغالب دون النادر، والمدة الغالبة لدورة الحيض: (٣-٥) أسابيع.

٢- حالة اليائسات من استمرار الحيض والصغيرات اللائي لم يحضن كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّتِي بَسَّسَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ (الطلاق: ٤)، والحمل ممكن وإن كان نادراً في حالة اضطراب الحيض عند سن الكمال (اليأس) وعند البلوغ ولا توجد في تلك الحالات دورات حيض منتظمة فاستبدل القرآن مدة الأقرء بقيمة مماثلة وهي ثلاثة أشهر.

٣- حالة وفاة الزوج: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة: ٢٣٤)، وبالفعل تبدأ الحامل في الغالب أول شعورها بحركة الجنين بعد أربعة أشهر منذ يوم الإخصاب.

وللتباين في الخبرات قد يتأخر قليلاً بدءاً من شعور الحوامل بحركة الجنين عند موعده وهو (أربعة أشهر) وهنا أضيفت للمدة الغلبة مدة كافية هي عشرة أيام.

والزيادة في عدة الوفاة عن الأشهر في عدة الطلاق تكشف قصد الاحتياط ومع الاكتفاء بثلاثة قروء أو أشهر لاستيفاء دلائل نفي حمل المطلقات قد شدد القرآن على التيقن التام من استكمال مدة عدتهن بالأمر الصريح موجه الخطاب إلى النبي ﷺ وسائر المسلمين: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّمُ النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ (الطلاق: ١)، والمراجعة من أغراض الانتظار للتعقيب بعده: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ

اللَّهُ يُحَدِّثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا» (الطلاق: ١)، وهي تكشف قصد الإصلاح وحفظ الأسرة من الانهيار وضمان المأوى الصالح لتربية الأبناء.

فالغرض الأول من العدة هو تحقيق براءة الرحم وضمه إلى ذلك غرض آخر هو تريب المراجعة فلما حصل الأهم (وهو هنا تحقيق براءة الرحم بانتهاء عدة المطلقة) ألغى ما عداه (المراجعة) مراعاة لحق المرأة في الانطلاق من حرج الانتظار.

والعلة الأولى لتشريع العدة في حالات إمكانية الإنجاب بعد المفارقة بالطلاق أو الوفاة هي منع اختلاط الأنساب ولذا اقترنت حالة زوج المرأة بآخر بالمنع إلا باستيفاء أدلة نفي وقوع الحمل من زوجها الأول: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكَتْبُ أَجَلَهُ﴾ (البقرة: ٢٣٥)، أي لا تعزموا على عقد النكاح في زمان العدة حتى تنقضي مدتها، ولا عدة بلا معاشرة؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ (الأحزاب: ٤٩)، بينما تمتد العدة عند الحمل حتى الوضع، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (الطلاق: ٤).

وبهذا تبين أن العلة في تشريع العدة تتباين وتتعدد فهي ليست مقصورة فقط على براءة الرحم وإنما يراد منها أيضًا إمكانية المراجعة في حالة الطلاق والوفاء للزوج الميت، ولهذا فإن المعرفة بثبوت أو بنفي الحمل مبكرًا بالوسائل الحديثة لا يعني توقف العمل به.

إن الأحداث الرحمية في الدورة النوزجية (٢٨ يومًا)، تبدأ الدورة الرحمية مع بدء الدورة المبيضية منذ اليوم الأول للحيض الذي يستمر لمدة أربعة أيام بانهايار الطبقة السطحية للبطانة الرحمية، ثم يليه بدء تجددتها، ويقع التبويض غالبًا في اليوم ١٤ ويقع الإخصاب في نفس اليوم لأن القابلية للإخصاب أقل من يوم .

ومدة الحمل منذ الإخصاب ٢٦٦ يومًا، ويُتوقع الوضع بعد ١٤٧ (+ أو - ١٥) يومًا منذ الشعور بحركة الجنين، فتكون الفترة السابقة على حركة الجنين: ٢٦٦ - ١٤٨ =

١١٨ يوماً وهي نفس الفترة في القرآن بالعمر الجنيني: مدة أربعة أشهر: $4 \times 29.5 = 118$ يوماً وهي نفس المدة علمياً لرصد حركة الجنين.

موعد التبويض في الدورات الحوضية: يحدث التبويض غالباً في منتصف الدورات النموذجية (اليوم ١٤) وكقاعدة عامة مهما اختلف طول الدورات يحدث التبويض قبل اليوم المتوقع لحيض الدورة التالية بأسبوعين كفترة ويرجع الاختلاف في موعد التبويض إلى الفترة قبل التبويض لذا فهو يقع في اليوم ١٤، ٢١ - ٧ = ١٤ يوماً.

ويظهر الحمل بشعور المرأة بالثقل ونمو البطن ليؤيد انقطاع الحيض والعلامات الثانوية في نهاية ثلاث دورات حيض منتظمة معتادة (١٢ أسبوعاً) قد عبر عنها القرآن بثلاثة قروء وبهذا يسبق القرآن في اعتماد العمر الحيضي للحمل بالإضافة إلى اعتماد العمر الجنيني: مدة ٣ قروء = $3 \times 28 = 84$ يوماً (من بدء آخر حيضة).

١٢ أسبوعاً = $12 \times 7 = 84$ يوماً منذ بدء آخر حيضة.

هل القرء يراد به الحيض أم الطهر؟

رغم تباين اجتهادات الفقهاء في الاستدلال فإن "براءة الأرحام" متحققة في كافة الأحوال لأن عدة الحمل تعتبر لأدنى قرينة، واعتبار أي من قرائن الحمل وخاصة انقطاع الحيض يمنع ذوات الدورات القصيرة من الإفلات وكل اجتهاد يمكن اعتباره تجاوزاً لمدة العدة في النص الوثيق للقرآن فهو في جهة الاحتياط، ولن يحدث حمل عادةً وفق تقدير الله لوظيفة الإنجاب إلا بجماع مثمر في منتصف الدورات، والفقهاء يحددون بداية الاعتداد منذ وقوع حادثة الفراق أي الطلاق أو الإيلاء أو وفاة الزوج، فإذا تخلف الفراق عن يوم الوقاع المثمر ظهر الحمل قبل نهاية العدة ومدة التخلف احتياط وإذا وافق الوقاع المثمر بدء الفراق ظهر الحمل وتطابقت مواعيد علاماته مع مواعيد الاعتداد.

إن تشريع العدة في القرآن ليس له نظير في كل حضارات العالم القديمة ومدونات الأديان وأحكام العدة عالمية باقية لأنها توافق طبيعة التكوين الواحدة لتؤيد أن نبوة محمد ﷺ خاتمة، ويكفي التطابق التام بين مواعيد ظهور علامات الحمل

القاطعة كما قررها العلم الحديث ومواعيد الاعتداد التي جاءت بها النصوص كبيّنة على التنزيل لأن الدلالات العلمية وخاصة الرقمية حاسمة لا تحتاج لقريحة ذات ذوق مخصوص لتدركها.

ادعوه لآبائهم

ما من شيء جاء به الإسلام إلا وأظهرت الأيام صدقه وفائدته للناس جميعاً، ومن التشريع الإسلامي قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ٤ ﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ ﴾ (الأحزاب: ٤ - ٣).

يُطلق "التبني" في عرف الناس ويُراد به أمران:

الأول: القيام على تربيته، والعناية به، مع عدم تغيير نسبه.

والثاني: القيام على تربيته، والعناية به، مع نسبة ذلك المُتَّبَنَّى إلى أسرة المُتَّبِنِ، وجعله واحداً من أفرادها.

ولا شك أن الأمر الثاني هذا كان جائزاً أول الإسلام، ثم أبطل الله ﷺ التبني، وأمر بأن يُدعى كل واحدٍ لأبيه من النسب، ومن لا يُعرف له أب: فيقال: فلان أخو فلان، أو: فلان مولى فلان.

والنسب يتبعه كثير من الأحكام، كالرضاع، والحضانة، والولاية، والنفقة، والميراث، والقصاص، وغيرها.

وأما الأمر الأول، وهو العناية بطفل، يتيم أو فقير، وتربيته كترية المرء لولده، من غير تغيير نسبه الحقيقي: فليس بمحرّم، بل هو من أجلّ الأعمال، وخاصة في حال كون ذلك المرَبَّى من الأطفال المشردين في الحروب، أو من الذين فقدوا أسرهم جميعها في حادث، أو حرب.

وفي كلا الحالين السابقين لا تأخذ الأسرة المتبنية، أو المربية حكم أسرة الطفل الحقيقية، من حيث البر، والصلة، والطاعة؛ لأن ذلك إنما هو للوالدين في النسب.

وقد ذكر العلماء أن القضاء على التبني ليس معناه القضاء على المعاني الإنسانية، والحقوق الإسلامية، من الإخاء، والوداد، والصِّلات، والإحسان، وكل ما يوحي بفعل المعروف.

فهناك فروق بين التبني وكفالة اليتيم:

أما التبني: فهو أن يتخذ الرجل يتيمًا من الأيتام فيجعله كأحد أبنائه الذين هم من صُلبه ويُدعى باسمه ولا تحل له محارم ذلك الرجل فأولاد المتبني إخوة لليتيم وبناته أخوات له وأخواته عماته وما أشبه ذلك. وهذا كان من فعل الجاهلية الأولى. وظل كذلك في أول الإسلام حتى حرم الله ﷻ ذلك.

وقد حرم الله تعالى التبني لأن فيه تضييعًا للأنساب وقد أمرنا بحفظ أنسابنا. فإن تحريم بنات المتبني مثلًا على اليتيم فيه تحريمٌ للمباح الذي لم يجرمه الله تعالى، واستحلال الميراث من بعد موت المتبني مثلًا فيه إباحة ما حرم الله لأن الميراث من حق الأولاد الذين هم من الصُلب. وقد يُحدث هذا الشحنة والبغضاء بين المتبني وأولاد المتبني لأنه سيضيع عليهم بعض الحقوق التي ستذهب إلى هذا اليتيم بغير وجه حق وهم بقرارة أنفسهم يعلمون أنه ليس مستحقًا معهم.

وأما كفالة اليتيم فهي أن يجعل الرجل اليتيم في بيته أو أن يتكفل به في غير بيته دون أن ينسبه إليه، ودون أن يحرم عليه الحلال أو أن يحل له الحرام كما هو في التبني، بل يكون الكفيل بصفة الكريم المنعم بعد الله تعالى، فلا يقاس كافل اليتيم على المتبني لفارق الشبه بينهما ولكون كفالة اليتيم مما حث عليه الإسلام.

ولكن يجب التنبيه على أن هؤلاء الأيتام متى بلغوا الحلم يجب فصلهم عن نساء الكافل وبناته، وأنه لا يُصلح من جانب ويُفسد من جانب آخر كما أنه ينبغي العلم بأن المكفول قد تكون يتيمة وقد تكون جميلة تُشتهي قبل البلوغ فيجب على الكافل أن يراقب أبنائه من أن يقعوا بالمحرمات مع الأيتام لأن هذا قد يحدث ويكون سببًا للفساد الذي قد يعسر إصلاحه.

تزوج بأخته:

ومن الأشياء التي نشرتها الصحف الغربية حديثًا، أن في ألمانيا تزوج أخُّ بأخته وأنجبا أربعة أطفال!! ولكن كيف بدأت القصة، وما علاقة هذه القصة بالإعجاز التشريعي الذي جاء به القرآن الكريم؟

لقد تعرف الأخ "باترك" إلى أخته "سوزان" بالصدفة، فقد ولدا قبل عشرين عامًا من أم تخلت عنهما، ولكن إحدى العائلات قررت أن تتبنى "باترك"، وعائلة أخرى تبنت "سوزان". وبما أن القوانين الغربية تسمح بالتبني وتنسب الابن لغير أبيه، مخالفةً بذلك شريعة الله تعالى، فقد أخذ كل ولد منهما نسبًا مختلفًا.

وعندما تلاقيا بالمصادفة وأحسًا بأن كل واحد منهما ينجذب للآخر قررا الزواج، ولكن بعد ذلك تبين لهما أنها أخوين، ولكن الغريب أنهما وبالرغم من ذلك قررا الاستمرار، وبعد أن تم عرض موضوع زواجهما على المحكمة لم تسمح به، ولكنها يدافعان عن زواجهما بشدة.

وعلى الرغم من تحذير الأطباء لهما ومن تحذير رجال القانون ورجال الكنيسة إلا أنها يعتبران أن القانون الذي يحرم زواج المحارم خاطئ! ويجب تغييره، وبالفعل هناك دولة هي السويد تبيح مثل هذا الزواج ولا عقوبة لمن يقوم به!

المهم أن هذين الطفلين لو تمت نسبتها لأبيهما لم تعد هناك مشكلة، لأن كل واحد منهما سيعرف أنه أخ للآخر، وبالتالي يدرء عن أنفسهما هذه الجريمة، فانظروا إلى أهمية أن يلتزم الإنسان بالتشريع الإلهي.

شيء آخر انتشر الآن في الغرب لدى غير المسلمين خاصة، وهو مطالبة بعض رجال القانون والتشريع بإلغاء القوانين التي تحرم زواج المحارم ويعتبرون هذه القوانين أنها تحد من حرية الفرد! ومع أن الأطباء يحذرون من هذا النوع من أنواع الزواج إلا أن هذه التحذيرات لا تجد أي اهتمام.

تؤكد الأبحاث الطبية أن الزواج بين الأخ والأخت يؤدي إلى مخاطر وبخاصة إذا تم الإنجاب، فإن نسبة أن ينجبا ولدًا معوقًا هي ٥٠٪ ومن هنا ربما ندرك أيضًا لماذا حرم الإسلام نكاح المحارم. ولكن للأسف نرى هذه الظاهرة (ظاهرة الزنا بين المحارم) قد تفشّت في بلاد الغرب بنسب مرتفعة.

العجيب أن بعض الباحثين يؤكدون على أهمية أن يتم نسبة الولد لأبيه!! وذلك لعلاج هذه الظاهرة. ويقولون من الضروري للولد أن يعرف أباه الطبيعي، وألا يتم

تسميته باسم عائلة أخرى بل باسم أبيه الحقيقي لأننا حاولنا إخفاء أو تغيير اسم الأب الحقيقي سيظهر ذلك يوماً ما!

وتظهر أهمية التشريع الإلهي - أن ننسب الأولاد لأبائهم - في هذا العصر حيث نلاحظ زيادة كبيرة في نسبة الأولاد غير الشرعيين، ففي دولة "متقدمة" مثل السويد وبسبب إلغائها للقوانين الأخلاقية، فإن نسبة الأولاد غير الشرعيين تصل إلى أكثر من ٥٠ بالمائة!! ماذا تنتظر من مجتمع نصفه غير شرعي؟! لا بد أنه سينهار في النهاية.

كذلك هناك مشاكل كثيرة يسببها نظام التبني في الدول الغربية، فالوالد الجديد يجدع الولد عندما ينسبه له ويدعي أنه أباه، وهذه مشكلة بحد ذاتها لأن الولد سيكتشف الحقيقة آجلاً أو عاجلاً، وبالتالي ستسبب له اضطرابات نفسية ويبدأ رحلة البحث عن أبويه الحقيقيين.

كذلك الأولاد الذين تم تبنيهم من قبل عائلات فإن هذه العائلات لا تعطيهم الاهتمام والرعاية الكافية، ولذلك ينشأ هذا الولد نشأة غير طبيعية من الناحية النفسية، ولكن عندما يدرك هذا الولد أن أباه الحقيقي تخلى عنه، وأن الذي يقوم على تربيته هو أب آخر سوف يزداد احتراماً لهذا الأب ولن ينشأ لديه نوع من الفصام بسبب هذا التناقض.

عندما نجد العلماء اليوم ينادون بضرورة انتساب الأبناء لأبائهم وذلك بعدما أدركوا خطورة تغيير اسم الأب وأدركوا المشاكل التي سببتها ظاهرة التبني، أليس هذا ما نادى به القرآن قبل أربعة عشر قرناً؟ لنقرأ ونتأمل هذا التشريع الإلهي المحكم: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (الأحزاب: ٥).

الرضاعة التامة بين العلم والقرآن

من الأمور التي أشار إليها القرآن الكريم وأكّدها الطب الحديث، أهمية حليب الأمّ لولدها الرضيع. فقد وجد العلماء أن الغذاء التام للطفل هو من حليب أمه، وأن هذا الغذاء لا يكتمل إلا إذا أرضعت الأم ابنتها سنتين كاملتين. فتأمل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ (البقرة: ٢٣٣). إنه نداء إلهي يطلب من كل أم أن ترضع أطفالها، ورحمة بهن فقد حدد لهن المدة المثالية للإرضاع وهي حولان كاملان.

ونلاحظ أن القرآن الكريم استعمل لفظ ﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾ ولم يقل «والأمّهات»، فلبن الرضاعة المثالي هو لبن الوالدة وليس لبن المرضعة الأم. إن من ميزات لبن الأمّ أنه معقم بطبيعته، وأنه مخزون في حرز متين بعيد عن التلوث، ومن ميزاته أن تركيبه يختلف من وقت لآخر، فتزداد كميّة الدسم فيه - على سبيل المثال - مع تقدّم الطفل في العمر، ومع ازدياد قدرة معدته على هضم الغذاء الذي يتناوله.

وقد حدّد القرآن الكريم فترة حولين كاملين لإرضاع الطفل، ثمّ بعدها أوجب فطامه، لأنّ لبن الوالدة يصير في هذه الأثناء مائعاً يفتقر إلى الكثير من عناصره المغذية، فلا يعود قادرًا على تأمين حاجة الطفل إلى الغذاء، إضافة إلى أنّ هذا الطفل ينبغي - وقد أدرك هذه المرحلة - أن يعتمد على نفسه في التغذية.

١ - في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ أمر إلهي لكل أمّ أن ترضع أبناءها من لبنها، ولا تلجأ إلى غذاء آخر، وهذا النداء نسمعه اليوم بكثرة في الولايات المتحدة الأمريكية، من منظمة الصحة العالمية ومنظمة اليونيسيف، بسبب الفوائد العظيمة التي اكتشفها العلماء في حليب الأم. إن نزول هذه الآية كان قبل المعرفة البشرية بأربعة عشر قرنًا!

٢- في قوله تَعَالَى: ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ تحديد دقيق للمدة اللازمة للإرضاع الطبيعي للطفل بحولين كاملين، واليوم نجد الأطباء يؤكدون على أن المدة المثالية للإرضاع هي سنتان. وكلمة ﴿ كَامِلَيْنِ ﴾ فيها تأكيداً على أهمية إكمال السنتين، ولو تأملنا أقوال الأطباء في القرن الحادي والعشرين نجدهم يؤكدون وبإصرار على ضرورة إرضاع الطفل من ثدي أمه سنتين كاملتين.

٣- في قوله تَعَالَى: ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ ﴾ إشارة إلى أن الرضاعة لا تتم إلا بعد مرور سنتين من عمر المولود. وقد اكتشف العلماء أن هاتين السنتين هما الأهم من عمر الطفل، حيث تعتبر هذه الفترة مرحلة حرجة يتكون خلالها الجهاز المناعي للطفل، وأن العديد من الأمراض تصيب الطفل خلال هاتين السنتين، ولذلك هم يؤكدون على أهمية أن ترضع الأم طفلها سنة كاملة والأفضل أن تتم الرضاعة إلى سنتين!

لقد كان الأطباء يظنون أن الرضاعة الطبيعية تكسب الطفل ارتباطاً نفسياً مع أمه فقط، وليس هنالك أية منافع أخرى، ولكن بعد إجراء البحوث على مدى نصف قرن بدأت تظهر الفوائد الكبيرة لهذا الإرضاع، بل إن العلماء في كل يوم يكشفون منافع جديدة لحليب الأم. فالأجسام المناعية المسماة بـ immunoglobulins اكتشفت أولاً في حليب الأم. وهي أجسام مضادة للبكتيريا والفيروسات بأنواعها. بل إن العلماء وجدوا أن كمية البكتيريا في أمعاء الطفل الذي يتغذى على حليب البقر أكبر بعشرة أضعاف من تلك الموجودة في أمعاء الطفل الذي يرضع من صدر أمه.

منافع الإرضاع الطبيعي:

تكاد البحوث العلمية في مجال تغذية الأطفال المولودين تجمع على أن الرضاعة هي الوسيلة الأنفع لهم على الإطلاق، حيث إنه قد ثبت حديثاً أن اللبن البشري خاصة من الأم لا يسبب أي حساسية للطفل؛ بينما قد تبلغ نسبة أمراض الحساسية في الرضّع نتيجة الرضاعة الصناعية بالألبان الحيوانية حوالي ٣٠٪، وقد تسبب تلك الألبان عسر هضم؛ فضلاً عن عواقب إهمال تعقيم القارورة وما قد يؤدي إليه من نقص في التغذية أو الجفاف نتيجة الإسهال؛ والذي قد ينتهي بالوفاة، فوفق منظمة الصحة العالمية أكثر

من مليون طفل يتوفون سنويا في العالم الثالث نتيجة أمراض الجهاز الهضمي والإسهال، وأكثر من تسعة ملايين طفل يصابون بنقص شديد في التغذية، وأغلب تلك الحالات ناتج عن استخدام الألبان الصناعية.

وقد أظهرت الدراسات الحديثة أن لبن الأم خاصة اللبأ - الذي يفرز في الأيام الأولى - يمد الطفل بحماية ضد عوامل بيئية تؤدي إلى تدمير خلايا البنكرياس التي تفرز الأنسولين، وأن الاعتماد على ألبان الأبقار يفقد الرضيع تلك الحماية، فيتعرض بنسبة أكبر من الرضع بألبان أمهاتهم للإصابة بداء السكري، ويعضد هذا الاستنتاج وجود أجسام مضادة بنسب مرتفعة لبروتين لبن البقر في دماء الأطفال المصابين بداء السكري بالمقارنة مع الأطفال غير المصابين بالمرض.

وقبل تكامل عمل الجهاز الهضمي يمكن لبروتين لبن الأبقار أن يمر بدون هضم من خلال حلقات الغشاء الداخلي الغير مكتمل، وعدم تمكن الإنزيمات من تكسيره بشكل كلي إلى أحماض أمينية مما يحفز على تكوين أجسام مناعية ضده، والمدهش أن تتواجد تلك الأجسام المناعية ضد لبن البقر بنسبة عالية في دماء الأطفال الذين تناولوه قبل عامين؛ بينما لا تتواجد في دماء الأطفال الذين تناولوا لبن البقر بعد عامين؛ مما يتفق تمامًا مع تمام مدة الفطام التي حددها القرآن الكريم؛ فضلا على تكامل الأمعاء وتكامل المخ بعد اكتمال العامين بحيث يماثل في هيئته مخ الشخص البالغ علامة على التكامل العام.

ومن الجانب النفسي نجد أن إرضاع الأم لوليدها ينشئ علاقة خاصة بينهما تشبع رغبة الأمومة عند الأم وتشبع متطلبات الوليد، ومن الجانب العضوي فإن اللبن البشري هو الأنسب للوليد، وأن ألبان الحيوان قد تحمل شيئاً من الضرر.

فالرضاعة الطبيعية هي أفضل أنواع الغذاء على الإطلاق للطفل، وجميع أنواع الغذاء الأخرى تختلف بدرجة كبيرة عن حليب الأم، هذا الحليب الذي يحمي الطفل من كثير من الأمراض. وحليب الأم يحوي دائماً نسباً طبيعية من البروتين والسكريات

والدسم، وهذه النسب يصعب التحكم فيها في حليب البقر وغيره. كذلك حليب الأم دائماً يخرج بدرجة الحرارة الصحيحة والمناسبة للطفل.

منافع للطفل:

● إن الأجسام المناعية immunoglobulins تساعد الطفل خلال الأشهر الأولى على حماية أجهزة جسمه من الهجوم الجرثومي المتكرر الذي يتعرض له، بل وتساعده أيضاً في تشكيل جهازه المناعي الخاص وتقويته. كما تشير بعض الدراسات إلى أن جهاز المناعة لدى الطفل ينمو بسرعة أكبر عندما يتغذى على حليب الأم.

● يحوي حليب الأم أيضاً مواد مناعية تسمى mucins هذه المواد تحوي الكثير من البروتينات والكاربوهيدرات وهذه المواد تلتصق بالبكتريا والفيروسات وتزيلها من جسم الطفل نهائياً دون أي تأثيرات جانبية، بعكس الأدوية الكيميائية.

● إن البروتين الموجود في حليب البقر مثلاً يعادل ضعف الكمية الموجودة في حليب الأم، ولذلك لا يستطيع الطفل أن يمتص هذه الكمية من البروتين البقري، فيخترنها في جسده مما يؤدي مستقبلاً لأمراض السمنة. بينما نجد أن الطفل يمتص البروتين الموجود في حليب الأم بنسبة ١٠٠٪. كما بينت الدراسات أن المدة اللازمة لهضم البروتين في حليب الأم من قبل الطفل هي ١٥ دقيقة، بينما تستغرق العملية ذاتها مع حليب البقر أكثر من ٦٠ دقيقة. إذن هنالك توفير في الوقت والجهد.

● يؤكد جميع الأطباء أن حليب الأم خالٍ تماماً من البكتريا وأنه الأفضل للطفل من أي حليب صناعي. فقد لاحظ الأطباء أن الأطفال الذين يتناولون الحليب الصناعي بالزجاجة غالباً ما يتعرضون لمختلف الإصابات حتى ولو كانت هذه الزجاجة معقمة!

● انخفاض حدوث الالتهابات الميكروبية لأن لبن الأم معقم جاهز بينما ألبان القارورة تحتوي على العديد من الميكروبات وخاصة في العالم الثالث. ويمكن إنقاذ ملايين الأطفال الذين يتوفون سنوياً بمجرد الرضاعة.

- يحتوي لبن الأم على مضادات الأجسام والبروتينات المناعية ومجموعة كبيرة من خلايا الدم البيضاء المقاومة للأمراض بالإضافة إلى أكثر من مائة أنزيم.
- يحتوي لبن الأم على عامل مهم ينمي نوعاً من البكتريا المفيدة التي تستوطن الأمعاء والتي تقوم بوقاية الطفل من كثير من أمراض الجهاز الهضمي. وتدعى هذه البكتريا العصية اللبنية المشقوقة.
- يحتوي لبن الأم على مادة الانترفيرون الهامة والتي تقاوم الفيروسات.
- يحتوي لبن الأم على مواد مضادة للسموم وبالذات سموم بكتريا (ضمات) الكوليرا.
- لا يسبب لبن الأم أي حساسية للطفل بينما تبلغ نسبة أمراض الحساسية في الألبان المجففة ٣٠٪ من الأطفال الذين يتناولونها.
- لبن الأم فقير في الحامض الأميني فينيلال الآنين، وبالتالي فإن الأطفال الذين يعانون من مرض وراثي يسمى "بيلة فينيلال كيتون" يستطيعون أن يرضعوا من أمهاتهم دون حدوث مضاعفات خطيرة ويمنعون منعاً باتاً من الألبان المجففة المصنعة لاحتوائها على كميات كبيرة من الحامض الأميني فينيلال الآنين. ولا بد من تصنيع أغذية لا يوجد بها هذا الحامض الأميني.
- لبن الأم غني بالزنك. ولذا فإن الأطفال الذين يعانون من مرض وراثي خطير لا تظهر عليهم أي أعراض طالما كانوا يرضعون من أمهاتهم أو من مرضعات بشريات، ولا بد أن تستمر الرضاعة في هذه الحالة حولين كاملين. أما إذا اعتمد الطفل على ألبان الأبقار فإنه يصاب بالمرض بصورة خطيرة جداً وغالباً ما يتوفى دون الحولين.
- وفاة المهد تكثر نسبياً لدى الأطفال الذين يتغذون بالقارورة والألبان المصنعة، بينما هي نادرة جداً لدى الأطفال الذين يتغذون على الألبان المصنعة.
- لا يعاني الأطفال الذين يرضعون من أمهاتهم من الإمساك أو الإسهال إلا نادراً جداً بالمقارنة مع من يتغذون على الألبان المصنعة.

● الرضاعة تساعد على تكوين الأسنان وجعل الفك سليماً دون اعوجاج بينما التقام القارورة قد يؤدي إلى اعوجاج وسوء نمو الأسنان مما يجعلها تحتاج إلى عمليات تقويم فيما بعد.

● الرضاعة تحمي من مجموعة خطيرة من الأمراض منها البول السكري الذي يصيب الأطفال (النوع الأول)، وتصلب الشرايين، وبعض أنواع السرطان، والسمنة. وتخفف من وقع أمراض وراثية كثيرة وخطيرة مثل التليف الكيسي، وبيلة فينايل كيتون، ومرض نقص الزنك الوراثي، ومرض سيلياك (المرض الجوفي) الذي يصيب الجهاز الهضمي. وكل هذه الأمراض تحدث بصورة أخف لدى من يرضعون من أمهاتهم بالمقارنة مع من يلتقمون القارورة.

● لا يحدث الكساح لدى من يرضعون بينما يحدث الكساح بنسبة غير قليلة لدى الأطفال الذين يتغذون على ألبان الأبقار المجففة. وذلك لأن لبن الأم (أو المرضع) يحتوي على كمية ذائبة من فيتامين (د) يسهل امتصاصها، بينما لبن الأبقار يؤدي إلى فقدانه جزءاً مما يحويه من الفيتامينات.

● يمتص الأطفال الذين يرضعون من أمهاتهم الحديد بصورة أفضل من أولئك الذين يتغذون بألبان الأبقار. وذلك لوجود مادة "لاكتوفرين" في لبن المرضع وهي مادة تساعد على امتصاص الحديد. كما أن في لبن الأم مادة بروتينية أخرى تتحد بالحديد وأجزاء من الخلايا بحيث لا يترك الحديد حرّاً في الأمعاء. وقد وجد أن الحديد الحر مهم لنمو بعض البكتريا العدوانية. وبالتالي فإن حرمان هذه البكتريا من الحديد يؤدي إلى إضعافها وسهولة القضاء عليها.

- تؤدي التغذية بالألبان المجففة للمواليد إلى زيادة في عدد من الهرمونات في جسم الطفل مثل الأنسولين والموتولين والنيوروتنسين. وهذه كلها لها علاقة بأمراض الاستقلاب^(١) التي تكثر عند مَنْ يُعَدُّون بالألبان الأبقار وتندر فيمن يرضعون.
- يحتوي لبن الأم على أحماض دهنية غير مشبعة وحيدة ومتعددة وهي أحماض دهنية هامة لبناء الجهاز العصبي بينما يحتوي لبن الأبقار على أحماض دهنية مشبعة لها علاقة فيما بعد بتصلب الشرايين والسمنة. كما توجد في لبن الأم خمائر خاصة تساعد على تحلل الدهون وسهولة امتصاص الكالسيوم.
- يحتوي لبن الأم على المعادن المطلوبة بكميات متناسبة متناسقة يسهل امتصاصها أما لبن الأبقار فيحتوي على كميات أكبر غير ذات فائدة، بل تسبب إرهاقاً لكليّة الطفل من أجل طردها. ولهذا فإن الأطفال الذين يتغذون على ألبان الأبقار المجففة أكثر عرضة للإصابة بأمراض الكلى من الأطفال الذين يرضعون من أمهاتهم (أو المرضعات).
- الفوائد النفسية العديدة للطفل الذي يشعر بدفء الأمومة عند التقامه الثدي. فحليب الأم يمنح الطفل الاستقرار النفسي ويساعده على النوم والتهديئة. ويعمل كأفضل مسكن طبيعي للطفل.
- يساعد حليب الأم الطفل على تطوير جهازه الهضمي بشكل صحيح. حيث يعتبر حليب البقر مثيراً للأمعاء.
- إن حليب الأم يقي الطفل من مرض الحساسية فهو يوقف عنده تطور هذا المرض.
- الرضاعة الطبيعية تقي الطفل من كثير من الأمراض التنفسية أهمها مرض الربو.

(١) استقلاب: أيض: تحوّل الغذاء إلى طاقة.

- الرضاعة الطبيعية تقي الطفل من أمراض الأذن والتهاباتها المتكررة.
- الرضاعة الطبيعية تقي الطفل من التهاب السحايا.
- الرضاعة الطبيعية تقي الطفل من نخر العظام ومن الأكزيما، ومن تقرحات المعدة.

- الطفل الذي يتغذى على صدر أمه يكون جلده أنعم من ذلك الطفل الذي يتغذى بحليب البقر، ويكون مستوى الرؤية عنده أفضل أيضًا.

منافع للأم:

- أثبتت كثير من الأبحاث أن الرضاعة تلعب دورًا وقائيًا للحماية من سرطان الثدي وسرطان الرحم.
- إن الرحم يتوسع ٢٠ مرة أثناء الحمل والولادة، وقد بينت الدراسات أن الإرضاع الطبيعي يساعد على عودة حجم الرحم للحدود الطبيعية، بعكس الأم التي لا ترضع طفلها فإن حجم الرحم يبقى عندها أكبر من الحدود الطبيعية. فتنبه عملية الرضاعة أثناء مص الثدي الغدة النخامية الخلفية لتفرز هرمون الأوكسيتوسن. وهو هرمون مهم جدًا لإعادة الرحم المتضخم بعد الولادة إلى حجمه ووضعته الطبيعي. وبالتالي يمنع النزف الشديد أثناء النفاس كما أنه يقي الأم من حمى النفاس الخطيرة.
- إن الرضاعة الطبيعية تساعد الأم على إنقاص وزنها وتقيها من السمنة.
- إن الرضاعة الطبيعية تعمل كمسكن طبيعي للأم أيضًا! إن الإرضاع الطبيعي يساعد الأم على النوم، ويساعد الطفل على النوم أيضًا.
- لبن الأم جاهز ومعقم ولا يحتاج إلى تحضير ومعاناة.
- تستفيد المرضع بعودة جسمها كله إلى وضعه الطبيعي قبل الحمل، وبالتالي تساعد الرضاعة على الرشاقة والحفاظ على الصحة.
- تقي الرضاعة الأم من الجلطات التي قد تحدث أثناء فترة النفاس.

● الرضاعة التامة خلال الأشهر الستة الأولى تعتبر من أهم وأفضل وسائل منع الحمل.

منافع للمجتمع:

● توفر الرضاعة من الأم ثمن الألبان المجففة وهي تبلغ آلاف الملايين من الدولارات سنوياً. إن الإرضاع الطبيعي غير مكلف بعكس الإرضاع الصناعي، ففي بداية الثمانينات من هذا القرن كانت الدول النامية (العالم الثالث) تستورد ما قيمته ألفي مليون دولار سنوياً من الألبان المجففة. وربما نذهل إذا علمنا أن الأكاديمية الأمريكية لطب الأطفال تؤكد أن الولايات المتحدة الأمريكية لو اتبعت أسلوب الرضاعة الطبيعية فإنها ستوفر كل سنة ٣٦٠٠ مليون دولار.

● إن الرضاعة الطبيعية تنعكس إيجابياً على البيئة أيضاً! وذلك بسبب توفير التلوث الناتج عن عمليات تصنيع زجاجات الحليب وتجفيف حليب البقر، والنفايات الناتجة عن استهلاك هذا الحليب وهذه الزجاجات.

● توفر الرضاعة آلاف الملايين من الدولارات سنوياً التي تنفق على مداواة الأمراض الخطيرة الناتجة عن التغذية بالقارورة.

● تنقذ الرضاعة حياة ملايين الأطفال الذين يُتَوَفَّون، وخاصة في العالم الثالث بسبب عدم التعقيم والإسهال، وهذه لا يمكن أن تقدر بثمن. إذ أن حياة طفل واحد أعلى من أموال الدنيا كلها.

● تنقذ الرضاعة اليافعين والشباب من الانحرافات النفسية. وهذه لها مردود اجتماعي واقتصادي يقدر بآلاف الملايين من الدولارات سنوياً.

● تقلل الرضاعة من إصابة البالغين بأمراض عديدة خطيرة مثل تصلب الشرايين والبول السكري وسرطان الثدي وسرطان الرحم. وهذه لها مردود صحي بالغ ومردود اقتصادي يقدر بآلاف الملايين من الدولارات سنوياً.

ما هي المدة المثالية للإرضاع؟

لقد قامت منظمة الصحة العالمية ومنظمة اليونيسيف بالعديد من الأبحاث على الأطفال الرضع، وخرجوا بنتيجة أبحاثهم أن المدة المثالية هي سنتان! لأن الطفل خلال السنتين الأوليين من عمره يكون بحاجة ماسة لحليب معقم مثل حليب الأم، ولأن جهازه المناعي لا يستطيع مواجهة أي مرض محتمل قبل سنتين من عمره.

لقد اكتشف العلماء أن حليب الأم يحوي مواد مناعية مضادة للجراثيم، مع العلم أن الجنين في بطن أمه يستمد الأجسام المناعية منها طيلة فترة الحمل، وعندما يخرج هذا الجنين يكون محاطاً بعوامل كثيرة ممرضة، ولذلك فهو بحاجة لمناعة إضافية لا يجدها إلا في حليب الأم، فسبحان الله الذي هياً له هذا المصدر الطبيعي من الحماية.

لقد عقدت منظمة الصحة العالمية عام ٢٠٠١ مؤتمراً جاء في نتيجته: «إن السنتين الأوليين من حياة الطفل هما نافذة حرجية يتم خلالها بناء التأسيسات للنمو والتطور الصحي. إن تغذية الطفل الرضيع هي بعد جوهرية للعناية خلال هذه الفترة».

وجاء في نتيجة المؤتمر أيضاً أن المدة المثالية للإرضاع هي سنتان، لأن الطفل خلال هاتين السنتين يكون بحاجة ماسة للأجسام المناعية لتطوير جهازه المناعي، وهذه الأجسام لا يجدها إلا في حليب الأم.

ولذلك يؤكد الأطباء أن جميع أنواع الأغذية لا يمكن أن تكون كافية للطفل بمفردها خلال السنتين الأوليين من عمر الطفل؛ لأن الطفل يتعرض للكثير من العوامل والتي يصاب بنتيجتها بالعديد من الأمراض، وعندما يبلغ من العمر سنتين، تصبح العوامل ذاتها غير مؤثرة كما كانت من قبل، لذلك عمر السنتين هو عمر حرج وحساس للطفل وينبغي الاعتماد على حليب الأم خلاله لدرء هذه الأخطار.

يقول العلماء اليوم إن الطفل بعد أن يبلغ سنتين من العمر من الصعب جداً أن ينعكس العامل المعيق للنمو والذي كان ممكن الحصول قبل هذه المدة.

كذلك فقد بيّنت الأبحاث الحديثة أن الإرضاع الطبيعي لمدة ٢٤ شهرًا يقي الأم من خطر سرطان المبيض بنسبة الثلث.

إن أهم وأخطر فترة من عمر الطفل هي الستتان الأوليان وخلالهما يتعرض الطفل لكثير من العوامل والأمراض مثل الإسهال. ويستطيع حليب الأم بما يحويه من مواد مناعية أن يحمي الطفل من هذه الأمراض، حتى إن العلماء لا يزالون يجهدون الكثير من تركيب حليب الأم، ولكنهم يلمسون النتائج الرائعة للأطفال الذين يتغذون على حليب أمهاتهم.

فالخلاصة أن هنالك تأكيد من قبل الأطباء على أهمية إرضاع الأم لابنها سنتين كاملتين، وهذا ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّمَ الرِّضَاعَةَ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

الإعجاز التشريعي في تنظيم العمليات التجارية

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ
وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ
وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ
سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ
رَجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ
إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْب الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ
صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ
تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا
تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّعُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ
مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أُوتِئَ مِنْ أَمْنَتِهِ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا
الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاتَمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿البقرة: ٢٨٢ -

(٢٨٣).

معنى الآيتين:

يا من آمنتم بالله واتبعتم رسوله محمدًا ﷺ إذا تعاملتم بدين إلى وقت معلوم
فاكتبوه؛ حفظًا للمال ودفعًا للنزاع. وليُقم بالكتابة رجل أمين ضابط، ولا يمتنع من
علمه الله الكتابة عن ذلك، وليُقم المدين بإملاء ما عليه من الدين، وليراقب ربه، ولا
ينقص من دينه شيئًا. فإن كان المدين محجورًا عليه لتبذيره وإسرافه، أو كان صغيرًا أو
مجنونًا، أو لا يستطيع النطق لخرس به أو عدم قدرة كاملة على الكلام، فليتول الإملاء
عن المدين القائم بأمره، واطلبوا شهادة رجلين مسلمين بالغين عاقلين من أهل العدالة.
فإن لم يوجد رجلان، فاطلبوا شهادة رجل وامرأتين ترضون شهادتهم، حتى إذا نسيبت
إحدهما ذكرتها الأخرى، وعلى الشهاداء أن يجيبوا من دعاهم إلى الشهادة، وعليهم

أداؤها إذا ما دُعوا إليها، ولا تَمَلُّوا من كتابة الدَّين قليلاً أو كثيراً إلى وقته المعلوم. ذلكم أعدل في شرع الله وهدْيِهِ، وأعظم عوناً على إقامة الشهادة وأدائها، وأقرب إلى نفي الشك في جنس الدَّين وقدره وأجله. لكن إن كانت المسألة مسألة بيع وشراء، بأخذ سلعة ودفع ثمنها في الحال، فلا حاجة إلى الكتابة، ويُستحب الإشهاد على ذلك منعاً للنزاع والشقاق، ومن الواجب على الشاهد والكاتب أداء الشهادة على وجهها والكتابة كما أمر الله. ولا يجوز لصاحب الحق ومَن عليه الحق الإضرار بالكتَّاب والشهود، وكذلك لا يجوز للكتَّاب والشهود أن يضارَّوا بمن احتاج إلى كتابتهم أو شهادتهم، وإن فعلوا ما نهيتهم عنه فإنه خروج عن طاعة الله، وعاقبة ذلك حالة بكم. وخافوا الله في جميع ما أمركم به، ونهاكم عنه، ويعلمكم الله جميع ما يصلح دنياكم وأخراكم. والله بكل شيء عليم، فلا يخفى عليه شيء من أموركم، وسيجازيكم على ذلك.

وإن كنتم مسافرين ولم تجدوا مَن يكتبُ لكم فادفعوا إلى صاحب الحق شيئاً يكون عنده ضماناً لحقه إلى أن يردَّ المدينُ ما عليه من دين، فإن وثق بعضكم ببعض فلا حرج في ترك الكتابة والإشهاد والرهن، ويبقى الدَّين أمانةً في ذمَّة المدين، عليه أدائه، وعليه أن يراقب الله فلا يخون صاحبه. فإن أنكر المدين ما عليه من دين، وكان هناك مَن حضر وشهد، فعليه أن يظهر شهادته، ومن أخفى هذه الشهادة فهو صاحب قلب غادر فاجر. والله المُّطَّلِع على السرائر، المحيط علمه بكل أموركم، سيحاسبكم على ذلك.

الإعجاز التشريعي:

قد تحدثت الآياتان عن القوانين التي تنظم العمليات التجارية بين الناس كاللَّيْن والعقود والبيع والشراء، مع إعطاء كل ذي حق حقه، وقد سبق الإسلام في ذلك العالم كله بقرون عديدة.

إن رجال القانون في فرنسا قد وضعوا بعضاً من الأنظمة منذ أكثر من قرنين، وأخذتها معظم الدول العربية فيما بعد على أنها نتاج الحضارة الغربية "المتقدمة" ثم تبين بعد ذلك أن هذه القوانين هي ذاتها في كتاب الله تبارك وتعالى! والذي يثير العجب أن

الله تعالى جمع كل هذه المعاملات في آية واحدة من القرآن وهي آية الدين ولكن بصورة أكثر بلاغة ووضوحًا.

١- نظام التوثيق:

في القرن السابع الميلادي لم يكن مألوفًا لدى العرب أو لدى الأمم من حولهم عملية توثيق البيع والشراء. فقد كانت العمليات التجارية تتم عشوائيًا من دون أي تنظيم، إلا في حدود ضيقة جدًا. وبقي الوضع على ما هو عليه حتى جاء الإسلام عندما أمر النبي ﷺ بتوثيق العمليات التجارية بين الناس.

وبالطبع لم يأت النبي ﷺ بهذا النظام من تلقاء نفسه، بل بأمر إلهي في قوله تَعَالَى: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، ولذلك يمكن القول بأن أول تنظيم للعمليات التجارية تم في العهد الإسلامي. وفي العصر الحديث جاءت الثورة الفرنسية، وبدأت بعدها صياغة مجموعة من القوانين التي تنظم العمليات التجارية.

٢- نظام الكاتب بالعدل:

هذا النظام لم يكن معروفًا في الدول المتقدمة إلا حديثًا، ثم أخذته الدول العربية منها، وهذا النظام موجود في القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنًا في قوله تَعَالَى: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْعَدْلِ﴾، ولذلك يجب القول بأن نظام الكاتب بالعدل والذي يهدف لتوثيق عمليات البيع والشراء بين الناس، هو نظام قرآني وليس نظامًا غريبًا!

ثم إن القرآن أمر بكتابة كافة التفاصيل في العقد، وكتابة العقود فنّ قائم بذاته، لأن كلمة واحدة قد تغير مضمون العقد بشكل كامل، ولذلك فإن القوانين الحديثة تقول بأنه ينبغي كتابة كل التفاصيل صغيرة أو كبيرة، وهذا ما أشار إليه القرآن بقول تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾، تحدد هذه الآية الأجل أو

المدة في العقد، ويقول خبراء القانون، إن أهم ركن من أركان العقد هو الأجل أو مدة العقد أو زمن تسديد الدين!

إن القوانين الحديثة تقول بأنه ينبغي على الكاتب بالعدل أن يكتب الحقيقة كاملة ولا يتواطأ مع أحد الفريقين على حساب الآخر، وهذا ما أكدته القرآن ولم يغفل عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾.

٣- نظام الوليّ والوكالة:

هناك أشخاص ليس لديهم القدرة على البيع والشراء وليسوا مؤهلين قانونياً لمثل هذه العمليات، ومنهم الأطفال والمصابين بأمراض عقلية وهؤلاء أجاز لهم القانون اتخاذ ولي أو وكيل لهم ينوب عنهم في العقد. والقرآن أيضاً قد ذكر هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ وتأمل التأكيد القرآني على العدل دائماً ﴿فَلْيُمِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ لأن العدل أساس النظام القضائي الناجح.

٤- نظام الشهود:

نظام الشهادة مهم جداً لحل أي نزاع قانوني ينشأ بين المتخاصمين، وقد تم تطوير هذا النظام عبر السنين حيث تم وضع ضوابط تنظم عمل الشهود وقد طرح القرآن هذا التشريع بل وأمر به وهو أن يكون هناك شهود على أي عملية تجارية، ونظام الشهود معروف في القوانين الغربية، ويعتبرونه من إنجازاتهم، مع العلم أن القرآن قد سبقهم إلى هذا الأمر قبل ذلك بزمن طويل فقال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، ثم قال بعد ذلك محددًا عدد الشهود اللازم، ولضمان عدم كذب الشاهد: يقول تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن القرآن ميّز بين الرجل والمرأة، فالشهادة عملية دقيقة وحساسة ويتوقف عليها مصالح الناس، وبالتالي فإن شهادة المرأة الواحدة لا تكفي فلا بد من امرأتين، لماذا؟ ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾.

كذلك فإن القوانين الحديثة تؤكد على ضرورة امتثال الشاهد للشهادة أمام القاضي، ولا يجوز له أن يتخلف عنها، ويؤكدون أن ذلك ضروري من أجل نجاح القضاء وتحقيق العدالة. العجيب أن القرآن لم يغفل ذلك!! يقول تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾.

كذلك حدد القرآن نوعية الشهود وأن يكونوا صادقين: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾، وهذا ما تقول به القوانين الحديثة، حيث يطلب القاضي أن يكون الشاهد عدلاً صادقاً، ولا تقبل شهادة الكاذب أو الذي اشتهر بالكذب.

٥- نظام التجارة الحاضرة:

يقول خبراء القانون: ليس ضرورياً كتابة كل شيء في العمليات التجارية الجارية، حيث يتعذر على التاجر أن يكتب العمليات التي تتم بالبيع نقداً دون أجل، وبالتالي فإن ذلك يسهل الكثير من العمليات التجارية الجارية، والعجيب أن القرآن قد أشار إلى ذلك ولم يغفل عنه، يقول تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾، فمثل هذا النوع من أنواع البيع والشراء ليس ضرورياً أن يكتب أو يوثق.

والقرآن يؤكد دائماً على نقطة لا نجدتها في القوانين الوضعية، وهي أن الله تعالى يعلم كل شيء، ويعلم ما في النفوس، ولذلك قال: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وهذا أسلوب نفسي رائع لضمان تطبيق هذه القوانين وعدم التلاعب فيها، أو التحايل على القانون كما نراه اليوم. فعندما تدرك أيها البائع أو أيها المشتري أن الله يعلم ما تفكر فيه، ويعلم نيتك وسوف يحاسبك عليها، والعقوبة ستكون نار جهنم، عندها لا بد أن تنضبط وتطبق ما أمرك الله تعالى به، وهنا تتجلى روعة هذه القوانين الإلهية.

٦- نظام الرهن:

هناك نظام مهم في العمليات التجارية هو الرهن، وربما نتذكر الأزمة المالية العالمية وأحد أسبابها إساءة هذا النظام، وعقد صفقات وهمية مع البنوك، مما أدى إلى انهيار النظام المالي العالمي. هذا الرهن تحدث عنه القرآن ونظمه بقول تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ ولذلك فإن القرآن سبق القانونيين في الغرب إلى مثل هذا النظام، ولم يكتف بذلك (كما تفعل البنوك اليوم) بل أمر بأداء الأمانة بقوله تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أَوْثَقَ أَمْنَتَهُ، وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾، وسبحان الله! لو تأملنا معظم الدعاوى والشكاوى في المحاكم وجدناها تحت بند "إساءة الأمانة"، ولو أن الناس طبقوا هذه الآية لزال كل المشاكل والقضايا التي تساهم في دمار الاقتصاد العالمي.

٧- نظام حماية الشهود وعقوبة الشهادة الكاذبة:

يؤكد المشرعون حديثاً على ضرورة الاهتمام بموضوع حماية الشهود، وهذا الموضوع أخذ مساحة كبيرة من المؤتمرات والمناقشات بهدف تحسين حماية الشهود، حتى إن بعض القانونيين يعتبرون أن النظام القضائي لن يكون ناجحاً من دون تأمين الحماية الكافية للشهود، وعدم خوفهم من بطش أحد الفريقين المتخاصمين.

ربما نعجب أن هذه الآية العظيمة لم تغفل هذا الجانب المهم، بل أضافت له جانباً مهماً وهو حماية الكاتب بالعدل أيضاً، ولذلك قال تَعَالَى: ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾، وحذر من خطورة الإضرار بالشهود أو بالكاتب، فقال: ﴿وَإِنْ تَفَعَّلُوا فإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾. ومثل هذه التعاليم تجد صدى كبيراً في النفس البشرية.

ولكن الشاهد أحياناً لا يقول الحقيقة كاملة، وهذا يحدث كثيراً في المحاكم، ولذلك قال تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ فهذا أمر صريح بضرورة قول الحقيقة كاملة، وانظروا كيف أن الله تعالى أمر باتخاذ الشهود، ونظم عملهم وأمر بحمايتهم وأمرهم بقول الحقيقة.

وهناك شيء ملفت للانتباه، وهي موضوع التقوى الذي تكرر ثلاث مرات:

• في قوله تعالى: ﴿فَلْيَكْتُبْ وَيُمَلِّلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَيَلْتَقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أمر إلهي بالتقوى وأن الله يراك ويرقبك.

• وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمِكُمُ اللَّهُ﴾. وهنا أمر إليه بالتقوى للجميع (الكاتب والشهود والبائع والمشتري).

• وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أَوْثَمَنَ أَمْنَتَهُ، وَيَلْتَقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أمر بأداء الأمانة وبالتقوى وعدم كتمان الشهادة.

ولكن ماذا يعني ذلك؟ إن مشكلة القوانين الوضعية أنه عند غياب الرقيب، فلا توجد وسيلة فعالة تمنع الإنسان من الخطأ أو الغش أو إساءة الأمانة، ولكن القرآن جعلك تشعر بمراقبة الله لك في كل لحظة، وهنا ضمن التطبيق العملي للقوانين حتى أثناء غياب الرقابة عليه، وهذه هي عظمة التشريعات الإلهية.

كذلك يؤكد خبراء القانون أن وضع القانون لا يكفي إنما ينبغي وضع الآلية التي تضمن تطبيق القوانين، مثل دراسة جدوى هذه القوانين وفائدتها وانعكاساتها على المجتمع، والعجيب أن القرآن لم يغفل هذه الناحية الهامة، ولم يضع القوانين من دون هدف وحكمة وتوجيه، بل وضع التوجيهات اللازمة والتي تضمن تطبيق هذه القوانين، ولذلك فقد وضع لنا الله ثلاثة أهداف من هذه القوانين وهي في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَمْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾.

١- ﴿ذَلِكَ أَمْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾: فقبل كل شيء، يجب أن تشعر بمراقبة الله لك، وعندما تحقق ذلك فإنه يستحيل أن تخون الأمانة أو تغش أو تبخس الآخرين حقوقهم، وهذا ما لم تحققه القوانين الوضعية التي "تهمل" وجود خالق عظيم يتصرف في هذا الكون، ولذلك نرى بأن تطبيق القوانين الوضعية يكون ضعيفاً، وغالباً ما تخضع لتعديلات وإضافات مستمرة، على عكس القوانين الإلهية الثابتة.

٢- ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ﴾: هذا الهدف يحدد الطريقة المثالية للتعامل من خلال توضيح الشهادة، حيث إن معظم النزاعات التجارية التي نراها اليوم، تحدث نتيجة غموض العقد والتباس ذلك على الشهود، ولكن القرآن كان حريصاً على التدقيق على هذه النقطة، أي ضرورة إحكام الشهادة ووضوحها وتوثيقها، وضمان عدم الالتباس والابتعاد عن الأخطاء.

٣- ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾: هذا الهدف مهم جداً لدفع أية شبهة أو خطأ أو ارتياب. ويقول القانونيون والمشرعون، من الضروري جداً أن تتم كتابة العقد بوضوح كامل مراعية كل التفاصيل، وأن يتم دفع أي ارتياب يمكن أن يحدث. ونقول أليس هذا ما أمر به القرآن؟

إن النظام القرآني للعمليات التجارية يتميز بأنه من عند الله تعالى، ولذلك فإنه يمثل أمراً إلهياً من تركه فقد أثم، ومن فعله أخذ الأجر والثواب، وهذا لا نجده في القوانين الوضعية التي جاءت فقط لحماية الحقوق.

قد يقول قائل كيف يمكن بكلمات قليلة أن نختصر كتب القانون التي تملأ المكتبات والجامعات؟ إن المسلمين بفضل هذه التعليمات القليلة بكلماتها ولكنها عظيمة بآثرها، استطاعوا أن يفتحوا العالم وأن يحققوا العدل بشكل لم يحققه أحد على مر العصور!! وهذا يدل على أثر تعاليم القرآن على الناس، ولكننا عندما ابتعدنا عن هذا الكتاب وعن تعاليم الخالق ﷻ، ركبتنا الهموم وأصبحنا أكثر الأمم تخلفاً: غثاء كغثاء السيل!!

وقد يقول آخر: هناك العديد من القوانين في شريعة حمورابي والقوانين الرومانية والقوانين التي كانت سائدة في حضارة الصين والهند وغيرها قبل الإسلام، ونقول: إن هذه القوانين كانت مزيجاً من الصواب والخطأ، بل هذه القوانين كانت تعطي الحصانة المطلقة للملك أو الإمبراطور، والذي فعله الإسلام أنه صحح القوانين الخاطئة، وأبقى على القوانين الصحيحة، وهذا لم يكن باستطاعة بشر يعيش في ذلك الزمن، ولذلك فإن هاتان الآيتان من آيات الإعجاز التشريعي والتي تشهد على صدق القرآن وأنه كتاب

صالح لكل زمان ومكان. فمن أين جاء النبي ﷺ بتشريعات دقيقة كهذه، واختصرها في آيتين اثنتين، لو لم يكن رسولا من عند الله؟!

خمسون حكما:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُوبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بَيِّخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ لِیْهِ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُوبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُوبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أُوتِئَ مِنْ أَمْنَتِهِ. وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿البقرة: ٢٨٢ - ٢٨٣﴾.

قال الشيخ السعدي رحمه الله في تفسير الآية الأولى:

«هذه آية الدين، وهي أطول آيات القرآن، وقد اشتملت على أحكام عظيمة

جلیلة المنفعة والمقدار:

أحدها: أنه تجوز جميع أنواع المداينات من سلم وغيره، لأن الله أخبر عن

المداينة التي عليها المؤمنون إخبار مقرر لها ذاكرا أحكامها، وذلك يدل على الجواز.

الثاني والثالث: أنه لا بد للسلم من أجل وأنه لا بد أن يكون معينا معلوما فلا

يصح حالا ولا إلى أجل مجهول.

الرابع: الأمر بكتابة جميع عقود المداينات إما وجوبًا وإما استحبابًا لشدة الحاجة إلى كتابتها، لأنها بدون الكتابة يدخلها من الغلط والنسيان والمنازعة والمشاجرة شر عظيم.

الخامس: أمر الكاتب أن يكتب.

السادس: أن يكون عدلا في نفسه لأجل اعتبار كتابته، لأن الفاسق لا يعتبر قوله ولا كتابته.

السابع: أنه يجب عليه العدل بينهما، فلا يميل لأحدهما لقراءة أو صداقة أو غير ذلك.

الثامن: أن يكون الكاتب عارفاً بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما، وما يحصل به التوثق، لأنه لا سبيل إلى العدل إلا بذلك، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾.

التاسع: أنه إذا وجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يعمل بها، ولو كان هو والشهود قد ماتوا.

العاشر: قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ﴾ أي: لا يمتنع من من الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتدائنين، فكما أحسن الله إليه بتعليمه، فليحسن إلى عباد الله المحتاجين إلى كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم.

الحادي عشر: أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق.

الثاني عشر: أن الذي يمل من المتعاقدين من عليه الدين.

الثالث عشر: أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه ولا يخس منه شيئاً.

الرابع عشر: أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول، لأن الله أمر من عليه الحق أن يمل على الكاتب، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجهه ومضمونه، وهو ما أقر به على نفسه، ولو ادعى بعد ذلك غلطا أو سهوا.

الخامس عشر: أن مَنْ عليه حقا من الحقوق التي البينة على مقدارها وصفتها من كثرة وقلة وتعجيل وتأجيل، أن قوله هو المقبول دون قول مَنْ له الحق، لأنه تعالى لم ينه عن بخس الحق الذي عليه، إلا أن قوله مقبول على ما يقوله من مقدار الحق وصفته.

السادس عشر: أنه يحرم على من عليه حق من الحقوق أن يبخرس وينقص شيئاً من مقدارها، أو طيبه وحسنه، أو أجله أو غير ذلك من توابعه ولواحقه.

السابع عشر: أن من لا يقدر على إيماء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه ينوب وليه منابه في الإيماء والإقرار.

الثامن عشر: أنه يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل، وعدم البخرس لقوله ﴿بِالْعَدْلِ﴾.

التاسع عشر: أنه يشترط عدالة الولي، لأن الإيماء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق.

العشرون: ثبوت الولاية في الأموال.

الحادي والعشرون: أن الحق يكون على الصغير والسفيه والمجنون والضعيف، لا على وليهم.

الثاني والعشرون: أن إقرار الصغير والسفيه والمجنون والمعتوه ونحوهم وتصرفهم غير صحيح، لأن الله جعل الإيماء لوليهم، ولم يجعل لهم منه شيئاً لطفاً بهم ورحمة، خوفاً من تلاف أموالهم.

الثالث والعشرون: صحة تصرف الولي في مال مَنْ ذُكر.

الرابع والعشرون: فيه مشروعية كَوْن الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتدائنون كل واحد من صاحبه، لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع.

الخامس والعشرون: أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية، لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلم.

السادس والعشرون: أنه مأمور بالإشهاد على العقود، وذلك على وجه الندب، لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلى ما يحفظ الحقوق، فهو عائد لمصلحة المكلفين، نعم إن كان المتصرف ولي يتيم أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد الذي به يحفظ الحق واجباً.

السابع والعشرون: أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضاً أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي^(١).

الثامن والعشرون: أن شهادة الصبيان غير مقبولة لمفهوم لفظ الرجل.

التاسع والعشرون: أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تُقبل، لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال إن الله أقام المرأتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات، والله أعلم.

الثلاثون: أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ والعبد البالغ من رجالنا.

الحادي والثلاثون: أن شهادة الكفار ذكوراً كانوا أو نساءً غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل.

الثاني والثلاثون: فيه فضيلة الرجل على المرأة، وأن الواحد في مقابلة المرأتين لقوة حفظه ونقص حفظها.

الثالث والثلاثون: أن من نسي شهادته ثم ذكرها فذكر فشهادته مقبولة لقوله: ﴿فَتَذَكَّرْ أَحَدَهُمَا الْأُخْرَى﴾.

(١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى بِيَمِينٍ وَشَاهِدٍ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

الرابع والثلاثون: يؤخذ من المعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والخامس والثلاثون: أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأتي لقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾.

السادس والثلاثون: أن من لم يتصف بصفة الشهداء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها ولأنه ليس من الشهداء.

السابع والثلاثون: النهي عن السامة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود.

الثامن والثلاثون: بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود، وأنه ﴿أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ فإنها متضمنة للعدل الذي به قوام العباد والبلاد، والشهادة المقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر.

التاسع والثلاثون: يؤخذ من ذلك أن من اشتبه وشك في شهادته لم يجز له الإقدام عليها بل لا بد من اليقين.

الأربعون: قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُوبُوهَا﴾ فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضرة بحاضر، لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة.

الحادي والأربعون: أنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يُشَرِّعُ للإشهاد لقوله: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا بَاعْتُمْ﴾.

الثاني والأربعون: النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه.

الثالث والأربعون: النهي عن مضارة الشهيد أيضا بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك، هذا على جعل قوله: ﴿وَلَا

يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴿ مَبْنِيًّا لِلْمَجْهُولِ، وأما على جعلها مَبْنِيًّا للفاعل ففيه نهي الشاهد والكاآب أن يَضَارًّا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أآرة شاققة ونحو ذلك، وهذان هما الرابع والأربعون والخامس والأربعون.

والسادس والأربعون: أن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق لقوله: ﴿وَأِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾.

السابع والأربعون: أن الأوصاف كالفسق والإيآن والنفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تتجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيآن وكفر لقوله: ﴿فَأِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾، ولم يقل فأنتم فاسقون أو فساق.

الثامن والأربعون: وحقه أن يتقدم على ما هنا لتقدم موضعه - اشتراط العدالة في الشاهد لقوله: ﴿مَمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾.

التاسع والأربعون: أن العدالة يشترط فيها العُرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضيًّا معتبرًا عند الناس قُبِلت شهادته.

الآمسون: يؤخذ منها عدم قبول شهادة المآهول حتى يزكَّى، فهذه الأحكام مما يُسْتَنْبَط من هذه الآية الكريمة على حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر، والله في كلامه حكم وأسرار يخص بها من يشاء من عبادته.

ثم شرع الشيخ السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأِن كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِن أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَلَّتَهُ. وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ. وَلَا تَكْتُمُوا الشُّهَدَاءَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آئِمٌّ قَلْبُهُ. وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٣). فقال:

أي: إن كنتم مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب بينكم ويحصل به التوثق ﴿فَرِهَنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أي: يقبضها صاحب الحق وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه، ودل هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثق، ودل أيضًا على أن الراهن والمرتهن لو اختلفا في قدر ما رهنه به، كان القول قول المرتهن، ووجه ذلك أن الله

جعل الرهن عوضاً عن الكتابة في توثق صاحب الحق، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهنت به لم يحصل المعنى المقصود.

ولما كان المقصود بالرهن التوثق جاز حضراً وسفراً، وإنما نص الله على السفر، لأنه في مظنة الحاجة إليه لعدم الكاتب فيه، هذا كله إذا كان صاحب الحق يجب أن يتوثق لحقه، فأما إن كان صاحب الحق آمناً من غريمه وأحب أن يعامله من دون رهن فعلى من عليه الحق أن يؤدي إليه كاملاً غير ظالم له ولا باخس حقه.

﴿وَلَيَتَّقِ اللَّهُ رَبَّهُ﴾ في أداء الحق ويجازي من أحسن به الظن بالإحسان ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها، فكتمها من أعظم الذنوب، لأنه يترك ما وجب عليه من الخبر الصدق ويخبر بضده وهو الكذب، ويترتب على ذلك فوات حق من له الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

وقد اشتملت هذه الأحكام الحسنة التي أرشد الله عباده إليها على حكم عظيمة ومصالح عميمة دلت على أن الخلق لو اهتموا بإرشاد الله لصلحت دنياهم مع صلاح دينهم، لاشتغالها على العدل والمصلحة، وحفظ الحقوق وقطع المشاجرات والمنازعات، وانتظام أمر المعاش، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه لا نحصي ثناء عليه»^(١).

(١) تفسير السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ١١٨ - ١٢٠).

من أوجه الإعجاز التشريعي في الصيام

يعتقد كثير من الناس أن للصيام تأثيرًا سلبيًا على صحتهم، وينظرون إلى أجسامهم نظرتهم إلى الآلة الصماء، التي لا تعمل إلا بالوقود، وقد اصطلحوا على أن تناول ثلاث وجبات يوميًا، أمر ضروري لحفظ حياتهم، وأن ترك وجبة طعام واحدة سيكون لها من الأضرار والأخطار الشيء الكثير كنتيجة طبيعية للجهل العلمي، بطبيعة الصيام الإسلامي وفوائده المحققة.

الوقاية من العلل والأمراض:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣). أخبر الله ﷻ أنه فرض علينا الصيام وعلى مَنْ قَبْلَنَا، لنكتسب به التقوى الإيمانية التي تحجزنا عن المعاصي والآثام.

وبالصيام نتوقى كثيرًا من الأمراض والعلل الجسمية والنفسية، وقد ثبت من خلال الأبحاث الطبية بعض الفوائد الوقائية للصيام ضد كثير من الأمراض والعلل الجسمية والنفسية، منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- يقوّي الصيام جهاز المناعة، فيقي الجسم من أمراض كثيرة، حيث يتحسن المؤشر الوظيفي للخلايا اللمفاوية عشرة أضعاف، كما تزداد نسبة الخلايا المسؤولة عن المناعة النوعية زيادةً كبيرة، كما ترتفع بعض أنواع الأجسام المضادة في الجسم، وتنشط الردود المناعية نتيجة لزيادة البروتين الدهني منخفض الكثافة.

٢- الوقاية من مرض السمنة وأخطارها، حيث إنه من المعتقد أن السمنة كما قد تنتج عن خلل في تمثيل الغذاء، فقد تسبب عن ضغوط بيئية أو نفسية أو اجتماعية، وقد تتضافر هذه العوامل جميعًا في حدوثها، وقد يؤدي الاضطراب النفسي إلى خلل في التمثيل الغذائي، وكل هذه العوامل التي يمكن أن تنجم عنها السمنة، يمكن الوقاية منها بالصوم من خلال الاستقرار النفسي والعقلي الذي يتحقق بالصوم نتيجة الجو

الإيماني الذي يحيط بالصائم، وكثرة العبادة والذكر، وقراءة القرآن، والبعد عن الانفعال والتوتر، وضبط النوازع والرغبات، وتوجيه الطاقات النفسية والجسمية توجيهًا إيجابيًا نافعًا.

٣- يقي الصيام الجسم من تكون حصيات الكلى، إذ يرفع معدل الصوديوم في الدم فيمنع تبلور أملاح الكالسيوم، كما أن زيادة مادة البولينا في البول، تساعد في عدم ترسب أملاح البول، التي تكون حصيات المسالك البولية.

٤- يقي الصيام الجسم من أخطار السموم المتراكمة في خلاياه، وبين أنسجته، من جراء تناول الأطعمة، وخصوصًا المحفوظة والمصنعة منها وتناول الأدوية واستنشاق الهواء الملوث بهذه السموم.

٥- يخفف الصيام ويهدئ ثورة الغريزة الجنسية، وخصوصًا عند الشباب، وبذلك يقي الجسم من الاضرابات النفسية والجسمية، والانحرافات السلوكية، إذا التزم الشاب الصيام وأكثر منه، وذلك تحقيقًا للإعجاز في حديث النبي ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَعَصَّ لِلْبَصْرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ» (رواه البخاري ومسلم). (فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ) أي فليكثر من الصوم المتواصل. (وَجَاءٌ): قاطع للشهوة.

وقد وجد أن الإكثار من الصوم مع الاعتدال في الطعام والشراب، وبذل الجهد المعتاد يقترب من الصيام المتواصل، ويجني الشاب فائدته في تثبيط غرائزه المتأججه بيسر، كما لا يتعرض إلى أخطار هذا النوع من الصيام.

والإعجاز في قول النبي ﷺ: «فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ» من وجهين:

الأول: الإشارة إلى أن الخصيتين هما مكان إنتاج عوامل الإثارة الجنسية، حيث إن معنى الوجود رَضُ الْخُصْيَيْنِ وَقِيلَ رَضُ عُرُوقِهَا (أي دَقَّ عُرُوقِ خَصْيَتَيْهِ بَيْنَ حَجْرَيْنِ) وَمَنْ يُفْعَلُ بِهِ ذَلِكَ تَنْقَطِعُ شَهْوَتُهُ، فيكون شبيها بالخصاء، ويتنزل في قطعه منزلة الخصي، وقد ثبت أن في الخصيتين خلايا متخصصة في إنتاج هرمون

التستوستيرون، وهو الهرمون المحرّك والمثير للرجبة الجنسية، وأن قطع الخصيتين (الخصي) يذهب هذه الرغبة، ويخمدتها تمامًا.

الثاني: إن الإكثار من الصوم مثبت للرجبة الجنسية وكابح لها، وقد ثبت هبوط مستوى هرمون الذكورة (التستوستيرون)، هبوطًا كبيرًا أثناء الصيام المتواصل، بل وبعد إعادة التغذية بثلاثة أيام، ثم ارتفع ارتفاعًا كبيرًا بعد ذلك، وهذا يؤكد أن الصيام له القدرة على كبح الرغبة الجنسية مع تحسينها بعد ذلك، وهذا يؤكد فائدة الصوم في زيادة الخصوبة عند الرجل بعد الإفطار.

بعض الأمراض التي يعالجها الصيام:

يعالج الصيام عددًا من الأمراض الخطيرة أهمها:

أ- الأمراض الناتجة عن السمنة: كمرض تصلب الشرايين، وضغط الدم، وبعض أمراض القلب.

ب- يعالج بعض أمراض الدورة الدموية الطرفية مثل: مرض الرينود ومرض برجر.

ج- يعالج الصيام المتواصل (الطبي) مرض التهاب المفاصل المزمن (الروماتويد).

د- يعالج الصيام الإسلامي ارتفاع حموضة المعدة، وبالتالي يساعد في التئام قرحة المعدة مع العلاج المناسب.

فوائد أخرى تجنى بالصوم:

١- يمكن الصيام آليات الهضم والامتصاص في الجهاز الهضمي وملحقاته، من أداء وظائفها على أتم وأكمل وجه، وذلك بعدم إدخال الطعام والشراب على الوجبة الغذائية، أثناء هضمها وامتصاصها.

كما يتيح الصيام راحة فسيولوجية للجهاز الهضمي وملحقاته، وذلك بمنع تناول الطعام والشراب لفترة زمنية، تتراوح من ٩ - ١١ ساعة بعد امتصاص الغذاء كما تستريح آليات الامتصاص في الأمعاء طوال هذه الفترة من الصيام.

وتتمكن الانقباضات الخاصة بتنظيف الأمعاء، من عملها المستمر دون توقف.

٢- يمكن الصيام الغدد الصماء ذات العلاقة بعمليات الاستقلاب^(١)، في فترة ما بعد الامتصاص، من أداء وظائفها في تنظيم وإفراز هرموناتها الحيوية على أتم حال، وذلك بتنشيط آليات التثبيط والتنبه لها يوميًا، ولفترة دورية ثابتة، ومتغيرة طوال العام، وبالتالي يحصل توازن بين الهرمونات المتضادة في العمل، مثل هرموني: النمو والأنسولين، كهرمونات بناء من ناحية، وهرموني: الجلوكاجون والكوريتزول، كهرمونات هدم من ناحية أخرى، والذي يتوقف على توازنها الدقيق، تركيز الأحماس الأمينية في الدم، توازن الاستقلاب.

٣- ينشط الصيام آليات الاستقلاب أو التمثيل الغذائي في البناء والهدم للجلوكوز والدهون، والبروتينات في الخلايا، لتقوم بوظائفها على أكمل وجه.

٤- أما إذا اقتصر الجسم على البناء فقط، وكان همه التخزين للغذاء في داخله، فإن آليات البناء تغلب آليات الهدم، فيعترى الأخيرة - لعدم استعمالها بكامل طاقتها - وهن تدريجي، تظهر ملامحه عند تعرض الجسم لشدة مفاجئة، بانقطاع الطعام عنه في الصحة، أو المرض، فقد لا يستطيع هذا الإنسان مواصلة حياته، أو مقاومة مرضه.

٥- يحسّن الصيام خصوبة المرأة والرجل على السواء.

٦- يستفيد الإنسان من العطش أثناء الصيام استفادة كبيرة، حيث يساعد في إمداد الجسم بالطاقة، وتحسين القدرة على التعلم، وتقوية الذاكرة.

(١) استقلاب: أيض: تحوّل الغذاء إلى طاقة.

٧- تتهدم الخلايا المريضة والضعيفة في الجسم عندما يتغلب الهدم على البناء أثناء الصيام، وتتجدد الخلايا أثناء مرحلة البناء.

٨- كذلك فإن أداء الصيام الإسلامي طاعةً لله ﷻ وخشوعاً له، ورجاء فيما عنده ﷻ من الأجر والثوبة، عمل ذو فائدة جمّة لنفس الإنسان وجسمه، حيث يث في النفس السكينة والطمأنينة، وينعكس هذا بدوره على آليات الاستقلاب فيجعلها تتم في أوفق وأيسر وأنفع السبل، مما يعود بالنفع والفائدة على الجسم.

إن الصيام كاقتناع فكري وممارسة عملية، يقوّي لدى الإنسان كثيراً من جوانبه النفسية، فيقوي لديه الصبر، والجلد، وقوة الإرادة، وضبط النوازع والرغبات، ويُضفي على نفسه السكينة والرضا والفرح.

وقد أخبر بذلك النبي ﷺ فقال: «لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرِحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ» (رواه البخاري ومسلم).

يُسْرُ الصِّيَامِ الْإِسْلَامِيِّ وَسَهُولَتُهُ:

تشير الدراسات العلمية في وظائف أعضاء الجسم أثناء مراحل التجويع، إلى يسر الصيام الإسلامي وسهولته، فيتجلى يسر الصيام الإسلامي في إمداد الجسم بجميع احتياجاته الغذائية، وعدم حرمانه من كل ما هو لازم ومفيد له، فالإنسان في هذا الصيام، يمتنع عن الطعام والشراب فترة زمنية محدودة، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وله حرية المطعم والمشرب من جميع الأغذية والأشربة المباحة ليلاً، ويعتبر الصيام الإسلامي بهذا النظام تغييراً لمواعيد تناول الطعام والشراب فحسب، فلم يفرض الله ﷻ الانقطاع الكلي عن الطعام لمدد طويلة، أو حتى لمدة يوم وليلة، تيسيراً وتخفيفاً على أمة خاتم الأنبياء ﷺ، وقد تجلّى هذا اليسر بعد تقدم وسائل المعرفة والتقنية في هذا العصر.

فقد قسمت المراجع الطبية التجويع إلى ثلاث مراحل: مرحلة مبكرة، ومتوسطة، وطويلة الأجل، وتقع المرحلة المبكرة بعد نهاية فترة امتصاص آخر وجبة (أي بعد حوالي ٥ ساعات من الأكل) وحتى نهاية فترة ما بعد الامتصاص والتي

تتراوح مدتها حوالي ١٢ ساعة، وقد تمتد إلى ٤٠ ساعة عند بعض العلماء، في هذه الفترة يقع الصيام الإسلامي كما يقع في فترة امتصاص الغذاء.

وهذه الفترة من الانقطاع عن الطعام آمنة تمامًا بالمقاييس العلمية، فالجلوكوز هو الوقود الوحيد للمخ، والدهون لا تتأكسد بالقدر الذي يولد أجسامًا كيتونية بالدم أثناء هذه الفترة، كما لا يُستهلك البروتين في إنتاج الطاقة بالقدر الذي يحدث خللاً في التوازن النروجيني في الجسم؛ مما حدا ببعض العلماء أن يسقط فترة ما بعد الامتصاص من مراحل التجويع أصلاً، وهذه الحقيقة تجعل الصيام الإسلامي منفرداً في يسره وسهولته عكس مراحل التجويع الأخرى.

من خلال عرض الحقائق السابقة، ندرك أن مدة الصيام الإسلامي والتي تتراوح من ١٢ - ١٦ ساعة في المتوسط، يقع جزء منها في فترة الامتصاص، ويقع معظمها في فترة ما بعد الامتصاص، ويتوفر فيها تنشيط جميع آليات الامتصاص والاستقلاب بتوازن، فتنشط آلية تحلل الجليكوجين، وأكسدة الدهون، وتحللها وتحلل البروتين، وتكوين الجلوكوز الجديد منه، ولا يحدث للجسم البشري أي خلل في أي وظيفة من وظائفه، فلا تتأكسد الدهون بالقدر الذي يولد أجسامًا كيتونية تضر بالجسم، ولا يحدث توازن نروجيني سلبي لتوازن استقلاب البروتين، ويعتمد المخ البشري، وخلايا الدم الحمراء، والجهاز العصبي، على الجلوكوز وحده للحصول منه على الطاقة بينما التجويع أو الصيام الطبي - القصير والطويل منه - لا يقف عند تنشيط هذه الآليات، بل يشتد حتى يحدث خللاً في بعض وظائف الجسم.

يعتبر الصيام الإسلامي تمثيلاً غذائياً فريداً، إذ يشتمل على مرحلتين البناء والهدم، فبعد وجبتي الإفطار والسحور، يبدأ البناء للمركبات الهامة في الخلايا، وتجديد المواد المخترنة، والتي استهلكت في إنتاج الطاقة، وبعد فترة امتصاص وجبة السحور، يبدأ الهدم، فيتحلل المخزون الغذائي من الجليكوجين والدهون، ليمد الجسم بالطاقة اللازمة، أثناء الحركة والنشاط في نهار الصيام.

وقد أكد النبي ﷺ على ضرورة تناول وجبة السحور، بقوله: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَهً» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وفي ذلك إمدادٌ للجسم بوجبة بناء يستمر لمدة ٤ ساعات، محسوبة من زمن الانقطاع عن الطعام، وبهذا أيضًا يمكن تقليص فترة ما بعد الامتنصاص إلى أقل زمن ممكن.

كما أن النبي ﷺ قد حث على تعجيل الفطر وتأخير السحور حيث قال: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وَعَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: «تَسَحَّرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ»، قُلْتُ: «كَمْ كَانَ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالسَّحُورِ؟» قَالَ: «قَدَرُ خَمْسِينَ آيَةً» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

وهذا من شأنه تقليص فترة الصيام أيضًا إلى أقل حد ممكن، حتى لا يتجاوز فترة ما بعد الامتنصاص ما أمكن، وبالتالي فإن الصيام الإسلامي لا يسبب شدة، ولا يشكل ضغطًا نفسيًا ضارًا على الجسم البشري، بحال من الأحوال.

وبناء على هذه الحقائق يتبين أن الذي يتوقف أثناء الصيام، هو عمليات الهضم والامتصاص، وليست عمليات التغذية، فخلايا الجسم تعمل بصورة طبيعية، وتحصل على جميع احتياجاتها اللازمة لها، من هذا المخزون بعد تحلله، والذي يعتبر هضمًا داخل الخلية، فيتحول الجليكوجين إلى سكر الجلوكوز، والدهم والبروتينات إلى أحماض دهنية وأحماض أمينية، بفعل شبكة معقدة من الإنزيمات، والتفاعلات الكيميائية الحيوية الدقيقة، والتي يقف الإنسان أمامها مشدوهاً معترفًا بجلال الله ﷻ وعلمه، وعظيم قدرته وإحكام صنعه.

فمن أخبر النبي محمدًا ﷺ أن في الصيام وقاية للإنسان من أضرار نفسية وجسدية؟ ومن أخبره أن فيه منافع وفوائد يجنيها الأصحاء؟ ومن أخبره ﷺ بأن الصيام سهل ميسور، لا يضر بالجسم ولا يجهد بالنفس؟ ومن أطلعه ﷺ على أن كثرة الصوم تثبط الرغبة الجنسية وتخفف من حدتها وثورتها خصوصًا عند الشباب، فيصير الشباب آمنًا من الاضطرابات الغريزية النفسية، ومحصنًا ضد الانحرافات السلوكية؟! وخصوصًا أنه ﷺ نشأ في بيئة لا تعرف هذا الصيام ولا تمارسه. إنه الله ﷻ.

حكمة النهي عن وصال الصيام:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَأَشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصَّيَامَ إِلَىٰ الْإِيلِ﴾ (البقرة: ١٨٧)، في هذه الآية يظهر لنا التوجيه الرباني لهذه البشرية ورحمة الله بعباده، فيوجههم لما فيه سلامة أجسامهم وصحتهم، حيث يشير إلى عدم الوصال في الصيام.

ثم يأتي النهي من متلقي الوحي الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْوِصَالَ»، قَالَهَا: ثَلَاثَ مَرَارٍ، قَالُوا: «فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟». قَالَ: «إِنَّكُمْ لَسْتُمْ فِي ذَلِكَ مِنِّي، إِنِّي أَبِيْتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي، فَالْكُفُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تُوَاصِلُوا، فَإِنَّكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ حَتَّىٰ السَّحْرِ» (رواه البخاري).

الحقيقة العلمية:

النصوص السابقة من الكتاب والسنة تنهى عن الوصال في الصيام، حيث يترافق الصيام في رمضان مع تغيرات هرمونية في جسم الصائم، تهدف إلى المحافظة على تزويد خلايا الجسم بحاجتها من الطاقة الحيوية اللازمة للقيام بالوظائف الحيوية والفسيولوجية المختلفة، إذ يقل منسوب هرمون الأنسولين بعد ساعات من تناول وجبة السحور، ويبدأ بعدها هرمون الجلوكاجون بالارتفاع ليضمن المحافظة على منسوب سكر الدم (الجلوكوز) ضمن مستوياته الطبيعية، من خلال القيام بعمليات تحلل الجليكوجين حين يبدأ الجسم بالتحول إلى الاعتماد على أكسدة الأحماض الدهنية الموجودة في الأنسجة الدهنية لإنتاج طاقة الغذاء.

لذا يزداد اعتماد الجسم على أكسدة الأحماض، وإنتاج الأجسام الكيتونية لمصدر الطاقة، والتي تؤدي ارتفاع منسوبها في الدم، وتراكمها في الجسم إلى حصول تغيرات سلبية على صحة الجسم وحيويته.

وجه الإعجاز:

ظهر من خلال النصوص الشرعية من الكتاب والسنة أن الحقيقة العلمية اتفقت مع الدلالة الشرعية، إذ أن الدلالة الشرعية نصت على عدم الوصال في الصيام، إذ كان النهي واضحاً من خلال قوله ﷺ: «لَا تُوَاصِلُوا، فَأَيُّكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ حَتَّى السَّحْرِ»، وجاءت الحقيقة تبين أن مرحلة الصيام "الطويل" تؤول إلى تطور الأعراض السلبية، والمتمثلة في زيادة تركيز الأجسام الكيتونية وزيادة حموضة الدم، كما أنها تؤول إلى لجوء الجسم إلى استخدام العضلات كمصدر للأحماض الأمينية المنتجة للجلوكوز من خلال عملية تصنيع الجلوكوز من غير مصادره السكرية التي تؤود إلى حصول الهزال، وضمور العضلات، وضعف الجسم العام.

فظهر التطابق بين الحقيقة العلمية والنصوص الشرعية في أجمل صور الإعجاز المبهرة.

أوجه الاتفاق والاختلاف بين الصيام الشرعي والتجويع!!

هناك أوجه اتفاق واختلاف بين الصيام في الإسلام، وبين ما يعرف بالصيام الطبي (التجويع المطلق)، وتتيح أوجه الاتفاق بينهما مساحة مشتركة تجعل كل الفوائد الثابتة علمياً للصيام الطبي، تتحقق بالصيام الإسلامي المثالي، الذي تقل فيه فترة الهضم والامتصاص، وذلك بالاعتدال في الطعام أثناء السحور والإفطار، وتتاح فيه فرصة أكبر لعملية تحلل المدخرات الغذائية، وذلك ببذل الجهد والعمل الدائب والتخلص من الكسل وكثرة النوم أثناء الصيام.

ويمكن تلخيص أوجه الإتفاق والاختلاف بين الصيام الطبي والصيام الإسلامي في النقاط التالية:

1- يتفق الاثنان في تحقيق هدف مشترك، هو إراحة الجسم من هضم الغذاء، وإتاحة الفرصة لاستهلاك المدخر منه، وطرح السموم المتراكمة فيه، وتنشيط عمليات الاستقلاب الحيوية.

2- كلاهما يمتنع فيه عن تناول المواد الغذائية في فترة زمنية محددة.

3- يختلفان في أن للصيام الإسلامي فترة زمنية محددة بنهار اليوم، ومتابعة لمدة شهر، ودورية كل سنة على وجه الإلزام للمسلم، ولعدة أيام متفرقة في بقية العام على وجه الاختيار (صيام التطوع)، أما في الصيام الطبي فهو امتناع عن الغذاء فترة زمنية متصلة تحدد لكل إنسان حسب ظروفه، أو مرضه، وهي على وجه الاختيار.

4- الصيام الإسلامي يستطيعه كل المكلفين الأصحاء في شتى الأقطار والأزمان، وهو سهل ميسور، وليس فيه أية أخطار على الجسم، ولا يمثل أية شدة، والمسلمون يصومون طائعين، فرحين محبين، أما الصوم الطبي فلا يستطيعه الناس جميعاً، وهو قهر شديد للنفس، ويمثل مشقة وَعَتَّةً للجسم، ولا يقبل عليه إلا من طغى عليه المرض، أو استيقن بفائدة يجنيها من ممارسته، ويصوم محاطاً بالأطباء والممرضين وأجهزة الإسعاف والطوارئ.

5- للتجوع أخطار لا توجد في الصيام الإسلامي؛ فالجسم يُحْرَم أثناء التجوع من إمداده بالأحماض الدهنية الأساسية، والأحماض الأمينية الأساسية، والتي لا تتوافر إلا في الغذاء، وتتجمع كميات كبيرة من الأحماض الدهنية في الكبد، نتيجة لتحلل الدهن المخزن في أنسجة الجسم بمعدلات كبيرة، مما يؤدي إلى ترسب الدهن بكثرة (ثلاثي الجليسول في خلاياه، الأمر الذي ينجم عنه حالة تشمع للكبد فتضطرب وظائفه ويصاب الجسم بالعلل).

وهذا بفضل الله ﷻ لا يحدث في الصيام الإسلامي، حيث يمد الجسم بالأحماض الدهنية الأساسية، والأحماض الأمينية الأساسية، في وجبتي السحور والفقور، ويقوم الكبد بتركيب البروتين والمواد الدهنية والفوسفورية، بمعدل كاف لعملية تصنيع البروتين الشحمي منخفض الكثافة جداً، وهو المركب الذي يسهل نقل الدهون من الكبد، وحتى لا تتجمع بكميات كبيرة تعوق هذه العملية الحيوية، فلا يحدث التشمع الكبدي كما في حالة التجوع.

والحرمان من الأحماض الأمينية والدهنية يؤدي إلى خلل في الجسم فلا تتكون بعض البروتينات، والمهرمونات، والإنزيمات الهامة، والتي يتوقف تكوُّنها على توافر

الأحماض الأساسية، كما أن الحرمان من الأحماض الأمينية في الغذاء يؤدي إلى تدهم مزيد من خلايا الجسم، خصوصاً العضلات لإنتاج هذه الأحماض واستخدامها في تصنيع الجلوكوز، أو إنتاج الطاقة بعد تحويلها إلى أحماض أكسوجينية، ويحدث بذلك توازن نروجيني سلبي.

كما أنه في حالة التجويع تحدث أكسدة كثيفة للأحماض الدهنية المتجمعة في الكبد، مما ينتج عنه كميات كبيرة من الأجسام الكيتونية، والتي تؤدي بدورها إلى حموضة شديدة بالدم.

للصيام الإسلامي مميزات لا توجد في التجويع، وهي كما يلي:

أ- يحدث توازن لدورتي البناء والهدم أثناء الصيام الإسلامي، وذلك بتناول الطعام في المساء، والامتناع عنه أثناء النهار، ويصب في مجمع الأحماض الأمينية كمية كبيرة من هذه الأحماض القادمة مع الغذاء، مما يساعد على التجديد السريع للخلايا، ومكوناتها، وتوفير القدر اللازم منها لإنتاج جلوكوز الدم أثناء النهار وتوفير الأحماض الأمينية الحرة في بلازما الدم.

ب- وجود كمية مخزونة من البروتين في خلايا الكبد، بواسطة التضخم وفرط التنسج بعد وجبتي الفطور والسحور يجعل الجسم قادرًا على تكوين البروتينات الحيوية اللازمة كبروتينات البلازما (الألبومين والجلوبيولين والفيبرونوجين)، وعوامل تخثر الدم، وكثير من البروتينات اللازمة لنقل المواد والمركبات الحيوية فيما بين الأعضاء والأنسجة المختلفة، وذلك كالبروتين اللازم لنقل الحديد، وفيتامين ب١٢، والأدوية، وغير ذلك، وهذا لا يتوفر بكميات كافية أثناء التجويع لفترات طويلة، مما يسبب سيولة في الدم، وتورمًا في الجسم، وانخفاضًا في الأجسام المضادة، وظهور أعراض نقص فيتامين ب١٢ وبعض المعادن الحيوية الأخرى.

ج - يحدث مزيد من إنتاج اليوريا من الأمونيا المتكونة من الأحماض الأمينية، بعد تناول الغذاء في المساء، ولا يحدث غالبًا أي خلل في التوازن النروجيني أثناء

النهار، نتيجة لتخزين الكبد لكمية من البروتين في خلاياه بعد وجبتي السحور والإفطار.

د- يتخلص الجسم من الدهون بطريقة طبيعية آمنة في الصيام الإسلامي، فلا تؤدي إلى تشمّع الكبد، حيث لا تتجمع كميات كبيرة منها كما في التجويع.

هـ- تنتشط عمليات الكبد الحيوية في الصيام الإسلامي، فيقوم بتصنيع البروتين، والمواد الدهنية الفوسفورية، لتكوين البروتين الشحمي الحيوي للجسم، والذي يقوم بنقل الدهون من الكبد، بعكس التجويع الذي يثبّط هذه العملية الحيوية.

و- تتأكسد الأحماض الدهنية ببطء، ولا تتجمع الأجسام الكيتونية في الدم، وتحدث حموضة الدم الخطيرة كما في حالة التجويع.

والصورة المثلثية للصوم الإسلامي يمكن أن تتحقق بالآتي:

أ- تقليل فترة الصيام اليومي، وذلك بتعجيل الفطور وتأخير السحور.

ب- تناول وجبة السحور وعدم إهمالها.

ج- الاعتدال في الطعام والشراب أثناء السحور والإفطار، والاقتصار عليهما، وترك عادة كثرة الأكل طوال الليل.

د- القيام بالحركة والنشاط والجهد اليومي المعتاد.

هـ- نوم جزء من الليل وترك السهر المتواصل.

وبهذا يمكن أن يحقق الصوم الإسلامي كل فوائد الصيام الطبي ويتحاشى أخطاره وتأثيراته الجانبية.

وصدق الله القائل: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٨٤).

الإعجاز التشريعي في أحاديث النوم

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَتَيْتَ مَضَجَكَ، فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، وَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسَلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَقَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَهْبَةً وَرَغْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، أَمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مِتَّ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ فَاجْعَلْنِي آخِرَ مَا تَقُولُ». (رواه البخاري ومسلم).

وقد جاء النهي عن النوم على البطن، فعَنْ طِخْفَةَ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: أَصَابَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ عَلَى بَطْنِي فَرَكَضَنِي بِرِجْلِهِ، وَقَالَ: «مَا لَكَ وَلِهَذَا النَّوْمُ، هَذِهِ نَوْمَةٌ يَكْرَهُهَا اللَّهُ أَوْ يُبْغِضُهَا اللَّهُ» (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني).

العلم الحديث يكشف فوائد النوم على اليمين:

كشفت العلم عن العديد من فوائد النوم على اليمين، وأنه الهيئة المثلى للنوم، وفي الوقت نفسه توصل العلماء إلى العديد من مضار النوم على البطن، فحين ينام الشخص على بطنه يشعر بعد مدة بضيق في التنفس؛ لأن ثقل كتلة الظهر العظمية تمنع الصدر من التمدد والتقلص عند الشهيق والزفير كما أن هذه الوضعية تؤدي إلى انثناء اضطراري في الفقرات الرقبية، كما أن الأزمة التنفسية الناجمة تُتعب القلب والدماغ.

أما عند النوم على الشق الأيسر فالقلب حينئذ يقع تحت ضغط الرئة اليمنى، والتي هي أكبر من اليسرى مما يؤثر في وظيفته ويقلل نشاطه وخاصة عند المسنين، كما تضغط المعدة الممتلئة عليه فيزيد الضغط على القلب، وأما الكبد الذي هو أثقل الأحشاء فإنه ليس بثابت بل معلق بأربطة وهو موجود على الجانب الأيمن فيضغط على القلب وعلى المعدة مما يؤخر إفراغها.

فقد أثبتت التجارب أن مرور الطعام من المعدة إلى الأمعاء يتم في فترة تتراوح بين ٢,٥ - ٤,٥ ساعة إذا كان النائم على الجانب الأيمن ولا يتم ذلك إلا في ٥ - ٨ ساعات إذا كان على جنبه الأيسر.

فالنوم على الشق الأيمن هو الوضع الصحيح لأن الرئة اليسرى أصغر من اليمنى فيكون القلب أخف حملاً، ويكون الكبد مستقرًا لا معلقًا، والمعدة جاثمة فوفا بكل راحتها، وهذا أسهل لإفراغ ما بداخلها من طعام بعد هضمه، كما يعتبر النوم على الجانب الأيمن من أروع الإجراءات الطبية التي تسهل وظيفة القصبات الرئوية اليسرى في سرعة طرحها لإفرازاتها المخاطية.

وفي هذا الحديث إعجاز نفسي أيضًا، فعندما يذهب الإنسان للنوم يكون محملاً بأعباء نفسية طيلة يومه وكل هذه الأحداث قد تتفاعل عند نومه وقد تسبب له أحلامًا مزعجة أو عدم استقرار في النوم فجاء الهدي النبوي ليأمرنا بالالتجاء إلى الله تعالى والاعتراف بتسليم الأمر لله تعالى.

إن هذا الدعاء مع اليقين به يخلص المؤمن من مختلف الاضطرابات النفسية الناتجة عن حياته اليومية، وتأمل قوله ﷺ: «وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ» إنه تصريح من المؤمن، واعتراف بتفويض كل أمره وهمومه ومشاكله ومصاعبه إلى الله ﷻ. إن بقاء هذه الهموم النفسية قد يؤدي إلى تراكمها وتفاقمها وتحولها إلى أمراض نفسية وهذا ما نجده عند غير المؤمنين الذي يعانون من القلق والاكتئاب ومختلف الأمراض النفسية.

أهمية نوم القيلولة:

دراسات كثيرة تؤكد أهمية أخذ إغفاءة قصيرة كل يوم خلال النهار. وهذا سينشط الدماغ ويفيد صحة الإنسان. النوم معجزة من معجزات الخالق تبارك وتعالى، ولكن لماذا أمرنا الرسول الأعظم ﷺ أن نأخذ غفوة في النهار؟ وهل هناك حكمة علمية من ذلك؟

أمرنا رسول الله ﷺ أن نأخذ غفوة خلال النهار فقال: «قِيلُوا، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ» (رواه الطبراني، وحسنه الألباني). وقد أظهر بحث علمي جديد أن قيلولة الإنسان أثناء العمل تفيد القلب لأنها تقلل من الإجهاد والاضطراب، حيث يشكل العمل المصدر الرئيسي للإجهاد. وفي بحث آخر يؤكد العلماء أن النوم بالنهار ضروري جدًا ليعوض الإنسان ما فاته من نوم الليل، بل إن نوم الليل لا يكفي، وقد يكون ضارًا إذا امتد لفترة طويلة!

تظهر صور الدماغ بالمسح المغنطيسي أن النوم يساعد الدماغ على التذكر وتثبيت المعلومات ويخلصه من التراكمات والتعب ولذلك القيلولة ضرورية جدًا ومفيدة للكبار والصغار.

الهدى النبوى فى منع وقوع الغضب وعلاجه إذا وقع

كىف يغضب الإنسان؟

ىنبه مؤثر الغضب منطقة (Amygdala) المسؤولة بالمدخ عن إرسال التنبیهات عندما تُواجه مسببات الغضب، وعند حدوث مثير الغضب ترسل Amygdala رسائل سريعة تحمل بواسطة التیار العصبى إلى غدة تحت المهاد التى تفرز فىضا متتابعا من الهرمونات

استعدادات الجسم لمواجهة الغضب:

كقاعدة عامة ینشط الجهاز العصبى الودى الأجهزة التى ىحتاجها الجسم عند المرور بخبرة الضغوط ومنها الغضب، ینما على الجانب الآخر ىلعب الجهاز العصبى الجار ودى دوره لتثییط الأجهزة التى لیس لها احتیاج فى مواجهة الضغوط الواقعة على الجسم عند الغضب.

- فمثلاً تحدث زیادة سريعة فى ضغط الدم ومعدل ضربات القلب والتنفس لتسریع نقل الأوكسجین والمواد الغذائىة للعضلات والجوارح.
- ویتم التحرك السریع للطاقة من مخازنها فى الكبد والعضلات والخلايا الدهنىة بتوافر الجلوكوز والدهون والبروتینات البسىطة.
- تفرز "الببتیدات" وهى وسیلة الاتصال بین أجزاء الجسم المختلفة ولها مستقبلات فى كل عضو حیث تشكل "الببتیدات" ومستقبلاتها كیمىاء المشاعر.
- تستدعى الذاكرة الخبرات السابقة لمواجهة موقف الغضب.
- على الجانب الآخر تثبیط المناعة، لأجل توفير الطاقة للغضب.

- يتوقف الهضم وتتلقى الأمعاء أمرًا بتفريغ الطعام المهضوم ليخف وزن الجسم.
- تتوقف وظائف التبويض والانتصاب والرغبة.
- يتوقف الأنسولين وهرمونات النمو والهرمونات الجنسية لتوفير الطاقة للجسم.
- يقل الإحساس بالألم.

الآثار الصحية السيئة للغضب على الجسم:

يؤثر الغضب على قلب الشخص تأثير الجري على القلب، وانفعال الغضب يزيد من عدد مرات انقباضاته في الدقيقة الواحدة فيضاعف بذلك كمية الدم التي يدفعها القلب إلى الأوعية الدموية مع كل انقباض وهذا بالتالي يجهد القلب لأنه يقسره على زيادة عمله عن معدلاته الطبيعية، والفارق أن الجري في إجهاده للقلب لا يستمر طويلاً لأن المرء يتوقف إن أراد، أما في الغضب فلا يستطيع الإنسان أن يسيطر على إجهاده لا سيما إن كان اعتاد على عدم التحكم في مشاعره كما تحدث الإصابة بعدم انتظام ضربات القلب.

وقد حذر علماء الطب الألمان من أن الغضب يشكل خطراً على القلب، مشيرين إلى أن أكثر الذين أصيبوا بأمراض في القلب كان "الغضب" أحد أسبابه الرئيسية.

وأعلن الأطباء في مؤتمر عقده يوم الثلاثاء ١٦-٤-٢٠٠٢م في برلين أن أكثر الذين توفوا بجلطة قلبية كان "الغضب" أحد أسباب الوفاة الرئيسية، إذ أن الغضب يعمل على تقوية سرعة القلب بحيث تخرج عن السيطرة.

وقد لوحظ أن الإنسان الذي اعتاد على الغضب يصاب بارتفاع ضغط الدم حيث إن قلبه يضطر إلى أن يدفع كمية من الدماء الزائدة عن المعتاد ويزيد عن معدله الطبيعي كما أن شرايينه الدقيقة تتصلب جدرانها وتفقد مرونتها وقدرتها على الاتساع لكي تستطيع أن تمرر تلك الكمية من الدماء الزائدة التي يضخها قلب الغاضب.

كما أن الارتفاع المفاجئ للضغط قد يسبب لصاحبه نزفاً دماغياً صاعقاً يؤدي إلى إصابة الغضبان بالجلطة المخية، وقد يصاب بالجلطة القلبية أو الموت المفاجئ، وقد يؤثر على أوعية العين الدموية فيسبب له العمى المفاجئ، وكلنا يسمع بتلك الحوادث المؤلمة التي تنتج عن لحظات غضب.

وبتحرُّر الجليكوجين من مخازنه في الكبد يطلق سكر العنب مما يرفع السكر الدموي، إذ من المعلوم أن معظم حادثات السكر تبدأ بعد انفعال شديد أو غضب. وارتفاع الأدرينالين يعمل على صرف كثير من الطاقة المدخّرة مما يؤدي إلى شعور الغاضب بارتفاع حرارته وسخونة جلده.

كما يؤدي زيادة الهرمون إلى تثبيط حركة الأمعاء ومن ثم إلى حدوث الإمساك الشديد. وهذا سبب إصابة ذوي المزاج العصبي بالإمساك المزمن.

ويزداد أثناء الغضب إفراز الكورتيزون مما يؤدي إلى زيادة الدهون في الدم على حساب البروتين، ويحل الكورتيزون النسيج اللمفاوي مؤدياً إلى نقص المناعة وإمكانية حدوث التهابات جرثومية متعددة، وهذا ما يعلل ظهور التهاب اللوزات الحاد عقب الانفعال الشديد.

كما يزيد الكورتيزون من حموضة المعدة وكمية البسبين فيها مما يهيء للإصابة بقرحة المعدة أو حدوث هجمة حادة عند المصابين بها بعد حدوث غضب عارم.

يسبب تكرار الغضب حدوث تصلب في العضلات وانتفاخ الأوداج وآلام في الرقبة أو الكتف أو الظهر، مع صداع الغضب، وحدث الفزع والقلق الدائم والتوتر مع فقد القدرة على النوم وقلة التركيز مما يؤدي لخوار قوة البدن وسقوطه فريسة للإرهاك.

تتضاعف الأحاسيس بفعل التوتر والغضب ويصبح الغاضب أكثر حساسية للضوضاء كأجراس الهاتف والباب وأكثر حساسية للمس وللضوء والروائح مما قد يجعله في حالة متزايدة من الإثارة ويزيد من حجم المشاكل.

الهدى النبوي في منع وقوع الغضب:

إن من فضل الله ﷻ على المسلمين أن جعل لهم قدوة يقتدون بها؛ تتمثل فيها مكارم الأخلاق التامة؛ التي أخذت من مشكاة النبوة وذلك هو رسول الله ﷺ الذي أننى عليه ربه ﷻ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

ومن مكارم الأخلاق التي عنيت بها السنة وأمر بها القرآن العظيم الحلم، ومجاهدة نوازع الغضب، وكظم الغيظ؛ والعفو عند المقدرة حتى في مواجهة المتطاولين والجهلاء وفي ذلك منهج رباني أمرنا كمسلمين بالأخذ به، وهدى نبوي يحقق لنا النجاح في الدنيا والنجاة في الآخرة.

وقد جاءت السنة النبوية المطهرة بخطة فعالة لمنع وقوع الغضب ومن ثم تفادي تأثيره على الفرد والمجتمع. وقد أوتي رسول الله ﷺ - كما نعلم من سيرته المباركة - أوفى قدر من الحلم وضبط النفس عند الغضب.

ومن الهدى النبوي في منع وقوع الغضب:

١- الأمر المباشر: "لا تغضب":

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَوْصِنِي، قَالَ: «لَا تَغْضَبُ» فَرَدَّدَ مَرَارًا، قَالَ: «لَا تَغْضَبُ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

٢- الترغيب في رضا الله ﷻ وحبّه:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمَ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ عَيْظٍ كَظْمِهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ». (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني). وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ كَظَمَ عَيْظًا وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمِضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَضًى يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (رواه الطبراني، وحسنه الألباني). وقد مدح النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أشجَّ عبد القيس فقال: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُجِبُهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاءُ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

٣- الترغيب في الجنة:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُءُوسِ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُخَيَّرَهُ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ» (رواه أبو داود والترمذي، وحسنه الألباني). وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَدْخِلُنِي الْجَنَّةَ»، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ وَلَكَ الْجَنَّةُ» (رواه الطبراني، وصححه الألباني).

٤- الترغيب ببيان أن الشدة والشجاعة في حجز النفس عن الغضب:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصَّرْعَةِ؛ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» (رواه البخاري ومسلم).

(بِالصَّرْعَةِ) بِضَمِّ الصَّادِ وَفَتْحِ الرَّاءِ: الَّذِي يَصْرَعُ النَّاسَ كَثِيرًا بِقُوَّتِهِ، وَالْهَاءُ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الصِّفَةِ، وَالصَّرْعَةُ بِسُكُونِ الرَّاءِ بِالْعَكْسِ وَهُوَ مَنْ يَصْرَعُهُ غَيْرُهُ كَثِيرًا.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يَصْطَرِعُونَ فَقَالَ: «مَا هَذَا؟»، قَالُوا: «فَلَانٌ مَا يُصَارِعُ أَحَدًا إِلَّا صَرَعَهُ». قَالَ: «أَفَلَا أَدْلُكُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ، رَجُلٌ كَلَّمَهُ رَجُلٌ فَكَظَمَ غَيْظَهُ فَغَلَبَهُ وَغَلَبَ شَيْطَانَهُ وَغَلَبَ شَيْطَانَ صَاحِبِهِ». (رَوَاهُ الْبَزَّازُ، بِسَنَدٍ حَسَنٍ).

٥- الترهيب من فساد الإيثار وغضب الله ﷻ:

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي، «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ»، فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ»، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ»، قَالَ: فَقُلْتُ: «لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا». (رواه مسلم).

٦- القدوة بالمثال: هديه ﷺ في التحلم والتبسم في مواطن الغيظ والغضب

للنفس، وهذه السمة من أخلاقه ﷺ واضحة في عدة أحاديث من أبرزها حديث أنس ابن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظٌ

الْحَاشِيَّةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبَذَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبَذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُحَمَّدُ مُرُّ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ»، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). (الْبُرُودُ): جَمْعُ بُرْدَةٍ، كِسَاءٌ أَسْوَدٌ مُرَبَّعٌ فِيهِ صُورٌ تَلْبَسُهُ الْأَعْرَابُ. (جَبَذَهُ): جَذَبَهُ.

٧- نهي الصائم عن الغضب:

قال ﷺ: «الصَّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمٌ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ، وَلَا يَصْحَبْ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ» (رواه البخاري ومسلم).

يكون الصائم أكثر استجابة لدواعي الغضب في آخر النهار عندما ينقص السكر في الجسم. فالصائم إذا غضب وانفعل ازداد إفراز الأدرينالين ٢٠ إلى ٣٠ ضعفاً عن معدله العادي.

فإن حدث هذا في أول الصوم أثناء فترة الهضم والامتصاص اضطرب هضم الغذاء وامتصاصه ذلك لأن الأدرينالين يعمل على ارتخاء العضلات الملساء في الجهاز الهضمي ويقلل من تقلصات المرارة ويعمل على تضيق الأوعية الدموية الطرفية وتوسيع الأوعية التاجية كما يرفع الضغط الدموي الشرياني ويزيد كمية الدم الواردة إلى القلب وعدد دقاته.

وإن حدث الغضب في منتصف النهار أو آخره أثناء فترة ما بعد الامتصاص تحلل ما تبقى من مخزون الجليكوجين في الكبد وتحلل بروتين الجسم إلى أحماض أمينية وتأكسد المزيد من الأحماض الدهنية. كل ذلك ليرتفع مستوى الجلوكوز في الدم فيحترق ليمد الجسم بالطاقة اللازمة في الشجار وبهذا تُستهلك الطاقة بغير ترشيد وبالتالي يهدر الجسم كميةً من الطاقة الحيوية الهامة بغير فائدة تعود عليه ويضطر إلى استهلاك الطاقة من الأحماض الدهنية التي يؤكسد المزيد منها وقد تؤدي إلى تولد الأجسام الكيتونية الضارة في الدم.

كما أن الارتفاع الشديد للأدرينالين في الدم يعمل على الآتي:

- خروج كميات كبيرة من الماء من الجسم بواسطة الإدرار البولي.
- يؤدي لنوبات قلبية أو موت الفجأة عند الأشخاص المهَّيَّين لذلك؛ نتيجة لارتفاع ضغط الدم وارتفاع حاجة عضلة القلب للأوكسجين من جراء ازدياد سرعته.
- وقد يسبب النوبات الدماغية لدى المصابين بارتفاع ضغط الدم.
- يزيد من تكون الكوليسترول من الدهون منخفضة الكثافة وثبتت علاقته بتصلب الشرايين.

وسبحان الله العظيم، فما أعجب نصح النبي ﷺ الصائم بالسكينة وعدم الغضب.

هل هناك برامج مطبقة لمنع وقوع الغضب؟

أطلق الموقع الإخباري (بي بي سي) بتاريخ ٢٥ مارس ٢٠٠٨ صحيفة في تقرير بعنوان "مشاكل الغضب بلا علاج" جاء فيه: مؤسسة الصحة النفسية تقول: «لا يتم التعامل مع الغضب إلا بعد أن يرتكب شخص ما جريمة عنف مدمرة» في إشارة واضحة أنه ليس هناك برامج لمنع وقوع الغضب!

يقول التقرير أيضًا: «نحتاج للمزيد من الأبحاث وطرق التعليم لمواجهة الغضب والتدخل المبكر قبل المشاكل الناتجة عنه». «حالات الغضب الشديد والمزمن ترتبط بأمراض القلب والسرطان والصدمات الدماغية وأذى النفس بل والأمراض المُعدية كالانفلوانزا».

وقال المدير التنفيذي للمؤسسة الدكتور "أندرو مكلوك": «إنه لمستنكرٌ أن يخذل الناس حين يتعلق الأمر بالغضب بينما تتم مساعدتهم لعلاج الإحباط والقلق واضطرابات الغذاء وكثير من الأدوية النفسية. وأجمع الباحثون أن التغلب على مشكلة الغضب بات أمرًا ليس سهلًا!».

وأكد التقرير أن الغضب أصبح معضلة كبرى تشمل ربع المجتمع إحصائياً ونادى بضرورة ألا يغضب الإنسان - خاصة الشباب - كوسيلة لهدف هو علاج غالبية مشاكل المجتمع.

الهدى النبوي في منع الغضب:

لقد بين لنا النبي ﷺ بنور وحي النبوة خطورة انفعالات الغضب قبل أن يكتشفها الطب بقرون ودعا المسلمين - بحكمة - إلى تفادي الغضب فكثرت أحاديثه التي وردت بها تلکم النصيحة الذهبية الغالية "لا تغضب" والتي ثبت نفعها العظيم طبيًا ونفسيًا، وقدم النبي ﷺ أساليب مختلفة في الترغيب في حفظ النفس من الغضب، ثم الترهيب من الوقوع فيه، أساليب شملت العلم والعمل، آخذًا بأيدي المسلمين إلى جادة الصواب رحمةً بهم وحفاظًا على صحة أبدانهم من مجموعة من الأمراض المهلكة.

الهدى النبوي في معالجة الغضب:

١- السكوت فور الغضب:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عَلِّمُوا، وَيَسِّرُوا، وَلَا تَعَسِّرُوا، وَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وصححه الألباني).

٢- الاستعاذه بالله من الشيطان الرجيم:

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَرَجُلَانِ يَسْتَبَانِ، فَأَحَدُهُمَا أَحْمَرٌ وَجْهُهُ، وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ» (رواه البخاري ومسلم).

ينصح علماء الطب النفسى الأشخاص الذين يتعرضون إلى نوبات الغضب إلى تمارين خاصة تؤدي إلى نتائج مذهلة، هذه التمارين تسبب استرخاء في الذهن يؤدي إلى انطفاء نار الغضب وإخماد الثورة العصبية، منها أن يعد الشخص من ١.٢.٣.. وحتى ٣٠ قبل أن ينطق بأي حرف.

هذه الحقائق في مجال الطب النفسى سبق بها وطبقها النبي ﷺ قبل الأطباء بقرون حين أمر الغاضب أن يسكت وذلك أن الغاضب ربما يخرج عن شعوره فيتلفظ بكلمات قد يكون فيها كفر أو سب يجلب له العداوات أو طلاق يهدم بيتاً، فالسكوت حل وقائي لتلافي كل ذلك أولاً ثم أن يتعوذ بالله وهذا أفضل ولا شك من أن يعد أرقاماً بل أنه الأمثل لاستعانتة بالله أن يدرء عنه الغضب ويعيده ممن يدفعه إليه ألا وهو الشيطان.

٣- تغيير الوضعية:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْعُضْبُ، وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ» (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ).

إن القائم مُتَهَيِّئٌ للحركة والبطش والقاعد دونه في هذا المعنى، والمضطجع ممنوع منها، فيشبه أن يكون النبي ﷺ إنما أمره بالعودة والاضطجاع لئلا ييدر منه في حال قيامه وعوده بادرة يندم عليها فيما بعد.

وقد جاء في كتاب "هاريسون الطبى" أنه من الثابت علمياً أن هرمون الأدرينالين يزداد بنسبة ٢-٣ أضعاف لدى الوقوف بهدوء لمدة خمس دقائق، ويرتفع ارتفاعاً بسيطاً في الوقوف لكن الضغوط النفسية تزيد من نسبته في الدم، ولا شك أن العاملين معاً، الغضب والوقوف يرفع نسبة الهرمونين بشكل كبير.

هدي الإسلام في العطاس والتثاؤب

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَطَّاسَ وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ، فَإِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ وَحَمِدَ اللَّهَ، كَانَ حَقًّا عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، وَأَمَّا التَّثَاؤُبُ: فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَزِدْهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا تَثَاءَبَ ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُمْسِكْ بِيَدِهِ عَلَى فِيهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ» (رواه مسلم). وفي رواية: «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَضَعْ يَدَهُ عَلَى فِيهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ مَعَ التَّثَاؤُبِ» (رواه الإمام أحمد، وصححه الألباني).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَزِدْهُ مَا اسْتَطَاعَ، وَلَا يَقُلْ: آهَ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا فَتَحَ فَاهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَضْحَكُ مِنْهُ» (رواه الإمام أحمد في المُسْنَدِ، وصححه الألباني).

إن الأطباء في العصر الحاضر يقولون: التثاؤب دليل على حاجة الدماغ والجسم إلى الأوكسجين والغذاء، وعلى تقصير جهاز التنفس في تقديم ما يحتاجه الدماغ والجسم من الأوكسجين، وهذا ما يحدث عند النعاس والإغماء وقبيل الوفاة فإذا بقي الفم مفتوحًا أثناء التثاؤب تسرّب مع هواء الشهيق إلى داخل الجسم مختلف أنواع الجراثيم والغبار والهباء والهوام.

والعطاس هو عكس التثاؤب، فهو قوي ومفاجئ يخرج معه الهواء بقوة من الرئتين عن طريقي الأنف والفم، فيجرف معه ما في طريقه من الغبار والهباء والهوام والجراثيم لذلك كان من الطبيعي أن يكون العطاس من الرحمن لأن فيه فائدة للجسم،

وأن يكون التثاؤب من الشيطان لأن فيه ضرراً للجسم، وحق على المرء أن يحمده الله ﷻ على العطاس، وأن يضع يده على فمه في حالة التثاؤب (١).

والتدبير النبوي الرائع في العطاس أن يضع العاطس يده على فمه ليمنع وصول الرذاذ إلى الجالسين؛ فقد كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا عَطَسَ وَضَعَ يَدَهُ أَوْ ثَوْبَهُ عَلَى فِيهِ وَخَفَّضَ بِهَا صَوْتَهُ. (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

وهذا الأدب النبوي له حكمته الصحية الجليلة إذ يندفع مع العطاس رذاذه إلى مسافة بعيدة يمكن أن يصل معها إلى الجالسين مع العاطس أو أن يصل إلى طعام أو إلى شراب قريب منه، وهذا يمكن أن ينقل العدوى بمرض ما (كالزكام) - إذا قدر الله ﷻ - إن كان العاطس مصاباً به وليس من خُلق المسلم في أن يتسبب في شيء من ذلك لذا علمنا رسول الله ﷺ الأدب في أن نضع يدنا أو منديلاً على فمنا عند العطاس لمنع وصول رذاذه إلى الغير وفي ذلك غاية الأدب ومنتهى الحكمة.

لغز التثاؤب:

التثاؤب فترة تعتري الشخص فيفتح عندها فمه. وهو فعل طبيعي من أفعال التنفس يشترك فيه الإنسان مع غيره من الكائنات؛ فالسمك، والطيور، والزواحف بل معظم الثدييات ومنها القطط تتشاءب، وفي الإنسان يبدأ التثاؤب في رحم الأم، ولا يتوقف إلا مع انتهاء العمر.

(١) لم يرد أن الإنسان إذا تناءب يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وإنما الوارد أن يكتفم الإنسان التثاؤب ما استطاع، وإذا لم يستطع فليضع يده على فيه، والنبى ﷺ أرشد إلى هذا عند التثاؤب، ولم يقل: وليستعد بالله من الشيطان الرجيم.

وللتأؤب عند المسلم آداب بيئها الهدي النبوي منها:

- محاولة كظم التأؤب ورده قدر الإمكان.
- وضع اليد على الفم.
- عدم قول: آه، آه.

وأضيف التأؤب إلى الشيطان لأنه يدعو إلى الشهوات، إذ يكون مع ثقل البدن واسترخائه وامتلائه، والمراد التحذير من السبب الذي يتولد عنه ذلك وهو التوسع في الأكل، وما يكون معه من ميل إلى الكسل والنوم. وقد صرح العلماء بكراهة التأؤب مطلقاً في كل حالة، وأنه غير مقيد بعبادة كصلاة وقراءة قرآن.

والتأؤب قد يكون تمهيداً للنوم، وآية على الرغبة الدالة عليه، ولكنها ليست رغبة فيه. وهو عند الأطباء فعلٌ من أفعال التنفس الذي يتم بطريقة رد الفعل! كغمض العين مثلاً، إذا رأت شيئاً سيصيبها، كما قد يكون مفيداً للصحة (أو علامة اعتلال). ومن غرائب تلك (العدوى النفسية) الموجودة فيه، فما إن يتشاءب شخص ما في مجلس، حتى تسري (العدوى التأؤبية) إلى معظم الحاضرين (٥٥٪)، بل إن المتأؤب الجيد يصيب سبعة آخرين بعدواه.

ومن المعلوم أنّ فعل التأؤب يُشرك معه عدة أجزاء من الجسم: فالفم يفتح، والفكّان يفترقان، تهيئةً لشهيق كثير من الهواء، والذي بدوره يمدد الرئتين، فتتشد عضلات البطن دافعةً بالحجاب الحاجز باتجاه القدمين، ثم يتلو ذلك زفير بعض من الهواء.

ومن الحقائق اللطيفة في موضوع التأؤب ما يلي:

- تستغرق التأؤبة الواحدة (٦) ثوان.
- يزداد معدل نبض القلب بمقدار (٣٠٪) خلال التأؤبة الواحدة.
- قد يتشاءب (٥٥٪) من الناس خلال (٥) دقائق من رؤيتهم لشخص يتشاءب.

- قد يتشاءب كيف البصر أكثر عند سماعه لشريط فيه ثاؤب الآخرين.
- القراءة عن الثاؤب قد تجعلك تتشاءب.

إن الهدى النبوي في آداب الثاؤب يدل على التالي:

١- دلالة إيمانية غيبية:

لحبس دخول الشيطان في جوف المثائب، كجولات الإنسان مع الشيطان حال المبيت، والعشاء، والنوم .. إلخ. وعلينا تصديقها والإيمان بها فقط دون تعليلها.

٢- دلالة اجتماعية سلوكية:

للتقليل من إشاعة المظهر والسلوك غير المستحسن في المجتمع المسلم، كما يظهر باطن الفم لدى المثائب، ونشر دواعي الكسل والاسترخاء في المجتمع المثائب. والمجتمع المسلم، يُفترض أن تغلب عليه مظاهر النشاط والحيوية، والجد والاجتهاد. فإن كان لابد منه (فطرياً)، فلا أقل من التقليل من أثره بسلوك الهدى النبوي في ذلك.

الفصل الرابع
الإعجاز الغيبي
في القرآن الكريم
والسنة النبوية الصحيحة

أشبهت إن شاء الله
أشبهت إن شاء الله

قال تعالى:

﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥٣).

الإعجاز الغيبي

في زمن سادت فيه الأساطير والخرافات والجهل وعبادة الأصنام، وفي عصر كان الناس يقتتلون سنوات طويلة من أجل ناقة!! وفي عصر كانت الطفلة تُدفن حيّة في التراب ليس لها ذنب إلا أنها أنثى! وفي زمن كان الرجل يشتري إلهاً مصنوعاً من التمر، فإذا جاع أكله!! في هذه الظروف جاء نبي الرحمة ﷺ، وجاء معه النور والهدى والحق، لقد جاء ليغير العالم إلى يوم القيامة.

ولكن هذا النبي ﷺ لم يكن بشراً عادياً بل نبيّ مرسل ومؤيد من الله ﷻ الذي خلق هذا الكون وخلق كل شيء وهو أعلم بكل شيء، وشاء الله ﷻ لرسالة الإسلام أن تنتشر في العالم كله، وقد أيده الله ﷻ بمعجزات غيبية عظيمة، فكان يخبر بأحداث ستقع بعد مئات السنين، في زمن لم يكن أحد يتوقع حدوث مثل هذه الأشياء.

بل إن النبي ﷺ في ذلك الزمن لم يكن متفرغاً لمثل هذه الأمور، فهو الذي يحمل همّ الأمة وهمّ الدعوة، ولديه مهام صعبة جداً في إقناع المشركين بتغيير عقيدتهم الفاسدة، فكانت المعجزة تسير مع نبينا محمد ﷺ في كل مكان.

فقد شقّ الله له القمر، ونصره على أعدائه، بل إن أعداء الإسلام انقلبوا إلى الإيوان وكانوا جنوداً أوفياء لنبئهم وحببهم وقائدهم ﷺ. ولذلك لو فرضنا جدلاً أن هذا النبي ﷺ لم يكن صادقاً وكان يريد الشهرة والسلطان والمال، فلماذا يقحم نفسه في الحديث عن أشياء غيبية ستحدث بعد وفاته؟ بل ماذا سيستفيد من هذه الأحاديث لو لم يكن صادقاً؟ ولذلك فإن مثل هذه الأحاديث هي دليل ملموس في عصرنا هذا على صدق رسالة هذا النبي الخاتم ﷺ، وأنه نبي من عند الله تعالى.

إن الإعجاز الغيبي هو إخباره ﷺ بغيوب ماضية أو تحققت في حياته، وبعد وفاته ﷺ، فالغيب سر الله ﷻ، فهو وحده تبارك وتعالى الذي يعلم السر وأخفى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ

وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَأْسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿
(الأنعام: ٥٩).

والنبي ﷺ كسائر البشر لا يعلم الغيب؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّمَا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ٥٠)، فإذا ما أخبر النبي عن شيء من الغيوب؛ فإنما يخبر بشيء من علم الله الذي خصه به وأطلععه عليه، ليكون برهان نبوته ودليل رسالته.

وقال بعض أهل العلم إن النبي ﷺ قد أخبر عن ما يقرب من ألف أمرٍ غيبي، بعضها في القرآن، وبعضها في السنة، وكل منها دليل على نبوته ورسالته. والغيوب التي أخبر بها ﷺ على ضرب، فمنها ما تحقق حال حياته ﷺ، ومنها بعده، ومنها ما يكون قريباً من الساعة، وفي كل ذلك دلائل على نبوته ورسالته ﷺ.

أنواع الإعجاز الغيبي في القرآن والسنة:

١- غيب الماضي:

ويقصد به إنباء القرآن والسنة عن أخبار الماضين وقصص السابقين، كقصة آدم، وقصة نوح، وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام. وذكر تفصيلات تلك القصص يدل على أن القرآن كلام الله ﷻ وليس كلام رسوله محمد ﷺ، لأنه من المتفق عليه أن الرسول ﷺ أمي لا علم له بأخبار السابقين ولم يحضر هذه الحوادث، وأن الله ﷻ هو الذي يُخبره بها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطَلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعُقُوبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: ٤٩). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٢).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ
أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران: ٤٤). وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتَلَوُا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾
(القصص: ٤٥). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرْفَةِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ
مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (القصص: ٤٤).

وقد تخطى القرآن في إعجازه الإخبار المحض الذي أذعن له أهل الكتاب، إلى بيان التحريف الذي وقع في التوراة والإنجيل، وتحدى أهل الكتاب أن يكذبوه إن استطاعوا.

ويدخل في الإعجاز الغيبي كل ما أخبر عنه القرآن الكريم والسنة من حوادث ماضية لم يشهدها النبي ﷺ، وكذا ما تحدث عنه القرآن منذ خلق الكون، وما وقع منذ خلق آدم عليه السلام، إلى مبعث رسول الله ﷺ.

٢- غيب الحاضر:

ويراد به إخبار القرآن والسنة عن عوالم الغيب الموجودة وقت نزوله.

ومن ذلك الكلام عن عوالم الغيب الموجودة والتي لم يرها الناس بأبصارهم ولم يتعاطوا معها بحواسهم، كالحديث عن أسماء الله وصفاته وأفعاله، وكالحديث عن الملائكة والجن ومشاهد الموت والاحتضار ... الخ

ومن الإخبار المعجز نعيه ﷺ لقادة مؤتة الثلاثة - وقد استشهدوا في الشام - وهو في المدينة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبْرُهُمْ، فَقَالَ: «أَخَذَ الرَّأْيَةَ زَيْدٌ فَأَصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأَصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأَصِيبَ - وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ - حَتَّى أَخَذَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ». (رواه البخاري). فالذي أعلم النبي ﷺ بمقتلهم قبل أن يأتي خبرهم إلى الناس هو الله علام الغيوب سبحانه.

ومن دلائل نبوته ﷺ إخباره عن موت النجاشي في أرض الحبشة في يوم وفاته، مع بُعد ما بين أرض الحبشة والمدينة، فهذا خبر تحمله الركبان يومذاك في شهر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَعَى لِلنَّاسِ النَّجَاشِيَّ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى الْمُصَلَّى وَكَبَّرَ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ. (رواه البخاري ومسلم).

ومما أطلع الله نبيه ﷺ عليه من الغيوب التي لا يعرفها لولا إخبار الله له؛ خبر كتاب حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه الذي أرسله إلى قريش مع امرأة، يخبرهم فيه بعزم النبي ﷺ على غزو مكة.

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا مَرْثِدَ الْغَنَوِيِّ، وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ، وَكُلُّنَا فَارِسٌ، قَالَ: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ حَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مَعَهَا كِتَابٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ» فَأَدْرَكْنَاهَا نَسِيرًا عَلَى بَعِيرٍ لَهَا، حَيْثُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْنَا: «الكِتَابُ»، فَقَالَتْ: «مَا مَعَنَا كِتَابٌ»، فَأَنْخَنَاهَا فَالْتَمَسْنَا فَلَمْ نَرِ كِتَابًا، فَقُلْنَا: «مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُجَرِّدَنَّكَ»، فَلَمَّا رَأَتْ الْجِدَّ أَهْوَتْ إِلَى حُجْرَتِهَا، وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ، فَأَخْرَجَتْهُ. (رواه البخاري ومسلم).

ومن ذلك كشف أسرار ومكائد المنافقين الذين كانوا يكيدون في الخفاء للإسلام وأهله، وينسجون المؤامرات للقضاء عليه. ومع ذلك: كانت الآيات القرآنية تنزل بكشف عوارهم وإظهار ما يبطنون من النفاق والمكر، كالكشف عن حقيقة قصد المنافقين من مسجد الضرار، وتآمرهم على اغتيال النبي ﷺ في طريق عودته من تبوك.

٣- غيب المستقبل:

وهو إخبار النبي ﷺ بأمور تقع في المستقبل، فجاءت كما أخبر، لم تتخلف أو تتغير، وهذا ما لا سبيل للبشر إليه بحال، وقد أخبر رضي الله عنه عن كثير من الوقائع قبل وقوعها، وتمت كما ذكر، وبالكيفية التي وضحها. علمًا بأن ما سيأتي حدوثه من الوقائع في مستقبل الأيام لا يعلمه - بلا شك - إلا الله عز وجل، وقد أعلن الرسول رضي الله عنه أنه لا يعلم شيئًا من الغيب علمًا ذاتيًا، ولكنه يعلم الغيب الذي يعلمه الله إياه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَمْرٌ لِي بِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٨). ومع هذه الحقيقة فقد ورد في القرآن الكريم آيات صريحة تتحدث عن أخبار مستقبلية.

وفي اشتغال القرآن الكريم والسنة النبوية على أخبار غيبية، وتصديق الوقائع لما جاء فيهما، ولو في جزئية بسيطة، لدليل على أنه وحِيٌّ ممن خلق الأرض والسموات العلى، وأنزله على رسوله ﷺ ليكون دلالة على صدقه، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

نماذج من الإعجاز الغيبي في القرآن والسنة

إخبار القرآن بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين:

ومن إخباره ﷺ بالغيوب تنبؤه بهزيمة الفرس وغلب الروم، في وقت كادت دولة الفرس أن تزيل الإمبرطورية الرومانية من خارطة الدنيا، فقد وصلت جيوش كسرى أبرويز الثاني إلى وادي النيل، ودانت له أجزاء عظيمة من مملكة الرومان. سنواتٌ معدودة تمكّن فيها جيش الفرس من السيطرة على بلاد الشام وبعض مصر، واحتلت جيوشهم أنطاكيا شمالاً، مما أذن بنهاية وشيكة للإمبرطورية الرومانية. وأمام هذا الطوفان الفارسي أراد هرقل ملك الروم أن يهرب من عاصمة ملكه القسطنطينية، وكاد أن يفعل لولا أن كبير أساقفة الروم أقنعه بالصمود وطلب الصلح الذليل من الفرس.

ووسط هذه الأحداث - وخلافاً لكل التوقعات - أعلن النبي ﷺ في أجواء مكة المتربصة به وبدعوته أن الروم سينتصرون على الفرس في بضع سنين، أي فيما لا يزيد عن تسع سنين، فقد نزل عليه قول الله تعالى: ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ (الروم: ٢ - ٦).

يقول المؤرخ إدوار جين: «في ذلك الوقت، حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة، لم تكن أية نبوءة أبعدَ منها وقوعاً، لأن السنين العشر الأولى من حكومة هرقل كانت تُؤذَن بانتهاء الإمبراطورية الرومانية»^(١).

لقد كان النبي ﷺ يتنبأ بانتصار المهزوم الذي يكاد يستسلم لخصمه، ويحدد موعداً دقيقاً لهذا النصر الذي ما من شيء أبعد في تحققه منه. وتناقلت قريش هذه النبوءة الغربية التي خالفت أهواءهم التي مالت إلى جانب الفرس إخوانهم في الوثنية، بينما أحب المسلمون انتصار الروم لأنهم أهل كتاب، واستبشروا بالخبر.

لقد كان الأمر كما تنبأ ﷺ، ففي عام ٦٢٣ م وما بعدها استطاع هرقل أن يتخلص من لهوه ومجونه، وشن ثلاث حملات ناجحة أخرجت الفرس من بلاد الرومان.

وفي عام ٦٢٦ م واصل الرومان زحفهم حتى وصلوا إلى ضفاف دجلة داخل حدود الدولة الفارسية، واضطر الفرس لطلب الصلح مع الرومان بعد هزيمتهم في معركة نينوى، فمن ذا الذي أخبر النبي محمداً ﷺ بهذه النبوءة العظيمة؟ إنه وحي الله، وهو دليل رسالته ونبوته ﷺ.

عَنْ نِبَارِ بْنِ مُكْرَمٍ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الْم ١﴾ غَلَبَتِ الرُّومَ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿٤﴾ [الرُّوم: ١ - ٤]، فَكَانَتْ فَارِسُ يَوْمَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَاهِرِينَ لِلرُّومِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُجِبُونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الرُّوم: ٤ - ٥).

(١) تاريخ سقوط وانحدار الإمبراطورية الرومانية، إدوار جين (٧٤/٥).

فَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُحِبُّ ظُهُورَ فَارِسَ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ وَلَا إِيْمَانٍ
بِعَيْتٍ فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه يَصِيحُ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ
﴿الْم ١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي
بِضْعِ سِنِينَ ﴿الرُّوم: ١ - ٤﴾.

قَالَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ لِأَبِي بَكْرٍ: «فَذَلِكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ زَعَمَ صَاحِبُكُمْ أَنَّ الرُّومَ
سَتَغْلِبُ فَارِسًا فِي بِضْعِ سِنِينَ أَفَلَا نُرَاهِنُكَ عَلَى ذَلِكَ؟». قَالَ: «بَلَى». وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ
الرَّهَانِ ^(١). فَارْتَهَنَ أَبُو بَكْرٍ وَالْمُشْرِكُونَ وَتَوَاضَعُوا الرَّهَانَ وَقَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ كَمْ مَجْعَلُ
الْبِضْعِ ثَلَاثَ سِنِينَ إِلَى تِسْعِ سِنِينَ فَسَمَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَسَطًا تَنْتَهَى إِلَيْهِ.

فَسَمَّوْا بَيْنَهُمْ سِتَّ سِنِينَ، فَمَضَتْ السِّتُّ سِنِينَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا فَأَخَذَ الْمُشْرِكُونَ
رَهْنَ أَبِي بَكْرٍ فَلَمَّا دَخَلَتِ السَّنَةُ السَّابِعَةُ ظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ فَعَابَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى
أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ سِتِّ سِنِينَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾.

وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ. (رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ).

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُجِبُونَ أَنْ يَظْهَرَ الرُّومُ
عَلَى فَارِسَ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُجِبُونَ أَنْ تَظْهَرَ فَارِسُ عَلَى الرُّومِ؛ لِأَنَّهُمْ
أَهْلُ أَوْثَانٍ، فَذَكَرَ ذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ لِأَبِي بَكْرٍ فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ صلوات الله عليه فَقَالَ: «أَمَّا إِنَّهُمْ
سَيَظْهَرُونَ».

فَذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ ذَلِكَ لِلْمُشْرِكِينَ، فَقَالُوا: «اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا، إِنْ ظَهَرُوا كَانَ
لَكَ كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا». فَجَعَلَ أَجَلًا خَمْسَ سِنِينَ فَلَمْ يَظْهَرُوا

(١) الرَّهَانُ: الْمُخَاطَرَةُ: أَنْ يَتَرَاهِنَ شَخْصَانِ أَوْ جِزْبَانِ عَلَى شَيْءٍ يُمَكِّنُ حُصُولَهُ كَمَا يُمَكِّنُ عَدَمَ حُصُولِهِ
بِدُونِهِ، كَأَنْ يَقُولَا مَثَلًا: إِنْ لَمْ تُنْطِرِ السَّيِّئُ غَدًا فَلَكَ عَلَيَّ كَذَا مِنَ الْمَالِ، وَإِلَّا فَلِي عَلَيْكَ مِثْلُهُ مِنَ الْمَالِ، وَالرَّهَانُ
بِهَذَا الْمَعْنَى حَرَامٌ وَهُوَ صُورَةُ الْقَهَارِ الْمُحَرَّمِ.

فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَلَا جَعَلْتَهُ - أَرَاهُ قَالَ: - دُونَ الْعَشْرِ». قَالَ: فَظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَقَالَ سَعِيدٌ: «الْبِضْعُ مَا دُونَ الْعَشْرِ» - قَالَ: فَظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْم ١ غَلَبَتِ الرُّومُ ٢﴾ فِي آدِنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِيضِ سِنِينَ ٥﴾ (الرُّوم: ١ - ٤)، قَالَ: فَغَلَبَتِ الرُّومُ ثُمَّ غَلَبَتْ بَعْدُ، قَالَ: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصِرِ اللَّهُ ٥﴾ (الرُّوم: ٤ - ٥). قَالَ: ﴿يَفِرُّ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصِرِ اللَّهُ ٥﴾ (رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالحَاكِمُ وَالبَيْهَقِيُّ، وَصَحَّحَهُ الألباني).

تحدي العرب بأنهم سيعجزون، ولن يأتوا بمثل هذا القرآن:

تأمل في قول الله ﷻ وهو يتحدى العرب بفصاحتهم وبلاغتهم تصريح القرآن بعجز الناس أن يأتوا بمثل القرآن، وأن يأتوا بعشرِ سُورٍ من سُورِهِ، ثم تحداهم أن يأتوا بسورةٍ واحدة.

وختم تحديه بتصريحه للحقيقة التي بقيت خالدة مدى الدهر: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النِّارَ الَّتِي وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٣ - ٢٤). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

القرآن يكذب وعود المنافقين لليهود:

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ شَهِدٌ لِنَهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ﴾ (الحشر: ١١ - ١٢).

وذلك: حين وعد المنافقون بزعامة عبد الله بن أبي بن سلول يهود بني قريظة والنضير أن ينصروهم ويخرجن معهم إن أخرجوا منه، وفي هذا الإخبار: دليل على صحة النبوة، لأنه إخبار بالغيوب. ثم قاتل النبي ﷺ يهود بني قريظة ويهود بني النضير وأخرجهم، فخذلهم المنافقون حين قوتلوا، ولم يخرجوا معهم حين أخرجوا.

إخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عن كيفية ومكان وفاة بعض معاصريه:

ومن دلائل نبوته وأمارات رسالته ﷺ ما أخبر به عن أمور تتعلق بوفاة بعض أصحابه وأهل بيته وغيرهم من أعدائه، وتبينه لكيفية ومكان وحال مصرعهم، وهو علم لا يعرفه النبي ﷺ من تلقاء نفسه. فالموت وما يتعلق به علمٌ اختص الجبار - تبارك وتعالى - بنفسه بمعرفته، فهو وحده من يعرف أعمار البشر وأماكن قبض أرواحهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان: ٣٤).

وقد أعلم الله نبيه ﷺ بزمان أو كيفية موت بعض أصحابه وأهل بيته، كذلك بعض أعدائه، فأخبر به ﷺ، فكان تحققه برهاناً على نبوته وعلماً من أعلام رسالته، إذ لا يمكن لأحد معرفة ذلك ولا التنبؤ به إلا من قبل الله علام الغيوب. ومن هذه الأنباء الباهرة؛ إخباره ﷺ عن استشهاد عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير رضي الله عنهم، وأنهم لن يموتوا على فرسهم أو سواه مما يموت به الناس.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَلَى حِرَاءٍ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ فَتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَهْدَأُ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ». (رواه مسلم).

وفي هذا الحديث معجزات لرسول الله ﷺ: منها إخباره أن هؤلاء شهداء، وماتوا كلهم غير النبي ﷺ وأبي بكر الصديق شهداء؛ فإن عمر وعثمان وعلياً وطلحة والزبير رضي الله عنهم قتلوا ظلماً شهداء.

ومن دلائل نبوته وأعلام صدقه ﷺ إخباره ﷺ ببقاء فاطمة بعده، وأنها أول أهل بيته وفاةً. وقد توفيت بعده ﷺ بستة أشهر فقط، فكانت أول أهل بيته وفاةً.

قالت عائشة رضي الله عنها: كُنَّ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَهُ لَمْ يُغَادِرْ مِنْهُنَّ وَاحِدَةً فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي مَا تُخْطِي مِشْيَتَهَا مِنْ مِشْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا فَلَمَّا رَأَاهَا رَحَبَ بِهَا فَقَالَ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي». ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ سَارَهَا فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَى جَزَعَهَا سَارَهَا الثَّانِيَةَ فَضَحِكَتْ. فَقُلْتُ لَهَا: «خَصَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ بِالسَّرَارِ ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلْتُهَا: «مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»، قَالَتْ: «مَا كُنْتُ أَفْشَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سِرَّهُ».

قالت عائشة رضي الله عنها: فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: «عَزَمْتُ عَلَيْكَ بِمَا لِي عَلَيْكَ مِنْ الْحَقِّ لَمَا حَدَّثْتَنِي مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ».

فَقَالَتْ: «أَمَّا الْآنَ فَنَعَمْ، أَمَّا حِينَ سَارَنِي فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى فَأَخْبَرَنِي: «أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ وَإِنَّهُ عَارِضُهُ الْآنَ مَرَّتَيْنِ وَإِنِّي لَا أَرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدْ أَفْتَرَبَ فَاتَّقَى اللَّهُ وَأَصْبِرِي فَإِنَّهُ نَعَمَ السَّلْفُ أَنَا لَكَ، وَإِنَّكَ أَوْلُ أَهْلِ بَيْتِي لِحَاقًا بِي». قَالَتْ: «فَبَكَيْتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتِ، فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي سَارَنِي الثَّانِيَةَ فَقَالَ: «يَا فَاطِمَةُ أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ». قَالَتْ: «فَضَحِكْتُ ضَحِكِي الَّذِي رَأَيْتِ» (رواه البخاري ومسلم).

وهذه معجزة ظاهرة له ﷺ، بل معجزتان، فأخبر ببقائها بعده، وبأنها أول أهله لحاقاً به، ووقع كذلك، وضحكت سروراً بسرعة لحاقها.

ومن دلائل نبوته ﷺ تحديد مصارع بعض المشركين في غزوة بدر، ففي اليوم السابق ليوم بدر، تفقد رسول الله ﷺ أرض المعركة المرتقبة، وجعل يشير إلى مواضع مقتل المشركين فيها، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ». وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ هَا هُنَا وَهَا هُنَا، فَمَا مَاطَ أَحَدُهُمْ عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

فَمَا مَاطَ أَحَدُهُمْ عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ مَا تَبَاعَدَ أَحَدُهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ حَدَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْضِعَ قَتْلِهِمْ عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وهذا الحديث من أعلام النبوة ومعجزاتها، وذلك لإنبائه ﷺ بمصرع جابرتهم، وتحديده أماكنه، وقد وقع كما أخبر ﷺ.

وأخبر ﷺ بقتل المسلمين لأمية بن خلف، فعن عبد الله بن مسعود عن سعد بن معاذ رضي الله عنه أنه كان صديقاً لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مر بالمدينة، نزل على سعد بن معاذ، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انطلق سعد بن معاذ معتمراً، فنزل على أمية بمكة، فقال سعد لأمية: «انظر لي ساعة خلوة، لعلِّي أطوف بالبيت».

فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: «يا أبا صفوان من هذا معك؟». قال: «هذا سعد». قال له أبو جهل: «ألا أراك تطوف بمكة أمناً، وقد أويتم الصبابة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله، لولا أنك مع أبي صفوان، ما رجعت إلى أهلِكَ سالماً».

فقال له سعد، ورفع صوته عليه: «أما والله، لئن منعتني هذا، لأمنعك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة». فقال له أمية: «لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم، فإنه سيد أهل الوادي»، وجعل يمسكه، فغضب سعد فقال: «دعنا عنك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّهُمْ قَاتِلُوكَ». (وفي رواية: فَإِنِّي سَمِعْتُ مُحَمَّدًا يَزْعُمُ أَنَّهُ قَاتِلُكَ). قال: «بِمَكَّةَ؟». قال: «لَا أَدْرِي». (وفي رواية: قَالَ أُمِيَّةُ بْنُ خَلْفٍ: «وَاللَّهِ مَا يَكْذِبُ مُحَمَّدٌ»).

ففرغ لذلك أمية فرعاً شديداً، فلما خرجوا، رجع إلى امرأته، فقال: «يا أم صفوان، ألم تربي ما قال لي سعد؟». قالت: «وما قال لك؟». قال: «زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتلي، فقلت له: بمكة؟ قال: لا أدري». فقال أمية: «والله لا أخرج من مكة».

فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، اسْتَنْفَرَ أَبُو جَهْلٍ النَّاسَ فَقَالَ: «أَذْرِكُوا عَيْرَكُمْ». فَكَّرَهُ أُمِّيَّةٌ أَنْ يَخْرُجَ، فَأَتَاهُ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: «يَا أَبَا صَفْوَانَ، إِنَّكَ مَتَى يَرَاكَ النَّاسُ قَدْ تَخَلَّفْتَ وَأَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ الْوَادِي، تَخَلَّفُوا مَعَكَ». فَلَمْ يَزَلْ بِهِ أَبُو جَهْلٍ حَتَّى قَالَ: «أَمَّا إِذْ غَلَبْتَنِي، فَوَاللَّهِ لَأَشْتَرِينَ أَجُودَ بَعِيرٍ بِمَكَّةَ».

ثُمَّ قَالَ أُمِّيَّةٌ: «يَا أُمَّ صَفْوَانَ، جَهِّزِيَنِي». فَقَالَتْ لَهُ: «يَا أَبَا صَفْوَانَ، وَقَدْ نَسِيتَ مَا قَالَ لَكَ أَخُوكَ الْيَثْرِيُّ؟». قَالَ: «لَا، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَجُوزَ مَعَهُمْ إِلَّا قَرِيبًا». فَلَمَّا خَرَجَ أُمِّيَّةٌ، أَحَدًا لَا يَنْزِلُ مَنْزِلًا إِلَّا عَقَلَ بَعِيرَهُ فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قَتَلَهُ اللَّهُ بَدْرًا.

وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: «إِنَّكَ مِنْ أَشْرَافِ الْوَادِي، فَسِرْ مَعَنَا يَوْمَ مَا أَوْ يَوْمَيْنِ»، فَسَارَ مَعَهُمْ، فَقَتَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. (رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ).

والعجب كل العجب من يقين أمية بتحقيق مواعده ﷺ وخوفه من ذلك، لكن أتى له أن يكذب الصادق الأمين الذي مازالوا منذ شبابه يشهدون له بالصدق، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّهَمُوا لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: ٣٣).

ومن أخبار الغيوب الدالة على نبوة النبي ﷺ؛ إخباره بسوء خاتمة بعض من يظن أنهم يموتون على الإسلام أو قد يدخلون فيه، فقد تنبأ النبي ﷺ بهلاك عمه أبي لهب وزوجه على الكفر، حين أخبر - فيما نقله عن ربه - ببقائهما على الكفر وهلاكهما على ذلك، قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ﴾ (المسد: ١ - ٥).

تنبى هذه السورة بأنَّ أبا لهب عم رسول الله ﷺ سيموت كافراً فيُعذب في النار، ولقد أسلم كثير من المشركين الذين حاربوا الإسلام بكلِّ قواهم، كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهم. وظل أبو لهب على عناده وكفره. فكيف أمكن التنبؤ بآئه - بالذات - لن يُسلم ولو نفاقاً وحقناً لدمه، وأنه سيموت على كفره!!

قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة فإنه منذ نزلت هذه السورة فأخبر عنها بالشقاء وعدم الإيوان، لم يُقَيِّضْ لهما أن يؤمنا، ولا واحدٌ منهما، لا باطنًا ولا ظاهرًا، لا مُسِرًّا ولا معلنًا، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة.

الإخبار بانتشار الإسلام وظهور أمره على الأديان، وبلوغه إلى

الآفاق:

وهو أمر غيب لا مدخل فيه للتخمين ورجم الظنون، فإما أنه كاذب صادر من دعِيٍّ، أو هو خبر صادق أوحاه الله ﷻ الذي يعلم ما يُستقبل من الأحداث والأخبار.

وشواهد ذلك كثيرة في القرآن والسنة، منها قوله قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣)، وقد صدقه الله ﷻ فقد ظهر أمره، وتم نوره، وعظم دينه.

وقد قال ﷺ منبئًا عن ملك أمته وسلطانها: «إِنَّ اللَّهَ زَوَىٰ لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا» (رواه مُسْلِمٌ).

وهذا الحديث فيه معجزات ظاهرة، وقد وقعت كلها بحمد الله كما أخبر به النبي ﷺ، وفيه إشارة إلى أن مُلْكَ هذه الأمة يكون معظم امتداده في جهتي المشرق والمغرب، وهكذا وقع، وأمّا في جهتي الجنوب والشمال فقليل بالنسبة إلى المشرق والمغرب. فقد أعلمه الله ﷻ بانتشار دينه، وبسؤدد أتباعه وأمته من بعده على فارس والروم وغيرها من البلاد.

ومثل هذه النبوءة العظيمة بل أعظم منها؛ تنبؤه ﷺ عن بلوغ دينه إلى أقاصي الأرض، فعَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بَعْرَ عَزِيزٍ، أَوْ بَدَلُ ذَلِيلٍ، عَزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذَلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ».

قَالَ تَمِيمٌ رضي الله عنه: «وَقَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ الْحَيْزُ وَالشَّرْفُ وَالْعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِرْيَةُ». (رواه الإمام أحمد في المسند، وصححه الألباني).

وكان تميم الداري رضي الله عنه يؤكد تحقق هذه النبوءة.

وقد بشر النبي صلى الله عليه وآله ببعض الفتوحات فتحققت حال حياته أو بعد وفاته، فكانت دليلاً على نبوته ورسالاته. وقد غادر النبي صلى الله عليه وآله الدنيا ولمَّا يرى بأمر عينه بعضاً مما وعده الله تعالى في دينه وأمته، ولكنها تحققت زمن خلفائه وأتباعه رضي الله عنهم.

لكن العجيب المدهش الذي يلوي الأعناق من أخبار الفتوح أن بعض هذه الأخبار كانت في وقت ضيق المسلمين، وعلى خلاف ما توحى به الأحداث، بل على عكسه ونقيضه، لقد كان النبي صلى الله عليه وآله يتنبأ - وهو في ضنك البلاء والمحنة - بما لا يمكن لأحد أن يحلم به ولو في رؤياه.

فَعَنْ خَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ رضي الله عنه قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بَرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا: «أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا؟!»، فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْمَرُّ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا فَبِجَاءٍ بِالْمَنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ وَيُسْطَبُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكْبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» (رواه البخاري).

إنه صلى الله عليه وآله يتنبأ بتمام أمر دينه، وبأمن أصحابه في زمن ما كانوا يجروون فيه على إعلان دينهم خوفاً من بطش قريش وعذابها.

وفي موقف آخر من المواقف الصعبة التي عانى منها الصحابة رضي الله عنهم ما رواه عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرٌ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الْحَيْرَةَ؟»، قُلْتُ: «لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُبْنِتُ عَنْهَا»، قَالَ: «فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرِينَ الظَّعِينَةَ تَرْتَجِلُ مِنَ الْحَيْرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ، - قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي فَأَيْنَ دُعَاؤُ طَيْئِ

الَّذِينَ قَدْ سَعَرُوا الْبِلَادَ -، وَلَيْنُ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَثُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى».
 قُلْتُ: «كِسْرَى بِنِ هُرْمُزَ؟».

قَالَ: «كِسْرَى بِنِ هُرْمُزَ، وَلَيْنُ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيْنَ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ».

قَالَ عَدِيُّ: فَرَأَيْتُ الطَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَكُنْتُ فِيْمَنْ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بِنِ هُرْمُزَ، وَلَيْنُ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ، لَتَرَوْنَ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ: ﷺ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ» (رواه البخاري).

(الْفَأَقَةُ): الفقر. (الْحِيرَةُ): بلد معروف قديماً مجاور للكوفة. (الطَّعِينَةُ): هو في الأصل اسم الهوج ثم قيل للمرأة في الهودج وقد تقال للمرأة مطلقاً. (دُعَاؤُ): جمع داعر وهو الخبيث المفسد الفاسق والمراد بهم قطاع الطرق. (سَعَرُوا الْبِلَادَ): أشعلوا فيها نار الفتنة وأفسدوها.

إن الإحصائيات تخبرنا بأن الدين الإسلامي هو الأسرع انتشاراً، وأن جميع دول العالم فيها مسلمون بنسبة أو بأخرى، وأن المسلمين منتشرون في كل بقعة من بقاع الأرض، أليس هذا ما حدثنا عنه النبي الأعظم ﷺ؟!

الإخبار عن انتصار المسلمين في غزوة بدر:

فقد جازمت آيات قرآنية وأحاديث نبوية بانتصار المسلمين في غزوة بدر، وكان ذلك في آيات نزلت في مكة حال ضعف الإسلام والمسلمين، وذلك في وقت كان المسلمون يعانون في مكة صنوف الاضطهاد ويُسَامون سوء النكال؛ وفي وسط هذا البلاء نزل على النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿أَكْفَاكُمُ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيكُمُ أَمْرًا لَّكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ٤٣﴾
 أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ ٤٤ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ٤٥ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ٤٦﴾ (القمر: ٤٣ - ٤٦). أراد بالجمع: قريش، وجزم بأنهم سوف يهزمون عند مواجهة المسلمين. وقد كان ذلك في غزوة بدر الكبرى.

إن هذه الآيات نزلت تتحدث عن غزوة بدر، ووقت نزولها كان قبل الهجرة بسنوات، وكانت عائشة يومئذ صغيرة، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: لَقَدْ أَنْزَلَ

عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بِلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدَهَى وَأَمْرٌ﴾ (القمر: ٤٦). (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي قُبَّةِ (١) يَوْمَ بَدْرٍ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدَ بَعْدَ الْيَوْمِ». فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: «حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَقَدْ أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ». وَهُوَ فِي الدَّرْعِ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيَوْلُونَ الدُّبْرَ﴾ (٥٥) ﴿بِلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدَهَى وَأَمْرٌ﴾ (القمر: ٤٥) - (٤٦). (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

لقد تحققت وعود تلك الآيات، فقد هزمت جموع المشركين، وولوا على أدبارهم، وصدق الله تَعَالَى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوعد، وعد الله لا يخلف الله الميعاد.

إخبار القرآن عن دخول المؤمنين بمكة:

ولقد وعد الله تعالى المؤمنين بدخول المسجد الحرام آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون، فحدث كما أخبر القرآن الكريم. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ٢٧).

رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رؤياه أنه يأتي المسجد الحرام ويطوف به، فأخبر أصحابه، فسروا بذلك، وظنوا أن ذلك يكون في عامهم، فتجهزوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمين البيت الحرام معظمين لحرمته، فصدتهم قريش عن البيت، وانتهى الأمر بإبرام صلح الحديبية الذي ألزم المسلمين بالعودة إلى المدينة، وأن يعتمروا من عامهم القابل.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴿إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ٢-٥) مَرْجِعُهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَهُمْ يُخَالِطُهُمُ الْحُزْنَ

(١) (الْقُبَّة): بَيْتٌ صَغِيرٌ مِنَ الْخِيَامِ.

وَالْكَأْبَةُ، وَقَدْ نَحَرَ الْهُدْيَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، فَقَالَ: «لَقَدْ أَنْزِلْتُ عَلَيَّ آيَةً هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۗ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۗ وَيُبْصِرْكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۗ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۗ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۗ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۗ﴾ (الفتح: ١ - ٥).

والمراد بالفتح هنا الحديبية، لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين، لما ترتب على الصلح الذي وقع منه الأمن ورفع الحرب، وتمكن من يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك، كما وقع لخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما رضي الله عنهم، ثم تبعت الأسباب بعضها بعضاً إلى أن كمل الفتح.

فلم يكن في الإسلام فتحٌ قبل فتح الحديبية أعظم منه، وإنما كان الكفر حيث القتال، فلما أمن الناس كلهم؛ كلّم بعضهم بعضاً، وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكن أحدٌ في الإسلام يعقل شيئاً إلا بادر إلى الدخول فيه، فلقد دخل في تلك الستين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر. ويدل عليه أنه رضي الله عنه خرج في الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج بعد ستين إلى فتح مكة في عشرة آلاف.

وقبل أن يظهر لأصحاب النبي رضي الله عنه أبعاد الفتح العظيم؛ عزم النبي رضي الله عنه على الرجوع إلى المدينة؛ وأمر الصحابة بذبح الهدي والعود إلى المدينة، فكروا عودتهم من غير أن يأتوا البيت، فيحققوا رؤيا النبي رضي الله عنه، فأتى عمر رضي الله عنه النبي رضي الله عنه فقال له: «أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟»، قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: «أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُّوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ»، قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: «فَلِمَ نُعْطِيَ الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟»، قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي»، قَالَ: «أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَتَطُوفُ بِهِ؟»، قَالَ: «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ»، قَالَ: «لَا»، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ» (رواه البخاري).

ونزلت آيات القرآن تؤكد صدق ما رآه النبي ﷺ في رؤياه وتنبأ بحتمية تحقق ما أوحى الله إليه في رؤياه: قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ٢٧). (الفتح: ٢٧)، وقد تحقق ذلك في عمرة القضاء في العام الذي يليه.

صدق الوعد بفتح قريب ومغانم كثيرة فيه:

أثاب الله ﷻ الصحابة ﷺ على صدق بيعتهم لرسول الله ﷺ عند شجرة الرضوان بفتح قريب ومغانم وفيرة، أثابهم بفتح خبير، فقال واعدًا إياهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (الفتح: ١٨ - ٢١).

إن الله ﷻ يعد أصحاب الشجرة ﷺ في هذه الآية بمغيبات عدة، منها الوعد بفتح قريب ومغانم كثيرة فيه، فأثاب الله ﷻ هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة - مع ما أكرمهم به من رضاه عنهم وإنزاله السكينة عليهم وإثابته إياهم - فتحًا قريبًا، معه مغانم كثيرة يأخذونها من أموال يهود خيبر، فإن الله جعل ذلك خاصة لأهل بيعة الرضوان دون غيرهم.

والتنبؤ بفتح خبير لم يكن تنبؤًا بأمر ميسور قريب النوال؛ فإن خيبر حصونٌ منيعة، وفيها عشرة آلاف من المقاتلين الشجعان، أي ما يساوي سبع مرات عدد المسلمين القادمين لفتحها، لكنه موعود الله ﷻ.

وما إن لاحت بالأفق حصونها حتى قال ﷺ: «حَرَبَتْ حَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْدَرِينَ»، قَالَ أَنَسُ: «وَهَزَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» (رواه

مُسْلِمًا). وفي هذا الحديث من دلالة النبوة أنه كان كما قال، خربت خيبر بعد نزوله ﷺ بساحتهم.

الإخبار عن جلاء اليهود من خيبر:

وكما أخبر عن فتح خيبر فإنه تحدث عن جلاء اليهود منها، وقد وقع ذلك زمن خلافة عمر رضي الله عنه، وكان ذلك من إخباره رضي الله عنه بالمغيبات قبل وقوعها.

فَعَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: لَمَّا فَدَعَ أَهْلَ خَيْبَرَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، قَامَ عُمَرُ خَطِيبًا، فَقَالَ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَامِلَ يَهُودَ خَيْبَرَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، وَقَالَ: «تُقْرِكُمْ مَا أَقْرَكُمُ اللَّهُ»، وَإِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ خَرَجَ إِلَى مَالِهِ هُنَاكَ، فَعُدِي عَلَيْهِ مِنْ اللَّيْلِ، فَفِدَعْتُ يَدَاهُ وَرِجْلَاهُ، وَلَيْسَ لَنَا هُنَاكَ عَدُوٌّ غَيْرَهُمْ، هُمْ عَدُونَا وَتَهْمَتُنَا وَقَدْ رَأَيْتُ إِجْلَاءَهُمْ».

فَلَمَّا أَجْمَعَ عُمَرُ عَلَى ذَلِكَ أَتَاهُ أَحَدُ بَنِي أَبِي الْحَقِيقِ، فَقَالَ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَتُخْرِجُنَا وَقَدْ أَقْرَنَا مُحَمَّدٌ، وَعَامَلْنَا عَلَى الْأَمْوَالِ وَشَرَطَ ذَلِكَ لَنَا»، فَقَالَ عُمَرُ: «أَظَنَنْتَ أَنِّي نَسِيتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ بِكَ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنْ خَيْبَرَ تَعْدُو بِكَ قَلُوصَكَ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ؟»، فَقَالَ: «كَانَتْ هَذِهِ هُزَيْلَةً مِنْ أَبِي الْقَاسِمِ»، قَالَ: «كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ»، فَأَجْلَاهُمْ عُمَرُ، وَأَعْطَاهُمْ قِيمَةَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الثَّمَرِ، مَالًا وَإِبِلًا، وَعُرُوضًا مِنْ أَقْتَابٍ وَحِبَالٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ. (رواه البخاري).

(فَدَعَ): الْفَدْعُ: هُوَ مَيْلُ الْمَفَاصِلِ وَزَوَالِهَا عَنْ بَعْضِهَا. (مَالِهِ هُنَاكَ): أَرْضُهُ وَنَخِيلُهُ فِي خَيْبَرَ. (فَعُدِي عَلَيْهِ): ظَلَمُوهُ وَتَعَدَّوْا عَلَيْهِ. (تَهْمَتُنَا) الَّذِينَ نَتَّهَمُهُمْ بِالْتَعَدِّيِّ. (إِجْلَاءَهُمْ) إِخْرَاجَهُمْ مِنْ بِلَدِهِمْ. (بَنِي أَبِي الْحَقِيقِ): هُمْ مِنْ زَعْمَاءِ الْيَهُودِ وَرُؤَسَائِهِمْ. (كَيْفَ بِكَ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنْ خَيْبَرَ تَعْدُو بِكَ قَلُوصَكَ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ؟): كَلَامُ النَّبِيِّ ﷺ مُوجَّهٌ لِأَحَدِ بَنِي أَبِي الْحَقِيقِ الْمَذْكُورِ فِي الْحَدِيثِ. (قَلُوصَكَ): النَّاقَةُ الصَّابِرَةُ عَلَى السَّيْرِ وَقِيلَ أَنْتَى الْإِبِلِ أَوَّلُ مَا تُرَكَّبُ. (هُزَيْلَةً): تَصْغِيرُ هَزَلَةٍ وَاحِدَةٍ الْهَزَلُ وَهُوَ ضِدُّ الْجِدِّ. (عُرُوضًا): أَمْتَعَةٌ. (أَقْتَابٍ): جَمْعُ قَتَبٍ وَهُوَ مَا يُوَضَعُ حَوْلَ سَنَامِ الْبَعِيرِ تَحْتَ الرَّكَبِ.

إخباره القرآن الكريم عن فتح بلاد منيعة:

ولم يكن فتحُ خيبرِ الوعدَ الوحيدَ الذي وعده اللهُ أصحابَ الشجرة، بل قد بشرهم بغيرها، فقد بشرهم بفتح بلاد منيعة لم يقدروا على فتحها من قبل. واختلف العلماء في تحديدها، هل هي الطائف أو مكة؟ فكلتاهما استعصت على المسلمين، قال تعالى: ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (الفتح: ٢١). والذي اختاره الطبري وغيره أن هذه الآية الكريمة بشارة بفتح مكة، وأنها البقعة التي رامها المسلمون ولم يقدروا عليها بعد، وتحقق الوعد بفتح مكة.

الإخبار عن هلاك كسرى وقيصر، وأنه لا كسرى ولا قيصر

بعدهما:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(وفي رواية: «هَلَكَ كِسْرَى، ثُمَّ لَا يَكُونُ كِسْرَى بَعْدَهُ، وَقَيْصَرٌ لِيَهْلِكَ، ثُمَّ لَا يَكُونُ قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَلَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

الإخبار عن فتح الشام والعراق وفارس واليمن:

ومما بشر به ﷺ، فتحقق بعده كما أخبر، بشارته بفتوح اليمن والشام والعراق واستيطان المسلمين بهذه البلاد، حيث قال ﷺ: «تُفْتَحُ الْيَمَنُ، فَيَخْرُجُ مِنَ الْمَدِينَةِ قَوْمٌ بِأَهْلِيهِمْ يَبْسُونَ، فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، ثُمَّ تُفْتَحُ الشَّامُ فَيَخْرُجُ مِنَ الْمَدِينَةِ قَوْمٌ بِأَهْلِيهِمْ يَبْسُونَ، فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، ثُمَّ تُفْتَحُ الْعِرَاقُ، فَيَخْرُجُ مِنَ الْمَدِينَةِ قَوْمٌ بِأَهْلِيهِمْ يَبْسُونَ، فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(يَبْسُونَ): أي يزيئون إليهم السكنى في تلك البلاد ويدعونهم ليرحلوا إليها، فيسوقون إبلهم ودوابهم راحلين من المدينة.

قال العلماء: في هذا الحديث معجزاتُ لرسول الله ﷺ، لأنه أخبر بفتح هذه الأقاليم، وأن الناس يتحملون بأهلهم إليها ويتركون المدينة، وأن هذه الأقاليم تفتح على هذا الترتيب (اليمن ثم الشام ثم العراق)، ووُجد جميعُ ذلك كذلك بحمد الله وفضله.

فقد افتتحت اليمن في أيام النبي ﷺ وفي أيام أبي بكر، وافتتحت الشام بعدها، والعراق بعدها، وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد وقع على وفق ما أخبر به النبي ﷺ وعلى ترتيبه، ووقع تفرق الناس في البلاد لما فيها من السعة والرخاء، ولو صبروا على الإقامة بالمدينة لكان خيراً لهم.

وأما فتح فارس، فقد بشر به رسول الله ﷺ أصحابه، فقال: «لَتَفْتَحَنَّ عِصَابَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَنْزَ آلِ كِسْرَى الَّذِي فِي الْأَبْيَضِ» (رواه مسلم).

(الَّذِي فِي الْأَبْيَضِ): أي الذي في قصره الأبيض أو قصوره ودوره البيض. وتحقق الوعد زمن خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ففتحه الصحابة رضي الله عنهم، فكان أول من رأى القصر الأبيض ضرار بن الخطاب، فجعل الصحابة رضي الله عنهم يكبرون ويقولون: «هذا ما وعدنا الله ورسوله ﷺ».

وفي غزوة الخندق والمسلمون محاصرون من المشركين واليهود بشر النبي ﷺ أصحابه بفتح الشام وفارس واليمن، وقد حدث ما أخبر به النبي ﷺ.

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الْخَنْدَقِ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، فَشَكَّوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ فَأَخَذَ الْمُعْوَلَ فَقَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ» فَضْرَبَ ضْرِبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْخُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا».

ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ» وَضْرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا». ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»، وَضْرَبَ ضْرِبَةً أُخْرَى فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ

أُعْطِيَتْ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا» (إسناده حسن رواه الإمام أحمد).

الإخبار عن فتح مصر:

أخبر النبي ﷺ بفتح مصر؛ ودعا إلى الإحسان إلى أهلها إكرامًا لهاجر أم إسماعيل، فقد كانت من أرض مصر، كما أخبر بدخول أهلها في الإسلام واشترآكهم مع إخوانهم في التمكين له، فعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اتَّكُمُ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقَيْرَاطُ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحْمًا»، أَوْ قَالَ «ذِمَّةٌ وَصِهْرًا، فَإِذَا رَأَيْتَ رَجُلَيْنِ يَخْتَصِمَانِ فِيهَا فِي مَوْضِعٍ لَبِنَةٍ، فَأَخْرُجْ مِنْهَا» قَالَ: فَرَأَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ شُرْحَيْلِ بْنِ حَسَنَةَ، وَأَخَاهُ رَبِيعَةَ يَخْتَصِمَانِ فِي مَوْضِعٍ لَبِنَةٍ فَخَرَجْتُ مِنْهَا. (رواه مسلم).

(الْقَيْرَاطُ): جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ الدِّينَارِ وَالذَّرْهَمِ وَعَظِيمُهُمَا وَكَانَ أَهْلُ مِصْرَ يُكْتَبُونَ مِنْ اسْتِعْمَالِهِ وَالتَّكَلُّمُ بِهِ. وَأَمَّا الذِّمَّةُ فَهِيَ الْحُرْمَةُ وَالْحَقُّ وَهِيَ هُنَا بِمَعْنَى الدَّمَامِ. وَالدَّمَامُ) العهد والأمان والكفالة والحق والحرمة.

وَأَمَّا الرَّحْمُ فَلِكُونِ هَاجِرِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُمْ، وَأَمَّا الصَّهْرُ فَلِكُونِ مَارِيَةَ الْقِبْطِيَّةِ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْهُمْ. وَفِي الْحَدِيثِ مُعْجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِإِخْبَارِهِ ﷺ أَنَّ الْأُمَّةَ تَكُونُ لَهُمْ قُوَّةٌ وَشَوْكَةٌ بَعْدَهُ بِحَيْثُ يَقْهَرُونَ الْعَجَمَ وَالْجَبَابِرَةَ، وَيَفْتَحُونَ مِصْرَ. وَوَقَعَ ذَلِكَ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وفي رواية: «إِذَا فَتَحْتُمْ مِصْرَ، فَاسْتَوْصُوا بِالْقَبِطِ خَيْرًا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحْمًا» (رواه الحاكم والطبراني، وصححه الألباني).

(فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً) حُرْمَةٌ وَأَمَانًا مِنْ جِهَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمِصْطَفَى ﷺ؛ فَإِنَّ أُمَّهُ مَارِيَةَ مِنْهُمْ (وَرَحْمًا) قَرَابَةٌ لِأَنَّ هَاجِرَ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُمْ. وَهَذَا مِنْ مُعْجَزَاتِهِ ﷺ حَيْثُ قُبِطَتْ بَعْدَهُ. وَلِذَلِكَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه: «قَبِطَ مِصْرَ أَخْوَالِ قُرَيْشٍ مَرَّتَيْنِ».

وقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُ اللَّهُ فِي قِبْطِ مِصرَ، فَإِنَّكُمْ سَتَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ، وَيَكُونُونَ لَكُمْ عُدَّةً، وَأَعْوَانًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (رواه الطبراني، وصححه الألباني).

وتحقق ذلك زمن خلفائه الراشدين، فكان أبو ذر رضي الله عنه ممن فتح مصر وسكنها، يقول رضي الله عنه: «فَرَأَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ شَرْحِبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ، وَأَخَاهُ رَبِيعَةَ يَخْتَصِمَانِ فِي مَوْضِعٍ لَبِنَةٍ فَخَرَجْتُ مِنْهَا».

وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ، منها إخباره بأن الأمة تكون لهم قوة وشوكة بعده، بحيث يقهرون العجم والجبابة، ومنها أنهم يفتحون مصر، ومنها تنازع الرجلين في موضع اللبنة، ووقع كل ذلك والله الحمد.

فتح قبرص واستشهاد أم حرام الأنصارية:

كتب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه والي الشام إلى الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه يستأذنه في غزو البحر أكثر من مرة، فأجابه عثمان إلى ذلك، وكتب إليه: «لا تنتخب الناس ولا تفرع بينهم، خيرهم، فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه»، ففعل معاوية، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الفزاري.

واتجه الأسطول الإسلامي عام ٢٨ للهجرة نحو قبرص وهي الجزيرة الهامة لموقعها في البحر المتوسط، فهي المحطة البحرية الاستراتيجية للتجارة والملاحة، كما أن موقعها مهم لحماية فتوح المسلمين في بلاد الشام وإفريقية.

اتجه الأسطول الإسلامي من سواحل بلاد الشام بقيادة عبد الله بن قيس إلى قبرص وسار إليها أيضا أسطول إسلامي آخر من مصر بقيادة عبد الله بن سعد فانزعها المسلمون عام ٢٨ هـ من البيزنطيين وامبراطورهم آنذاك قنسطانس الثاني.

وفي هذه الغزوة توفيت أم حرام بنت ملحان الأنصارية رضي الله عنها تحقيقاً لنبوة رسول الله ﷺ، فعن أنس بن مالك، عن خالته أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها، أنها قالت: «أَنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ عِنْدَنَا، فَاسْتَيْقِظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقُلْتُ: «مَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي»، قَالَ: «أُرَيْتُ قَوْمًا مِنْ أُمَّتِي يَرَكِبُونَ ظَهَرَ الْبَحْرِ كَالْمَلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ»، فَقُلْتُ: «ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجْعَلَنِي مِنْهُمْ»، قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْهُمْ»، قَالَتْ:

ثُمَّ نَامَ، فَاسْتَيْقَظَ أَيضًا وَهُوَ يَضْحَكُ، فَسَأَلَتْهُ، فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ، فَقُلْتُ: «ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجْعَلَنِي مِنْهُمْ»، قَالَ: «أَنْتَ مِنَ الْأَوَّلِينَ»، قَالَ: فَتَرَوُجَهَا عِبَادَةُ بِنُ الصَّامِتِ بَعْدُ، فَغَزَا فِي الْبَحْرِ فَحَمَلَهَا مَعَهُ، فَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ قُرْبَتْ لَهَا بَعْلَةٌ فَرَكِبَتْهَا فَصَرَ عَتَمَهَا، فَأَنْدَقَتْ عَنْقُهَا. (رواه مسلم). (فَقَالَ): نام وقت القيلولة.

وَدُفِنَتْ أُمُّ حَرَامٍ فِي قَبْرِصٍ وَلَا يَزَالُ قَبْرُهَا هُنَاكَ.

الإعجاز الغيبي في الحديث:

إخبار النبي ﷺ عن ركوب ظهر البحر في سبيل الله، والإخبار أن أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها سوف تكون منهم وسوف تكون من الأولين.

غزو الهند:

عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «عِصَابَتَانِ مِنْ أُمَّتِي أَحْرَزَهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ: عِصَابَةٌ تَغْزُو الْهِنْدَ، وَعِصَابَةٌ تَكُونُ مَعَ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وصححه الألباني).

(عِصَابَتَانِ): أي: جماعتان. (أَحْرَزَهُمَا): أي: نجَّاهما وحَفِظَهُمَا.

وقد غزت الهند وفتحتها جيوش المسلمين بقيادة محمود بن سُبُكْتِكِينِ في القرن الرابع والخامس الهجري.

الإخبار عن فتح القسطنطينية:

ولا تتوقف نبوءات النبي ﷺ عند فتوح العراق والشام ومصر والهند، بل يمتد إخباره ليحدث عن فتح بلاد بعيدة المنال، عصية القلاع، القسطنطينية عاصمة دولة الروم، فعن أبي قَبِيلٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه وَسُئِلَ: «أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوْلًا الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةٌ؟». فَدَعَا عَبْدُ اللَّهِ بِصُنْدُوقٍ لَهُ حَلَقٌ، فَأَخْرَجَ مِنْهُ كِتَابًا، قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَكْتُبُ إِذْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوْلًا قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةٌ؟»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَدِينَةُ هِرَقْلٍ تُفْتَحُ أَوْلًا»، يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّةً (رواه الإمام أحمد، وصححه الألباني). (رُومِيَّةٌ: روما عاصمة إيطاليا الآن).

قال الشيخ الألباني رحمه الله: «وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني كما هو معروف، وذلك بعد ثمانمائة سنة من إخبار النبي ﷺ بالفتح، وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولا بد، ولتعلّمنّ نبأه بعد حين»^(١).

إخباره ﷺ عن أخبار الفتن:

وإن مما أخبر عنه ﷺ من الغيوب الدالة على نبوته؛ أخبار الفتن التي وقعت بين أصحابه بعد وفاته ﷺ، فكان إخباره بذلك برهان نبوته، فأنبأ النبي ﷺ بوقوع فتنة قتل عثمان في المدينة المنورة، وأشار إلى ما سيقع من الفتن في العراق أو بسبب أهلها، وكذلك تنبأ ﷺ بظهور الخوارج، وحدد صفاتهم وسماهم، وكل ذلك ثابت عنه ﷺ في الأحاديث الصحيحة.

الإشارة إلى ضعف المسلمين وتداعي أعدائهم عليهم:

عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا». فَقَالَ قَائِلٌ: «وَمِنْ قَلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ». قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْدِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ». فَقَالَ قَائِلٌ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟». قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَّةُ الْمَوْتِ». (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

(تَدَاعَى): أَي: تَدَاعَى بِأَنْ يَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِمَقَاتَلَتِكُمْ وَكَسْرِ شَوْكَتِكُمْ، وَسَلَبِ مَا مَلَكَتُمُوهُ مِنَ الدِّيَارِ وَالْأَمْوَالِ. (الْأَكَلَةُ): جَمْعُ آكَلَ. (الْقَصْعَةُ): وَعَاءٌ يُؤْكَلُ وَيُثْرَدُ فِيهِ، وَكَانَ يُتَّخَذُ مِنَ الخَشَبِ غَالِبًا، وَالضَّمِيرُ فِي (قَصْعَتِهَا) لِلْأَكَلَةِ، أَي: الَّتِي يَتَنَاوَلُونَ مِنْهَا بِلَا مَانِعٍ وَلَا مُنَازِعٍ، فَيَأْكُلُونَهَا عَفْوًا وَصَفْوًا، كَذَلِكَ يَأْخُذُونَ مَا فِي أَيْدِيكُمْ بِلَا تَعَبٍ يَنَالُهُمْ، أَوْ ضَرَرَ يَلْحَقُهُمْ، أَوْ بَأْسٍ يَمْنَعُهُمْ.

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٣٣).

(غُثَاءَ السَّيْلِ): مَا يَحْمِلُهُ السَّيْلُ مِنْ زَبَدٍ وَوَسَخٍ، شَبَّهَهُمْ بِهِ ﷺ لِقَلَّةِ شَجَاعَتِهِمْ وَدَنَاءَةِ قَدْرِهِمْ. (المُهَابَةِ): أَي: الخَوْفُ والرُّعْبُ. (الْوَهْنُ): أَي الضَّعْفُ، وَكَانَهُ أَرَادَ بِالْوَهْنِ مَا يُوجِبُهُ، وَلِذَلِكَ فَسَّرَهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَكَرَاهَةِ الْمَوْتِ. (وَمَا الْوَهْنُ) أَي: مَا يُوجِبُهُ وَمَا سَبَّبَهُ. (حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ): هَذِهِ هِيَ نَقْطَةُ الضَّعْفِ عِنْدَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، لِذَلِكَ أُغْرِقَ الْأَعْدَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالشَّهَوَاتِ.

تعاني أمة الإسلام حالة غريبة من التشرذم والضعف، وأصبحت بلادها كلاً مستباحاً للقاصي والداني، ولم يشفع لها كثرة عدد المسلمين، فهم غثاء كغثاء السيل، إنه نبوءةٌ من لا ينطق عن الهوى، وهو علم آخر من أعلام نبوته ﷺ ورسالته.

إنه تشبيه دقيق وبلغ، يعجز أبلغ البلغاء عن وصف وتصوير هذا الواقع الذي تعيشه اليوم الأمة الإسلامية، كما صورته لنا النبي ﷺ. فقد استهانت الأمم بنا وأصبح المسلمون من أكثر شعوب الأرض تخلفاً بعد أن أعزهم الله بالإسلام، وسبب ذلك أننا ابتعدنا عن تعاليم هذا الدين الحنيف، نسأل الله العافية للمسلمين وأن يعودوا إلى رشدهم وإلى دينهم.

لقد حدث ما أخبر به النبي ﷺ فقد احتل الكفار معظم بلاد المسلمين في القرنين الماضيين، وقد بدأت الحرب على الإسلام مع بداية العصر الحديث حيث مرّ المسلمون بحالة من الضعف الشديد والوهن مما سهل للكفار احتلال بلادهم.

واليوم أصبحت الحرب على الإسلام علنية بسبب استخفاف القوى العالمية بالمسلمين واعتبارهم غثاء كغثاء السيل ليس لهم أي قيمة تذكر، على الرغم من الموارد الاقتصادية الضخمة والثروات الهائلة التي يملكونها، والأعداد الكبيرة التي تميزهم عن بقية الأمم حيث بلغ عدد المسلمين في العالم أكثر من ١٨٠٠ مليون مسلم!

وقد أصبحت الحرب على الإسلام شغل من لا شغل له! الكل يحارب الإسلام وكل حسب أسلوبه وإمكانياته، وأهمها الحرب الإعلامية في الفضائيات والصحف في الغرب، ويتبعهم فيها أذيانهم في بلاد المسلمين، حملات تحريض وتشويه وتزوير للحقائق تشنها آلات الإعلام ليل نهار.

والحرب بنهب ثروات هذه الأمة وإضعافها اقتصادياً والأهم من ذلك "حرب العقول" أو تدمير العقول المسلمة، فالعالم المسلم لا يجد فرصة في وطنه فيضطرب للذهاب إلى الخارج فتحسر الأمة هذه الإمكانيات والتي هي أساس الحضارة والتطور. و"حرب الفتنة" من خلال ضرب المسلمين بعضهم ببعض.

وكل هذا الاجتماع من أعداء الإسلام لخصه لنا النبي الكريم ﷺ في عبارة رائعة تصور لنا تماماً وضعنا اليوم: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا». ألا تشهد هذه العبارة على أنه نبي مرسل من عند الله، وأن الله تعالى هو من أخبره بهذا الواقع من قبل ١٤٠٠ سنة؟؟!

فال حرب تشتعل بينما تتهافت هذه الدول على سرقة الثروات العربية وعلى رأسها النفط! تماماً مثل الذئب التي تجتمع على الفريسة لتنهش منها ما تستطيع. فهي حرب وسرقة وطمع في هذه الخيرات التي لم يتفجع بها المسلمون إلا في أمور اللهو والطعام والشراب حب الدنيا!

وعلى الرغم من الكثرة العددية للمسلمين إلا أنهم لا قيمة لهم تماماً مثل غثاء السيل أي ما يحمله السيل من بقايا الحشائش والحصى التي لا قيمة لها ولا يتفجع بها. ولذلك قال ﷺ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ»، وهذه معجزة نبوية، فمن أخبره ﷺ أن المسلمين سيكونون يومئذ بأعداد كبيرة جداً؟ كيف علم أن أعداد المسلمين كثيرة جداً (فالمسلمون اليوم حوالي ١٨٠٠ مليون مسلم) وأنهم لا يشكلون أي قوة عالمية تُذكر، بل الكل يعتدي عليهم وينال منهم؟!

والأسوأ أنه لا أحد يحسب لهم أي حساب فهم في مؤخرة الأمم ولا هبة لهم. كما قال تماماً: «وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْدِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ». وهذا ما نراه اليوم يقيناً من خلال نشرات الأخبار ومتابعة الأحداث!! فكيف علم النبي الكريم ﷺ أنه على الرغم من كثرة أعداد المسلمين لن تكون لهم أي هبة بين الدول؟! ألا تشهد هذه العبارة على أن الله تعالى هو الذي أخبره بذلك؟

ثم يشرِّح لنا واقعنا ويحلل تحليلًا علميًا دقيقًا حول أسباب هذه الظاهرة التي نعيشها اليوم فيبين أن سبب ضعف المسلمين واجتماع الأمم عليهم هو: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ». وبالفعل أصبح المسلمون حريصون على التمتع بهذه الدنيا. إنه تصوير نفسي عجيب للحالة النفسية التي يعيشها كثير من المسلمين اليوم وهي حُبهم للملذات واللهاو والموسيقى والألعاب والأفلام والمسلسلات وشواطئ البحار والملاهي وشرب الدخان والنظر للنساء. فمن أي جاء النبي الكريم بهذا العلم وهذا التحليل النفسي الدقيق؟ أليس هو الله من أخبره بذلك؟

وهذا الحديث لم يذكره لنا النبي ﷺ ليزيدنا يأسًا أو إحباطًا أو تسليًا بالهزيمة، إنما حلل لنا الواقع وأسباب هذا الضعف. لنعود لديننا وتعاليمه العظيمة، فتذكر الموت ولقاء الله وابتعد قليلاً عن حب الدنيا وزينتها. فهذا هو الطريق للقوة والفلاح والنجاح واستعادة الأجداد بإذن الله تعالى.

الإخبار عن حال الخلافة؛ نبوة ثم خلافة على منهاج النبوة ثم ملك عاص ثم ملك جبري ثم خلافة على منهاج النبوة؛

لقد أخبرنا رسول الله ﷺ بحال الخلافة بعده إلى ما شاء الله تعالى، سواء حال الخلافة التي هي على نهج النبوية. وهي الراشدة. أو التي تكون ملكًا عضوًا، أو التي تكون ملكًا جبريًا.. إلخ. وكل ذلك قد تحقَّق كما أخبر ﷺ.

فَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «تَكُوْنُ التُّبُوَّةُ فَيْكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُوْنُ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُوْنُ خِلَافَةً عَلَيَّ مِنْهَاجِ التُّبُوَّةِ، فَتَكُوْنُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُوْنُ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُوْنُ مُلْكًا عَاصًا، فَيَكُوْنُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُوْنُ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُوْنُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُوْنُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُوْنُ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُوْنُ خِلَافَةً عَلَيَّ مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ» ثُمَّ سَكَتَ. (رواه الإمام أحمد وحسنه الألباني).

وقد حدّد رسول الله ﷺ مدة الخلافة التي على منهاج النبوة بثلاثين عامًا، فكانت كما أخبر ﷺ. فَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُهْمَانَ عَنْ سَفِينَةَ مَوْلَى أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «خِلَافَةُ التُّبُوَّةِ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ مُلْكَهُ

مَنْ يَشَاءُ». قَالَ سَعِيدٌ: ثُمَّ قَالَ لِي سَفِينَةٌ عَنْهُ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ سَتَتَيْنِ وَخِلَافَةَ عُمَرَ عَشْرًا وَخِلَافَةَ عُثْمَانَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ، وَخِلَافَةَ عَلِيٍّ سِتِّ سِنِينَ». قَالَ سَعِيدٌ: «فَوَجَدْنَاهَا ثَلَاثِينَ سَنَةً» (رواه الإمام أحمد في المسند، وأبو داود، والترمذي، وحسنه الألباني).

(أَمْسِكْ عَلَيْكَ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ سَتَتَيْنِ): أَي: عُدَّهُ وَاحْسِبْ مُدَّةَ خِلَافَتِهِ.

أما وجه الإعجاز فهو أخبار عَنْهُ عن حوادث سوف تكون بعد وفاته وقد كانت تمامًا مثلما تنبأ بها النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وصف قتال اليهود من وراء الجدر:

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُقَنِّلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحْصَنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الحشر: ١٤).

هذه الآية الكريمة تكشف عن الطبيعة النفسية لليهود، فقد برع اليهود في التعصب الأعمى ضد كل من سواهم، بل ضد الإنسانية بصفة عامة، كما برعوا في تدبير المؤامرات، ونقض المعاهدات، وتزييف التاريخ، وتحريف الدين، والافتراء على الله، وعلى كتبه، وأنبيائه ورسله، وفي سلب الأراضي من أهلها، وفي تربية ناشئتهم على الاستعلاء الكاذب فوق الخلق.

ولذلك كان خوفهم من الأمم المحيطة بهم شعورًا مسيطرًا دومًا عليهم، فعاشوا عبر التاريخ وراء القرى المحصنة، والجدران المرتفعة، والموانع والعوائق المتعددة، أو في أحياء مغلقة.

وتاريخ اليهود يؤكد صدق القرآن الكريم بهذه الإشارة الربانية الصادقة ﴿لَا يُقَنِّلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحْصَنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾، وقد أفاض أهل العلم في بيان طبيعة القرى المحصنة لليهود عبر التاريخ، والتي كان من أحدثها خط بارليف الذي أقامته إسرائيل بعد انتصارها في حرب ١٩٦٧، والجدار العازل الذي شرعت في إقامته سنة ٢٠٠٣ بعد أن سيطرت على أغلب الأراضي الفلسطينية، وامتلكت من السلاح

والعتاد ما لا يعلمه إلا الله، فكان ذلك أكبر دليل على الخوف المسيطر على نفوس اليهود والذي لا ينفك عنهم حتى ولو انتصروا على عدوهم.

و ينبغي الانتباه إلى أن الآية الكريمة لم تَنْفِ أن يكون اليهود من المقاتلين أو أن يمتلكوا القوة التي تمكنهم من مهاجمة غيرهم من الأمم أو أن يكونوا ذوي مكر ودهاء، فقول الله ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ فيه دلالة على وقوع القتال بين فريقين كل منهما ينشد الانتصار على الآخر ويسعى في طلب الآخر، فهذه الآية ما نزلت لتتهم اليهود بأنهم ليسوا أهل قتال ولكن لتبين الطبيعة النفسية لهم في أثناء قتالهم، وأنها طبيعة واهية تخاف الموت وتحرص على الحياة، فلا ينبغي للمسلم أن يهاجها في أثناء القتال حتى لو كانت الغلبة في العدة والعتاد لصالحهم.

وما يلفت النظر في هذه الآية الكريمة ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾، أنه ما من قرية مُحَصَّنَةٍ إلا والجُدُران عامل أساسي في تحصينها، قال القرطبي في تفسير القرى المحصنة: «أي محصنة بالحيطان والدور، يظنون أنها تمنعهم منكم»، فلماذا أضاف الله كلمة (جُدُرٍ) بعد ذكر القرى المحصنة طالما أنها تشتمل الجدران؟ فقد رأينا كيف أحاطوا قراهم بخط بارليف ليفصلهم عن المصريين، ثم أحاطوها بالجدار العازل ليفصلهم عن الفلسطينيين، فالجدران هي جزء من تحصينهم الأساسي، فهل هناك إضافة جديدة من ذكر الجُدُر بعد القرى المحصنة.

فالمعنى أن اليهود حين يقاتلونكم، فإن لهم في قتالكم حالتين: الأولى أن يتحصنوا منكم بداخل قراهم التي بالغوا في تحصينها، أما الثانية فالخروج للقائكم وذلك يستلزم ترك القرى المحصنة ولما كانوا أجبن من ذلك، فقد كانت فكرة الجدار هي الأنسب لهم لكي يتمكنوا من التحرك خارج حصونهم.

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ أي اليهود ﴿جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين، ﴿إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ﴾ أي بالخنادق والحصون ونحوها، ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي يتسترون بها دون أن يبرزوا لكم في الصَّحْرَاءِ؛ لفرط رهبتهم منكم. وكأنهم لهذا الخوف على حياتهم لا يقاتلونكم حتى

يضعوا أكبر عددٍ ممكنٍ من الجدران ليقاتلوكم من خلفها، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَلَنَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ﴾ (البقرة: ٩٦)، والتنكير في حياة يدل على أي أية حياة مهما كانت تافهة.

إننا في قتالنا مع اليهود إما أن نطلبهم فيتحصنون في القرى لشدة خوفهم، وإما أن يطلبونا فيتحصنون بالجُدُر في أثناء سعيهم إلينا من فرط جنهم وحرصهم على الحياة، قال تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (الحشر: ١٣).

وهذا ما رأيناه واضحا جليا في حربهم ضد أهل غزة، فطالما أنهم وراء دباباتهم وغواصاتهم وسفنهم وطائراتهم فهم يهاجمون بضراوة، أما أن ينزلوا من خلف الجُدُر ليقاتلوا وجها لوجه وليستولوا على الأرض، فهذا هو ما لم يستطيعوا فعله لفرط جنهم، ولفرط حرصهم على الحياة.

وليس عجيبا أبداً أن تطلب عدوك الضعيف للقتال فيتحصن بكل الوسائل خوفا منك، أما أن يطلبك العدو القوي ليقتلك وأنت الضعيف الأعزل من السلاح، فيتحصن هو منك فهذا هو العجب العجيب.

وحين تصنع إسرائيل أسلحة جديدة أو تطور أسلحتها، فهذا ليس بالغريب، ولكن الغريب الحرص على الحياة وعدم الخوف من أن يُتهموا بالجن، فتجدهم يصممون أسلحتهم بالطريقة التي تمكنهم من القتل دون الظهور على الإطلاق للعدو، وهذا غريب، فالمقاتل الشجاع هو الذي يطلب غيره ليقتهل وجها لوجه، أما أن يصنفهم الله بأنهم مقاتلون ولكن جناء يقاتلون من وراء الجُدُر، فهذا من الإعجاز الغيبي أن يصف الله اليهود بالجنين في كل أحوالهم مع المسلمين حتى وإن كانت القوة معهم.

فحتى لو ترك اليهودي قريته المحصنة فحرصه على الجدار كأشد ما يكون، فكل أحواله معنا ما بين قرية محصنة أو جدار يختبئ خلفه، ولما كانت رهبتنا في قلوبهم شديدة فالواحد منهم حريص على ألا يظهر أي جزء منه للمسلم حتى وإن كان اليهودي مدججا بالسلاح ويلبس شتى أنواع السترات الواقية، فهو يخاف من منظر

المسلم ونظرته بل ربما ارتعد من صوته، وكم رأينا صور جنودهم المدججين بالسلاح يجتثون خلف جدران دباباتهم ومدراعاتهم خوفاً من أطفال وشباب فلسطين العزل الذين لا يملكون إلا الثقة في الله ﷻ.

والناظر إلى كافة أسلحة اليهود يجد أن هذه العقيدة الجدارية واضحة بجلاء شديد، ومن أكثر الأمثلة وضوحاً السلاح المُسمى بندقية طلقة الزاوية (CORNER SHOT)، وعلى الرغم من انتشار هذا السلاح في العديد من الدول إلا أن مخترعه يهودي يُدعى Amos Golan كان من مقاتلي الجيش الإسرائيلي، وذلك بالتعاون مع شركة أسلحة أمريكية تعرف باسم Corner Shot Holdings, LLC.

و تعتبر هذه البندقية سلاح فعال ضد الأهداف القاتلة التي تترصد الجندي خلف الزوايا في الحالات التكتيكية المتغيرة التي تصادف الوحدات الخاصة وقوات الشرطة التي تعمل في المناطق المبنية.

يتميز هذا السلاح CORNER SHOT بمفصل متحرك في القسم الأمامي للسلاح وكاميرا فيديو ملونة قابلة للفصل. الجزء الأمامي يمكن تحريكه من جانب لآخر ويحتوي على المسدس وكاميرا ملونة، والجزء الخلفي يتكون من مخزن الطلقات والزناد والشاشة ومفاتيح التحكم. هذا السلاح يوفر حماية للجندي من أي نيران مباشرة وذلك بالاختفاء بجانب زاوية مبنى مثلاً أو خلف جدران الغرف والممرات من الداخل، ومن ثم توجيه الجزء الأمامي المتحرك للسلاح للجهة الأخرى حيث تقوم الكاميرا بتصوير كل ما في تلك الناحية وتسمح له بالتسديد على الهدف المراد اقتناصه بمساعدة محدّد ليزر على جسم الضحية هذا السلاح صُمم خصيصاً للقوات الخاصة فهو فعال جداً أثناء المداهمات أو في ساحات مفتوحة أو في أماكن مكتظة بالمباني.

وكما حكم الله على أبي لهب وامرأته بالموت علي الكفر وبأن لهما العذاب الشديد فقال: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصِلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ (المسد: ١

(٥ -). فما استطاعا الفكاك من حكم الله ولو بالقول الزور، فقد حكم الله علي اليهود بالجُدْر وبالجبن الذي لا فكاك منه حتى تقوم الساعة.

فقال تعالى: ﴿لَا يَقْنَلُونَكُمْ﴾ فاستخدم الله النفي بلا، وهى هنا حرف نفي دخل على الجملة الفعلية التي فعلها مضارع ﴿يَقْنَلُونَكُمْ﴾، فتنفي زمنه في الحاضر والمستقبل، أي في زمن النبي ﷺ وبعد زمنه إلى قيام الساعة، فياله من إعجاز غيبي جاء به القرآن قبل أربعة عشر قرنا من الزمان ليصف مقاتلي اليهود بالجبن وحب التخفي وراء الجدران، فصدقه واقع اليهود قديماً وحديثاً، بل وحتى قيام الساعة.

وصدق النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى حين قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا الْيَهُودَ حَتَّى يَقُولَ الْحَجْرُ وَرَاءَهُ الْيَهُودِيُّ: يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَأَيْ فَاقْتُلْهُ» (رواه البخاري). وفي رواية لمسلم أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِعَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرَ، فَيَقُولُ الْحَجْرُ أَوْ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ». (الغَرْقَدَ نَوْعٌ مِنْ شَجَرِ الشُّوكِ مَعْرُوفٌ بِبِلَادِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ).

وها هي العقيدة الجدارية لليهود التي تخشى من قتال المسلم في المستقبل فتوسعت في زراعة شجر الغرقد ليكون لهم بمثابة الجدار الواقي حين تخذلهم كل الجدران التي يختبئون خلفها والتي تنادي على المسلم ليقتل اليهودي، فلا يجدون إلا جدار الغرقد فإنه من شجرهم، نسأل الله أن يُعجل بهذا اليوم الذي يُعزُّ فيه المسلمين، ويُجزِي فيه الكافرين.

قدوم أويس القرني:

ومما أخبر به ﷺ من أمور الغيب - التي أطلعه الله ﷻ عليها لتكون برهان نبوته - قدوم أويس القرني من اليمن، وقد ذكر ﷺ لأصحابه بعض صفته وأحواله، فقال ﷺ: «إِنَّ رَجُلًا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَنِ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ لَا يَدَعُ بِالْيَمَنِ غَيْرًا أُمَّ لَهُ قَدْ

كَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَدَعَا اللَّهَ فَأَذْهَبَهُ عَنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ الدِّينَارِ أَوْ الدَّرْهَمِ فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْ أُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا أَتَى عَلَيْهِ أَمْدَادُ أَهْلِ الْيَمَنِ سَأَلَهُمْ: «أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟»، حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ فَقَالَ: «أَنْتَ أُوَيْسُ ابْنِ عَامِرٍ؟»، قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: «مِنْ مُرَادٍ ثَمَّ مِنْ قَرْنٍ؟»، قَالَ: «نَعَمْ».

قَالَ: «فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ؟»، قَالَ: «نَعَمْ».

قَالَ: «لَكَ وَالِدَةٌ؟»، قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثَمَّ مِنْ قَرْنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ». فَاسْتَغْفِرَ لِي. فَاسْتَغْفَرَ لَهُ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

ظهور نار الحجاز من علامات الساعة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ، تُضِيءُ أَعْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى». (رواه البخاري ومسلم).

وهذه النار خرجت في المدينة سنة (٦٥٤ هـ).

قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١٣ / ٢١٩): «ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَسِتْمَاءَةً، فِيهَا كَانَ ظُهُورُ النَّارِ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ الَّتِي أَضَاءَتْ لَهَا أَعْنَاقُ الْإِبِلِ بِبُصْرَى، كَمَا نَطَقَ بِذَلِكَ الْحَدِيثِ الْمُتَّفِقِ عَلَيْهِ، وَقَدْ بَسَطَ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ الْحَافِظُ شَهَابُ الدِّينِ أَبُو شَامَةَ الْمُقَدِّسِيُّ فِي كِتَابِهِ "الذيل" وشرحه، وَاسْتَحْضَرَهُ مِنْ كُتُبٍ كَثِيرَةٍ وَرَدَتْ مُتَوَاتِرَةً إِلَى دِمَشْقٍ مِنَ الْحِجَازِ بِصِفَةِ أَمْرِ هَذِهِ النَّارِ الَّتِي سُوهِدَتْ مُعَايَنَةً، وَكَيْفِيَّةِ خُرُوجِهَا وَأَمْرِهَا».

اكتشافات علمية:

يقول علماء الجيولوجيا وعلوم الأرض أن المدينة المنورة تقع بالقرب من منطقة بركانية تسمى (حرة رهط) وتقع حرة رهط بين المدينة المنورة شمالا، ووادي فاطمة بالقرب من مكة المكرمة جنوبا لتغطي مساحة تقدر بحوالي ٢٠,٠٠٠ كيلومتر مربع.

وفي حرة رهط يوجد أكثر من ٧٠٠ فوهة بركانية. وحررة رهط واحدة من بين ١٢ حقلًا بركانيا ينتشر في المملكة العربية السعودية، وتحوي حرة رهط وحدها سبعمائة مخروط بركاني.

يعد الجزء الشمالي من أكثر أجزاء تلك الحرة نشاطًا والذي يقع إلى الجنوب من المدينة المنورة مباشرة بسبب أكثر من ثلاث عشرة ثورة بركانية شهدها وتدفق للحمم خلال الخمسة آلاف سنة الماضية (بما يوازي ثورة بركانية كل أربعمئة عام) منها: ثورة بركان رهط سنة ٢١ هـ (٦٤٤ م).

سبقها عدد من الهزات الأرضية العنيفة وأصوات الانفجارات الشديدة. ثورة بركان رهط سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م). حيث ثار البركان وتدفق تيار من الحمم حجمها ٥,٠ كم مكعب من ست أقماع متراسة وتدفقت لمسافة ٢٣ كم حتى وصلت إلى مسافة ٤ كم من المدينة المنورة: وقد كان آخر ثوران. وقد كانت للحررة ثورات سابقة.

سبقها عدد من الهزات الأرضية العنيفة وأصوات الانفجارات الشديدة، والتي شكلت الثورة البركانية الأخيرة (٦٥٤ هـ/١٢٥٦م) ستة مخاريط بركانية جديدة، ودفعت بطفوحها لمسافة زادت على ثلاثة وعشرين كيلو مترا من الشمال إلى الجنوب، وامتدت حتى الطرف الجنوبي لموقع مطار المدينة المنورة الدولي الحالي، ثم تحولت إلى الشمال.

الإعجاز الغيبي هنا هو إخبار النبي ﷺ عن حدث مستقبلي وهو خروج نار كبيرة ما بين المدينة المنورة ومكة من جهة اليمن من شدتها تضيء لها أعناق الإبل في بصرى الشام ولقد حدث ما أخبر به النبي ﷺ.

الإخبار عن ظهور الفتن وكثرة الكذب والقتل وتقارب الأسواق:

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَظْهَرَ الْفِتْنُ، وَيَكْثُرَ الْكُذْبُ، وَتَتَقَارَبَ الْأَسْوَاقُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ». قِيلَ: «وَمَا الْهَرْجُ؟». قَالَ: «الْقَتْلُ». (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ).

في هذا الحديث الشريف إخبار عن واقعنا الذي نعيشه هذه الأيام فقد كثرت الفتن، وكثر الكذب والقتل، وكثرت الأسواق وتقاربت كثيرًا.

وتقارب الأسواق يشمل سرعة العلم فيها، وسرعة السير من سوقٍ إلى سوقٍ ومقاربة بعضها بعضًا في المكان والأسعار، فبين كل سوقين سوق، وهذا مشاهد اليوم في عالم "المولات" فكثرتُها ولا شك مما أخبر عنه النبي ﷺ.

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونُ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونُ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَالضَّرْمَةِ بِالنَّارِ». (رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ). وَفِي رِوَايَةٍ: «وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَأَحْتِرَاقِ السَّعْفَةِ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وقال ابن كثير: «إسناده على شرط مسلم»). وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ. (الضَّرْمَةُ): مَا التَّهَبَ سَرِيعًا مِنَ الْحَطْبِ. وَالسَّعْفُ: وَرَقُ النَّخْلِ الْيَابِسِ.

وقد اختلف العلماء في معنى تقارب الزمان على أقوال كثيرة، وأقوى هذه الأقوال: أن تقارب الزمان يمتثل أن يكون المراد به التقارب الحسي أو التقارب المعنوي. أما التقارب المعنوي؛ فمعناه ذهاب البركة من الوقت، وهذا قد وقع منذ عصر بعيد. وهذا القول قد اختاره القاضي عياض والنووي والحافظ ابن حجر، رحمهم الله.

ومن التقارب المعنوي أيضًا: سهولة الاتصال بين الأماكن البعيدة وسرعته مما يعتبر قد قارب الزمان، فالمسافات التي كانت تقطع قديمًا في عدة شهور صارت لا تستغرق الآن أكثر من عدة ساعات.

في الماضي كانت الرسالة حتى تصل من بلد لآخر تستغرق شهوْرًا، أي أن وسائل النقل كانت بطيئة جدًا تعتمد على الإبل والخيول، ولكننا اليوم نستطيع إرسال رسالة بسرعة الضوء! فالفاصل الزمني أصبح ضئيلاً جدًا في عمل أي شيء. حتى الأحداث والمعارك والأخبار كانت في الماضي تستغرق زمنًا طويلاً لنقلها إلى البلدان الأخرى، أما اليوم فإن التلفزيون ينقل لك الحدث بفاصل زمني هو جزء من الثانية. ليس هذا تقاربًا للزمان؟ فمن الذي أخبر النبي الأمي ﷺ بذلك؟!

قال الشيخ ابن باز في تعليقه على "فتح الباري": «التقارب المذكور في الحديث يُفسَّر بها وقع في هذا العصر من تقارب ما بين المدن والأقاليم وقصر المسافة بينها بسبب اختراع الطائرات والسيارات والإذاعة وما إلى ذلك، والله أعلم»^(١).

وأما التقارب الحسي؛ فمعناه: أن يقصر اليوم قصرًا حسيًا، فتمر ساعات الليل والنهار مرورًا سريعًا، وهذا لم يقع بعد، ووقوعه ليس بالأمر المستحيل، ويؤيده أن أيام الدجال ستطول حتى يكون اليوم كالسنة وكالشهر وكالجمعة في الطول، فكما أن الأيام تطول فكذلك تقصر. وذلك لاختلال نظام العالم وقرب زوال الدنيا.

وهذه الأقوال الثلاثة: "نزع البركة" و"سهولة الاتصال" و"التقارب الحسي" لا تعارض بينها، ولا مانع من حمل الحديث عليها جميعها. والله تعالى أعلم.

الإخبار عن أشياء تحققت في عصرنا:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ، وَفُشْوَةَ التَّجَارَةِ، حَتَّى تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التَّجَارَةِ، وَقَطَعَ الْأَرْحَامَ، وَشَهَادَةَ الزُّورِ، وَكَيْتَمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ، وَظُهُورَ الْقَلَمِ» (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ، وَقَالَ الْأَرْنَؤُوطُ: إِسْنَادُهُ حَسَنٌ).

(١) فتح الباري (٢/٥٢٢).

وفي رواية: «بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: تَسْلِيمُ الْخَاصَّةِ، وَفُشُوُ التَّجَارَةِ حَتَّى تُعَيَّنَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التَّجَارَةِ، وَقَطْعُ الْأَرْحَامِ، وَفُشُوُ الْقَلَمِ، وَظُهُورُ الشَّهَادَةِ بِالزُّورِ، وَكَيْتْمَانُ شَهَادَةِ الْحَقِّ» (رواه البخاري في "الأدب المفرد"، وصححه الألباني).

(تَسْلِيمُ الْخَاصَّةِ): أي: تسليم المعارف فقط.

قال الشيخ الألباني رحمته: «والحديث من أعلام نبوته ﷺ؛ لَأَنَّ كُلَّ مَا فِيهِ تَحَقُّقٌ فِي عَصْرِنَا وَبِخَاصَّةِ "فَشُوُ الْقَلَمِ" أَي: الْكِتَابَةِ»^(١).

وقد تضمن الحديث السالف أمورًا أخرى كثرت في دنيا الناس، وبخاصة قطع الأرحام وشهادة الزور وكتمان الحق. كما ذكر الحديث أمرًا عجبًا حين أخبر عن فشو التجارة ومشاركة المرأة زوجها فيها، وهو ما يكثر في زماننا.

وانظر إلى تطور الكتابة واستخدام أجهزة الكمبيوتر في الكتابة والصحف والمجلات والكتب، حتى إن عدد الصفحات المطبوعة يوميًا يقدر بالملايين. فمن كان يتصور حدوث ذلك في زمن لم يكن في مكة كلها إلا بضعة رجال يتقنون الكتابة؟!!

وتأمل كيف أصبح للمرأة نصيب في الإعلام والمصانع والتدريس والمناصب السياسية والتجارية وهناك هيئات لسيدات الأعمال وغير ذلك مما لم يكن معروفًا زمن النبي ﷺ.

والتطاول في البنيان من الأشياء التي أخبر النبي ﷺ عنها وتحققت في عصرنا فقد ذكر النبي ﷺ أن من أشراط الساعة «أَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ» (رواه البخاري ومسلم). وقال ﷺ: «وَإِذَا رَأَيْتَ رِعَاءَ الْبُهْمِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ، فَذَلِكَ مِنْ أَسْرَاطِهَا» (رواه مسلم).

الْعَالَةُ هُمُ الْفُقَرَاءُ وَالْعَائِلُ الْفَقِيرُ وَالْعَيْلَةُ الْفَقْرُ، وَعَالَ الرَّجُلُ: أَيِ افْتَقَرَ، وَالرِّعَاءُ هُمُ الرُّعَاةُ، وَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ أَهْلَ الْبَادِيَةِ وَأَشْبَاهَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْفَاقَةِ

(١) صحيح الأدب المفرد، (ص: ٤٠٢).

تُبَسِّطُ هُمُ الدُّنْيَا حَتَّى يَتَبَاهَوْنَ فِي البُنْيَانِ، وقد تحقق هذا في زماننا، فتقدّم العلم، وكثر المال، وارتفع - بفضل الله - البنيان، ووصل الأمر بالناس إلى التفاخر فيه، وأغدق الله من فضله وجوده على بلاد كانت تشكو الفقر، فأضحت - بفضل الله - أغنى بلاد الدنيا، فتناول أهلها مع غيرهم في البنيان، وهو مصداق ما أنبأ عنه ﷺ. واليوم نرى الناس يتسابقون في بناء الأبراج العالية، ويتفاخرون بذلك، وهذه معجزة تشهد بصدق النبي الأعظم. لأنه لا يمكن لأحد أن يتنبأ بمثل هذا الأمر قبل ١٤ قرناً.

الإشارة إلى المخترعات المذهلة:

عَنْ سَمْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَزُولَ الْجِبَالُ عَنْ أَمَاكِنِهَا، وَتَرُونَ الْأُمُورَ الْعِظَامَ الَّتِي لَمْ تَكُونُوا تَرُونَهَا» (رواه الطبراني، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة).

في هذا الحديث إشارة إلى سكك الحديد والشوارع، التي أزلت الجبال عن أماكنها في سائر الدنيا، وفي سائر البلاد الجبلية التي تمر فيها شرائطها، فعندما تركب القطار أو السيارة، وتمر في بعض الطرق الجبلية، تجد الجبل مشطوراً إلى شطرين، وأنت تسير على شارع معبّد بين فِلقَتَي الجبل العظيم، وكذلك شقُّ الأنفاق لإنشاء خطوط السكك الحديدية، وشوارع السيارات داخل الجبل، فالجبال اليوم لم تُعدْ عائقاً أمام البشر، فكأنها أُزيلت عن أماكنها.

هذا بالإضافة لما طوّره البشر اليوم من آليات ومعدات ومتفجرات، تمكّنهم من تدمير جبل عظيم في لحظات، فيصبح كثيباً مهيباً، تقوم الجرافات بعد ذلك بنقله إلى أماكن أخرى، فيصبح كأنه لم يكن، فكل هذا يدل على صدق ما جاء به نبينا ﷺ.

وانظر إلى المخترعات الجديدة مثل الإنترنت والجوال والتلفزيون والأسلحة الفتاكة والأمراض الخطيرة كالإيدز ومرض جنون البقر وأنفلونزا الخنازير، كل هذه الأشياء لم نكن نسمع بها من قبل! فالיום تستطيع أن تكلم صديقك وتراه من خلال جهاز الجوال وهو يبعد عنك آلاف الكيلومترات، وهي دليل على صدق النبي ﷺ، إذ

كيف له أن يعلم بأنه ستظهر أمور عجيبة وعظيمة وجديدة، لو لم يكن رسولاً من عند الله تعالى.

جنان تبوك:

عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم عَامَ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَكَانَ يَجْمَعُ الصَّلَاةَ فَصَلَّى الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعًا وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ جَمِيعًا، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمًا آخَرَ الصَّلَاةِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعًا، ثُمَّ دَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ فَصَلَّى الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ جَمِيعًا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَأْتُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَيْنَ تَبُوكَ وَإِنَّكُمْ لَنْ تَأْتُوهَا حَتَّى يُضْحِيَ النَّهَارُ فَمَنْ جَاءَهَا مِنْكُمْ فَلَا يَمَسَّ مِنْ مَائِهَا شَيْئًا حَتَّى آتَى». فَجِئْنَاهَا وَقَدْ سَبَقْنَا إِلَيْهَا رَجُلَانِ وَالْعَيْنُ مِثْلُ الشَّرَاكِ بَبْضِ بَشْيءٍ مِنْ مَاءٍ فَسَأَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «هَلْ مَسَسْتُمَا مِنْ مَائِهَا شَيْئًا». قَالَا: «نَعَمْ».

فَسَبَّهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وَقَالَ لَهَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ ^(١)، ثُمَّ عَرَفُوا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعَيْنِ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى اجْتَمَعَ فِي شَيْءٍ، وَعَسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم فِيهِ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِيهَا فَجَرَّتِ الْعَيْنُ بِمَاءٍ مِنْهُمْ أَوْ قَالَ غَزِيرٍ - شَكَ أَبُو عَلِيٍّ أَيُّهَا قَالَ - حَتَّى اسْتَقَى النَّاسُ، ثُمَّ قَالَ: «يُوشِكُ يَا مُعَاذُ أَنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَا هُنَا قَدْ مُلِيَ جِنَانًا». (رواه مسلم).

(١) يمكن أن يكون ذلك منه صلى الله عليه وآله وسلم بباعث البشرية، فالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بشر ومن صفات البشر الغضب والرضا وغيرها من الصفات، قَالَ تَعَالَى: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ» (الكهف: ١١٠)، وقد وردت الأحاديث في دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يجعل ما صدر منه من سبٍّ ودعاء على أحد ليس هو أهلاً لذلك أن يجعله له زكاة، وأجرًا، ورحمة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - أَيُّ عَبْدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ أَوْ سَتَمْتُهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا» (رواه مسلم). (وفي رواية): «أَيُّ اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي فَقُلْتُ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا وَزَكَاةً وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (رواه مسلم).

(تَبْضُ): تَسِيلُ. (الشَّرَاكُ): سَيْرُ النَّعْلِ. (وَالْعَيْنُ مِثْلُ الشَّرَاكِ تَبْضُ): مَعْنَاهُ مَاءٌ قَلِيلٌ جَدًّا. (مُنْهَمِرٌ) أَي كَثِيرُ الصَّبِّ وَالِدَّفْعِ. (قَدْ مُلِيَ جِنَانًا) أَي بَسَاتِينَ وَعُمْرَانًا وَهُوَ جَمْعُ جَنَّةٍ.

تقع تبوك في شمال غرب السعودية محاذية لبلاد الشام من الشمال ولها ساحل على البحر الأحمر. ومنطقة تبوك منطقة صحراوية كانت قليلة المياه في عهد النبي ﷺ، ولكن بسبب التغيرات المناخية التي تأثرت بها المنطقة والكرة الأرضية بشكل عام زادت فيها نسبة هطول الامطار وأصبحت من أهم موارد المياه في المملكة العربية السعودية وأصبحت تعتبر من المناطق الزراعية وبلغت مساحة الرقعة المزروعة في عام ١٤٢٠هـ حوالي ٢٢٨٣٨٤٠ هكتار، وتركز ٧٠٪ منها حول مدينة تبوك على طريق المدينة المنورة وطريق الأردن (الملك خالد سابقًا) ويتصدر القمح المحاصيل المزروعة، ويوجد على بعد ٤٥ كم تقريبًا من مدينة تبوك باتجاه الحدود الأردنية شركة تبوك للتنمية الزراعية (تادكوا) العملاقة أكبر شركة زراعية بالشرق الأوسط المتخصصة في إنتاج الفاكهة والأعلاف والحبوب والبطاطس والبصل، كما يوجد في تبوك شركة (أسترا) بمساحة ٣٥ كم ٢ التي تنتج زهور القطف (الورد الجوري، القرنفل، الليليم، الأقحوان، الجريبر، الأستر) وتصديرها إلى الأسواق المحلية فقط، وكذلك تنتج مزارع تبوك العنب والزيتون والخوخ والمشمش والحمضيات والتفاح.

الإعجاز الغيبي في الحديث:

من الواضح من خلال قراءة الحديث أن المنطقة كانت تشكو من قلة المياه في عهد النبي ﷺ لذلك منع ﷺ الصحابة من مس ماء عين تبوك حتى يأتي حتى يأتي ويدعو، لهم ولكن العجيب ما قاله ﷺ لمعاذ حينئذ: «يُوشِكُ يَا مُعَاذُ أَنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَا هُنَا قَدْ مُلِيَ جِنَانًا». وحدث ما تنبأ به النبي ﷺ فقد انتشرت المزارع الآن في تبوك وخاصة حول المدينة.

كون التحية على المعرفة:

ومن علامات الساعة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ وظهرت وما زالت منتشرة بل في ازدياد: أن يكون السلام على المعرفة، يعني ألا يسلم الإنسان إلا على من يعرفه، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُسَلَّمَ الرَّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ، لَا يُسَلَّمُ عَلَيْهِ إِلَّا لِلْمَعْرِفَةِ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وصححه الألباني).

فإخبار النبي ﷺ عما يصنعه اليوم كثير من الناس، وهو تسليم المرء على خاصته من أقرباء وأصدقاء دون بقية المسلمين الذين لا يعرفهم، هذا الإخبار منه ﷺ علامة على نبوته، لأنه إخبار بغيب لا يعلمه إلا الله ﷻ أو مَنْ أطلع الله عليه.

يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا:

قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا». (رواه أبو داود، وصححه الألباني). والخمر سميت بغير اسمها مثل مشروبات روحية وكونياك وفودكا وشامبانيا وويسكي وغيرها.

كاسيات عاريات:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَفِيسَاءُ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَخْرُجْنَ مِنْهَا وَإِنْ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا». (رواه مسلم).

قال النووي رحمه الله: «هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ مُعْجَزَاتِ النَّبُوَّةِ، فَقَدْ وَقَعَ مَا أَخْبَرَ بِهِ ﷺ، فَأَمَّا أَصْحَابُ السِّيَاطِ فَهُمْ غِلْمَانٌ وَالْيُ الشَّرْطَةُ.

أَمَّا (الْكَاسِيَاتُ) فَفِيهِ أَوْجُهٌ أَحَدُهَا: مَعْنَاهُ: كَاسِيَاتٌ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ، عَارِيَاتٌ مِنْ شُكْرِهَا، وَالثَّانِي: كَاسِيَاتٌ مِنَ الثِّيَابِ، عَارِيَاتٌ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ وَالِإِهْتِمَامِ لِإِخْرَجَتِهِنَّ، وَالِإِعْتِنَاءِ بِالطَّاعَاتِ. وَالثَّلَاثُ: تَكْشِفُ شَيْئًا مِنْ بَدَنِهَا إِظْهَارًا لِحَمَلِهَا، فَهِنَّ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ. وَالرَّابِعُ: يَلْبَسْنَ ثِيَابًا رِقَاقًا تَصِفُ مَا تَحْتَهَا، كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ فِي الْمَعْنَى.

وَأَمَّا (مَائِلَاتٌ مُيَلَاتُ): فَقِيلَ: زَائِغَاتٌ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا يَلْزَمُهُنَّ مِنْ حِفْظِ الْفُرُوجِ وَغَيْرِهَا، وَمُيَلَاتٌ يُعَلَّمْنَ غَيْرَهُنَّ مِثْلَ فَعْلُهُنَّ، وَقِيلَ: مَائِلَاتٌ مُتَبَخَّرَاتٌ فِي مَشِيَّتِهِنَّ، مُيَلَاتٌ أَكْتَفِهِنَّ، وَقِيلَ: مَائِلَاتٌ يَتَمَشَّطْنَ الْمِشْطَةَ الْمَيْلَاءَ، وَهِيَ مِشْطَةُ الْبُعَايَا مَعْرُوفَةٌ هُنَّ، مُيَلَاتٌ يُمَشَّطْنَ غَيْرَهُنَّ تِلْكَ الْمِشْطَةَ، وَقِيلَ: مَائِلَاتٌ إِلَى الرَّجَالِ مُيَلَاتٌ لَهُمْ بِمَا يُبْدِينَ مِنْ زِيَّتِهِنَّ وَغَيْرِهَا.

وَأَمَّا (رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ) فَمَعْنَاهُ: يُعْظَمْنَ رُءُوسُهُنَّ بِالْحُمْرِ وَالْعَمَائِمِ وَغَيْرِهَا بِمَا يُلَفُّ عَلَى الرَّأْسِ، حَتَّى تُشْبِهَ أَسْنِمَةَ الْإِبِلِ الْبُخْتِ، هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ فِي تَفْسِيرِهِ، قَالَ الْمَازِرِيُّ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ يَطْمَحْنَ إِلَى الرَّجَالِ وَلَا يَغْضُضْنَ عَنْهُمْ، وَلَا يُنْكَسْنَ رُءُوسَهُنَّ.

وَاخْتَارَ الْفَاضِي أَنَّ الْمَائِلَاتِ تَمَشَّطْنَ الْمِشْطَةَ الْمَيْلَاءَ، قَالَ: وَهِيَ صَفْرُ الْعَدَائِرِ وَشَدَّهَا إِلَى فَوْقِ، وَجَمَعَهَا فِي وَسَطِ الرَّأْسِ فَتَصِيرُ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ، قَالَ: وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّشْبِيهِ بِأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ إِنَّهَا هِيَ لَارْتِفَاعِ الْعَدَائِرِ فَوْقَ رُءُوسَهُنَّ، وَجَمْعَ عَقَائِصِهَا هُنَاكَ، وَتَكْثُرُهَا بِمَا يُضْفَرُّهُ حَتَّى تَمِيلَ إِلَى نَاحِيَةِ مِنْ جَوَانِبِ الرَّأْسِ، كَمَا يَمِيلُ السَّنَامُ.

قَوْلُهُ ﷺ: (لَا يَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ) يَتَأَوَّلُ تَأْوِيلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مُحْمُولٌ عَلَى مَنْ اسْتَحَلَّتْ حَرَامًا مِنْ ذَلِكَ مَعَ عِلْمِهَا بِتَحْرِيمِهِ، فَتَكُونُ كَافِرَةً مُخَلَّدَةً فِي النَّارِ، لَا تَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَبَدًا. وَالثَّانِي: يُحْمَلُ عَلَى أَنَّهُ لَا تَدْخُلُهَا أَوْلَ الْأَمْرِ مَعَ الْفَائِزِينَ^(١).

وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ فالآن هذا الوصف لهؤلاء النساء والفتيات وقع بكل معانيه السابقة، وأصبحت بعض النساء المسلمات كاسيات عاريات، هُنَّ وراء الموضة وتقليد الغرب، وأغضبن ربهن وخسرن أنفسهن.

(١) انظر: شرح النووي على مسلم (١٧/١٩٠-١٩١).

ابتكار السيارات:

ومما أخبر ﷺ أنه يكون قبيل الساعة، وتحقق في زماننا؛ استغناء الناس عن ركوب الدواب، التي استبدلوها بما أنتجت التقنية الحديثة من السيارات والطائرات وغيرها من وسائل الانتقال، وهو أمر حديث أشار إليه القرآن بقوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٨) فإذا ما خلق الله هذه الوسائل الجديدة تحققت نبوءة رسول الله ﷺ: «وَلَتُتْرَكَنَّ الْقِلاصُ فَلَا يُسْعَى عَلَيْهَا» (رواه مسلم). والقِلاصُ هي الشَّابَّةُ مِنَ الْإِبِلِ.

وذكر النبي ﷺ في حديث آخر بعض صفات المركوبات التي سيستحدثها الناس وبعض ما سيرافقها من المنكرات، فقال ﷺ: «سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى السُّرُوجِ كَأَشْبَاهِ الرِّحَالِ، يَنْزِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ، نِسَاءُهُمْ كَأَسِيَّاتِ عَارِيَّاتٍ، عَلَى رُءُوسِهِمْ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَافِ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وابن حبان، وذكره الألباني في "الصَّحِيحَةَ"، و"صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ").

(يَنْزِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ): أي: يحضرون المساجد راكبين. (الْبُخْتِ): نوع من الجمال طوال الأعناق.

قال الألباني: «هذه السروج التي يركبها أولئك الرجال في آخر الزمان ليست سروجًا حقيقية توضع على ظهور الخيل، وإنما هي أشباه الرحال. وأنت إذا تذكرت أن (الرحال) جمع رحل، وأن تفسيره كما في "المصباح المنير" وغيره: "كل شيء يعد للرحيل من وعاء للمتاع ومركب للبعير"، إذا علمت هذا يتبين لك بإذن الله أن النبي ﷺ يشير بذلك إلى هذه المركوبة التي ابتكرت في هذا العصر، ألا وهي السيارات، فإنها وثيرة وطيئة لينة كأشباه الرحال ...

في الحديث معجزة علمية غيبية أخرى غير المتعلقة بالنساء الكاسيات العاريات، ألا وهي المتعلقة برجالهن الذين يركبون السيارات وينزلون على أبواب المساجد، ولعمر الله إنها لنبوءة صادقة نشاهدها كل يوم جمعة حينما تتجمع السيارات أمام المساجد حتى ليكاد الطريق على رَحْبِهِ يضيقُ بها، ينزل منها رجالٌ ليحضروا صلاة

الجمعة، وجمهورهم لا يصلُّون الصلوات الخمس، أو على الأقل، لا يصلونها في المساجد، فكأنهم قنعوا من الصلوات بصلوة الجمعة، ولذلك يتكاثرون يوم الجمعة وينزلون بسياراتهم أمام المساجد، فلا تظهر ثمرة الصلاة عليهم في معاملتهم لأزواجهم وبناتهم، فهم بحق "نساؤهم كاسيات عاريات"!

وثمة ظاهرة أخرى ينطبق عليها الحديث تمام الانطباق، ألا وهي التي نراها في تشييع الجنائز على السيارات في الآونة الأخيرة من هذا العصر، يركبها أقوام لا خلاق لهم من المؤسرين المترفين التاركين للصلاة، حتى إذا وقفت السيارة التي تحمل الجنازة، وأدخلت المسجد للصلاة عليها، مكث أولئك المترفون أمام المسجد في سياراتهم، وقد ينزل عنها بعضهم ينتظرون الجنازة ليتابعوا تشييعها إلى قبرها»^(١).

ظهور منكري السنة (القرآنيين):

ظهرت بدعة في القرن الثاني الهجري زعم أصحابها أنهم قرآنيون - والقرآن منهم بريء - وأنهم يكتفون بالقرآن كمصدر تشريعي ثابت عن الله تعالى ودعوا إلى ترك سنة النبي ﷺ وذلك لأهداف خبيثة منها إسقاط العبادات ومعظم الأحكام الشرعية التي لا تثبت إلا بالسنة إضافة إلى تحريف معاني القرآن الكريم وتفسيرها على هواهم فمن المعروف أن السنة المشرفة هي التفسير العملي للقرآن الكريم.

ولقد تصدى لهم علماء الأمة وتمّ وأد هذه البدعة الضالة في وقتها ولكن بعض الدوائر الاستعمارية قامت ببعث هذه الأفكار الضالة من جديد على أيدي دعاة مرتزقة همهم المال والشهرة ولقد جهر بعضهم بشكل واضح على الملأ برفضهم للسنة النبوية والاكتفاء بالقرآن الكريم.

وكما هو معروف فإن القرآن الكريم لا يخالف السنة النبوية الصحيحة بل إن السنة شارحة للقرآن ومكملة له وكل كلام النبي ﷺ في سياق الأحكام الشرعية هو

(١) انظر: السلسلة الصحيحة: (٦ / ٤١٥).

وحي من الله تعالى بدون خلاف، وقد دلت عدة آيات من القرآن الكريم على حجية السنة، ووجوب متابعة النبي ﷺ ومن ذلك الآيات الدالة على أن الرسول ﷺ مبین للكتاب وشارح له، وأنه يعلم أمتة الحكمة كما يعلمهم الكتاب: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل: ٦٤). وقال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ ﴾ (النحل: ٤٤). وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَبُكَرَّتْ لَهُمْ وَبُعِلَّتْ لَهُمُ الْكُتُبُ وَالْحِكْمَةُ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

وقد ذهب أهل العلم إلى أن المراد بالحكمة سنة رسول الله ﷺ، قال الإمام الشافعي رحمه الله: «فذكر الله الكتاب وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت من أَرْضَى - من أهل العلم بالقرآن - يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ وهذا يشبه ما قال - والله أعلم - لأن القرآن ذكر، وأُتبعته الحكمة، وذكر الله منه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يجز - والله أعلم - أن يقال الحكمة هنا إلا سنة رسول الله ﷺ وذلك أنها مقرونة بالكتاب، وأن الله افترض طاعة رسوله ﷺ، وحتم على الناس اتباع أمره، فلا يجوز أن يقال لقول: فرض. إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله ﷺ: لما وصفنا من أن الله جعل الإيذان برسوله مقرونًا بالإيذان به...»^(١).

فهل يُعقل أن يظهر من يزعم أنه مسلم وينكر سنة النبي محمد ﷺ الذي أرسله الله ﷻ للناس كافة وأمر الناس باتباع أوامره^(٢).

إن رسول الله ﷺ الذي أرسله الله ﷻ رحمة للعالمين قد أخبرنا عن هؤلاء المنكرين للسنة قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة وأكد لنا أنهم سوف يظهرون مستقبلًا، أكد

(١) الرسالة (ص ٧٨).

(٢) انظر كتاب "كشف شبهات أعداء السنة"، للمؤلف.

ذلك في وقت كان الصحابة رضي الله عنهم ملتفون حوله صلى الله عليه وآله وسلم وقد ظهرت دعوته وسادت في جزيرة العرب، وانتصر على الوثنية.

ولقد حدث ما أخبر به هذا النبي الصادق صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته كإشارة على صدقه وتثبيتاً للمؤمنين وفضحاً لهؤلاء بل إن عبارتهم التي يروجون بها إلى معتقدتهم هي نفسها التي أخبر عنها النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فَعَنَ الْمُقَدَّامُ بْنُ مَعْدِيكَرِبَ الْكِنْدِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبَعَانُ عَمَّا أَرِيكَتِهِ يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِي، فَيَقُولُ: «بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحَلَلْنَاهُ وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ». أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ». (رواه أبو داود وابن ماجه، وصححه الألباني).

إن الإعجاز الغيبي هنا هو الإخبار عن ظهور طائفة ممن يزعمون أنهم من المسلمين وينكرون السنة أو ما خالف منها القرآن بزعمهم، والإخبار بنص حجتهم وهي تركهم كل ما يخالف القرآن الكريم بزعمهم، فمن أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا النبأ المستقبلي!!!؟

الفصل الخامس
الإعجاز العلمي
ضوابط ومحاذير

أشبهت إنان للإله الله أشبهت إنان محمد رسول الله

قال تعالى:

﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥٣).

حقائق الكون بين العلم الشرعي والعلم التجريبي

إن الاكتشافات لحقائق الخلق لا تأتي إلا بعد دراسة، وبعضها قد يأتي مصادفة؛ كأن يكون البحث في قضية من قضايا الخلق فيظهر أمر آخر لم يكن بحسبان الباحث. ومهما بلغ العلم البشري من تقدم فسيظل عنده قصور في إدراك حقائق الكون؛ فإن جملة من الكون الغائب مما لا يمكن الإنسان الوصول إليه بوسائله البشرية مهما ارتقى بها. وقد يتغير فهم هذه العلوم، ويترقى الإنسان في فهمها جيلاً بعد جيل، فما كان في زمنٍ حقيقةً فقد ينقلب في الزمن الذي بعده إلى أن يكون ضدّها.

قضايا العلم التجريبي بين الشرع والعلم الحديث:

١- العلم بالسُّنة الكونية لا يرتبط بالمعتقد، ولا بالأفكار؛ لأنه نتيجة البحث والتأمل، ومعرفة السُّنة الكونية من العلوم التي وكلها الله لعباده، فعلى قدر ما يكون الجهد في البحث يصل البشر بإذن الله إلى نتائجه المرجوة، ولما كان الوصول إلى هذه العلوم التجريبية مرتبطاً بالقدرة على البحث ووجود المناخ المناسب له، وكان الغرب الكافر قد حرص عليه، فإنهم قد سبقوا المسلمين في ذلك.

٢- إن وجدت إشارة في القرآن أو السُّنة الصحيحة لبعض هذه المسائل المرتبطة بالعلوم التجريبية فإنها لم تكن هي المقصد الأول، وإذا وازنت بين المعلومات العقدية والشرعية، ظهر لك أنّ المعلومات العقدية والشرعية - أي: كيف يعرفون ربهم، وكيف يعبدونه - هي الأصل المراد بالقرآن والسُّنة الصحيحة، وهي التي تكفل الله ببيانها للناس، أما المعلومات الدنيوية بما فيها العلوم التجريبية فهي موكولة للناس، وإن جاءت فإنها تجيء مرتبطة بالدلالة على حكم عقدي أو شرعي، فهي جاءت تبعاً وليس أصالةً؛ أي: أن القرآن لم يقصد أن يذكرها على أنها حقيقة علمية مجردة، بل ليستدل بها على توحيد الله وأحقّيته بالعبادة، أو على حكم تشريعي، أو على إثبات اليوم الآخر.

٣- القضايا العلمية التي يفسر بها من يبحث في الإعجاز أو التفسير العلمي لا يدركها إلا الخواص من الناس، ولا يوصل إليها إلا بالمراس.

٤- علم البشر قاصر غير شمولي، ونظرة من زاوية معينة، لذا قد يغفل عن جوانب في القضية، فيختل بذلك الحكم ونتيجة البحث. وقد يكشف ما لم يحتسب له عن طريق الصدفة لا الممارسة العملية.

٥- في القرآن والسنة الصحيحة طرُح للقضايا العلمية بعيداً عن الخيالات التي كانت إبان نزوله، سواءً أكانت هذه العلوم عند العرب أم عند غيرهم، وهذه الخيالات بان خطؤها في القرون المتأخرة، ولا يزال هناك غيرها مما سيكشفه العلم التجريبي، وكل ذلك مما لا يمكن أن يخالف حقائق القرآن إن صحَّت تلك العلوم.

٦- قد تكون بعض القضايا العلمية صحيحة في ذاتها، لكن الخطأ يقع في الاعتقاد بأن الآية أو الحديث يدلان عليها، وتُفسر بها أو بأحدهما.

٧- الفرق بين القرآن والعلم التجريبي في تقرير القضية العلمية:

- أن قضايا الكون تأتي في القرآن على ما استقرت عليه من حيث هي حقيقة كونية.
- أن حديث القرآن عما هو خفيٌّ عنَّا من قضايا الكون كحديثه عما هو معلوم مُشاهد كشروق الشمس من مشرقها.
- أن القرآن يقررها حقيقةً حيث كانت وانتهت، والعلم التجريبي يبدأ في البحث عنها من الصفر حتى يصل إلى الحقيقة العلمية.
- القرآن يذكر القضية العلمية مجمّلة غير مفصلة، أما العلم التجريبي فينحو إلى تفصيل المسألة العلمية.

ضوابط شرعية للتعامل مع الآيات الكونية:

للتعامل مع الآيات الكونية ضوابط شرعية يجب الالتزام بها، منها:

١- الإيمان بجميع ما جاء في القرآن والسنة عن الآيات الكونية مما شهدناه أو غاب عنا، وسواء في ذلك ما عقلناه وجهلناه ولم نطلع على حقيقة معناه مما صح به

النقل، وإن خالف نظريات العلم الظنية.

٢- الله ﷻ هو المتفرد بالخلق، والمتصرف في الكون.

٣- هذه الآيات الكونية لا تخرج عن قضاء الله وقدره ولا عن مشيئته وإرادته.

٤- كل ما ورد في النصوص الشرعية من الآيات الكونية فهو لبيان كمال قدرة الله ﷻ وحكمته، وتذكير الناس بنعم الله تعالى عليهم ليشكروه حق شكره، وليعبده حق عبادته. فذكر الآيات الكونية في القرآن في سياق العظة للاعتبار، وفي مورد الإرشاد للاستدلال على قدرة الخالق وحكمته في مخلوقاته، ليوجه الإنسان ببصيرته إلى خالقه، فيسبحه ويمجده ويعبده حق عبادته.

٥- ليس في النصوص الصحيحة ما ينافي العلم الكوني الصحيح، ولا ما يناهض ما أثبتته البرهان الساطع، وقام عليه الدليل القاطع، بل إن فيه إشارات تدعمه وتثبت رجحان ما يذهب إليه.

٦- من الآيات الكونية ما لا يمكن العلم به إلا عن طريق النصوص الشرعية الثابتة، ولا مجال للاجتهاد فيه لأن الله ﷻ قد استأثر بعلم ذلك، كطلوع الشمس من مغربها آخر الزمان، وأهوال يوم القيامة. ومنها ما يدرك بالحس والمشاهدة، وهذه لا تحتاج إلى دليل شرعي، مثل أن الشمس مضيئة وذات حرارة. ومنها ما يدرك بالنظر والاستدلال، كمعرفة وقت الكسوف والخسوف.

وعلى هذا فالعلوم الكونية تُبنى على أصليين، إما نص شرعي تؤخذ منه الدلالة بصريح لفظ أو مفهوم، وإما محسوس تدركه الحواس البشرية وتصدقها النصوص الشرعية لأنها لا تخالفه في منطوق ولا مفهوم. فمرجع القبول لكل العلوم القديمة والحديثة التي تتعلق بالآيات الكونية قائم على إحدى قاعدتين، إما النقل الصحيح أو العقل الصريح، إذ لا تخالف بينهما.

٧- عدم الخوض في الأمور الغيبية والوقوف مع النصوص الشرعية.

٨- ما سكنت عنه النصوص الشرعية من ظنيات العلم الكوني، فلا شيء يمنعنا أن نسلم به، حتى يجيء من العلم الكوني ما يناقضه.

٩ - هذه الآيات الكونية لحدوثها أسباب حسية، فنزول المطر سبب حياة الأرض، وأسباب معنوية، فالاستغفار من أسباب نزول الأمطار قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ (نوح: ١٠-١٢).

١٠ - ما أوتيته الإنسان من علم الآيات الكونية فإنه محدود بما أراده الله ﷻ لتقوم الحجة على خلقه بما يُظهره لهم من الآيات البينات التي تدل على عظمة هذا الكون وعظمة خالقه.

١١ - البحوث العلمية الناتجة عن الدراسات لا يلزم مصداقيتها، وهي درجات من حيث المصادقية، لذا قد ترى دراسة علمية تذكر فوائد شيء، وتأتي دراسة تناقضها في هذه الفوائد.

١٢ - الثبت من حقائق العلم وعدم إقحامها في غير موضعها في القرآن والسنة، والواجب عند تفسير الآيات الكونية في القرآن أو السنة بالعلم الحديث، أن لا تخالف هذه التفاسير العلمية النصوص الشرعية، ولا تفاسير السلف، مع مراعاة الشروط والضوابط العامة للتفسير.

ما هو الإعجاز العلمي؟

هو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية الصحيحة بحقيقة أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ كالتعليم والمعرفة المكتسبة بوسائلها المختلفة، وهذا مما يُظهِر صدق الرسول محمد ﷺ فيما أخبر به عن ربه ﷻ.

ويؤكد أن القائل بتلك الحقيقة في شتى أمور الحياة مُوحى إليه من الله ﷻ بما تحدث به؛ فيكون ذلك شاهداً على ألوهية رسالته، وصدق دعوته، فالإعجاز العلمي من دلائل صدق أخبار القرآن والسنة.

إن قصارى الأمر في مسألة الإعجاز العلمي أن الحقيقة الكونية التي خلقها الله، وافقت الحقيقة القرآنية التي تكلم بها الله ﷻ، وهذا هو الأصل؛ لأن المتكلم عن الحقيقة الكونية المخبر بها هو خالقها، فلا يمكن أن يختلفا البتة.

وكل ما في الأمر أن هذه الحقيقة الكونية كانت غائبة من جهة تفاصيلها عن السابقين، فمن الله على اللاحقين بمعرفة هذه التفاصيل، فكشفوا عنها، وأثبتوا حقيقة ما جاء في القرآن من صدق، فكان اكتشاف ذلك من دلائل صدق القرآن الذي أخبر عنها بدقة بالغة، لم تظهر تفاصيلها إلا في هذا العصر الذي نبغ فيه سوق البحث التجريبي الذي صارت دولته إلى الكفار دون المسلمين، فصاروا إذا ما اكتشفوا أمراً جديداً عليهم سارع المعتنون بالإعجاز العلمي لإثبات وجوده في نصوص القرآن.

إن لكل رسول معجزة تناسب قومه ومدة رسالته، ولما كان الرسل ﷺ قبل نبينا محمد ﷺ يبعثون إلى أقوامهم خاصة، ولأزمة محدودة فقد أيدهم الله ببيانات حسية مثل: عصا موسى ﷺ، وإحياء الموتى بإذن الله على يد عيسى ﷺ، وتستمر هذه البيانات الحسية محتفظة بقوة إقناعها في الزمن المحدد لرسالة كل رسول، فإذا حَرَف الناس دين الله بعث الله رسولاً آخر بالدين الذي يرضاه، وبمعجزة جديدة، وبينة مشاهدة.

ولما ختم الله النبوة بنيينا محمد ﷺ ضَمِنَ له حِفْظَ دينه، وأيده بينة كبرى تبقى بين أيدي الناس إلى قيام الساعة، وهي القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَيْتُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ١٩). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ١٦٦).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ وَأَيْنِيهِ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (النمل: ٩٣). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَرِّيهِمْ أَيْتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣).

إن الإعجاز العلمي يمثل شاهداً إضافياً على صدق رسول الله ﷺ، ويستوي في ذلك الحكم إن كان الإعجاز قرآنيًا أم بالسنة، ولكن الادعاء بوجود إعجاز علمي لا يُسَلَّمُ به إلا بعد ثبوت تحقيق مناطه والذي يتمثل في حقيقتين هما:
أولاً: ثبوت اكتشاف هذه الحقيقة من قِبَل العلماء بشكل مستقر وذلك بعد برهنة المتخصصين في مجالها على ثبوتها^(١).

(١) إن كثيراً من المسلمات عند بعض الناس هي محل مراجعة وشد وجذب بين أهل الاختصاص، ومن ذلك أن أحد الكُتَّاب الأمريكيين ردَّ على بني قومه بأدلة عقلية واتهمهم بالكذب في دعوى الوصول والهبوط على سطح القمر!!! وذلك من خلال عدَّة نقاط، منها:

الأولى: لما نَزَلَ رائد الفضاء - بزعمهم - على سَطْح القمر كان يمشي على رجليه! مع إثباتهم انعدام الجاذبية فوق سطح القمر! يعني المفترض أن يكون كالسائح في الهواء!

الثانية: أن المركبة هَبَطَتْ واستقرَّت فوق سطح القمر، من غير وجود جاذبية!
الثالثة: أن رائد الفضاء لما نَزَلَ - بزعمهم - على سَطْح القمر كان هناك آلة تصوير صَوَّرته أثناء نُزوله من المركبة! فمن الذي سبقهم وزرع آلة التصوير تلك لتصوّر رائد الفضاء فور نُزوله على سطح القمر!

الرابعة: أن رائد الفضاء زرع علمًا أمريكيًا فوق ما زعموه "سطح القمر"! فأخذ العلم يُرفرف! مع إثباتهم أنه لا حياة ولا هواء ولا ماء على سطح القمر! فكيف يُرفرف العلم مع عدم وجود جاذبية! وبعد إتمام الرحلة وتحديدًا في عام ١٩٧٠ ظهرت العديد من التحليلات العلمية التي تشكك في صحة هذه الرحلة وأن الإنسان بالفعل لم يهبط على القمر وقتها. وأن الصور والفيديوهات تم إنتاجها في استديوهات أرضية.

نظرية المؤامرة في الصعود للقمر:

مضمون هذه النظرية هو القول بأن بعض أو كل عناصر برنامج "أبوللو" الذي يرتبط بالهبوط على القمر كانت خدعة وقد قامت بها "وكالة ناسا" بالتعاون مع بعض المنظمات الأخرى، وأن سنة الإنزال المأهولة (١٩٦٩-١٩٧٢) كلها مزورة وأن اثني عشر من رواد الفضاء على "أبوللو" لم يسيروا أو يتجولوا في الواقع على القمر. وقد اعتبرت الجماعات المختلفة والأفراد مثل هذه الأمور مؤامرة منذ منتصف ١٩٧٠. وقالوا أن "وكالة ناسا" وغيرها ضللوا الجمهور بالاعتقاد بحدوث الهبوط، من خلال الفبركة، والعبث، أو تدمير الأدلة بما في ذلك الصور، والقياس، والأشرطة والإذاعة والتلفزيون والإرسال، وعينات الصخور القمرية، وحتى بعض الشهود الرئيسيين.

وقد أظهرت استطلاعات الرأي وقتها بأن ٢٠٪ في المائة من الشعب الأمريكي لا زال يؤمن بأن وصول الإنسان إلى القمر أكذوبة كبيرة. بينما وصلت إلى ٢٨٪ عند الشعب الروسي.

وفي عام ٢٠٠١ قامت شركة "فوكس" بإنتاج فيلم وثائقي تحت عنوان: "نظرية المؤامرة: هل هبطنا على القمر فعلاً؟" تحدث فيها علماء أمريكيون في مجالات مختلفة كما ضم متحدثًا واحدًا من وكالة ناسا لإضفاء الموضوعية على الفيلم.

إن بعض العلماء الأمريكيين على قناعة تامة بأن ما حدث في يوليو عام ١٩٦٩ مجرد فيلم أمريكي باهظ التكاليف تم إنتاجه وإخراجه، وكانت "وكالة ناسا" تهدف من ورائه إقناع الاتحاد السوفيتي بتفوق الولايات المتحدة في مجال الفضاء مما يتيح لها التفوق العسكري حال حدوث حرب بين الدولتين.

ورغم كثرة التحليلات بين الطرفين إلا أن بعض الآراء المحايدة رجحت أن (الرحلة أبوللو ١١) قامت بالفعل وعلى متنها رواد فضاء ولكنها لم تستطع أن تصل إلى القمر لكونه أمرًا يتطلب تقنيات وإمكانات نادرة تكاد تكون شبه مستحيلة علميًا. مما دفعها إلى إنتاج فيلم تحييلي وصور مصطنعة للرحلة حتي تستطيع تحقيق الريادة في سبق الفضاء مع الاتحاد السوفيتي.

وضع بعض المحللين عدة دوافع قوية أجبرت الولايات المتحدة علي اختلاق رحلة الهبوط علي القمر:

١- الصراع التكنولوجي والحرب الباردة:

في ظل الصراع العلمي والتكنولوجي في الحرب الباردة بين القوتين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبعد نجاح الأخيرة في إطلاق أول قمر صناعي وأول إنسان للفضاء كانت الولايات المتحدة تحتاج إلى رد قوي وسريع علي ذلك حتي تتمكن من استعادة هيبتها. وكانت فكرة "هبوط الإنسان علي القمر" تمثل انتصاراً علمياً ساحقاً علي السوفييت وإنجازاً بشرياً غير مسبوق. وكان الإنجاز يجب أن يكون فريداً بحيث يعجز الاتحاد السوفيتي أيضاً عن القيام به.

٢- حرب فيتنام:

كانت للنتائج السيئة في حرب فيتنام تأثير سلبي علي المجتمع الأمريكي، فكان لابد من البحث عن وسيلة لإلهاء الشعب ومنحه إحساساً بالثقة والنصر. فكانت (رحلة أبوللو ١١) بمثابة طوق النجاة أيضاً للسياسيين في أمريكا وكان لابد من إتمام هذه الرحلة المستحيلة بأي شكل من الأشكال، مما يعطي دافعاً كبيراً لتزييف هذه الرحلة لتحقيق الهدف المنشود.

٣- المصروفات وميزانية "ناسا":

كانت الميزانية المخصصة لـ "ناسا" ضخمة للغاية وصلت إلى ٣٠ مليار دولار. وكانت التكلفة باهظة للأبحاث والرحلات الفضائية السابقة ولم تستطع "ناسا" تحقيق أي إنجاز معروف وقتها، مما أثار المخاوف لدي العاملين بالوكالة الفضائية "ناسا" من تقليل أو إيقاف الميزانية المخصصة لها مما كان اختلاق أكذوبة (الهبوط علي القمر) خلال (رحلة أبوللو ١١) التالية حتمياً و ضرورياً. ويرجح البعض أنه ربما تكون وكالة "ناسا" هي التي قامت بتزييف هذه الحقيقة دون أن يعلم البيت الأبيض ذلك.

أبرز نقاط التشكيك في صحة الرحلة والتي ذكرها العلماء منذ ١٩٧٠ حتى الآن:

١- العلم الأمريكي:

علميا لا توجد رياح علي سطح القمر وكان العلم الأمريكي يرفرف كما ظهر في إحدي الصور.

٢- عدم وجود أي آثار للنجوم في السماء:

حيث إن جميع الصور تُظهر السماء كاحلة بدون أي آثار للنجوم أو لأي أجرام سماوية.

٣- مصدر الإضاءة المجهول:

من المعروف أن أشعة الشمس هي المصدر الوحيد للإضاءة علي سطح القمر. وهذه الأشعة تنعكس بشكل كامل مما يمنح الرؤية في منطقة الظل (مثلاً لا يظهر الجزء الآخر من القمر عندما يكون هلال مثلاً) ولكن إحدي الصور أظهرت بعض المعدات وبعض أجزاء جسم أحد الرواد عند صعوده للمركبة. مما يعطي تشكيكا كبيراً في أن الضوء المستخدم هو ضوء استديوهات وليس علي القمر!

ثانياً: صحة الدلالة على تلك الحقيقة في القرآن الكريم أو نصّ من نصوص السنة المطهرة، وذلك دون تكلف أو اعتساف في الاستدلال. علمًا بأن الرابط الذي

٤- وجود الظلال في اتجاهات مختلفة:

من المفترض على القمر أن مصدر الإضاءة الوحيدة هو الشمس، وبالتالي يجب أن تكون جميع الظلال في اتجاه واحد ومتوازية. ولكن اكتشف العلماء في الصور وجود ظلال للأجسام في اتجاهات مختلفة في نفس اللحظة مما يوحي بوجود أكثر من مصدر للإضاءة.

٥- عدم وجود آثار للمركبات:

أظهرت الصورة الملتقطة عدم وجود آثار على سطح التربة من قوائم المركبات التي هبطت على سطح القمر أو من المحرك السفلي وكأنتها لم تتحرك من مكانها بالرغم من أنه المفترض أن هذه المركبة هبطت على هذه البقعة. يبدو في الصور أن المركبة هبطت على السطح دون أن تُحدث أي آثار في التربة. وهو شيء مُريب وغير منطقي!

٦- درجة حرارة القمر: من المعروف علمياً أن درجة حرارة القمر تصل إلى ١٢٣° نهارًا و (-١٥٣°) ليلاً وهذا يتطلب وجود بذلات ذات مواد وتصميم صعب ويجب توافر أجهزة تبريد وتدفئة خاصة لتخفيف هذه الدرجات العالية وأجهزة لمعالجة فرق الضغط وغيرها وهو ما يتطلب تقنيات عالية غير متوفرة في ذلك الوقت.

٧- فقر الامكانيات التكنولوجية:

يعتقد هؤلاء العلماء أن الإمكانيات التقنية الموجودة وقتها لم تكن تسمح بالوصول إلى القمر بدليل عجز "ناسا" عن تكرار الحدث بعد أكثر من أربعين عامًا بالرغم من التطورات الهائلة في مجال التكنولوجيا.

٨- عدم الضرر أو حدوث أي إصابة أو تلوث:

كان هؤلاء العلماء ومعهم عالم فضاء سوفيتي أقروا بوجود طبقة من موجات "حزام فان آلن" الإشعاعي إضافة إلى طبقة سميكة من الإشعاع الذري حول القمر مما يجعل اختراق الإنسان لهذه الطبقة دون الإصابة بالسرطان أو تقرحات جلدية أمراً مستحيلًا. ورواد الفضاء لأبوللو ١١ لم يُصَب أحدهم بأي أذى.

٩- المنطقة المجهولة:

يعتقد هؤلاء العلماء أن مسرح هذه العملية من أولها لآخرها كانت في صحراء "نيفادا"، في منطقة عسكرية حساسة تسمى المنطقة ٥١، حتى تاريخ اليوم يتم منع وتصفية أي شخص يقترب من هذا المكان. ورجح البعض أن طبيعة المكان تكاد تكون مشابهة لما جاء بالصور.

(انظر: نظرية المؤامرة في الصعود للقمر، من موقع "ويكيبيديا"، الموسوعة الحرة).

يعطي هذا المناط قيمته هو عدم إمكان إحاطة البشر بتلك الحقيقة وقت التنزيل؛ ولذلك فإن خطوات إثبات شاهد من شواهد الإعجاز العلمي خمسة وهي:

١- إثبات وجود دلالة في النص على الحقيقة الكونية المراد إثبات وجود إعجاز علمي بصدها.

٢- ثبوت تلك الحقيقة الكونية علمياً بعد توافر الأدلة التي تحقق سلامة البرهنة عليها.

٣- ثبوت استحالة معرفة البشر بتلك الحقيقة الكونية وقت تنزيل القرآن على نبينا محمد ﷺ والتي اكتشفت لاحقاً في الأزمنة المتأخرة.

٤- تحقق المطابقة بين دلالة النص من كتاب الله ﷻ أو من سنة رسوله ﷺ وبين تلك الحقيقة الكونية.

٥- ثبوت أن النص من السنة المطهرة الذي نستنبط منه الإعجاز العلمي المشار إليه، هو صحيح أو حسن، إذ لا يُعتمد في هذا المجال الأحاديث الضعيفة.

إن من يبحث في هذا الميدان يعالج ما يُسمى: استنباطاً من النص. وهذا يميل عليه التزام منهج علماء الأمة في تفسير القرآن الكريم والسنة الصحيحة، فينبغي أن تنتبه في سياق الكلام عن "الإعجاز العلمي" إلى أمور منهجية مهمة:

١- القرآن الكريم كتاب هداية، احتوى على ما يُصلح حال الفرد، والأسرة، والمجتمع، والدولة، وهو ليس كتاب "كيمياء"، أو "جيولوجيا"، أو "طب"، وما فيه من إشارات لعلوم الطبيعة لا نكرها، لكن لا نعطيها أكبر من حجمها. وإعجاز القرآن في أصله هو إعجاز لغوي، بياني، ومن هنا فقد تحداهم النبي ﷺ بالإتيان بمثله، فعجزوا، مع أنهم أهل فصاحة، وبيان.

٢- إن الأصل أن تتفق الحقيقة الكونية مع النص القرآني لأن مصدرهما واحد، ولا يقع الاختلاف إلا في نظر الناظر، فقد يكون النقص في علمه، إما من جهة الحقيقة الكونية وإما من جهة الحقيقة القرآنية، وفي كلا الحالين لا يمس هذا النقص قدسية القرآن؛ لأن التفسير شيء، وثبوت النص القرآني كلاماً لله شيء آخر.

٣- ينبغي التفريق بين "النظريات" و"الحقائق" في هذا الباب، فكثيرًا ما يُخلط بينهما، فتُجعل النظريات حقائق ثابتة، فيحمل المتحمسون آيات القرآن عليها، ثم سرعان ما تُنقض بنظرية أخرى! فيقع في قلب المسلم من الشك والريب ما يكون سببه جهل من تكلم في هذا العلم، وخلط بين الأمور.

كما أنه توجد حقائق لا شك فيها، لكن ليس من اللازم أن يكون في القرآن حديث عنها بنفسها، ويأتي بعض المتحمسين ليتكلف حمل نصوص من القرآن أو السنة عليها، وقد نهينا عن التكلف.

٤- لا شك أن الدعوة بالإعجاز العلمي هي أحد طرق الدعوة، وليس هو طريقها الوحيد في هذا العصر، والرجوع إلى كتاب ربنا والعمل بما فيه من الآيات التي تدعونا إلى عمارة الأرض والجد والاجتهاد فيما يعود على الإنسان وأمته والناس بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة هو الطريق الأمثل في إنقاذ هذه الأمة من تخلفها وعجزها.

فإن طلب قيادة البشرية لا يكفي فيه العلم وحده، بل لا بد له من قوة تحميه، فإذا وُجد العلم ولم توجد له قوة تحميه فإنه يهاجر إلى هذه القوة؛ كما هو الحال في هجرة كثير من علماء المسلمين وغيرهم إلى الدول التي تحميهم في كل المجالات.

٥- للأخذ بما يقوله بعض العلماء المعاصرين بما تدل عليه بعض الآيات القرآنية من أوجه الإعجاز العلمي ينبغي مراعاة أمور:

- عدم الجزم بالنظريات العلمية على أنها حقائق علمية لا تقبل المناقشة.
- عدم الجزم بأن ما يقولونه هو تفسير للآية القرآنية، ولا هو بالمرجح بين الأقوال المختلفة فيها.
- يجب مطابقة المعنى المذكور للغة العربية؛ لأنها لغة القرآن.
- أن يكون المتكلم في دلالة الآية من أصحاب العلم الشرعي.
- أن لا يخالف المعنى المذكور آية، أو حديثًا صحيحًا، أو إجماعًا.
- الابتعاد عن التكلف والتمحُّل (أي سلوك طرقًا ملتوية) في الاستنباط من الآية القرآنية.

الإعجاز العلمي بين المجيزين والمانعين

ينقسم العلماء في هذا الموضوع إلى فريقين:

فريق: يميزه ويدعو اليه ويرى فيه فتحًا جديدًا وتجديدًا في طريق الدعوة إلى الله وهداية الناس إلى دين الله ﷻ.

وفريق: يرى في هذا اللون من التفسير خروجًا بالقرآن عن الهدف الذي أنزل من أجله، وإقحامًا له في مجال متروك للعقل البشرى يجرب فيه ويصيب ويخطئ. أما مجيزوا التفسير العلمي فيضعون له الحدود التي تسد الباب أمام الأعداء الذين يتشبعون بما لم يعطوا. ومن هذه الحدود:

١ - ضرورة التقييد بما تدل عليه اللغة العربية فلا بد من:

- أن تراعى معاني المفردات كما كانت في اللغة إبان نزول الوحي.
- أن تراعى القواعد النحوية ودلالاتها.
- أن تراعى القواعد البلاغية ودلالاتها. خصوصًا قاعدة أن لا يخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقريضة كافية.

٢ - البعد عن التأويل في بيان إعجاز القرآن العلمي.

٣ - أن لا تُجْعَل حقائق القرآن موضع نظر، بل تجعل هي الأصل: فما وافقها قبل وما عارضها رفض.

٤ - أن لا يفسر القرآن إلا باليقين الثابت من العلم لا بالفروض والنظريات التي لا تزال موضع فحص وتمحيص، أما الحدسيات والظنيات فلا يجوز أن يفسر بها القرآن، لأنها عرضة للتصحيح والتعديل أو الإبطال في أي وقت.

أما المانعون من التفسير العلمي فيقولون:

١ - إن القرآن كتاب هداية، وإن الله لم ينزله ليكون كتابًا يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم، ودقائق الفنون، وأنواع المعارف.

٢- إن التفسير العلمي للقرآن يعرّض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير.

٣- إن التفسير العلمي للقرآن يحمل أصحابه والمغرمين به على التأويل المتكلف الذي يتنافى مع الإعجاز، ولا يسيغه الذوق السليم.

ولكن هل تكفى هذه الحجج لرفض التفسير العلمي؟

١- إن كَوْن القرآن الكريم كتاب هداية لا يمنع أن تَرَدَّ فيه إشارات علمية يوضحها التعمق في العلم الحديث، فقد تحدث القرآن عن السماء والأرض، والشمس، والقمر، والليل والنهار، وسائر الظواهر الكونية، كما تحدث عن الإنسان، والحيوان والنبات. ولم يكن هذا الحديث المستفيض منافياً لكون القرآن كتاب هداية، بل كان حديثه هذا أحد الطرق التي سلكها هداية الناس.

٢- أما تعليق الحقائق التي يذكرها القرآن بالفروض العلمية فهو أمر مرفوض وأول مَنْ رَفَضَهُ هم المتحمسون للتفسير العلمي للقرآن.

٣- أما أن هذا اللون من التفسير يتضمن التأويل المستمر، والتمحل، والتكلف فإن التأويل بلا داع مرفوض. وقد اشترط القائلون بالتفسير العلمي للقرآن شروطاً من بينها أن لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن الواضحة التي تمنع من إرادة الحقيقة.

والخلاصة: إن التفسير العلمي للقرآن:

- مرفوض إذا اعتمد على النظريات العلمية التي لم تثبت ولم تستقر ولم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية.
- ومرفوض إذا خرج بالقرآن عن لغته العربية.
- ومرفوض إذا صدر عن خلفية تعتمد العلم أصلاً وتجعل القرآن تابعاً.
- وهو مرفوض إذا خالف ما دل عليه القرآن في موضع آخر أو دل عليه صحيح السنة.

والتفسير العلمي للقرآن مقبول بعد ذلك:

- إذا التزم القواعد المعروفة في أصول التفسير من الالتزام بما تفرضه حدود اللغة، وحدود الشريعة والتحري والاحتياط الذي يلزم كل ناظر في كتاب الله ﷻ.
- وهو مقبول ممن رزقه الله علماً بالقرآن وعلماً بالسنن الكونية لا من كل من هب ودب فكتاب الله أعظم من ذلك.

هل نحن بحاجة إلى الإعجاز العلمي؟

إن نتيجة ما يتوصل إليه الباحث في الإعجاز العلمي هي إثبات أن الحقيقة أو النظرية الكونية أو التجريبية قد ورد ذكرها في القرآن صراحة أو إشارة، وهذا فيه دليل على صدق القرآن وأنه من عند الله. وهذه النتيجة لا يمكن الوصول إليها إلا بعد البحث المجرد في الحقائق الكونية والمواد التجريبية، ولا شك أن الباحث إذا كان ممن يؤمن بالله ورسوله ﷺ فإنه لن يأتي بشيء مخالف لما في القرآن والسنة، أما إذا كان الباحث كافرًا فقد يقع منه مخالفات للشرع، ويكون ذلك دليلًا على خطئه في مسار بحثه.

ومن ثمَّ فإنَّ عندنا أمرين:

الأول: العناية بالبحث التجريبي والنظر في هذا الكون والتدبر فيه لننفس بذلك أعداء الله الذين تقدموا علينا في هذا المجال.

الثاني: العناية بما يسمى بالإعجاز العلمي لإثبات صحة هذا الدين لأولئك الذين لا يؤمنون إلا بالحقائق المادية، ودعوتهم إلى الإسلام،

وذلك أنه لما كان هذا العصر عصر ثورة العلوم التجريبية الدنيوية، فإنَّ تقديم هذه التفسيرات الموافقة لما ثبت في هذه العلوم للناس دعوة لهم لهذا الدين الحقّ. والدعوة بهذه القضايا - إن ثبتت ثبوتًا يقينياً - حقٌّ لكن الأمر يحتاج إلى ضبط مدى الحاجة للدعوة بهذه التفسيرات العلمية للقرآن، وهل أثبتت نجاحها وتميزها؟ إنَّ الذي يُحشى منه أن تكون الدعوة بهذه التفسيرات الموافقة للعلوم التجريبية قد

أخذت أكبر من حجمها، وأنَّ عدد المتأثرين بها قليلٌ لا يكاد أن يوازوا بعددهم ما يقوم به داعية أو مركز إسلامي يبيِّن للناس هذا الدين الحقَّ.

ومن المعلوم أن الأفواج الكثيرة التي دخلت في الإسلام أسلمت بأبسط من هذا الطرح العلمي، فأغلبهم أسلم لما يجد في الإسلام من موافقته لفطرته التي فطره الله عليها دون أن يصل إلى الإيمان بالله بهذا العلم الذي لا يدركه إلا القليل من الناس.

إننا نفرح بإسلام علماء وباحثين من الغرب والشرق، لكننا بحاجة إلى التنبُّه

لأمور؛ منها:

١ - أن مثل هؤلاء يحتاجون إلى تعزيز الإيمان في قلوبهم، ومتابعة أحوالهم بعد إسلامهم، والحرص على تثقيفهم في دينهم الجديد؛ لأن المقصود من الدعوة إلى الله تعبيد الناس لله، وليس مجرد إقناعهم بأن الإسلام دين حق.

٢ - أن هؤلاء قد يحاربون من أقوامهم ويُسَفِّهون، وهم بحاجة إلى رعاية خاصة، فينبغي أن يعتني بعض الدعاة بشؤونهم ويتابعوا أحوالهم.

أوجه الإعجاز العلمي في القرآن والسنة:

١- التوافق الدقيق بين ما في نصوص الكتاب والسنة، وبين ما كشفه علماء الكون من حقائق كونية، وأسرار علمية، لم يكن في إمكان بشر أن يعرفها وقت نزول القرآن. ومن ذلك ما كشفه البروفسور "كيث ل. مور" وهو من أشهر علماء العالم في علم الأجنة وكتابه في علم الأجنة مرجع عالمي مترجم إلى سبع لغات منها الروسية واليابانية والصينية والذي جاء بعد اقتناعه بأبحاث الإعجاز العلمي ألقى محاضرة في ثلاث كليات طبية بالمملكة العربية السعودية عام (١٤٠٤هـ) بعنوان (مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة).

٢- تصحيح الكتاب والسنة لما شاع بين البشرية، في أجيالها المختلفة، من أفكار باطلة، حول أسرار الخلق لا يكون إلا بعلم من أحاط بكل شيء علماً. ومن ذلك ما كان شائعاً بين علماء التشريح من أن الولد يتكون من دم الحيض واستمر ذلك

الاعتقاد إلى أن اكتشاف المجهر في القرن السادس عشر الميلادي بينا نصوص القرآن والسنة تقرر أن الولد يتكون من المنى.

وقد رد علماء المسلمين من أمثال الإمام ابن القيم والإمام ابن حجر وغيرهما أقوال علماء التشريح في عصورهم بنصوص الوحي وذلك مثل ما قاله ابن حجر: «وَزَعَمَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ التَّشْرِيحِ أَنَّ مَنِيَّ الرَّجُلِ لَا أَثَرَ لَهُ فِي الْوَلَدِ إِلَّا فِي عَقْدِهِ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَتَكَوَّنُ مِنْ دَمِ الْخَيْضِ وَأَحَادِيثُ الْبَابِ تُبْطِلُ ذَلِكَ» (١).

٣- إذا جمعت نصوص الكتاب، والسنة الصحيحة، وجدت بعضها يكمل بعضها الآخر، فتتجلى بها الحقيقة، مع أن هذه النصوص قد نزلت مفرقة في الزمن، وفي مواضعها من الكتاب الكريم، وهذا لا يكون إلا من عند الله ﷻ؛ الذي يعلم السر في السماوات والأرض.

٤- سنّ التشريعات الحكيمة، التي قد تخفى حكمتها على الناس، وقت نزول القرآن، وتكشفتها أبحاث العلماء في شتى المجالات. مثل ما كشفه العلم حديثاً من الحكمة في تحريم أكل لحم الخنزير والاعتزال المقصور على الجماع في المحيض.

٥- في عدم الصدام بين نصوص الوحي القاطعة؛ التي تصف الكون وأسراره، على كثرتها، وبين الحقائق العلمية المكتشفة على وفرتها، مع وجود الصدام الكثير بين ما يقوله علماء الكون من نظريات تتبدل مع تقدم الاكتشافات ووجود الصدام بين العلم وبين ما قررته سائر الأديان المحرفة والمبدلة.

بعض ثمرات البحوث في ميدان الإعجاز العلمي في القرآن والسنة الصحيحة:

١- امتداد بيّنة الرسالة في عصر الكشوف العلمية: فإذا كان المعاصرون لرسول الله ﷺ قد شاهدوا بأعينهم كثيراً من المعجزات، فإن في الإعجاز العلمي معجزة

(١) فتح الباري (١١/٤٨٠).

لرسوله ﷺ لأهل هذا العصر تتناسب مع عصرهم، ويتبين لهم بها أن القرآن حق، وأهل عصرنا، على اختلاف أجناسهم وأديانهم، لا يذعنون لشيء مثل إذعانهم للعلم.

٢- الأثر البالغ الذي تركه في قلوب المسلمين، والذي يترجم بزيادة اليقين عندهم لدى رؤيتهم هذه الحقائق الباهرة؛ لأنها وردت على لسان النبي الأمي محمد بن عبد الله ﷺ، وهكذا فإنها خير محرض للتمسك بالقرآن والسنة والاهتداء بهما وتقوية إيمان المؤمنين، ودفع الفتن التي ألبسها الإلحاد ثوب العلم عن بلاد المسلمين.

٣- الرد العلمي الدامغ على الأفكار التشكيكية في صحة الرسالة المحمدية؛ حيث إن عرض تلك الحقائق التي أخبر عنها نبي أمي في زمن ليس فيه تقدم علمي، كما أنه ليس في المجتمع وكذا البيئة التي عاش فيها أية إثارة من علم في تلك الميادين الكونية. ولذلك فهذا الإعجاز يعدّ مجالاً خصباً لإقناع المنصفين من العلماء بأن القرآن الكريم كلام الله حقاً، أنزله على رسوله ﷺ وحيّاً، وإقناعهم أيضاً بصدق نبيه ﷺ فيما جاء به.

٤- الرد العملي المقترن بالبرهان الساطع على أن الدين الإسلامي هو دين العلم حقاً؛ فمع إشادة الرسول ﷺ بالعلم وترغيبه في تحصيله وتنويعه بفضل العلماء قد ذكر كثيراً من الحقائق العلمية وأشار إلى كثير من الأسرار الكونية مما هو موضوع العديد من التخصصات في آفاق الكون، ولم يستطع أحد إلى الآن أن يثبت وجود تعارض أيّ دلالة كونية واردة في آية قرآنية أو حديث شريف صحيح مع ما استقر من الحقائق العلمية اليوم وأنى له ذلك!!.

٥- تنشيط المسلمين للاكتشافات الكونية، بدوافع إيمانية وتحفيزهم للأخذ بأسباب النهضة العلمية: إن الإعجاز العلمي يُعدّ خير محرض لهمّ المسلمين كي يتابعوا مسيرة البحث والتجريب والمقارنة وغير ذلك من وسائل الكشوف العلمية والتقدم المعرفي.

إن التفكير في مخلوقات الله عبادة، والتفكير في معاني الآيات والأحاديث عبادة، وتقديمها للناس دعوة إلى الله ﷻ. وهذا كله متحقق في أبحاث الإعجاز العلمي في

القرآن والسنة وهذا من شأنه أن يحفز المسلمين على اكتشاف أسرار الكون بدوافع إيمانية تعبر بهم فترة التخلف التي عاشوها فترة من الزمن في هذه المجالات.

٦- إن هذا الإعجاز العلمي يعدُّ قناة من قنوات الدعوة إلى الله ﷻ. والذي يتتبع أسباب دخول كثير من الناس في الإسلام - ممن كانوا نصارى أو بوذيين أو يهود - يجد بحق أن فريقاً منهم قد ابتدأ سيره إلى الحق؛ وانتهى به لإعلان شهادة الحق؛ من خلال معاينة لطائف الإعجاز العلمي.

إن ظاهرة الرجوع إلى دين الإسلام من قبل الذين كانوا قديماً من الشاردين الغافلين، وهكذا إسلام غير المسلمين؛ قد أثمر مع ازدياد يقين المسلمين بدينهم رجوعاً لحالة العزة في نفوس أبناء الأمة الإسلامية بعد الكبوة التي حصلت لهم عقب سقوط الخلافة الإسلامية وهيمنة الدوائر الاستعمارية عليهم.

٧- تصحيح مسار العلم التجريبي: لقد جعل الله النظر في المخلوقات، الذي تقوم عليه العلوم التجريبية طريقاً إلى الإيمان به، وطريقاً إلى الإيمان برسوله ﷺ ولكن أهل الأديان المحرّفة كذبوا حقائقه، وسفهوا طرقة، واضطهدوا دعائه، فواجههم حملة هذه العلوم التجريبية، بإعلان الحرب على تلك الأديان، فكشفوا ما فيها من أباطيل، وأصبحت البشرية في متاهة، تبحث عن الدين الحق، الذي يدعو إلى العلم، والعلم يدعو إليه.

إن بإمكان المسلمين أن يتقدموا لتصحيح مسار العلم في العالم، ووضعه في مكانه الصحيح، طريقاً إلى الإيمان بالله ورسوله، ومصداقاً بما في القرآن، ودليلاً على الإسلام.

وقد ازداد اهتمام المسلمين بالإعجاز العلمي في هذا العصر حتى وصل الأمر إلى إنشاء جمعيات ومؤسسات في الدول الإسلامية والغربية تعنى بذلك، على رأسها "الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة"، والتابعة لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، تلك الهيئة قد حددت أهداف نشاطها فيما يلي:

- أولاً: وضع القواعد والمناهج، وطرق البحث العلمي التي تضبط الاجتهادات في بيان الإعجاز العلمي للقرآن والسنة.
- ثانياً: إعداد جيل من العلماء والباحثين لدراسة المسائل العلمية والحقائق الكونية في ضوء ما جاء في القرآن والسنة.
- ثالثاً: صبغ العلوم الكونية بالصبغ الإيمانية، وإدخال مضامين الأبحاث المعتمدة في مناهج التعليم في شتى مؤسساته ومراحله.
- رابعاً: الكشف عن دقائق معاني الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث الشريفة المتعلقة بالعلوم الكونية في ضوء الكشوف العلمية الحديثة، ووجوه الدلالة اللغوية، ومقاصد الشريعة الإسلامية دون تكاليف.
- خامساً: إمداد الدعاة والإعلاميين في العالم: أفراداً ومؤسسات بالأبحاث المعتمدة للانتفاع بها، كل في مجاله.
- سادساً: نشر هذه الأبحاث بين الناس بصورة متناسبة مع مستوياتهم العلمية والثقافية، وترجمة ذلك إلى لغات المسلمين المشهورة، واللغات الحية في العالم.

ضوابط منهجية للباحثين في الإعجاز العلمي

إن المنهجية في بحوث الإعجاز العلمي تعني الالتزام بكل ما تقتضيه المنهجية العلمية المطلقة مع ما تستلزمه منهجية العلوم الخاصة والميزات الإضافية التي تستلزمها خصوصيات استنباط لطائف الإعجاز العلمي.

والمراد بهذه الضوابط تلك القواعد التي تحدد مسار بحوث الإعجاز العلمي وفق الأصول الشرعية المقررة، مع الالتزام بالجوانب الفنية والعلمية المطلوبة، فكتابة البحوث في مجال الإعجاز العلمي تحتاج خبرة وتمرس من قِبَل الباحث الذي يريد تحقيق ذلك على الوجه الصحيح.

وهذه الخبرة وذلك التمرس يعتمدان أساسًا على تحصيل كفاية من العلم في تفسير القرآن الكريم وعلوم الشريعة، ووجود قاعدة راسخة من التمكن في العلوم الكونية؛ وبذلك يكون الباحث مؤهلاً لمعالجة قضية في مجال الإعجاز العلمي، ولكن إذا أراد كتابة بحث مفهوم في هذا الميدان ومقبول عند أهل العلم فإنه لا بد أن يستجمع معرفة في مجال المنهجية البحثية وبالتالي الإحاطة بالأصول المنهجية لكتابة البحوث.

وتكمن أهمية هذه الضوابط في كونها مناط استرشاد للباحثين في الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وخصوصًا في هذا الوقت الذي كثر فيه إقبال الباحثين والكاتبين على هذا الموضوع لأهميته في الدعوة والإقناع، وذلك لتمييز هذا العصر بالعلم ومكتشفاته، حتى أصبح العلم سمة من سماته.

وهذا الاهتمام من غير سير على ضوابط واضحة أوجد مزلق كثيرة حتى عند بعض المخلصين، وإسهامًا في علاج ذلك جاءت هذه الضوابط عليها أن تكون مانعًا من الوقوع في تلك الأخطاء، وحافزًا للكتابة في هذا الموضوع الحيوي.

والتزام هذه الضوابط يساعد كذلك على إنهاء الخلاف الفكري بين المؤيدين لموضوع التفسير العلمي والمعارضين له؛ لأن جوهر الخلاف بينهم يرجع سببه إلى تلك

المظاهر الارتجالية التي لا يصدر أصحابها عن منهج صحيح.

وتلك الضوابط هي:

١- ثبوت النص وصحته إن كان حديثاً، لتواتر القرآن دون الحديث.
٢- ثبوت الحقيقة العلمية ثبوتاً قاطعاً، وتوثيق ذلك علمياً متجاوزة مرحلة الفرض والنظرية إلى القانون العلمي. إن من أهم الضوابط أن يقتصر الإعجاز على الحقائق العلمية التي وصلت إلى حد القطع بها، بخلاف ما دون الحقائق من النظريات أو حتى ما قد يعتبره البعض حقيقة علمية ويخالفه آخرون؛ ذلك أن إقحام ما عدا الحقائق القطعية في الإعجاز مخاطرة ومجازفة تنقلب على تصديق الوحي بالتشكيك فيه، وعلى الإعجاز بالاستهانة به وسلبه رُوح الإعجاز والتحدي.

فلا حاجة إلى التسرع في الاكتشافات العلمية لربطها بنصوص الوحي قبل أن تستقر في تلك الاكتشافات وتكتسب مصطلح الحقيقة العلمية. ولدينا بعض الأمثلة لما أطلق عليه حقيقة ليثبت خلافها، أو - على أقل الأحوال - ظهرت أصوات تشكك في تلك الحقيقة.

٣- وجود الإشارة إلى الحقيقة العلمية في النص القرآني أو الحديثي بشكل واضح لا مرية فيه. فيكون وجه الإعجاز واضحاً وليست مجرد إشارة بعيدة، حيث يلاحظ من بعض الكتاب في هذا المجال أنه يورد النص المشتمل على لفظة (كالشهب، مثلاً) ثم يسترسل في التفاصيل العلمية للشهب دون أن يكون هناك علاقة واضحة بين النص وبين هذه التفاصيل إلا مجرد ورودها في النص، وهذا ليس من منهج الإعجاز العلمي الذي يُقصد به أن النص من القرآن أو السنة قد ذكر أمراً لم يكتشف إلا فيما بعد. فإن أريد مجرد التفكير مثلاً في خلق الله وفي الكون فلا مانع، لكن ليس على وجه الإعجاز أو الاستدلال بالنص على التفاصيل المذكورة.

4- ألا يكون التفسير العلمي أو الوجه من أوجه الإعجاز العلمي مجزوماً به عند تفسير الآية أو الحديث، بل ينبغي أن يساق على أنه قول في تفسير الآية أو شرح الحديث. فإن مما يلاحظ أن بعض من يذهب إلى التفسير العلمي للآيات أو الأحاديث

يقطع بذلك، وقد يسوق أقوال المتقدمين في تفسيرها ثم يجعل التفسير العلمي هو القاطع لتلك الأقوال، والمرجّح لواحد منها.

وهذا يقال مع ملاحظة ما تقدم من كون النظرية العلمية أصبحت حقيقة علمية، وذلك لا يبرر القطع بتفسير الآية أو الحديث بتلك الحقيقة لما يلي:

- أن الحقيقة العلمية قد لا تكتسب الإجماع من أهل الاختصاص بكونها حقيقة، بل وربما اشتهر كونها حقيقة وذهب إليه الكثيرون، ولكن يبقى ثمَّ خلافٌ في وصفها بذلك، وحينئذ فيبقى احتمال تغيُّرها، وإذا تغيرت وقد فسر النص بها قبل التغير أنتج ذلك زعزعة النص عن دلالاته وإعجازه والشك فيه.
- أن الحقيقة العلمية مهما كانت قطعيتها فهي قابلة للتطور، وقد لوحظ ذلك في تاريخ العلوم، فنظرية (أينشتاين) في الجاذبية ربما كانت في زمنها وإلى حين تعديلها تعتبر حقيقة قطعية، حتى جاء العالم البلجيكي (لومتر) فأجرى عليها التعديل المعروف.
- أن وصف الشيء بأنه حقيقة يمكن القول بأنه وصف نسبي قد لا يعني القطع بكل حال، ولدى كل من أطلق هذا المصطلح على نظرية ما، ومهما يكن فهي حقيقة ترجع إلى علم البشر القاصر.
- أن القطع في هذا الأمر لا حاجة له، إذ يكفي إيراد احتمال للإعجاز، فكما أن الوجه من أوجه الإعجاز البلاغي لا يمكن القطع به لاحتمال إرادة ما هو أبلغ منه مما يخفى على المفسر، فكذلك الأمر هنا.

٥- من الضوابط ألا يقتضي التفسير العلمي للآية نقض ما جاء عن السلف فيها، فإن كانوا قد أجمعوا على معنى فلا يكون مستلزماً نقضه، وإن اختلفوا فلا يكون أيضاً مستلزماً لنقض جميع ما ورد عنهم، بخلاف ما لو وافق البعض واستلزم نقض البعض الآخر، فذلك لا يمنع التفسير به.

٦- ألا ينطلق التفسير العلمي التجريبي من منطلق الانبهار بالحضارة والمكتشفات المعاصرة، ومن ثم التسليم المطلق بها لما له من الأثر على التعسف في حمل النص على وجوه بعيدة، كما ينعكس ذلك على الصياغة التي يساق بها هذا التفسير من حيث يشعر القارئ له بالهرولة بالنص وراء ما اكتشفه المعاصرون.

٧- ألا يعارض اللغة وقواعد النحو.

٨- ألا يكون مستلزمًا لمخالفة البلاغة القرآنية.

٩- ألا يترتب عليه تحويل الاستشعار التعبدي إلى تمسك بالمادي، أو بمعنى آخر كتحويل العبادة إلى عادة أو استفادة مادية. مثال ذلك: التفصيل في فوائد الصلاة المادية (سواء كانت فوائد صحية أو غيرها).

١٠- عدم الخوض وعدم البحث في الأمور الغيبية، كموعده قيام الساعة، وبداية الخلق، والجنة والنار، فالنظريات التي تتحدث عن نهاية الكون - مع كونها لا تصل إلى الحقائق ولا يمكن ذلك لأنه أمر مستقبلي - لا يمكن بأي حال القطع به من جهة العلم التجريبي، مع هذا وحتى على فرض كونها حقائق فلا ينبغي تفسير القيامة بها لأمر من أهمها:

- أنه تفسير لأمر غيبي مستقبل من علم الله ﷻ.
- أن فيه إشارة لتحديد يوم القيامة ما دام ذلك في حدود علم الفلك الذي يخضع للحسابات الدقيقة، فإذا فسّرنا القيامة بنظريات نهاية الكون - فإن تلك النظريات لا شك أنها ضمن نمط النظريات الفلكية الأخرى التي تخضع للحسابات الفلكية، وحتى لو لم تذكر تلك الحسابات الآن فإن تفسير القيامة بنظرية فلكية معناه أن بإمكان البشر حساب ذلك ولو بعد حين، وهذا مُنافٍ تمامًا للآيات والأحاديث القاطعة بخفاء علم الساعة على البشر. والآيات والأحاديث في هذا كثيرة معلومة.

• أن تفسير القيامة بتلك النظريات يسلب من القلوب والنفوس هيبة القيامة، وأنها أمر عظيم يُفجأ العالم كله، ويصير شأنها أمراً معتاداً كالليل والنهار أو كالكسوف والخسوف على أحسن الأحوال.

١٢- عدم الخوض فيما يتعلق بصفات الله تعالى، مما قد يفهم منه نوع من التأويل، كمثل من فسّر الكرسي والعرش ببعض الأجرام السماوية، ونحو ذلك.

١٣- من ضوابط الإعجاز - أيضاً - عدم التأويل المتكلف، وأن الأصل ظاهر اللفظ ولا يعدل عن ظاهره إلا بقريضة قوية. والحذر من استجرار الآية أو الحديث لمعنى يريد الباحث حشر أدلة عليه متذرعاً باحتمالات ممكنة ولكن مع شيء من التكلف، والذي ينبغي أن ينزه كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ عن مثله.

ويجب في أثناء الدراسة مراعاة الضوابط التالية:

١- جمع النصوص القرآنية أو الحديثية المتعلقة بالموضوع، وردّها بعضها إلى بعض لتخرج بنتيجة صحيحة لا يعارضها شيء من تلك النصوص، بل يؤيدها.

٢- جمع القراءات الصحيحة المتعلقة بالموضوع إن وجدت، وكذلك روايات الحديث بألفاظها المختلفة.

٣- معرفة ما يتعلق بالموضوع من سبب نزول ونسخ، وهل يوجد شيء من ذلك أو لا؟

٤- محاولة فهم النص الواقع تحت الدراسة على وفق فهم العرب إبان نزول الوحي، وذلك لتغير دلالات الألفاظ حسب مرور الوقت، ولهذا يقتضي الأمر الإمام بمسائل تعين على فهم النص والتمكن من تقديم معنى على آخر، وهي كالآتي:

أ- إن النَّصَّ مُقَدَّمٌ عَلَى الظَّاهِرِ، وَالظَّاهِرُ مُقَدَّمٌ عَلَى الْمُؤَوَّلِ (١).

(١) النَّصُّ: هو ما دلّ على المراد منه بنفس صيغته من غير توقّف على أمر خارجي، وهو المقصود أصالةً من السياق، ويحتل التأويل. مثاله: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّا نَرَكُبُ

ب- إن المنطوق مقدم على المفهوم، وإن المفاهيم بعضها مقدم على الآخر كذلك^(١).

الْبَحْرَ، وَتَحْوِيلَ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ تَوَصَّأْنَا بِهِ عَطَشْنَا، أَفْتَوَصَّأْنَا مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ؟». فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هُوَ الظُّهُورُ مَاءُوهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ» (حديثٌ صحيحٌ رواه الإمام أحمد في المسند، وأصحابُ السنن).
فالمقصود بالسِّيَاق أصالةُ هو ماء البحر، فقوله ﷺ: «هُوَ الظُّهُورُ مَاءُوهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ» نصٌّ في طهوريته.
الظاهر: هو ما دلَّ على المراد منه بنفسِ صيغته من غير توقُّفٍ على أمرٍ خارجيٍّ، وليس المراد منه هو المقصود أصالةً من السِّيَاق ويحتمل التأويل.

مثاله: قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، الآية (ظاهرة) في حِلِّ كلِّ بيعٍ وحُرْمَةِ كلِّ رِبَا دالَّةٌ على ذلك بنفسِ صيغتها من غير توقُّفٍ على قرينة، لكنَّ هذا اللفظ غير مقصود أصالةً بسِّيَاق الآية، فإنَّها سبقت لنفي المماتة بين البيع والرِّبَا والرَّدُّ على من ادَّعى ذلك، حيث قال الله تعالى قبل ذلك: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾.
التأويل في اصطلاح الأصوليين: صرف اللفظ عن ظاهره بدليل. والأصل وجوب العمل بالظاهر أو النص وعدم اعتبار مظنة التأويل؛ حتى يوجد ما يصرف ذلك إلى معنى آخر. وصفة هذا الصارف وجوب كونه دليلاً شرعياً، كنص، أو قياس صحيح، أو أصل عام من أصول التشريع، فإذا لم يكن دليلاً معتبراً في الشرع كان هوياً يجب أن تنزه عنه نصوص الدين وأدلتها.

مثال للتأويل المعتبر: تخصيص الظاهر في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، عن يوع، كبيع الغرر، وبيع المعدوم، وبيع الثمر قبل بُدُو صلاحه.

ومثال التأويل بالهوى: تأويل صفات ربِّ العالمين ﷻ، كتأويل اليد بالقُدرة والنعمَة، وتأويل الاستواء على العرش بالاستيلاء عليه، وتأويل نزوله تعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا بنزول رحمته، فهذه وأشباهها من صور التأويل تحكُّم في الغيب وقول على الله بغير علم، فهذا ليس من قبيل الأحكام التي يسوغ فيها النظر والاستنباط، بل هو ممَّا يجب الوقوف فيه عند نصِّه إثباتاً مع اعتقاد التنزيه لله ربِّ العالمين عن مشابهة الخلق.

(١) دلالة الألفاظ على المعاني إما أن تكون بمنطوق اللفظ أو بمفهومه، والمنطوق: ما دل عليه اللفظ في محل النطق. وليس كل لفظ يقال يراد به المنطوق، فقد يكون المفهوم أولى من المنطوق، مثال ذلك: يقول رب العالمين في حق الوالدين: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا﴾ (الإسراء: ٢٣)، فالمنطوق هنا هو أن يقول الولد لأبيه أو أمه: أف، والمفهوم: ما هو أعلى من الأف كالضرب والسب واللعن، وعليه فمن باب أولى إن حرم الله الأدنى أن يجرم الأعلى.

ت- أن يخضع في تناوله للنص لقاعدة: العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، وأن العموم مقدم على الخصوص، والإطلاق مقدم على التقييد، والإفراد على الاشتراك، والتأصيل على الزيادة، والترتيب على التقديم والتأخير، والتأسيس على التأكيد، والبقاء على النسخ، والحقيقة الشرعية على العرفية، والعرفية على اللغوية.

ث- مراعاة سباق النص وسياقه ومقتضيات الحال المقترن بموضوع النص، وعدم اجتزاء النص عما قبله وما بعده.

ج- مراعاة قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ح- معرفة معاني الحروف، وعدم تفسير حرف أو جملة على معنى لا يقتضيه الوضع العربي.

خ- مراعاة أوجه الإعراب، وعدم القول بتوجيه لا يسانده إعراب صحيح أو قرينة أخرى.

د- أن المشترك اللفظي^(١) يمكن حمله على واحد من معانيه دون نفي الآخر أو القطع بأن هذا الصواب وحده ما لم تكن هناك قرينة راجحة.

ذ- أخذ قواعد البلاغة وأساليب البيان بعين الاعتبار لأنها تعين على كشف دلالة النص.

هـ- إظهار وجه الإعجاز: فإذا تم ذلك لم يبق على الباحث سوى أن يظهر الربط بين الحقيقة الشرعية والعلمية بأسلوب واضح مختصر.

٦- أن هناك أمورًا من قبيل المتشابه لا مجال لفهمها أو تناولها بالبحث.

(١) المشترك اللفظي: هو اللفظ المستعمل في معنيين أو أكثر بأوضاع متعدّدة. مثل: لفظ (القرء) فهو مشترك بين (الطهر والحيض) يُطلق على كلٍّ منهما، وكذا لفظ (المولى) فهو مشترك بين (العبد والسيد)، ولفظ (العين) مشترك بين (العين الباصرة، والجاسوس، والسلعة، وحقيقة الشيء، وعين الماء).

- ٧- عدم الاعتماد على الإسرائيليات أو الروايات الضعيفة.
- ٨- الاعتماد على المصادر المعتمدة في ذلك دون غيرها، كأهات التفسير والحديث وكتب غريب القرآن والسنة، مع الإشارة إلى جهود الدراسات السابقة إن وجدت.
- ٩- الابتعاد عن تسفيه آراء السلف من علماء التفسير والحديث ورميهم بالجهل؛ لأن القرآن والسنة خطاب للبشرية في كل عصر، والكل يفهم منها بقدر ما يفتح الله عليه، وبحسب ما يبذله من جهد وما هو متوفر لديه من وسائل، ولن يحيط بفهم الوحي أهل عصر إلى قيام الساعة، فلا مجال للتسفيه والتجهيل، وإنما هي الاستفادة والتكميل والدعاء لمن تقدم.
- بل الواجب اتباع فهم السلف عليهم السلام، وخصوصا الصحابة عليهم السلام؛ لأنهم أدري بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اقتصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصالح، لا سيما علماءهم وكبرائهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، وعبد الله بن عباس، وابن مسعود عليه السلام، فهم العمدة والعدول بخبر الله تعالى، وعنهم أخذ التابعون، وعلى نهجهم ساروا، فمن عدل عن تفسيرهم إلى ما يخالفه كان مخطئا، بل ومبتدعا، لأنهم كانوا أعلم بتفسير كتاب الله من غيرهم، وأورع، وأتقى.
- ١٠- ينبغي أن تحصر الدراسة فيما تمكن القدرة عليه، فالأفراد يمكن أن يقصروا بحوثهم فيما يتعلق بالاكشافات فيما هو خاضع لتجارهم المخبرية، ليصلوا من خلال ذلك إلى الحق، وللجامعات والمراكز والدول مجالات أكثر وأكبر.
- ١١- ينبغي أن يعلم الباحث في هذا المجال أن كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم صدق وحق، ولا يمكن بحال أن يخالف حقيقة علمية؛ لأن منزل القرآن هو الخالق العالم بأسرار الكائنات، ومعرفة ذلك تقتضي منا التريث وعدم تحميل النص ما لا يحتمله من أجل أن يوافق ما نظنه حقيقة، فإذا لم يتيسر ذلك بشكل واضح فعلىنا أن نتوقف دون نفي أو إثبات، ونبحث عن موضوع آخر، والزمن كفيلا بانكشاف الحق بعد ذلك.

١٢- على الباحث أن يتحرى الصدق والصواب وأن يخلص نيته لله في تبين الحق للناس من أجل هدايتهم، وأن يعلم خطورة ما يتناوله، ويعبر عنه، فهو عندما يقول: «هذا المعنى هو الذي يشير إليه قوله تعالى» فهو يفسر كلام رب العالمين.

١٣- ينبغي أن يتصف الباحث بالصبر، مع توفر الكفاءة العلمية المكتسبة، حتى يميز الحق من الباطل، ويقبله ويلتزم بالموضوعية، ومعناها هنا: حصر المعلومات ودراستها من غير تحيز لفكرة أو رأي سابق، مع التقيد بالمنهج العلمي في التوثيق والاقتراس والإحالات.

١٤- تخطيط البحث بشكل يستوعب عرض أفكاره الرئيسية، مع وجود عنوان مناسب، وتقسيمه إلى: مقدمة وشرح وخاتمة، مع مراعاة الصياغة المناسبة لأبوابه وفصوله وتفريعاته بانسجام واتساق، ثم توفّر السلامة اللغوية وتسلسل أفكار البحث، مع التقيد بعلامات الفصل والوصل وغير ذلك مما يسمى بعلامات الترقيم، وكذلك ملاحظة وضع التمهيد المناسب لقضايا البحث، ووجود خلاصة في نهايته، مع إبراز الإضافة العلمية، وتوفير الأمانة في الاقتباسات والتزام التوثيق الدقيق للنقول، والوفاء بما يلزم الباحث به نفسه من شروط وعلى العموم على الباحث أن يبذل ما في وسعه للإتيان بالأحسن ويحاول الإتقان لكل ما يتعلق ببحثه وفق العرف العلمي المتبع.

١٥- لا بد من إجراء الخطوات الحكيمة لإثبات البراهين العلمية التي تتفق مع منطق البحث دون تزيّد ولا قصور. وهناك منزلقات وتجاوزات قد تسيء للبحث، كما أن هناك خطوات وشكليات قد لا يقيم لها بعض الباحثين اعتباراً فتقلل بالنتيجة من قيمة بحثه. لذلك ينبغي التأكيد هنا على ما يلي:

أ- تحديد المسألة التي يتكلم عنها الباحث في بداية بحثه بكل دقة وتميز ووضوح.

ب- تحرير المسألة بشكل يستقطب فرعياتها ويحول دون إقحام الدخيل عليها، أو تكرار أفكارها بدون مقتضى لذلك.

ج- إن كانت البرهنة العلمية تستلزم وجود وسائل إيضاح فلا يقصر في توفير ذلك.

د- حسن توليد المعاني، وسلامة الوصول إلى النتائج مع الانتقال المناسب إليها من خلال شرح متسلسل ومتفق مع مستوى البحث وحجم القضية التي يعاني الباحث في بيانها. وليتذكر الباحث دائماً أن أفكار البحث هي بمثابة لبنات البناء فليعرف كل لبنة وليحكم وضعها في مكانها المناسب ضمن صرح منهاج بحثه.

هـ- عدم الركون إلى القناعات الشخصية وحديث النفس المتأثر بالعاطفة أو الهوى أو نحو ذلك من الخواطر العابرة أو المعارف الغابرة لضمان الموضوعية والبعد عن الهوى والتحيز والتعصب لما يتبناه من أفكار.

١٦- التزام مسار البحث ومجانبة الاستطرادات المشوشة والشطحات المخلة فحجم الكلام ينبغي أن يكون موائماً للحاجة بعيداً عن الحشو الممقوت، والإضافات غير ذات الصلة. مع أنه بالإمكان توشية البحث بذلك تهميشاً إن كانت ذات صلة بالبحث.

القواعد التي يجب مراعاتها عند تفسير القرآن تفسيراً علمياً؛

أولاً: هذه النزعة التفسيرية محفوفة بالمخاطر صعبة المراس فيجب أن تؤخذ بالكثير من الحيطة والحذر، والتسلح بالعلوم الدينية والدينية معاً فلا يقتصر اهتمام أصحابها على ما برعوا فيه من علم دنيوي فقط؛ لأنهم أمام أخطر عمل يمارسه الإنسان ألا وهو بيان كتاب الله ﷻ.

ثانياً: القرآن كتاب هداية إلى أحسن حال، وأعظم مآل، وقد نزل ليضع الخطوط العريضة لهذا الحال وذاك المآل، وليس من وظيفة القرآن التعرض لتفاصيل العلوم الدنيوية؛ فتلك متروكة للناس واجتهادهم.

لكننا نجد في القرآن لفتاتٍ علميةً تزرع في قلب المتشكك اليقين، وتزويد المؤمن إيماناً على إيمانه، فالقرآن منهجٌ إلهي لسعادة الفرد، وسلامة المجتمع فيه لفتاتٍ علميةٌ تخاطب العقل؛ لتثبت له أنه وحيٌّ يوحى من عند الله، لفتاتٍ كونية، وأخرى طبيعية،

وغيرها أنزلت على قلب المصطفى ﷺ لتكون معجزات خالدة على مر الزمان تثبت الإيمان بالله، وتزيد من يقين المؤمن بكتاب الله، وترفع دعائم بناء شامخ في القلب والفكر على أن سيدنا محمداً الأُمي صدقاً وحقاً رسول من عند الله ﷻ.

ثالثاً: حينما يشير القرآن إلى تلك الكونيات؛ فإنه يتحدث عنها بأسلوب لا يتعارض إطلاقاً مع أي حقيقة علمية ثابتة، وهذا شيء بدهي؛ لأن القرآن قول الله ﷻ، والكون فعل الله ﷻ، ويستحيل أن يتعارض قول الله مع فعل الله.

رابعاً: يجب علينا أن ننظر إلى ما في القرآن على أنه حقائق فما وافق من الاكتشافات الحديثة على وجه اليقين قبلناه فمعنى هذا أننا لا نريد أن نثبت القرآن بالعلم، بل إن العلم هو الذي يجب أن يُثبت، فالقرآن أصدق من أي علم من علوم الدنيا، ومن أي علم في هذا العالم؛ لأن مكتشف هذا العلم أو مخترعه بشر، وقائل القرآن هو الله ﷻ.

خامساً: لا يجوز لنا أن نعدل عن حقيقة اللفظ القرآني، ونتجه إلى معنى مجازي إلا إذا كانت هناك قرائن قوية تحيل الأخذ بحقيقة اللفظ، وقد وقع كثير من العلماء في أخطاء جسيمة حينما عدلوا عن حقيقة اللفظ إلى معنى مجازي دون أي مبرر لذلك، وقد لوحظ على آيات القرآن أن التطابق بينها وبين العلوم الحديثة يكون أتم إذا ما روعيت هذه القاعدة بكل دقة.

سادساً: الحقائق العلمية الثابتة التي لا تقبل النقد ولا التعديل هي المعتمدة في مجال التفسير العلمي للقرآن، أما النظريات التي تحت التجربة، والخاضعة للفحص، والتمحيص، فلا مكان لها في هذا المجال فالآيات القرآنية حقائق ثابتة فلا تفسر إلا بحقائق ثابتة.

سابعاً: يجب مراعاة معاني المفردات على النحو الذي كانت مستعملة فيه أثناء نزول القرآن والحذر مما طرأ عليها من تطور بعد العهد النبوي.

ثامناً: عدم التحرر من أي قاعدة نحوية؛ فالقرآن عربي نزل بلسان عربي جارٍ على ما ألقوه من قواعد ودلالات.

تاسعاً: يجب مراعاة الأساليب البلاغية بصورها المتعددة، ودلالاتها المتنوعة.

عاشرًا: إن من خصائص الأسلوب القرآني أن عبارته حَمَّالة أي تحتمل في كثير من الأحيان أكثر من معنى صحيح، ولا يوجد تناقض بين كل هذه المعاني. وعلى ذلك فمن المرفوض علمياً قصر اللفظ على معنى واحدٍ وردَّ بقية المعاني الصحيحة الأخرى دون مُرَجِّح.

الحادي عشر: يجب الجمع بين كل الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد من هذه الموضوعات الكونية فلا تُتْرَك آية في نفس الموضوع بل لا تُتْرَك آية تتصل بالموضوع ولو من بعيد؛ لأن كثيراً من الآيات لا يمكن فهمها إلا بفهم كل ما يتصل بهذه الآية.

الثاني عشر: يستحيل أن يتعارض شيء من كتاب الله تعالى مع شيء ثابت من ثوابت هذا الكون؛ لأن القرآن كتاب الله المسطور، والكون كتابه المنظور؛ فهما صادران من مشكاة واحدة.

الثالث عشر: يستحيل أن تتعارض آية من القرآن الكريم مع آية أخرى منه ومن ظن ذلك فمرجع ظنه إلى جهله وسوء فهمه.

هذه هي قواعد التفسير للعلوم الحديثة، فإذا ما فسر مفسرٌ آيةً بما ظن أنه حقيقة علمية بينما الأمر ليس كذلك حيث ظهر له ما ينقض تفسيره هذا؛ فإن النقد حينئذٍ يجب أن يتوجه إلى التفسير لا إلى النص القرآني لأن النص القرآني ثابتٌ لا يتغير، وألفاظه حَمَّالة بوجوه كثيرة؛ فلا نفرض عليه رأي باحث لم يعرف عن ذاته إلا النادر فضلاً عن جهله التام بأسرار هذا الكون العظيم، ومعاني القرآن الكريم.

ضوابط قبول التفسيرات المبنية على العلوم الكونية والتجريبية:

أولاً: أن تكون القضية المفسرُ بها صحيحةً في ذاتها، فإن كانت باطلة فلا يصحُّ أن يُحمل القرآن عليها:

وتظهر صحتها من ثلاثة وجوه:

- الوجه الأول: صحتها من جهة الوقوع.
- الوجه الثاني: دلالة اللغة عليها.
- الوجه الثالث: عدم مناقضتها للشرع.

أما الوجه الأول: فلا يمكن أن يدركه إلا المتخصص بتلك الواقعة من فلكي أو طبيب، أو جيولوجي، أو غيرهم؛ كلٌّ في تخصصه. وما ذلك إلا لأنَّ العالم بالتفسير، أو بالشرعية لم يدرس هذه العلوم ليدرك صحة الواقعة من خلافها، لذا فإنه يعتمد على ما يذكره العالم بتلك الواقعة ثقةً به في علمه.

أما الوجه الثاني والثالث: فإن المفسر أقدر فيهما من العالم بالواقعة الكونية أو التجريبية، ويمكنه معرفة صحة دلالة اللغة على تلك الواقعة، أو عدم مناقضتها للشرع، مثل من فسّر الذرة في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ومن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧ - ٨). بأنها الذرة الإلكترونية، وذلك غير معروف في لغة العرب، فلا يصح التفسير بها.

ثانياً: أن لا تناقض قول السلف (الصحابة والتابعين وأتباعهم):

والمناقضة إنما تكون في ردِّ ما اتفقوا عليه، أو ردِّ جميع تفسيراتهم؛ لأنَّ من لوازم ذلك أن يكون في القرآن شيء من معانيه جهله المسلمون منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم إلى وقت ظهور هذه القضية العلمية، واكتشاف وجه ارتباطها بمعنى الآية، وهذا لازم باطل بلا ريب، والقول بجهل السابقين بمعنى الآية مطلقاً يدل على وجود خلل في تنظير القضية. والصواب في ذلك: أن يُقبل ما قاله السلف، ويضاف إلى أقوالهم ما تحتمله الآية من المعاني الصحيحة التي يحتملها السياق.

ثالثاً: أن تحتل الآية القضية المفسر بها:

إن الملاحظ أنَّ بعض من يتوجه إلى بيان القرآن بالمكتشفات المعاصرة يحرص على ربط بعض تلك المكتشفات بالقرآن، ويقع الخلل عنده في الربط. فقد تكون القضية التي ثبتت في المكتشفات صحيحة لا ريب فيها، ولكن الآية لها دلالة عند السلف لا توافق تلك القضية المكتشفة، فيأتي من يعتني بهذا الأسلوب، فيجعل الآية تدلُّ على ما ثبت في الاكتشاف المعاصر، وقد تكون الآية لا تدلُّ عليه.

رابعاً: أن لا يُقصر معنى الآية على هذا التفسير المعاصر:

هذا الضابط يتداخل مع الضابط الثاني، وهو أن لا يناقض قول السلف، وإنما أُفردَ للتنبية على أنه قد يُفهم من عرض المكتشفات العلمية دون الأقوال الأخرى المحتملة؛ أن الآية لا تدلُّ إلا على هذا التفسير الحادث دون ما سواه، وعلى هذا فهو ضابطٌ احترازيٌّ يحسن بمن يتعرَّض للتفسير أن يتنبَّه له، وأن يذكر - ولو على سبيل الإجمال دون التفصيل - أن في الآية أقوالاً أخرى صحيحة، حتى يزول عند السامع احتمال أن التفسير المعاصر هو المراد دون غيره.

أهم معالم منهج تفسير النصوص الحديثية:

إن الأسس والقواعد الواجب مراعاتها في تفسير القرآن الكريم هي النبراس في تفسير النصوص عموماً؛ ونجملها فيما يلي:

أولاً: يلزم معرفة ما يتعلق بالنص من سبب الورد وهل هو خاص أو عام أو مطلق أو مقيد أو منسوخ أو غير ذلك؟

ثانياً: يلزم الإطلاع: هل ورد نص آخر يفسره؛ إذ تفسير النص من الوحي - والسنة من الوحي - أولى بالاعتبار؛ لذلك تُقدِّم وجوه التفسير الواردة في السنة على ما دونها.

ثالثاً: مراعاة العرف اللغوي في زمن التنزيل دون المعاني التي كثر تداولها فيما بعد، مهما بلغ انتشارها فيما بعد.

رابعاً: مراعاة قواعد الإعراب والبلاغة وأساليب البيان المقررة لئتم فهم أبعاد معاني النصوص.

خامساً: ملاحظة سياق النص وسباقه ومقتضيات الحال وغير ذلك من القرائن^(١).

سادساً: التأكد من وجود إشارة واضحة على ما ندعي بأنه من معاني النص الذي نحن بصدد بيانه وتفسيره وتحديد الإشارة العلمية على نحو صحيح.

سابعاً: مراعاة أوليات الاعتبار في الاحتجاج بالمعاني، فالنص المُحكّم أوّلى من الظاهر، وظاهر النص أوّلى من المعنى المستقى بطريق التأويل، ومنطوق النص مقدم على مفهومه، كما أن بعض المفاهيم مقدم في الاعتبار على بعض؛ ولذلك يلزم عدم التسرع في ترجيح وجه تفسيري دون مرجح له شأنه.

ثامناً: ملاحظة أسلوب النص وصياغته هل هو عام؟ وهل هو مطلق؟ وهل هو مجمل؟ وهل تشترك فيه معان عدة أو لا؟ وهل يحتوي دلالة على حقيقة علمية لا يمكن تعارضها مع العرف اللغوي الذي قد يقدم في الاعتبار أو هناك احتمال آخر.

تاسعاً: عند التأويل للنص لا بد أن يكون هناك ما يقتضي ذلك ويلزم عندئذ إعمال القواعد المعتمدة عند أئمة الأصول والتفسير من مثل قولهم:

• العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب.

• إعمال الكلام أوّلى من إهماله.

• لا عبرة بالظن غير الناشئ عن دليل.

عاشراً: اعتماد المعاني المقررة للحروف التي تسمى حروف المعاني، كما قررها الأئمة الأعلام.

(١) تُفهم الكلمة أو الجملة من السياق (ما قبلها من الكلام) و السياق (ما حولها) و اللحاق (ما بعدها).

حادي عشر: البعد عن تأويل المتشابه وكذا الخوض في القضايا السمعية، مما لا يخضع للنشاط الذهني؛ بل يعتمد على النصوص الواردة بصدها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ثاني عشر: عدم الخوض في النصوص المتعلقة بالغيبات التي استأثر الله بعلمها.

ثالث عشر: الحذر من الأخبار الإسرائيلية والآثار الواهية.

رابع عشر: التأدب مع علماء الأمة والحذر من تسفيه آرائهم، فكم عاب إنساناً آخر في اجتهاده فكان فيه العيب؛ إذ لم يحسن فهم مرامي الكلام أو مقتضيات الحال.

خامس عشر: يجب ألا يفارقنا اليقين بصدق قول رسول الله ﷺ لأنه وحي ووعد من الله ﷻ؛ ولذلك مهما رأينا وسمعنا في واقع حياتنا بأمر تتعلق بالكون فلا يسوغ أن نقدم ما قيل بصدها على ما ورد عن رسول الله ﷺ ولهذا يجب إعادة النظر عند وجود تعارض ظاهري بينهما؛ لأنه لا يمكن أن يصادم مضمون نص صحيح حقيقة ثابتة أبداً، إذ إن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى بل بوحى من الله خالق الكون.

الإعجاز العلمي بين الإفراط والتفريط

ضاعت وسطية الإعجاز العلمي، بالرغم من كل ما قدمه في زماننا الحاضر من مُعجزات مشرقة هَدَّت العقول والقلوب إلى معرفة طريق ربها، فالذي يريد بناء الإعجاز العلمي على غير أساس سليم يريد تفسير كل شيء في القرآن والسنة بالعقل ونظريات العلم الحديث، ولا اعتبار عنده لأقوال السلف الصالح لأنها تعارض أفكاره، والذي يريد الهدم لكل بناء وإن كان على أساس سليم يرى أن الإعجاز العلمي بدعة ولا حجة له.

والناظر إلى مُجمل أبحاث الإعجاز العلمي يرى تفاوتاً ملحوظاً في قوة الطرح، فهناك مَنْ تمسك بقواعد العلوم الشرعية، فأبدع وأفاد، وهناك من تجاوز القواعد العلمية المتفق عليها من قبل علماء الشريعة وعلماء الإعجاز العلمي، فأفراط وقال على الله ﷻ وعلى رسوله ﷺ بغير علم.

ومن المؤسف أن هناك كتابات وأراء غير حيادية غضت طرفها عن الصحيح الجاد من أبحاث الإعجاز العلمي، فقامت بنسف جهد العاملين في الإعجاز العلمي بوضع كلمات أطلقتها الألسن أو كتبتها الأقلام بدون دراسة جادة لقضية الإعجاز العلمي، فكان التفريط. وما بين أهل الإفراط والتفريط، وقف العاملون المخلصون في قضايا الإعجاز العلمي صامدون صمود أهل علم الحديث الذين لا يهنأ لهم بال إلا بإظهار الصحيح من السقيم، وبالرد المفحم على كل من أنكر الإعجاز العلمي لمجرد انه لا يفهم طبيعة هذا العلم.

بعض مظاهر الإفراط:

١ - الخروج بمعنى النص عن مدلوله اللغوي الواضح إلى معاني مبالغ فيها لا يحتملها النص من أي وجه، بدعوى أن في النص استعارات مكنية ظهرت للباحث فقط ولم يفقهها السابقون الأولون، وذلك كتأويل النجم الثاقب بأنه الحيوان المنوي يثقب

البويضة، في قول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾ إن كل نفس لما عليها حافظ ۝٤ فليُنظر الإنسانُ مِن مَّ حُلُقٍ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (الطارق: ١-٦). مع أن سياق الآيات وأقوال كل المفسرين تقول بأنه أحد نجوم السماء الموصوفة بالطرق والثقب، ولا علاقة بين النجوم وذكر خلق الإنسان من الماء الدافق كما هو واضح من سياق الآيات.

٢- ومن صور الإفراط أيضا الافتتان بعلوم الغرب حتى ولو كانت نظريات في إطار التجريب، وكأن العلم الغربي حق لا مرء فيه، مما أدى إلى اعتقاد بعض المسلمين في هذه النظريات التي لم تثبت بعد على أنها حقائق تصلح لتفسير الآيات أو الأحاديث.

ومن أمثلة ذلك المسارعة في تفسير الفتق بالانفجار في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، لمحاولة التقريب بين الآية ونظرية الانفجار الكبير (Big bang)، مع أن كلمة الفتق من الناحية اللغوية لا تعنى أبداً الانفجار ولم تستخدم كلمة الفتق في القرآن أو السنة بهذا المعنى، ثم أن كلمة الانفجار تؤدي إلى الفصل الكامل بين أجزاء الشيء الواحد مع الهدم والعشوائية في البناء.

ولو كانت كلمة الانفجار من الناحية العلمية صحيحة لذكرها القرآن بجلاء بدلا من كلمة الفتق حيث أن لفظة الانفجار لها مشتقات في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ (يس: ٣٤). ثم إننا إذا سألنا العاملين في دراسة نشأة الكون عن نظرية الانفجار الكبير لقالوا بمنتهى الوضوح أن ما وصل إليه العلم حتى الآن غير كافٍ لتفسير كيفية إيجاد السماوات والأرض، وأن نظرية الانفجار الكبير لازلت في حاجة إلى كثير من الإصلاحات والتعديلات حتى تصل إلى فهم قريب من الحقيقة.

وقد وردت هذه الحقائق في عدد مايو- يونيو ٢٠٠٩ من مجلة العلوم الأمريكية في مقالة بعنوان: النشاط الجديد في الكوسمولوجيا (علم الكون) لكاتبها د. باتريك بيتر

(Patrick peter)، مدير المعهد الوطني للأبحاث العلمية بفرنسا، وقد أبدع هذا العالم في هذه المقالة في التفريق بين ما هو قطعي الثبوت وما هو ظني في تحليل علمي دقيق لنظرية الانفجار الكبير.

ثم أخذ كاتب المقال في مناقشة الأمور التي مازالت ظنية في النظرية ومنها الحالة التي كان عليها الكون قبل الانفجار وهل نشأ من لا شيء أم أنه كان يسبقه كون آخر أسماه بالكون السابق للانفجار الأعظم.

كما أن كاتب المقال بدأ يميل إلى رفض كلمة الانفجار وطرح بدلاً منها سيناريو آخر واعتبره أكثر احتمالاً وهو أن الكون الذي نعيش فيه نشأ كمنطقة متجانسة وصغيرة جداً في كون آخر فائق الكثافة، ثم أخذت هذه المنطقة الصغيرة في الانتفاخ والتوسع، مع العلم بأن د. باتريك بيتر لم يجزم بهذا النموذج الجديد بل فتح الباب لظهور نماذج أخرى ربما تكون أكثر علماً ودقة.

إن وسطية منهج الإعجاز العلمي تُحتم علينا التوقف أمام هذه الظنيات، فلا ينبغي أبداً أن نأخذ الظني من أي نظرية ونقارنه بكتاب الله ﷻ، فالذي نؤمن به إيماناً قاطعاً أن وصف القرآن هو أدق وصف لأنه من عند الله تعالى موجد هذا الكون؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤)، فلا يمكن تأويل حقائق القرآن إلا بعلم يقيني قطعي الثبوت وحتى يقترب العلم في ألفاظه من الألفاظ الدقيقة للقرآن.

٣- ومن صور الإفراط أيضاً القول بقدرة بعض العبادات على الشفاء الجزئي أو المطلق لكثير من الأمراض بدون وجود نص من القرآن أو السنة يثبت العلاقة الصريحة بين تلك العبادة والشفاء من الأمراض، كما هو الحال في العسل مثلاً الذي نص الله ﷻ على قدرته الشفائية بنص صريح لا يقبل الإنكار؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٦٨ - ٦٩).

بل إن بعض من أفرطوا في هذا الاتجاه استدلوا ببعض الأحاديث الضعيفة والمنكرة لإثبات أقوالهم، ومن ذلك حديث (صوموا تصحوا) في باب الصيام، وفي باب الصلاة استدلوا بحديث (قُمْ فَصَلِّ، فَإِنَّ فِي الصَّلَاةِ شِفَاءً) أو (الصلاة شفاء لكل داء) أو وصف قيام الليل بأنه (مَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ)، مع العلم بأن أغلب الروايات التي ذكرت أن قيام الليل مطردة للداء قد ضعفها أهل العلم، وحتى الرواية التي يصح سندها وهي (عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَابُّ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ وَمَنْهَاةٌ عَنِ الْإِثْمِ وَتَكْفِيرٌ لِلْسَيِّئَاتِ وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ) قال عنها الألباني في كتاب الجامع الصغير وزيادته: «الحديث صحيح إلا جملة (مَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ) فهي ضعيفة».

ومبدأ الوسطية في الطرح يفرض علينا الجمع بين النصوص الصحيحة لنصل إلى القول الأمثل في علاقة أي عبادة بالنواحي الصحية، فلا مانع أبداً من أن تكون هناك حِكْمٌ صحية من وراء بعض العبادات، ولكن إظهارها يستلزم الدليل الصحيح والصريح.

ولا شك أن ربط العبادة بالأمر الصحية بلا دليل صريح، هو مسلك خطير لأنه يُخرج العبادة عن أسمى معانيها وهو الطاعة المطلقة لأمر الله ﷻ، إلى معنى دنيوي بَحْتٌ وهو وصف هذه العبادات بالرياضات الروحية والجسدية، وفي هذا الفعل تقليل كبير من شأن العبادة.

فقد يدعى أحد الكفار بأنه يمارس نوع معين من الرياضات البدنية أو الروحية تحقق له نتائج صحية أفضل بكثير مما هو موجود في عبادات المسلمين، وهذا هو المشاهد في العالم الغربي فنجد عندهم ارتفاع في نسبة الممارسين للرياضة ونسبة الأصحاء ونسبة كبار السن، وما حدث هذا إلا كنتيجة طبيعية للأخذ بالأسباب والسنن الربانية التي لا تحابى أحداً.

وإذا ادعى النصراني أو اليهودي أو أحد أتباع الديانات الأخرى أن العبادة عندهم تريح أبدانهم وأرواحهم، فهل هذا دليل على صدق ديانتهم، أم دليل على أن

اطمئنان النفس والرياضات البدنية من الأمور التي تريح البدن؟ فهل يُعقل أن نتخذ من الرياضات البدنية أو الروحية عبادات لكونها تحقق من الصحة ما لا تحققه بعض العبادات الإسلامية، فلا شك إذا في أن القول بأن العبادة رياضة وصحة أمر مبالغ فيه، وغير منصوص عليه في صريح القرآن والسنة.

٤- كذلك أيضا كان لإقحام الإعجاز العلمي في أمر الغيبيات، من الإفراط الذي شغل الناس عن رؤية آيات الله ﷻ في خلق السماوات والأرض وما بث فيها من دابة، فصاروا يلهثون وراء فهم أحداث القيامة والجنة والنار من الناحية العلمية مع أنها من الغيبيات التي مهما تخيلناها فحقيقتها بخلاف ما تخيلنا، ووقعها على الأنفس بخلاف ما تحكى الألسن.

بعض مظاهر التفريط:

من مظاهر التفريط وكرّد فعل قوى في مقابلة الإفراط المُشاهد في قضايا الإعجاز العلمي، ظهر أصحاب القول بوجود الابتعاد عن التفسير العلمي للقرآن الكريم، حتى أن بعضهم يعتبر ذلك بدعة، وذلك بزعم الحفاظ على القرآن والسنة من التأويلات الباطلة أو الاصطدام بنظريات علمية غير ثابتة، وأن القرآن كتاب هداية وإرشاد وليس بكتاب علم.

وهذا الرأي أغلب الظن أنه صدر من قلب غيور على القرآن والسنة، يخشى الخطأ في فهم النص الإسلامي، وهذا رأي ينبغي أن يوضع في الاعتبار فلا ينبغي أن يدخل ميدان الإعجاز العلمي للقرآن والسنة إلا العالم المؤهل، أما الجاهل الذي لم يصل إلى مستوى يؤهله إلى ذلك، فيجب أن يكفّ عما هو فيه من هو التفكير في القرآن بالعقل دون النقل، ويعكف على مزيد من الدراسة ليصل إلى المستوى المطلوب.

وبالرغم من وجهة رأى المعارضين للإعجاز العلمي، إلا أن المسألة ليست بهذه البساطة والسطحية، لأننا إذا تعمقنا في التفكير قليلاً لوجدنا أن دعوة هؤلاء تخدم أعداء القرآن أكثر مما تخدم القرآن نفسه، لأن التطور العلمي الحديث أثبت للعالم وجود تعارض بين ما جاء في كتب السابقين (التوراة والإنجيل، بعد أن وقع عليهما التحريف)

وبين حقائق العلم المكتشفة حديثاً، ولكنه عجز عن ذلك أمام القرآن، مما جعل أهل الأديان القديمة يُناصبون الإعجاز العلمي للقرآن العداً.

فماذا فعل أعداء الإسلام لإخفاء نور العلم في القرآن الكريم، ولصرف أنظار الناس في عصر العلم الحالي عن الأخطاء العلمية في كتبهم، لقد أوعز هؤلاء الأعداء للمفكرين المسلمين بدعوى ظاهرها البراءة وفي باطنها الخداع، أن القرآن كتاب مقدس ولا يجب أن تتناول عليه علوم البشر التي تخطئ في كثير من الأحوال، ولكل مجاله، وبذلك ضربوا عصفورين بحجر واحد.

وللأسف خُدع بعض المفكرين المسلمين بهذه الدعوى الخبيثة، وساروا وراءها، بل قاموا يدعون إليها، ظناً منهم أنهم يدافعون عن القرآن، وما علموا أنهم بذلك يخدمون أعداء القرآن.

وإذا كان القرآن الكريم ليس بكتاب علوم بمفهوم تلك التفاصيل العلمية الدقيقة التي يتعلمها الطالب في الجامعات العلمية، إلا أنه أكثر وأهم من ذلك، لأنه يحمل إشارات نورانية إلى منتهى الحقائق العلمية الدالة على سنن الله الكونية في خلقه، وذلك من خلال ما تحمله الآيات القرآنية من إشارات علمية دقيقة إذا أحسنا تدبرها والبحث فيها واستنباط أسرارها العظيمة.

فالقرآن يحث الإنسان على النظر في الكون وتدبره، ولا يشل حركة العقل في تفكيره، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وليس هناك دين من الأديان السابقة يكفل حق العقل في التدبر بمثل ما يكفله الإسلام.

وينبغي هنا أن نشير إلى أن للعلم المادي مراحل في الوصول إلى حقائق الأمور، أولها الفرضية ثم التجريب وقد تكون الفرضية أصعب من التجريب لعدم القدرة على المشاهدة كما هو الحال في علم الروح، فيسقط التجريب ولا يصح إلا الخبر عن العليم الخبير، والتجارب قد تنجح أو لا تنجح، وأحياناً يتم تعديل الفرضيات ثم تتم دراسات جديدة ويظل العلم في نظريات حتى تتضافر الأدلة على ثبوت نظرية معينة تؤكد كل الشواهد بدرجة لا تخضع للشك، عند هذه المرحلة نصل إلى المقابلة الصحيحة بين

علوم القرآن والسنة وبين العلم المادي، فعلوم القرآن والسنة لا تمر في ذكرها للخبر العلمي بمراحل كما يمر بها العلم المادي ولكن علوم القرآن والسنة تذكر من العلم المادي الحقيقة المطلقة التي لا خلاف حولها بل إن وصف القرآن والسنة للعلم المادي يفوق وصف البشر لأنه من لدن العليم الخبير ﷻ.

ومن ادعى أن كل المعارف العلمية ظنية فقد افترى فلا بد لكل علم حقيقي من قواعد ثابتة يقوم عليها، اتفق على ثبوتها أهل التخصص وهناك أيضا أمور ظنية معلومة عند أهل التخصص هي محل بحث ونقاش، ولولا الحقائق لما قامت الحضارات فلا داعي لإضاعة الإعجاز العلمي بدعوى أن العلوم ظنية فهذا قول مجانب للصواب.

فالقرآن والسنة يمثلان سقفاً متجدداً لكل العلوم فكلما ارتقى العلم المادي خطوة في وصف العلوم اقترب من سقف القرآن والسنة حتى يصل العلم المادي في وقت من الأوقات إلى مقاربة سقف القرآن والسنة فتتجلى عندها آيات الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وحتى نصل إلى هذه الدرجة هناك مراحل عديدة من مقابلة العلوم الحديثة مع علوم القرآن والسنة.

وهذه يقوم بها مشكورين كثير من العاملين في مجال الإعجاز العلمي، وقد يخطئوا في بعض المراحل حتى يهدى الله من يشاء إلى الحق الذي لا لبس فيه ولا غموض. ولولا هذه المحاولات الجادة مع بعض الأخطاء البسيطة وغير المتعمدة ما وصلنا يوماً إلى أي أعجاز علمي. ولكن ينبغي الالتزام بمنهج البحث العلمي الذي أسسه علماء الشريعة مع علماء الإعجاز العلمي في كيفية مقابلة النص الشرعي بالعلوم المختلفة.

وإذا كان الإفراط قد حدث من جانب بعض المحبين للإعجاز العلمي كظاهرة غير صحية دافعها العاطفة الزائدة، فذلك يستلزم التصدي لها بكل قوة من خلال الضوابط المعتمدة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة حتى لا يضيع الهدف الأسمى للإعجاز العلمي كأحد جوانب الهداية في القرآن والسنة. والأولى أن يدخل العلماء

المعتضون بكل علمهم في فحص المنشور من الإعجاز العلمي وتحقيقه بما يرضى الله لا أن يجمعوا ويرفضوا.

وإذا ظن قراء الإعجاز العلمي أن هناك خطأً ما في أي مقالة من مقالات الإعجاز العلمي، فينبغي أن يرسلوا صاحب المقالة ويبينوا له هذا الخطأ، فربما أقام الحجة على صحة قوله وخطأً ظنهم، أو ألزموه الحجة الصحيحة فلا يعود ثانيةً إلى خطئه، وبذلك يخاف كُتّاب الإعجاز العلمي من النقد العلمي، وبهذا يفكرون ألف مرة قبل نشر أي كلمة لأنهم على علم بأن هناك من يراقب أقوالهم.

محاذير في الإعجاز العلمي

١- أن يكتب في الإعجاز العلمي من ليست له قدم في العلم الشرعي، ومن أخطار ذلك أن تُجعل الأبحاث في العلوم التجريبية أصلاً يُحكّم به القرآن والسنة، فتُؤوّل الآيات والأحاديث لتناسب مع هذه النظريات والفرضيات. ويؤدي إلى وقوع الانحراف في هذا الاتجاه الحرص الزائد على إثبات حديث القرآن والسنة عن كثير من القضايا التي ناقشها الباحثون التجريبيون، إن كتاب الله ﷻ وسُنّة رسوله ﷺ أعلى وأجلّ من أن يُجعل عرضة لهذه العقول التي لم تتأصل في علوم الشريعة.

٢- عدم مراعاة مصطلحات اللغة والشريعة، ومحاولة تركيب ما ورد في البحوث التجريبية على ما ورد في القرآن، ومن الأمثلة على ذلك: أن القرآن يذكر عرشاً وكروناً وقمرًا وشمسًا وكواكب ونجومًا وسموات سبع، ومن الأرض مثلهن ... إلخ. ومصطلحات العلم التجريبي المعاصر زادت على هذه، وذكرت لها تحديدات وتعريفات لا تُعرف في لغة القرآن ولا في لغة العرب، فحملوا ما جاء في القرآن عليها، وشطّ بعضهم فتأوّل ما في القرآن إلى ما لم يوافق ما عند الباحثين التجريبيين المعاصرين.

فبعضهم جعل السموات السبع هي الكواكب السبع السيارة، وجعل الكرسي المجرات التي بعد هذه المنظومة الشمسية، والعرش هو كل الكون. وآخر يجعل ما تراه من نجوم السماء التي أقسم الله بها وأخبر عن عبوديتها، وجعلها علامات؛ يجعل ما تراه مواقع النجوم، وإلا فالنجوم قد ماتت منذ فترة. إلى غير ذلك من التفسيرات الغريبة التي تجيء مرة باسم الإعجاز العلمي، ومرة باسم التفسير العلمي ... إلخ من المسمّيات.

٣- قَصْر معنى الآية أو الحديث على المعنى المأخوذ من البحوث التجريبية.

٤- بعض المعاصرين ممن اعتنوا بإبراز (الإعجاز العلمي) في كتاب الله ﷻ، اعتمادهم على المأثور عن السلف قليل جدًا، وجُلُّ اعتمادهم على كتب التفسير المتأخرة،

فتراهم ينسبون القول إلى القرطبي وأبي حيان والشوكاني على أنهم هم السلف. غير أن للعلماء اصطلاحًا خاصًا في المراد بالسلف، وقد اختلفوا في تحديد الفترة الزمنية التي يقف عندها هذا المصطلح، والغالب في ذلك أنهم الصحابة والتابعون وأتباعهم ممن التزم الكتاب والسنة.

والسلف في مصطلح المفسرين لا يخرج عن هذه الطبقات الثلاث بدلالة أنك إذا رجعت إلى التفاسير التي جمعت مأثور السلف - كتفسير الطبري وابن أبي حاتم - تجدها تعتمد على ما نُقِلَ عن هذه الطبقات الثلاث، وتراهما تقف عند طبقة أتباع التابعين. ومن ثمَّ، فإن مصطلح السلف عند الباحث هم أهل هذه الطبقات الثلاث.

٥- إن بعض المعتنين بالإعجاز دخلوا في هذا المجال بسبب ردود الفعل؛ إما بما رأوا من تنقص بعض الملحدين للمسلمين ودينهم، وإما بسبب ما يروونه من الهجمة الشرسة على الإسلام والدعوى بأنه دين جامد يحارب العلم، ولقد كان لردِّ الفعل هذه أثرٌ في طريقة تفكيرهم وتناولهم لتفسير الآيات والأحاديث تفسيرًا يتناسب مع ما أوتوه من علم بشري تجريبي أو كوني. ولقد بلغ الحدُّ ببعضهم إلى انتقاص علماء الشريعة الذين لا معرفة لهم بالإعجاز العلمي.

٦- يظهر على بعض من يعتنون بالإعجاز فرحهم بما أوتوه من العلم، حتى إنَّ بعضهم ليخطئ كل من سبقه، ويزعم أنهم لم يعرفوا تفسير الآية ولم يأتوا في معناها بما يُقنع، وهذا الأمر يظهر عند بعضهم صريحًا، ويظهر عند بعضهم بلازم قوله، كمن يزعم (أنَّ الآيات الكونية لا يمكن فهمها فهمًا صحيحًا في إطار اللغة وحدها)، ولازم هذا الكلام أن رسول الله ﷺ لم يفهم هذه الآيات، فضلًا عن عاصره من الصحابة أو من جاء بعدهم، ولم تُفهم هذه الآيات حتى ظهرت هذه العلوم الكونية والتجريبية.

وكل من أتى على تفسير السالفين بالإبطال فليحذر، وليخش على نفسه أن يكون ممن فرحوا بما عندهم من العلم، وتنفصوا علم السالفين.

٧- التسرع في إثبات كون القرآن دَلَّ على هذه المكتشفات المعاصرة، فينبغي التؤدة والتريث لأنه يُبنى على ذلك أمورٌ هي من الأهمية بمكان، ومنها:

أ- القول على الله بأن هذه القضية المكتشفة أحد مراداته في كلامه، وإذا كان هذا القول بلا علم، فإنه من المحرمات التي ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٣).

ب- الاعتماد على ربط هذه القضية في إثبات صحة الرسالة، مع أن صحتها تثبت بها هو دون ذلك.

ج- أن كثرة الاستدلال بهذه القضايا على صحة الرسالة تجعل الإسلام ديناً عقلياً بحثاً، فالداخل فيه لا يمكن أن يقتنع به إلا بهذا الأسلوب، وذلك مخالف لطبيعة الإسلام، فكثير ممن ربطوا الإسلام بهذا العقل دون العقل الفطري وقعوا في الضلال؛ كثير من المتكلمين والفلاسفة الذين عاشوا في ظل الإسلام؛ كابن سينا وابن رشد وغيرهم.

د- أنه مما لا يخفى على الباحثين في الأمور الكونية والتجريبية أن العلم البشري ناقص، وأنه يتطور مرة بعد مرة، ولا يأمنون أن ما يعدونه اليوم حقيقة يكون غداً تاريخاً علمياً لقضية أخرى، ولا يكون الفهم السابق هو الصواب. والدعوى بأنه لا يُفسر القرآن إلا بما ثبت يقيناً دعوى فقط، والواقع الذي يمارسه من يربط القرآن بالمكتشفات المعاصرة يخالفه، فما إن تظهر قضية يحس الباحث أن القرآن دلّ عليها إلا وانصرف ذهنه من حيث لا يشعر إلى إثبات الربط بينها وبين القرآن.

فإن بعض من يستسلم لهذه الحقائق المذكورة في القرآن أو السنة، يأخذها بنظره العلمي التجريبي، ولا يدرك حقيقة الوحي، وأن هذا القرآن من عند الله، فبينه وبين ذلك حجاب مستور، والله أعلم.

ومن ثم، فإن العناية بالأمر الأول - وهو البحث التجريبي والنظر في هذا الكون والتدبر فيه - يجب أن تكون أكبر وأكثر من العناية بالأمر الثاني - وهو ما يسمى بالإعجاز العلمي - لوجهين:

الوجه الأول: أنه هو المجال الوحيد الذي سبقنا فيه أعداؤنا، ولا بد لنا من منافستهم في ذلك، والسعي للتقدم عليهم فيه.

الوجه الثاني: أنه عندما يقوم الباحثون المسلمون بتلك البحوث نضمن أنهم لن يصلوا إلى نتائج خاطئة مخالفة للكتاب والسنة، بل إنهم سوف يعيدون النظر في بعض النتائج المخالفة للكتاب والسنة التي وصل إليها البحث الغربي الكافر.

وإذا بقي هُمتنا منصباً على العناية بما يسمى بالإعجاز العلمي لإثبات صحة هذا الدين لأولئك الذين لا يؤمنون إلا بالحقائق المادية، فإننا سنبقى عالة على الغرب ننتظر منه كل جديد في العلوم، ثم نبحث ما يوافقنا في شرعنا، ولا يخفناك ما دخل علينا من هذه العلوم مما هو مخالف لشرعنا، وما ذاك إلا بسبب أن موقفنا نحن المسلمين موقف التلميذ الضعيف المتلقي الذي يشعر أنه لا شيء عنده يمكن أن يقدمه. والبحث العلمي بلا قوة تحميه لا يمكن أن ينفعل في الواقع، لذا لا بدّ من أن يواكب العلم قوة تكون في الأمة كي تدعم هذا العلم وتحافظ عليه، وإلا صار ما تراه من هجرة العلماء عن ديار المسلمين إلى ديار الغرب الكافرة.

إن موضوع الإعجاز العلمي ينبغي تصحيح مساره، ووضعها في مكانه الطبيعي دون تزيُّد وتضخيم كما هو الحال اليوم، حتى لقد جعله بعضهم الطريق الوحيد لدعوة الكفار، وأنتى له ذلك؟ لقد أسلم كثير منهم في هذا العصر - ولا زالوا يسلمون بما يعرفه كثير ممن خبر إسلامهم - ولم يكن إسلامهم بسبب ما ورد في القرآن من حقائق وافقها البحث التجريبي. نعم لقد كان له أثر في إسلام بعض الكفار، لكنهم أقل بكثير ممن يسلم بسبب الاقتناع بالإسلام، وبما فيه مما يلائم فطرة البشر.

الفصل السادس
الإعجاز العلمي
في القرآن الكريم

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ

قَالَ تَعَالَى:

﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥٣).

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

الإعجاز العلمي في القرآن حق؛ لكن له مواضع توسع فيه بعضهم فخرجوا به عن المقصود إلى أن يجعلوا آيات القرآن خاضعة للنظريات العلمية، وهذا باطل؛ بل النظريات خاضعة للقرآن لأن القرآن حق من عند الله ﷻ والنظريات من صنع البشر، لكن بالفهم الصحيح للقرآن هناك أشياء من الإعجاز العلمي حق لم يكن يعلمها الصحابة ﷺ على كمال معناها وإنما علموا أصل المعنى، فظهرت في العصر الحاضر في أصول من الإعجاز العلمي.

وقد جعل الله ﷻ العلم الإلهي الذي تحمله آيات القرآن هو البيئة الشاهدة على كون هذا القرآن من عند الله كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ، يَعْلَمُهُ وَأَمَلَتِكَ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ١٦٦)، أي: أنزله وفيه علمه^(١).

ففي هذه الآية بيان لطبيعة المعجزة التي نزلت ردًا على إنكار الكافرين، لنبوة محمد ﷺ التي تبقى بين يدي الناس، وتتجدد مع كل فتح بشري في آفاق العلوم والمعارف ذات الصلة بمعاني الوحي الإلهي، وكل آية من كتاب الله تحمل علمًا إلهيًا يعرفه البشر عند ارتقائهم بأسباب العلوم والمعارف في ذلك الميدان الذي تتحدث عنه الآية القرآنية.

(١) قال الشيخ السعدي في تفسير هذه الآية: «لما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين، أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به، وأنه ﴿أَنْزَلَهُ، يَعْلَمُهُ﴾ يحتتمل أن يكون المراد أنزله مشتملا على علمه، أي: فيه من العلوم الإلهية والأحكام الشرعية والأخبار الغيبية ما هو من علم الله تعالى الذي علم به عباده. ويحتمل أن يكون المراد: أنزله صادرا عن علمه».

والقرآن مليء بالآيات التي تتحدث عن مظاهر الكون، وحديثه عن الكون هو حديث من يعلم أسراره ودقائقه، مع أن البشرية كلها في وقت النبي ﷺ لم تكن تعلم معظم تلك الأسرار، وكان يغلب على تفكيرها الأسطورة والخرافة.

لذلك رأينا الجراح الفرنسي العالمي الشهير الدكتور "موريس بوكاي" يتقدم إلى البشرية بأطروحة مضمونها أن الأدلة قد قامت على أن القرآن الذي نقرأه اليوم، هو نفس القرآن الذي قرأه النبي محمد ﷺ على الصحابة، وما دام أن القرآن قد أفاض في الحديث عن الكون وأسراره، فإننا نستطيع بهذه الحقيقة أن نعرف منها إذا كان القرآن من عند الله باختبار يعرفه كل عاقل في عصرنا.

فإذا كان القرآن من عند محمد ﷺ، وهو مملوء بالوصف لمظاهر الكون: الأرض، السماء، الجبال، البحار، الأنهار، الشمس، القمر، النبات، الحيوان، الإنسان، الرياح، الأمطار، وغير ذلك، فإن حديثه عن هذه المظاهر الكونية سيعكس لنا علم محمد ﷺ وثقافته عن المخلوقات وأسرارها، كما يعكس لنا علم مجتمعه وبيئته، وعلوم عصره في ذلك المجال، وهي علوم غلبت عليها السذاجة والخرافة والأسطورة، وسنجد القرآن عندئذ مملوءاً بالخرافة والأسطورة والخبر الساذج عند حديثه عن الكون وأسراره، هذا إذا كان بشراً عادياً لا يوحى إليه من ربه، كما هو شأن كل الكتب التي دُوِّنت في تلك الأزمنة بما فيها الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى (التوراة والإنجيل) التي طرأ عليها التحريف، هذا إذا كان القرآن من عند محمد ﷺ.

أما إذا كان القرآن من عند الله ﷻ فسنراه في حديثه عن المخلوقات وأسرارها يسبق مقررات العلوم الحديثة، وسنرى الاكتشافات العلمية تلهث وراءه فتقرر ما فيه من حقائق وتؤكد ما فيه من مقررات في شتى المجالات.

ولقد قضى الدكتور "موريس بوكاي" لتحقيق هذا الاختبار عشر سنوات يتعلم فيها القرآن واللغة العربية، ويقارن بين القرآن وبين الكشوف العلمية الحديثة، ثم ألف كتاباً سماه: "دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة".

وقد أثبت فيه سلامة القرآن من التحريف، ودخول التحريف على التوراة والإنجيل وأثبت تعارض التوراة والإنجيل مع العلوم الحديثة؛ كما أثبت سبق القرآن لهذه العلوم ويَبِّنُ أن هذا مما اشتمل عليه وعد الله ﷻ القائل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥٣).

إن البيّنات العلمية شاهدة بأن مصدر هذا القرآن هو خالق الأرض والجبال، وعالم أسرار السموات والأرض القائل: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الفرقان: ٦).

هذا الوحي الذي تعهد الله ﷻ بحفظه فحُفِظَ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد بنفس اللغة التي أوحى بها، سورةً سورةً، وآيةً آيةً، وكلمةً كلمةً، وحرفاً حرفاً، دون أدنى زيادة أو نقصان، وهذا وحده من أعظم الشهادات على صدق القرآن الكريم وإعجازه، وعلى أنه كلام الله الخالق، وعلى صدق الصادق الأمين الذي تلقاه عن ربه، وعلى صدق نبوته ورسالته ﷺ.

إذن لا بد بعد هذا أن تكون نظرنا لهذا الدستور الرباني المعجز نظرة واقعية عملية نترجمها في واقعنا يقينا وعملا ودعوة في سبيل الله تعالى القائل: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَرٍ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِيَّاكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٥٠)؛ لأن كل مَنْ عَلِمَ أن الحق واحد ثم خالفه واتبع غيره فهو متبع لهواه كما في الآية المتقدمة وهي بديهية من البدهيات التي يجب على كل مؤمن أن يتشبع بها ويجعلها قاعدة أساسية ثابتة لا يجيد عنها في أي لحظة من حياته إلى أن يلقي الله تعالى وهو على هذه الحال. ومن النماذج المتعلقة بالإعجاز العلمي، وجاءت بها أبحاثٌ وتجاربٌ موافقةٌ لما نصَّ عليه القراءان:

إخبار القرآن عن مراحل تكوّن الجنين:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿المؤمنون: ١٢-١٤﴾.

أوضح عالم الأجنة كيث مور Keith L. Moore، شكل العلقه والمضغه ومراحل الخلق المذكورة في القرآن، وأضاف طبعة من كتابه الذي يدرس في أكابر الجامعات - سماه "Developing Human with Islamic Addition" (تطور الإنسان بإضافة إسلامية)، والذي تُرجم إلى ثمان لغات.

والبروفيسور كيث مور Keith L. Moore أستاذ علم التشريح في جامعة "تورنتو" بكندا، وكان قد مر خلال حياته العلمية عبر جامعات عديدة منها جامعة توينبوك في الغرب الكندي حيث كان هناك لمدة ١١ سنة ورأس العديد من الجمعيات الدولية؛ مثل "جمعية علماء التشريح والأجنة في كندا وأمريكا"، و"مجلس اتحاد العلوم الحيوية". كما انتخب عضواً في "الجمعية الطبية الملكية بكندا"، و"الأكاديمية الدولية لعلوم الخلايا"، و"الاتحاد الأمريكي لأطباء التشريح"، و"اتحاد الأمريكيتين في التشريح"، وشارك في تأليف عدة كتب في مجال التشريح الإكلينيكي وعلم الأجنة.

وعُرف العالم "كيث مور" باعتقاده أن آيات القرآن المتعلقة بعلم الأجنة تقدم دليلاً على أصله الإلهي. وقد قال في مقالة كتبها إن إشارات القرآن إلى تكاثر الإنسان ونموه متناثرة في القرآن، وأن تفسير الآيات القرآنية المتعلقة بتكوين الإنسان لم يكن ممكناً في القرن السابع للميلاد، ولا حتى منذ مائة سنة. وأكد أن ما قاله القرآن عن نمو

الإنسان يجعل من الواضح أن أصله إلهي قائلاً: «هذا يثبت لي أنه لا بد أن محمداً كان رسولاً من عند الله»^(١).

وفي المؤتمر الطبي السعودي الثامن بالرياض، وبسبب هذه الآية، نطق بالشهادتين البروفسور "تاجاتات تاجاسون"، رئيس قسم التشريح والأجنة في جامعة "شاينج ماي" بتايلاند.

قال الشيخ عبد المجيد الزنداني: «بدأت صِلتُنَّا بالبروفيسور تاجات تاجاسون عندما عرضنا عليه بعض الآيات والأحاديث النبوية المتعلقة بمجال تخصصه في مجال علم التشريح وقدمنا له محاضرة مكتوبة للدكتور (كيث مور) وكان عنوان المحاضرة "مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة" وسألناه عدداً من الأسئلة في مجال تخصصه كان منها ما يتعلق بالجلد.

وبعد الحوار قال البروفيسور تاجاتات تاجاسون: «في السنوات الثلاث الأخيرة أصبحت مهتماً بترجمة معاني القرآن الكريم الذي أعطاه لي الشيخ عبد المجيد الزنداني في العام الماضي، ومحاضرات البروفيسور "كيث مور" التي طلب مني الشيخ الزنداني أن أترجمها إلى اللغة التايلاندية وأن ألقى فيها بعض المحاضرات للمسلمين الذي أعطيته في دراساتي.

فإنني أو من أن كل شيء ذكر في القرآن منذ ١٤٠٠ سنة لا بد أن يكون صحيحاً، ويمكن إثباته بالوسائل العلمية، وحيث إن النبي ﷺ لم يكن يستطيع القراءة والكتابة فلا بد أن محمداً ﷺ رسول جاء بهذه الحقيقة، لقد بُعثَ هذا عن طريق وحي

(١) راجع في ذلك مقال: "Western Scholars Play Key Role In Touting 'Science' of the Quran" "العلماء الغربيون يلعبون دوراً هاماً في الترويج لـ"علوم" القرآن"، لدانييل جولدن، والذي نُشر بجريدة "وول ستريت جورنال الأمريكية" "The Wall Street Journal" بتاريخ ٢٣ يناير ٢٠٠٢.

من خالق عليم بكل شيء، هذا الخالق لا بد أن يكون هو الله، ولذلك فإنني أعتقد أنه حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

حقائق القرآن أفحمت المكابرين:

هناك من يشككون في إعجاز القرآن الكريم قائلين مثلاً إن ما ورد من حقائق علمية - خاصة ما يتعلق بتكوين الجنين - قد سبق إليها الإغريق، ومنهم أرسطو كما أنه يوجد مثلها في الإنجيل كثير، وبديهي أن تسمع من المشككين مغالطات بقصد التشويش على غير العارفين بالحقائق، وقد خاب مسعاهم ويكفي أن نخبة من كبار المختصين في العالم في علم الأجنة قد بهرثها الأوصاف العلمية الدقيقة في القرآن، فشاركت في العديد من المؤتمرات العلمية الدولية وقرر أساطين المتخصصين في ذلك العلم سبق القرآن للمعارف البشرية.

لقد عاش المفكر الإغريقي "أرسطو" في القرن الرابع قبل الميلاد؛ حيث أصاب شهرة واسعة نتيجة لتأملاته الصائبة في كثير من الظواهر الطبيعية قبل اكتشاف المجهر في القرن السابع عشر، وله مساهمات تجريبية في وصف تطور جنين الدجاجة وغيرها بالعين المجردة، حتى إن البعض يعتبره واضع أساس علم الأجنة.

ومع ذلك جاءت الثورة العلمية الحديثة ابتداء من القرن السابع عشر بمكتشفات نقضت الكثير من معتقداته التي ثبت أنها خاطئة، ومن ذلك اعتقاده بتخلق الجنين من دم الحيض نتيجة للاتحاد مع السائل المنوي، علماً بأنه ليس أول من وصف تطور جنين الدجاجة من الإغريق فقد سبقه "أبوقراط" بحوالي قرن عدا الكثير من اجتهاداته في الطب حتى أن بعض الغربيين ممن يحاولون قصر تاريخ العلوم على الأسلاف مجترئين على الحقيقة يعتبرونه أبا الطب.

وربما كان "جالن" الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد أكثر دقة من أرسطو في كثير من الوصف لأجنة الحيوانات بعد مشاهدتها بالعين المجردة. وفي العصور الوسطى قبل عصر النهضة عاشت أوروبا في كساد علمي جعلها لا تتجاوز تردد أفكار

الإغريق، ولذا يتعجب البروفيسور "كيث مور" في كتابه من وفرة وتأزر الحقائق العلمية المتعلقة بخلق الجنين في القرآن، فيقول:

«لم تُصَف في العصور الوسطى معلومات ذات قيمة في مجال تخلق الجنين ومع ذلك قد سجل القرآن في القرن السابع وهو الكتاب المقدس عند المسلمين أن الجنين البشري يتخلق من أخلاط تركيبية من الذكر والأنثى مع بيان تخلق الجنين في أطوار عدة ابتداءً مما يماثل في التركيب قطيرة أو نطفة تنغرس وتنمو في الرحم كالبذرة، ومع وصف الجنين في أول مرحلة بما يماثل العلقة التي تعيش على مص دماء الغير^(١)، ثم مما يماثل كتلة ممضوغة بما فيها من علامات أسنان وانبعاجات وهو ما يتفق مع تطور الأعضاء في المرحلة التالية.

وإذا أردت مزيداً من الأوصاف العلمية في القرآن في مجال علم الأجنة فإني أحيلك إلى كتابي طبعة ١٩٨٦م، مع العلم أن أول من درس جنين الدجاجة - باستخدام عدسة بسيطة - هو هارفي عام ١٦٥١م، ودرس كذلك أجنة الأيل ولصعوبة معاينة المراحل الأولى للحمل استنتج أن الأجنة ليست لإفرازات رحمية.

وفي عام ١٦٧٢م اكتشف "جراف" حويصلات في المبايض ما زالت تسمى باسمه وعاین حجيرات في أرحام الأرناب الحوامل تماثلها، فاستنتج أن الأجنة ليست إفرازات من الرحم وإنما من المبايض، علماً بأنه لم تكن تلك التكوينات الدقيقة التي عاينها "جراف" سوى تجايف في كتل الخلايا الجنينية الأولية.

(١) العلقة في اللغة: واحدة العلق، وتُطلق على الدم الغليظ والجامد، وعلى دودة في المياه الراكدة تعلّق بالجسد فتمتص دمه، وعلى كل ما يعلّق بغيره أو يُعلّق عليه، ويبدأ طور العلقة بعد أربعين يوماً من بدء الحمل، كما جاء في الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم. وفي طور العلقة يصبح الجنين كالدودة العالقة بالرحم. وهذه العلقة جامدة في طبيعتها، لونها أحمر بسواد، تتعلق بجدار الرحم، تمتص منه غذاءها كما يمتص العلق من الدابة غذاءه. فالعلق في لغة العرب على ثلاثة معانٍ: الدم، والشيء الذي يعلّق بغيره، وما يقوم على غيره، وهذه المعاني غير متناقضة ويشملها كلها حال الجنين.

وفي عام ١٦٧٥م عاين "مالبيجي" أجنة في بيض دجاج ظنه غير محتاج لعناصر تخصيب من الذكر واعتقد أنه يحتوي على كائن مصغر ينمو ولا يتخلق في أطوار.

وباستخدام مجهر أكثر تطوراً اكتشف "هام وليفنهوك" الحيوان المنوي للإنسان للمرة الأولى في التاريخ وذلك في عام ١٦٧٧م ولكنها لم يدركا دوره الحقيقي في الإنجاب وظناً أيضاً أنه يحتوي على الإنسان مصغراً لينمو في الرحم بلا أطوار تخليق، وفي عام ١٧٥٩م افترض "وولف" تطور الجنين من كتل أولية التكوين ليس لها هيئة الكائن المكتمل، وحوالي العام ١٧٧٥م انتهى الجدل حول فرضية الخلق المكتمل ابتداءً؛ حيث استقرت نهائياً معرفة حقيقة التخليق وأنه يتم في أطوار.

وأكدت تجارب "إسبالانزاني" على الكلاب على أهمية الحويئات المنوية في عملية التخليق، بعد أن سادت قبله الفكرة بأن الحويئات المنوية كائنات غريبة متطفلة.

وفي عام ١٨٢٧م بعد حوالي ١٥٠ سنة من اكتشاف الحوين المنوي عاين "فون بير" البويضة في حويصلة مبيض إحدى الكلاب.

وفي عام ١٨٣٩م تأكد "شليدن وشوان" من تكون الجسم البشري من وحدات بنائية أساسية حية ونواتجها وسميت تلك الوحدات بالخلايا وأصبح من اليسير لاحقاً تفهم حقيقة التخلق في أطوار من خلية مخصّبة ناتجة عن الاتحاد بين الحيوان المنوي والبويضة.

وفي عام ١٨٧٨م اكتشف "فليمنج" الفتائل الوراثية داخل الخلايا، وفي عام ١٨٨٣م اكتشف "بينيدن" اختزال عددها في الخلايا التناسلية، وفي القرن العشرين تم التحقق نهائياً من احتواء الخلية البشرية الأولى على العدد الكامل من تلك الأخلط الوراثية من الذكر ومن الأنثى وعرف عددها.

هذا هو تاريخ اكتشاف تلك الحقائق التي سبق القرآن وذكر الكثير منها قبل اكتشافها بقرون، فكيف لعالم محقق أن يجهلها أو يتجاهلها ويعارض الحقيقة! لا شك أن مثل هذا العالم سوف يتهمه التاريخ والعلم بالجهل أو الحيدة عن الإنصاف.

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح: ١٣، ١٤)، ويقول ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ (الحجرات: ١٣)، فقد بين الله - تعالى - في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى، فالخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية فإنها نص لا يحتمل التأويل.

ويقول عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ (الإنسان: ٢)، وهي الأخلاط والمراد نطفة الرجل ونطفة المرأة واختلاطهما.

وهكذا ففي يقظة جريئة بين ركam التقليد اعترف المحقق الفرنسي "موريس بوكاي" بسبق القرآن الكريم في تسجيل كثير من الحقائق في ميادين علمية مختلفة بلا خطأ واحد بينما لم تثبت المدونات الأخرى التي تنسب للوحي أمام النقد العلمي. ومن هنا نال بكتابه (القرآن والإنجيل في ضوء العلم الحديث) شهرة واسعة ورفعة وما ذلك إلا بسبب صدقه وجرأته التي بلغت حد الجهر بها دون تردد.

إخبار القرآن الكريم عن كروية الأرض:

من الحقائق الثابتة عن الأرض أنها مكورة (كرة أو شبه كرة)، ولكن نظرًا لضخامة أبعادها فإن الانسان يراها مسطحة بغير أدنى انحناء، وهكذا ساد الاعتقاد بين الناس بهذا التصور للأرض إلي زمن الوحي بالقرآن الكريم، وإلي قرون متطاولة من بعد ذلك بل بين العوام إلي يومنا هذا، علي الرغم من وجود عدد من الملاحظات القديمة التي تشير إلي كرويتها.

ولذلك فإن القرآن الكريم يتحدث عن هذه الحقيقة بطريقة غير مباشرة، وبصياغة ضمنية لطيفة، ولكنها في نفس الوقت بالغة الدقة والشمول والإحكام، قَالَ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (الزمر: ٥).

ومعني «يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ» أي يغشي كل واحد منهما الآخر كأنه يلفه عليه، وهو وصف واضح الدلالة علي كروية الأرض، وعلي دورانها حول محورها أمام الشمس، وذلك لأن كلاً من الليل والنهار عبارة عن فترة زمنية تعترى نصف الأرض في تبادل مستمر.

ولو لم تكن الأرض مكورة لَمَا تكور أي منهما، ولو لم تكن الأرض تدور حول محورها أمام الشمس ما تبادل الليل والنهار وكلاهما ظرف زمان وليس جسمًا ماديًا يمكن أن يُكَوِّرَ، بل يتشكل بشكل نصف الأرض الذي يعتريه.

ولما كان القرآن الكريم يثبت أن الله تعالي يكور الليل علي النهار ويكور النهار علي الليل وهما فترتان زمنيتان تعتريان الأرض، فلا بد للأرض من أن تكون مكورة، ولا بد لها من الدوران حول محورها أمام الشمس.

فالتكوير معناه لُفُّ الشيء على الشيء علي سبيل التابع ولو كانت الأرض غير كروية (مسطحة مثلاً) لخيم الليل أو طلع النهار على جميع أجزائها دفعة واحدة ولكن الحقيقة أن الأرض كروية تدور حول نفسها ولهذا فنصف الكرة الأرضية يكون نهاراً لأنه يواجه الشمس بينما يكون النصف الآخر ليلاً، وباستمرار الدوران أو اللف يتبادل النصفان ويصبح النهار ليلاً والليل نهاراً وهكذا، كما أن الفعل المكرر مرتين في هذه الآية يدل بوضوح على كروية الأرض بكروية جوها الذي يتولد فيه الليل والنهار على التجدد على كل بقعة من بقاع الأرض.

ومن هنا كان التعبير القرآني بتكوير كل من الليل والنهار فيه إعلام صادق عن كروية الأرض، وعن دورانها حول محورها أمام الشمس، بأسلوب رقيق لا يفرع العقلية السائدة في ذلك الزمان التي لم تكن مستعدة لقبول تلك الحقيقة، فضلا عن استيعابها، تلك الحقيقة التي أصبحت من البديهيات في زماننا.

قال الإمام ابن حزم رحمته: «إن أحداً من أئمة المسلمين المُسْتَحِقِّينَ لِاسْمِ الإِمَامَةِ بِالْعِلْمِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لم ينكروا تكوير الأرض ولا يحفظ لأحد منهم في دفعه كلمة، بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها؛ قال الله عز وجل: «يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى

النَّهَارِ وَيَكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴿١﴾ وَهَذَا أَوْضَحَ بَيَانٍ فِي تَكْوِيرِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ مَا أُخِذَ مِنْ كَوْرِ الْعِمَامَةِ وَهُوَ إِدَارَتُهَا وَهَذَا نَصٌّ عَلَى تَكْوِيرِ الْأَرْضِ وَدَوْرَانِ الشَّمْسِ كَذَلِكَ وَهِيَ الَّتِي مِنْهَا يَكُونُ ضَوْءُ النَّهَارِ بِإِشْرَاقِهَا وَظِلْمَةُ اللَّيْلِ بِمَغْيِبِهَا» (١).

بداية التصور العلمي لدوران الأرض:

إن أغلب الحضارات القديمة قد اهتمت برصد حركات عدد من الأجرام السماوية، واستخدمت الحسابات الرياضية لتفسير العلاقات والروابط بينها من مثل مراحل منازل القمر المتتابعة، وعلاقة الأرض بالشمس، وظهور واختفاء بعض الكواكب بصورة دورية، وظواهر الكسوف والخسوف وغيرها من مظاهر كونية متجددة أو متغيرة.

كما لاحظ الناس منذ القديم أن الأرض ساكنة تحت أقدامهم فظنوا بأن الأرض هي مركز الكون وأنها لا تتحرك، بينما دأبت الأجرام في السماوات التي ترصعها النجوم على الدوران من حولها، وقد قال بذلك العالم "بطليموس" وأيده كثيرون.

وجه الإعجاز:

وجه الإعجاز في الآية القرآنية آنفة الذكر؛ هو أنها أشارت لدوران الأرض إشارة ضمنية ومن وجوه متعددة وهو ما كشف عنه العلم في القرن السابع عشر الميلادي. لقد أثبت القرآن الكريم حركة دوران الأرض. فمن أخبر النبي محمدًا ﷺ عن هذه الحقيقة الكونية؟ إن الذي أخبر النبي محمدًا ﷺ هو الذي خلق هذه الكواكب وهذه الأرض.

فإذا كان الله الذي خلق هو الذي أخبر محمدًا ﷺ بهذه الأمور والقطعيات من الأخبار التي لا يمكن لأحد في زمانه أن يعلم ولا حتى جزءًا يسيرًا منها؛ أفلا يكفي هذا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أن يدعن ويؤمن بأن هذا القرآن هو من

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٧٨).

عند الله حفظه من كل تحريف وتبديل لكي يبقى حجة قاطعة وبرهاناً ساطعاً للناس بأن هناك رباً خالقاً خلق الخلق وأنزل لهم الفرقان وأمرهم لما فيه سعادتهم في الدارين!

إخبار القرآن عن العلاقة بين الإحساس وجلد البشر:

من الصور التي ذكرت في كيفية عذاب أهل النار يوم القيامة أن النار تحرق جلودهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كَمَا نَصَّبَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ (النساء: ٥٦). فأخبر الله تعالى أنهم سيصلون ناراً تشويهم وتحرق جلودهم، فإذا احترقت تلك الجلود وانتهت فإن الله ﷻ يبدهم جلوداً أخرى، وهذا التبديل للجلود ليدوم ويستمر شعورهم وإحساسهم بالألم والعذاب.

وفي هذه الآية الكريمة سبق علمي، فقد أخبرت هذه الآية القرآنية أن الإحساس بالألم في الجلد، وأثبت أهل الطب أن الإحساس بالألم الحريق محصور في الجلد لأن نهايات الأعصاب المتخصصة بالاحساس بالحرارة والبرودة محصورة بالجلد ولو ذاب الجلد فلن يشعر الإنسان في الدنيا بالألم الحريق.

وجه الإعجاز:

كان الاعتقاد السائد منذ عدة قرون أن الجسم كله حساس للآلام، ولم يكن واضحاً لأحد في ذلك الوقت أن هناك أعصاباً متخصصة في جسم الإنسان لنقل أنواع الألم، حتى كشف علم التشريح اليوم دور النهايات العصبية المتخصصة في الجلد في نقل أنواع الآلام المختلفة.

وقد أثبت العلم الحديث أن الإحساس بحرّ النار، إنما يكون في الجلود الحية، حيث خلق الله نهايات عصبية في الجلد حساسة، فإذا نضج الجلد ماتت هذه النهايات العصبية، فينعدم الإحساس بحرّ النار، وعندئذ لا يمثل الاستمرار في النار أي نوع من الألم للكافر؛ لأن مراكز الإحساس بالألم قد حطمت، لكن العليم الخبير بأسرار خلق الإنسان، يعلم هذا السر، فأشار إليه في كتابه قبل ١٤٠٠ عام، وبين سبحانه الطريقة التي سيستمر بها العذاب للكافرين في النار، فقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ

نَارًا كَمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿النساء: ٥٦﴾.

وهكذا أشار القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة إلى حقيقة علمية لم يتوصل العلماء إلى معرفتها إلا حديثاً، بعدما تقدمت علوم التشريح والأنسجة، واخترعت أجهزة التكبير والقياس، فالآية تشير إلى مراكز الإحساس في الجلد، وتشير إلى وجود البروتينات التي تتجلط بحرارة النار الشديدة.

إن رسول الله ﷺ لم يكن قارئاً ولا كاتباً، فكيف جاء بهذه الحقيقة العلمية، كيف به يتحدث عن خصائص الأعصاب الحسية ووظائف مراكز الحس بالألم الموجود في الجلد، إنه بلا شك رسول يتلقى الوحي من الله الخالق العظيم، وما تلقاه بلا شك وحي الله الذي ختم به حلقات اتصال السماء بالأرض، ولذلك أودع فيه أسراراً لن تنتهي إلى يوم القيامة.

حكمة تقليب أصحاب الكهف:

روى القرآن الكريم قصة أصحاب الكهف، الفتية الذين آمنوا وهربوا بدينهم وإيمانهم من طُغاة عصرهم، فأنامهم الله تعالى أكثر من ثلاثة قرون، ثم بعثهم ليكونوا عبرة للأجيال، قال تعالى: ﴿وَنَحْسَبُهُمْ آيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ (الكهف: ١٨).

وقد كشف العلم عن الحكمة المنطوية في تقليب الله تبارك وتعالى أبدان هؤلاء الفتية، وبيّن أنّها إجراء احترازيّ من الإصابة بالقرحة الجلديّة التي تصيب المرضى المصابين بالأمراض المزمنة مثل الشلل، وهي التهاب يحصل في الجلد، وقد يستوعب مساحات كبيرة من الجلد.

ماذا يقول أصحاب الاختصاص اليوم وبعد مرور أكثر من ألف وأربعمائة سنة على نزول الآية في شأن من نام أكثر من أربع وعشرين ساعة على جهة واحدة بدون تحريك بسبب من الأسباب كأن يكون قد تعرض لكسور كثيرة يصعب معها تحريكه

لتفادي تراخي الجبائر وفساد الكسور مرة أخرى، أو فيمن تعرض لأضرار كثيرة نتيجة حادث أو حريق أو غيره.

يقول أهل الطب إن من الإصابات الشائعة والصعبة العلاج التي تعترض الأطباء الممارسين في المشافي هي مشكلة حدوث (الخشكريشات) أو ما تسمى بقرحة السرير عند المرضى الذين تضطربهم حالتهم للبقاء الطويل في السرير كما في كسور الحوض والعمود الفقري أو الشلل أو حالات السبات الطويل، والخشكريشات هذه عبارة عن قرحات وتموت في الجلد والأنسجة التي تحت الجلد بسبب نقص التروية الدموية عند بعض مناطق الجلد، نتيجة انضغاطها بين الأجزاء الصلبة من البدن ومكان الاضطجاع، وأكثر ما تحصل في المنطقة العجزية والإليتين وعند لوح الكتفين وكعبي القدمين.

ولا وقاية من حدوث هذه الخشكريشات سوى تقليب المريض، بحيث لا يبقى بدون تقليب أكثر من (١٢) ساعة، وقد تكون هذه هي الحكمة من تقليب الله ﷻ لأهل الكهف لوقايتهم من تلك الإصابة وإن كانت قصة أهل الكهف كلها تدخل في نطاق المعجزة.

وجه الإعجاز:

لم نعرف هذه الحقيقة العلمية عن تقليب المريض - الذي لا يستطيع تقليب نفسه - لم نعرفها إلا في القرن العشرين أو قبله بقليل، وإذا كان ذلك كذلك فمن الذي أخبر محمدًا النبي الأمي ﷺ قبل أربعة عشر قرنًا بهذه الحقيقة التي عجز عنها أهل الطب والاختصاص؟ فهل كان النبي محمد ﷺ يعلم بهذه الحقيقة؟ وهو رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب ليتفوق على علماء العصر بهذه الحقيقة؟

لا شك أن الذي أخبره بتلك الحقيقة هو الله ﷻ الذي خلق الإنسان، والذي يعلم ما يحتاجه هذا المخلوق، وأن الذي أنزلها وأنزل غيرها من الحقائق عليه ﷺ هو الله، وأن القرآن بعد ذلك حق من عند الله ﷻ، وهو كلامه الذي أنزله على عبده

ورسوله ﷺ وليس كلام بشر افتراه أو علمه بشر، ليكون لنا نورًا وبرهانًا ومنهاجًا إلى يوم القيامة، به نسترشد وعليه نعول، ومنه نستزيد بالإيمان والهدى والحق.

السحاب الركامي:

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يُجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ، عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (النور: ٤٣).

الوَدْقُ: ماء المَطَرِ. يُزْجِي سَحَابًا: يَسْوِقُهُ بِرَفْقٍ إِلَى حَيْثُ يُرِيدُ. يُجْعَلُهُ رُكَّامًا: مَجْتَمِعًا يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا. البَرْدُ: ماء جامد ينزل من السَّحَابِ قِطْعًا صَغِيرَةً شَبِهَ شَفَافَةً، وَيُسَمَّى حَبَّ الْعِغَامِ وَحَبَّ الْمِزْنِ. سَنَا بَرْقِهِ: ضَوْءُ بَرْقِهِ وَمَلْعَانُهُ.

تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ كَيْفَ يَسْوِقُ اللَّهُ تَعَالَى بِقُدْرَتِهِ السَّحَابَ بِالرَّيْحِ أَوَّلَ مَا يُنْشِئُهُ (وَهُوَ الْإِزْجَاءُ)، ثُمَّ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ بَعْدَ تَفْرِيقِهِ (وَهُوَ التَّأْلِيفُ)، ثُمَّ يُجْعَلُهُ مُتْرَاكِمًا يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَإِذَا أَثْقَلَ خَرَجَ الْمَطَرُ (الوَدْقُ) مِنْ خِلَالِهِ، وَيَكُونُ السَّحَابُ فِي هَيْئَةِ الْجِبَالِ الضَّخْمَةِ الْكَثِيفَةِ فِيهَا قِطْعُ البَرْدِ وَالثَّلْجِ الصَّغِيرَةِ، ثُمَّ وَفَقَ نِظَامَ قَدْرَهُ اللَّهُ تَعَالَى، يُوجِّهُ اللَّهُ السَّحَابَ إِلَى الْأَمَاكِنِ الَّتِي يُرِيدُ لِيُفْرَغَ مَا فِيهِ مِنْ مَاءٍ وَبَرَدٍ وَثَّلْجٍ، فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، وَيَخْرُجُ مِنْ خِلَالِ السَّحَابِ البَرَقُ الَّذِي تَكَادُ قُوَّةُ بَرِيقِهِ تَخْطَفُ الْأَبْصَارَ، وَتَذْهَبُ بِهَا. وَهَذِهِ الظَّوَاهِرُ دَلَالَةٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ الْمُوجِبَةِ لِلإِيمَانِ بِهِ.

إن هذه الآية تشير إلى جملة من الحقائق الباهرة التي لم تكتشف إلا بعد تقدم علوم الأرصاد الجوية في العصر الحديث، يقول علماء الأرصاد الجوية: إن المطر يتوقف على تكوين السحب الماطرة (المزن) ومن هذه المزن ما يسمى (المزن الركامي) وهي سحب تنمو في الاتجاه الرأسي، وقد تمتد إلى علو عشرين كيلومترا، وداخل السحب الركامية ثلاث طبقات، وهي الطبقة السفلى وقوامها نقط نامية من الماء ثم الطبقة الوسطى وتكون درجة حرارة نقط الماء فيها تحت الصفر المتوي، ومع ذلك فهي باقية

في حالة السيولة^(١)، أما الطبقة العليا فتتكون من بلورات الثلج ذات اللون الأبيض الناصع.

وجعل الله ﷻ نقط الماء فوق المبردة غير مستقرة قابلة للتجمد بمجرد ارتطامها بجسم صلب، لذا فبمجرد أن تتساقط بلورات الثلج من الطبقة العليا إلى الطبقة الوسطى وتلتقي بنقط الماء فوق المبردة تلتصق البلورات بنقط الماء وتتجمد فينمو حجمها سريعاً، وينشط عليها التكاثف فتساقط على هيئة برد: ﴿ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾.

وأثناء سقوط هذا البرد يلتقي بنقط الماء النامية فيتجمع معها، ويزداد حجم النقط كثيراً ولا يقوى الهواء على حملها فتساقط على هيئة مطر، ويزوب أغلب البرد قبل وصوله إلى سطح الأرض.

ولنمو البرد وذوبانه أهمية عظيمة في عمليات شحن السحابة بالكهربائية التي تسبب البرق والرعد، فالبرد عند ما ينمو فوق (٢) ملليمتر يُشحن بالكهربائية، وعندما يذوب يشحن أيضاً بشحنة مضادة، وفي كلتا الحالتين يحمل الهواء الصاعد شحنة كهربائية مضادة عظمى. والآية الكريمة ذكرت كلمة (رُكَّامًا) وأعقبها بكلمة (برد) وقد أثبت العلم أن هذا النوع (السحب الركامية) هي الوحيدة التي تعطي البرد.

وتشبيه الآية الكريمة هذه السحب بالجبال لا يدركه إلا من ركب الطائرة وعلت به فوق السحب أو بينها، فإنه سيدهش لدقة الوصف فإنه يجد مشهد الجبال حقاً بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها.

(١) يجمد الماء تحت الضغط العادي في درجة الصفر المتوي، أما إذا اختل الضغط الجوي الذي يقدر بـ (٧٦) سنتيمتر زئبق، فإن تجمد الماء وكذلك غليانه يختلفان، لذا تكون درجة الحرارة أقل من الصفر ولا يجمد الماء لضعف الضغط الجوي.

وأشارت الآية الكريمة إلى عِظَم القوى الكهربائية المشتركة في تكوين البرد بالنص على عِظَم برقه وشدته وبلوغه من الحرارة درجة الابيضاض، الذي يخطف بالأبصار ويصيبها بالعمى المؤقت، وأكثر من يعاني من هذه الظاهرة هم الطيارون: ﴿كَأَدُّ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾.

لقد تحدّثت هذه الآية الكريمة عن مراحل حدوث هذه الظاهرة:

المرحلة الأولى تبدأ بأن الله يزجي سحباً أي يدفع ويسوق ويجرك هذه السحب ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ وهذه السحب يدفعها الله تبارك وتعالى بالرياح، الرياح هي التي تثير هذا السحاب وتدفعه ومن ثم يجتمع ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾.

المرحلة الثانية: أن الله يؤلف بينه ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أي هنالك طبقات بعضها فوق بعض متراكمة ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾.

يقول العلماء: إن تشكُّل السحب في السماء هو المرحلة الأولى لحدوث البرد، لولا هذه السحب لم يوجد البرد، وهذه معجزة قرآنية لأن الناس في العصر الماضي لم يكن لديهم تصور أن هذا البرد له علاقة بالغيوم أو أن الله يدفع هذه الذرات من الماء المتبخر من سطح البحار ويسوقها بواسطة الرياح ويدفعها لتشكُّل الغيوم وتنزل حبات البرد، أما القرآن فقد حدثنا عن ذلك وربط بين السحاب وبين البرد.

يقول العلماء: إن أول مرحلة هي أن يتشكل لدينا كمية من السحب المتفرقة، وهذه السحب تحوي مجالات كهربائية بشكل دائم، فتكون مشحونة بشحنات سالبة وموجبة، وتقترب من بعضها حسب شحنة كل منها، دائماً نجد أن الموجب ينجذب إلى السالب وهكذا. إذاً عملية التقارب بين هذه السحب الصغيرة تتم بشكل متناسق وبشكل مُحكم وهذا ما عبّر عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾.

وفي الزمن الذي نزل فيه القرآن لم يكن أحد لديه علم عن أي شيء له علاقة بالغيوم الركامية، ولكن القرآن حدد لنا أن حبة البرد لا تتشكل إلا أن يكون هنالك سحب، وأن يتم التآلف والتجميع بين هذه السحب وأن تتراكم بعضها فوق بعض، وتشكل سحباً ركامية كثيفة.

يقولون بعد ذلك: إن هذه السحب غير صالحة لإنزال المطر أو لإنزال البرد، إنما توضع فوق بعضها لتشكيل ما يسميه العلماء السحب الركامية، يعني هي تضاهي تماماً ارتفاع الجبال، والجبال التي تتشكل من الغيوم الركامية تعطي أشكالاً تشبه الجبال قاعدته عريضة من الأسفل وفي الأعلى تجد هنالك قمماً مرتفعة.

والذي يسافر بالطائرة وينظر إلى الغيوم من تحته يلاحظ هذه القمم، ولذلك فإن القرآن قد عبّر عن ذلك بقوله: ﴿وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِجَالٍ﴾، ويقول العلماء: إن حبات البرد لا تتشكل أبداً إلا في السحب الركامية ذات الارتفاعات العالية، لذلك قال القرآن: ﴿وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِجَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ وهذا يعني أنه ليست كل الجبال (الغيوم) تحوي حبات البرد، بل هنالك أماكن محددة يتشكل فيها البرد.

يقول العلماء عن حبة البرد: تحتاج إلى آلاف الملايين من قطرات الماء الصغيرة تلتف حول نفسها بنظام مبهر حتى تتشكل حبة البرد الصغيرة، وأحياناً إذا كانت الظروف مناسبة ودرجة الحرارة مناسبة فإن هذه الذرات من بخار الماء تتجمع وتتكاثر وتلتف وتتقلب هذه الحبة وكلما تقلبت تجتمع حولها كمية أكبر من الثلج حتى تتشكل حبات برد عملاقة.

وهنا تتجلى معجزة في هذه الآية عندما يقول تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ حيث يقول العلماء ليست كل حبات البرد تسقط على الأرض، فقد تتشكل مليون حبة برد ولا يسقط منها إلا حبة واحدة أحياناً، لأن حبة البرد تتشكل في ظروف عنيفة جداً، تيارات هوائية تبلغ سرعة هذه التيارات أكثر من مائة وستين كيلو متر في الساعة، ودرجة الحرارة تنخفض إلى ما دون الصفر، وفي هذه الظروف العنيفة جداً تتشكل حبة البرد وتلتف وتتقلب حول نفسها.

فإذا كانت الظروف مواتية ودرجة الحرارة منخفضة بقيت هذه الحبة محافظة على شكلها حتى تصل إلى الأرض، وإذا كانت درجة الحرارة أعلى قليلاً فإن هذه الحبة ستذوب، وبالتالي ستتشكل حبات المطر، وتنزل على شكل حبات مطر.

البرق يرافق البرد:

يقول تعالى: ﴿ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِزَابًا فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾، والسؤال: ما هي العلاقة بين البرد وبين البرق؟ القرآن ذكر هذه العلاقة بل إنه قال: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ أي برق هذا البرد ﴿ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾، ماذا يقول العلماء عن البرق؟ إنهم يقولون بالحرف الواحد: إن البرد لا يتشكل إلا في الغيوم الرعدية التي تحدث فيها ومضات برق بشكل دائم، فلا يمكن لحبة برد أن تتشكل من دون ومضة برق. لماذا؟

لأن التفاف هذه القطيرات من الماء (آلاف الملايين من قطيرات الماء تلتف وتدور حول نفسها لتشكل حبة برد صغيرة جداً) يتطلب حقولاً كهربائية لا تتوافر إلا في بيئة البرق. والعجيب أننا إذا قطعنا هذه الحبة (حبة البرد) نصفين نلاحظ في داخلها مجموعة من الدوائر وهذه الدوائر تدل على تاريخ هذه الحبة: كيف تشكلت وكم مرة دارت بالتفصيل، لذلك فإن هذه الحبات من البرد لا تتشكل إلا إذا حدثت ومضات برق، والغيوم الرعدية الركامية هي بشكل دائم يحدث فيها هذه الضربات البرقية أو ومضات البرق هذه.

إن العلماء يربطون بين ومضات البرق وبين تشكل البرد، وهذا ما فعله القرآن عندما قال: ﴿ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِزَابًا فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ والله تبارك وتعالى لم يقل إن هذا البرق يذهب بالأبصار، بل قال ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾، لماذا؟ لأن هذا الشعاع إذا نزل على العين مباشرة غالباً يسبب العمى المؤقت ونادراً ما يذهب بالبصر بشكل كامل، لذلك قال تعالى ﴿ يَكَادُ ﴾ أي يقرب ولم يقل (يكاد البرق يذهب بالأبصار) لأن البرق إذا أصاب الإنسان

مباشرة فإنه يحترق على الفور، حيث نجد أن الإنسان الذي أصابه شعاع البرق مباشرة فإن درجة حرارته ترتفع بشكل مفاجئ من ٣٧ درجة مئوية إلى ٣٠,٠٠٠ درجة مئوية، فتصوروا هذا الرقم!!

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ (الرعد: ١٣) هذه الصاعقة تبلغ درجة حرارتها ٣٠,٠٠٠ درجة مئوية أي أكثر من حرارة سطح الشمس بخمسة أضعاف، وتحدث تيارًا كهربائيًا - نحن نعلم أننا إذا مددنا يدينا إلى تيار كهربائي ٥٠ فولت أو ١٠٠ فولت أو ٢٠٠ فولت مثلاً أو ٢٢٠ فولت فعدة ثواني كافية لقتل هذا الإنسان، فما بالنا بومضة البرق التي يبلغ فيها حجم التوتر الكهربائي ألف مليون فولت والتيار الكهربائي يصل إلى ٢٠٠ ألف أمبير، تخيلوا لو أن هذا البرق وصل إلى الإنسان مباشرة فإنه يتفحم على الفور خلال أجزاء من الثانية.

ولذلك ماذا قال تعالى؟ لم يقل (يكاد برقه يذهب بالأبصار) بل قال: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾، أي ما يصدر منه من إشعاعات، هذه الإشعاعات التي إذا نظر إليها الإنسان وكان قريباً جداً منها قد يذهب بصره، أو يصاب بالعمى المؤقت.

وتتجلى أوجه الإعجاز المتعددة في هذه الآية الكريمة إذا طرحنا بين أيدينا هذه

التساؤلات:

- من أخبر النبي محمداً ﷺ بأن أول خطوة في تكوين السحاب الركامي تكون بدفع الهواء للسحاب قليلاً قليلاً؟ ﴿يُزْجِي سَحَابًا﴾ وهذا أمر لم يعرفه العلماء إلا بعد دراسة حركة الهواء عند كل طور من أطوار نمو السحاب - وَمَنْ يَبَيِّنْ لَهُ أَنْ الْخَطْوَةَ الثَّانِيَةَ هِيَ التَّأْلِيفُ بَيْنَ قِطْعِ السَّحْبِ ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ﴾، ومن أخبره بهذا الترتيب؟
- وَمَنْ يَبَيِّنْ لَهُ أَنْ ذَلِكَ يَسْتَعْرِقُ فِتْرَةً زَمْنِيَّةً حَتَّى يَعْبرَ عَنْهُ بِلَفْظِ ﴿ثُمَّ﴾.
- ومن أخبره النبي محمداً ﷺ أن عامل الرُّكْمِ للسحاب الواحد هو العامل المؤثر بعد عملية التأليف؟

- ومن أخبره أن هذا الرُكْم يكون لنفس السحاب، وأن ذلك الانتقال من حالة التأليف يستغرق بعض الوقت ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا﴾، هذه المسائل لا يعرفها إلا مَنْ دَرَس أجزاء السحاب ورصد حركة تيارات الهواء بداخله فهل كان الرسول ﷺ يملك الأجهزة والبالونات والطائرات!
- وكذلك مَنْ الذي أخبر النبي محمدًا بأن عملية الرُكْم (الناجمة عن عملية الرفع) إذا توقفت أعقبها نزول المطر مباشرة؟ وهو أمر لا يُعْرَف إلا بدراسة ما يجري داخل السحاب من تيارات وقطرات مائية وهذا لا يقدر عليه إلا من امتلك الأجهزة والقياسات التي يحقق بها ذلك، فهل كان للنبي محمد ﷺ مثل هذه القدرة وتلك الأجهزة؟
- ومن الذي أخبر النبي محمدًا ﷺ أن في السحاب مناطق خلل وهي التي ينزل منها المطر؟ وهذا أمر لا يعرفه إلا من أحاط علما بدقائق تركيب السحاب المسخَّر بين السماء والأرض، ويحركه الهواء داخل السحاب.
- ومَنْ أخبر النبي محمدًا ﷺ بأن الشكل الجبلي وصف للسحاب الذي ينزل منه البرد؟ فهل أحصى الرسول ﷺ كل أنواع السحاب حتى تبين له هذا الوصف الذي لا بد منه لتكوين البرد؟
- ومن أنبأه عن نويات البرد التي لا بد منها في السحاب الركامي لكي يتكون البرد ﴿وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾، إن هذا السر لا يعرفه إلا مَنْ تمكَّن من مراقبة مراحل تكوين البرد داخل السحاب.
- ومن الذي أنبأه بأن للبرد برقًا وأن البرد هو السبب في حصوله؟ وأنه يكون أشد أنواع البرق ضوءًا؟ إن ذلك لا يعرفه إلا من درس الشحنات الكهربائية داخل السحاب واختلاف توزيعها ودور البرد في ذلك.

من أخبر النبي محمدًا ﷺ بكل هذه الأسرار منذ أربعة عشر قرناً؟ وهو النبي الأمي في الأمة الأمية التي لم يكن يتوفر لديها شيء من الوسائل العلمية الحديثة. لا أحد إلا الله ﷻ الذي نزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً.

الرياح لواقح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر: ٢٢). اعتقد بعض المفسرين أن المقصود بالرياح لواقح هو دور الرياح في نقل حبوب اللقاح إلى أعضاء التأنث في الأزهار ل يتم الإخصاب وتكوين الثمار، وهو دور معروف وثابت علمياً، وذهب بعض المفسرين إلى أن سياق الآية يشير إلى حقيقة أخرى أدق وهي «تلقيح السحب»؛ فالجملة التي تليها تؤيد هذا التفسير فعبارة: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو المطر تدل على أن عملية إرسال الرياح لواقح لها علاقة مباشرة بنزول المطر، واستخدام حرف العطف (ف) الذي يدل على الترتيب والتعقيب، يوحي بسرعة نزول المطر بعد إرسال الرياح لواقح، ولما لم تكن هناك أية علاقة بين تلقيح النباتات وحمل حبوب اللقاح ونزول المطر فلا بد أن يكون للآية معنى آخر.

يقول الحافظ ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ أي تلقيح السحاب فتدرّ ماء، وتلقيح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج، بخلاف الريح العقيم فإنه أفردا ووصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج؛ لأنه لا يكون إلا من شيئين فصاعداً»^(١).

وقد أشار ابن القيم إلى ذلك، حيث يقول: «ومن آياته الباهرة هَذَا الهَوَاءُ اللَّطِيفُ الْمُحْبُوسُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يَدْرِكُ بِحَسِّ اللَّمْسِ عِنْدَ هُبُوبِهِ يَدْرِكُ جِسْمَهُ وَلَا يَرَى شَخْصَهُ فَهُوَ يَجْرِي بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ مُخْتَلِفَةٌ فِيهِ سَابِحَةٌ بِأَجْنَحَتِهَا فِي

(١) تفسير ابن كثير، (٢/ ٧٢٣).

أمواجه كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه كما اضطرب أمواج البحر فإذا شاء سبحانه وتعالى حرّكه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ولا قبحاً للسحاب يلقيه بحمل الماء كما يلقي الذكر الانثى بالحمل»^(١).

وقال الشيخ السعدي: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي: وسخرنا الرياح، رياح الرحمة تلقي السحاب، كما يلقي الذكر الانثى، فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد ومواشيهم وأرضهم، ويبقى في الأرض مُدَخَّرًا لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته، ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي: لا قدرة لكم على خزنه وادخاره، ولكن الله يخزنه لكم ويسلكه ينابيع في الأرض رحمة بكم وإحسانا إليكم^(٢).

إرسال الرياح لواقح في منظور العلوم الحديثة:

كشف العلم الحديث عن عدد من أنواع التلقيح التي تتم في النبات، وقد أصبح من المقرر عند علماء النبات أن التلقيح عملية أساسية للإخصاب وتكوين البذور، حيث تنتقل حبيبات اللقاح من العناصر الذكرية للزهرة إلى العناصر الأنثوية فيها حيث يتم الإخصاب.

والتلقيح قد يكون بين العناصر الذكرية والأنثوية للزهرة الواحدة أو النبتة الواحدة، ويسمى عندئذ بـ (التلقيح الذاتي) وقد يكون بين نبتتين منفصلتين ويسمى حينئذ بـ (التلقيح المختلط).

(١) مفتاح دار السعادة، (ص ٢٠٠-٢٠١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، (ص ٤٣٠).

وتختلف طرق انتقال حبيبات اللقاح باختلاف نوع النبات، فهناك فضلاً عن التلقيح بواسطة الإنسان - كما في تأبير النخل مثلاً - ثلاثة طرق أخرى، وهي:

١- التلقيح بواسطة بعض الكائنات الحية: كالحشرات والطيور.

٢- التلقيح بواسطة المياه.

٣- التلقيح بواسطة الرياح.

إنّ للرياح دورًا هامًا في عملية نقل اللقاح في النباتات التي تفتقد الأزهار ذات الرائحة والرحيق والألوان الجاذبة للحشرات، حيث تقوم الرياح بنشر اللقاح على مسافات واسعة، فعلى سبيل المثال: تنشر الرياح لقاح الصنوبر على مسافة قد تصل إلى ٨٠٠ كيلومترًا قبل أن يلتقي اللقاح بالعناصر الأنثوية ويتم التلقيح.

ومن جملة النباتات التي تعتمد على التلقيح الريحي بشكل أساسي: الصنوبريات والقراص والحور والسنديان والقنبّ والبندق.

ومما يسهل انتشار اللقاح بواسطة الرياح، كون عناصر الزهرة الذكورية التي تتولى إنتاج اللقاح معرضة للهواء بحيث يسهل انتشار اللقاح، وكون الزهرة ما أوردت بعدد، أو كونها في أعلى الشجرة أو النبتة.

هذا بالنسبة لتلقيح الرياح للنبات، وهناك تلقيح آخر تقوم به الرياح ولكنه للسحاب، وهو أكثر مناسبة للآية الكريمة. فقد أثبت العلم الحديث أن هناك ثلاثة أنواع من التلقيح تتم في السحب:

١- تلقيح السحب الحارة بالسحب الباردة مما يزيد عملية التكاثف، وبالتالي نزول المطر.

٢- تلقيح السحب موجبة الشحنة بالسحب سالبة الشحنة، ويحدث تفرغًا وشررًا كهربائيًا، فيكون المطر مصحوبًا بالبرق والرعد وهو صوت تمدد الهواء الناجم عن التفرغ.

٣- التلقيح الثالث وهو أهم أنواع التلقيح جميعاً، وهو أن الرياح تلقح السحاب بما ينزل بسببه المطر، إذ أن نُويَّات التكاثف وهي النُويَّات التي يتجمع عليها جزيئات بخار الماء لتكون نقطاً من الماء نامية داخل السحب، هي المكونات الأولى من المطر تحملها الرياح، إلى مناطق إثارة السحب، وقوام هذه النويات هو أملاح البحار، وما تذرره الرياح من سطح الأرض، والأكاسيد والأتربة كلها لازمة للإمطار، أي أن الرياح عامل أساسي في تكوين السحب، وتلقيحها ونزول المطر.

والسحاب نوعان: نوع ممطر، ونوع غير ممطر، والفرق بين السحابة التي تمطر والسحابة التي لا تمطر هو: أن الأولى لها مدد مستمر من بخار الماء، ونوى التكاثف بواسطة الرياح أو الهواء الصاعد، أما الثانية فليس لها أي مدد. ومن هنا تكون (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هي فاء السببية، أي نَجَمَ عن هذا التلقيح نزول المطر.

وجه الإعجاز:

أشار القرآن الكريم إلى وظيفة هامة تقوم بها الرياح، هذه الوظيفة هي عملية التلقيح، يقول تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر: ٢٢). فتقوم الرياح بالتلقيح الريحي للنباتات، وكشف العلم عن نوع آخر من التلقيح هو تلقيح السحاب، فالرياح بمشيئة الله تعالى تثير السحاب بتزويد الهواء بالرطوبة اللازمة، وإن إرسال الرياح بنوى التكثف المختلفة يعين بخار الماء الذي بالسحاب على التكثف، كما يعين قطيرات الماء المتكثفة في السحاب على مزيد من النمو حتى تصل إلى الكتلة التي تسمح لها بالنزول مطراً أو ثلجاً أو برداً بإذن الله، كما أن الرياح تدفع بهذه المزن الممطرة بإذن الله تعالى إلى حيث يشاء.

وهذه حقائق لم يدركها الإنسان إلا في أوائل القرن العشرين، وورودها في كتاب الله بهذه الدقة والوضوح والكمال العلمي مما يقطع بأن مصدرها الرئيسي هو الله الخالق العليم ﷻ، ويجزم بأن القرآن الكريم هو كلامه ﷻ، كما يجزم بالنبوة والرسالة لهذا الرسول الخاتم ﷺ، فلم يكن لأحد من الخلق أدنى إمام بدور الرياح في حمل دقائق

المادة إلى السحاب حتى تعين على تكثف هذا البخار، فينزل بإرادة الله مطراً، في زمن تنزل الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده.

تسكين المياه في الأرض:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (المؤمنون: ١٨).

لقد كان القدماء يعتقدون أن باطن الأرض هو المصدر الوحيد لكل المياه التي تجري فوق سطحها، ولقد ظل هذا الاعتقاد راسخاً في أذهان العلماء إلى عهد ليس ببعيد. ولقد ورد في كتاب "قواعد الجيولوجيا العامة والتطبيقية" (١٩٧٢م) صفحة ٣٢١ أن العالم الهولندي "أثناسيوس كيرشر" كتب في سنة ١٦٦٥م في كتابه (عالم ما تحت الأرض) يقول إن جميع الأنهار والجداول تنبع من بحيرات ومستودعات مائية شاسعة تحت الأرض.

ولكن "كيرشر" لمس شيئاً عجبياً وهو أنه بالرغم من جريان الأنهار بشكل مستمر وتدفقها في المحيط فإنه لا يمتلئ أو يفيض! ولذلك فقد اقترح أن هذه البحيرات والمستودعات الباطنية لا بد وأنها تستمد معينها من ماء المحيط نفسه، ولم يفسر هذا الاقتراح كيفية ارتفاع المياه عن مستوى البحر إلى أماكن انبثاقها في أعالي الجبال، وكيف تتخلص مياه البحار والمحيطات من ملوحتها، وتتخزن في باطنها، ثم تتفجر ينابيع وجداول وأنهاراً.

لقد ظلت مثل هذه المشكلات ألغازاً حتى أواخر القرن السابع عشر خاصة عندما بدأ العلماء والمفكرون يفطنون إلى أن دورة الماء من المحيط إلى الأنهار لم تكن في باطن الأرض، ولقد ورد أيضاً في كتاب "قواعد الجيولوجيا العامة والتطبيقية" (١٩٧٢م) أن العالم "هالي" أثبت أن دورة المياه تكون خلال الجو عن طريق تبخر مياه البحار والمحيطات ثم سقوطها أمطاراً.

ومن الجدير بالذكر أن مياه الأمطار الساقطة على الأرض تتوزع كما يلي:

1 - جزء يتبخر مباشرة ويعود إلى الغلاف الجوي.

2 - جزء يجري على السطح وتتكون منه الأنهار والجداول ويسمى الماء المنطلق.

3 - جزء يدخل إلى التربة ويتسرب منها إلى الصخور التي تحتها ويسمى الماء المتخلل والذي يتخلل إلى مستودعات المياه الجوفية.

والحقيقة التي تتضح جلية أن هذه النظرية العلمية التي أثبتت أن مصدر المياه الجوفية من الأمطار لم تكن بجديدة في كتاب الله ﷻ حين أشار إلى ذلك منذ مئات السنين بقوله ﷻ: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٨). وأيضا قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر: ٢١).

ولم تكن دورة المياه الجوفية معروفة منذ عهد "أفلاطون" - الذي افترض أن الرياح هي التي تقوم بدفع المياه إلى باطن القارات لتعود إلى المحيطات من جديد - وحتى اكتشافها في القرن السادس عشر لتحل محل النظريات البالية وذلك على يد "برنارد بليسي".

وفي الواقع إن "برنارد بليسي" لم يأت بجديد فلقد أشار القرآن الكريم إلى حقيقة دورة المياه الجوفية منذ مئات السنين والتي تتم خلال عمليات تشرب التربة المسامية بالمياه، ثم تتسرب منها إلى باطن الأرض، وهو ما ينطبق تماما على التعبير القرآني: ﴿ فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (الزمر: ٢١).

مما سبق يتضح أنه من نعم الله علينا أنه قام بتسكين المياه في مستودعاتها تحت الأرض وذلك من أجل الإنسان وحياته، والسؤال الذي يفرض نفسه علينا الآن: هل من الممكن أن يهرب الماء من مسكنه؟ الإجابة بنعم إذا أراد الله ﷻ ذلك وتظهر كذلك الإجابة واضحة جلية وذلك في نفس الآية السابق ذكرها، حيث قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٨).

حقاً لقد أتى التهديد من الله ﷻ على إمكانية زوال نعمة تسكين الماء وهروبه من مستودعه تحت الأرض، ومن تمام نعم الله علينا أنه تولى بقدرته القيام بتهيئة المستودعات من أجل تسكين المياه في أماكنها، ولولا رحمته بعباده لجعل المياه العذبة المسكنة مياه مالحة غير صالح للاستخدام ولا ينتفع بها الإنسان والحيوان والنبات، كما بين ذلك في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٠). ولو شاء الله كذلك لأزال كل العوامل التي تؤدي إلى تسكين المياه مما يؤدي إلى هروب الماء في باطن الأرض، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (المُلْك: ٣٠).

إنه منهج علمي دقيق يبين لنا مصادر المياه الجوفية وتسكينها تحت الأرض وكيفية حركتها لتكوين الينابيع والجداول والأنهار، وكل هذه الحقائق العلمية التي أمكن التوصل إليها وإدراكها والتي تصير في غاية الدقة والتقدير، فلقد سبق القرآن الكريم بإقرارها قبل أربعة عشر قرناً أو يزيد، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدرًا لتلك الإشارة القرآنية الباهرة غير الله الخالق تبارك وتعالى.

فسبحان خالق الكون الذي أبدعه بعلمه وحكمته وقدرته، ولتبقى هذه الومضة القرآنية الباهرة مع غيرها من الآيات القرآنية، شهادة صدق بأن القرآن الكريم كلام الله، وأن نبينا محمداً ﷺ كان موصولاً بالوحي معلماً من قبل خالق السماوات والأرض، وأن القرآن الكريم هو معجزته الخالدة إلى قيام الساعة.

الْبَحْرُ الْمَسْجُورُ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكُنْتِ مَسْطُورٍ ٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْ قَعٌ ٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨﴾ (الطور: ١ - ٨).

من المعاني اللغوية للبحر المسجور هو المملوء بالماء والمكفوف عن اليابسة، وهو معنى صحيح من الناحية العلمية صحة كاملة كما أثبتته الدراسات العلمية في القرن العشرين، ومن المعاني اللغوية لهذا القسم القرآني المبهر أيضا يعني أن البحر قد أوقد عليه

حتى حمي قاعه فأصبح مسجورًا، وهو كذلك من الحقائق العلمية التي اكتشفها الإنسان في العقود المتأخرة من القرن العشرين، والتي لم يكن لبشر إمام بها قبل ذلك أبداً.

أولاً: البحر المسجور بمعنى المملوء بالماء والمكفوف عن اليابسة:

الأرض هي أغنى كواكب المجموعة الشمسية بالماء الذي تقدر كميته بحوالي ١٣٦٠ إلى ١٣٨٥ مليون كيلو متراً مكعباً، وهذا الماء قد أخرجه ربنا ﷻ كله من داخل الأرض على هيئة بخار ماء اندفع من فوهات البراكين، وعبر صدوع الأرض العميقة ليلاقى الطبقات العليا الباردة من نطاق التغيرات الجوية، والذي يمتد من سطح البحر إلى ارتفاع حوالي ستة عشر كيلو متراً فوق خط الاستواء، وحوالي عشرة كيلو مترات فوق قطبي الأرض.

وتنخفض درجة الحرارة في هذا النطاق باستمرار مع الارتفاع حتى تصل إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر في قمته فوق خط الاستواء، وهذا النطاق يحوي حوالي ثلثي كتلة الغلاف الغازي للأرض ٦٦٪ والمقدرة بأكثر قليلاً من خمسة آلاف مليون مليون طن، وهو النطاق الذي يتكثف فيه بخار الماء الصاعد من الأرض، والذي تتكون فيه السحب، وينزل منه كل من المطر والبرد والثلج، وتتم فيه ظواهر الرعد والبرق، وتتكون العواصف والدوامات الهوائية وغير ذلك من الظواهر الجوية.

ولولا تبرّد هذا النطاق مع الارتفاع ما عاد إلينا بخار الماء الصاعد من الأرض أبداً، وحينها عاد إلينا بخار الماء مطراً وثلجاً وبرداً انحدر على سطح الأرض؛ ليشق له عدداً من المجاري المائية، ثم فاض إلى منخفضات الأرض الواسعة؛ ليكون البحار والمحيطات، وبتكرار عملية التبخر من أسطح تلك البحار والمحيطات ومن أسطح اليابسة بما عليها من مختلف صور التجمعات المائية والكائنات الحية بدأت دورة الماء حول الأرض من أجل التنقية المستمرة لهذا الماء، وتلطيف الجو وتفتيت الصخور وتسوية سطح الأرض وتكوين التربة وتركيز عدد من الثروات المعدنية.

وغير ذلك من المهام التي أوكلها الخالق لتلك الدورة المعجزة التي تحمل ٢٨٠ ألف كيلو متراً مكعباً من ماء الأرض إلى غلافها الجوي سنوياً؛ لتردها إلى الأرض ماء

طهوراً منها ٢٣٠ ألف كيلو مترا مكعبا تتبخر من أسطح البحار والمحيطات ٦٠ ألف كيلو مترا مكعباً من أسطح اليابسة يعود منها ٢٣٨ ألف كيلو مترا مكعباً إلى البحار والمحيطات، و٩٦ ألف كيلو مترا مكعباً إلى اليابسة التي يفيض منها، و٣٦ ألف كيلو مترا مكعباً من الماء إلى البحار والمحيطات، وهو نفس مقدار الفارق بين التبخر من البحار والمحيطات والمطر.

هذه الدورة المحكّمة للماء حول الأرض أدت إلى خزن أغلب ماء الأرض في بحارها ومحيطاتها (حوالي ٠٢, ٩٧) وإبقاء أقله على اليابسة، وبهذه الدورة للماء حول الأرض تملح ماء البحار والمحيطات، وبقيت نسبة ضئيلة من مجموع ماء الأرض على هيئة ماء عذب على اليابسة، وحتى هذه النسبة الضئيلة من ماء الأرض العذب قد حبس أغلبها على هيئة سُمك هائل من الجليد فوق قطبي الأرض وفي قمم الجبال، والباقي مخزن في الطبقات المسامية والمنتجة من صخور القشرة الأرضية على هيئة ماء تحت سطحه، وفي بحيرات الماء العذب والأنهار والجداول، وعلى هيئة رطوبة في تربة الأرض، والباقي يتوزع بين حجرات الماء العذب ورطوبة الغلاف الغازي للأرض.

وتوزيع ماء الأرض بهذه النسب التي اقتضتها حكمة الله الخالق ﷻ قد تم بدقة بالغة بين البيئات المختلفة بالقدر الكافي لمتطلبات الحياة في كل بيئة من تلك البيئات، وبالأقدار الموزونة التي لو اختلفت قليلاً بزيادة أو نقص لغمرت الأرض وغطت سطحها بالكامل أو انحسرت تاركة مساحات هائلة من اليابسة، ولقصرت دون متطلبات الحياة عليها.

ومن هذا القبيل يحسب العلماء أن الجليد المتجمع فوق قطبي الأرض وفي قمم الجبال المرتفعة فوق سطحها إذا انصهر، وهذا لا يحتاج إلا إلى مجرد الارتفاع في درجة حرارة صيف تلك المناطق بحوالي خمس درجات مئوية، وإذا حدث ذلك فإن كمّ الماء الناتج سوف يؤدي إلى رفع منسوب الماء في البحار والمحيطات إلى أكثر من مائة متر فيغرق أغلب المناطق الآهلة بالسكان، والممتدة حول شواطئ تلك البحار والمحيطات إلى عمق لا يكاد يتجاوز الخمسمائة كيلو مترا في أغلب الأحيان.

وليس هذا من قبيل الخيال العلمي؛ فقد مرت بالأرض فترات كانت مياه البحار فيها أكثر غمراً لليابسة من حدود شواطئها الحالية.

كما مرت فترات أخرى كان منسوب الماء في البحار والمحيطات أكثر انخفاضاً من منسوبها الحالي؛ مما أدى إلى انحصار مساحة البحار والمحيطات وزيادة مساحة اليابسة، والضابط في الحالين كان كمّ الجليد المتجمع فوق قطبي الأرض، وفي قمم الجبال، وفوق بعض الأجزاء الأخرى من اليابسة؛ فكلما زاد كمّ الجليد انخفض منسوب الماء في البحار والمحيطات؛ فانحصرت عن اليابسة التي تزيد مساحتها زيادة ملحوظة، وكلما قل كمّ الجليد ارتفع منسوب المياه في البحار والمحيطات وطغت على اليابسة التي تتضاءل مساحتها تضاهلاً ملحوظاً.

من هنا كان تفسير القسم القرآني بـ ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ بأن الله تعالى يمن علينا، وهو صاحب الفضل والمنة بأنه ملاً منخفضات الأرض بماء البحار والمحيطات، وحجز هذا الماء عن مزيد من الطغيان على اليابسة؛ وذلك بحبس كميات من هذا الماء في هيئات متعددة؛ أهمها ذلك السّمك الهائل من الجليد المتجمع فوق قطبي الأرض، وعلى قمم الجبال، والذي يصل إلى أربعة كيلو مترات في قطب الأرض الجنوبي، وإلى ثلاثة آلاف وثمانمائة من الأمتار في القطب الشمالي.

ولولا ذلك لغطّى ماء الأرض أغلب سطحها، ولما بقيت مساحة كافية من اليابسة للحياة بمختلف أشكالها الإنسانية والحيوانية والنباتية، وهي إحدى آيات الله البالغة في الأرض، وذلك من أجل إعدادها لتكون صالحة للعرمان. من هنا كان تفسير القسم ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ بمعنى المملوء بالماء المكفوف عن اليابسة ينطبق مع عدد من الحقائق العلمية الثابتة التي تشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، وتشهد لنبينا محمد بن عبد الله ﷺ بالنبوة وبالرسالة.

ثانياً: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ بمعنى القائم على قاع أحمته الصهارة الصخرية المندفعة من داخل الأرض؛ فجعلته شديد الحرارة:

وقد كشف علم البحار بعد الحرب العالمية الثانية أن بقيعان المحيطات والبحار شبكة هائلة من الصدوع تتركز عند مرتفعات وسط المحيط حيث يندفع منها اللافا البازلتية في درجات حرارة عالية تصل إلى ألف درجة مئوية فتظهر كأنها كتل من النيران الهائلة تحت سطح الماء حيث إن الماء لا يستطيع أن يطفئ جذوتها ولا الحرارة على شدتها تستطيع أن تبخر الماء لكثرتة.

وتلك الظاهرة تُلَازِم البحار منذ نشأتها حيث يبدأ تكوين بحر بخسف الأرض ثم اتساع ذلك الخسف وهبوط الكتل الصخرية وتكوين وادى صدعى ثم هبوط مرة أخرى إلى أن تخرج اللافا من الوادى المخسوف الذي يتحول إلى غور عميق.

ووجه الإعجاز هنا يظهر من قسم ربنا ﷻ بهذا القسم الذي هز العرب آنذاك حين تنزل الوحي وأدهشهم بينما هز علماء البحار حين ركبوا الغواصات ونزلوا إلى أعماق المحيطات ووجدوا أن قيعان المحيطات أغلبها مسجرة بالنار أى إن النار أوقدت تحت الماء حيث تندفع الحمم البركانية الحمراء عبر الصدوع وهى مشتعلة دون لهب مباشر مثل التنور أى الفرن المشتعل وهذا ما يفيد معنى مسجور.

ويعجب الإنسان لهذا النبى الأمي ﷺ من أين له هذه الدقة العلمية في نشأة البحار آنذاك لو لم يكن ينزل عليه وحى السماء الذي علمه كل شيء.

الإعجاز في الجبال:

الجبال من الأشياء العظيمة التي تبهر الناظر إليها، ولا عجب أن تحقد الأبصار نحوها ولو لعدة ساعات لما أودع الله فيها من العجائب والغرائب وما وهبها الله من الجمال الرباني الذي لا تصنعه يد المخلوقين ولا تصاميم المهندسين، وهي من الأسباب الرئيسية لإمداد الأنهار بالمياه العذبة، وهي للفقراء مأوى وبيوت، وهي مصدر عظيم لأنواع شتى من المعادن كالماس والكبريت وغيرها.

وقد ورد لفظ الجبال في القرآن ثلاثين مرة وضمن كل تلك الآيات وردت آيات فيها ألفاظ مصاحبة للجبال تعبر عن معاني جديدة، وهي كما يلي:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا﴾ (النبا: ٧)، إن الله تعالى أطلق على الجبال صفة الأوتاد. والوتد والعمود اسمان يدلان على معنى واحد وهو ما كان جزء منه في الأرض وباقيه في السماء، أو بتعبير آخر الوتد يكون منه جزء ظاهر على سطح الأرض، ومعظمه غائر فيها، ووظيفته التثبيت لغيره.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾ (النازعات: ٣٢) وقد ورد لفظ "الرسو" في القرآن بصيغة الجمع (رواسي) في عدة مواضع منها: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد: ٣) أي جبالا ثوابت لأن واحدها راسية لأن الأرض ترسو بها أي تثبت والإرساء الثبوت، وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ (الحجر: ١٩) أي جبالا ثابتة لئلا تتحرك بأهلها، ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٥) أي لئلا تميد، أو كراهية أن تميد، والميد: الاضطراب يمينا وشمالا، يقال: ماد الشيء أي تحرك، ومادت الأغصان أي تمايلت.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۗ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۗ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۗ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۗ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۗ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۗ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۗ فِعَذْبَةُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ۗ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۗ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (الغاشية: ١٧-٢٦).

الجبال من منظور علمي:

يعرّف علماء الجغرافيا والجيولوجيا الجبل بأنه: كتلة من الأرض تبرز فوق ما يحيط بها، وهو أعلى من التل. وجميع التعريفات الحالية للجبال تنحصر في الشكل

الخارجي لهذه التضاريس، دون أدنى إشارة لامتداداتها تحت السطح، والتي ثبت أخيراً أنها تزيد على الارتفاع الظاهر بعدة مرات.

ولم تُكتشف هذه الحقيقة إلا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر عندما تقدم "السيرجورج إيرى" بنظرية مفادها أن القشرة الأرضية لا تمثل أساساً مناسباً للجبال التي تعلوها، وافترض أن القشرة الأرضية وما عليها من جبال لا تمثل إلا جزءاً طافياً على بحر من الصخور الكثيفة المرنة، وبالتالي فلا بد أن يكون للجبال جذور ممتدة داخل تلك المنطقة العالية الكثافة لضمان ثباتها واستقرارها.

وقد أصبحت نظرية "إيرى" حقيقة ملموسة مع تقدم المعرفة بتركيب الأرض الداخلي عن طريق القياسات الزلزالية، فقد أصبح معلوماً على وجه القطع أن للجبال جذوراً مغروسة في الأعماق، ويمكن أن تصل إلى ما يعادل ١٥ مرة من ارتفاعاتها فوق سطح الأرض، وأن للجبال دوراً كبيراً في إيقاف الحركة الأفقية الفجائية لصفائح طبقة الأرض الصخرية.

والجبال أوتاد بالنسبة لسطح الأرض، فكما يختفي معظم الوتد في الأرض للثبيت، كذلك يختفي معظم الجبل في الأرض لتثبيت قشرة الأرض. وكما تثبت السفن بمراسيها التي تغوص في ماء سائل، فكذلك تثبت قشرة الأرض بمراسيها الجبلية التي تمتد جذورها في طبقة لزجة نصف سائلة تطفو عليها القشرة الأرضية.

وجه الإعجاز:

إن من ينظر إلى الجبال على سطح الأرض لا يرى لها شكلاً يشبه الوتد أو المرساة، وإنما يراها كتلاً بارزة ترتفع فوق سطح الأرض، كما عرّفها الجغرافيون والجيولوجيون.

ولا يمكن لأحد أن يعرف شكلها الوتدي، أو الذي يشبه المرساة إلا إذا عرف جزءها الغائر في الصهير البركاني، وكان من المستحيل لأحد من البشر أن يتصور شيئاً من ذلك من قبل حتى ظهرت نظرية "سير جورج إيرى" عام ١٨٥٥م أي بعد حوالي ثلاثة عشر قرناً من نزول الوحي على نبينا محمد ﷺ.

فمن أخبر النبي محمدًا ﷺ بهذه الحقيقة الغائبة في باطن القشرة الأرضية وما تحتها على أعماق بعيدة تصل إلى عشرات الكيلومترات، قبل معرفة الناس لها؟ ومن أخبر النبي محمدًا ﷺ بوظيفة الجبال، وأنها تقوم بعمل الأوتاد والمراسي، وهي الحقيقة التي لم يعرفها الإنسان إلا بعد عام ١٩٦٠م؟.

إعجاز تكوين اللبن:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّئَلَّا تُكْفِرُوا بِمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (النحل: ٦٦).

تفسير الآية:

وَإِنَّ لَكُمْ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ، فِي الْأَنْعَامِ لآيَةً وَعِبْرَةً، وَدَلَالَةً عَلَى حِكْمَةِ الْخَالِقِ، وَرَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ بَعْبَادِهِ. فَهُوَ تَعَالَى يَسْقِي النَّاسَ مِمَّا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ لَبَنًا خَالِصًا صَائِغًا، طَيِّبَ الْمَذَاقِ وَالطَّعْمِ، لَا يَغْضُ بِهِ شَارِبٌ، وَلَا تَشْمِزُ مِنْهُ نَفْسُهُ (سَائِغًا)، بَعْدَ أَنْ يَتَحَوَّلَ طَعَامُ الْحَيَوَانَ فِي بَطْنِهِ إِلَى دَمٍ وَلَبَنٍ وَفَضَلَاتٍ (فَرْثٍ)، فَيَجْرِي كُلُّ إِلَى مَوْضِعِهِ خَالِصًا لَا يَشُوبُهُ الْآخَرُ وَلَا يُخَالِطُهُ، وَلَا يُؤَثِّرُ عَلَيْهِ.

مراحل تكون اللبن:

اللبن يبدأ تكوينه من المواد الغذائية التي تتغذى عليها إناث الثدييات، بعد أن يتم هضم الطعام وامتصاصه ووصوله إلى الكبد عبر الأوعية الدموية ومن ثم إلى خلايا الضرع أو الثدي وقنواته ليفرز اللبن الخالص من كل الشوائب في قنوات الضرع.

بعد أن اكتشف الإنسان أسرار الهضم ومراحله ووظائف أعضاء الجهاز الهضمي والدورة الدموية ووظيفة القلب والأوعية الدموية، وسيرها في الجسم وعلاقتها بالجهاز الهضمي وسائر أجزاء الجسم بما فيها ضرع اللبن والغدد اللبينية في الأنعام، تمكّن الإنسان من معرفة طريقة تكوّن اللبن من الغذاء الذي تأكله الأنعام.

ويتم تكوين اللبن في الأنعام بالتنسيق المحكم والتدرج الدقيق بين الجهاز الهضمي والجهاز الدوري والجهاز التناسلي عن طريق الغدد اللبينية في الضروع وغيرها

من الأجهزة حيث جعل الله ﷻ لكل جهازٍ وظيفةً وأعمالاً خاصة يقوم بها ليتكون - في نهاية المطاف - اللبن الخالص السائغ للشاربين.

وقد أشار القرآن الكريم إلى إنتاج اللبن وإخراجه بقدرته جل شأنه من بين فرث ودم "لبناً" خالصاً سائغاً للشاربين، يجزيء الأصحاء ويكفيهم، ويقوي المرضى ويشفيهم وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَتُنْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (النحل: ٦٦). فالغدد اللبنية هي التي تفرز اللبن، ولكن الكثير من مكوناته يأتي من أنسجة أخرى من الجسم وخاصة الدم والأمعاء.

والعلم الحديث قد كشف لنا أن مراحل تكوين اللبن كالآتي:

● تبدأ بعملية الهضم والتي تبدأ بمضغ الطعام وخلطها باللعاب ثم تنتقل بعد ذلك إلى المعدة الحيوان المركبة حيث يتم الهضم الميكانيكي والميكروبي والكيماوي للغذاء وفي الحيوانات المُجترّة يتم اجترار الكتلة الغذائية (١) وبعد إتمام الهضم تكون الكتلة الغذائية قد تحولت إلى فرث.

● تقوم الخملات في الأمعاء الدقيقة بامتصاص المواد الغذائية المحللة بعدة طرق، وتصل هذه المواد إلى داخل الأوعية الدموية الصغيرة الواقعة تحت النسيج الطلائي، ومنها إلى الأوعية الدموية الأكبر، فتدخل في تيار الدورة الدموية.

● الاستخلاص من بين الدم: يقوم الدم بتوزيع المواد الغذائية إلى جميع أجزاء الجسم ومنها إلى الضرع، وتقوم خلايا الضرع بامتصاص مكونات اللبن من الدم.

وبذلك يتضح أن معظم مكونات اللبن تأتي إما من الفرث، أو من الدم، أو من كليهما معا وذلك بعد تصفية وتنقية هذه المكونات لكي يخرج "لبناً خالصاً" نقياً خالياً

(١) المُجترّات: حيوانات من أكلة العشب، تُعيد مضغ طعامها المخترن في تجويف مُعيّن من معدتها أثناء راحتها، تُنسب إليها فصائل كثيرة منها الإبلية والغنمية والبقرية. اجترّ البعير ونحوه: أعاد الأكل من بطنه إلى فمه ليمضغه ثانية ثم يبلعه.

من العناصر غير الضرورية، ليس هذا فحسب ولكن "سائغاً" طيب المذاق مستساغ الطعم.

تصنيع اللبن في الضرع:

والضرع مدينة صناعية يتكون من فصوص، وكل فص يتكون من عدد من الفُصِيصَات، وكل فصيص يحتوي ما بين ١٥٠-٢٢٠ حويصلة مجهرية، والحويصلة المجهرية عبارة عن تركيب يشبه الكيس حيث يُصنع اللبن ويُفَرَز. وكل حويصلة تُعدّ وحدة صناعية مستقلة متكونة من تجويف لجمع اللبن محاط بطبقة واحدة من الخلايا الطلائية (الظهارية)، وكل خلية في هذه الوحدة الصناعية وحدة متكاملة قائمة بذاتها تحوّل ما بداخل جوفها من مواد أولية قادمة من الدم إلى قطيرة لبن تفرز في ذلك التجويف.

إن الخلية الطلائية (الظهارية) اللبنية هي التي يجعل الله داخلها جميع عمليات تصنيع اللبن بمكوناته المختلفة، فتصل المكونات الأساسية للبن إلى الغشاء القاعدي للخلية اللبنية، فيأخذ كل مكون طريقه عبرها ليصل إلى القسم المناسب داخل الخلية حيث تجري عليه العمليات التي قدرها الله ﷻ، فيخرج من الجهة العليا للخلية مادة جديدة تشكل مع المواد الأخرى الناتجة لبناً سائغاً للشاربين.

وكل خلية من هذه الخلايا إنما هي مصنع يقوم بعمليات غاية في الدقة والتعقيد. ومهما أتى الإنسان من تكنولوجيا فإنه لن يستطيع أن يصنع قطرة واحدة من اللبن. فهذه الخلايا المتناهية الدقة تقوم بعمليات الترشيح والانتقاء الفسيولوجي للعناصر وتصنيع المواد غير الموجودة، كل ذلك بنسب محددة ومقننة تختلف من حيوان ثديي إلى آخر؛ حيث إن المولى ﷻ قد جعل لبن كل نوع من الثدييات مناسباً تماماً لنمو صغاره، فلبن المرأة أقل لبن الثدييات في نسبة كل من البروتين والدهون، وأكثرها في نسبة السكريات وذلك يناسب الطفل تماماً ويكون مناسباً لنمو أعضائه المختلفة نمواً سليماً. وعلى ذلك نجد أن هناك اختلافاً في تركيب ألبان الثدييات المختلفة.

وتعتبر عملية إدرار اللبن استجابة لفم الرضيع من أعقد العمليات والتي تتناسق فيها جهود أجهزة الجهاز العصبي وإفرازات الغدد الصماء والتي تُظهر بجلاء مدى الإعجاز والإبداع وطلاقة القدرة الإلهية فسبحان الذي أتقن كل شيء خلقه. وتتجلى القدرة الإلهية فيما فَطَرَ عليه المولى ﷺ المولود من التقامه لحلمات ثدي أمه ومَصَّه وما يصاحبها من رد فعل من شأنها إدرار اللبن من الثدي.

فسبحان الله العظيم الذي وفر للمولود لبنا خالصًا سائغًا مثاليًا للطفل الرضيع حَصَّه المولى ﷺ بالكثير من الخصائص والمزايا والتي يكشف لنا العلم عنها وعن أهمية الرضاعة الطبيعية لكل من المولود والأم وعن احتوائه على بعض المواد المناعية التي تقي الرضيع من العديد من الأمراض بإذن الله ﷻ.

وجه الإعجاز:

ما كان أحدٌ يعلم قبل اكتشاف أجهزة التشريح في القرنين الماضيين أسرار ما يجري في الجهاز الهضمي عند الحيوان والإنسان ووظائف ذلك الجهاز المعقد وعلاقته بالدورة الدموية ومراحل تكوّن اللبن في بطون الأنعام.

فلما تكاملت صناعة الأجهزة والتجارب العلمية عبر قرون عرف الإنسان أن مكونات اللبن تُستخلص بعد هضم الطعام من بين الفرث، وتجري مع مجرى الدم لتصل إلى الغدد اللبنية في ضروع الإناث التي تقوم باستخلاص مكونات اللبن من بين الدم دون أن يبقى أي آثار في اللبن من الفرث أو الدم، وتضاف إليه في حويصلات اللبن مادة سكر اللبن التي تجعله سائغًا للشاربين.

هذه الأسرار كانت محجوبة عن البشر، فلم يكتشفوها إلا بعد رحلة طويلة من التجارب والبحوث العلمية التي استغرقت قرونًا واستُعملت فيها أجهزة صُنعت لأول مرة على أيدي الباحثين إذ لم يكن لها وجود عند البشر قبل ذلك.

ولكن القرآن الكريم كشفها بأجمل عبارة وأوجز لفظ قبل ألف وأربعمائة عام، فمن علّم النبي محمدًا ﷺ من بين سائر البشر في ذلك الزمن أسرار الجهاز الهضمي والجهاز الدوري ودقائق ما يجري في غدد اللبن إلا الذي يعلم السر في الأرض والسماء،

ويعلم أسرار ما خلق من الكائنات؟ فيكون ذلك شاهداً على أن القرآن الكريم نزل بعلم الله ﷻ وأن محمداً رسول الله ﷺ.

الإعجاز العلمي في قوله تعالى:

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥)

من نعم الله تعالى علينا - ونعمه لا تعد ولا تحصى - إنزال المطر، وتَعْظُم هذه النعمة عندما يشتد القحط وتجف التربة، فإذا نزل المطر صاحب ذلك النزول ظواهر عديدة، ومن هذه الظواهر التي تحصل في التربة الاهتزاز الذي يحصل لحبيبات التربة ومن ثم الانتفاخ.

وقد أصبحت هاتان الظاهرتان أمراً معروفاً لا خلاف فيه بين العلماء اليوم، ولكنها كانت أمراً يستحيل معرفته قبل توفر الوسائل العلمية الحديثة، ولكننا نجد القرآن الكريم قد ذكر هاتين الظاهرتين قبل وقت طويل جداً، وفي وقت خلا من أبسط العلوم والوسائل التي يمكن أن ترشد إلى ذلك، ولا يمكن أن يكون هذا الإخبار إلا من عند الخالق سبحانه وتعالى.

جاء الإخبار عن اهتزاز التربة بنزول المطر ومن ثم رُبُّوها في آيتين كريمتين، حيث جاء هذا السياق للاستدلال على بعث الناس والإحياء بعد الموت بإحياء الأرض الميتة، فالذي أحيا الأرض الميتة بإنزال الغيث عليها من السماء، قادر على إحياء الموتى في يوم القيامة، وقد تكرر الاستدلال على بعث الناس وإحيائهم بإحياء الأرض الميتة وذلك في أكثر من موطن في كتاب الله ﷻ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِينَ أَحْيَاهَا لَمَجِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت: ٣٩).

فالآية الأولى وصفت الأرض بالهمود، والآية الثانية وصفت الأرض بالخشوع، فالأرض الهامدة هي التي لا نبات فيها، وبنفس معنى الأرض الهامدة جاء معنى

الأرض الخاشعة، فالأرض إذا بَيست ولم تُمطرَ قيل قد خَشَعَت، والعرب تقول رأينا أرض بني فلان خاشعةً هامدة ما فيها خَصْراء. فالأرض الهامدة والأرض الخاشعة بمعنى واحد، وهو يبس الأرض وجفافها، لانقطاع الماء عنها.

وأشارت الآيتين إلى أن الأرض الهامدة أو الخاشعة إذا نزل بها الغيث من السماء فإنه يحصل لها عملية اهتزاز ورُّبُوٍّ، والاهتزاز في لغة العرب يأتي بمعنى الحركة والتحرك، ومعنى الرُّبُوُّ هو من ربا أي نما وزاد، ورَبَّتْ أي انتفخت وعلت.

العلم الحديث يكشف عن اهتزاز التربة وربوها:

تردُّ لفظة الأرض في القرآن الكريم بثلاثة معانٍ محددة تُفهم من سياق الآية القرآنية، وهي إما الكوكب ككل، أو الغلاف الصخري المكوّن لكتل القارات التي نحيا عليها، أو قطاع التربة الذي يغطي صخور ذلك الغلاف الصخري للأرض. والمقصود بالأرض في النص القرآني الذي نتعامل معه هو قطاع التربة الذي يحمل الكساء الخضري للأرض والذي يهتز ويربو بسقوط الماء عليه.

وتتكون التربة الأرضية أساسًا من معادن الصلصال، والرمل، وأكاسيد الحديد، وكربونات كل من الكالسيوم والمغنسيوم. وبالإضافة إلى التركيب الكيميائي والمعدني لتربة الأرض فإن حجم حبيباتها ونسيجها الداخلي له دور مهم في تصنيفها إلى أنواع عديدة، وتقسم التربة حسب حجم حبيباتها إلى التربة الصلصالية، والطينية، والرملية، والحصوية، وأكثر أنواع التربة انتشارًا هي خليط من تلك الأحجام.

ويتكون جزيء الماء من اتحاد ذرة أكسجين واحدة مع ذرتي هيدروجين برابطة قوية لا يسهل فكها، وتُربط هذه الذرات مع بعضها البعض بشكل له قطبية كهربية واضحة لأن كلاً من ذرتي الهيدروجين يحمل شحنة موجبة نسبية، وذرة الأكسجين تحمل شحنة سالبة نسبية، مما يجعل جزيء الماء غير تام التعادل كهربياً.

والماء بهذه الصفات الطبيعية المميزة إذا نزل على تربة الأرض أدى إلى إثارتها كهربياً مما يجعلها تهتز وتنفس ويزداد حجمها فتربو وتزداد، وذلك لأن تربة الأرض تتكون في غالبيتها من المعادن الصلصالية التي يؤدي تميؤها إلى اهتزاز مكونات التربة،

وزيادة حجمها، وارتفاعها إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة فتتشق مفسحة طريقاً سهلاً
أمناً لسويقة (ريشة) النبتة الطرية الندية المنبثقة من داخل البذرة النابتة المدفونة بالتربة.

ومن أسباب اهتزاز التربة وانتفاشها وربوها ما يلي:

١- تتكون التربة أساساً من المعادن الصلصالية، ومن صفات تلك المعادن أنها
تتشبع بالتميو أي بامتصاص الماء، مما يؤدي إلى زيادة حجمها زيادة ملحوظة فيؤدي
ذلك إلى اهتزازها بشدة وانتفاضها فتؤدي إلى اهتزاز التربة بمجرد نزول الماء عليها.

٢- تتكون المعادن الصلصالية من رقائق من أكاسيد السيليكون والألومنيوم
تفصلها مسافات بينية مملوءة بجزيئات الماء والغازات، وعند التسخين تُطرد هذه
الجزيئات، فتتكشف تلك الرقائق بطرد هذه الجزيئات البينية، وعند إضافة الماء إليها
تتنفص، وتهتز وتربو نتيجة لملء المسافات البينية الفاصلة لرقائق المعدن بالمياه.

٣- نظراً لدقة حجم الحبيبات الصلصالية (والتي لا يتعدى قطرها واحد على
٢٥٦ من المليمتر، أي أقل من ٠,٠٠٤ من المليمتر) وهي المكون الرئيسي لتربة
الأرض، فإن اختلاط الماء بتلك التربة يحوّلها إلى الحالة الفردية وهي حالة تتدافع فيها
جسيمات المادة بقوة، وبأقدار غير متساوية في كل الاتجاهات، وعلى كل المستويات في
حركة دائبة تُعرف باسم الحركة البراونية نسبة إلى مكتشفها، وهو عالم النبات "روبرت
براون" في عام ١٨٢٧م، وهي من عوامل اهتزاز التربة بشدة وانتفاضها، وكلما كان الماء
المختلط بالتربة وفيراً باعد لمسافات أكبر بين حبيبات التربة، وزاد من سرعة حركتها.

٤- تتكون المعادن الصلصالية أساساً من سيليكات الألومنيوم المميأة، وهذا
المركب الكيميائي له قدرة على إحلال بعض ذرات الألومنيوم بذرات قواعد أخرى
مثل الماغنيسيوم والكالسيوم، وكنتيجة لإحلال ذرات الألومنيوم بذرات غيرها من
العناصر ترتبط بعض الأيونات الموجبة الشحنة مثل الصوديوم والكالسيوم على حوافّ
وأسطح رقائق الصلصال لمعادلة الشحنات السالبة الناتجة عن إحلال ذرة الألومنيوم
الثلاثية التكافؤ بذرة الكالسيوم أو الماغنيسيوم الثنائية التكافؤ، والأيونات الموجبة مثل

أيونات الصوديوم والكالسيوم سهلة الإحلال بقواعد أخرى مما يُحدث اهتزازًا في مكونات رقائق الصلصال في وجود جزيء الماء القطبي الكهربائية.

٥- إن العمليات المعقدة التي كونت تربة الأرض عبر السنين أثرتُها بالعديد من العناصر والمركبات الكيميائية اللازمة لحياة النباتات الأرضية، كما أن الكائنات الحية الدقيقة والكبيرة التي أسكنها الله ﷻ تربة الأرض لعبت ولا تزال تلعب دورًا هامًا في إثرائها بالمركبات العضوية وغير العضوية، وعند نزول جزيئات الماء ذات القطبية الكهربائية، وإذابتها لمكونات التربة فإن ذلك يؤدي إلى تأيُن تلك المكونات، وإلى تنافر الشحنات المتشابهة على أسطح رقائق الصلصال وفي محاليل المياه مما يؤدي إلى انتفاض تلك الرقائق واهتزازها بشدة.

٦- تحمل الرياح، والطيور، والحشرات، والكائنات الدقيقة إلى التربة بذور العديد من النباتات خاصة مما يسمى بالبذور المجنحة، والجراثيم وحبوب اللقاح التي تحملها الرياح لمسافات بعيدة، وعندما ينزل الماء على التربة الأرضية وتستقي منه تلك البقايا النباتية القابلة للإنبات مثل البذور فتنشط أجنتها، وتتغذى على المواد المذابة في مياه التربة فإنها تنمو، وتندفع جذورها إلى أسفل مكونة المجموعات الجذرية لتلك النباتات، وتندفع سويقاتها (ريشها) إلى أعلى مُسببة اهتزازات لمكونات التربة.

٧- مع ازدياد هطول الماء على التربة تنتعش كل صور الحياة فيها من البكتريا، والفطريات، والطحالب، وغيرها، كما تغلظ المجموعات الجذرية للنباتات القائمة على سطح الأرض، ويؤدي النشاط الحيوي لكل من هذه الكائنات إلى زيادة حجم التربة، وإلى زيادة الأنشطة الكيميائية والفيزيائية فيها مما يؤدي إلى انتفاض مكوناتها واهتزازها، وربوها، وكثرة الإنبات فيها، وقد صُوِّرت هذه المراحل بالتصوير البطيء وأثبتت الصور صدق القرآن الكريم، في كل ما أشار إليه في هذه القضية.

وبعد نزول الأمطار على الأرض الهامدة وحصول عمليتي الاهتزاز والانتفاخ، لاحظ العلماء أن النبات يستفيد من ذلك الماء فتبدأ البذور الجافة والموجودة في التربة بامتصاص الماء والمواد المعدنية من الوسط المحيط بها، وتتحرك العمليات الكيميائية

الحيوية في البذور، فتنبت الدرنات والأبصال، وتصبح مساحة سطحية من الشعيرات الجذرية للنباتات معرضة لمحلول التربة مما يسهل عليها امتصاص الماء والعناصر الغذائية. كما تنشط ملايين الكائنات الحية الموجودة في التربة، والفطريات والبكتريا تحوّل بقايا النباتات والحيوانات إلى مواد معدنية تمتصها النباتات عبر الجذور، وتقوم ديدان الأرض بحفر الأنفاق عبر التربة، مفسحة المجال لدخول الهواء والماء من خلال التربة، فتصبح الأرض مخضرة بإنباتها من كل زوج بهيج.

وجه الإعجاز:

أخبر القرآن الكريم عن اهتزاز التربة ورُبُّوها بعد نزول الماء عليها، وهما عمليتان دقيقتان غير مشاهدين ولا محسوستين، ولا يمكن إدراكهما إلا من خلال استخدام المجهر.

وعملية الاهتزاز والرُبُّو لحبيبات التربة يحصل بنزول المطر، وهذا الاهتزاز يمكن الماء بإذن الله من التخلل بين الصفائح المكونة للتربة والفراغات بين الحبيبات، فتنتفخ الحبيبات ويزداد حجمها وتصبح مخازن للماء يستفيد منها النبات، حيث تتشرب البذور الموجودة في التربة الماء وتنبت، وتمتصه الشعيرات الجذرية للنباتات فتتمو برحمة الله ﷻ.

وتفاصيل العلاقة بين اهتزاز حبيبات التربة ورُبُّوها وإنبات الأرض خفية لم يدركها الإنسان إلا بعد تقدم علم التربة وتطور أدواته العملية، فأول ملاحظة للاهتزاز كانت في عام ١٨٢٧م على الرغم من أن الميكروسكوب الضوئي، وهو الأداة التي لوحظ من خلالها الاهتزاز قد اخترع عام ١٥٩٠م، كما أن الميكروسكوب الإلكتروني الماسح والذي يمكن استعماله في فحص الاتحادات البنائية المكونة لحبيبات التربة لم يُخترع إلا في عام ١٩٥٢م.

وإخبار القرآن بكل وضوح عن هذه الأسرار دليل على أنه منزل ممن يعلم السر في السماوات والأرض.

الإعجاز العلمي للقرآن والسنة في دلالة غيض الأرحام:

غيض الأرحام: هو السقط الناقص للأجنة قبل تمام خلقها، أو هو ما تفسده الأرحام فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض - أو هو هلاك الحمل أو تضاوله أو اضمحلاله - وهذا المعنى يتوافق مع الإسقاط التلقائي المبكر للأجنة حينما تهلك ويلفظها الرحم، أو تغور وتختفي تماما من داخله.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨).

يطلق الغيض في اللغة على: النقص، والغور، والذهاب، والنضوب.

قال الشيخ السعدي: « ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ أي تنقص مما فيها، إما أن يهلك الحمل، أو يتضائل، أو يضمحل، ﴿وَمَا تَزِدَادُ﴾ الأرحام وتكبر الأجنة التي فيها»^(١).

وقد ورد ذكر الغيض في آيتين من القرآن الكريم: الأولى هي النص السابق في سورة الرعد، والثانية: قوله جل في علاه: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَالْأَسْوَدَ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ٤٤).

ووفق قواعد التفسير القاضية بتفسير القرآن بالقرآن؛ فإن معنى الغيض في آية سورة الرعد يفسر بالغيض الوارد في آية سورة هود. ومعنى الغيض فيها: الغياب، والذهاب والنضوب، يقال غاض الماء: إذا غاب في الأرض.

وقد دار تفسير العلماء لغيض الأرحام حول معنيين: الدم الذي ينزل على المرأة الحامل، والثاني: السقط أو السقط الناقص؛ أو ما تُفسده الأرحام فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض. وتعريف بعض السلف للغيض بأنه الدماء التي تراها الحامل في حملها

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص: ٤١٤.

يصب في بوتقة السقط، ويعتبر تعريفا له بأحد لوازمه، فالدماء هي الشيء الملازم غالبا والمصاحب للسقط.

هل الغيض مطلق السقط أم السقط المبكر؟

إن الفترة الزمنية التي يمكن أن يكون الإسقاط التلقائي فيها معبرا عن الغيض المذكور في القرآن والسنة، تقع في مرحلة التخليق؛ وتبدأ من تكون النطفة الأمشاج، مروراً بطوري العلقة والمضغة، حتى وقت نفخ الروح في الجنين.

والدليل: سؤال الملك الموكل بالرحم ربه؛ عن مستقبل ومصير كل طور من أطوار الجنين الأولى والتي تقع في زمن التخليق، هل ستتخلق أم لا.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: «وَكَلَّ اللَّهُ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ نُطْفَةٌ، أَيُّ رَبِّ عَلَقَةٌ، أَيُّ رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَفْضِيَ خَلْقَهَا، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزْقُ، فَمَا الأَجَلُ، فَيُكْتُبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ» (رواه البخاري ومسلم).

إن أسئلة الملك؛ أي رب نطفة؟ أي رب علقة؟ أي رب مضغة؟ هي أسئلة عن مستقبل تخلق هذه المرحلة؛ ومن ثم عن غيض الأرحام بها من عدمه! وفحوى أسئلته: هل تتكون النطفة الأمشاج وتغرس في جدار الرحم أم تسقط؟ وهل ستتخلق بعد ذلك إلى العلقة - وما فيها من مجموعات الخلايا الأساسية لأعضاء الجسم - أم تهلك وتسقط؟

ما هو السقط وماذا يعني في علم الأجنة الحديث؟

يمكن القول بأن السقط المفسر للغيض والمراد في كلام علماء اللغة والتفسير هو: الجنين الذي سقط من بطن أمه قبل اكتمال خلقه، أو هو الجنين الذي يهلك في الرحم ويتحلل ويغور وتختفي آثاره منها، ويصدق عليه أن الرحم تبتلعه كما تبتلع الأرض الماء. فهل لهذا المعنى ما يوافق في علم الأجنة الحديث؟

الإجابة بكل يقين: نعم، فالأجنة عندما تهلك في الأسابيع الثمانية الأولى من عمرها؛ إما أن تسقط خارج الرحم، أو تتحلل وتختفي تماما من داخله، ويسمى علماء

الأجنة هذا الهلاك بصورتيه: الإسقاط التلقائي المبكر. وهو متوافق تمامًا مع أقوال علماء اللغة والتفسير في تعريفهم للغيض. وعليه يمكن القول بأن غيض الأرحام هو الإسقاط التلقائي المبكر.

ما هو الإسقاط التلقائي المبكر؟

يطلق الإسقاط التلقائي على كل حالة يسقط فيها الحمل تلقائيًا قبل الأسبوع العشرين من عمره، أو عندما يكون وزن الجنين أقل من ٥٠٠ جم. ومعظم حالات الإسقاط التلقائي تحدث خلال الأسابيع الثمانية الأولى من الحمل. ويسمى الإسقاط التلقائي المبكر. وهو ظاهرة شائعة، ونسبة حدوثه كبيرة، وغالبًا يحدث بدون دراية من الأم بالحمل.

وتكون نسبة الإسقاط التلقائي عالية جدًا قبل ٤ أسابيع؛ إذ تصل إلى حوالي ٤٠٪، ومن الحمل الذي يعيش ٤ أسابيع يفقد منه من ١٥ - ٢٠٪. وقد قام بعض الباحثين ببعض التجارب لتحديد نسبة فقد الحمل في الفترة المبكرة جدًا منه؛ فقام "إدموندز" وزملاؤه عام ١٩٨٢، باختبار الحمل في بول ١٩٨ امرأة صحيحة قابلة للحمل، فوجد لدى ١١٨ منهن حملًا، وقد فقدت ٦٧ امرأة منهن حملها مبكرًا - من غير أن يعرفن أنهن حوامل - وتمثل النسبة حوالي ٦٠٪.

وفي عدة مشاهدات للسقط المبكر لم يكن الجنين موجودًا؛ أي أن الجنين قد تحلل واختفى داخل الرحم. وعدم رؤية جنين بالمرّة في حويصلة الحمل، يسمى كيس الحمل الفارغ.

وقد لا يسقط محصول الحمل بعد موت الجنين تلقائيًا، بل يبقى لفترة طويلة داخل الرحم ويسمى الإجهاض المخفي؛ ويتغير فيه حجم الرحم فيأخذ في الصغر والجمود - نظرًا لامتصاص السائل الأمنيوسي وحدوث تهتك في الجنين - والنسبة الغالبة من هذا الإجهاض المخفي مآلها إلى الإسقاط التلقائي، لكن في بعض الحالات يغور ويختفي الجنين تمامًا من حويصلة الحمل.

وتقول المراجع الطيبة: ما زالت الإجابة غير معروفة ومحددة لهذا السؤال. لماذا تسقط بعض الأجنة بعد موتها ولماذا لا يسقط بعضها الآخر؟

علماء الإسلام يقررون هذه الحقيقة قبل اكتشاف الأجهزة الحديثة:

لله در الشيخ السعدي الذي فسر الغيض بالسقط بصورتيه وكأنه طالع أحوال الأجنة الهالكة في أحدث المراجع العلمية. قال رحمته: «يخبر تعالى بعموم علمه وسعة اطلاعه وإحاطته بكل شيء فقال: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ من بني آدم وغيرهم، ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ أي: تنقص مما فيها إما أن يهلك الحمل أو يتضاءل أو يضمحل ﴿وَمَا تَزِدُّهُ﴾ الأرحام وتكبر الأجنة التي فيها^(١).

﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ أي تنقص مما فيها؛ إما أن يهلك الحمل (السقط الذي يلفظه الرحم)، أو يتضاءل (الإجهاض المخفي حيث ينكمش الجنين ويتضاءل)، أو يضمحل (الأجنة التي تتلاشى في الرحم).

الإعجاز في دلالة الغيض:

إن دلالة غيض الأرحام على الإسقاط التلقائي المبكر بصورتيه: غور الأجنة وإسقاطها، وما يصاحبه من نقصان ونضوب لبرك السوائل والدماء المحيطة بالأجنة، هو إعجاز علمي واضح، سبق به القرآن الكريم علم الأجنة بقرون، فالعرب رغم أنهم يعرفون معنى لفظ الغيض لغةً إلا أنهم لم ينطقوا بجملة غيض الأرحام أبداً قبل نزول القرآن الكريم.

ولقد اتضح بيقين - في هذا الزمان - بعد تقدم علم الأجنة الوصفي والتجريبي دقة لفظ الغيض، ودلالته الشاملة لكل الأحداث التي تمر بها الأجنة الهالكة في مرحلة التخليق؛ فبعضها تسقطه الأرحام، ويمكن أن يشاهد وتدرك آثاره، والبعض الآخر

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص: ٤١٤.

يتلاشى ويختفي ولا تُدرَك آثاره؛ ويصدق عليها أن الأرحام قد ابتلعها كما ابتلعت الأرض الماء.

وهذه الحقيقة لم تُعرف إلا في القرن العشرين، بعد تقدم أجهزة البحث والرصد والتحليل الدقيقة، ولم تُحدّد بدقة إلا بعد استخدام أجهزة الموجات فوق الصوتية المكتشفة حديثاً. وهكذا أثبت العلم بيقين دقة هذا التعبير وشموليته؛ وبهذا يتحقق السبق القرآني في الإشارة إلى حقائق علمية دقيقة، لم يكتشف معظمها إلا في النصف الثاني من القرن العشرين.

وجعلنا من الماء كل شيء حي؛

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، معنى الآية أن الله ﷻ قد خلق جميع الأحياء من ماء الذكر والأنثى، وأن كل شيء من الكائنات الحية يحتاج إلى الماء في حياته، أفلا يؤمن أهل مكة بمحمد ﷺ وبالقرآن؟

ويقرر العلم الحديث أن الماء يدخل في بناء أي جسم حي إذ هو في الحقيقة قوام حياته، فالماء في نظر العلم هو المكون الأصلي في تركيب مادة الخلية، والخلية هي وحدة البناء في كل شيء حي نباتاً كان أو حيواناً، كما أن علم الكيمياء في أبحاثه الحديثة قد أثبت أن الماء عنصر لازم وفعال في كل ما يحدث من التحولات والتفاعلات التي تتم داخل الاجسام فهو إما وسط أو عامل مساعد أو داخل في هذا التفاعل أو ناتج عنه.

والماء عماد الحياة في الأرض لكل كائن حي من نبات وإنسان وحيوان، ويحتوى جسم الانسان على حوالى ٧٠٪ من وزنه ماء لأن له أهمية خاصة في الجسم كموصل لعناصر الغذاء إلى خلايا الجسم وإفراز للمواد الضارة في الجسم وتلطيف لدرجة حرارة الجسم عن طريق تبخره في الرئتين والجلد، ومصادر المياه في الجسم هو ما نشربه منه، وما تحتوي الأطعمة عليه من نسب مختلفة من الماء ومما ينتج عن أكسدة بعض المواد الغذائية وتفاعل بعضها مع بعض داخل الجسم.

والماء يعمل على إذابة المواد الغذائية بعد هضمها حتى يتمكن الجسم من امتصاصها، والماء أساس تكوين الدم والسائل اللمفاوى والسائل النخاعى وغيرها من

السوائل التي تتكون منه في الجسم من إفرازات كالعرق والبول والدموع والمخاط، ويثبت العلم أن الماء أكثر ضرورة للإنسان من الغذاء فبينما الإنسان يمكنه أن يعيش نحو ٦٠ يوماً بدون أكل لا يمكنه أن يعيش بدون الماء أكثر من أسبوع على أقصى تقدير ولو فقد الجسم ٢٠٪ من مائه فإنه يكون معرضاً للموت.

هذه الآية كانت سبباً في تحول المبشر النصراني إلى داعية للإسلام:

كان الدكتور "جاري ميلر"، أحد أعضاء هيئة التدريس في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن في قسم الرياضيات، وهو كندي الجنسية، وكان من المبشرين النشطين في الدعوة إلى النصرانية، وذات يوم أراد أن يقرأ القرآن بقصد أن يجد فيه بعض الأخطاء، كان يتوقع أن يجد القرآن كتاباً قديماً مكتوباً منذ ١٤ قرناً يتكلم عن الصحراء وما إلى ذلك، لكنه ذُهِلَ مما وُجِدَ فيه، فقد وَجَدَ أن هذا الكتاب يحتوي على أشياء لا توجد في أي كتاب آخر في العالم.

كان يتوقع أن يجد في القرآن بعض الأحداث العصبية التي مرت على النبي ﷺ مثل وفاة زوجته خديجة رضي الله عنها أو وفاة بناته وأولاده رضي الله عنهم، لكنه لم يجد شيئاً من ذلك!! بل وجد أن هناك سورة كاملة في القرآن تسمى سورة مريم، وفيها تشريف لمريم عليها السلام لا يوجد له مثل في كتب النصارى ولا في أناجيلهم، ولم يجد سورة باسم عائشة أو خديجة أو فاطمة - رضي الله عنهن - وكذلك وجد أن عيسى عليه السلام ذُكِرَ بالاسم ٢٥ مرة في القرآن في حين أن النبي محمداً ﷺ لم يذكر إلا خمس مرات فقط.

* أخذ "ميلر" يقرأ القرآن بتمعن أكثر لعله يجد مأخذاً عليه، ولكنه صُغِقَ بآية عظيمة وهي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

يقول الدكتور "ميلر" عن هذه الآية: «لا يوجد مؤلف في العالم يمتلك الجرأة ويؤلف كتاباً ثم يقول: هذا الكتاب خالٍ من الأخطاء، ولكن القرآن على العكس تماماً، يقول لك: لا يوجد أخطاء بل يعرض عليك أن تجد فيه أخطاء ولن تجد».

* ومن الآيات التي وقف عندها الدكتور «ميلر» طويلاً قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، يقول الدكتور «ميلر»: «إن العلم الحديث أثبت أن الخلية تتكون من السيتوبلازم الذي يمثل ٨٠ ٪ منها والسيتوبلازم يتكون بشكل أساسي من الماء، فكيف لرجل أممي عاش قبل ١٤٠٠ سنة أن يعلم كل هذا لولا أنهم وُصِل بالوحي من السماء؟».

* اعتنق الدكتور "ميلر" الإسلام عام ١٩٧٧م ومن بعدها بدأ يُلقِي المحاضرات في جميع أنحاء العالم، وكذلك له الكثير من المناظرات مع رجال الدين النصارى.

الفصل السابع

الإعجاز العلمي

في السنة الصحيحة

أشبهت إنان للإله الله أشبهت إنان محمد رسول الله

قال تعالى:

﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥٣).

الإعجاز العلمي في السنة الصحيحة

لقد أوضحت بعض أحاديث النبي ﷺ قضايا كثيرة في جسم الإنسان وفيما سواه من الأمور التي لم يكشف عنها اللثام إلا في الآونة الأخيرة، كما لا يزال بعضها يحتاج إلى المزيد من التقدم في العلوم الكونية حتى تتضح كل أبعاد حقائقها الرائعة البعيدة الغور الصعبة المنال، وها هنا عرض لبعض هذه الأحاديث:

إشارة النبي ﷺ إلى الأمراض الفتاكة عندما تظهر الفواحش في الناس ويعلنوا بها:

أشار رسول الله ﷺ إلى ظهور الأمراض الفتاكة عندما يتهاوى الناس في وهدة الفواحش والرذائل من الزنا وأنواع الشذوذ الجنسي المدمر، فقد قال ﷺ: «لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضُوا». (رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني). (الفاحشة) أي الزنا. (الأوجاع) أي الأمراض.

وفي هذا المجال يقول الطبيب الدكتور محمد على البار في كتابه (الأمراض الجنسية): «ولا شك أن الهربس لم يكن منتشرًا بهذه الصورة ولا قريبًا من عُشرها أو واحد بالمائة منها منذ عشرين عاما فقط. إن أخصائياً كبيراً ومشهوراً في الأمراض التناسلية لم يستطع هو وصحبه أن يكتبوا للجمهور أكثر من ثمانية أسطر عن مرض هربس التناسل. وكذلك كان الإيدز غير معروف.

فهو مع الإيدز يصدقان حديث رسول الله ﷺ؛ إذ ظهرت الفاحشة، واستعلن الناس في أوروبا وأمريكا ودول شرق آسيا بها، فأصابهم الله بهذه الأوجاع والأمراض التي لم تكن معروفة في أسلافهم.

ولفظ الطاعون هنا يعني الوباء والمرض الخطير. وهو كثيرًا ما يستعمل بهذا المعنى؛ فقد تحقق شرط حديث رسول الله ﷺ في المجتمع الغربي في ظهور الفاحشة

والاستعلان بها، فتحقق جواب الشرط في حديث رسولنا العظيم من تفشي الطواعين والأوجاع في هذه المجتمعات.

إن الشواذ جنسياً هم أكثر فئات المجتمع تعرضاً للأمراض التناسلية كالزهري وغيره. وها هو (الإيدز) قد اختصهم الله به. ويبقى أن نسأل هل الإيدز بصفاته الإكلينيكية ومسبباته الفيروسية كان معروفاً من قبل؟ إن المرض نفسه اكتشف فقط في عام ١٩٨١م. والفيروس المسبب له لم يكتشف إلا عام ١٩٨٣م. وهو نوع جديد من الفيروسات.

كذلك فإن أحداً من العلماء لم يسبق له وصف هذا المرض أو الطاعون من قبل وهو ما ختم به رسول الله ﷺ حديثه الشريف في قوله: «إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا».

فانظر إلى خبر رسول الله ﷺ، إن رسولنا الكريم ﷺ يخبر عن حال أهل الفاحشة في كل زمان ومكان بثقة المتكلم عن الله ﷻ وما كان أغناه أن يصف الطواعين والأوجاع بأنها لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، هذا لو كان بشراً عادياً حتى يضمن كلامه في المستقبل.

ولكن رسولنا الكريم ﷺ يثق في الله ﷻ ويتكلم عن الله ﷻ، فأنبأ أن هذه الطواعين والأوجاع سيصيب الله ﷻ بها أهل الفاحشة، وستكون جديدة وغير معروفة. وهكذا نرى في حديث رسول الله ﷺ إعجازين:

الأول: إخباري. وهو تحديد أهل الفاحشة بقوله: إن الله سيبتليهم بأمراض.

الثاني: طبي. وهو تحديد نوعية هذه الطواعين بأنها لم تكن في أسلافهم الذين

مضوا.

ما من كل الماء يكون الولد:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ كُلِّ الْمَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ خَلْقَ شَيْءٍ لَمْ يَمْنَعُهُ شَيْءٌ». (رواه مسلم).

إن هذا الحديث قد تناول حقيقة علمية لم يكشفها علم الطب إلا في القرن العشرين وهي أن حيواناً منوياً واحداً فقط من بين مائتين إلى ثلاثمائة مليون حيوان منوي في القذفة الواحدة هو الذي يلقح البويضة لينتج الجنين بإذن الله تعالى. فكيف عرف النبي ﷺ ذلك؟ من أيّ مخبرٍ استقى معلوماته؟ من أيّ بحثٍ علميٍّ أخذَ هذه الحقيقة؟ وكيف توصل إليها؟

مراحل تكوين الأجنة في الأرحام:

لم يكن في عصر النبوة طب كما في هذه الأيام، ولا وسائل كشف أو أشعة تلتقط ما وراء المستور، ومع هذا فقد تحدث رسول الله ﷺ عن مراحل تكوين الجنين في رحم أمه، وحدد كل مرحلة تحديداً دقيقاً في حديثه الذي سمعه منه الصحابي الجليل عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه، حيث قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ عَمَلَهُ، وَأَجَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَشَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا، ثُمَّ يَنْفَخُ فِيهِ الرُّوحَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

والشاهد في هذا الحديث هو تحديد مدة كل مرحلة من المراحل الثلاث بأربعين يوماً، بعدها يبعث الله الروح في الجنين. ثم جاء الطب الحديث، والتقط صوراً لأجنة وهي في الرحم وعرف الأطباء أن الروح لا تُبعث إلا بعد مائة وعشرين يوماً، وتطابقت نتائج المراقبة الطبية مع دلالات الحديث تماماً. فكان هذا الحديث معجزة نبوية خالدة.

إن القرآن قد ذكر أسماء المراحل في آيات منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٤ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا

ءَاخِرَ فَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿ (المؤمنون: ١٢ - ١٤). ولم يذكر القرآن مدة كل مرحلة، فحددها السنة بأربعين يوماً.

ولم يذكر القرآن لحظة بعث الروح، فبيّنت السنة أنه يكون على رأس المائة والعشرين يوماً (حاصل مجموع ٤٠ + ٤٠ + ٤٠)، أو ليس هذا غيباً لم يكن من الممكن الاطلاع عليه يوم قال الرسول ﷺ هذا الحديث؟

من قوانين الوراثة التي اكتشفت حديثاً:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ، وَإِنِّي أَنْكَرْتُهُ»، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبْلِ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «مَا أَلْوَانُهَا؟» قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقٍ؟» قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَأَتَى هُوَ؟»، قَالَ: «لَعَلَّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَكُونُ نَزْعُهُ عِرْقُ لَهُ»، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «وَهَذَا لَعَلَّهُ يَكُونُ نَزْعُهُ عِرْقُ لَهُ»، (رواه البخاري ومسلم).

شرح الحديث:

(إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ وَإِنِّي أَنْكَرْتُهُ) مَعْنَاهُ اسْتَعْرَبْتُ بِقَلْبِي أَنْ يَكُونَ مِنِّي. (الأورق): هُوَ الَّذِي فِيهِ سَوَادٌ لَيْسَ بِصَافٍ.

وَالْمُرَادُ بِالْعِرْقِ هُنَا الْأَصْلُ مِنَ النَّسَبِ تَشْبِيهًا بِعِرْقِ الثَّمَرَةِ، وَمَعْنَى (نَزْعُهُ) أَشْبَهُهُ وَاجْتَذَبَهُ إِلَيْهِ وَأَظْهَرَ لَوْنَهُ عَلَيْهِ، وَأَصْلُ النَّزْعِ الْجَذْبُ فَكَأَنَّهُ جَذَبَهُ إِلَيْهِ لِشَبْهِهِ، يُقَالُ مِنْهُ نَزَعَ الْوَلَدُ لِأَبِيهِ وَإِلَى أَبِيهِ وَنَزَعَهُ أَبُوهُ وَنَزَعَهُ إِلَيْهِ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْوَلَدَ يَلْحَقُ الزَّوْجَ وَإِنْ خَالَفَ لَوْنُهُ لَوْنَهُ حَتَّى لَوْ كَانَ الْأَبُ أَيْضًا وَالْوَلَدُ أَسْوَدَ أَوْ عَكْسُهُ لِحَقِّهِ وَلَا يَحِلُّ لَهُ نَفْيُهُ بِمُجَرَّدِ الْمُخَالَفَةِ فِي اللَّوْنِ، وَكَذَا لَوْ كَانَ الزَّوْجَانِ أَيْضًا فَجَاءَ الْوَلَدُ أَسْوَدَ أَوْ عَكْسُهُ لِاحْتِمَالِ أَنَّهُ نَزَعَهُ عِرْقُ مِنْ أَسْلَافِهِ.

وجه الإعجاز:

إن علم الوراثة الحديث يؤكد أن الشبه بين المولود ووالديه قد يكون غير ظاهر، بل بعيد كل البعد عن كلا الأبوين، وبما أن الصفات الوراثية قد تكون سائدة، وقد تكون متنحية، فإن الصفات المتنحية لا تكون ظاهرة لا في الأب، ولا في الأم، فإذا اتفق وكان كلا الأب والأم يحملان هذه الصفات المتنحية، فإن ربع أولادهم - تقريباً - ستظهر فيهم هذه الصفة المتنحية بصورة واضحة جلية، وذلك لاجتماع الصفتين من كلا الأب والأم.

وقد أشار النبي ﷺ في هذا الحديث إلى قوانين الوراثة التي اكتشفت حديثاً والتي اكتشف كثيراً منها (مندل)، ففي هذا الحديث شرحٌ للصفات الكامنة المحمولة على المورثات التي لم توضع موضع التنفيذ لكونها قد سبقت أو غلبت بمورثات أخرى، فقد يرث الإنسان صفة من جد أو جدة بينه وبين أحدهما مئات السنين؛ وهذه الظاهرة معروفة ومشار إليها في علم الوراثة، والرسول الكريم ﷺ أشار إليها في هذا الحديث وشرح قوانينها بالصفات السابقة والمسبوقة، وبحضور الأنساب حتى آدم عليه السلام.

من أسرار الذباب:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي إِنَاءٍ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ كُلَّهُ، ثُمَّ لِيَطْرَحْهُ، فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ شِفَاءً، وَفِي الْآخَرِ دَاءٌ» (رواه البخاري). وفي رواية للبخاري أيضاً: «إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ، فَإِنَّ فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءً وَالْآخَرَى شِفَاءً».

اتخذ بعض من لا دين لهم (حديث الذباب) تكئةً للتنديد بالدين، وأنكره بعض ضعاف الإيثار، وحاول المستنكرون من المتدينين أن يبحثوا عن تأويل مقبول له، لمواجهة استهجان بعض المتخصصين في العلوم والطب، أو سخرية البعض الآخر من نص هذا الحديث النبوي.

وهذا الحديث في أعلى درجات الصحة، والخطأ الذي يقع فيه كثير من الناس هو عدم التفريق بين المستحيل والمستغرب؛ لأن المستحيل يعود إلى أصل الشيء

ونكرانه، ولكن المستغرب يعود إلى ضعف القائم بالتصوير وعدم إدراكه؛ فإذا جاءت هذه الأحاديث من طرق ثابتة تفيد القطع، فيجب اعتقادها، ولا يصح إنكارها.

كم من أمر جاء موافقاً لما قاله النبي ﷺ بعد سنين أو مئات السنين. وإن جاءت هذه الأحاديث عن طريق غلبة الظن، فليس من شأن المسلم أن يبادر إلى تكذيبها، بل يلزمه التأمّن، والسؤال عن صحة الخبر، حتى لا يقع في التناقض بعد ثبوته. وإن من يتخذ من هذا الحديث (حديث الذباب) أو غيره سبيلاً لإثارة المشاكل ضد الإسلام أو السخرية منه أو الاستهزاء به، فهو كافر بإجماع العلماء.

إن من الاستقراء التاريخي، وتتبع التطور العلمي، والفكري، نرى أن كثيراً مما كان غامضاً على العقول، أصبح مفهوماً وواضحاً، بل نرى كثيراً مما كان ينكره العقل، أصبح الآن يقره، ويسلم بوجوده، وصار عنده من الحقائق.

كيف يكون الذباب الذي هو مباءة الجراثيم فيه دواء؟ وكيف يجمع الله الدواء والدواء في شيء واحد؟ وهل الذباب يعقل فيقدم أحد الجناحين على الآخر؟ كيف يجتمع الشفاء والدواء في جناحي الذباب؟ كيف يعلم ذلك في نفسه حتى يقدم جناح الدواء، وما ألجأه إلى ذلك؟

إن علماء الطب والطبيعة وغيرهم يعترفون بأنهم ما وسعوا كل شيء علماء، ولم يحيطوا بدقائق كل العلوم والمعارف. واكتشافات العلم كانت وما زالت تتوالى من اكتشاف شيء بعد آخر. فبأية عقيدة وإيمان ينفي هؤلاء المنكرون أن يكون الله ﷻ قد أطلع رسوله ﷺ على أمر لم يصل إليه علماء الطب وعلماء الطبيعة بعد.

إن الذباب مما يتعذر دفعه كثيراً، وتصعب الوقاية منه في كثير من الأحوال، فإذا دعت الضرورة ووقع الذباب في الطعام، فإن الحديث النبوي يكشف عن وجود مواد مضادة لكثير من الأمراض، فإن نحن غمَسْنَا الذبابة وخرج منها السائل قتلنا المادة الموجودة فيه تلك الجراثيم المرضية، وهذا غير مرفوض عقلياً، وإن كان مستغرباً، والغرابة تأتي من الجهل بهادته، ولأن النفس تعافه.

الذباب في عالم الحشرات:

يفوق عدد أنواع الذباب المعروفة في أنحاء العالم الآن (٦٤٠٠٠) نوع، ومن المعروف أن النوع يعني الذباب له نفس الصفات والطبائع والسلوك ونظام حياة واحد، فالنوع إذن يضم ملايين الملايين، أو مليارات المليارات من الأفراد التابعة له. على أن أهل الاختصاص يشترطون القابلية للتزاوج بين أفراد النوع الواحد.

والذباب قد يكون مفيداً للإنسان، كالذباب الأزرق وغيره من الأنواع الآكلة للرمم والجثث والمواد العفنة، فهو يخلص الإنسان منها، وينظف البيئة من الملوثات، وكذلك ذبابة الخل التي يستعملها علماء الوراثة في تجاربهم وبحوثهم واكتشافاتهم في علم الوراثة وتقدم البشرية فيه.

أما الوجه السيء للذباب فهو الأضرار التي تنجم عن حركته ونقله للميكروبات إلى الإنسان، وهي الميكروبات التي تسبب له أمراضاً كثيرة، مثل الكوليرا (وتنتشر في شكل وباء يقتل المئات أحياناً)، التيفود، مرض النوم، الليشمانيا، حمى الباباتازي، الدوستتاريا الأميبية، الدوستتاريا البكتيرية، الإسهال الصيفي، السل، الجزام، الجمرة الخبيثة، والخراريج. هذا إلى جانب نقل بيض بعض الديدان والطفيليات.

ولقد وصل عدد الميكروبات الضارة التي أحصاها أحد العلماء في شعر ذبابة واحدة إلى (٦٦٠٠٠٠٠٠) ستة ملايين وستمائة ألف ميكروب!!

وهناك من العلماء من عثر على (٥٠,٠٠٠,٠٠٠) خمسين مليون ميكروب على جسم ذبابة واحدة!! هذا العدد هو عدد الميكروبات التي عثر عليها العالم على وبين شعر الذبابة، يعني موجودة على الذبابة من الخارج، ولكن هناك أعداد أخرى لميكروبات أخرى موجودة داخل جسم الذبابة، وخصوصاً في القناة الهضمية (الجهاز الهضمي).

الذبابة المنزلية الشائعة توجد في كل مكان تقريباً، غير نظيف، أو حتى نظيف، لكنه يحتوي طعاماً شهياً للذباب، كالسوائل الحلوة أو المشروبات أو الأطعمة المكشوفة. والذبابة التي عمرها يتراوح بين (٩)، (١٢) يوماً، هي التي تبيض، فأين تبيض؟ إنها تبيض في الأماكن القذرة وشقوق الحظائر الملوثة بالروث، وتبيض أيضاً في القمامة، وخصوصاً قمامة الفواكه والخضراوات المتعفنة، وهذه أفضل أماكن لتربية يرقات الذباب بعدما يفقس البيض.

ويتجمع الذباب عندما يبيض، والأنثى الواحدة منه تبيض بيضاً متجمعاً في شكل كتل، كل كتلة فيها (١٠٠) بيضة، ويصل عدد الكتل التي تضعها الأنثى في حياتها (٢٠) كتلة، يعني أن متوسط عدد البيض الذي تبيضه أنثى الذبابة المنزلية هو (٢٠٠٠) بيضة.

الذباب: مصدر الداء ومصدر الدواء:

توصل (بريفيلد) - من جامعة هال بألمانيا - في عام ١٨٧١ م إلى أن الذبابة المنزلية تصاب بطفيل من الفطريات يقضى حياته في الطبقة الدهنية الموجودة داخل بطن الذبابة، على شكل خلايا خميرة مستديرة. وبعد نضح هذه الخلايا المستديرة، تستطيل وتخرج من بين الشداف البطنية أو من المنتفسات الفتحات التنفسي والفطر في هذه الحالة يكون في دورة التكاثر، وتتضاعف أعداد البذور داخل الخلايا، فيزداد ضغطها، فتنفجر الخلايا، وتخرج منها بذور الفطر باندفاع شديد مصحوبة بالسائل الخلوي على هيئة رشاش.

وقدّم العالم "دريل" في ١٢ ديسمبر ١٩٢٣ م تقريراً عن أسباب تكرار ظهور وباء (جائحة) الكوليرا في الهند، وطرق مكافحته، وقد كان موفداً لهذا الغرض من رئاسة الصحة البحرية والحجر الصحي المصري وبعد أن قام "دريل" وزملاؤه المتخصصين بدراسة الموقف وتقويمه، قدم هذا التقرير المسهب، الذي أثبت فيه أن البكتريوفاج (أي قاتل أو بالع أو آكل أو مفترس) البكتريا، أو الخلية البكتيرية البلعمية. هو العامل الوحيد في مكافحة وباء الكوليرا، ويوجد هذا العامل في براز الناقلين من

هذا المرض، وأن الذباب ينقله من البراز إلى آبار ماء الشرب فيشربه الأهالي. وحين يظهر البكتريوفاج القوي في ذباب البلاد ومائها تنطفئ جذوة الكوليرا.

وحصل "دريل" وزملاؤه على البكتريوفاج القوي من جسم الذباب، وتوصل إلى أن الحصانة (المناعة) الحقيقية يحققها الأهالي بعد دخول البكتريوفاج في أمعائهم بشرب ماء أو بتناول الأغذية المحتوية عليه والمنقولة إليها بواسطة الذباب.

ونشرت جريدة "التجارب الطبية" في عددها الصادر في عام ١٩٢٧م تحت عنوان: "البكتريوفاج من ذباب البيوت": لقد أطعم الذباب الذي يألف البيوت من مزرعة الجراثيم الممرضة، وبعد حين اختفى أثر الجراثيم التي في الذباب وماتت كلها، وظهرت في الذباب مادة قاتلة للجراثيم تسمى (بكتريوفاج) وهي مادة ذات أثر قوي ضد أربعة أنواع من الجراثيم الممرضة.

كما ذكرت المقالة أن خلاصة من الذباب في محلول ملحي فسيولوجي وجد أنها تحتوي هذا العامل "البكتريوفاج" وكذلك مادة أخرى ليست من هذا النوع ولكنها مفيدة في الدفاع العضوي ضد أربعة أنواع أخرى من الجراثيم الممرضة.

وأعلن أستاذ علم الفطريات الكبير "لانجرون" في عام ١٩٤٥م أن فطر (إنتوموفزالي) الذي يعيش دومًا في بطن الذبابة على هيئة خلايا مستديرة، يحتوي خميرة (إنزيم) خاصة قوية، تُحلل وتُذيب من أجزاء الحشرة الحاملة للمرض.

ونجح الباحث "موفيتش" عام ١٩٤٧م في عزل مضادات حيوية من مزرعة للفطريات التي تعيش على جسم الذبابة ووجدتها ذات مفعول قوي على جراثيم سلبية لصبغة جرام (مثل جراثيم الزحار والتيفويد)، ووجد أن جرامًا واحدًا منها يحفظ أكثر من ألف لتر من اللبن من التلوث بالجراثيم المذكورة.

وفي سنة ١٩٤٨م، عزل "بريان"، و"كوتيس"، و"هيمنج"، و"جيفيريس"، و"ماكجوان"، من بريطانيا، مادة مضادة للحويية تسمى "كلوتينيزين"، وذلك من أنواع تابعة لفصيلة الفطريات التي تعيش في الذبابة، ومن بينها جراثيم الدوستاريا والتيفويد.

وفي سنة ١٩٤٩م، عزل "كوماس"، و"فارمر" - من إنجلترا -، و"جريان"، و"روث"، و"اتلنجر"، و"بلانتر" - من سويسرا - مادةً مضادة للحويية تسمى "انياين"، وذلك من فطريات تعيش في الذبابة. وتؤثر هذه المادة بقوة في جراثيم سالبة وجراثيم موجبة لصبغة جرام، وفي بعض الفطور الأخرى، مثل جراثيم الدوستتاريا والتيفويد والكوليرا. وتكفي كمية قليلة من هذه المادة المعزولة من جسم الذبابة لقتل أو إيقاف نمو هذه الجراثيم المرضية.

كما تمكن العالمان الإنجليزيان "ارنشتاين"، و"كوك" والعالم السويسري "روليوس"، في عام ١٩٥٠م عزل مادة أسموها "جافاسين" وذلك من فطر ينتمي إلى نفس الفصيلة المذكورة سابقاً، وهو يعيش على الذباب، واتضح لهم أن هذه المادة تقتل جراثيم مختلفة من بينها الجراثيم السالبة لصبغة جرام والجراثيم الموجبة لصبغة جرام. مما يفيد في مكافحة الجراثيم التي تسبب أمراض الحميات التي يلزمها فترة حضانة قصيرة.

إن الحديث النبوي لا ينكر أن الذبابة تحمل الأقدار وجراثيم الأمراض، بل يؤكد ذلك ويكرره بقوله: (فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءٌ)، فهذا شيء أصبح الآن معروفاً لدى الجميع، وأما الجانب الذي يجهله الكثير من الناس فهو وجود مضادات حيوية للجراثيم في الذباب.

ومن المعروف منذ القَدَم أن بعض المؤذيات يكون في سمها نفع ودواء، فقد يجمع الضدان في حيوان واحد، فالعقرب في إبرتها سُمُّ نافع، وقد يداوى سُمُّها بجزء منها. والنحلة يخرج من إبرتها سم نافع، ويخرج من فمها شراب نافع. ويحصّر لقاح من الأفاعي والحشرات السامة، يُحَقِّن به لديدغ العقرب، أو لديدغ الأفعى. ويستخرج البنسلين من العفن ومواد قذرة من تراب المقابر .. إلخ.

وللجراثومة ذيفان (Toxin) وهو مادة منفصلة عن الجراثيم. وإذا دخل الذيفان في بدن الحيوان قام البدن بتكوين أجسام مضادة له تُبَطِّل مفعوله، وتسمى هذه المادة: مبيد الجراثيم (باكتريوفاج).

فهل يستبعد القول بأن الذباب يلتهم الجراثيم ضمن ما يلتهمه، فيكون في جسم الذباب الأجسام الضدية المبيدة للجراثيم التي لها القدرة على الفتك بالجراثيم الممرضة التي ينقلها الذباب إلى الطعام أو الشراب. فإذا وقعت الذبابة في الطعام فما علينا إلا أن نغمسها فيه، فتخرج تلك الأجسام الضدية فتهلك الجراثيم التي تنقلها الذبابة.

وقد حصل الدكتور / أبو الفتوح مصطفى عيد، على درجة الدكتوراه من جامعة الإسكندرية تحت إشراف الدكتور / أمين رضا، وقد ورد فيها قوله: «وقد كانت الحرب العالمية حقلاً خصيباً تطور خلالها علاج هذا المرض (التهاب العظام المزمن)، ففيها استنتجت طريقة العلامة "أور" سنة ١٩٢٧م، وطريقة العلاج بيرقات الذباب للأستاذ "بيير" سنة ١٩٣١م.

كما ورد في مقالة لمجلة (جراحة العظام الأمريكية) - مجلد ١٦ عدد ٣ - سنة ١٩٣٤م، شرح لعلاج الالتهابات العظمية المزمنة باستعمال الذباب، وشرح لكيفية تربية الذباب لهذا الغرض. وسبق أن نُشر على صفحات نفس المجلة عام ١٩٣١م، إعلان لشركة "لديرل" عن بيعها بيرقات الذباب لاستعمالها للعلاج.

كما ورد في نفس المجلة (عدد أبريل ١٩٣٥م) مقالة للعالم "وليم روبنسون" يشرح فيه تطور التفكير في اغتذاء الذباب على الأنسجة الميتة، وكذلك إفرازات هذه اليرقات والتمثيل الغذائي فيها، بهدف فهم سر التئام الجروح إذا تركت ملوثة بيرقات الذباب.

إن هذه البحوث والمقالات والأخبار والمعلومات، وغيرها كثير، تؤكد إمكانية استعمال الذباب على المستوى التجاري وتربيته وتسويقه بهدف علاج الجروح المتقيحة، وعلاج تقيحات العظام، ولكن هذا لم يلق الاهتمام المطلوب. ويعمل الدكتور / أمين رضا هذا في رسالة بعث بها إلى الدكتور / غريب جمعة بأن ظهور مركبات السلفا في نفس الوقت، وظهور المضادات الحيوية الذي بدأ في الحرب العالمية الثانية، حوّل أنظار العلماء إلى هذه الطرق التي كانت جديدة في زمانها.

ونشرت مجلة "التوحيد" بالقاهرة في عددها الخامس لسنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م مقالاً للأستاذ الدكتور أمين رضا (أستاذ جراحة العظام والتقويم بجامعة الإسكندرية) قال فيها إن جميع الجراحين الذين عاشوا في السنوات التي سبقت اكتشاف مركبات السلفا - أي في السنوات العشر الثالثة من القرن العشرين - رأوا بأعينهم علاج الكسور المضاعفة والقرحات المزمنة بالذباب، وكان الذباب يُربى لذلك خصيصاً. وكان هذا العلاج مبنياً على اكتشاف (باكتريوفاج) القاتل للجراثيم، على أساس أن الذباب يحمل في آنٍ واحد الجراثيم التي تسبب المرض، وكذلك الباكتريوفاج الذي يهاجم هذه.

إن في هذا الحديث إعلان بالغيب عن وجود سُمِّ في الذباب، وهو شيء لم يكشفه العلم الحديث بصفة قاطعة إلا في القرنين الأخيرين (التاسع عشر والعشرين) الميلاديين. وفي هذا الحديث إعلام بالغيب عن وجود شيء على الذباب يصاد السموم التي تحملها. والعلم الحديث يخبرنا بأن الأحياء الدقيقة (من بكتريا وفيروسات وفطريات) تشن الواحدة منها على الأخرى حرباً لا هوادة فيها. فالواحدة منها تقتل الأخرى عن طريق مواد سامة تفرزها. ومن هذه المواد السامة بعض الأنواع التي يمكن استعمالها في العلاج. وهي ما نسميه "المضادات الحيوية"، مثل البنسلين والكلوروميستين وغيرهما.

بحوث معملية حديثة على هدي الحديث النبوي:

قام الأستاذ الدكتور مصطفى إبراهيم حسن، أستاذ الحشرات الطبية ومدير مركز أبحاث ودراسات الحشرات الناقلة للأمراض، بكلية العلوم (بنين) - جامعة الأزهر - القاهرة - مصر، بإجراء بحث علمي تجريبي دقيق رد فيه عن طريق العلم التجريبي على المتشككين في هذا الحديث.

وقد أجرى الدكتور نبيه عبد الرحمن باعشن - رئيس قسم الأحياء بكلية العلوم جامعة الملك عبد العزيز بجدة - وزملائه سلسلة من البحوث تحت عنوان: "تأثير السقوط والغمس للذبابة المنزلية على مدى تلوث الماء والأغذية بالميكروبات". وكان

كما ورد فيه عن تأثير السقوط والغمس للذباب على تلوث ونمو الميكروبات على الحليب، ما يلي:

- وجود عامل مثبط لنمو الجراثيم الموجودة على الذباب، والتي تسقط في الماء أو الطعام، عند سقوط الذباب فيه، ومن ثم، الحد من نمو الجراثيم، وتقليل عددها أيضًا.
 - إن عملية الغمس تقلل من تأثير الجراثيم التي يحملها الذباب وتسقط في الماء أو الطعام عند سقوط الذباب فيه.
 - إن تأثير عملية الغمس هي على الجراثيم المرضية أكثر مما هي على الجراثيم الكلية (النافعة) التي لا تحمل الأمراض، وهذا ما يؤكد الحديث الشريف (داء، شفاء).
 - إن فعالية الغمس أظهرت فعالية القضاء على الجراثيم عند درجات مشابهة لدم الإنسان وجسمه، بخلاف ما لو أجريت في وسط متعادل.
- وهذا ما يبين المعجزة في الحديث، وهي أن النتائج قد أثبتت بشكل واضح أن الذباب إذا سقط ثم طار، فإن الجراثيم التي تسقط منه في الطعام أو الشراب تزداد أعدادها، بينما إذا غمس ثم رفع، فإن الجراثيم التي تسقط لا تبقى أعدادها كما هي، بل تبدأ بالتناقص، ويحد من نموها أيضًا.
- فلو سقط من الذبابة (١٠٠٠) جرثومة مثلاً، ثم طارت الذبابة، فإن الألف تزيد لتصبح مثلاً (١٠١٠ - ١٠٢٠ - ١٠٥٠ وهكذا) بينما لو سقط منها (٢٠٠٠) جرثومة ثم غمست، فإن الألفين لا يزيدا بل ولا تبقى عند حدّها، بل تنقص شيئاً فشيئاً لتصبح مثلاً (١٩٥٠ - ١٩٠٠ - ١٨٥٠) حتى تصبح أقل بكثير مما سقط، وهذا ما تؤكد هذه التجارب.

إن هذه التجارب أثبتت صحة الحديث النبوي، أيضًا، من الناحية العلمية التجريبية، وإن كنا نتظر ما هو أكثر من ذلك.

إن الأمر المتوقع والمنطقي أن غمس الذباب يزيد من عدد الجراثيم التي تسقط منه في الماء أو الطعام، وذلك لأنها تعطي فرصة أكبر لسقوط الجراثيم عن سطحه، بخلاف وقوفه على الطعام أو الشراب، لأن الذي يمس منه هو أطرافه وخرطومه وأطراف أجنحته، بينما في الغمس يسقط كله. هذا لو كان الأمر عاديًا ومتوقعًا.

بينما أظهرت التجارب عكس ذلك تمامًا، وهذا هو المذهل في الأمر، نتيجة تجارب كثيرة جدًا وتكررت في مدة تزيد عن سنتين في كل من جدة والقاهرة، وفي معامل (مختبرات) الجامعات، ومن قِبَل أساتذة مختصين هدفهم هو الناحية العلمية، وإن كانوا قد فرحوا بالنتائج التي توصوا إليها. إن هذه التجارب أثبتت إعجازًا علميًا في السنة يضاف إلى المعجزات العلمية الأخرى التي تدل على معجزة النبي ﷺ الخالدة، في الكتاب والسنة.

هل ذكر الأجنحة في الحديث النبوي يفيد التخصيص، أم أنه أمر اعتباري؟

ورد في نص الحديث (فَلْيَغْمِسْهُ)، أي: فليغمس الذبابة كلها، فقد دخل في الغمس جسمها مع جناحها، ولم يرد في الحديث غمس الجناحين فقط، مما دل على أن الداء والشفاء في الجناحين أمر اعتباري لا يفيد التخصيص، والأمر بغمسها يؤكد ذلك، وهو لأجل تطهير الشراب من الجراثيم، وذلك بإدخال الباكترئوفاج (عامل الشفاء) والجراثيم، وتحقق وظيفتها على حمل ونقل الجراثيم والباكترئوفاج فقط.

وبذلك يحقق العلماء بأبحاثهم تفسير الحديث النبوي الذي يؤكد ضرورة غمس الذبابة كلها في السائل أو الطعام إذا وقعت عليه (فيه) لإفساد أثر الميكروبات المرضية التي تنقلها. وكذلك يؤكد الحقيقة التي أشار إليها الحديث، وهي أن في أحد جناحها داء (أي: في أحد أجزاء جسمها الأمراض المنقولة بالميكروبات المرضية التي حملتها) وفي الآخر شفاء، وهو المواد الحيوية المضادة التي تفرزها الفطريات الموجودة على بطنها، والتي تخرج وتنطلق بوجود سائل حول خلايا الفطريات المستطيلة.

إن حديث الذباب يتضمن معجزتين علميتين لرسول الله ﷺ:

إحدهما: وجود الميكروب في جانب من الذبابة ووجود المضاد الحيوي في الجانب الآخر.

وأما المعجزة الثانية فهي في كلمة (فَلْيَغْمِسْهُ)، لأن الغمس يتضمن ولوج المنطقة التي بها فطريات حاملة للمضادات الحيوية وللميكروبات ولأن عملية الغمس تسمح للسائل أن ينتشر إلى الغشاء بالانتشار الغشائي حتى ينفجر هذا الغشاء ويخرج السيتوبلازم الذي يحتوي مضادات الميكروبات التي يكفي (٢) ملي جرام منها لتطهير ألف لتر من اللبن الملوث بجميع الميكروبات.

تنبيهات:

- هذا الحديث النبوي لم يدعُ أحدًا إلى صيد الذباب ووضعه عنوةً في الإناء ولم يشجع على ترك الأنية مكشوفة، ولا على الإهمال في نظافة البيوت والشوارع، ولا يتعارض مع الحماية من أخطار انتشار الذباب بأية صورة. ولا يمنع أحدًا من الأطباء والقائمين على صحة الشعب من التصدي للذباب في موطنه ومحاربتة وإعدامه وإبادته.
- وإن من يقع الذباب في إنائه، ويشمئز من ذلك ولا يمكنه تناول ما فيه فإن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.
- بعض الناس يستغرب الأمر فيقول وما المشكلة في أن يرمي الإنسان الشراب وما فيه إذا وقعت فيه ذبابة؟ هذا الأمر قد يسهل على كثير من الناس إذا كان الأمر متعلقًا بأمر يسير، كُوب من الشاي مثلاً، ولكن ضع نفسك مكان شخصٍ متوسط الحال قد وقعت ذبابة في إنائه المحتوي على حساء (شُرْبَة أو مرق) وبضعة كيلوجرامات من اللحم قد أعدها لضيوفه في مناسبة من المناسبات، هل يغمس هذه الذبابة الواحدة ثم ينزعها، ويتجنب الآثار المرضية التي قد تسببها تلك

الذبابة الواحدة أم يسكب ما في الإناء من لحم؟!!!

لعاب الكلب وقوة مضغ التراب لتنظيفه:

لقد شدد رسول الله ﷺ النهي عن مخالطة الكلاب، وهي سباع مدجنة فيها من الطفيليات والجراثيم الدقيقة الشيء الكثير، والتي قد تسبب للإنسان أخطارًا محققة، فقال ﷺ: «لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ» (رواه البخاري ومسلم). وقال ﷺ أيضًا: «مَنْ اتَّخَذَ كَلْبًا، إِلَّا كَلْبَ زَرْعٍ، أَوْ غَنَمٍ، أَوْ صَيْدٍ، يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ» (رواه مسلم).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا وَلَغَ الْكَلْبُ فِي إِنَاءٍ أَحَدِكُمْ فَلْيُرِقْهُ ثُمَّ لِيَغْسِلْهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ» (رواه مسلم). وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ظَهَرُ إِنَاءٍ أَحَدِكُمْ إِذَا وَلَغَ فِيهِ الْكَلْبُ، أَنْ يَغْسِلَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَوْ لَاهَنَّ بِالتُّرَابِ» (رواه مسلم).

ويشير هذان الحديثان الأخيران الواردان عن النبي ﷺ إلى ضرورة إراقة الإناء الذي ولغ فيه الكلب وتطهير الإناء الذي ولغ فيه الكلب بغسله سبع مرات أو لاهن بالتراب.

وقد أكد الأطباء على ضرورة استعمال التراب في عملية غسل الإناء الذي ولغ فيه الكلب وبيّنوا الحكمة في الغسل سبع مرات أو لاهن بالتراب: أن فيروس الكلب دقيق ومُتَنَاهٍ في الصغر، ومن المعروف أنه كلما صغر حجم الميكروب كلما زادت فعالية سطحه للتعلق بجدار الإناء والتصاقه به، ولعاب الكلب المحتوي على الفيروس يكون على هيئة شريط لعابي سائل، ودور التراب هنا هو امتصاص الميكروب - بالالتصاق السطحي - من الإناء على سطح دقائقه.

وقد ثبت علمياً أن التراب يحتوي على مادتين قاتلتين للجراثيم هما (تتراكسلين) و(التتاراليت) وتستعملان في عمليات التعقيم ضد بعض الجراثيم. والغسل بالتراب أقوى من الغسل بالماء، لأن التراب يسحب اللعاب ويسحب الفيروسات الموجودة فيه بقوة أكثر من إمرار الماء، أو اليد على جدار الإناء، وذلك بسبب الفرق في الضغط الحلولي بين السائل (لعاب الكلب) وبين التراب.

وتوقع بعض الباحثين أن يجدوا في تراب المقابر جراثيم معينة بسبب جث الموتى، لكن التجارب والتحليل أظهرت أن التراب عنصر فعال في قتل الجراثيم. فقد قام العلماء في العصر الحديث بتحليل تراب المقابر ليعرفوا ما فيه من الجراثيم، وكانوا يتوقعون أن يجدوا فيه كثيرًا من الجراثيم الضارة، وذلك لأن كثيرًا من البشر يموتون بالأمراض الإبتانية الجرثومية، ولكنهم لم يجدوا في التراب أثرًا لتلك الجراثيم الضارة المؤذية، فاستنتجوا من ذلك أن للتراب خاصية قتل الجراثيم الضارة، ولولا ذلك لانتشر خطرها واستفحل أمرها، وقد سبقهم النبي ﷺ إلى تقرير هذه الحقيقة بهذه الأحاديث النبوية الشريفة.

تمييز بول الغلام الرضيع:

قَالَ ﷺ: «يُغَسَّلُ مِنْ بَوْلِ الْجَارِيَةِ وَيُرْسُ مِنْ بَوْلِ الْغُلَامِ». (رواه أبو داود، وصححه الألباني). وعن أمِّ قَيْسِ بْنِتِ مُحَمَّدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِابْنِهَا لَمَّا يَبْلُغُ أَنْ يَأْكُلَ الطَّعَامَ، فَأَجْلَسَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حِجْرِهِ، فَبَالَ عَلَى ثَوْبِهِ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَنَضَّحَهُ وَلَمْ يَغْسِلْهُ غَسْلًا. (رواه البخاري ومسلم).

يُفْهَمُ من هذين الحديثين فقهيًا أن بول الغلام الذي لم يأكل الطعام نجاسته مخففة ويكتفى فيها بالنضح أي الرش بالماء، ويفهم منها علميًا وجود فارق طبيعي يجعل بول الغلام الذي لم يأكل الطعام أقل عرضة للتلوث وأخف نجاسة.

وقد قامت الأستاذة أصيل محمد علي، جامعة دهوك - كلية العلوم - قسم الفيزياء - العراق، والدكتور أحمد محمد صالح، جامعة دهوك - كلية الطب - قسم الأحياء المجهرية الطبية - العراق، بعمل دراسة لنسبة تواجد البكتيريا في بول الأطفال الرضع وحديثي الولادة، لغرض دراسة الحديث النبوي الشريف من الناحية العلمية ومعرفة الفرق بين بول الغلام والجارية الرضع، حيث تم التركيز على عدد البكتيريا في العينات وكذلك نوع البكتيريا من ناحية صبغة جرام (السالبة والموجبة). وقد أثبتت هذه الدراسة عمليًا بالتجربة أنه قبل اكتشاف البكتيريا بقرون كان النبي محمد ﷺ موصولًا بالوحي معلمًا من قبل العليم الحكيم.

اعتمدت هذه الدراسة على عينات جُمعت لـ ٧٣ طفلاً تم اختيارهم بشكل عشوائي باستخدام الأكياس البلاستيكية المعقمة والمخصصة لهذا الغرض. وفُحصت العينات مباشرةً في المختبر باستخدام صبغة جرام حيث تم تحضير مسحة من راسب كل بول على شريحة زجاجية ثم صبغها بصبغة جرام. أظهرت النتائج وجود فروق معنوية في نسبة عدد البكتيريا بين الجنسين الذكري والأنثوي.

وقد كانت النتائج على النحو التالي:

أولاً: في الفئة العمرية حتى ٣٠ يوم كانت نسبة تواجد البكتيريا في بول الرضع الإناث ٤٤, ٩٥٪ أكثر من الرضع الذكور حيث بلغ عدد البكتيريا في الحقل المجهرى لبول الرضع الإناث ٩, ٤١ بينما بلغ العدد ٢ في نفس الحقل للرضع الذكور.

ثانياً: في الفئة العمرية ١ - ٢ شهر كانت نسبة تواجد البكتيريا في بول الرضع الإناث ٤٨, ٩١٪ أكثر من الرضع الذكور حيث بلغ عدد البكتيريا في الحقل المجهرى لبول الرضع الإناث ١, ٢٤ بينما بلغ العدد ٢٥, ٢ في حالة الرضع الذكور.

ثالثاً: في الفئة العمرية ٢ - ٣ شهر كانت نسبة تواجد البكتيريا في بول الرضع الإناث ٦٩, ٩٣٪ أكثر من الرضع الذكور حيث بلغ عدد البكتيريا في الحقل المجهرى لبول الرضع الإناث ١, ٢٤ بينما بلغ العدد ٦, ١ في حالة الرضع الذكور.

رابعاً: في الفئة العمرية أكثر من ٣ شهور كانت نسبة البكتيريا في بول الرضع الإناث ٦٩٪ أكثر من الرضع الذكور حيث بلغ عدد البكتيريا في الحقل المجهرى لبول الرضع الإناث ٩, ١٣ بينما بلغ العدد ٨, ٦ في حالة الرضع الذكور.

ويلاحظ في حالة الرضع الإناث تناقص عدد البكتيريا مع التقدم في العمر، وفي حالة الرضع الذكور عقب انخفاض أولي تزايد عدد البكتيريا مع تناول الطعام والتقدم في العمر تماماً كما أفاد الحديث النبوي.

هذا هو أول بحث تجريبي في هذا المجال، وبالطبع لم يدرك أحد منذ زمن الوحي فروقا بين بول الجارية وبول الغلام الذي لم يأكل الطعام بعد حتى أن الفقهاء قد

اجتهدوا في التعليل، لكن براهين الوحي تشع اليوم بنور اليقين، ودين تتفق تشريعاته مع حقائق التكوين لن تبيده أبداً حيلٌ مهما بلغت أو عتاد.

ماء زمزم؛

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ: «مَاءُ زَمَزَمَ لِمَا شَرِبَ لَهُ» (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني).

(مَاءُ زَمَزَمَ) الذي هو أشرف المياه وأجلها قدرًا وأحبها إلى النفوس. (لِمَا شَرِبَ لَهُ) عام في كل ما نواه شاربه لدفعه أو جلبه، والحديث إخبارٌ بأن الله قد جعله لكل مطلوب، والعمدة صلاح نيات القلوب وقد ذكر جماعة من العلماء والصالحين أمورًا شربوه لأجلها فنالوها.

فماء زمزم إن شربته لعطش رويت وإن شربته لجوع شبعت حتى إن بعض العلماء أخذ من عموم هذا الحديث أن الإنسان إذا كان مريضًا وشربه للشفاء شفى وإذا كان كثير النسيان وشربه للحفظ صار حافظًا.

وقال عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خَيْرُ مَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَاءُ زَمَزَمَ؛ فِيهِ طَعَامٌ مِنَ الطَّعْمِ وَشِفَاءٌ مِنَ السُّقْمِ» (رواه الطبراني، وصححه الألباني).

(فِيهِ طَعَامٌ مِنَ الطَّعْمِ) أي طعام إشباع أو طعام شبع من إضافة الشيء إلى صفته، والطعم: الطعام (وَشِفَاءٌ مِنَ السُّقْمِ) أي شفاء من الأمراض إذا شُرب بنية صالحة.

وفي قصة أبي ذر رضي الله عنه أنه لما دخل مكة أقام بها شهرًا لا يتناول غير مائها وقال: «مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمَزَمَ فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُنُقُ بَطْنِي وَمَا أَجِدُ عَلَى كَيْدِي سُخْفَةَ جُوعٍ»، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ إِنَّهَا طَعَامٌ طَعْمٍ» (رواه مسلم).

(حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُنُقُ بَطْنِي) يَعْنِي إِشْنَتْ لِكثْرَةِ السَّمَنِ وَأَنْطَوَتْ. (سُخْفَةَ جُوعٍ) أي رِقَّةُ الْجُوعِ وَصَعْفُهُ وَهَزَالُهُ. قَوْلُهُ صلى الله عليه وآله وسلم فِي زَمَزَمَ: «إِنَّهَا طَعَامٌ طَعْمٍ» أي تُشْبَعُ شَارِبَهَا كَمَا يُشْبَعُهُ الطَّعَامُ.

تقع بئر زمزم المباركة بجوار باب بني شيبه، وبينها وبين الحجر الأسود ١٨ مترًا. وقد قامت المملكة العربية السعودية بأضخم عملية تنظيف للبئر، ووضعت خارطة دقيقة لأبعادها ومصادر تغذيتها بالمياه.

وقد عُرفت منذ زمن إسماعيل عليه السلام، حين كانت أمه "هاجر" تبحث عن الماء لإرواء عطشه بين الصفا والمروة، عندما أمر الله تعالى أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام أن يُسكن ذريته بوادي مكة، فأنعم الله عليها وعلى ابنها بنبع الماء. واهتم المسلمون منذ أيام الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وحتى يومنا هذا بهاء زمزم، وحرصوا على الشرب منه اتباعًا لسنة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

خصائص ماء زمزم:

إن هذا البئر العظيم لم ينضب أبدًا منذ أن ظهر للوجود بل على العكس فهو يمدنا بالمزيد من الماء ومن يذهب لبيت الله الحرام يُدهش من كثرته وكفايته لجميع الحجاج، وهو لا يزال يحتفظ بنفس نسب مكوناته من الأملاح والمعادن منذ أن ظهر للوجود حتى يومنا هذا.

كما يتميز ماء زمزم بوفرته رغم كثرة زوار بيت الله الحرام، إذ بلغ متوسط المستهلك منه في اليوم السابع من شهر ذي الحجة خلال بعض السنوات الماضية نحو عشرة آلاف متر مكعب في الساعة. وفي ١٤ ربيع الثاني عام ١٣٩٩ هـ سجل عمق الماء في البئر ٦, ١٥ متر، وذلك خلال القيام بأعمال التوسعة السعودية الثانية للمسجد الحرام وما تبعها من أعمال حفر حول بئر زمزم.

إضافة لصلاحيته للشرب لجميع الحجاج من جميع أنحاء العالم، فلم يحدث أن اشتكى مخلوق من أثر مياهه على صحته أو ما شابه ذلك، بل على العكس فهم دائمًا ما يستمتعون بالمياه التي تنعشهم على الدوام، ولكن يلاحظ أن مذاق المياه يتغير عندما تنتقل إلى مكان آخر، وكذلك الرغبة لماء زمزم عالمية، فهذه المياه الطاهرة لم يتم معالجتها كيميائيًا أو بمواد التبييض كما هو الحال مع المياه التي تضخ للمدن.

ويلاحظ أنه في حالة الآبار العادية يزداد النمو البيولوجي والنباتي في داخل البئر مما يجعل المياه غير صالحة للشرب نظرًا لنمو الطحالب مما يسبب مشكلات في الطعم والرائحة، ولكن في حالة بئر زمزم، لم يكن هناك أي دليل على النمو البيولوجي. كما تُظهر نتائج تحاليل ماء زمزم لـ"مركز أبحاث الحج بجامعة الملك عبد العزيز" أن ماء زمزم نقي لا لون له ولا رائحة، ذو مذاق رائع قليلًا، أسه الهيدروجيني (٧,٨) وبذلك يكون قلويًا إلى حد ما ويحتوي على تركيزات عالية من الصوديوم والكالسيوم والماغنسيوم والمعادن الأخرى ولكنها تقع ضمن مقاييس منظمة الصحة العالمية ماعدا الصوديوم فهو مرتفع.

ومن الجدير بالذكر أن العناصر السامة الأربعة وهي الزرنيخ والرصاص والكاديوم والسيلينيوم توجد فيه بأقل من مستوى الضرر بكثير بالنسبة للاستخدام البشري، ومن المعالجة بالأشعة فوق البنفسجية وجد أن ماء زمزم خالية من الجراثيم. مما تقدم يتضح لنا أن ماء زمزم قلوي غني بالمعادن المفيدة للجسم، ويعادل الأس الهيدروجيني للجسم ويزيل الفضلات الحمضية من الجسم، كما أنه مضاد قوى للأكسدة ومزيل قوى للسموم.

كما يساعد على امتصاص العناصر الغذائية بكفاءة أفضل إلى داخل الجسم ويساعد الجسم في تمثيل المعادن المؤيِّنة بسهولة أكبر، بالإضافة إلى أنه يساعد على تنظيم الهضم وتحسينه بصفة عامة بإعادة التوازن للجسم، ويقلل من تأكسد الأعضاء الحيوية، وله مُعامل أكسدة واختزال سالب لذلك يعد وسطًا معاديًا للبكتيريا.

ومن الجدير بالذكر أنه أثناء التعرض للجو شديد الحرارة يحدث نقص في كل من الصوديوم والبوتاسيوم في سير الدم ومع المجهود الشديد يزيد معدل الفقد في كل من الصوديوم والبوتاسيوم مع زيادة كمية العرق، وهذا قد يفسر ارتفاع الصوديوم في ماء زمزم عن المعدل المسموح به لتعويض هذا النقص حيث الجو شديد الحرارة في هذه الأماكن المقدسة.

وفرة ماء زمزم:

صدرت توجيهات ملكية للرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين بضرورة مراعاة حماية البئر من أي تسربات ناتجة عن أعمال الحفر، وقد تم تحديد معالم البئر لأول مرة في التاريخ في عهد الملك خالد بن عبد العزيز رحمته الله، وتم تنظيف قاع البئر من التراكمات التي تجمعت بداخله منذ أكثر من ألف عام وبلغ ارتفاعها عشرة أمتار من قاع البئر ووزنها عشرة أطنان، وأصبح عمق الماء في البئر بعد ذلك ٦, ٢٥ متر، وينخفض منسوب الماء عن سطح فوهة البئر ما بين ٨, ٣ و ٥, ٤ أمتار حالياً.

وفي منبعه الأساسي سر غامض يعتبره علماء الجيولوجيا كنزاً كبيراً ربما يستحيل كشف رموزه إلى أن تقوم الساعة، حيث ما من ماء يصل إلى هذا النبع حتى يكتسب خواص ماء زمزم، نقاوةً وطهارةً، هذه النتيجة ليست نظرية أو غيبية أو منقولة من بطون الكتب القديمة، لكنها خلاصة أبحاث علمية شملت البئر وماءه ودرجة نقائه، وشملت مياه آبار أخرى قريبة جداً منه، وُجد أنها لا تتمتع بنفس الخواص، حيث يفيض الماء منه منذ آلاف السنين دون أن يجف البئر أو ينقص حجم المياه فيه.

وكانت مفاجأة مدهشة للعلماء أثناء توسعة الحرم المكي وتشغيل مضخات ضخمة لشفط المياه من بئر زمزم حتى يمكن وضع الأساسات، أن غزارة المياه المسحوبة قبلها فيضان مستمر في الماء، يفور ويمور كأنه أمواج البحر.

ماء زمزم في مجال الكشوفات الحديثة:

حدث في عام ١٩٧١م ما يبرهن على خصوصية ماء زمزم، حيث قام أحد الأطباء بإرسال خطاب إلى دار نشر أوروبية مضمونه أن ماء زمزم لا يصلح لغرض الشرب، وهو قد بنى افتراضه هذا على أساس أن الكعبة مكان ضحل بمعنى أنها تحت مستوى سطح البحر، كما أنها تقع في مركز مكة فكل هذه الظروف تعني أن مياه الصرف المتجمعة من المدينة كلها تصرف من خلال البالوعات في بئر واحدة تجمعها كلها.

ولحسن الحظ قد وصلت هذه الأنباء إلى الملك فيصل آنذاك، الذي استشاط غضبه لسماح هذه الأنباء وقرر أن يبطل هذه الدعاوى المستفزة، ففي الحال أصدر أوامره إلى وزارة الزراعة ومصادر المياه للتحري وإرسال عينات من ماء زمزم إلى المعامل الأوروبية لفحصها لمعرفة مدى صلاحيتها للشرب، وذهب الخبراء إلى مكة لهذا الغرض، وكلفوا أحد العمال من الرجال لمساعدتهم على تنفيذ ما يريدون أثناء الفحص العملي لبئر زمزم.

وعندما وصلوا إلى البئر بإذن من المسؤولين كان من الصعب عليهم التصديق بأن حوضاً من الماء يشبه البركة الصغيرة، ولا يزيد عمقه عن ١٤ إلى ١٨ قدماً هو نفسه البئر الذي يمدنا بملايين من الجالونات من الماء كل عام للحجاج والمعتمرين، وهو أيضاً قد جاء للوجود منذ قرون طويلة.

وهنا بدأ الخبراء عملهم وبدأوا في أخذ أبعاد البئر، وطلب الخبراء من العامل المكلف لمساعدتهم بأن يريهم مدى عمق البئر، ففي أول الأمر نزل الرجل في الماء رأى الخبراء أن الماء قد تعدى كتفيه بمسافة بسيطة، وكان طول ذلك الرجل حوالي ٥ أقدام و ٨ بوصات ولنا أن نتصور في مخيلتنا أن الماء في البئر لم يكن عميقاً، ثم بعد ذلك بدأ الرجل يتحرك في البئر من مكان إلى آخر بحيث لا يصل إلى مرحلة غمر رأسه في الماء وذلك لكي يبحث عن مصدر نفاذ الماء إلى البئر، ومع هذا فقد أكد الرجل أنه لا يستطيع أن يحدد وجود أي منفذ تأتي منه المياه إلى البئر.

وحير الأمر الباحثين، فجاءتهم فكرة أخرى وهي استخدام مضخة كبيرة ناقلة لضخ المياه خارج البئر إلى خزانات ماء زمزم وبهذا ينخفض منسوب المياه في البئر، فجأة وهنا يمكن تحديد النقطة التي ينفذ منها الماء إلى البئر، وهذا الأمر لم يكن غاية في الصعوبة لأن منسوب المياه لم يكن عالياً للدرجة التي تعوق الضخ، بل بالعكس كان تحديد نقطة نفاذ المياه إلى البئر من المتوقع أن يكون سهلاً لأن هذه كانت هي الطريقة الوحيدة التي تعرف بها نقطة نفاذ الماء إلى البئر.

وفي نفس الوقت أشار الباحثون إلى العامل المرافق لهم أن يقف مكانه داخل البئر ولا يتحرك، وأن يلاحظ بعناية أية ظاهرة غير عادية من الممكن أن تحدث داخل البئر.

وبعد لحظة رفع العامل يديه وهو يصرخ قائلاً: «الحمد لله ... لقد وجدتها»، فقد لاحظ أن الرمال ترقص تحت قدميه، وأن المياه ترشح في قاع البئر أي أن المياه تنبع فعلاً من تحت الرمال.

تحرك العامل خلال البئر ولاحظ أن تلك الظاهرة موجودة بالفعل في جميع أنحاء البئر، وفي واقع الأمر كان تدفق الماء إلى داخل البئر خلال القاع متساوياً في كل نقطة من نقاط البئر، وبهذا يحافظ على منسوب الماء في البئر ثابتاً، وبعد ذلك أخذ الخبراء يسجلون نتائجهم، ثم أخذوا عينات من ماء زمزم لفحصها في معامل أوروبا.

وقبل أن يرحل الخبراء سألوا عن الآبار المحيطة بمكة فتم إخبارهم بأنها كلها جافة تقريباً، وحاول أحد الخبراء أن يجد تبريراً لظاهرة رشح المياه من تحت الرمال فوضع أحدهم افتراضاً بأن بئر زمزم قد يكون مرتبطاً داخلياً بئ البحر الأحمر، ولكن هذا الافتراض لم يكن منطقياً، فكيف يكون ذلك منطقياً وكل الآبار المحيطة بمكة جافة وكذلك أن مكة تبعد عن البحر الأحمر بحوالي ٧٥ كم، وقد ثبت تطابق نتائج فحص الخبراء للمياه مع نتائج معامل أوروبا.

وكان الفرق بين ماء زمزم وماء الشرب الذي يضخ في المنازل هو نسبة أملاح الكالسيوم والماغنيسيوم، فلقد كانت نسبتها أعلى في ماء زمزم وهذا هو السبب في أنها تنعش الحجاج المتعبين، والأكثر أهمية من ذلك هو أن ماء زمزم يحتوي على فلوريدات مضادة للجراثيم بشكل عالي الفعالية، والأهم من كل هذا هو أن المعامل في أوروبا أثبتت أن الماء فعلاً صالح للشرب، وبهذا ثبت بطلان الافتراض الذي أدلى به ذلك الطبيب.

وجه الإعجاز:

يقول ابن القيم رحمته: «لقد جربت أنا وغيري من الاستشفاء بماء زمزم أموراً عجيبة، واستشفيت به من عدة أمراض فبرأت بإذن الله، وشاهدت من يتغذى به الأيام ذوات العدد قريباً من نصف الشهر أو أكثر ولا يجد جوعاً ويطوف مع الناس كأحدهم وأخبرني أنه ربما بقي عليه أربعين يوماً وكان له قوة يجامع بها أهله ويصوم ويطوف مراراً»^(١).

قصص واقعية في الاستشفاء بماء زمزم:

إن قصص المتفاعلين من ماء زمزم القديمة والمعاصرة كثيرة جداً أذكر منها قصة عاصرتُها بنفسِي، وأقسم بالله على صدقها، وهي أن زوجتي بعد أن رزقنا الله بمولودتنا الأولى في ١١ رمضان ١٤١٨ هـ الموافق ٩ يناير لعام ١٩٩٨ م، أصيبت بكيس دهني في منطقة الذقن، وقال الأطباء حينها إن إزالته لا تكون إلا عن طريق الجراحة.

ولكن في ذلك الوقت كانت عندها ظروف صحية تحول دون إجراء تلك الجراحة، وبعد فترة وجيزة وبعد انقضاء عطلة نصف العام سافرتُ معي إلى السعودية حيث كنت أعمل مدرساً في جدة، وأدت معي فريضة الحج، وشربت من ماء زمزم بنية الشفاء ووضعتُ منه على الكيس الدهني، وبعد فترة من الزمن - لا نذكرها تحديداً - فوجئنا باختفاء الكيس الدهني تماماً، وزوال تلك الظروف الصحية التي كانت تحول دون إجراء الجراحة، وصدق رسول الله ﷺ في قوله عن ماء زمزم أنها: شفاءٌ من السُّقم.

(١) زاد المعاد، (٤/٣٥٦).

وقد حدثني أحد زملاء العمل أن الله ﷻ قد شفاه من مرض البواسير بعد شربه الكثير من ماء زمزم، وعندما ذكرت ذلك في أحد المجالس حدثني أحد الأصدقاء بأنه حدث معه نفس الشيء.

ومن القصص التي قرأتها في الاستشفاء بماء زمزم ما ذكره أحد المسلمين بعد عودته من أداء فريضة الحج فقال: حدثني سيدة فاضلة اسمها "يسرية عبد الرحمن حراز" كانت تؤدي معنا فريضة الحج ضمن وزارة الأوقاف عن المعجزة التي حدثت لها ببركات ماء زمزم فقالت: إنها أصيبت منذ سنوات بقرحة قرمزية في عينها اليسرى نتج عنها صداع نصفي لا يفارقها ليل نهار، ولا تهدئ منه المسكنات، كما أنها كادت تفقد الرؤية تماماً بالعين المصابة لوجود غشاوة بيضاء عليها. وذهبت إلى أحد كبار أطباء العيون فأكد أنه لا سبيل إلى وقف الصداع إلا بإعطائها حقنة تقضي عليه، وفي نفس الوقت تقضي على العين المصابة فلا ترى إلى الأبد.

وفزعت السيدة يسرية لهذا النبأ القاسي، ولكنها كانت واثقة في رحمة الله ﷻ ومطمئنة إلى أنه سيهيئ لها أسباب الشفاء رغم جزم الطب والأطباء بتضاؤل الأمل في ذلك. ففكرت في أداء عمرة، كي تتمكن من التماس الشفاء مباشرةً من الله عند بيته المحرم.

وذهبت إلى مكة وطافت بالكعبة، ثم اتجهت إلى ماء زمزم لتتملاً كوباً منه وتغسل به عينها. وبعد ذلك أتمت السعي وعادت إلى الفندق الذي تنزل به. وفوجئت بعد عودتها إلى الفندق أن عينها المريضة أصبحت سليمة تماماً، وأن أعراض القرحة القرمزية توارت ولم يعد لها أثر يُذكر.

ومثل هذه الحكاية وحكايات أخرى نسمع عنها من أصحابها أو نقرؤها، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على صدق ما قاله الرسول ﷺ عن هذه البئر المباركة زمزم، فيروي صاحب هذه الحكاية الدكتور فاروق عنتر فيقول: «لقد أصبت منذ سنوات بحصاة في الحالب، وقرر الأطباء استحالة إخراجها إلا بعملية جراحية،

ولكنني أَجَلْتُ إجراء العلمية مرتين. ثم عَنَّ لي أن أؤدي عمرة، وأسأل الله أن يُمِّنَ عَلَيَّ بنعمة الشفاء وإخراج هذه الحصاة بدون جراحة؟».

وبالفعل سافر الدكتور فاروق إلى مكة، وأدى العمرة وشرب من ماء زمزم، وقَبَّل الحجر الأسود، ثم صلى ركعتين قبل خروجه من الحرم، فأحس بشيء يوخزه في الحالب، فأسرع إلى دورة المياه، فإذا بالمعجزة تحدث، وتخرج الحصاة الكبيرة، ويُشْفَى دون أن يدخل غرفة العمليات. لقد كان خروج هذه الحصاة مفاجأة له وللأطباء الذين كانوا يقومون على علاجه، ويتابعون حالته.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل تجرأ أحدٌ يوماً على أن يعطي لبئر من الآبار من المزايا والخصائص ما أعطاه رسولنا الكريم ﷺ لبئر زمزم؟ ثم هل كان النبي ﷺ صادقاً فيما أخبر به؟ فالجواب ولا شك: نعم، فما أخبر به ﷺ فيما سِوى ذلك هو كذلك صدقٌ وحقٌ وأوحاه الله تعالى له من غير تبديل ولا نقصان ولا تحريف.

الكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ). ورواه مسلم بلفظ: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ».

ما معنى قوله ﷺ: «وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»؟ هذا من طبه ﷺ ونحن نؤمن بذلك إيمان اليقين ولكن ينبغي الرجوع في ذلك إلى ذوي الاختصاص المؤمنين لأن وصفة الطبيب لا يجوز استعمال أي مريض لها بدون مراجعته، بل الذي يقرره الأطباء ضرورة رجوع المريض نفسه إلى الطبيب الذي أعطاه الوصفة ليقرر له هل يناسب استعمالها الآن مزاجه فيكررها أم لا.

ما هي الكمأة:

هي نوع من الدرنيات والجذور التي لا ورق لها ولا ساق تخرج في الأرض بدون زرع وتكثر أيام الخصب وكثرة المطر والرعد، وهو نبات يُنْقَضُ الأَرْضُ فيخرج

كما يخرج الفطر، وهو معروف من نبات الأرض والعرب تسمية جذري الأرض، فسماه الشارع مناً أي طعاماً بغير عمل كالمن الذي أنزل على بني إسرائيل.

أما التفسير العلمي الذي عرف حتى الآن لتكون درنات الكمأة في الأرض، فهو أن البرق يضع تحت تصرف الغلاف الجوي الطاقة اللازمة لتشكيل العديد من الأكاسيد والمركبات الغذائية (مركبات الأزوت)، ويعمل الرعد على ترسيب هذه المركبات، إما على صورة جافة بفعل الثقالة الأرضية (الجاذبية)، وإما على صورة محاليل مائية بفعل حبات المطر، فتصل الطبقة السطحية للأرض بعد أن رفع الرعد من قدرتها على تخزين الماء والغذاء اللازمين لنمو فطر الكمأة وعائلة (جردة الكمأة)، ومن المحتمل أن يكون الدور الرئيسي للرعد في إرسال بعض الموجات الصوتية التي من شأنها أن تمزق أغلفة أنواع فطر الكمأة الكامنة، فتنشط بوجود الماء والتربة الرخوة وتبدأ عملية (الفقع) إلى سطح التربة.

والكمأة توجد في الأرض من غير أن تزرع، والعرب تسمى الكمأة أيضاً نبات الرعد لأنها تكثر بكثرتة ثم تنفطر عنها الأرض وهي كثيرة بأرض العرب وتوجد بالشام ومصر والعراق، وأجودها ما كانت أرضه رملية قليلة الماء ومنها صنف يضرب لونه إلى الحمرة، وهي باردة رطبة رديئة للمعدة بطيئة الهضم، ويسميه أهل الخليج أو أهل الجزيرة العربية: (الفقع) وهو جمع لكلمة فقعة، وفي منطقة بلاد الشام، يسمونه "الكماه" تمييزاً لـ "الكمأة" وهو اسمه العربي الوارد في الحديث، ينمو تحت سطح الأرض على أعماق متفاوتة تصل ما بين ٢ سم إلى ٥٠ سم ولا تظهر له أجزاء فوق سطح الأرض على الإطلاق، فلا ورق، ولا زهر، وهو نبات لا جذر له.

أما محاولة زراعتها بتدخل الإنسان في ذلك، فقد باءت جميع المحاولات حتى الآن بالفشل.

أنواع الكمأة:

توجد عدة أنواع من الكمأة ولا يكاد تختلف عن بعضها كثيراً سوى اختلاف بسيط في ألوانها مثل الزبيدي ولونه يميل إلى البياض وحجمه كبير قد يصل إلى حجم

البرتقالة الكبيرة وأحياناً أكبر من ذلك، والخلاسى ولونه أحمر وهو أصغر من الزبيدي ولكنه في بعض المناطق ألد وأعلى في القيمة من الزبيدي، والجبي ولونه أسود إلى حمرة وهو صغير جداً، والهوبر ولونه أسود وداخله أبيض وهذا النوع يظهر قبل ظهور الكمأة الأصلية وهو يدل على أن الكمأة ستظهر قريباً، ويعتبر هذا النوع أهدأ أنواع الكمأة ونادراً ما يؤكل.

المحتويات الكيميائية للكمأة:

تبين من تحليل الكمأة احتوائها على البروتين بنسبة ٩٪، والمواد النشوية بنسبة ١٣٪، ودهون بنسبة ١٪، لهذا فهي ذات مردود حراري متواضع، وتحتوي على معادن مشابهة لتلك التي يحتويها جسم الإنسان مثل الفوسفور، والصدوديوم، والكالسيوم، والبوتاسيوم، كما تحتوي على فيتامين ب، وهي غنية بهذا الفيتامين. كما تحتوي على كمية من النيتروجين بجانب الكربون، والأكسجين، والهيدروجين، وهذا ما يجعل تركيبها شبيهاً بتركيب اللحم، وطعم المطبوخ منها مثل طعم كلى الضأن، أضف إلى هذا رائحة الكمأة المحببة وطعمه الأشهى، مما يغري الكثيرين بالإقبال عليه.

كيفية العلاج بالكمأة:

اختلفت طرق ووسائل العلاج بالكمأة كما اختلفت طرق ووسائل أكله، فكل بلد له طريقة خاصة في أكله أو العلاج به، غير إن المشتهر عنه أنه غذاء لذيد وشهى، هذا ما تعارف عليه الناس من القدم إلا أن البعض استطاع أن يكتشف أنه سبب لعلاج بعض الأمراض بإذن الله. قال ابن القيم نقلاً عن الغافقي: «ماء الكمأة أصلح الأدوية للعين إذا عجن به الإثمد واكتحل به، ويقوي أجفانها ويزيد الروح الباصرة قوة وحدة ويدفع عنها نزول النوازل»^(١).

(١) زاد المعاد، (٤/٣٢٦).

وقال النووي: «وَالصَّحِيحُ بَلِ الصَّوَابِ أَنَّ مَاءَهَا مُجَرَّدًا شِفَاءً لِلْعَيْنِ مُطْلَقًا فَيَعَصِرُ مَاءُهَا وَيُجْعَلُ فِي الْعَيْنِ مِنْهُ وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَا وَعَيْرِي فِي زَمَانَا مَنْ كَانَ عَمِيَ وَذَهَبَ بَصْرُهُ حَقِيقَةً فَكَحَلَ عَيْنَهُ بِمَاءِ الْكَمَاءَةِ مُجَرَّدًا فَشَفِيَ وَعَادَ إِلَيْهِ بَصْرُهُ وَهُوَ الشَّيْخُ الْعَدْلُ الْأَيْمَنُ الْكَمَالُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الدَّمَشْقِيُّ صَاحِبُ صَلاَحٍ وَرِوَايَةٍ لِلْحَدِيثِ وَكَانَ اسْتِعْمَالُهُ لِمَاءِ الْكَمَاءَةِ اعْتِقَادًا فِي الْحَدِيثِ وَتَبَرُّكًا بِهِ فَتَفَعَّلَهُ اللَّهُ بِهِ»^(١).

الكمأة في عصرنا هذا:

تستعمل الكمأة لعلاج هشاشة الأظافر وسرعة تكسرها أو تقصفها وتشقق الشفتين واضطراب الرؤية، وقد أجريت العديد من الدراسات والأبحاث على مرضى مصابين بالرمد الحبيبي أو التراكوما - وهو التهاب مزمن ومعدٍ يصيب العين ويؤدي إلى تليف القرنية، مما قد يتسبب في فقدان البصر - فاستُخدم ماء الكمأة في علاج نصف المرضى، واستخدمت المضادات الحيوية في علاج النصف الآخر.

فتبين أن ماء الكمأة قد أدى إلى نقص شديد في تكون الخلايا اللمفاوية والألياف التي تنتج عن هذا الالتهاب، والتي تسبب العتامة في القرنية، بعكس الحالات الأخرى التي استخدمت فيها المضادات الحيوية، فهو يقلل من حدوث هذا التليف في قرنية العين وذلك بوقف نمو الخلايا المكوّنة للألياف، كما أنه في نفس الوقت يقوم بمعادلة التأثير الكيميائي لسُموم التراكوما، ويمنع النمو غير الطبيعي للخلايا الطلائية للملتحمة في العين، ويزيد من التغذية لهذه الخلايا عن طريق توسيع الشعيرات الدموية بالملتحمة، ولأن معظم مضاعفات الرمد الحبيبي تنتج عن عملية تليف قرنية العين، فإن ماء الكمأة يمنع من حدوث هذه المضاعفات بإذن الله.

وفي المؤتمر العالمي الأول عن الطب الإسلامي ألقى الدكتور المعتر بالله المرزوقي محاضرة عن نتائج معالجته لآفات عينية مختلفة بتقطير ماء الكمأة في العين،

(١) شرح صحيح مسلم (٥/١٤).

ولقد تم استخلاص العصارة المائية منها في مختبر فيلانوف بأوديسا، ثم تم تخفيف السائل حتى يتمكن من الاحتفاظ به لفترة طويلة وعند الاستعمال تم حل المسحوق في ماء مقطر لتصل إلى نفس تركيز ماء الكمأة الطبيعي وهو ماء بني اللون له رائحة نفاذة ولقد عالج به حالات متقدمة من (التراكوما).

فكانت النتائج إيجابية حيث تم تشخيصه عند ٨٦ طفلاً، تم تقسيمهم إلى مجموعتين مجموعة عولجت بالأدوية المعتادة ومجموعة عولجت بعدما أضيف ماء الكمأة إلى تلك المعالجات حيث تم تقطير ماء الكمأة في العين المصابة ٣ مرات يومياً ولمدة شهر كامل وكان الفرق واضحاً جداً بين المجموعتين فالحالات التي عولجت بالأدوية المعتادة ظهر فيها تليف في ملتحمة الجفون أما التي عولجت بماء الكمأة المقطر عادت الملتحمة إلى وضعها السوي دون تليف الملتحمة.

ظهرت هذه الحقائق العلمية مكشوفة واضحة وأخبرنا بها رسول الله ﷺ بدون معامل ولا مختبرات ولا تحليلات، فظهر صدق ما أخبر به الحبيب المصطفى من كون الكمأة شفاءً للعين وهذا يدل على أن محمداً ﷺ رسول من الله للعالمين لا ينطق عن الهوى ولا يتكلم بالخرافات ولا هو ساحر ولا مجنون.

فكان قوله هذا سبقاً علمياً وإعجازاً نبوياً، تحدى فيه الأطباء والباحثين، قبل أن تتطور العلوم ويكتشف الناس هذه الحقائق في العصر الذي تباهى الناس فيه بالعلم وركنوا إليه، وليتهم جعلوا منه طريقاً إلى الإيوان بالله ﷻ وبرسوله ﷺ.

عَجَبُ الذَّنْبِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجَبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (رواه البخاري ومسلم). وفي رواية عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْإِنْسَانِ عَظْمًا لَا تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ أَبَدًا فِيهِ يُرَكَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قَالُوا: «أَيُّ عَظْمٍ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟». قَالَ: «عَجَبُ الذَّنْبِ». (رواه مسلم).

وفي رواية عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله قَالَ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ مِنْهُ حُلِقَ وَفِيهِ يُرْكَبُ».

(العَجْبُ): هو العظم الذي في أسفل الصُّلب عند العَجْز (الجزء الخلفي في نهاية السلسلة الفقارية).

يُستنتج من هذه الأحاديث الصحيحة الحقائق التالية:

- أن عجب الذنب مكوّن أساس يتركب منه الجنين في مراحلهِ الأولى.
- فالإنسان يبدأ خلقه في مرحلة التكوين من عجب الذنب.
- عجب الذنب لا يبلى، ولا تأكله الأرض.
- فيه يركب الخلق يوم القيامة، فمنه يعاد خلق الإنسان يوم القيامة.

إن ثبوت الاستتاج الأول علمياً (عجب الذنب مكوّن أساس يتركب منه الجنين في مراحلهِ الأولى) يكفي لقبول الاستتاج الثالث (فيه يركب الخلق يوم القيامة) والذي هو قطعاً من الغيب الذي لا يمكن الخوض فيه، وفي ذلك أدلة على أمور عديدة منها:

- الدليل على أن البعث حق.
- الدليل على نبوة الرسول صلوات الله عليه وآله لما ثبت من صدق حديثه.
- الدليل على سلامة منهج سلف هذه الأمة في سلامة النقل عن رسول الله صلوات الله عليه وآله حتى وصلت إلينا الأحاديث النبوية الشريفة كما أخبر عنها.

المسألة الأولى التي ذكرتها الأحاديث النبوية: وهي أن الإنسان يبدأ خلقه من

عجب الذنب:

أوضح علم الأجنة الحديث أن عجب الذنب هو الشريط الأولي، حيث إن هذا الشريط الأولي هو الذي يتكون إثر ظهوره الجنين بكافة طبقاته وخاصة الجهاز العصبي، ثم يندثر هذا الشريط ولا يبقى منه إلا أثر فيما يسمى عظم العصعصي (عجب الذنب).

ونتيجة لظهور الشريط الأولى يبدأ تكوُّن الجهاز العصبي والنوتوكورد (سالفة العمود الفقري) كما تتكون الطبقة المتوسطة (الميزودرم) ويشهد الجنين بداية تكوين الأعضاء، أما عند غياب أو عدم تكون الشريط الأولى فإن هذه الأعضاء لا تتكون وبالتالي لا يتحول القرص الجنيني البدائي إلى مرحلة تكون الأعضاء بها فيها الجهاز العصبي.

ولأهمية هذا الشريط الأولى فقد جعلته لجنة "وارنك" البريطانية (المختصة بالتلقيح الإنساني والأجنة) العلامة الفاصلة بين الوقت الذي يسمح فيه للأطباء والباحثين بإجراء التجارب على الأجنة المبكرة الناتجة عن فائض التلقيح الصناعي في الأنابيب (الأطباق)، فقد سمحت اللجنة بإجراء هذه التجارب قبل ظهور الشريط الأولى ومنعته منعاً باتاً بعد ظهوره على اعتبار أن ظهور هذا الشريط يعقبه البدايات الأولى للجهاز العصبي.

إن الشريط الأولى ذو أهمية بالغة لأن نشاطه الجم يؤدي إلى تكون النوتوكورد (سالفة العمود الفقري)، وإلى تكون الطبقة المتوسطة الداخلية (الميزودرم) التي يكاد ينتهي الشريط الأولى من مهمته تلك في الأسبوع الرابع حتى يبدأ في الاندثار ويبقى كامناً في المنطقة العجزية - العصبية - في الجنين ثم في المولود، ويندر ما عدا ذلك الأثر الضئيل الذي لا يري بالعين المجردة.

المسألة الثانية التي ذكرت في الأحاديث وهي أن عجب الذنب لا يبلى.

لقد اكتشف العلماء أن الذي يقوم بالتخليق والتنظيم لجميع خلايا الجنين هو الشريط الأولى، وأول من اكتشف ذلك من العلماء هو العالم الألماني الشهير "هانسن سيبان" حيث قام بدراسات وتجارب على الشريط الأولي والعقدة الأولية واكتشف أن الخيط الأولي والعقدة الأولية هما اللذان ينظمان خلق الجنين وأطلق عليها اسم (المنظم الأولي أو المخلوق الأولي) (Primary Organizer) وقام بقطع الشريط الأولي وزرعه في جنين آخر في المراحل الجنينية المبكرة في الأسبوع الثالث والرابع فأدى ذلك إلى نمو جنين ثانوي من هذه القطعة المزروعة في الجنين المضيف؛ حيث تقوم هذه القطعة

المزروعة بالتأثير على البيئة التي حولها والمكونة من خلايا الجنين المضيف، بحيث تؤثر عليها وتنظمها ويتخلق منها جنين ثانوي مغروسًا في جسد الجنين المضيف.

ثم قام هذا العالم الألماني "سبيمان" عام ١٩٣١م بسحق المنظم الأولي وزرعه مرة أخرى فلم يؤثر السحق حيث نما مرة أخرى وكون محورًا جنينيًا ثانويًا رغم سحقه ولم تتأثر خلاياه.

وفي عام ١٩٣٣م قام هذا العالم وعلماء آخرون بغلي المنظم الأولي وزراعته بعد غليه فشاهدوا أنه يؤدي إلى نمو محور جنين ثانوي بعد غليه ولم تتأثر خلاياه بالغليان، ولقد نال العالم الألماني (سبيمان) جائزة نوبل عام ١٩٣٥م على اكتشافه للمنظم الأولي.

وأجريت تجارب أخرى في نفس المجال وتوصلت إلى نفس النتيجة، ومن ذلك ما أثبتته مجموعة من علماء الصين في عدد من التجارب المخبرية استحالة إفناء عجب الذنب كيميائيًا بالإذابة في أقوى الأحماض، أو فيزيائيًا بالحرق، أو بالسحق، أو بالتعريض للأشعة المختلفة، ولقد قام الدكتور عثمان جيلان بالتعاون مع الشيخ عبد المجيد الزنداني في رمضان ١٤٢٤هـ في منزل الشيخ عبد المجيد الزنداني في صنعاء بتجربة على العصعص حيث قاموا وتحت تصوير تلفزيوني بأخذ أحد فقرتين لحمس عصاعص للأغنام وقاموا بإحراقها بمسدس غاز فوق أحجار ولمدة عشرة دقائق حتى احمرت وتأكدوا من إحراقها التام بحيث أصبحت حمراء، وبعد ذلك أصبحت سوداء متفحمة فوضعوا القطع في علب معقمة وأعطوها لأحد أشهر المختبرات في صنعاء (مختبر العولقي).

وقام الدكتور صالح العولقي أستاذ علم الأنسجة والأمراض في جامعة صنعاء بفحصها نسيجياً وكانت النتيجة مبهرة حيث وجد خلايا عظمة العصعص لم تتأثر ولا زالت حية وكأنها لم تحرق، أما الذي احترق فهو العضلات والأنسجة الدهنية وخلايا نخاع العظم المصنعة للدم، أما خلايا عظمة العصعص فلم تتأثر.

فكل هذه التجارب تؤكد أن عجب الذنب لا يبلى، بل يظل محتفظاً بخصائصه وقدرته على التخليق حتى في أصعب الظروف.

المسألة الثالثة التي أخبرت بها الأحاديث هي أن الإنسان يركب خلقه يوم القيامة من عجب الذنب:

فقد أشار المصطفى ﷺ أنه لا يبقى من الإنسان إلا عجب الذنب فإذا أراد الله بعث الأجساد أنزل عليها مطرا من السماء فینبت الإنسان من بقايا ذلك الشريط الأولى الكامن في عجب الذنب (المنطقة العصصية). قال ﷺ: «ثُمَّ يُنَزَّلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ». (رواه البخاري ومسلم).

وجه الإعجاز:

من خلال اكتشافات العلم الحديث رأينا أن الإنسان يبدأ خلقه وتركيبه في اليوم الخامس عشر من عجب الذنب، ويعمل عجب الذنب على تكوين أجزاء جسم الإنسان ثم يرجع فيستقر في نهاية العمود الفقري في العصص، وأظهرت التجارب أن عجب الذنب يبقى محافظاً على خواصه حتى لو تعرض للحرق أو الطحن أو الغلي، وتمكن العلماء من ملاحظة قدرة عجب الذنب على إعادة عملية التخليق إذا تعرض لبعض المؤثرات مشكلاً ما يشبه الجنين.

وكل هذه الحقائق احتوتها الأحاديث النبوية الشريفة ولم تتوصل العلوم التجريبية إلى معرفتها إلا بعد مئات السنين، وبعد أن تمكنوا من حيازة التقنيات الحديثة وعلى مراحل مختلفة من تطور هذه التقنيات حتى تمكنوا من الحصول على هذه الحقائق العلمية التي أخبرنا عنها النبي ﷺ بلفظ موجز يحوي في طياته جوامع الكلم، فلا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لهذه الحقائق العلمية من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة غير وحي صادق من الله الخالق الذي خلق فأبدع، وألهم خاتم أنبيائه النطق بهذه الحقائق ليبقى فيها من الشهادات على صدق نبوته ورسالته ما يكون ملائماً لكل إنسان في كل عصر وزمان.

الفصل الثامن
بحوث في
الإعجاز العلمي
في حاجة إلى مزيد
من التأصيل والدراسة

أشبهت إنان الإله الله أشبهت إنان محمد رسول الله

قَالَ تَعَالَى:

﴿سَرُّهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥٣).

البحوث القاصرة في الإعجاز وآثارها السلبية

هناك بحوث في حاجة إلى مزيد من التأصيل والدراسة وهي بحوث لا تأخذ صفة الإعجاز العلمي إما لعدم ثبوت الوقائع المحال إليها في تلك البحوث بيقين، أو لعدم وضوح العلاقة بين القرآن والسنة الصحيحة وبين تلك الوقائع، أو للتكلف في إثبات تلك العلاقة، فالحقيقة العلمية قد تكون صحيحة، والآية الشرعية أو الحديث الصحيح لا خلاف فيها، لكن الخلاف في دعوى الاتفاق والربط بين هذه الحقيقة العلمية وتلك الحقيقة الشرعية.

وهذه البحوث القاصرة غير المنضبطة بالضوابط العلمية، لها آثار سلبية كثيرة، وقصور أبحاث الإعجاز العلمي يكون من عدة جوانب منها:

١- القصور من الناحية العلمية في دقة المعلومات العلمية، وهذا يسبب الاتهام بالسذاجة والاعتزال والجهل وعدم الثقة في البحث:

يقوم بعض من يريد تشويه الإسلام والإعجاز العلمي بوضع معلومات كاذبة وتلقاها المنتديات في الإنترنت وبعض الكتب وتقوم بنشرها على أنها إعجاز علمي وليست هي إلا خرافة، وأحياناً يقوم بعض الدعاة بنشرها على أنها إعجاز وبعد الفحص والتأكد نجد أن المعلومات غير صحيحة فهذا يجرج الداعية المتسرع في نقل تلك المعلومات.

نموذج للقصور من الناحية العلمية:

"جهاز تخطيط القلب يرسم اسم (الله)" هذه أكذوبة يساهم في نشرها بعض المسلمين بسبب عدم علمهم بأساليب المستهزئين، فقد انتشرت على المنتديات الكثير من "المعجزات الوهمية" التي أضرت كثيراً بالإعجاز العلمي. فتارة تأتي معلومة تقول إن القلب يصدر ترددات رسمت اسم (الله) على جهاز التخطيط، وتارة يقولون عثرنا على فتاة على أذنها اسم (الله) أو أنهم وجدوا اسم (الله) على غنمة أو نبتة أو ثمرة أو على سطح القمر أو غير ذلك.

وكل هذه الأشياء سواء كانت صحيحة أم خاطئة فالمؤمن في غنى عنها؛ لأن قدرة الله أكبر بكثير من ذلك، والله ﷻ قادر على أن يجعل اسمه على كل شيء، ولكن الله ﷻ أودع في كل ذرة وفي كل خلية وفي كل شيء من حولنا نظاماً محكماً يشهد على عظمة ووحدانية الخالق ﷻ.

فهذه المعلومات وأمثالها لا يمكن أن نتقبلها إلا بعد التأكد من مصدرها وإذا تم التأكد من المصدر نبحت حول هذه المسألة هل لا زالت قيد البحث ولا زالت نظرية علمية أم أنها وصلت إلى مرتبة الحقيقة العلمية ثم بعد ذلك نطبق قواعد الإعجاز العلمي على هذه المسألة وأمثالها.

٢- القصور في العلم الشرعي:

القصور في العلم الشرعي سواء في علوم الحديث أو اللغة العربية أو علم الأصول أو التفسير وبقية علوم الآلة يثمر التخرص والقول على الله ﷻ بغير علم بسبب الجهل. فهو يرى مسألة ما على أنها معجزة أو أنها تشير إلى دلالة معينة وإذا تم التأكد من هذه الدلالة وُجد أنها ليست في قواميس اللغة العربية، ولا قال بها أحد من السلف ويقول أنها المرادة في تفسير الآية أو الحديث وهو قول على الله بغير علم؛ لأن المتخصص في هذا الفن يفسر الآية أو يشرح الحديث أو يبين المعاني حسب الضوابط التي وضعها علماء الشريعة والمختصين في هذا الجانب.

نموذج للقصور في العلم الشرعي:

تحت عنوان "وقفة مع النطفة" كتب أحد الفضلاء في العدد السابع من مجلة "الإعجاز العلمي" التي تصدرها "الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة" ما يلي: «يُخَلَقُ الإنسان من كُلِّ من نطفتي الرجل والمرأة: روى الإمام مسلم بسنده أن يَهُودِيًّا مر بالنبي ﷺ وهو يحدث أصحابه فقالت قريش: «يا يهودي، إن هذا يزعم أنه نبي»، فقال: «لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي»، فقال: «يا محمد مِمَّ يُخَلَقُ الإنسان؟»، فقال رسول الله ﷺ: «يا يهودي من كُلِّ يخلق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة». فقال اليهودي: «هكذا كان يقول من قبلك». أي من الأنبياء.

هذه الحقيقة العلمية الدقيقة والتي ذكرها النبي ﷺ منذ أربعة عشر قرناً لم تكن معلومة للأطباء في زمنه ولا بعد زمنه حتى نهاية القرن الثامن عشر حيث كان يُعتقد لقرون أن الإنسان يخلق كقزم كامل من دم الحيض، وبعد اكتشاف البويضات قالوا إن الإنسان يخلق كاملاً فيها، وبعد اكتشاف الحوين المنوي قالوا: بل إن الجنين يخلق كاملاً في رأس الحوين المنوي.

وانقسم العلماء بين مؤيد لنظرية الخلق التام في البويضة أو الحوين المنوي ولم ينته الجدل بين الفريقين إلا في عام ١٧٧٥م عندما أثبت "سيلا نزاني" أهمية كل من الحوين المنوي والبويضة في عملية التخلق البشري، ولم يتوصلوا إلى حقيقة أن الإنسان يخلق من اختلاط أمشاج الذكر بأمشاج الأنثى إلا في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي عندما تمكن "هيرتوج" عام ١٨٧٥م من ملاحظة عملية تلقيح الحيوان المنوي للبويضة، وتم تأكيد ذلك عام ١٨٨٣م عندما تمكن "فان بندين" من إثبات أن الحيوان والبويضة يساهمان بالتساوي في تكوين البويضة الملقحة». انتهى كلامه.

تعقيب:

إن الباحث قد بنى بحثه على أساس أن هذا الحديث صحيح - بل في "صحيح مسلم" - وبالتالي استنتج أن هذه الحقيقة العلمية الدقيقة قد ذكرها النبي ﷺ منذ أربعة عشر قرناً، ولكن عند البحث عن الحديث الذي استدل به الباحث لا تجده في "صحيح مسلم" بل تجده في "مسند أحمد" و"معجم الطبراني الكبير" و"مسند الطبراني"، وقد ضعفه الهيثمي والألباني وأحمد شاكر والأرنؤوط، وبالحديث زيادة لم يذكرها الباحث وهي: «فَأَمَّا نُطْفَةُ الرَّجُلِ فَنُطْفَةٌ غَلِيظَةٌ، مِنْهَا الْعَظْمُ وَالْعَصَبُ، وَأَمَّا نُطْفَةُ الْمَرْأَةِ فَنُطْفَةٌ رَقِيْقَةٌ، مِنْهَا اللَّحْمُ وَالْدَّمُ».

وهذه الزيادة - مع كون الحديث ضعيفاً - تتعارض مع ظاهر القرآن، فإن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ (المؤمنون: ١٤) يدل على أن مجموع النطفتين يصير عظاماً.

والباحث خالف بذلك أحد ضوابط البحث في الإعجاز العلمي وهو ثبوت أن النص من السنة المطهرة الذي نستنبط منه الإعجاز العلمي، هو صحيح أو حسن، إذ لا يُعتمد في هذا المجال الأحاديث الضعيفة.

من الآثار السلبية لجوانب القصور هذه:

١- استفزاز أهل العلم الشرعي وفقدان الثقة في الإعجاز العلمي باعتراف علماء الشرع عليه: بل من علماء الشرع مَنْ أنكر الإعجاز العلمي أصلاً، والسبب في ذلك البحوث الناقصة والقاصرة والتي أساءت إليه بدلا من أن يكون رافداً من روافد العلم المعاصر.

٢- استهزاء العلمانيين سواء بالبحوث القاصرة أو بالمعجزات الموهمة:

ومن أمثلة ذلك: سَرَتْ شائعة قوية عن فتاة عمانية تحولت إلى حيوان زاحف بسبب استهزائها بالقرآن الكريم، ووصل الأمر إلى حد توزيع منشورات لصورة الفتاة المزعومة في المدن والقرى المختلفة ونشرها في الصحف والمثير في الموضوع أن الإشاعة لم تقف حدودها عند دولة معينة بل أصبحت حديث الجماهير العربية في كل مكان.

ووصلت الأمور بعد ذلك إلى توزيع منشورات تروج على أنها معجزة إلهية بدأت الكتابة عن هذه القصة على أحد المنتديات في الإنترنت والمنتديات وأصحابه يكتبون بأسماء مستعارة ولا يأتون بمصادر كلامهم ورغم ذلك باتت مصادر تعتمد عليها وكالات الأنباء والمواقع الأخرى والصحف في نقل الأخبار والموضوعات.

وبدأت القصة عندما كتب أحد الذين يجهلون الإسلام وأخلاق المسلمين خبراً على أحد المنتديات مضمونه أن فتاة من عمان كانت تتابع قناة غنائية فضائية على الدش بينما كانت أمها تقرأ القرآن الكريم، وقالت لأمها: «أزعجتينا بالقرآن، اذهبى إلى مكان آخر»، فأصرت الأم على البقاء في مكانها، فاندفعت الفتاة وأخذت المصحف ورمته به على الأرض، فذهبت الأم وحملت المصحف ووضعتته على صدرها، فسقطت ابنتها على الأرض ومسحها الله ﷻ على شكل حيوان زاحف يشبه القرد، وتوجد الفتاة بإحدى

مستشفيات مسقط. وقد أرفق كاتب القصة صورة شخصية للفتاة بعد مسخها وتناقلتها بقية المنتديات.

واتضح بعد ذلك أن الصور التي نُشرت وزعم أنها لفتاة عمانية مسخت ما هي إلا مجسمات لتخيلات علمية بتناسخ البشر مع الحيوانات باستخدام تقنيات الاستنساخ والتقنية الحيوية وهي منشورة علي مواقع معارض علي شبكة الإنترنت.

فهذه القصة وأمثالها أولاً: قبل نقلها ينبغي التحري منها وأمثالها معرفة مصدرها، ثانياً: لو ثبت مثل هذه القصة فليس هذا بشيء مستحيل على الله لكن ماذا نسمي هذا الشيء لا يمكن أن نسميه إعجازاً علمياً أو معجزة علمية ونحن نعرف أن لكل علم قواعد وأصول وللإعجاز العلمي قواعد اتفق عليها العلماء^(١).

فالعلمانيون ومن سار في طريقهم يفرحون عندما يجدون مثل هذه القصص ويتخذونها ذريعة للاستهزاء ويقولون: أين مصدر هذه القصة؟ وقد يكون أحدهم هو من وُضع تلك الصورة وتلك الكذبة والتي تلقفها بعض الجهال وبعض المنتديات التي تعشق كل ما كان غريباً وعجيباً ولو كان كذباً.

٣- طعن الكفار في الإعجاز وجعله ذريعة لتكذيب الكتاب والسنة:

الإعجاز العلمي جاء ليثبت للعالم اليوم في عصر الأبحاث العلمية والمدارس والجامعات أن كل شيء جاء به الرسول ﷺ يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن محمداً رسول الله ﷺ، وأن ما جاء به من عند الله ﷻ، فإذا ما أخذنا بالأبحاث القاصرة أو التي لا تزال في مرحلة النظريات وأثبت العلم خلافها ستكون النتيجة هدم الأصل الذي جاء به الإعجاز العلمي وستكون وسيلة لتكذيب الكتاب والسنة.

(١) وقبل سنوات ظهرت شائعة مفادها أن إنساناً تحول إلى حية! وظهر منشور يقول: إذا أردت أن تسمع صوته اتصل على هذا الرقم! وإذا به شخص لديه دراسة عن سرعة تناقل الإشاعات بين الناس! وفعلاً وجد تهافت الناس وتسارعهم لنقل مثل هذه الخرافات بل وتصديقها!

نماذج من البحوث التي تحتاج إلى مزيد من التأصيل والدراسة

وهذه النماذج تفتقد ضابطاً أو أكثر من ضوابط البحث في الإعجاز العلمي، أو اعترض عليها بعض أهل العلم، وأنقلها هنا من وجهة نظر أصحابها باختصار وتصرف، مع تعليقات على بعضها.

انشقاق القمر:

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۗ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۗ﴾ (القمر: ١-٣).

ولقد كان كفار قريش يظنون أن كل معجزة من النبي ﷺ هو الذي يصنعها ويأتي بها، وليس الله ﷻ هو الذي يأتي بها، فأرادوا أن يتحدّوه فطلبوا منه آية سماوية. وقد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات، وقد رواها عدة من الصحابة رضي الله عنهم مع ظاهر الآية الكريمة وسياقها.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ. (رواه البخاري). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ وَنَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَصَارَ فِرْقَتَيْنِ، فِرْقَةٌ فَوْقَ الْجَبَلِ وَفِرْقَةٌ دُونَهُ، فَقَالَ لَنَا «اشْهَدُوا، اشْهَدُوا». (رواه البخاري). وفي روايه عنه رضي الله عنه قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِلْقَتَيْنِ فَسَرَّ الْجَبَلُ فِلْقَةً وَكَانَتْ فِلْقَةٌ فَوْقَ الْجَبَلِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». (رواه مسلم).

ردود:

هل من العقل والمنطق ألا ترى الدنيا بأسرها هذا الانشقاق! لأن القمر للدنيا كلها وليس لمكة وحدها، إن هذا حدث ضخم، وليس بالأمر الهين اليسير.

والجواب حادثة انشقاق القمر يجب أن يراها كل الناس لأن العلم اليوم أثبت بها لا يبقى لأحد أي شك في أن الأرض كروية، فإذا ثبت هذا كان لزماً أن لا يرى كل الناس تلك الحادثة فإن الناس في الجهة المقابلة للقمر هم الذين سيرون تلك الحادثة دون غيرهم قطعاً ودون أي شك هذا بالإضافة إلى أنه ليس كل الناس كانوا متأهين وحاضرين في تلك الساعة فمنهم من هو نائم خاصة إذا علمنا أن الحادثة كانت في الليل وليس في النهار ولعدم وجود ما يجرحهم للسهر من كهرباء وغيرها كانوا ينامون مبكرين، فضلاً عن عدم وجود وسائل الإعلام كالتي نراها اليوم والتي نستطيع من خلالها إذاعة الخبر في كل الأرض.

فالأمر كان مقصوراً على بضعة من الجاحدين أرادوا تعجيز الرسول ﷺ، ثم لا يمنع من عدم رؤية جميع الناس لهذا الحدث أن الانشقاق لم يقع، فكم من الأمور التي يتلقاها الناس بالقبول مع أنهم لم يروها؛ ويكتفون بخبر من رآها دليلاً على تصديقها.

التوثيق التاريخي لانشقاق القمر:

سجل تاريخ الهند اسم ملك من ملوكهم هو: (جاكرواني فرماس) وأنه شاهد حادثة انشقاق القمر، فسجلت إحدى المخطوطات التاريخية الهندية ما يلي: «شاهد ملك ماجبار "مالابار" بالهند (جاكرواني فرماس) انشقاق القمر؛ الذي وقع لمحمد، وعلم عند استفساره عن انشقاق القمر بأن هناك نبوة عن مجيء رسول من جزيرة العرب، وحينها عين ابنه خليفة له، وانطلق لملاقاته. وقد اعتنق الإسلام على يد النبي، وعاد إلى وطنه - بناءً على توجيهات النبي - وتوفي في ميناء ظفار».

وهذه المعلومات في مخطوطة هندية محفوظة في مكتبة دائرة الهند تحتوي على عدة تفصيلات أخرى عن (جاكرواني فرماس).

الإعجاز العلمي:

في مقابلة تلفزيونية مع عالم الجيولوجيا المسلم الأستاذ الدكتور/ زغلول النجار، سأله مقدم البرنامج عن هذه الآية: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقَّ الْقَمَرُ﴾ هل فيها إعجاز قرآني علمي؟

فأجاب الدكتور زغلول قائلاً: هذه الآية لها معي قصة. فمنذ فترة كنت أحاضر في جامعة (كارديف) في غرب بريطانيا، وكان الحضور خليطاً من المسلمين وغير المسلمين، وكان هناك حوار حي للغاية عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وفي أثناء هذا الحوار، وقف شاب من المسلمين وقال: «يا سيدي هل ترى في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ لمحة من لمحات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم؟».

فأجابه الدكتور زغلول قائلاً: «لا؛ لأن الإعجاز العلمي يفسره العلم، أما المعجزات فلا يستطيع العلم أن يفسرها، فالمعجزة أمر خارق للعادة فلا تستطيع السنن أن تفسرها، وانشقاق القمر معجزة حدثت لرسول الله ﷺ تشهد له بالنبوة والرسالة، والمعجزات الحسية شهادة صدق على من رآها، ولولا ورودها في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ ما كان علينا نحن مسلمي هذا العصر أن نؤمن بها ولكننا نؤمن بها لورودها في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ، ولأن الله تعالى قادر على كل شيء».

يقول الدكتور زغلول: «وبعد أن أتممت حديثي وقف شاب مسلم بريطاني عرف بنفسه وقال: «أنا داود موسى بيتكوك رئيس الحزب الإسلامي البريطاني، ثم قال: «يا سيدي، هل تسمح لي بإضافة؟»، قلت له: «تفضل»، قال: «وأنا أبحث عن الأدیان- قبل أن يسلم-، أهداني أحد الطلاب المسلمين ترجمة لمعاني القرآن الكريم، فشكرته عليها وأخذتها إلى البيت، وحين فتحتُ هذه الترجمة، كانت أول سورة أطلع عليها سورة القمر، وقرأت: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾، فقلت: هل يعقل هذا الكلام؟، هل يمكن للقمر أن ينشق ثم يلتحم، وأي قوة تستطيع عمل ذلك؟ يقول الرجل: فصدتني هذه الآية عن مواصلة القراءة، وانشغلتُ بأمور الحياة، لكن الله تعالى يعلم مدى إخلاصي في البحث عن الحقيقة، فأجلسني ربي أمام التلفاز البريطاني وكان هناك حوار يدور بين معلق بريطاني وثلاثة من علماء الفضاء الأمريكيين.

وكان هذا المذيع يعاتب هؤلاء العلماء على الإنفاق الشديد على رحلات الفضاء، في الوقت الذي تمتلئ فيه الأرض بمشكلات الجوع والفقر والمرض

والتخلف، وكان يقول: «لو أن هذا المال أنفق على عمران الأرض لكان أجدى وأنفع». وجلس هؤلاء العلماء الثلاثة يدافعون عن وجهة نظرهم ويقولون: إن هذه التقنية تطبَّق في نواح كثيرة في الحياة، حيث إنها تطبَّق في الطب والصناعة والزراعة، فهذا المال ليس مألًا مهدرًا لكنه أعاننا على تطوير تقنيات متقدمة للغاية.

في خلال هذا الحوار جاء ذكر رحلة إنزال رُجُل على سطح القمر باعتبار أنها أكثر رحلات الفضاء كلفة فقد تكلفت أكثر من مائة ألف مليون دولار، فصرخ فيهم المذيع البريطاني وقال: «أي سَفَهٍ هذا؟ مائة ألف مليون دولار لكي تضعوا العلم الأمريكي على سطح القمر؟»، فقالوا: «لا، لم يكن الهدف وضع العلم الأمريكي فوق سطح القمر، كنا ندرس التركيب الداخلي للقمر، فوجدنا حقيقة لو أنفقنا أضعاف هذا المال لإقناع الناس بها ما صدقنا أحد».

فقال لهم: «ما هذه الحقيقة؟»، قالوا: «هذا القمر انشق في يوم من الأيام ثم التحم». قال لهم: «كيف عرفتم ذلك؟». قالوا: «وجدنا حزامًا من الصخور المتحوّلة يقطع القمر من سطحه إلى جوفه إلى سطحه، فاستشرنا علماء الأرض وعلماء الجيولوجيا، فقالوا: «لا يمكن أن يكون هذا قد حدث إلا إذا كان هذا القمر قد انشق ثم التحم». يقول الرجل المسلم (رئيس الحزب الإسلامي البريطاني): فقفت من الكرسي الذي أجلس عليه وقلت: معجزة تحدّث لمحمد ﷺ قبل ألف وأربعمائة سنة، يسخر الله تعالى الأمريكيان لإنفاق أكثر من مائة ألف مليون دولار لإثباتها للمسلمين، لا بد أن يكون هذا الدين حقًا. يقول: فعدت إلى المصحف، وتلوت سورة القمر، وكانت مدخلي لقبول الإسلام دينًا».

تعقيب:

لا نشك أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، ولكن هل الإعجاز العلمي يثبت بهذه الطريقة؟ هل يثبت بمجرد حوار تليفزيوني قال شخص واحد أنه سمعه، ولا نعرف مدى صدق السامع أو صدق المتحاورين؟ وأين المصادر العلمية التي تثبت صحة هذا الكلام؟

أخفض منطقة على سطح الأرض:

قَالَ تَعَالَى: ﴿الْم ١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿الروم: ٢-٥﴾.

تذكر المراجع التاريخية وقوع معركة بين مملكتي فارس وبين الإمبراطورية البيزنطية - وهي الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية - في منطقة بين أدرعات وبصرى قرب البحر الميت حيث انتصر فيها الفرس انتصاراً ساحقاً على الرومان، وكان ذلك سنة ٦١٩ م.

وقد خسر الروم البيزنطيون في هذه المعركة خسائر فادحة، وتوقع جميع المعاصرين لهم دماراً كاملاً للإمبراطوريتهم. لكن حدث ما لم يكن متوقعاً ففي شهر ديسمبر من عام ٦٢٧ م وقعت معركة حاسمة بين البيزنطيين وإمبراطورية الفرس بمنطقة "ناي نيفا" هزم فيها الروم الفرس. وبعد أشهر قليلة لجأ الفرس إلى إبرام اتفاقية مع بيزنطة تجبرهم على إعادة المناطق التي أخذوها منهم.

توضح المصورات الجغرافية مستوى المنخفضات الأرضية في العالم أن أخفض منطقة على سطح الأرض هي تلك المنطقة التي بقرب البحر الميت في فلسطين حيث تنخفض عن سطح البحر بعمق (٣٩٥) متراً. وقد أكدت ذلك صور وقياسات الأقمار الصناعية.

قررت هذه الآيات الكريمة حقيقة جغرافية لم تكن معروفة عند أحد في ذلك الوقت، حيث أخبرت أن الروم خسروا المعركة مع الفرس في أدنى منطقة من الأرض. وكلمة أدنى عند العرب تأتي بمعنيين أقرب وأخفض، فهي من جهة أقرب منطقة لشبه الجزيرة العربية، ومن جهة أخرى هي أخفض منطقة على سطح الأرض، إذ إنها تنخفض عن مستوى سطح البحر ١٣١٢ قدم (حوالي ٤٠٠ متر) وهي أخفض نقطة سجلتها الأقمار الصناعية على اليابسة، كما ذكرت ذلك الموسوعة البريطانية، والحقيقة التاريخية تشهد أن المعركة وقعت في أكثر مناطق العالم انخفاً في حوض البحر الميت

والتي لم تكن لتقاس في غياب تقنيات القياس الحديثة، لذلك كان من المستحيل أن يعرف أي شخص في ذلك الوقت أن هذه المنطقة هي أكثر المناطق انخفاضاً في العالم. إن الله ﷻ حدثنا في كتابه عن أخفض وأدنى بقعة في الأرض ذاكراً أنها البقعة التي وقعت فيها معركة بين الروم والفرس، فقال تعالى: ﴿الْمَ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ أَيْنَ غُلِبَتْ؟ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ۝﴾ في أدنى بقعة من الأرض تحت مستوى سطح البحر وهي المنطقة القريبة من بحيرة طبرية إحدى بقاع أغوار الأردن، والتي تنخفض عن سطح البحر ٣٩٥ م.

﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أي: في تلك البقعة المنخفضة. فكيف عرف محمد ﷺ ومن أخبره بذلك؟ إنه الله الذي خلق الأرض ويعلم حقائقها وأسرارها ﷻ. لقد فهم أكثر الأولين أن الأدنى هو الأقرب؛ لأن المعركة وقعت في منطقة متاخمة للجزيرة العربية، وهو فهم صحيح يحتمله النص لغةً وحدثاً إلا أن مكتسبات العلم الحديث أعطتنا معنى هو أكثر دقة في بيان دلالة اللفظ القرآني على موقع الحدث. وهو ما لم يكن من الأولين أن يدركوه في ضوء إمكاناتهم ومعارفهم.

إن أدنى الأرض أخفضها وأدناها عن مستوى سطح البحر، وهذا المعنى لم يكن معروفاً أو مكتشفاً من الناحية الجيولوجية، وعُرف حديثاً بعد أن رُصدت بقاع الأرض وأجريت الدراسات لمعرفة أعلى بقعة في العالم عن مستوى سطح البحر، وهي قمم جبال الهملايا بشرق آسيا، وأدنى نقطة في منطقة البحر الميت. وفي ضوء هذا المعنى يكون القرآن قد أخبرنا عن أدنى بقعة في الأرض وهي الأرض التي دارت فيها تلك المعركة. ويؤكد ذلك أن ابن عباس رضي الله عنهما فسرها بأرض الأردن وفلسطين، وهذه بعض شواهد الإعجاز في القرآن وهي كثيرة ومتجددة.

تعقيب:

١- عند البحث عن ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما لم أجده مُسندًا إلا في تفسير "الطبري" عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾: «في طرف الشام».

وعلي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس رضي الله عنهما، فالإسناد ضعيف. وإن صح فإن ابن عباس رضي الله عنهما لم يقل إن الأرض التي دارت فيها تلك المعركة هي منطقة البحر الميت.

٢- معنى الآية أن جيش الروم هُزِمَ في أقرب أرضهم إلى فارس، هذا ما ورد في كتب التفسير. وتفسير «أَدْنَى» في الآية بمعنى (أخفض)، لا يمكن الجزم به، فهل هذا المعنى مرادٌ من الآية؟ إذا كان نعم، فما الدليل؟ وإذا كان لا، فإن معنى هذا أن دلالة الآية على هذا الاكتشاف الذي يُقال بأنه حقيقة علمية دلالة احتمالية ظنية، وما دام دلالة احتمالية ظنية فأين مقام الإعجاز؟!

إن الإعجاز العلمي هو الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي السالم من المعارضة الذي يتعلق ببحث قضية علمية وصل العلم فيها إلى سقف المعرفة، وكانت دلالة النص عليها دلالة ظاهرة، فاتفقت الحقيقة العلمية مع الدلالة الشرعية الظاهرة الواضحة في القرآن والسنة.

إنه لو جاز تفسير «أَدْنَى» بأنه (أخفض)، فإن هذا التفسير رأي واجتهاد واحتمال وظنٌّ، وليس تفسيرًا يقينياً بأن هذا المعنى مرادٌ من هذا اللفظ.

البعوضة وما فوقها:

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفٰسِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٦).

ينتمي البعوض إلى رتبة الحشرات ذات الجناحين، التي تشتمل على ٣٠٠٠ نوع من البعوض. وينقل البعوض العديد من الأمراض الخطيرة للإنسان، حيث تقوم بعوضة "الأنوفيلس" بنقل مرض الملاريا للإنسان في مناطق كثيرة من العالم وخاصة في إفريقيا، كما تقوم بعوضة "الكيولكس" بنقل العديد من الأمراض للإنسان مثل: الفيلاريا، حمى غرب النيل، التهاب الدماغ، كما تقوم بنقل مرض حمى الوادى المتصدع للحيوان ومنه للإنسان وأيضاً مرض اللسان الأزرق للحيوان. وتنقل بعوضة "الأيديس" مرض الحمى الصفراء خاصة في إفريقيا.

تتضمن دورة حياة البعوض أربعة أطوار: البيضة، اليرقة، العذراء والحشرة الكاملة. وتلعب الأنثى الدور الرئيس في نقل المرض للإنسان والحيوان. وتستطيع البعوضة الوصول لعوائلها عن طريق شعيرات حسية دقيقة توجد على أرجلها ورأسها. وترتبط البعوضة مع كثير من الكائنات الأكبر أو الصغر منها بعلاقات متميزة.

وجه الإعجاز في قوله تعالى: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾:

إذا أخذنا معنى كلمتي ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ بأنه ما أدناها في الحجم أو ما أصغر منها، كما جاء في تفسير الطبري، فلقد وُجد أن البعوضة ترتبط بعلاقات معقدة مع الكائنات التي أصغر منها والتي تعيش داخل معدة البعوضة مثل: البكتريا، الفطريات الفيروسات والأوليات. وجد أن بعض هذه الكائنات مفيدة وضرورية لحياة البعوضة، وبعضها ضار بها. وتساعد البكتريا الموجودة في معى البعوضة في تصنيع مضادات للفيروسات التي تهاجم البعوضة. إن السبب في قدرة البعوضة على نقل الأمراض تكمن في سر ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أى ما أصغر منها من كائنات، وهى البكتريا التي تعيش في معدة البعوضة.

إن هذه البكتريا تدافع عن البعوضة ضد المسببات المرضية المختلفة التي تدخل مع وجبة الدم التي تأخذها من إنسان أو حيوان مصاب بالمرض. تحاول البكتريا قتل المسببات المرضية ولكن إذا نجحت تلك المسببات في القضاء على

البكتريا المتعايشة مع البعوضة أو إضعافها، فإن تلك المسببات تتكاثر في العدد وتسبب الأمراض.

ولعل نتائج البحث قد كشفت عن بعض السر المعجز في التعبير القرآني ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾. إن هذه الكائنات تحمى البعوضة والشئ المعجز أنها تحمى الإنسان أيضًا عن طريق قتل المسببات المرضية التي تنتقل إليه إذا تغذت على البعوضة على دمه.

أما إذا أخذنا معنى ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ على أنه فما فوق جسم البعوضة، فلقد وجدت كائنات دقيقة أصغر من البعوضة تعيش فوق جسمها من الخارج، تفترس البعوضة وتقتلها مثل: الحلم والفطريات. إذا أخذنا معنى ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ بأنه ما أكبر منها في الحجم، فإننا سنجد أن البعوضة ترتبط بعلاقات معقدة مع الكائنات الأكبر منها وخاصة الإنسان والحيوان. فلقد وجد أن البعوضة تصيب الإنسان والحيوان بالعديد من الأمراض. ولكن كل المسببات المرضية التي تسبب هذه الأمراض تقع تحت التفسير الأول لمعنى بعوضة فما فوقها أى الكائنات الأصغر منها والتي سبق ذكرها.

أيضًا نجد أن البعوضة ترتبط مع معظم أفراد المملكة الحيوانية بعلاقات كثيرة. مثل الأسماك، الزواحف، البرمائيات والثدييات. ولقد عبر القرآن الكريم عن كل تلك العلاقات سواء التي بين الكائنات الأكبر من البعوضة أو الكائنات الأصغر منها (المسببات المرضية) في تعبير معجز ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾.

إن المعرفة بالبعوضة والأحياء الدقيقة دونها ودورها في نقلها وإحداث الأمراض يستحيل أن يدركها أحد قبل اكتشاف المجهر، فلم يُعرف دور البعوضة في نقل طفيل الملاريا مثلاً إلا قبيل بداية القرن العشرين، وكلمة "ملاريا" إيطالية الأصل وتعني الهواء الفاسد، وقد بقيت مستخدمة حالياً كمصطلح تاريخي يعكس الاعتقاد الخاطئ بأن المرض ينتقل للإنسان عن طرق الهواء الفاسد قبل أن يعرف دور البعوضة في نقل الطفيليات المجهرية التي تسببه، ولذا عندما يستنكر القرآن الكريم الاستهانة بالبعوضة دالاً على خطرها ويُشرك ما فوقها ضالّةً معها في الحكم فإنه يسبق عصر

المعرفة العلمية بأكثر من عشرة قرون ويعلن أنه وحده هو كلمة الله الباقية للأمم خاصة أن دلالة العلمية تلك لا توجد في أي مدونة اليوم تنسب للوحي .

ومن عجيب البيان القرآني المعجز العدول باللفظ (بِعُوضَةٍ) والضمير (فَوْقَهَا) إلى الأفراد والتأنيث بدلا عن تغليب الذكر أو التعبير بالجمع الدال على تماثل الجنسين في الوصف، والحقيقة الراسخة أن أنثى البعوض وحدها هي التي تتغذى على الدم وتنقل الأمراض وليس للذكر أجزاء فَمَيَّةٌ ثابتة للجلد، وهكذا يعدل القرآن باللفظ إلى صيغة تتفق مع الواقع قبل أن يكتشفها الزمان وتعاينها الأجيال، ونفي الاستحياء بدلا من الإثبات لبيان أهمية البعوضة وما يبائلها يتضمن استنكار الاستهانة بها وبيان الجهل بخطرهما عند التنزيل .

لا يَسْتَنْقِدُوهُ مِنْهُ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ ۗ اِنَّ الَّذِيْنَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ لَنْ يَخْلُقُوْا ذُبَابًا وَّلَوْ اٰجْتَمَعُوْا لَهُ ۗ وَاِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِدُوْهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّلِبِ وَالْمَطْلُوْبِ﴾ (الحج: ٧٣).

جاء التحدي من الله تعالى للكافرين والمعاندين في مواطن كثيرة من كتابه تعالى، ومما تحدى الله تعالى به الكفار وألتهتهم المزعومة خلق ذبابة، أو أن يستنقدوا ما سلبه الذباب منهم، فلو اجتمع جميع ما يعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك. فهم عاجزون عن خلق ذباب واحد بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها.

فهذه الآية الكريمة تشير إلى حقيقة علمية وهي استحالة استنقاذ ما أخذه الذباب، وهذا هو ما كشف عنه العلم الحديث في أيامنا هذه.

لقد أثبت العلم الحديث أن الذبابة تمد فمها من أسفل رأسها إلى السطح المقابل له، مكوّنةً بذلك أنبوباً لامتنصاص الطعام، وإذا نظرت بدقة إلى الأنبوب الماص

لوجدت أن الطرف الملاصق لسطح الطعام متسع وكأنه مكنسة كهربائية، بعد ذلك تبدأ الذبابة بفرز عصارتها التي تمكنها من تحليل وامتصاص ولعق المواد الكربوهيدراتية وغيرها الموجودة في الطعام.

ثم تبدأ هذه المواد في التحلل إلى مواد بسيطة التركيب لمساعدتها على امتصاصها خلال الأنبوب؛ فالذباب لا يملك جهازاً هضمياً معقداً؛ لذلك يلجأ إلى الهضم الخارجي، وذلك من خلال إفراز عصارات هاضمة على المادة المراد التغذية عليها، ثم تدخل هذه المواد المهضومة خارج الجسم إلى الأنبوب الهضمي حتى يتم امتصاصها لتسير في الدورة الدموية إلى خلاياه، ويتحول جزء منها إلى طاقة تمكنه من الطيران، وجزء آخر إلى خلايا وأنسجة ومكونات عضوية، وجزء أخير إلى مخلفات يتخلص منها جسم الذباب.

فإن قام العلماء باستخراج ما يبطن الذبابة فإنه لن يكون هو نفسه الطعام الذي سلبته الذبابة؛ لأن الطعام الذي دخل في جوف الذبابة لم يعد نفسه الطعام الذي سلبته وإنما يحتاج إلى تجميع مركباته التي قد تفتت، فلهذا السبب لا نستطيع استنقاذه، والعجز يأتي من أن الطعام وحتى قبل دخوله إلى ماصة فم الذبابة طراً عليه التغيير، ولاحظ أنه لو أراد العلماء أخذ الطعام من فم الذبابة ولو من بداية دخوله الماصة، فإن ذلك لن يجدي شيئاً، وذلك أن الطعام قد تحول إلى مركبات مختلفة تماماً حتى قبل امتصاصه لذلك «لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ» أبداً.

ففي الوقت الذي لا توجد فيه أبسط وسائل الاكتشاف للأمر الصغيرة والدقيقة، يأتي القرآن ليثبت أن للذباب قدرة على تحويل الطعام إلى شيء آخر وحالة مغايرة لتركيبته الأولى، وبعد هذا التغيير والتحويل فإنه يستحيل على البشر مجتمعين أن يعيدوه إلى حالته الأولى. وهذا ما أثبتته البحوث العلمية الحديثة بعد أن استخدمت في ذلك أحدث الوسائل العلمية.

وأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ (الحديد: ٢٥).

لم يتمكن الإنسان من معرفة حقيقة أن الحديد نزل من السماء إلى الأرض إلا بعد أن امتلك من الوسائل العلمية ما تمكن به من معرفة ما جرى ويجري في أعماق النجوم البعيدة لتكوين مادة الحديد.

وبعد أن تمكن من تحويل بعض العناصر الخفيفة إلى عناصر ثقيلة وحساب ما يحتاج إليه ذلك من طاقة، وعجزه عن تكوين مادة الحديد من مواد أخف منه إذ يتطلب ذلك طاقة تساوي أربعة أضعاف طاقة المجموعة الشمسية.

إن الدراسات العلمية تدل على أن الحديد لا يمكن أن يتشكل إلا في قلب النجوم الكبيرة ذات الحرارة العالية جداً، فتشكل الحديد يحتاج لنجم يزيد عن كتلة الشمس بأكثر من ٢٦ ضعفاً. أي أن الحديد نزل من خارج المجموعة الشمسية ووصل إلى الأرض من خلال بلايين النيازك.

ويعتقد علماء الفلك حالياً أن النيازك والشهب ما هي إلا مقذوفات فلكية مختلفة الأحجام، وتتألف في معظمها من معدن الحديد، ولذلك كان معدن الحديد من أول المعادن التي عرفها الإنسان على وجه الأرض، لأنه يتساقط بصورة يقينية من السماء على شكل نيازك، يتساقط في كل عام آلاف النيازك والشهب على كوكب الأرض، التي قد يزن بعضها أحياناً عشرات الأطنان، وقد عُثِرَ على نيزك في أمريكا بلغ وزنه اثنين وستين طناً، مكوّناً من سبائك الحديد والنيكل، أما في ولاية (أريزونا) فقد أحدث نيزك فوهة ضخمة عمقها مائتا متر، وقطرها ألف متر، وقد بلغت كميات الحديد المستخرجة من شطابياه الممزوجة بالنيكل عشرات الأطنان.

وقد كان يُظن سابقاً أن الحديد الذي على الأرض نشأ من تفاعلات تمت على الأرض. ولكن أحد الباحثين قاس كمية الطاقة اللازمة لتشكيل الحديد فوجدها كبيرة جداً، مثل هذه الطاقة لا تتوفر إلا في النجوم الضخمة (التي هي أضخم بكثير من الشمس). وقد قاده هذا الأمر إلى التصريح بأن عنصر الحديد لا يمكن أن يتشكل داخل

المجموعة الشمسية أو على الأرض، بل تشكل في الفضاء بدرجات حرارة و طاقة عالية جداً ثم قُذِفَ به إلى الأرض على شكل نيازك، أي نزل إلى الأرض!!

وجه الإعجاز:

- ١- ثبت علمياً أن الحديد الموجود في الأرض نزل نزولاً من السماء.
- ٢- ثبت علمياً أن القوى الموجودة في عنصر الحديد هي قوة شديدة جداً تجمع بين المتانة والمرونة والصلابة وهي ما سماه القرآن بالبأس الشديد.

نشأة الذرية:

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۗ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٥﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (الطارق: ٥-١٠).

معنى الآية:

فليُنظر الإنسان المنكر للبعث مِمَّ خُلِقَ؟ ليعلم أن إعادة خلق الإنسان ليست أصعب من خلقه أولاً خلق من منيٍّ منصبٍّ بسرعة في الرحم، يخرج من بين صلب الرجل وصدر المرأة.

هذه الآيات الكريمة التي تتحدث عن الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب تحثنا على النظر في الإنسان الذي خلق من هذا الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب، وسبب تدفقه هو تقلصات جدار الحويصلة المنوية والقناة القاذفة للمني.

تقول الآية الكريمة إن الماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب، وهذا الماء (المني) إنما يتكون في الخصية وملحقاتها، كما تتكون البويضة في المبيض لدى المرأة، فكيف تتطابق الحقيقة العلمية مع الحقيقة القرآنية؟

إن الخصية والمبيض إنما يتكونان من الحدبة التناسلية بين صلب الجنين وترائبها، والصلب هو العمود الفقري والترائب هي الأضلاع، وتتكون الخصية والمبيض في هذه المنطقة بالضبط أي بين الصلب والترائب، ثم تنزل الخصية تدريجياً حتى تصل إلى كيس الصفن (خارج تجويف البطن) في أواخر الشهر السابع من الحمل بينما ينزل

المبيض إلى حوض المرأة، ومع هذا فإن تغذية الخصية والمبيض بالدماء والأعصاب واللمف تبقى من حيث أصلها أي من بين الصلب والترائب.

فشريان الخصية أو المبيض يأتي من الشريان الأهر (الأورطي البطني) من بين الصلب والترائب، كما أن وريد الخصية يصب في نفس المنطقة أي بين الصلب والترائب، كما أن الأعصاب المغذية للخصية أو للمبيض تأتي من المجموعة العصبية الموجودة تحت المعدة من بين الصلب والترائب، وكذلك الأوعية اللمفاوية تصب في نفس المنطقة أي بين الصلب والترائب، فهل يبقى بعد كل هذا شك أن الخصية أو المبيض إنما تأخذ تغذيتها ودماءها وأعصابها من بين الصلب والترائب؟

فالحيوانات المنوية لدى الرجل أو البويضة لدى المرأة إنما تستقي مواد تكوينها من بين الصلب والترائب، كما أن منشأها ومبدأها هو من بين الصلب والترائب، والآية الكريمة إعجاز كامل حيث تقول: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، ولم تقل من الصلب والترائب، فكلمة «بَيْنَ» ليست بلاغية فحسب وإنما تعطي الدقة العلمية المتناهية.

والعلم الحديث يقرر أن الماء الذي لا يُقذف ولا يندفع وإنما يسيل إنما هو إفرازات المهبل وغدد بارثولين المتصلة به وأن هذه الإفرازات ليس لها دخل في تكوين الجنين وإنما وظيفتها ترطيب المهبل.

ولكن العلم الحديث يكشف شيئاً مذهلاً؛ أن الحيوانات المنوية يحملها ماء دافق هو ماء المنى، كذلك البويضة في المبيض تكون في حويصلة "جراف" محاطة بالماء فإذا انفجرت الحويصلة تدفق الماء، وتلقفت أهدابُ البوق البويضة لتُدخلها إلى قناة الرحم حيث تلتقي بالحيوان المنوي لتكوّن النطفة الأمشاج. هذا الماء يحمل البويضة تماماً كما يحمل ماء الرجل الحيوانات المنوية، كلاهما يتدفق، وكلاهما يخرج من بين الصلب والترائب: من الغدة التناسلية؛ الخصية أو المبيض.

وتتضح مرة أخرى معاني الآية الكريمة في إعجازها العلمي الرائع: ماء دافق من الخصية يحمل الحيوانات المنوية، وماء دافق من حويصلة جراف بالمبيض يحمل البويضة.

إخبار القرآن عن الظلمات الثلاث:

أثبت علم الأجنة أن الجنين يُحفظ في بطن أمه من وصول النور إليه بواسطة أغشية ثلاثة وتُشكل هذه الأغشية الثلاثة ثلاث طبقات مظلمة تمنع وصول النور إلى الجنين. هذه الأغشية عُرِفَت بواسطة أجهزة مخبرية متطورة، وهذه الأجهزة لم تكن في زمن النبي ﷺ، ولا حتى قبل مائة عام لم تكن هذه الأشياء معروفة وقد قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (الزمر: ٦).

فهناك ما يسمى بالخلايا المغذية التي تأخذ على عاتقها تأمين الغذاء والهواء لحصول الحمل، ثم يتشكل منها ملحقات الجنين والتي منها:

هذه الأغشية الثلاثة التي تحيط ببعضها وهي من الداخل إلى الخارج.

- الغشاء الأمنوسي: وهو يحيط بالجوف الأمنوسي المملوء بالسائل الأمنوسي، الذي يسبح فيه الجنين بشكل حر.
- الغشاء الكوريوني: الذي تصدر عنه الزغابات الكوريونية التي تنغرس في مخاطية الرحم.
- الغشاء الساقط: وهو عبارة عن مخاطية الرحم السطحية بعد عملية التعشيش ونمو محصول الحمل، وسمي بالساقط لأنه يسقط مع الجنين عند الولادة.

البرزخ المائي بين البحرين:

قال تعالى: ﴿مَجَّ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَبْتَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ١٩-٢٢). وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ (النمل: ٦١).

لقد توصل علماء البحار بعد تقدم العلوم في هذا العصر، إلى اكتشاف الحاجز بين البحرين، فوجدوا أن هناك برزخاً يفصل بين كل بحرين، ويتحرك بينهما ويسميه علماء البحار الجبهة تشبيهاً له بالجبهة التي تفصل بين جيشين.

وبوجود هذا البرزخ يحافظ كل بحر على خصائصه التي قدرها الله لأله، ويكون مناسباً لما فيه من كائنات حية تعيش في تلك البيئة. ومع وجود هذا البرزخ فإن البحرين المتجاورين يختلطان اختلاطاً بطيئاً، يجعل القدر الذي يعبر من بحر إلى بحر آخر يكتسب خصائص البحر الذي ينتقل إليه عن طريق البرزخ الذي يقوم بعملية التقلب للمياه العابرة من بحرٍ إلى بحرٍ؛ ليبقى كل بحرٍ محافظاً على خصائصه.

تدرُّج العلم البشري لمعرفة حقائق اختلاف مياه البحار وما بينها من حواجز:

اكتشف علماء البحار أن هناك اختلافاً بين عينات مائة أخذت من البحار المختلفة في عام ١٢٨٤هـ - ١٨٧٣م على يد البعثة العلمية البحرية الإنجليزية في رحلة "تسالنجر"، فعرف الإنسان أن المياه في البحار تختلف في تركيبها عن بعضها البعض من حيث درجة الملوحة، ودرجة الحرارة، ومقادير الكثافة، وأنواع الأحياء المائية، ولقد كان اكتشاف هذه المعلومة بعد رحلة علمية استمرت ثلاثة أعوام، جابت جميع بحار العالم.

وقد جمعت الرحلة معلومات من ٣٦٢ محطة مخصصة لدراسة خصائص المحيطات. وملأت تقارير الرحلة ٢٩٥٠٠ صفحة في خمسين مجلداً استغرق إكمالها ٢٣ عاماً. وبالإضافة إلى كون الرحلة أحد أعظم منجزات الاستكشاف العلمي فإنها قد أظهرت كذلك ضآلة ما كان يعرفه الإنسان عن البحر.

وبعد عام ١٩٣٣م قامت رحلة علمية أمريكية في خليج المكسيك، ونشرت مئات المحطات البحرية، لدراسة خصائص البحار، فوجدت أن عدداً كبيراً من هذه المحطات تعطي معلومات موحدة عن خصائص الماء في تلك المنطقة، من حيث الملوحة والكثافة والحرارة والأحياء المائية وقابلية ذوبان الأكسجين في الماء، بينما أعطت بقية المحطات معلومات موحدة أخرى عن مناطق أخرى، مما جعل علماء

البحار يستنبطون وجود بحرين متميزين في الصفات لا مجرد عينات محدودة كما عُلِمَ من رحلة "تشانجر".

وأقام الإنسان مئات المحطات البحرية لدراسة خصائص البحار المختلفة، فقرر العلماء أن الاختلاف في هذه الخصائص يميّز مياه البحار المختلفة بعضها عن بعض، لكن لماذا لا تمتزج البحار وتتجانس رغم تأثير قوتي المد والجزر التي تحرك مياه البحار مرتين كل يوم، وتجعل البحار في حالة ذهاب وإياب، واختلاط واضطراب، إلى جانب العوامل الأخرى التي تجعل مياه البحر متحركة مضطربة على الدوام مثل الموجات السطحية والداخلية والتيارات المائية والبحرية؟

ولأول مرة يظهر الجواب على صفحات الكتب العلمية في عام ١٣٦١هـ - ١٩٤٢م. فقد أسفرت الدراسات الواسعة لخصائص البحار عن اكتشاف حواجز مائية تفصل بين البحار الملتقمة، وتحافظ على الخصائص المميزة لكل بحر من حيث الكثافة والملوحة، والأحياء المائية، والحرارة، وقابلية ذوبان الأوكسجين في الماء. وبعد عام ١٩٦٢م عرف دور الحواجز البحرية في تهذيب خصائص الكتل العابرة من بحر إلى بحر لمنع طغيان أحد البحرين على الآخر فيحدث الاختلاط بين البحار المالحة، مع محافظة كل بحر على خصائصه وحدوده المحدودة بوجود تلك الحواجز.

وأخيراً تمكن الإنسان من تصوير هذه الحواجز المتحركة المتعرجة بين البحار المالحة عن طريق تقنية خاصة بالتصوير الحراري بواسطة الأقمار الصناعية، والتي تبين أن مياه البحار وإن بدت جسماً واحداً، إلا أن هناك فروقاً كبيرة بين الكتل المائية للبحار المختلفة، تظهر بألوان مختلفة تبعاً لاختلافها في درجة الحرارة.

وفي دراسة ميدانية للمقارنة بين مياه خليج عُمان والخليج العربي بالأرقام والحسابات والتحليل الكيمائي، تبين اختلاف كل منهما عن الآخر من الناحية الكيمائية والنباتات السائدة في كل منهما ووجود البرزخ الحاجز بينهما.

وقد تطلب الوصول إلى حقيقة وجود الحواجز بين الكتل البحرية، وعملها في حفظ خصائص كل بحر قرابة مائة عام من البحث والدراسة، اشترك فيها المئات من

الباحثين، واستخدم فيها الكثير من الأجهزة ووسائل البحث العلمي الدقيقة. بينما جلى القرآن الكريم هذه الحقيقة قبل أربعة عشر قرناً.

أوجه الإعجاز في الآيات السابقة: مما سبق يتبين:

أ- أن القرآن الكريم الذي أنزل قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة قد تضمن معلومات دقيقة عن ظواهر بحرية لم تكتشف إلا حديثاً بواسطة الأجهزة المتطورة، ومن هذه المعلومات وجود حواجز مائية بين البحار، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَبْتَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن: ١٩-٢٠).

ب- يشهد التطور التاريخي في سير علوم البحار بعدم وجود معلومات دقيقة عن البحار وبخاصة قبل رحلة "تشاننجر" عام ١٨٧٣م فضلاً عن وقت نزول القرآن قبل ألف وأربعمائة سنة، والذي نزل على نبي أمي عاش في بيئة صحراوية ولم يركب البحر.

ج- إن علوم البحار لم تتقدم إلا في القرنين الأخيرين وخاصة في النصف الأخير من القرن العشرين. وقبل ذلك كان البحر مجهولاً مخيفاً تكثر عنه الأساطير والخرافات، وكل ما يهتم به ركبوه هو السلامة والاهتداء إلى الطريق الصحيح أثناء رحلاتهم الطويلة، وما عرف الإنسان أن البحار المالحة بحار مختلفة إلا في الثلاثينات من القرن العشرين، بعد أن أقام الدارسون آلاف المحطات البحرية لتحليل عينات من مياه البحار، وقاسوا في كل منها الفروق في درجات الحرارة، ونسبة الملوحة، ومقدار الكثافة، ومقدار ذوبان الأوكسجين في مياه البحار في كل المحطات فأدركوا بعد ذلك أن البحار المالحة متنوعة.

د- وما عرف الإنسان البرزخ الذي يفصل بين البحار المالحة، إلا بعد أن أقام محطات الدراسة البحرية المشار إليها، وبعد أن قضى وقتاً طويلاً في تتبع وجود هذه البرازخ المتعرجة المتحركة، التي تتغير في موقعها الجغرافي بتغير فصول العام.

هـ- وما عرف الإنسان أن مائيّ البحرين منفصلان عن بعضهما بالحاجز المائيّ، ومختلطان في نفس الوقت إلا بعد أن عكف يدرس بأجهزته وسفنه حركة المياه في مناطق الالتقاء بين البحار، وقام بتحليل تلك الكتل المائية في تلك المناطق.

و- وما قرر الإنسان هذه القاعدة على كل البحار التي تلتقي إلا بعد استقصاء ومسح علمي واسع لهذه الظاهرة التي تحدث بين كل بحرين في كل بحار الأرض.

• فهل كان رسول الله ﷺ يملك تلك المحطات البحرية، وأجهزة تحليل كتل المياه، والقدرة على تتبع حركة الكتل المائية المتنوعة؟

• وهل قام بعملية مسح شاملة، وهو الذي لم يركب البحر قط، وعاش في زمن كانت الأساطير هي الغالبة على تفكير الإنسان وخاصة في ميدان البحار؟

• وهل تيسر لرسول الله ﷺ في زمنه من أبحاث وآلات ودراسات ما تيسر لعلماء البحار في عصرنا الذين اكتشفوا تلك الأسرار بالبحث والدراسة؟

• إن هذا العلم الذي نزل به القرآن يتضمن وصفاً لأدق الأسرار في زمنٍ يستحيل على البشر فيه معرفتها، وهذا يدل على مصدره الإلهي، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (الفرقان: ٦).

• كما يدل على أن الذي أنزل عليه الكتاب رسول يوحى إليه وصدق الله القائل ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣).

إخبار القرآن عن أمواج البحر اللجي:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلْمَنٍ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلْمَتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدَهُ لَمْ يَكْدِرْنَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور: ٣٩ - ٤٠).

هذان مثلان، ضربهما الله ﷻ لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدى وتحسر عامليها منها فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برهم وكذبوا رسله ﴿أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ أي: بقاع، لا شجر فيه ولا نبت.

﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً﴾ شديد العطش، الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره، بسبب ما معه من العطش، وهذا حسابان باطل، فيقصده ليزيل ظمأه، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ فندم ندمًا شديدًا، وازداد ما به من الظمأ، بسبب انقطاع رجائه، كذلك أعمال الكفار، بمنزلة السراب، تُرى ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور، أعمالًا نافعة، فيغره صورتها، ويخلبه خيالها، ويحسبها هو أيضًا أعمالًا نافعة لهواه، وهو أيضًا محتاج إليها بل مضطر إليها، كاحتياج الظمان للماء، حتى إذ قدم على أعماله يوم الجزاء، وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئًا.

والحال إنه لم يذهب، لا له ولا عليه، بل ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ﴾ لم يخف عليه من عمله نقيير ولا قطمير، ولن يعدم منه قليلا ولا كثيرا، ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فلا يستبطئ الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لا بد من إتيانه، ومثلها الله بالسراب الذي بقية، أي: لا شجر فيه ولا نبات، وهذا مثال لقلوبهم، لا خير فيها ولا بر فتزكو فيها الأعمال وذلك للسبب المانع، وهو الكفر.

والمثل الثاني، لبطلان أعمال الكفار ﴿كَظُلْمَنٍ فِي بَحْرِ لُجِّي﴾ بعيد قعره، طويل مداه ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلْمَتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمة البحر اللجي، ثم فوّه ظلمة الأمواج المتركمة، ثم فوق ذلك، ظلمة السحب المدهمة،

ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جدًّا، بحيث أن الكائن في تلك الحال ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْتَدِرْهَا﴾ مع قربها إليه، فكيف بغيرها.

كذلك الكفار، تراكمت على قلوبهم الظلمات، ظلمة الطبيعة، التي لا خير فيها، وفوقها ظلمة الكفر، وفوق ذلك، ظلمة الجهل، وفوق ذلك، ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكر، فبقوا في الظلمة متحيرين، وفي غمرتهم يعمهون، وعن الصراط المستقيم مدبرين، وفي طرق الغي والضلال يترددون.

وهذا لأن الله تعالى خذلهم، فلم يعطهم من نوره، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ لأن نفسه ظلمة جاهلة، فليس فيها من الخير والنور، إلا ما أعطها مولاها، ومنحها ربه. يحتمل أن هذين المثالين، لأعمال جميع الكفار، كل منهما، منطبق عليها، وعددهما لتعدد الأوصاف، ويحتمل أن كل مثال، لطائفة وفرقة. فالأول، للمتبعين، والثاني، للتابعين.

ظلمات البحار:

ظلمات البحار مكان كان يستحيل لأي إنسان في زمن النبي محمد ﷺ أن يصل إليها أبدًا، لأن الإنسان لا يحتمل جسمه أن يغوص في الماء سوى إلى ٣٠ متر، ومن المستحيل أن يصل الإنسان بجسمه إلى عمق ١٠٠ متر أو ٢٠٠ متر، كما في هذا الأمر، لقد أخبرنا القرآن عن ظاهرة يبدأ ظهورها بعد ٢٠٠ متر، وبالطبع النبي ﷺ ما ركب بحرًا أصلاً.

ومجتمع النبي ﷺ هو مجتمع صحراوي، فيخبرنا القرآن عن ظلمات توجد في أعماق البحار، في البحار العميقة وليست البحار السطحية، ولم تكتشف هذه الظلمات ولم تكتشف أسبابها إلا برحلة طويلة جدًّا من البحث العلمي حتى تكاملت الاكتشافات فتقدمت الصورة فوجد علماء البحار أن هناك ظلامًا شديدًا على بعد ٣٠٠ متر - ٥٠٠ متر، ويشد كلما نزلنا إلى أسفل لدرجة أن الغواصة إذا نزلت لا بد أن يكون معها آلات إنارة، بل والأسماك التي تعيش في هذه المناطق لا بد أن يكون لها كشاف تحت كل عين من عيونها تكشف لها كشافات، أو تكون عمياء لأنه ليس هناك ضوء، يقول

الله تَعَالَى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ (النور: ٤٠) يُشَبَّه الظلمات التي يعيش فيها الكافر بظلمات في بحر عميق، انظر كيف قال ﴿بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ ولم يقل أي بحر ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ أي عميق ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ يغشاه يعني يغطيه. كيف يغطيه وفوقه موج؟ الظاهر أن الموج هو الغطاء، وهذا يدل على وجود بحر ثانٍ فيه موج، وعندئذ نعرف من هذا الوصف القرآني أن هناك بحر عميق وبحر سطحي.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ البحر اللجي ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ يعني يغطيه موج ﴿مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ يعني فوقه البحر السطحي وفيه موج ﴿مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِرْنَهَا﴾ (النور: ٤٠)

أسباب هذه الظلمات في أعماق البحار ترجع إلى سببين رئيسيين:

الأول: العمق لأن الشعاع الضوئي يتكون من سبعة ألوان، والألوان عندما تحترق الماء لا تحترقه بقوة واحدة بحسب اختلاف طول الموجة، ولذلك يمتص اللون الأحمر على مسافة العشرين متر الأولى، بعدها لو أن غواصاً يغوص وجرح وخرج منه دم وأراد أن يرى الدم لا يراه باللون الأحمر بل يراه باللون الأسود، لماذا؟ لأن اللون الأحمر انعدم فأصبحت هناك ظلمة اللون الأحمر، ثم بعد ذلك يمتص اللون البرتقالي على مسافة ٣٠ متر، ثم يمتص اللون الأصفر على مسافة ٥٠ متر، ثم يمتص اللون الأخضر على مسافة ١٠٠ متر، وهكذا بقية الألوان السبعة، آخر لون يمتص الأزرق ولذلك نرى البحر أزرق لأنه آخر شعاع يمتص، وبعد هذا العمق نصل إلى ٢٠٠ متر، ثم نصل إلى منطقة الظلام الشديد، هذه الظلمات ظلمات بعضها فوق بعض.

السبب الثاني: ظلمات الحواجز فالموج الداخلي الذي يغطي البحر العميق، لم يتمكن الإنسان من أن يعرف الظلمات إلا بعد عام ١٩٣٣ ميلادية لما بدأ صناعة الغواصات، فالموج الداخلي، والموج السطحي، والسحاب، كلها حواجز تمنع مرور

الشعاع الضوئي إلى أسفل، فإذا وقفت على شاطئ البحر فسترى الأمواج تنعكس منها الأشعة إلى عينيك وكأنها مرآة، تعكس هذا، وهذا يدل على مقدار ما عكست الأمواج من الأشعة، فأحدثت ظلمة، والموج الداخلي يعكس معظم ما بقي من أشعة، ولذلك يأتي بعد الموج الداخلي المنحدر الحراري، انحدار واسع في درجة حرارة الماء.

إذن هذه الظلمات موجودة، وسببها الأعماق، والحواجز، وتركيبها بعضها فوق بعض، انظر إلى هذا الوصف القرآني ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ فنسب الظلمات إلى عمق البحر ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ ﴾ ظلمات مرة ثانية جاء ذكرها بعد ذكر الحواجز، فكأنه يقول لنا: هذه الظلمات سببها الأعماق وسببها الحواجز، ثم يستعمل لفظ ﴿ ظُلُمَاتٌ ﴾ الذي هو من جموع القلة وجموع القلة من ثلاثة إلى عشرة، فأنت تقول ظلمة وظلمتان وثلاث. هنا إشارة إلى عشر ظلمات.

فالآية تكلمنا ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ فهي جموع القلة من ثلاثة إلى عشرة، سبعة للألوان وثلاثة للحواجز، ثم يستعمل لفظاً آخر فعل المقاربة قال: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِرْنَهَا ﴾.

﴿ لَمْ يَكْدِرْنَهَا ﴾ كاد من أفعال المقاربة ونفيها يعني نفي وقوع الفعل ألبتة أو مقاربة النفي، والمفسرون قالوا: هذا له معنيان. قالوا: ﴿ لَمْ يَكْدِرْنَهَا ﴾ أي يراها بصعوبة وآخرون قالوا: لا يراها ألبتة، فاستعمل هذا التعبير الذي يدل على المعنيين، وهذا ما يحدث في البحر ففي الطبقات التي مازال فيها شيء من ضوء لا ترى يدك إلا بصعوبة لكن إذا نظرت إلى أسفل لا تراها أبداً.

هذه الآيات قيلت للاستشهاد على حال الكافر الذي لا يرى أنوار الهداية، فحاله ظلمات بعضها فوق بعض، إذن فقلب الكافر لا يعرف من خلقه، لا يعرف لماذا خُلق، لا يعرف لماذا يموت، لا يعرف ما الحق الذي يجب أن يفعله، ولا الباطل الذي يجب أن يجتنبه، ظلمات تراكمت فشبهها بحال تلك الظلمات.

الدلالة العلمية للآية الكريمة:

تشير هذه الآية الكريمة إلى الظلمة التامة فوق قيعان البحار العميقة والمحيطات، مؤكدة أنها ظلمة مركبة، لكل من السحب، والأمواج السطحية، والأمواج الداخلية دوراً أساسياً في إحداثها، وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا في مطلع القرن العشرين.

وجه الإعجاز:

لقد أثبت القرآن وجود ظلمات في البحر العميق، وقيد وصف البحر بلفظ «لُجِّي» ليعلم قارئ القرآن أن هذه الظلمات لا تكون إلا في بحر لحي أي عميق، ويخرج بهذا القيد البحر السطحي الذي لا توجد فيه هذه الظلمات.

وقد بين أهل اللغة والتفسير معنى لفظ «لُجِّي» فقالوا إنه البحر العميق الذي لا يدرك قعره. وهذه الظلمات تتكون بسبب العمق في البحر اللحي، وهي ظلمات الأعماق.

القرآن يُحبر عن قلة الأوكسجين في طبقات الجو العليا:

أشار القرآن الكريم إلى حقيقة علمية لم يكتشفها البشر إلا حين أمكن له أن يرتقي في الجو إلى الطبقات العليا، وهي قلة الأوكسجين في تلك الطبقات حيث يتركز حوالي نصف كتلة الهواء الجوي في الستة كيلومترات الأولى فوق الأرض، بينما يتشر النصف الآخر في الطبقات التي تعلق ذلك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

تبين هذه الآية الكريمة أن من أراد الله هدايته شرح صدره للإسلام فاطمأن به قلبه واستنارت له نفسه، وأن من أراد به الضلال - وفق مشيئته - ضاق صدره عن قبول الإيمان وانغلق انغلاقاً تاماً حتى لا يجد الخير حينئذ مسلكاً إلى قلبه، وقد شبه المولى - سبحانه - ضيق صدر هذا البأس بضيق صدر الذي يتصاعد في السماء بتناقص قدرته على التنفس الطبيعي درجة بعد درجة، وذلك لانخفاض الضغط الجزئي للأكسجين في طبقات الجو العليا حتى يصل الضيق إلى أشد مراحل وهو مرحلة الحرج والتي لا يستطيع بعدها الأكسجين أن ينفذ إلى دمه، وهو تشبيه بليغ شبهت فيه الحالة المعنوية بحالة حسية، أدركت حقائقها وشوهدت كيفياتها اليقينية في هذا الزمان ولم تكن معلومة للبشر وقت التنزيل.

إن الله تبارك وتعالى أخبر أنه يجعل صدر الكافر الذي كتب الله عليه الضلالة ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ وهذه صورة معقولة يفهمها السامع ثم شبهها بصورة متخيلة ولكنها معقولة وهي قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾، والتصعد أو الصعود إلى السماء هو الصعود إلى العلو، والمخاطبون بهذا القرآن ابتداء هم أهل مكة.

وإدراك هذا التشبيه أمر ممكن وميسور لهم بسبب طبيعة بلدهم الجبلية، فإن الصاعد في الجبل كلما ارتفع كلما ضاق صدره وصعب تنفسه وزادت ضربات قلبه، لكن هل كان أهل مكة يدركون سر هذا الضيق والحرج عند صعود الجبال وأن ذلك بسبب نقص الأكسجين؟ بالتأكيد لا.

فلما ظهرت الكشوف العلمية وتبين أن حياة الإنسان تتوقف على وجود غاز الأكسجين في الهواء، وأن الإنسان كلما ارتفع إلى طبقات الجو العليا كلما قل غاز الأكسجين ويصبح تنفس الإنسان بصعوبة حتى يصل إلى مرحلة ينعدم فيه الأكسجين ومن ثم يحصل الاختناق. وبهذا تبين أن الآية تخفي في ثناياها دلالة على آية كونية لم تكن

معروفة للإنسان وهي شاهد على صدق هذا القرآن وأنه من عند الله تعالى الذي أتقن كل شيء.

إن هذه الآية الكريمة تقدم معجزة من وجوه عدة، فهي تعرض حقيقة علمية ثابتة بأسلوب بلاغي دقيق، ومن وجوه هذا الإعجاز:

أ- صعود الإنسان في السماء، فيوم أن سمع الناس بهذه الآية اعتبروا الصعود في السماء ضرباً من الخيال، وأن القرآن إنما قصد الصعود مجازاً لا حقيقةً، والواقع أن هذه الآية تعتبر نبوءة تحققت، في حياة الناس فيما بعد.

ب- صحة التشبيه: فالارتفاع في الجو لمسافة عالية يسبب ضيقاً في التنفس وشعوراً بالاختناق يزيد كلما زاد الارتفاع «يَصْعَدُ»، حتى يصل الضيق إلى درجةٍ حرجيةٍ وصعبةٍ جداً.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ (الطارق: ١١). جاء القَسَمُ بالسماء، وبصفة خاصة من صفاتها، وهي أنها (ذات الرجع). وفي ذلك قال قدامى المفسرين: تُمْطِرُ ثُمَّ تُمْطِرُ. أي: ترجع السماء بالمطر كل عام.

ومع تسليمنا بصحة هذا الاستنتاج يبقى السؤال المنطقي: إذا كان المقصود بالتعبير (رجع السماء) هو المطر فقط، فلماذا فضل القرآن الكريم لفظة الرجع على لفظة المطر؟ ولماذا لم يأتِ القسم القرآني بهذا التعبير: (والسماء ذات المطر) بدلاً من: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ (الطارق: ١١).

إن من معاني (الرجع) هنا: الارتداد، أي أن من الصفات البارزة في سمائنا أنها ذات رجع أي ذات ارتداد، بمعنى أن كثيراً مما يرتفع إليها من الأرض ترده إلى الأرض ثانية، وأن كثيراً مما يهبط عليها من أجزاءها العليا يرتد ثانية منها إلى المصدر الذي هبط عليها منه، فالرجع صفة من صفات السماء، أودعها فيها خالق الكون ومبدعه، فلولاها

ما استقامت على الأرض حياة، ومن هنا كان القسم القرآني بها تعظيماً لشأنها، وتنبهاً لنا للحكمة من إيجادها وتحقيقها.

رجع السماء في ضوء العلوم الحديثة:

في العقود المتأخرة من القرن العشرين كشف العلم عن صور أخرى لرجع السماء، وعلى ذلك فإن وصف السماء بأنها ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ في القرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة من السنين يجمع كل هذه الصور التي نعرفها اليوم، وربما العديد من الصور التي لم نعرفها بعد، وكل هذا في كلمة واحدة وهي (الرجع)، وهذه الكلمة الجامعة هي شهادة صدق بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق.

لقد كشف العلم اليوم عن عدد من صور الرجع في السماء، ومنها:

- ١- يقوم الغلاف الجوي بإرجاع الماء المتبخر بهيئة أمطار.
- ٢- يُرجع الغلاف الجوي للأرض كثير من النيازك ويردها للفضاء الخارجي.
- ٣- يرد الغلاف الجوي الإشعاعات القاتلة للأحياء ويدفعها بعيداً عن الأرض.

٤- يعكس الغلاف الجوي موجات الراديو القصيرة والمتوسطة إلى الأرض، ولذا يمكن اعتبار الجو أشبه بمرآة عاكسة للأشعة والموجات الكهرومغناطيسية، فهو يعكس أو يرجع ما يث إليه من الأمواج اللاسلكية والتلفزيونية التي ترتد إذا أرسلت إليها بعد انعكاسها على الطبقات العليا الأيونية (الأيونوسفير) وهذا هو أساس عمل أجهزة البث الإذاعي والتلفزيوني عبر أرجاء الكرة الأرضية.

٥- الغلاف الجوي أشبه بمرآة عاكسة للحرارة فيعمل كدرع واقية من حرارة الشمس أثناء النهار كما يعمل كغطاء بالليل يمسك بحرارة الأرض من التشتت، ولو اختل هذا التوازن لاستحالت الحياة على الأرض إما من شدة الحرارة نهاراً أو شدة البرودة ليلاً.

وجه الإعجاز:

تشير الآية القرآنية الكريمة إلى أن أهم صفة للسماء المحيطة بالأرض هي أنها ذات رجوع وقد فهم القدامى أنها تشير إلى المطر فحسب، وجاء العلم الحديث ليعمق معنى الإرجاع في وصف الجو ليشمل مظاهر عديدة لم يكن يعلمها بشر من قبل، وكلمة الرجوع تأتي بمعنى الإرجاع أو الإعادة إلى ما كان منه البدء، فمعناها رد الشيء وإرجاعه في اتجاه مصدره مثل صدى الصوت، والسماء هنا تعني جو الأرض، والتعبير يفيد وجود غلاف يحيط بها يرد إليها كل نافع ويرد عنها كل ضار فتبين أن لفظة الرجوع لها من الدلالات ما يفوق مجرد نزول المطر وأنه بغير تلك الصفة للجو ما استقامت علي الأرض حياة، وبهذا أجمل القرآن الكريم بلفظة واحدة كل ما كشفه العلم الحديث من خصائص الجو.

وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ (الطارق: ١٢).

الصَّدْعُ الشَّقُّ فِي الشَّيْءِ الصُّلْبِ كَالزُّجَاجَةِ وَالْحَائِطِ وَغَيْرَهُمَا.

من المعاني الصحيحة التي فهمها الأولون من القسم القرآني بالأرض ذات الصدع معنى انصداعها عن النبات، أي انشققها عنه، ولكن لما كانت لفظة الأرض قد جاءت في القرآن الكريم بمعنى التربة التي تغطي صخور اليابسة، وبمعنى كتل اليابسة التي نحيا عليها، وبمعنى كوكب الأرض كوحدة فلكية محددة، فإن القسم القرآني بالأرض ذات الصدع قد تكون له دلالة في كل معنى من معاني كلمة الأرض كما نجده في الشرح التالي:

أولاً: انصداع التربة عن النبات:

الصدع لغة هو كسر في الأرض تتحرك الأرض على جانبي مستواه حركة أفقية، أو رأسية أو مائلة. وتربة الأرض تتكون عادة من معادن الصلصال المختلطة أو غير المختلطة بالرمل، وهي معادن دقيقة الحبيبات (أقطارها أقل من ٠,٠٠٤ من المليمتر) وتتركب أساساً من سيليكات الألومنيوم على هيئة رقائق متبادلة من كل من السيليكا

(ثاني أكسيد السيليكون) والألومينا (ثالث أكسيد الألومنيوم) مع عناصر أخرى كثيرة، ويحمل كل راقٍ على سطحه شحنة كهربائية موجبة أو سالبة على حسب نوع الصلصال المركب منه.

والصلصال من المعادن الغروية، والمواد الغروية لها قدرة الانتشار في غيرها من المواد نظراً لدقة حبيباتها، كما أن لها القدرة على تشرب الماء والالتصاق بأيونات العناصر، ولذلك فإنه عند نزول الماء على التربة أو عند ريّها بكميات مناسبة من الماء فإن ذلك يؤدي إلى انتفاشها وزيادة حجمها، فتهتز حبيباتها، وتربو إلى أعلى حتى ترق رقعة شديدة فتنشق لتُفسح طريقاً سهلاً لكل من الجذير المندفع إلى أسفل، والسُوَيْقَة المنبثقة من داخل البذرة النابتة إلى أعلى حتى تتمكن من اختراق التربة بسلام.

وتظهر على سطح الأرض مستمرةً في النمو لتغطي باقي أجزاء النبات. ولولا خاصية انصداع التربة عند نزول الماء عليها أو ريّها ما أُنبتت الأرض على الإطلاق، ومن هنا كان ذلك وجهاً من أوجه القسم بالأرض ذات الصدع لأهميته البالغة في إعمار الأرض وجعلها صالحة للحياة.

ثانياً: تصدع صخور اليابسة:

نتيجة لتعرض صخور قشرة الأرض للإجهاد بالشد أو بالتضاغط تتكسر تلك الصخور بواسطة مجموعات من الفواصل المتوازية والمتقاطعة على هيئة شقوق في قشرة الأرض، تمزق صخورها إلى كتل متجاورة دون حدوث قدر ملحوظ من الحركة على جوانب مستويات تلك الشقوق.

كذلك تحدث الفواصل نتيجة لعمليات التعرية التي تقوم بإزاحة كميات كبيرة من الصخور الظاهرة على سطح الأرض، بما يعين على تخفيف الضغط على الصخور الموجودة أسفل منها وبالتالي تخفيف شدة الإجهاد الذي كانت تعاني منه تلك الصخور فتستجيب بالتمدد فتشقق على هيئة كسور تفصل أجزاء الصخور إلى كتل متجاورة دون حدوث حركة ملحوظة عبر تلك الفواصل.

وغالبية فواصل الأرض تقع في مجموعات متوازية ومتقاطعة في اتجاهين أو أكثر، وإن كان بعضها قد لا يكون له اتجاه محدد وأغلبها قليل العمق. وتحدث فواصل قشرة الأرض كذلك نتيجة لتبرّد الصهارة الصخرية المندفعة من باطن الأرض قريباً من سطحها أو إلى سطحها على هيئة متداخلات نارية أو طفوح بركانية.

أما صدوع الأرض فهي كسور في قشرتها، يتم عبرها تحرك صخورها على جانبي مستوى الصدع حركة أفقية، أو رأسية، أو مائلة بدرجة ملحوظة، وتتراوح أبعاد تلك الصدوع تبايناً كبيراً، فمنها ما لا يرى بالعين المجردة، ولا تكاد الحركة عبر مستواه تدرك، ومنها ما يمتد لعشرات الكيلومترات، وتبلغ الحركة عبر مستواه مبلغاً عظيماً.

ومن هذه الصدوع ما يتكون نتيجة لشد صخور الأرض في اتجاهين متعاكسين، ومنها ما يتكون نتيجة للتضاغط في اتجاهين متقابلين، كما أن منها ما يتكون نتيجة انزلاق كتل الصخور عبر بعضها البعض. وتحرك صدوع الأرض النشطة يحدث عدداً من الهزات الأرضية، أما الصدوع القديمة فقد أصبح أغلبها خاملاً بلا حراك.

ولصدوع الأرض أهمية بالغة لأنها تمثل ممرات طبيعية بين باطن الأرض وسطحها، تتحرك عبرها الأبخرة والغازات المحملة بالثروات المعدنية، كما تتحرك المتداخلات النارية والطفوح البركانية المحملة كذلك بمختلف الصخور والمعادن الاقتصادية المهمة وبالعناصر اللازمة لتجديد صخور وتربة سطح الأرض.

والصدوع تلعب أدواراً مهمة في تكوين كل من التواءات والخسوف الأرضية، والينابيع المائية، وبعض المكامن البترولية، كما تعين عمليات التعرية المختلفة في شق الفجاج والسبل، وفي تكوين الأودية والمجاري المائية، وفي جميع عمليات التعرية وتسوية سطح الأرض، وما يستتبعه ذلك من تكوين كل من التربة والرسوبيات والصخور الرسوبية وما بها من الثروات الأرضية. وكما تكون الصدوع عاملاً من عوامل الهدم على سطح الأرض فإنها قد تكون عاملاً من عوامل البناء، فتبني الجبال والتلال والهضاب، كما تبني الأحواض، والأغوار، والخسوف الأرضية.

ثالثاً: تصدع الأرض ككوكب بواسطة أودية الخسف:

على الرغم من التعرف على عدد من أودية الخسف (الصدوع العملاقة) على سطح الأرض منذ زمن بعيد إلا أن العلماء قد اكتشفوا في العقود الثلاثة الماضية أن أرضنا محاطة بشبكة هائلة من تلك الأودية الخسيفة (الصدوع العملاقة) التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة، ويشبهها العلماء باللحام على كرة التنس.

وتتمدد هذه الصدوع العملاقة لآلاف الكيلومترات في جميع الاتجاهات بأعماق تتراوح بين ٦٥ و ٧٠ كيلومتراً تحت قيعان كل محيطات الأرض وقيعان عدد من بحارها، وبين ١٠٠ و ١٥٠ كيلومتراً تحت القارات، ممزقة الغلاف الصخري للأرض بالكامل إلى عدد من الألواح التي تعرف باسم ألواح الغلاف الصخري للأرض، وتطفو هذه الألواح الصخرية فوق نطاق الضعف الأرضي، وهو نطاق لدن، شبه منصهر، عالي الكثافة واللزوجة، وتنطلق فيه تيارات الحمل من أسفل إلى أعلى، حيث تبرد وتعاود النزول إلى أسفل فندفع معها ألواح الغلاف الصخري للأرض متباعدة عن بعضها البعض في إحدى حوافها، ومصطدمة مع بعضها البعض عند الحواف المقابلة، ومنزلة عبر بعضها البعض عند بقية الحواف.

وينتج عن هذه الحركات لألواح الغلاف الصخري للأرض عدد من الظواهر الأرضية المهمة التي منها اتساع قيعان البحار والمحيطات، وتجددُ صخورها باستمرار عند حواف التباعد، وتكوّن سلاسل من جبال أواسط المحيطات ومن الجزر البركانية، ومنها تكوّن السلاسل الجبلية عند حواف التصادم حيث يستهلك قاع المحيط تحت كتلي القارتين المقابلتين له، وتُصاحَب العمليتان بالهزات الأرضية وبكَم هائل من الطفوح البركانية، ويبلغ طول جبال أواسط المحيطات أكثر من ٦٤٠٠٠ كيلومتر، وهي تتكون أساساً من الصخور البركانية المختلطة بقليل من الرواسب البحرية، وتحيط بالصدوع العملاقة.

ومع تجدد صعود الطفوح البركانية عبر هذا الصدع العملاق (الوادي الخسيف) في وسط سلسلة الجبال البحرية يتجدد قاع المحيط بأحزمة حديثة من

الصخور البازلتية المتوازية على جانبي الوادي الخسيف، ويهبط قاع المحيط بنصف معدل اتساع قاعه عند كل من شاطئيه، وبذلك تكون أحدث صخور قاع المحيط حول محوره الوسطي، وأقدمها عند هبوط قاع المحيط تحت كتل القارتين المحيطيتين به.

وهذه الحركة لألواح الغلاف الصخري للأرض كانت سبباً في زحف القارات، وتجمعها وتفتتها بصورة دورية، فيما يعرف باسم دورة القارات والمحيطات، وفيها قد تنقسم قارة ببحر طولي مثل البحر الأحمر إلى كتلتين أرضيتين تتباعدان عن بعضهما البعض باتساع قاع البحر الفاصل بينهما حتى يتحول إلى محيط، كما قد يُستهلك قاعٌ محيط بالكامل تحت إحدى القارات بدفع كتلة أرضية له تحت تلك القارة حتى يصطدما مكونين أعلى سلاسل جبلية على سطح الأرض، كما حدث في اصطدام الهند بالقارة الآسيوية، وتكونت سلسلة جبال الهمالايا، وبها قمة (إفرست) أعلى قمة جبلية على سطح الأرض.

وهذه الصدوع العملاقة (الأودية الخسيفة) التي تحيط بالكرة الأرضية إحاطة كاملة بعمق يتراوح بين ٦٥ و ١٥٠ كيلومترا، وبطول يقدر بعشرات الآلاف من الكيلومترات في كل الاتجاهات هي مراكز تتحرك عبرها ألواح الغلاف الصخري للأرض متباعدة أو مصطدمة أو منزلقة عبر بعضها البعض. وهذه الصدوع العملاقة تعمل كممرات طبيعية للحرارة المختزنة في داخل الأرض والناجمة عن تحلل العناصر المشعة، ولولاها لانفجرت الأرض.

وعبر هذه الصدوع العملاقة تندفع ملايين الأطنان من الصهارة الصخرية على هيئة طفوح بركانية تثري سطح الأرض بالعديد من الصخور والمعادن النافعة، وتجدد شباب التربة الزراعية، وتكون مراكز مهمة لاستغلال الحرارة الأرضية.

وعبر هذه الصدوع العملاقة وما صاحبها من فوهات البراكين انطلقت الغازات والأبخرة التي كونت غلافي الأرض المائي والغازي، ولا تزال تنطلق لتجددهما، وخلال تلك العملية تفقد الأرض من كتلتها إلى فسحة السماء بعضاً من مادتها، وطاقتها تتناسب مع ما تفقده الشمس من كتلتها على هيئة طاقة حتى تظل

المسافة بين الأرض والشمس ثابتة، لا تنقص فتحرقنا أشعة الشمس، أو تبتلعنا، ودرجة حرارة لهيها ١٥ مليون درجة مئوية، ولا تزيد فيتجمد وتتجمد الحياة من حولنا، أو تنفلت من عقال جاذبيتها فتضيع في فسحة الكون الشاسع، ليس هذا فقط، بل إن الغلاف الصخري للأرض قد تكون أيضًا عبر تلك الصدوع العملاقة، وذلك لأن الكثير من الشواهد الأرضية تشير إلى أن الغلاف الصخري الأول للأرض كان مكونًا من صخور البازلت الشبيهة بصخور قيعان البحار والمحيطات الحالية، وبالصخور المندفعة عبر الصدوع التي تمزقها، وإن الأرض كانت مغطاة بالمياه على هيئة محيط غامر واحد، وبواسطة النشاط البركاني فوق قاع هذا المحيط الغامر تكونت أولى المرتفعات فوق قاعه على هيئة عدد من السلاسل الجبلية في وسطه، ارتفعت قممها لتكوّن عددًا من الجزر البركانية.

ومع تحرك تلك الجزر البركانية تصادمت مع بعضها البعض لتكون نوى عدد من القارات التي نمت بتصادمها مع بعضها لتكون قارة واحدة عرفت باسم القارة الأم التي ما لبثت أن تفتت بفعل ديناميكية الأرض وصدوعها العملاقة إلى القارات السبع الحالية التي ظلت تتباعد عن بعضها حتى وصلت إلى مواقعها الحالية.

وعبر صدوع الأرض العملاقة تكونت القشرة القارية بتركيبها الذي تغلب عليه الصخور الجرانيتية، وأثريت تلك القشرة ولا تزال تُثرى بمختلف العناصر والمركبات على هيئة العديد من المعادن والركازات ذات القيمة الاقتصادية، وتكونت السلاسل الجبلية التي تثبت بأوتادها كتل القارات في قيعان البحار والمحيطات، أو تثبت قارتين ببعضها البعض بعد استهلاك قاع المحيط الفاصل بينهما تحت إحداهما، وثارَت البراكين ورجفت الأرض بالزلازل، وتحركت دورات الماء والصخور وعوامل التعرية، وتكونت التربة والرسوبيات والصخور الرسوبية وما تحتزنه من الثروات الأرضية، وأصبحت الأرض صالحة لعمرانها بالحياة.

وهذه الصدوع العملاقة التي تمزق قيعان كل محيطات الأرض وقيعان عدد من بحارها (مثل البحر الأحمر) توجد أيضًا على اليابسة وتعمل على تكوين بحار طويلة شبيهة بالبحر الأحمر لتفتت اليابسة إلى عدد أكبر من القارات وأشباه القارات.

وتحاط تلك الصدوع القارية العملاقة بعدد من الجبال البركانية العالية من مثل جبل آارات في شرق تركيا (٥١٠٠ م فوق مستوى سطح البحر)، ومخروط بركان "أتنا" في شمال شرقي صقلية (٣٣٠ م فوق مستوى سطح البحر)، ومخروط بركان "فيزوف" في خليج نابلي بإيطاليا (١٣٠٠ م فوق مستوى سطح البحر)، وجبل "كيليمينجارو" في "تنجانيقا" (٥٩٠٠ م فوق مستوى سطح البحر)، وجبل "كينيا" في جمهورية "كينيا" (٥١٠٠ م فوق مستوى سطح البحر).

وجه الإعجاز:

تعتبر الصدوع التي تقطع القشرة الصخرية الخارجية من الأرض لعشرات الآلاف من الكيلومترات، وفي جميع الاتجاهات، ولأعماق تصل إلى ما بين ٦٥ إلى ١٥٠ كم من أبرز علامات الكرة الأرضية، ولم تكتشف هذه الصدوع إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وتم شرحها من خلال نظرية الألواح التكتونية التي تمت صياغتها في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي.

فسبحان الذي وصف الأرض من قبل ألف وأربعمائة سنة بأنها ذات صدع، لأن هذه الشبكة الهائلة من الصدوع العملاقة أو الأودية الخسيفة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بعمق يتراوح بين ٦٥ و١٥٠ كيلومترا، وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض إحاطة كاملة في كل الاتجاهات تتصل ببعضها البعض وكأنها صدع واحد.

وسبحان الذي أقسم بالأرض ذات الصدع من قبل ألف وأربعمائة سنة تفخيماً لظاهرة من أروع ظواهر الأرض وأكثرها إبهاراً للعلماء، وأشدّها لزوماً لجعل الأرض كوكباً صالحاً للحياة وللعمران، لأنه بدونها لم يكن ممكناً للأرض أن تكون صالحة لذلك، فعبّر هذه الصدوع العملاقة خرج كل من الغلافين المائي والغازي للأرض،

ولا يزالان يتجددان، وعبر النشاط الملازم لها تحركت ألواح الغلاف الصخري الأولى للأرض فتكوّنت القارات والسلاسل الجبلية، والجزر البركانية، وتجددت قيعان المحيطات، وتزحزحت القارات، وتبادلت اليابسة والمحيطات وثارَت البراكين لتخرج قدرًا من الحرارة الأرضية الحبيسة في داخل الأرض، والتي كان من الممكن أن تفجرها لو لم تتكون تلك الصدوع العملاقة، وخرجت كميات هائلة من المعادن والصخور ذات القيمة الاقتصادية مع هذه الثورات البركانية، ونشطت ديناميكية الأرض، وثبتت ألواح غلافها الصخري بالجبال.

وهنا نرى في صدوع الأرض أبعادًا ثلاثة: بعد لا يتعدى بضعة ملليمترات أو بضعة سنتيمترات في انصداع التربة عن النبات، وبعد آخر في صدوع اليابسة التي تمتد الحركات الأرضية عبر مستوياتها من عشرات السنتيمترات إلى مئات الأمتار، وبعد ثالث في الصدوع العملاقة التي تنتشر أساسًا في قيعان المحيطات. كما توجد في بعض أجزاء اليابسة على هيئة أغوار سحيقة تتراوح أعماقها بين ٦٥ كيلومترًا، و١٥٠ كيلومترًا، وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض إحاطةً كاملة على هيئة صدع واحد، ونرى أهمية كل بعد من هذه الأبعاد في تهيئة الأرض للعمران.

ومن هنا كان القسم القرآني بالأرض ذات الصدع من قبل ألف وأربعمائة سنة، والعلم الكوني لم يصل إلى كشف تلك الحقيقة إلا في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن العشرين، ولم يكن لأحد في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده إمام بتلك الحقيقة الأرضية، أو إدراك لشيء من جوانبها، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدرًا لها قبل ألف وأربعمائة من السنين غير الله الخالق.

وهذا السبق القرآني بالإشارة إلى تلك الحقيقة الأرضية وإلى غيرها من الحقائق الكونية هو ما يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن هذا النبي الخاتم، والرسول الخاتم، الذي أوحى إليه القرآن، كان دومًا موصولًا بالوحي، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض.

المادة وقرين المادة:

نحن نعلم أن العزيز الحكيم ﷻ خلق الإنسان وجعل منه زوجين ذكراً وأنثى ولم يقتصر هذا النظام على الإنسان فقط بل تعداه ليشمل مملكة الحيوان فقد جاء فيها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ (النجم: ٤٥ - ٤٦)، وكذلك مملكة النبات، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد: ٣)، فالإنسان والشطر الأكبر من فصائل الحيوان والنبات خلقوا جميعاً في صورة الذكر والأنثى، هذا ما يخبرنا به القرآن وهو ما تعلمناه في علوم الأحياء.

وبالإضافة إلى ذلك نرى في الآية التالية شمولاً أكبر وأعم، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٩). فكلمة "شئ" هنا فمهما من قبلنا ويفهمها أكثرنا على أنها تشمل الإنسان والحيوان والنبات فقد جمع القرآن ذكرهم في هذه الآية وأخبرنا بأنه جعل من كل المخلوقات الحية زوجين. وقد يكون الأمر كذلك، ولكننا إذا أمعنا النظر لوجدنا أن كلمة "شئ" فيها شمول أكثر من النبات والحيوان والإنسان، أنها تشمل الجماد أيضاً. فهل في الجماد زوجان؟ من أجل الإجابة على هذا السؤال نحتاج لنزهة قصيرة في فيزياء الجسيمات.

في النصف الأول من القرن العشرين كان أحد الفيزيائيين الإنجليز - واسمه "ديراك" - يقوم بأبحاث على معادلات الإلكترونات، والإلكترونات هي الجسيمات السالبة الشحنة التي تدور حول نواة الذرة، وفي أثناء قيامه بهذه الأبحاث اكتشف أن المعادلات لها حلين وليس حل واحد. وأي واحد منا تعامل مع معادلات الدرجة الثانية يستطيع أن يدرك بسهولة هذا الموقف. فمعادلات الدرجة الثانية تحتوي على مربع كمية مجهولة، والكمية المربعة دائماً موجبة، فحاصل ضرب 2×2 يعطى ٤ كذلك حاصل ضرب $2 - \times 2$ يعطى أيضاً نفس النتيجة. ومعنى ذلك أن الجذر التربيعي لـ ٤ هو إما ٢ أو -٢. وقد كانت معادلات ديراك أكثر تعقيداً من هذا المثال ولكن المبدأ

هو نفسه، فقد حصل على مجموعتين من المعادلات إحداهما للإلكترونات السالبة الشحنة والأخرى لجسم مجهول ذو شحنة موجبة.

وقد قام "ديراك" ببعض المحاولات غير الناجحة لتفسير سر هذا الجسيم المجهول، فقد كان يؤمن بوجوده، ولكن الفيزيائيين تجاهلوا بعد ذلك فكرة وجود جسيم موجب الشحنة يمكن أن يكون قريناً للإلكترونات تماماً كما يتجاهل المهندس الذي يتعامل مع معادلات الدرجة الثانية الحلول التي تعطى أطوالاً أو كتلاً سالبة.

وبعد عدة سنوات من أعمال "ديراك" النظرية وفي أوائل الثلاثينات اكتشف آثار هذا الجسيم المجهول في جهاز يسمى بغرفة الضباب، وعند دراسة تأثير المجال المغناطيسي على هذه الآثار اكتشف أن كتلة ذلك الجسيم تساوي كتلة الإلكترون وأنه يحمل شحنة موجبة ومساوية لشحنة الإلكترون وعندئذ سمي هذا الجسيم بـ"قرين الإلكترون" أو "البوزترون"؛ ومن ثم بدأ البحث عن قرائن الجسيمات الأخرى فمعنى وجود قرين للإلكترون وجود قرائن للجسيمات الأخرى، وفعلاً بدأ اكتشاف هذه القرائن الواحد يلي الآخر وبدأ تقسيمها إلى أنواع لن ندخل في تفاصيلها وسوف نكتفي بذكر نتيجتها النهائية وهي وجود قرين لكل جسيم بل ولكل جسم.

واكتشاف قرين المادة نجبرنا باحتمال وجود عالم آخر يناظر عالمنا المادي ويتكون من قرائن الجسيمات أي من قرين المادة. أي هو هذا العالم الذي يتكون من قرين المادة؟ هذا هو السؤال الذي لم يستطع أحد الإجابة عليه، فالأرض تتكون أساساً من مادة وليس من قرائن المادة، أما قرائن المادة التي يتم إنتاجها في "الأشعة الكونية" أو في "معجلات الجسيمات" لا تعيش مدة طويلة في الأجواء الأرضية، فبمجرد أن تنخفض سرعتها بعض الشيء تحتم عليها أن تواجه مصيرها المؤلم الذي لا تستطيع الفرار منه وهو المَحَقُّ أو الإبادة بواسطة المادة المقابلة لها التي تملأ أجواء الأرض. فعندما يتقابل الجسيم مع قرينه أو المادة مع قرينها يبدد كل منهما الآخر ويختفي الاثنان في شيء يشبه الانفجار متحولين كليهما إلى طاقة معظمها في صورة أشعة جاما.

ومما يذكر أن الفيزيائي المسلم محمد عبد السلام الباكستاني الجنسية الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٧٩ والذي قام بأبحاث هامة في موضوع الجسيمات وقرائنها، صرح بعد حصوله على الجائزة أن الآية القرآنية: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رُجُوجِينَ﴾ كانت بمثابة إحساس خفي وإلهام قوي له وذلك أثناء أبحاثه على قرائن الجسيمات المادية. فقد فهم هذه الآية فهما شاملا يطوي بين كلماتها حقيقة وجود قرائن للمادة كحقيقة وجود أزواج أو قرائن في مملكة النبات والحيوان الإنسان.

ظاهرة طبية تحير علماء أمريكا!

لقد اكتشف العلماء ظاهرة حديثة نسبياً في عام ١٩٤٠ من قبل Ernst Kretschmer ثم جاء العالم Bryan Jennett والعالم الأمريكي Fred Plum ليصفا هذه الظاهرة بدقة ويطلقا عليها مصطلح vegetative state أي حالة الخمول، وفي هذه الحالة يدخل المريض في حالة سُبات ونوم ولكن عيناه مفتوحتان، ويمكن أن يتسم أحياناً ويحس قليلاً ما يجري حوله، ويمكن أن يتلع ريقه وهو في حالة وعي جزئي، ويبدو وكأنه مستيقظ ولكنه في الحقيقة خامل. وتحدث مثل هذه الحالة نتيجة إصابة أو مرض ما.

وقد ظنَّ العلماء في البداية أن هذه الظاهرة هي عبارة عن نوم عميق ولكن تبين أنها غير النوم بل هي ظاهرة فريدة من نوعها، وهي محيرة للعلماء لم يجدوا لها تفسيراً، ونود أن نشير إلى أن المريض في هذه الحالة بحاجة إلى المغذيات التي يتم حقنها بوسائل خاصة.

ويقول العلماء إن الدماغ يطلق إشارات تدل على تفاعله مع محيطه، ويستطيع المصاب أن يتحرك ويستجيب للمؤثرات الخارجية، ولكنه في حالة لا شعورية. وإذا ما نظرت إلى هذا المصاب بحالة الخمول فإنه يبدو لك مستيقظاً، فعندما تحدثه يستجيب دماغه للتعليقات، ولكنه خامل وراقد وفي حالة لا شعورية.

تدل الدراسة بواسطة جهاز "FMRI" التصوير بواسطة الرنين المغنطيسي الوظيفي"، على أن الدماغ يكون في حالة نشاط أثناء الغيوبة أو الخمول الذي يمر به

المصاب ويبقى لسنوات نائماً، ومن هنا يختار العلماء: من الذي يحرك هذا الدماغ، ومن الذي يلهم هذا المصاب أن يبقى على قيد الحياة على الرغم من أنه غائب تمامًا عن الحياة؟ ومن الذي يجعل هذا المصاب يستيقظ فجأة فيتحدث وكأن شيئاً لم يكن؟

أصحاب الكهف:

يحدثنا رب العزة تبارك وتعالى عن فتية آمنوا بربهم وهربوا من الملك الظالم ليفوزوا بدينهم وآخرتهم ولجأوا إلى كهف فأكرمهم الله بمعجزة عظيمة وليكونوا آية لقومهم في ذلك الزمن، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَوْىءُ الْفَتِيَّةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آئِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا ۝﴾ (الكهف: ١٠-١٢).

ولو تأملنا هذه القصة وجدناها تطابق الظواهر الطبية العلمية، في طريقة نوم أصحاب الكهف وطريقة تقلبيهم ذات اليمين وذات الشمال. ويقول العلماء الذين أجروا مسحاً لدماغ مثل هؤلاء المصابين بحالة النوم الطويل أو (الخمول) أن نتائج المسح أظهرت أن الدماغ لديهم يشبه تمامًا الدماغ الطبيعي السليم في نشاطه. إن هؤلاء المرضى يبدون طبيعيين جداً ويحسبهم الإنسان في حالة صحيحة ويقظة.

وهنا نتذكر قول الله تعالى عندما وصف أصحاب الكهف: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتًا وَهُمْ رُقُودٌ ۗ﴾ (الكهف: ١٨). ويصف تقلبيهم وهذه ردود أفعال يستجيب لها الراقد بشكل طبيعي، يقول تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۗ﴾ (الكهف: ١٨).

من هنا نستنتج أن القرآن منطقي جداً في وصفه لهذه القصة، ولكن المعجزة هنا تكمن في رقاد هؤلاء الفتية لفترة طويلة جداً تبلغ ٣٠٩ سنوات، بدون طعام أو شراب. وهذه معجزة إلهية ينبغي علينا كمؤمنين أن نستيقن بها، ولكن موضوع النوم لسنوات طويلة فهذه حالة طبية عادية جداً.

كانت مصابة أمريكية بحالة الخمول vegetative state قد بقيت لمدة ست سنوات في هذه الحالة، وفجأة استيقظت وتحدثت مع أهلها وكأن شيئاً لم يكن، وبقيت مستيقظة ثلاثة أيام تكلم من حولها ثم عادت إلى حالتها الأولى!

ويقول الأطباء إنها استيقظت أربع مرات خلال فترة سباتها، وأن أكثر ما يحير في هذه الظاهرة أنها ليست نومًا وليست غيبوبة، وهذا ما يزيد من حيرتهم. والعجيب أن الله تعالى سمى ظاهرة شبيهة حدثت مع أصحاب الكهف بالرقاد فقال: ﴿وَتَحَسَّبَهُمْ أَيْكَافًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ (الكهف: ١٨).

كما أن الأطباء يعتبرون أن عودتها للحياة تمثل معجزة!! وقد حيرت هذه الظاهرة علماء أمريكا لأنهم لم يجدوا لها تفسيرًا، ويعتبرون هذه الحالات شبه معجزة، والسؤال: إذا كان علماء الغرب يرون بأعينهم أناسًا ينامون سنوات طويلة فلماذا لا يقتنعون بصدق كتاب الله تعالى عندما يحدثهم عن أصحاب الكهف؟

مَا تَحْتَ الثَّرَى؛

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (طه):

(٦). الثرى في كتب اللغة يعني التراب، وزاد بعضهم فقال هو التراب المبلول.

تحتوي التربة على البذور المزروعة والحبوب والثمار، والجذور والسيقان الأرضية (الدرنات والكورمات) والبصلات وغيرها. فيوجد تحت الثرى كل ما يغطيه الزراع من بذور وحبوب وسيقان وجذور ومراحل إنباتها المختلفة، كثمار نبات الفول السوداني وكورمات نبات القلقاس وجذور الجزر واللفت والبنجر والبطاطا والفجل، وبصلات البصل والثوم والكراث وريزومات الزنجبيل والجنسنيج وممصات الهالوك ودرنات نبات الداليا والجذور الدرنية لنبات الأسبرجس وما لا نعلم من الدرنيات، والسيقان، والكورومات، والبصلات والبصيلات الأرضية النامية في الهند والصين وباقي دول آسيا، وأفريقيا والأمريكيتين، وفي البحيرات، وكل ما نعلمه وما لا نعلمه من نبات وحيوان وكائنات حية دقيقة وجماد.

وقد اكتشف العلماء العديد من المخلوقات في باطن التربة، منها البكتيريا واللاكتينوميسيتات، والفطريات، والطحالب، والحيوانات الأولية والفيروسات.

نرى تحت الثرى الملايين من البكتيريا التي تقوم بإتمام دورات الحياة المرتبطة بالتربة، وملايين الفطريات المفتتة للصخور والمحله للبقايا الحيوانية والنباتية، وملايين اللاكتينوميسيتات المخصّبة للتربة والمنظّمة لمحتواها الميكروبي، وعشرات الطحالب المخصّبة للتربة، والفيروسات المنظمة لأعداد الكائنات الحية الأخرى في التربة، ونرى الحيوانات الأولية، والديدان النيماودية المقلبة والمهويّة للتربة، ونرى الحبوب والبذور والسيقان الأرضية والجذور الدرنية وغير ذلك من سكان الأرض الحية والقاحلة والغدقة والجافة.

وتشارك البكتيريا بدور رئيس في عمليات تدفق الطاقة في الأرض، وإتمام دورات: النيتروجين، والكربون، والفسفور، والكبريت وغيرها من دورات الحياة المرتبطة بالتربة، ففي دورة تدفق الطاقة.

تقوم البكتيريا وغيرها من الكائنات الحية في التربة بتحليل بقايا الكائنات الحية في التربة، وتحرير ثاني أكسيد الكربون المحتبس فيها، وإطلاقه في الهواء الجوي لتغذية دورة الكربون وعمليات البناء الضوئي، وتثبيتته مرة أخرى في المركّبات العضوية الكربونية الكربوهيدراتية والدهنية والبروتينية المحمّلة بالطاقة الكيميائية الناتجة من تثبيت الطاقة الشمسية بواسطة اليخضور (Chlorophyll) والبناء الضوئي (Photosynthesis).

أما الفطريات فهي الكائنات الحية غير الذاتية التغذية التي وهبها الله ﷻ أقوى جهاز إنزيمي في الكائنات الحية تحلل به المواد العضوية كلها وتنتج الأحماض العضوية المفتتة للصخور.

وبالدراسة والبحث وجد أن كل جرام واحد من التربة يحتوي من (١٠) إلى (١٠٠) متر من الخيوط الفطرية، أي ما يعادل من (٥٠٠) إلى (٥٠٠٠) كيلوجرام فطر في كل هكتار من سطح التربة.

ويؤثر محتوى رطوبة التربة على انتشار الفطريات وعملها بالتربة مثلها مثل جميع الكائنات الحية، لذلك ينخفض نشاطها بانخفاض درجة الرطوبة ويؤدي التحسن في مستوى الرطوبة إلى زيادة أعداد الفطريات، ومع ذلك فإن بعض هذه الفطريات يعمل في الظروف شبه الجافة.

وتنتشر الفطريات بأعداد كبيرة في الطبقة السطحية للأرض الزراعية، وتوجد أكبر كثافة عديدة لها في أراضي المراعي. وتحتفظ الفطريات بأعدادها الكبيرة في طبقات ما تحت التربة إلى عمق يصل لأكثر من متر حسب المادة العضوية في التربة.

وتوجد الخمائر (وهي فطريات وحيدة الخلية) بأعداد تصل من (٢٠٠) إلى (١٠٠,٠٠٠) خلية في الهكتار، وهي تنتشر في الأماكن الباردة والمراعي والحقول المنزرعة. وتقوم الفطريات بتحليل السليلوز ونصف السليلوز والبكتين والنشا واللجنين.

وتتكافل بعض الفطريات مع بعض جذور الأشجار الكبرى مكونةً شبكة كبرى من الخيوط الماصّة التي تساعد النبات على امتصاص الماء والنمو والتكاثر.

وتحتوي التربة على العديد من الفيروسات ملتقمةً البكتيريا والقادرة على التطفل على الخلايا البكتيرية في العقد الجذرية، كما تهاجم الفيروسات خيوط عيش الغراب والطحالب الخضراء المزرققة وبذلك تحافظ على الاتزان الميكروبي في التربة.

وقد أثبتت نتائج الأراضي البكر والزراعية في كل القارات الأرضية وجود الأوليات (البروتوزوا) بأعداد وفيرة، وبأجناس وأنواع مختلفة يتراوح عددها بين (١٠,٠٠٠) إلى (٣٠٠,٠٠٠) خلية حيوانية لكل كيلوجرام من التربة، ومع ذلك فإن البروتوزوا لا تمثل إلا نسبة صغيرة من مجتمع الحيوانات التي تعيش تحت الثرى.

كما تتراوح أعداد كل من السوطيات والأميبا ما بين (٣٠٠٠) إلى (٢٠٠,٠٠٠) في البيئات المناسبة الخالية من المعوقات، في حين لا يتعدى أعداد الهدبيات أكثر من (١٠٠٠) خلية لكل كيلوجرام تربة، وتقوم البروتوزوا بتنظيم حجم المجتمع البكتيري في التربة بالتغذي عليها.

وتحتوي التربة على ديدان الأرض والحشرات والنباتات وذوات الألف رجل، وفي كل (١٠) متر مكعب من التربة يوجد (٢٠٠) ألف حشرة، (١٠٠) ألف نوع من العثة^(١)، (٢٥) ألف حيوان صغير أي ما يعادل وزن بقرتين كاملتين، كما يوجد النمل، والجرذان، والفئران، والأرانب، والثعالب، واليرابيع^(٢) وغيرها من الحيوانات تحت الأرض.

ولكل نبات من النباتات البذرية مجموعة من الكائنات الحية الدقيقة (والحشرات والحيوانات الأخرى) تعيش في محيطه الجذري تسمى بالكائنات الجذرية محيطه.

ماذا لو غاب ما تحت الثرى؟!

لا يمكن أن نعرف أهمية ما تحت الثرى فيما تقدم من مخلوقات أوجدها الخالق حتى نعرف ما ذا يحدث لهذه الأرض إذا ما فقدت تلك الكائنات أو بعضها، عندها يمكن أن نكون قد علمنا ما هو السر في تواجد كل تلك الكائنات في هذه الطبقة من الأرض، فكما أن الإنسان لا يعرف أهمية العافية إلا إذا فقدها، والشمس إلا إذا غابت عنه، فكذلك ما تحت الثرى، فبضدها تتبين الأشياء وإذا عرف السبب بطل العجب.

فلو غابت البكتيريا، واللاكتينومييسيات، والفطريات، والطحالب، والجذور النباتية من تحت الثرى توقفت دورات النتروجين، والكربون، والفوسفور، والكبريت وماتت الأرض وتصحرت وماتت النباتات، واختفت الحياة تمامًا من على الأرض، فلا حياة بدون ما تحت الثرى، فكما أنه لا حياة على الأرض بلا ماء ونبات، فالماء والنبات

(١) عثة: حشرة أرضية مؤذية تلحس الجلود والبسط والألبسة فتتلفها، وأكثر ما تكون في الصوف.

(٢) اليربوع: حيوان ثديي من رتبة القوارض، على هيئة الفأر وأكبر منه، وله ذيل طويل ينتهي بخصلة من الشعر، وهو قصير اليدين طويل الرجلين يقتات بالنبات والحشرات وصغار الطيور يعيش في صحاري مصر والسودان وشمال إفريقيا، يطلق على الذكر والأنثى، وتقول له العامة (جربوع) بالجم.

والكائنات الحية الدقيقة وضوء الشمس والهواء الجوي هي المخلوقات التي جعل الله منها كل شيء حي على الأرض.

الشيخوخة تنكيس في الخلق؛

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ نَعَمِرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (يس: ٦٨).

أخبر المولى ﷺ في هذه الآية الكريمة أن من طال عمره تنكس في خلقه أي: انقلب حاله وارتدت قواه وتراجعت قدراته متجهة نحو الضعف والوهن وصار كمن انتكس وانقلب رأساً على عقب، ويكشف هذا الوصف الدقيق العلم بحالة عامة من التدهور والارتداد تتسع لتشمل كافة التغيرات الظاهرة والخفية وذلك لاستيعاب لفظ (الخلق) لكافة التركيبات والأنشطة البدنية.

في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ نَعَمِرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ يتضمن التعبير الإخبار بأسلوب معجز بليغ عن حالة عامة من التدهور والارتداد تتسع لتشمل كافة التغيرات الخفية للشيخوخة التي لم يعرف أحد عنها شيئاً عند التنزيل وكشفتها الدراسات العلمية حديثاً، والنص الكريم ورد ضمن منظومة من النصوص تعالج موضوع مراحل العمر عامة أو الشيخوخة خاصة في تكامل وائتلاف بلا اختلاف.

من صور الإعجاز الهندسي في القرآن الكريم:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِن اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنَ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَآتَهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (التوبة: ١٠٩).

تأتي الآية استطراداً للحديث عن مسجد الضرار الذي أسسه المنافقون في المدينة بغرض إيقاع التفريق بين المؤمنين وتحقيق الضرر والفتنة. والبناء الذي أسس وإن كان مسجداً - كغيره من المساجد - إلا أن أساس بنائه والغرض والنية من إقامته لا يخفى منها خبث المقصد وسوء النية.

وقد جمعت الآية في تصويرٍ فنيٍّ رائع بين المعقول والمحسوس، وشبهت المعنوي المفهوم بالمادي الملموس، فمن أسس بناءه بغرض ونية النفاق والكفر، كمن

وضع أساس مبناه على شفا جرف هار، والنتيجة هي الانهيار المفاجئ والسريع للجرف والمبنى معا.

وفي الآية إشارات هندسية إلى أساسات المباني وطبيعة البناء التي تحكم درجة صمود البنيان ومثابته أو تؤدي إلى انهياره، وتضمنت عدة إشارات تمس جانبا من علم ميكانيكا التربة والأساسات، في الهندسة المدنية والإنشائية، وبينت الآية وجها من أوجه الإعجاز الهندسي في القرآن الكريم يمكن استنباطه من المفاهيم والإشارات الهندسية التالية التي وردت في نص الآية.

موميا فرعون^(١)؛

علم الآثار هو فرع من فروع علم التاريخ وهو علم يعنى بنشاط الإنسان السياسي والعلمي في الماضي، ومن المعايير التي يعتمد عليها علماء الآثار في تحقيق هذا التاريخ الأشياء المادية المتبقية من العهود القديمة كالأدوات والنقوش التي يعثر عليها في الأماكن القديمة. وقف هذا العلم وعلماء هذا العلم مبهورين أمام المعلومات والوثائق التاريخية الموجودة في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً والتي لم تكتشف ولم تكن معروفة حتى زمن قريب.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ ءَايَتِنَا لَغٰفِلُونَ﴾ (يونس: ٩٠ - ٩٢).

(١) موميا: مومياء: جثة مُحَنَطَةٌ في قبور المصريين القدماء، ما حُظِنَ من الأجسام على طريقة قدماء المصريين. والتحنيط عند قدماء المصريين: حفظ هيكل جسم الميت بتخليصه من المواد الرخوة من جلد وغشاء وتطهير جوفه بمواد خاصة كالمسك أو العنبر أو الكافور وغيرها وتحويله إلى موميا.

بعد اكتشاف موميا فرعون (رمسيس الثاني) في إحدى المقابر الفرعونية حرص العلماء على دراسة هذه الموميا، ومن تعرض لدراستها الطبيب الفرنسي "موريس بوكاي" - بل قام ببعض المعالجة لها - وقد كشف عن مطابقة ما جاء في القرآن بخصوص إغراق فرعون ومصيره بعد ذلك مع الواقع المتمثل في وجود جثته إلى يومنا هذا آية للعالمين، فيقول في كتابه (القرآن والعلم الحديث):

«إن رواية التوراة بشأن خروج اليهود مع موسى عليه السلام من مصر تؤيد بقوة الفرضية القائلة بأن "منفتاح" خليفة "رمسيس الثاني" هو فرعون مصر في زمن موسى عليه السلام^(١)، وأن الدراسة الطبية لموميا "منفتاح" قدمت لنا معلومات مفيدة أخرى بشأن الأسباب المحتملة لوفاة هذا الفرعون. إن التوراة تذكر أن الجثة ابتلعها البحر ولكنها لا تعطي تفصيلاً بشأن ما حدث لها لاحقاً.

أما القرآن فيذكر أن جثة الفرعون الملعون سوف تُنقذ من الماء كما جاء في الآية السابقة، وقد أظهر الفحص الطبي لهذه الموميا أن الجثة لم تظل في الماء مدة طويلة، إذ أنها لم تظهر أية علامات للتلف التام بسبب المكوث الطويل في الماء».

ولقد ذكر موريس بوكاي ما نصه: «وجاءت نتائج التحقيقات الطبية لتدعم الفرضية السابقة، ففي عام ١٩٧٥م جرى في القاهرة انتزاع خزعة صغيرة من النسيج العضلي، وأظهر الفحص الدقيق بالميكروسكوب حالة الحفظ التامة لأصغر الأجزاء التشريحية للعضلات، وتشير إلى أن مثل هذا الحفظ التام لم يكن ممكناً لو أن الجسد بقي في الماء بعض الوقت، أو حتى لو أن البقاء خارج الماء كان طويلاً قبل أن يخضع لأولى عمليات التحنيط. وفعلنا أكثر من ذلك ونحن مهتمون بالبحث عن الأسباب الممكنة لموت فرعون.

(١) سيأتي في البحث التالي أن فرعون مصر في ذلك الوقت كان "رمسيس الثاني" وليس خليفته.

جرت الدراسات الطبية الشرعية للمومياة بمساعدة Ceccaldi مدير مخبر الهوية القضائية في باريس والأستاذ Durigon وسمحت لنا بالتحقق من وجود سبب لموت سريع كل السرعة بفعل كدمات ججمية مَحِيَّة سببت فجوة ذات حجم كبير في مستوى صاقورة القحف مترافقة مع آفة رَضِيَّة، ويتضح أن كل هذه التحقيقات متوافقة مع قصص الكتب المقدسة التي تشير إلى أن فرعون مات حين ارتد عليه الموج».

ويبين الدكتور بوكاي وجه الإعجاز في هذه القضية قائلاً: «وفي العصر الذي وصل فيه القرآن للناس عن طريق محمد ﷺ، كانت جثث كل الفراعنة الذين شك الناس في العصر الحديث صواباً أو خطأً أن لهم علاقة بالخروج (لملاحقة موسى وقومه)، كانت مدفونة بمقابر وادي الملوك بطيبة على الضفة الأخرى للنيل أمام مدينة الأقصر الحالية.

في عصر النبي محمد ﷺ كان كل شيء مجهولاً عن هذا الأمر ولم تكتشف هذه الجثث إلا في نهاية القرن التاسع عشر، وبالتالي فإن جثة فرعون موسى التي ما زالت ماثلة للعيان إلى اليوم تعد شهادة مادية في جسد محنط لشخص عرف موسى عليه السلام، وعارض طلباته، وطارده في هروبه ومات في أثناء تلك المطاردة، وأنقذ الله جثته من التلف التام ليصبح آية للناس كما ذكر القرآن الكريم».

وهذه المعلومة التاريخية عن مصير جثة فرعون لم تكن في حيازة أحد من البشر عند نزول القرآن ولا بعد نزوله بقرون عديدة، لكنها بُيِّنَتْ في كتاب الله قبل ألف وأربعمائة عام على لسان النبي الأمي، مما يشهد بأن مصدر هذا العلم هو الوحي الإلهي.

القرآن الكريم وذكر حكام مصر القدماء والتفريق بين كلمة الملك والفرعون:

لقد ذكر القرآن حكام مصر الأقدمين وفرَّق بينهم لما يذكر حكام مصر في عصر موسى عليه السلام، لا يذكره إلا بصيغة فرعون، وذلك في أكثر من ستين آية كريمة منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٤٩). أما عند ذكر حكام

مصر في عصر نبي الله يوسف عليه السلام فلا يذكره إلا بلفظ الملك، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءُوبِي إِن كُنْتُمْ لِلرُّءُوفِ يَا تَعْبُرُونَ﴾ (يوسف: ٤٣).

الحضارة المصرية القديمة (الفرعونية):

ظلت الحضارة المصرية (الفرعونية) مجهولة لا يعرف عنها إلا بعض الآثار الظاهرة والتي غُمِرَ معظمها تحت الرمال الصحراوية في الجيزة وأسوان والأقصر، حتى قام "جان فرانسوا شامبليون" العالم الفرنسي بفك رموز اللغة المصرية القديمة بعد استعانتة بحجر رشيد الذي كان قد اكتُشِفَ أثناء الحملة الفرنسية على مصر.

فقد نُقِشَ على الحجر نَصٌّ بلغتين وثلاث كتابات: المصرية القديمة ومكتوبة بالهيروغليفية والتي تعني الكتابة المقدسة، لأنها كانت مخصصة للكتابة داخل المعابد، والديموطيقية وتعني الخط أو الكتابة الشعبية، واللغة اليونانية بالأبجدية اليونانية، ومن خلال المقارنة بينهم نجح في فك طلاسم الكتابة الهيروغليفية. ولقد فتح هذا الاكتشاف الباب واسعاً أمام الاكتشافات الأثرية والتعرف على حياة الفراعنة وحياة المصريين القدماء.

تسمية الفرعون:

كلمة فرعون تعني باللغة المصرية القديمة (البيت الكبير) والتي تطور استعمالها إلى لقب لحكام مصر ولم يعرف هذا اللقب لحكام مصر إلا في بداية الأسرة الثامنة عشرة (١٥٣٩ قبل الميلاد) حيث وجد نقش عليه خطاب موجه إلى "أمنحوتب الخامس" (إخناتون) والذي دُعِيَ على أنه فرعون كل الحياة والرخاء والصحة.

لقب الملك لحكام مصر:

مما تبين من خلال مطالعة الموسوعة البريطانية وموسوعة "الويكي بيديا" وغيرها من الكتب التي تحدثت عن تاريخ مصر القديمة أن لفظ الفرعون لم يستعمل إلا في بداية الأسرة الثامنة عشرة أي (١٥٣٩ قبل الميلاد) فصاعداً أي كل الفترة الزمنية

التي سبقت هذا التاريخ كان لقب حكام مصر هو الملك بدون خلاف على ذلك سواء في أيام احتلال الهكسوس لمصر ما بين (١٦٤٨ الى ١٥٤٠ ق.م) أو قبلها.

نزل يوسف عليه السلام إلى مصر:

من المتفق عليه أن نزول يوسف عليه السلام إلى مصر وحكمه كان قبل بعثة موسى عليه السلام بفترة طويلة وذلك لقوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن نَّبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ (غافر: ٣٤).

فالمصريون لم يقولوا لن يبعث الله من بعده رسولا إلا بسبب الفترة الطويلة التي جاءت بعده ولم يرسل فيها الله نبيا وهذا بعكس أنبياء بني إسرائيل الذين كان الله سبحانه يرسلهم على فترات متقاربة وبما أن بعثة موسى عليه السلام كانت في زمن فرعون مصر الذي قالت بعض البحوث أنه "رئيس الثاني" (١) فلا شك أن يوسف كان في مصر قبل عصر الأسرة الثامنة عشرة أي الفترة التي كان يطلق على حكام مصر لقب الملك بغض النظر إن كان الحكام مصريين أم من الهكسوس فالكل كان يطلق لفظ ملك على الحاكم.

حجر جزيرة الشاطيء:

تم اكتشاف حجر يعود إلى الأسرة الثالثة وتحديدًا إلى عصر الملك "دوسر" حيث كتب عليه "الملك زوسر يطلب من الآلهة رفع المجاعة التي ضربت مصر والتي استمرت لسبع سنوات" إلخ... والترجيح أن يكون يوسف قد حكم مصر في عهد الملك "زوسر" أو "دوسر" في عصر الأسرة الثالثة لأنه جرى توثيق لهذه المجاعة على

(١) جاء في البحث السابق أن فرعون مصر في ذلك الوقت لم يكن "رئيس الثاني"، بل كان خليفته "منفتاح".

أنها استمرت لسبع سنوات كما أنه تمت الإشارة إلى حاكم مصر على أنه الملك وليس الفرعون وهذا أيضًا موافق للقرآن الكريم.

لقد فرق القرآن بين عصريين مهمين في التاريخ المصري وهو عصر ما قبل الفراعنة أي ما قبل الأسرة الثامنة عشرة الذين كانوا يطلقون لقب الملك على حكامهم وعصر ما بعد الفراعنة الذين كانوا يطلقون لقب الفرعون على حكامهم وذلك ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة.

اسم هامان:

ورد اسم هامان في القرآن الكريم ست مرات. كما ورد اسمه متصلًا باسم فرعون وكشخص من المقربين إلى فرعون، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنْ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ (غافر ٣٦ - ٣٧).

ومن خلال ترجمة الكتابات والنقوش الهيروغليفية تم التعرف على معلومة مهمة جدًا وهي أن اسم هامان ورد فعلاً في الكتابات المصرية القديمة. توجد إشارة إلى هذا الاسم في نصب في متحف هوف في فيينا، كما ظهر في كتاب بعنوان (People in the new kingdom) الذي تم إعداده استنادًا إلى مجموعة من النقوش. كما ظهرت في هذه النقوش وظيفة وطبيعة عمل هامان وهو أنه كان (رئيس أعمال الحجارة).

إذاً هامان هو شخص عاش في مصر في زمن سيدنا موسى عليه السلام، كما كان مقرباً من فرعون وكان من المسؤولين عن عمليات الإنشاء والبناء كما ذكر القرآن تمامًا.

و الآيات تصف لنا الحدث عندما أمر فرعون هامان بأن يبني له البرج في قوله تَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنْ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾.

إن وجود اسم هامان في الكتابات المصرية القديمة لا يرد فقط على الادعاءات الباطلة من المعادين للقرآن ولكنه أيضًا يؤكد حقيقة أن القرآن الكريم وحي من الله ﷻ

فبهذه الطريقة الإعجازية نقرأ في القرآن الكريم معلومات تاريخية لم تكن معروفة في وقت وزمن النبي ﷺ.

مواقع النجوم:

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة: ٧٥ - ٧٦). وفي هذه الآية قسم إلهي بمواقع النجوم. والله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته، والله لا يقسم إلا بشيء عظيم، أي أنه إذا أقسم تعالى بشيء من مخلوقاته فإن ذلك دليل على عظم المقسم به. والمقسم به هنا هو مواقع النجوم، ومواقع النجوم عند المفسرين هي مطالعها ومساقطها، وقيل مغايبها، وقيل انكدارها وانتشارها.

مواقع النجوم والاكتشافات العلمية الحديثة:

ما كان الإنسان يستطيع قياس الأبعاد التي بينه وبين النجوم، في الوقت الذي كان يستخدم فيه مقاييس بسيطة تعرف بالفراسخ أو الأميال، وعلى أشد الأحوال قياس تلك المسافات وتقديرها بالأيام، لكن لما جاء العلماء في العصر الحديث وأخذوا يدرسون النجوم والأجرام السماوية الأخرى، وجدوا أن السماء تتكون من تجمعات هائلة من النجوم والكواكب والأجرام الأخرى، وسمّوا كل تجمع من تلك التجمعات بـ(المجرة).

ولاحظ العلماء أن هذه النجوم تبعد عنا مسافات شاسعة لا يمكن قياس أبعادها بالمقاييس التقليدية، فاتفق العلماء على وحدة قياس كونية تعرف باسم السنة الضوئية، وهي المسافة التي يقطعها الضوء بسرعه (المقدرة بحوالي الثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية) في سنة من سِنِينَا، وهي مسافة مهولة تقدر بحوالي ٩,٥ مليون مليون كيلو متر.

ومما اكتشف أيضًا أن هذه النجوم مع تباعدها فإنها تتحرك بسرعات هائلة جدًا منتقلة من موقعها الحالي إلى موقع جديد وهكذا باستمرار، مما يجعل هذا الأمر مثيرًا للدهشة.

أي أنه لا يمكن لنا رؤية النجوم من على سطح الأرض أبداً، ولا بأية وسيلة مادية، وكل الذي نراه من نجوم السماء هو مواقعها التي مرت بها ثم غادرتها، إما بالجرى في الفضاء الكوني بسرعات مذهلة، أو بالانفجار والاندثار، أو بالانكدار والطمس.

فالشمس التي تبعد عنا بمسافة مائة وخمسين مليون كيلومتر، فإذا انبثق منها الضوء بسرعه المقدرة بحوالي الثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية من موقع معين مرت به الشمس فإن ضوءها يصل إلى الأرض بعد ثماني دقائق وثلاث دقيقة تقريباً، بينما تجرى الشمس بسرعة تقدر بحوالي ١٩ كيلومتراً في الثانية في اتجاه نجم النسر الواقع Vega فتكون الشمس قد تحركت لمسافة لا تقل عن عشرة آلاف كيلومتر عن الموقع الذي انبثق منه الضوء.

و تدور الشمس حول نفسها مرة كل ٢٧ يوماً في المتوسط، وتجري مع الشمس مجموعتها الشمسية بسرعة فائقة تبلغ ٢٢٠ كيلومتر في الثانية متمية لمجرتنا، وهذه المجرة تدور حول المجرة نفسها مرة كل ٢٥٠ مليون سنة، وكل النجوم الأخرى تدور حول نفسها وحول المجرة التي تنتمي إليها، وتتباعد المجرات عن بعضها في فضاء الكون السحيق، وهكذا فنحن من على سطح الأرض لا نرى النجوم أبداً.

ولكننا نرى صوراً قديمة للنجوم انطلقت من مواقع مرت بها، وتتغير هذه المواقع من لحظة إلى أخرى بسرعات تتناسب مع سرعة تحرك النجم في مداره، ومعدلات توسع الكون، وتباعد المجرات عنا، والتي يتحرك بعضها بسرعات تقترب أحياناً من سرعة الضوء، وأبعد نجوم مجرتنا عنا يصلنا ضوءه بعد ثمانين ألف سنة من لحظة انبثاقه من النجم، بينما يصلنا ضوء بعض النجوم البعيدة عنا بعد بلايين السنين، وهذه المسافات الشاسعة مستمرة في الزيادة مع الزمن نظراً لاستمرار تباعد المجرات عن بعضها البعض في ضوء ظاهرة اتساع الكون، ومن النجوم التي تتلأ لأضواءها في سماء ليل الأرض ما قد انفجر وتلاشى أو طمس واختفى منذ ملايين السنين، لأن آخر

شعاع انبثق منها قبل انفجارها أو طمسها لم يصل إلينا بعد، والضوء القادم منها اليوم يعبر عن ماضٍ قد يقدر بملايين السنين.

من خلال ما سبق علمنا أن الله تعالى أقسم في كتابه بمواقع النجوم، وهذا القسم يدل على عظم المقسم به، وقد توصل العلم الحديث إلى أن للنجوم مواقع بعيدة جداً، ولا يمكن للعقل أن يتصورها أو حتى يتخيل تلك المسافات الشاسعة، ووصل العلماء إلى اكتشاف حقيقة أخرى وهي أن هذه النجوم تتحرك بسرعات هائلة جداً منتقلة من موقعها الحالي إلى موقع جديد وهكذا باستمرار، مما يجعل هذا الأمر مثيراً للدهشة.

ومواقع النجوم هي الأماكن التي تمر بها في جريها عبر السماء وهي محتفظة بعلاقتها المحددة بغيرها من الأجرام في المجرة الواحدة، وبسرعات جريها ودورانها، وبالأبعاد الفاصلة بينها، وبقوى الجاذبية الرابطة بينها، واللفظة "مواقع" جمع موقع يقال: وقع الشيء موقعه، من الوقوع بمعنى السقوط. والمسافات بين النجوم مذهلة للغاية لضخامة أبعادها، وحركات النجوم عديدة وخاطفة، وكل ذلك منوط بالجاذبية، وهي قوة لا تُرى، تحكم الكتل الهائلة للنجوم، والمسافات الشاسعة التي تفصل بينها، والحركات المتعددة التي تتحركها من دوران حول محاورها وجري في مداراتها المتعددة، وغير ذلك من العوامل التي نعلم منها القليل.

وفي هذا دلالة على سبق القرآني بالإشارة إلى إحدى الحقائق الكونية العظيمة، وقد علمنا أن الإنسان من على سطح الأرض لا يرى النجوم أبداً، ولكنه يري مواقع مرت بها النجوم ثم غادرتها، أو أنه يري مواقع لنجوم تلاشت واندثرت من أزمنة مديدة تتجاوز ملايين السنين، والضوء الذي انبثق منها في عدد من المواقع التي مرت بها لا يزال يتلألأ في ظلمة السماء في كل ليلة من ليالي الأرض إلى يومنا هذا.

البصمة وتسوية البنان:

على الرغم من أن الله ﷻ خلق الناس جميعاً مشتركين في وحدة الخلق ووحدة البنية والتركيب ووحدة وظائف كيمياء الخلية فالناس جميعاً من لحم ودم وعظم. أصلهم جميعاً من تراب، ومع هذا التطابق والتشابه في الخلق والصوت وشكل العظم والرائحة فقد انفرد كل منا في تفاعله الكيماوي مع نفسه، لينفرد ببصماته التي يحملها وحده دون سائر البشر.

وتعرف "البصمة" بصفة عامة بأنها ذلك الخاتم الإلهي الذي ميز الله تعالى به كل إنسان عن غيره بحيث أصبح لكل إنسان خاتمه (بصمته) المميزة له في الصوت والرائحة والعينين والأذن. الخ.

أما "بصمة الإبهام" فهي الخطوط البارزة التي تحيط بها خطوط مخفية تأخذ أشكالاً مختلفة على جلد أطراف الأصابع والكفين من الداخل، وهذه الخطوط تترك أثرها على كل جسم تلمسه، وعلى الأسطح الملساء بشكل خاص.

والثير للتأمل حقاً هو كيف تتنوع وكيف تتشكل البصمات، بل كيف تتنوع وتتشكل الوجوه والأجسام وكيف تتباين الألوان والصفات، فكلها آيات لله في خلقه، إن الإنسان كله بصمات، فبصماته توجد في اليد والقدم والشفيتين والأذنين والدم واللحاب والشعر والعيون وغيرها.

لقد كانت البصمة ولا تزال سراً من أسرار عظمة الله ﷻ في خلقه. وتكون بصمة الإبهام لدى الجنين في الأسبوع الثالث عشر (الشهر الرابع) وتبقى إلى أن يموت الإنسان، وإذا حفظت الجثة بالتحنيط أو في الأماكن الثلجية تبقى البصمة كما هي لآلاف السنين دون تغيير في شكلها. وحتى إذا ما أزيلت جلدة الأصابع لسبب ما، فإن الصفات نفسها تظهر في الجلد الجديد، كما أن بصمة الرجل تختلف عن بصمة المرأة ففي الرجل يكون قطر الخطوط أكبر منه عند المرأة بينما تتميز بصمة المرأة بالدقة وعدم وجود تشوهات تقاطعية.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۖ﴾ (٢) يُحَسِّبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ
 تَجْمَعَ عِظَامُهُ، ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوَّىٰ بِنَانِهِ، ﴿٤﴾ (القيامة: ١ - ٤). قال ابن عباس وعامة
 المفسرين: المعنى: ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوَّىٰ بِنَانِهِ﴾ أي: نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً
 واحداً كخف البعير أو كحافر الحمار وكظلف الخنزير ولا يمكنه أن يعمل به شيئاً ولكننا
 فرقنا أصابعه حتى يأخذها ما شاء.

والبنان: هو نهاية الإصبع. والسؤال الآن: لماذا اختار الله في الرد عليهم
 التدليل على قدرته الفائقة بتسوية البنان، ولم يستدل على قدرته سبحانه مثلاً بخلق
 العظام أو إعادة المخ .. الخ، وهل البنان أشد تعقيداً من خلق أي عضو آخر؟ قد يكون
 السر في هذا هو أن الله تعالى أراد أن يوقفك على حقيقة مادية علمية ثابتة في جسمك لم
 يكتشفها العلم إلا في العصر الحديث.

البصمة والحقائق العلمية:

في عام ١٨٢٣م اكتشف عالم التشريح التشيكي "بركنجي" حقيقة البصمات
 ووجد أن الخطوط الدقيقة الموجودة في رؤوس الأصابع (البنان) تختلف من شخص
 لآخر، ووجد أن هناك أنواعاً من هذه الخطوط: أقواس أو دوائر أو عقد أو على شكل
 رابع يدعى المركبات، لتركيبتها من أشكال متعددة.

وفي عام ١٨٥٨ م أي بعد ٣٥ عاماً، أشار العالم الإنكليزي "وليم هرشل" إلى
 اختلاف البصمات باختلاف أصحابها، مما جعلها دليلاً مميزاً لكل شخص. وفي عام
 ١٨٧٧م اخترع الدكتور "هنري فولدز" طريقة وضع البصمة على الورق باستخدام
 حبر المطابع. وفي عام ١٨٩٢م أثبت الدكتور "فرانسيس جالتون" أن صورة البصمة
 لأي أصبع تعيش مع صاحبها طوال حياته فلا تتغير رغم كل الطوارئ التي قد تصيبه،
 وقد وجد العلماء إن إحدى المومياء المصرية المحنطة احتفظت ببصماتها واضحة جلية.

وأثبت "جالتون" أنه لا يوجد شخصان في العالم كله لهما نفس التعرجات
 الدقيقة وقد أكد أن هذه التعرجات تظهر على أصابع الجنين وهو في بطن أمه عندما
 يكون عمره بين ١٠٠ و ١٢٠ يوماً.

وفي عام ١٨٩٣م أسس مفوض "اسكتلند يارد" (شرطة لندن)، "إدوارد هنري" نظاماً سهلاً لتصنيف وتجميع البصمات، لقد اعتبر أن بصمة أي إصبع يمكن تصنيفها إلى واحدة من ثمانية أنواع رئيسية، واعتبر أن أصابع اليدين العشرة هي وحدة كاملة في تصنيف هوية الشخص. وأدخلت في نفس العام البصمات كدليل قوي في دوائر الشرطة في "اسكتلند يارد". ثم أخذ العلماء منذ اكتشاف البصمات بإجراء دراسات على أعداد كبيرة من الناس من مختلف الأجناس فلم يعثر على مجموعتين متطابقتين أبداً.

إن البصمات تخدم في إظهار هوية الشخص الحقيقية بالرغم من الإنكار الشخصي أو افتراض الأسماء، أو حتى تغير الهيئة الشخصية من خلال تقدم العمر أو المرض أو العمليات الجراحية أو الحوادث.

وقد حاول عدد من المجرمين في الولايات المتحدة الأمريكية وفي مدينة "شيكاغو" بصورة خاصة محو هذا الخاتم الإلهي!! بمحو أو تغيير أو تحريف لأشكال الخطوط الحليمية في رؤوس أصابعهم مستخدمين طرقاً مختلفة ولكن محاولاتهم باءت جميعها بالفشل.

وقد حصر "جالتون" أمر التعرف على بصمة الأصابع في نظام معين يقضي على أن لكل بصمة ١٢ ميزة خاصة، ومن الطريف أن من بين المليون الأول من البصمات التي حصلت عليها شرطة لندن لم يُعثر على بصمتين متشابهتين في أكثر من سبع مميزات من بين المميزات (الاثني عشر).

ولابد أن توجد في كل بصمة أنواع من المميزات بأعداد متفاوتة وقد يتجاوز عددها في بصمة الإصبع الواحدة الخمسين. وقد يصل إلى المائة وربما وجدنا في مساحة صغيرة من الجزء الوسطي للإصبع أكثر من عشر منها.

نظرية الاحتمال:

لنفرض أن أحدنا عمد لأخذ انطباع لإبهامه الأيمن والتقط صورة فوتوغرافية لهذا الانطباع ثم كبرها عدة مرات كي يستطيع تحديد المميزات الخطية في بصمته،

ولنفرض أنه بعد أن قام بهذا العمل وجد فيها خمسا وأربعين ميزة، ترى ما هي فرصة العثور على بصمة أخرى سواء في بقية أصابعه العشرة أو أصابع يدي أي إنسان يعيش حالياً على وجه البسيطة تحتوي على نفس الميزات بالضبط من حيث العدد والأشكال والمواضع النسبية؟ أو بتعبير آخر فرصة وجود نسخة طبق الأصل من بصمته تلك؟ أو بمعنى ثالث هل يمكن أن تتكرر نفس البصمة مرتين وفي وقت واحد مع ما فيها من تفاصيل ذاتية فريدة بالغة الدقة؟

إن كل ذي خبرة في الموضوع يستطيع الإجابة على هذه التساؤلات قائلًا بثقة تامة وبكل بساطة - إن فرصة تكرار بصمتين في آن واحد هي نفس فرصة العثور على حبة معينة من الرمال تقع بمكان ما في الصحراء الكبرى أو الربع الخالي. وقد قدر جالتون أن هناك أقل من فرصة واحدة من ٦٤ مليار لوجود بصمة واحدة مطابقة للأخرى، وهذا الرقم بالطبع أضعاف عدد سكان الكرة الأرضية في هذا اليوم. وإذا تابعنا تقدير الاحتمالات يتضح لنا أن وجود بصمتين متطابقتين هي بعيدة جدًا إن لم نقل مستحيلة.

لقد قدر "جالتون" أن ثمة أقل من فرصة من أربع وستين مليارًا لتكرار بصمة واحدة مرتين في وقت واحد، ترى إذا قبلنا هذا التقدير، فماذا ستكون فرصتنا للعثور على مثل مطابق لجميع بصمات الأصابع العشرة؟

إن المعدل الوسطي من التفاصيل الدقيقة في بصمة الإصبع الواحدة هو ١٠٠ ميزة، ومع وجود هذه الميزات المائة فإن فرصة تكرار إصبع واحدة تحمل مائة ميزة هي واحدة من رقم يتألف من ٦١ عددًا.

وجه الإعجاز:

القرآن لم يذكر لا بصمات ولا جلد ولا أي شيء آخر غير العظام التي تتكون منها أطراف الأصابع والأصابع نفسها: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجْمَعَ عِظَامُهُ﴾ (٣) ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَيَّ أَنْ دُسِّيَ بِنَانِهِ﴾ (القيامة: ٣-٤). ومن هنا كان لا بد من معرفة البشرية بأن هذا الرجل

الأمي جاء في زمن لم تكن فيه هذه التقنيات والوسائل الحديثة فمن أين له كل هذه المعرفة بهذه الأمور الدقيقة؟

النجم الطارق:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿الطارق: ١-٣﴾.

النجم الثاقب يعني يتوقد ضياؤه ويتوهج. يقسم تبارك وتعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة ولهذا قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ثم فسره بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾. وإنما سمي النجم طارقاً لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار.

النجم الثاقب في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة:

لكل نجم من النجوم بداية ونهاية، عندما يكون وزن النجم أكبر من وزن الشمس بمرة ونصف تقريباً، وعندما تنقضي حياة هذا النجم وينفذ وقوده يبدأ بالانهيار ويمر في حالة تشبه الانحلال، فالإلكترونات لا تعود قادرة على البقاء في مداراتها حول الذرة، ولذلك سوف تُجبر على اختراق الذرة والانصهار في البروتونات، لتتشكل بذلك النيوترونات، وتولّد حرارة تبلغ أكثر من مليون مليون درجة مئوية، وبالتالي فإن هذا النجم يتحول إلى نجم نيوتروني يزن أكثر من ٤٠٠ مليون مليون كيلوجرام.

المطارق العملاقة:

عندما قام العلماء بتسجيل الإشارات الراديوية القادمة من الفضاء البعيد، ظنوا في البداية أنها رسالة من كائنات مجهولة، ولكن تبين أن هذه الإشارات ما هي إلا صوت لدقات منتظمة جداً، فقد سمعوا وكأن أحداً يطرق عدة طرقات كل ثانية، ولكن في البداية تخيلوا بأن هذا النجم ينبض مثل قلب الإنسان، فأسموا هذه النجوم بالنوابض، ولكن تبين فيما بعد أنها تصدر أصواتاً أشبه بالطرق، فأسموها المطارق العملاقة التي تدقّ مثل الجرس.

إشعاع ثاقب:

يؤكد العلماء أن هذه النجوم تبث أشعة عظيمة ولامعة، ففي عام ١٩٧٩م سجل العلماء الشعاع الأكثر لمعاناً في السماء وقد كان ناتجاً عن نجم نيوتروني ثاقب، فقد بث هذا النجم كمية هائلة من أشعة جاما وهي أقوى أنواع الأشعة الثاقبة، لقد بث خلال ٢, ٠ ثانية كمية من الإشعاعات الثاقبة تعادل ما تبثه الشمس في ألف سنة!!! ويقول العلماء الذين رأوا هذا الشعاع إنهم لم يشاهدوا شعاعاً بهذه القوة واللمعان من قبل.

النجم الثاقب بالأرقام:

النجم النيوتروني هو عبارة عن نجم أثقل من الشمس بقليل وقد استنفد وقوده النووي، فلم يعد قادراً على الاشتعال، فبدأ بالانكماش على نفسه وبدأت مادته بالتهايوي والسقوط نحو مركز النجم مما يؤدي إلى انضغاطه بشدة كبيرة وتفكك ذراته بفعل الجاذبية الهائلة إلى بروتونات وإلكترونات ومن ثم تندمج هذه الأجسام متحولة إلى نيوترونات، ولكن النواة تكون في حالة مختلفة حيث تبدأ في داخلها ذرات الحديد بالتشكل، وبالتالي يمكنك أن تتخيل كرة ضخمة من الحديد محاطة بسائل كثيف من النيوترونات، ببساطة هذا هو النجم النيوتروني.

النجم النيوتروني يبلغ وسطياً من ٤, ١ حتى ٥ أضعاف وزن الشمس، وإذا زاد وزنه على ذلك سوف يتحول إلى ثقب أسود. أما نصف قطر هذا النجم فيبلغ من ١٠ إلى ٢٠ كيلومتر. فإذا كان لدينا نجم نيوتروني وزنه ٤, ١ وزن الشمس، ونصف قطره ١٥ كيلومتر، وإذا علمنا بأن وزن الشمس هو ٢ وبجانبه ٣٠ صغراً كيلوجرام، أي ألفي بليون بليون كيلوجرام، فإن وزن هذا النجم النيوتروني سيبلغ ٨, ٢ ألف بليون بليون كيلوجرام، وبحساب بسيط نستنتج أن كل سنتيمتر مكعب من هذا النجم يزن ٢٠٠ ألف مليون كيلوجرام.

وتصور أخي القارئ أننا لو أحضرنا إبرة صغيرة جداً من هذا النجم الثاقب، فإن وزنها سيكون ٢٠٠ مليون كيلوجرام، هذه الإبرة النيوترونية الثاقبة لو وضعت على

الأرض لثقتها واخترقتها بالكامل!! فكيف لو أحضرنا نجماً قطره ٢٠ كيلومتراً مثلاً، من هنا ندرك ضخامة وعظمة هذه النجوم وأهميتها في السماء، وأنها من الآيات التي تدل على عظمة الخالق وقدرته ﷻ.

ساعات كونية دقيقة:

تدور هذه النجوم بسرعات عالية جداً، وتبلغ سرعة بعضها عدة مئات من الدورات في كل ثانية، وهي دقيقة جداً في دورانها، ولذلك يمكن استخدامها كساعات كونية دقيقة. ويتولد بنتيجة دوران هذه النجوم حقل مغناطيسي قوي جداً يعادل ألف مليون ضعف الحقل المغناطيسي للأرض.

إن سبب سماعنا لصوت الطرقات هو دوران هذه النجوم بسرعة هائلة حول مركز دورانها، وأثناء دوران هذا النجم فإنه يحقق نتيجتين: الأولى أنه يعطي طرقات منتظمة، والثانية أنه يصدر إشعاعات تستطيع ثقب أي شيء يصادفها، أي أن دوران هذه النجوم يسبب الطرق والثقب.

إنها تثقب أي شيء تصادفه:

لقد رصد العلماء في أمريكا وأوروبا الموجات الجذبية الصادرة عن النجوم الثابتة، وقالوا إذا كان الضوء يمكن أن يصطدم بالخواجز المادية فلا يستطيع اختراقها، فإن الموجات الجذبية الهائلة التي يصدرها النجم الثاقب تخترق أي شيء، حتى أجسامنا فإنها تخترق في كل لحظة بهذه الأمواج ولا نحس بها.

هنالك جسيمات دقيقة جداً تطلقها هذه النجوم بكميات كبيرة أثناء تشكلها بعد انفجار النجم الأصلي، وتدعى "نيوترينو" ويعرف العلماء هذه الجسيمات أنها عديمة الشحنة وليس لها كتلة، هذه الأجسام الأولية تخترق الرصاص مسافة أميال عديدة دون أن يعرقلها أي شيء.

تتعرض الأرض ومن عليها في كل لحظة لجسيمات كونية فائقة الصغر مثل "النيوترينو"، وهذه الجسيمات تُبث من المطارق الكونية أثناء تشكلها، وتثقب الغلاف الجوي للأرض وتثقب البحار والجبال، حتى إن العلماء وجدوا آثاراً لهذه الجسيمات في

أعماق البحار وفي أخفض نقطة وصلوا إليها تحت سطح الأرض، ويخبرنا العلماء أن "النيوترينوات" وهي أجسام عديمة الشحنة والوزن، تستطيع ثقب واختراق طبقة من الرصاص يبلغ سمكها عدة كيلومترات، حيث تعجز جميع الأجسام الأخرى عن اختراق أكثر من أمتار محددة من الرصاص، ولذلك فإن أفضل اسم لهذا النجم علمياً هو (النجم الثاقب).

مطرقة من الحديد:

يقول العلماء في تعريف هذه المخلوقات: «إن سطحها من الحديد البلوري الصلب، وهي تدق مثل الجرس عندما يضرب بمطرقة». ومن العجائب أن العلماء وجدوا أن هذه النجوم تتكون من طبقات، وأن قلب هذه النجوم يتألف من الحديد، وأثناء تشكل هذه النجوم يحدث طرق لهذه الطبقات بالنواة الحديدية تمامًا كالمطرقة، وجاء في دراسة حول طريقة تشكل النجوم وما يحدث داخل النجوم النيوترونية ما نصه: تعمل الطبقات الخارجية في النجم مثل المطرقة، ونواة هذا النجم مثل الكرة المطاطية.

إذن جميع العلماء يؤكدون على أن هنالك طرقةً داخلياً يحدث داخل النجم، وطرقةً خارجياً نتيجة دوران النجم، حيث يصدر طرقات منتظمة تصل إلى الأرض على شكل أمواج راديوية. وهذا يعني أن العلماء يرون في هذه الأجسام عمليات طرق مستمرة تشبه طرقات المطرقة على الجرس.

صوت المطرقة الكونية:

يستخدم العلماء في كشف أعماق هذه النجوم تسجيل الانفجارات التي تولدها ثم يقومون بتحليل هذا التسجيل، ومعرفة التركيب الداخلي للنجم، تمامًا كما يستخدم علماء الأرض مقاييس الزلازل وتسجيل الاهتزازات الأرضية لمعرفة تركيب الأرض وبنيتها الداخلية وطبقاتها.

ويقول البروفيسور Richard Rothschild من جامعة كاليفورنيا، والذي درس هذه الأجسام لفترة طويلة، وهو يحدثنا عن أحد الانفجارات النجمية الذي

خلف وراءه نجماً ثاقباً: «إن الانفجار كان أشبه بضرب النجم النيوتروني بمطرقة كونية، مما يسبب أن هذا النجم يرن مثل الجرس».

وجه الإعجاز:

مما يدل على عظمة كتاب الله تعالى أنه تناول الكثير من الحقائق الكونية المبهرة، وعندما يكون الحديث عن مخلوق عظيم يقسم الله به -والله يقسم بما يشاء من خلقه- فقد أقسم الله تعالى بنجوم عظيمة فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢﴾ النَّجْمُ الطَّارِقُ ﴿١-٣﴾.

وقد أجمع المفسرون في تفسير هذه الآيات الكريمة، على أن الله أقسم بنجوم شديدة اللمعان والإضاءة، وهذا ما وصلت إليه معارفهم في ذلك العصر. ولكننا في العصر الحديث وأمام التطورات الكبيرة التي شهدتها علم الفلك، فإن أفضل تفسير علمي لهذه الآيات هو أنها تتحدث عن النجوم النيوترونية، وقد يتطور العلم فيكشف لنا أشياء جديدة لا نراها اليوم ليقى القرآن هو المعجزة الخالدة.

وقد يقول قائل كيف علمت أن النجم الثاقب هو ذاته النجم النيوتروني؟ لذلك سوف نعدد بعض أوجه الإعجاز العلمي في هذه الآيات ونلخصها في نقاط محددة:

١- من خلال الحقائق اليقينية السابقة ندرك أن أهم صفتين للنجوم النيوترونية كما يصرح بذلك كبار علماء الفلك هما: الطُّرُق المستمر والمنتظم، وبث موجات جذب تخرق وتثقب أي شيء، وهذا ما لخصه لنا القرآن الكريم بكلمتين فقط هما: (الطارق، والثاقب).

٢- الطُّرُق في اللغة العربية هو الضرب بالمطرقة، فهل تعتبر طرقات هذه النجوم حقيقية ومسموعة لنا؟ يؤكد جميع العلماء أن ما تصدره هذه النجوم هو طرق حقيقي وليس مجازياً، ويقول العلماء هذه النجوم تصدر صوتاً يشبه إلى حد كبير صوت المطرقة العادية، ويبلغ تردد هذا الصوت عدة مئات من الهرتز، ولذلك فهو مسموع للأذن البشرية، ولكن بما أن الصوت يحتاج لوسط مادي لكي ينتشر فيه، وبسبب عدم

وجود هذا الوسط في الفضاء، فإن هذه الأصوات لا تصلنا مباشرة إنما تصلنا على شكل موجات راديوية، وبعد إعادة هذه الأمواج الراديوية إلى تردداتها الحقيقية تعطي صوت الطرق على شكل دقات منتظمة.

٣- الثَّاقِبُ في العربية هو الحَرْقُ النافذ، فكيف يثقب ويخترق الأشياء هذا النجم الثاقب؟ من خصائص النيوترون أنه أثقل أجزاء الذرة وهو حيادي أي لا شحنة له، فهو ليس موجبًا وليس سالبًا، ولذلك فهو يخترق الذرة وينفذ منها بسهولة، وبالتالي يستخدمه العلماء لتحطيم نواة الذرة بسبب ثقله وحياديته؛ ولذلك فإن أفضل وصف للنيوترون هو أنه يثقب الأشياء ويخترقها بسهولة دون أن يعيقه شيء، وبالتالي فإن كلمة (الثاقب) مناسبة جدًا من الناحية العلمية لوصف النجوم النيوترونية.

٦- إن كلمة (ثاقب) تعني في اللغة أيضًا (مضيء) أو (لامع)، وقد وجد العلماء أن هذه النجوم تعتبر من أشد النجوم لمعانًا في الكون. ويعجب العلماء كيف تنشأ هذه النجوم في قلب الانفجارات وتكون محاطة بكميات هائلة من الدخان الكوني، وفجأة تظهر وتشع بل وتضيء ما حولها، وهذا يدل على أن اللفظة القرآنية تجمع أكثر من معنى، فكلمة (الثاقب) تعني الذي يخترق الأشياء وتعني شديد اللمعان، وكلا المعنيين صحيح، وهذا يعني أن العلماء يستخدمون عدة كلمات لوصف هذه النجوم بينا القرآن يختصر هذه المصطلحات بكلمة واحدة فقط، فسبحان الله!

انسلاخ النهار:

لقد كشف العلم الحديث أن الليل يحيط بالأرض من كل مكان، وأن الجزء الذي تتكون فيه حالة النهار هو الهواء الذي يحيط بالأرض، ويمثل قشرة رقيقة تشبه الجلد، وإذا دارت الأرض سلخت حالة النهار الرقيقة التي كانت متكونة بسبب انعكاسات الأشعة القادمة من الشمس على الجزئيات الموجودة في الهواء مما يسبب النهار، فيحدث بهذا الدوران سلخ النهار من الليل، والله ﷻ يقول: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُّ أَيْلٌ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (يس: ٣٧).

الخوف والمطر:

كانت معركة بدر بداية لسجال المعارك التي وقعت بين المسلمين وبين الكافرين، كانت تلك المعركة وكان معها النصر وظهور الحق وكان معها التأييد والشبث والآيات الربانية الخارقة كالإمداد بالملائكة ونزول المطر وما صاحبه من الخوارق والمعجزات والإعجاز في آن واحد، يقول الله واصفًا حالهم تلك: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (الأنفال: ١١).

هذه الآية تحبر من بدايتها أن الله ﷻ غشى المؤمنين بالنعاس أمانة أي من الخوف الذي يتاب كل إنسان عند ملاقاته العدو، خاصة وإنه أول لقاء بين فئة الكفر وفئة الإسلام، والمسلمون لم يكونوا قد خرجوا للحرب وإنما كانوا قد خرجوا يريدون قافلة الكفار، وهم أمام جيش قوي كبير يزيدهم عددًا وعدةً، ثم ينزل الماء ليعقب النعاس ويكون سببًا آخر في إذهاب الخوف.

لقد جاء في الآية ما يشعر بأن الماء النازل كان سببًا لأمر عدة وهي:

- التطهير بالماء النازل ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾.
- إذهاب رجز الشيطان: ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾.
- الربط على قلوب المؤمنين: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾.
- تثبيت أقدامهم: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

الخوف والطب:

الغدة الرئيسية التي تنفعل عند الغيظ والغضب والحقد والخوف هي الغدة الكظرية (فوق الكلية)، وتفرز العديد من الهرمونات التي تؤثر في عمليات التمثيل في الجسم. ومن ضمن هذه الهرمونات: الأدرينالين والنورأدينالين فهرمون الأدرينالين يكون إفرازه استجابة لأي نوع من أنواع الانفعال أو الضغط النفسي، كالخوف أو الغضب، وقد يفرز أيضًا لنقص السكر، وعادة ما يُفرز الهرمونان معًا.

وإفراز هذا الهرمون يؤثر على ضربات القلب، فتضطرب، وتتسارع، وتقلص معه عضلة القلب، ويزداد استهلاكها للأوكسجين، والغضب والانفعال يؤدي إلى رفع مستوى هذين الهرمونين في الدم، وبالتالي زيادة ضربات القلب، وقد يؤدي إلى ارتفاع ضغط الدم.

كما أن ارتفاع هرمون النور أدرينالين في الدم يؤدي إلى تسارع دقات القلب، وهذا ما يشعر به الإنسان حين الانفعال أو الخوف، والذي يجهد القلب ويندر باختلاطات سيئة. فهو يعمل على رفع الضغط الدموي بتقيضه للشرايين والأوردة الصغيرة، كما أن الارتفاع المفاجئ للضغط قد يسبب لصاحبه نزفاً دماغياً صاعقاً يؤدي إلى إصابة الغضبان بالفالج^(١)، وقد يصاب بالجلطة القلبية أو الموت المفاجئ، وقد يؤثر على أوعية العين الدموية فيسبب له العمى المفاجئ. وكلنا يسمع بتلك الحوادث المؤلمة التي تنتج عن لحظات غضب.

ويقول الأطباء عند الخوف تفرز في الدماء مادة (الأدرينالين) فترتعش منها الأطراف فلا تثبت، ومن وسائل تثبيت هذه الأطراف أن يرش الشخص بالماء لتقليل هذه المادة، وقد كان نزول الماء أيضاً من الأسباب المادية التي جعلها الله وسيلة لتثبيت الأقدام، بتقليل هذه المادة في الدماء إلى جانب تثبيت الأرض التي يسير عليها المجاهدون مع رسول الله ﷺ فتكون ثابتة تحت أقدامهم، لأن الرمال إذا بللت تماسكت وسار عليها السائر بعزم وثبات وتتقدم القدم فلا تغوص.

(١) الفالج: شلل نصفي؛ شلل يصيب أحد شقي الجسم طويلاً فيبطل إحساسه وحركته.

تخصيص مكة المكرمة بالقبلة:

مكة المكرمة هي أشرف البلدان وخير الأماكن، والبلد الحرام اختاره الله ﷻ لنبه ﷺ، وجعل فيه العديد من المناسك لعباده، فكانت الكعبة المشرفة قبلة الصلاة لكل المسلمين، وأوجب على عباده المؤمنين المستطيعين الإتيان إلى بيته الحرام من كل فج عميق.

وفي اختصاص مكة المكرمة بهذه الأحكام العديد من الحكم التشريعية، ولعل منها ما كشف عنه العلم الحديث وهو أن مكة المكرمة تتوسط العالم، وهي مسألة تتناسب مع اختيار مكة من بين كل البلدان لتكون مبعث خاتم الأنبياء والمرسلين، والمكان الذي تنطلق منه الدعوة المحمدية إلى كل العالم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُوكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام: ٩٢). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لِأَرْبِ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾. وذهب عدد من علماء اللغة إلى أن سبب تسمية مكة بهذا الاسم هو أنها وسط الأرض.

موقع مكة المكرمة من العالم في ضوء الدراسات العلمية الحديثة:

منذ ما يقارب ربع بليون سنة كانت اليابسة قارة واحدة جمعت كل القارات يحيط بها بحر واحد محيط، سميت أم القارات؛ هذا ما انتهى إليه "ألفرد فيجنر" وأعلنه عام ١٩١٥م استناداً إلى جملة شواهد تأكدت لاحقاً ضمن نظرية انزياح القارات، وخلاصتها أن القارة الأم قد تصدعت مع الزمن إلى قطع متجاورات، وتنزاح حتى اليوم عن بعضها البعض ببطء شديد نتيجة لتيارات الصهير، ومور^(١) الباطن تحت

(١) مار الشّيء موراً: تحرك وتدافع في اضطراب ذهاباً وجيئةً.

القشرة، فانزاحت قطع جهة الشرق، وأخرى جهة الغرب، وتميزت سبعة أبحر، وكان موقع المنطقة العربية في الوسط كما هو اليوم.

ومن هنا ذهب قوم إلى القول بوسطية مكة المكرمة لأمة العرب التي تتوسط بقية الأمم، وأن الكعبة التي تتوسط البيت الحرام هي (مركز الأرض)؛ أو بالأحرى التماساً لدقة التعبير منعاً للالتباس يمكن القول أنها (وسط المعمورة)؛ لأن مركز الجسم الكروي نقطة تقع في اللب والمعلوم أن كوكب الأرض جسم كروي، لذا لا يليق هندسياً وصف منطقة على سطحه بأنها مركز الكوكب.

يقول الدكتور محمد عوض في بحثه في مجلة "الهلال" - أغسطس ١٩٥٣م-: إن الكعبة مركز الأرض بمفهوم القارات، أي: اليابسة، لأن المحيط الهادي وهو أكبر المحيطات يشكل انقطاعاً كبيراً جداً بين القارات بمساحته الكبيرة التي تصل اليابسة، لذلك ترسم مصورات العالم بدءاً من استراليا واليابان والصين شرقاً، وانتهاءً بأمريكا غرباً لتمثل كل اليابسة، ولو مسحنا هذه القارات بما فيها القارة القطبية الجنوبية والشمالية، وكتبنا عليها مساحاتها، ورحنا نفتش عن مركز يتوسطها، أو عن مركز ثقلها بدقة تامة، لوجدناه في الكعبة المشرفة بالذات.

لهذا يقول تعالى لنبيه الكريم ﷺ: ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى: ٧)، وعبارة: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ تعطي المركزية لمكة المكرمة، لذلك اقترح أحد علماء باكستان أن تكون مكة المكرمة بداية لخطوط الطول بدلاً من جرينتش.

مكة المكرمة في الإسقاط المساحي المكي هي مركز العالم:

وقد قام العالم المعاصر الدكتور حسين كمال الدين أحمد إبراهيم أستاذ الهندسة المساحية والفلك الكروي في جامعات القاهرة وأسيوط والملك السعود، منذ أكثر من عشرين عاماً أثناء عمله بجامعة الملك سعود بإثبات أن مكة المكرمة هي مركز الكرة الأرضية.

ويروي هذا العالم المصري قصة اكتشافه فيذكر أنه بدأ البحث وكان هدفه مختلفاً تماماً، حيث كان يجري بحثاً ليعد وسيلة تساعد كل شخص في أي مكان من العالم على

معرفة وتحديد مكان القبلة، لأنه شعر في رحلاته العديدة للخارج أن هذه هي مشكلة كل مسلم عندما يكون في مكان ليست فيه مساجد تحدد مكان القبلة، أو يكون في بلاد غربية، كما يحدث لمئات الآلاف من طلاب البعثات في الخارج، لذلك فكر الدكتور حسين كمال الدين في عمل خريطة جديدة للكرة الأرضية لتحديد اتجاهات القبلة عليها.

وبعد أن وضع الخطوط الأولى في البحث التمهيدي لإعداد هذه الخريطة ورسم عليها القارات الخمس، ظهر له فجأة هذا الاكتشاف الذي أثار دهشته. فقد وجد أن موقع مكة المكرمة في وسط العالم، وأمسك بيده (فرجارًا) وضع طرفه على مدينة مكة، ومر بالطرف الآخر على أطراف جميع القارات فتأكد له أن اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة توزيعًا منتظمًا، ووجد مكة - في هذه الحالة - هي وسط الأرض اليابسة.

وأعد خريطة العالم القديم - قبل اكتشاف أمريكا وأستراليا - وكرر المحاولة فإذا به يكتشف أن مكة هي أيضًا وسط الأرض اليابسة، حتى بالنسبة للعالم القديم يوم بدأت الدعوة للإسلام.

ويضيف العالم الدكتور حسين كمال الدين: «لقد بدأتُ بحثي برسم خريطة تحسب أبعاد كل الأماكن على الأرض، عن مدينة مكة، ثم وصلتُ بين خطوط الطول المتساوية لأعرف كيف يكون إسقاط خطوط الطول وخطوط العرض بالنسبة لمدينة مكة.

وبعد ذلك رسمت حدود القارات وباقي التفاصيل على هذه الشبكة من الخطوط، واحتاج الأمر إلى إجراء عدد من المحاولات والعمليات الرياضية المعقدة بالاستعانة بالحاسب الآلي لتحديد المسافات والانحرافات المطلوبة، وكذلك احتاج الأمر إلى برنامج للحاسب الآلي لرسم خطوط الطول وخطوط العرض لهذا الإسقاط الجديد».

ومن تلك الدراسات ما توصل إليه الدكتور المهندس يحيى وزيرى في بحثه الموسوم بـ(الكعبة المشرفة دراسة تحليلية للخصائص التصميمية)، وأشار في بحثه إلى عدد من الدراسات التي تثبت أن مكة تتوسط العالم القديم والحديث.

ومن تلك الدراسات التي أشار إليها دراسة تم فيها اختيار تسع مدن وجزر لتكون هي حدود العالم القديم، وتم تحديد موقعها وبعدها عن مكة المكرمة، وقد وجد أن المسافة القوسية بين هذه المدن والجزر وبين مكة المكرمة تقريباً ٨٠٣٩ كم في المتوسط، مما يعنى أن مكة المكرمة تقع في مركز دائرة يمر محيطها بالثلاث قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا التي كانت تكوّن وتمثل العالم القديم قبل اكتشاف الأمريكتين.

وبالنسبة لتوسط مكة المكرمة ليابسة العالم الجديد فقد تم حساب المسافة بين مكة المكرمة والمدن الآتية:

١- مدينة ويلنجتون تقع في نيوزيلندا بشرق قارة استراليا: وجد أن المسافة بينها وبين مكة المكرمة ١٣٠٤٠ كم.

٢- كورن هورن أبعد نقطة في أمريكا الجنوبية: وجد أن المسافة بينها وبين مكة المكرمة ١٣١٢٠ كم.

٣- شمال ألاسكا أبعد نقطة في شمال أمريكا: وجد أن المسافة بينها وبين مكة المكرمة ١٣٦٠٠ كم.

وعلى ذلك فإن المسافة المتوسطة بين أبعد نقاط العالم الجديد وبين مكة المكرمة هي تقريباً ١٣٢٥٣ كم، مما يعنى أيضاً أن مكة المكرمة تقع في مركز دائرة تمر بحدود قارات العالم الجديد، وهذه الدائرة تمر أيضاً بالحدود الشرقية والحدود الغربية للقطب الجنوبي.

إن موقع مكة المكرمة الفريد من نوعه أدى إلى أن يطالب أحد الباحثين الغربيين، واسمه "أرنولد كيسرلنج" إلى أن يكون خط طول مكة المكرمة ٣٩ درجة و٤٩ دقيقة شرقاً هو خط الطول الأساسي بدلاً من خط طول جرينتش بإنجلترا والذي

تم فرضه على العالم سنة ١٨٨٢ م، وقت أن كانت الإمبراطورية البريطانية هي أكبر قوة موجودة في العالم.

وجه الإعجاز:

أظهرت الأبحاث والدراسات الحديثة أن الموقع الجغرافي لمكة المكرمة موقع عبقرى لا نظير له فهو يقع في مركز اليابسة سواء بالنسبة للعالم القديم (آسيا وأفريقيا وأوروبا) أو العالم الجديد بعد اكتشاف الأمريكتين وأستراليا.

فالمسلمون عندما يتجهون في صلاتهم إلى مكة المكرمة فهم يتجهون إلى موقع يتوسط اليابسة، وهنا يظهر لنا أن اختيار موقع مكة المكرمة لتكون مبعث خاتم النبيين، ولتكون فيها الكعبة المشرفة قبلة المسلمين، ولا يقصد المسلمون غيرها للحج والعمرة، هو اختيار إلهي فيه حكمة كبرى لم تكن لتُعرف إلا بعد ظهور الحقائق والاكتشافات العلمية الحديثة، فالمسلمون عندما يتجهون في صلاتهم إلى مكة المكرمة فهم يتجهون إلى موقع يعتبر بمثابة وسط اليابسة، كما أنه لا يخفى دلالة توسط موقع مكة المكرمة على تسهيل الحج والعمرة للمسلمين من مختلف بقاع الأرض، فموقعها متوسط بالنسبة لكافة القارات فهي لا تقع في أقصى الشرق أو الغرب، أو في أقصى الشمال أو الجنوب.

القرار المكين:

جاء وصف الرحم في القرآن الكريم بأنه قرار مكين، في موضعين من كتاب الله تعالى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿المؤمنون: ١٣﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿المرسلات: ٢٠-٢٢﴾، وفي موضع ثالث جاء تعليق ذلك القرار بالمشيئة الإلهية، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴿٥﴾﴾ (الحج: ٥). وفي هذا الوصف القرآني مطابقةً لحقيقة علمية كشف عنها العلم الحديث بواسطة التقنيات الحديثة والأجهزة المتطورة.

اتفق المفسرون على أن القرار المكين هو الرحم، وفسروا القرار بأنه المكان الصالح والمهيأ للاستقرار، وأما المكين فهو المتمكن والشيء الحريز والحصين، والثابت

في المكان بحيث لا يقلع من مكانه، ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ يعني جمعناه في الرحم، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرحم مُعَدُّ لذلك، حافظ لما أُودِع فيه من الماء، ﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ يعني إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر.

وقد كشف العلم الحديث عن كثير من خصائص الرحم، ومنها أن الرحم يبلغ حجمه ٢ ملم - في جسم المرأة البكر - ولكن حجمه يتضاعف مع الحمل حتى يصل إلى ١٠٠٠ ملم، وهذا النمو يفوق نمو كل الأورام السرطانية، والرحم هو في حقيقته جسم معلق يتحرك بمرونة ويتغير حجمه ووزن محتوياته في حدود دقيقة.

وكشف العلم أن النطفة عند دخولها إلى الرحم فإنها تنغرس في الرحم، وتهياً لها الظروف المناسبة حتى تتكاثر وتنمو وتتخلق حتى تصير إنساناً في أحسن تقويم، كل ذلك وهي تنعم بكل وسائل الأمن والراحة والاستقرار.

لقد وصف القرآن الكريم النطفة بأدق وصف، ووصف المكان الذي تستقر فيه النطفة بوصفين جامعين معبرين، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، فكلمة ﴿قَرَارٍ﴾ في الآية الكريمة معناها الاستقرار والثبات والسكون والهدوء، وهي بذلك تشير إلى العلاقة بين الجنين والرحم، فالرحم مكان لاستقرار الجنين، وكذلك القرار هو مكان يستقر فيه الماء ويتجمع، وقد وصف القرآن الكريم المكان الذي تستقر فيه النطفة في الرحم بأنه قرار.

وقد كشف العلم الكثير من التفاصيل لهذا الوصف الجامع المعبر، فالرحم للنطفة ولمراحل الجنين اللاحقة سكنٌ لمدة تسعة أشهر، وبالرغم من أن طبيعة الجسم أن يطرد أي جسم خارجي، فإن الرحم يأوي الجنين ويغذيه، وللرحم عضلات وأوعية رابطة تحمي الجنين داخله، ويستجيب الرحم لنمو الجنين ويتمدد بدرجة كبيرة ليتلاءم مع نموه فهو قرار له، ويحاط الجنين بعدة طبقات بعد السائل الأمينوسي وهي الغشاء الأمينوسي المندمج بالمشيمة، وطبقة العضلات السميكة للرحم ثم جدار البطن، وكل هذا يمد الجنين بمكان مناسب للاستقرار وللنمو الجيد، وهكذا فإن كلمة ﴿قَرَارٍ﴾ قد

استعملت في القرآن الكريم كل هذه المعاني وغيرها، متضمنة وظائف الرحم باعتباره مكاناً مناسباً لاستقرار الجنين وتمكينه من مواصلة نموه.

وقد جمع اللفظ «قَرَارٍ» الذي وصف القرآن الكريم به الرحم كل الحقائق التي اكتشفها العلم، لبيان مناسبة الرحم لاستقرار الجنين، فهو لفظ معبر جامع.

أما «مَكِينٍ» فمعناها: الشيء المتمكن والشيء الحريز والحصين، والثابت في المكان بحيث لا يقلع من مكانه، وهي بذلك تشير إلى العلاقة بين الرحم وجسم الأم، وموقعه المثالي لتخلق ونمو كائن جديد، ويقع الرحم في وسط الجسم، وفي مركز الحوض وهو محاط بالعظام والعضلات والأربطة التي تثبته بقوة في الجسم، بحيث لا يقلع من مكانه، وكأنه حصن حصين يحرز ما بداخله، أي أنه مكين كما قرر القرآن الكريم.

وهذا أيضاً لفظٌ جامع معبر عن كل المعاني التي تبين تمكن الرحم وتثبته في جسم الأم، وهكذا فإن كل وصف يتضمن العلاقة بين الجنين والرحم وبين الرحم وجسم الأم، قد أدخل في معنى الكلمتين «قَرَارٍ» و «مَكِينٍ» اللتين تعبران تعبيراً تاماً عن حقيقة الرحم ووظائفه الدقيقة، ولا يفتن إلى أهمية هذين الوصفين إلا من له علم بحاجات نمو الجنين، وحاجات الرحم، لمواكبة هذا النمو حتى يخرج سليماً.

فكيف إذا علمنا أن هذا الإخبار جاء على لسان نبي أمي قبل ألف وأربعمائة عام، إن هذا كله يشهد بأن هذا الكلام هو وحي أوحاه الخالق العليم ﷻ إلى رسوله محمد ﷺ، ليكون ذلك شاهداً على رسالته الخاتمة إلى كل الناس في كل العصور إلى قيام الساعة.

هل أشار القرآن إلى تحديد نوع الجنين؟

إن القرآن هو أول كتاب يحدد المسؤول عن نوع الجنين ذكراً كان أم أنثى، فقد كان الاعتقاد السائد زمن نزول القرآن أن المرأة الأم هي المسؤولة عن ذلك، ولكن العلم يخبرنا بأن المرأة لا علاقة لها بتحديد نوع المولود.

ما من أب أو أم إلا ويتوقان لمعرفة نوع المولود القادم ذكرًا أم أنثى. وقد بقيت هذه المعرفة تعتمد على الخرافات والتنبؤات حتى جاء عصر العلم الحديث ليتمكن العلماء من وضع الأسس الصحيحة لعلم الأجنة واكتشاف أسرار عملية الحمل والولادة وتطور الجنين وتحديد نوعه وكيف تتم هذه العمليات بدقة فائقة.

فقد تبين أخيرًا أن نطفة الرجل هي المسؤولة عن تحديد نوع الجنين، وليس لبويضة الأنثى من تأثير على ذلك. فنطفة الرجل تحتوي على صفة الذكورة أو الأنوثة، أما بويضة المرأة فلا تحتوي إلا صفة الأنوثة دائمًا.

لذلك عندما تلتقي نطفة الرجل مع بويضة المرأة وتلقحها يتحدد جنس الجنين حسب ما تحمله هذه النطفة، ولدينا احتمالان:

- نطفة مذكرة مع بويضة مؤنثة: المولود ذكر.
- نطفة مؤنثة مع بويضة مؤنثة: المولود أنثى.

وهنا نجد حقيقتين علميتين أو لاهما أن الجنين يتم خلقه من نطفة واحدة وليس من المنى كله. والثانية أن هذه النطفة هي التي تحدد نوع المولود.

والعجيب في كتاب الله وهو كتاب العجائب، أنه قد تحدث عن هاتين الحقيقتين بدقة، يقول تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۗ﴾ (٤٥) ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ (النجم: ٤٥-٤٦). إذن الذكر والأنثى خلقهما الله من نطفة الرجل.

وفي نص آخر نجد الحقيقة ذاتها تتكرر في خطاب الله للإنسان: قَالَ تَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۗ﴾ (٣٦) ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ۗ﴾ (٣٧) ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ فَخْلَقَ فَسَوَىٰ ۗ﴾ (٣٨) ﴿جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۗ﴾ (القيامة: ٣٦-٣٩). وتأمل معي قوله تعالى: ﴿جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۗ﴾ ولم يقل: (فجعل منها الزوجين)، وهذه إشارة إلى الرجل ونطفته وأنه هو المسؤول عن تحديد جنس الجنين، وهو ما أثبتته العلماء حديثًا، ولم يكن لأحد علم به زمن النبي ﷺ.

السراب:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور: ٣٩).

السراب هو الشعاع الذي يُرى وسط النهار عند اشتداد الحر في الفلوات الواسعة؛ كأنه ماء سارِب (١) وهو ليس بشيء، والقاع ما انبسط من الأرض واتسع ولم يكن فيه نبت وفيه يكون السراب، وأصل القاع الموضع المنخفض الذي يستقر فيه الماء وجمعه قيعان.

وفي هذه الآية صورة بيانية لكل كافر يأمل نجاته بما قدم بغير إيمان من أعمال خيِّرة، فجاء تشبيه عمله بالسراب وانتهى به الحال للهلاك في قيظ الصحراء القاحلة، فهذا مثلٌ ضربه الله ﷻ لكفار، يعولون على ثواب أعمالهم فإذا قدموا على الله ﷻ وجدوا ثواب أعمالهم محبطة بالكفر، أي لم يجدوا شيئاً كما لم يجد صاحب السراب إلا أرضاً لا ماء فيها فهو يهلك، وفي التمثيل تلازم السراب والقيعة، ودل السياق أنها شرط لوقوع السراب وتحققه جلياً.

الحقيقة العلمية:

القيعة هي السطح المستوي الذي يعمل عمل المرآة، وبالفعل هنا فإن علم الفيزياء يؤكد حديثاً شرط استواء السطح لوقوع السراب. ففي البحار قد تشاهد المراكب البعيدة في مستوى أعلى نتيجة وجود هواء أكثر يعلو سطح البحر يكسر الأشعة، وفي الصحاري الحارة قد تشاهد صورة سفلية معكوسة للأجسام البعيدة نتيجة تداخل الهواء فوق الأرض، فيرتفع الهواء الأكثر ويكسر الأشعة، ولا يحدث السراب إلا بتداخل الهواء الأسفل في جو حار، ويلزم وجود أرض مستوية ومنبسطة تعكس الأشعة كالمرآة، وفي أرض مستوية تعمل كمرآة تبدو صورة السحب بهيئة ماء.

(١) سَرَب الماء ونحوه: جرى وسال.

وجه الإعجاز:

صحيح أن السراب كظاهرة طبيعية كان مما عهده الناس منذ القدم، ولكن لم يكونوا على دراية بحقيقته وأنه يشترط لحصوله انبساط السطح المرئي ووجود الحر الذي يخلخل طبقات الجو، مما أشارت إليه الآية بلفظ «بِقِيَعَةٍ» و«يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً» والقية هو المنبسط من الأرض، والظماً يكون حالة الحر، وجاءت الكشوف الفيزيائية في الوقت الحاضر لتثبت أن هذه الظاهرة يشترط لها الأرض المستوية المتسعة المنبسطة، ووجود الحر بحيث تتخلخل طبقات الجو فتحدث انكسارات تنتهي بانعكاس الأشعة المرئية وما يرافقها من صور معكوسة، وهو حقيقة السراب الذي ذكرته الآية منذ أربعة عشر قرناً.

سُقفاً من فضة:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُررًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَنَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٣٣-٣٥).

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآيات (٧/ ٢٢٦): «قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَي: لَوْلَا أَنْ يَعْتَقِدَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْجُهْلَةَ أَنَّ إِعْطَاءَنَا الْمَالَ دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّتِنَا لِمَنْ أَعْطَيْنَاهُ، فَيَجْتَمِعُوا عَلَى الْكُفْرِ لِأَجْلِ الْمَالِ - هَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ، وَالسُّدِّيِّ، وَغَيْرِهِمْ - ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أَي: سَلَامٌ وَدَرَجًا مِنْ فِضَّةٍ - قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ: وَابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُمْ - ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، أَي: يَصْعَدُونَ. ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ أَي: أَعْلَاقًا عَلَى أَبْوَابِهِمْ ﴿وَسُررًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ أَي: جَمِيعُ ذَلِكَ يَكُونُ فِضَّةً، ﴿وَزُخْرُفًا﴾، أَي: وَذَهَبًا. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَنْ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْعَيُورَةَ الدُّنْيَا﴾ أَي: إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ الْحَقِيرَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَي: يُعَجَّلُ لَهُمْ بِحَسَنَاتِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا مَا كَلَّ وَمَشَارِبَ، لِيُؤَافُوا الْآخِرَةَ وَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنَةٌ يُجْزِيهِمْ بِهَا.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَي: هِيَ لَهُمْ خَاصَّةٌ لَا يُشَارِكُهُمْ: فِيهَا أَحَدٌ غَيْرُهُمْ». اهـ باختصار.

هل يمكن استخدام مادة معمارية في بناء مبنى أو صرح بحيث أن استخدام هذه المادة بكيفية تصميمية معينة تؤدي إلى فتنة الإنسان فينتقل من الكفر إلى الإيمان إن كان كافرا، أو من الإيمان إلى الكفر إن كان مؤمنا؟

يمكن الإجابة على السؤال السابق من خلال تدبر بعض الآيات التي وردت في قصص القرآن الكريم، فها هي الآيات الكريمة تصف لنا الصرح (السليمانى) الذي أقامه سليمان عليه السلام، لاستقبال بلقيس ملكة سبأ في قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤)، لقد كان هذا الصرح صحنًا من زجاج تحته ماء ليربها ملوكًا أعظم من ملكها، وحكى أبو عبيدة: أن الصرح كل بناء عال مرتفع عن الأرض وأن الممرد المحكوك الأملس.

فالآية الكريمة السابقة توضح أن سيدنا سليمان عليه السلام، قد استخدم هذا الصرح المعماري، الذي يعكس قمة الجمال والإبداع الفني، كوسيلة وأداة لدعوة ملكة سبأ الكافرة للدخول في الإسلام والإيمان بالله ﷻ، وأن استخدامه لمادة البللور (الزجاج) كان سببا في انبهار بلقيس ملكة سبأ بهذا الصرح وإسلامها مع سليمان لرب العالمين كما أخبرت بذلك الآيات الكريمة، وهذا يعنى إمكانية استخدام مادة معمارية بأسلوب تصميمي معين واعتمادًا على صفاتها الطبيعية لتكون سببًا في إيهام الإنسان وفتنته فينتقل من الكفر إلى الإيمان إن كان كافرا، أو من الإيمان إلى الكفر إن كان مؤمنا.

والمثال القرآني السابق يوضح ويؤكد على أن استخدام مادة الفضة في بناء أو كمادة تشطيب (نهو) نهائية لهذه البيوت يمكن أن يكون سببًا في فتنة الناس ومنهم

المؤمنين أو على الأقل بعضهم فيصبحوا جميعاً أمة واحدة على الكفر كما أخبرت الآية الكريمة من سورة الزخرف.

من أوجه الإعجاز العلمي في اختيار معدن الفضة بالذات:

لكي نوضح جوانب الإعجاز العلمي في اختيار الله سبحانه وتعالى لمعدن الفضة، كمادة يمكن استعمالها في تشطيب (نهو) السطح الخارجي لسقوف بيوت الكفار، فإن هذا يوجب التعرف على بعض خصائص هذا المعدن. فالفضة فلز لونه أبيض ناصع جدا إذا كان نقياً، وتتفوق الفضة على بقية الفلزات بعدة خصائص منها ما يلي:

- الفضة هي أفضل الفلزات في القدرة على نقل الحرارة وتوصيلها، ولاينازعها في هذه الصفة فلز آخر أو حتى أي مادة مصنعة كيميائياً، ولهذا فهي تتخذ مرجعاً قياسياً لمقارنة موصلية العناصر الأخرى بها.
- الفضة هي أفضل الفلزات في توصيل الكهرباء وأقلها مقاومة لمرور التيار الكهربائي، لذلك تستخدم الفضة على نطاق واسع في صناعة الأجهزة الكهربائية.
- للفضة قدرة عالية جداً على عكس الضوء المرئي، ولهذا تستخدم في صناعة المرايا، ويمكن ترسيبها لهذا الغرض على الزجاج أو بعض الفلزات الأخرى عن طريق الترسيب الكيميائي أو الكهربائي أو بالتبخير، وحينما يكون ترسيبها حديث العهد فإنها تكون أفضل عاكس معروف للضوء.
- الفضة هي أكثر الفلزات بياضاً.
- للفضة رنين صوتي جميل ومتميز، وهو أفضل من رنين أي فلز آخر بما في ذلك الذهب.
- أحد الخواص العظيمة للفضة هي قدرتها على قتل البكتريا، فهي عنصر سام وقاتل للميكروبات في العادة ولكنها لا تضر الكائنات الحية الأرقى مثل الرئيسيات والإنسان.

مما سبق نجد أن اختيار معدن الفضة لأسقف بيوت الكفار يعتبر إعجازاً علمياً بكل المعايير نظراً للخصائص الهندسية الفريدة التي تتميز بها الفضة على غيرها من الفلزات ومنها بالطبع الذهب، ولكن يبرز هنا سؤال هام. كيف يمكن أن يؤدي استعمال الفضة كأسقف لبيوت الكفار أن يجعل الناس أمة واحدة على الكفر؟

إن الإجابة تكمن في خاصيتين هامتين تتميز بهما الفضة، الخاصية الأولى هي أنها أكثر الفلزات بياضاً، والخاصية الثانية أنها عندما يكون ترسيبها حديث العهد فإنها تكون أفضل عاكس معروف للضوء، وهذا يعنى أنه عندما تسقط أشعة الشمس على أسقف بيوت الكافرين أثناء النهار فإنها تنعكس انعكاساً شديداً، ولاشك أن ذكر الأسقف ما هو إلا إشارة إلى أحد عناصر المبنى، لأن من يستطيع استخدام الفضة في الأسقف فإنه يسهل عليه استخدامها في الحوائط والأبواب والنوافذ أيضاً.

كما أن الآية الكريمة قد ذكرت البيوت بصيغة الجمع مما يدل على أن هذه البيوت تتجمع معاً لتكون مجموعة سكنية أو حياً سكنياً، وبذلك تظهر هذه البيوت من شدة الانعكاسات كالنجوم المتلألئة، ومن شدة هذه الانعكاسات يمكن أن تظهر هذه البيوت في أوقات معينة وكأن النور ينبعث منها، وكما هو معروف فإن النور يرمز في الدين الإسلامي إلى الهداية، أما ليلاً فإنه مع التقدم الفني واستخدام الإضاءة الصناعية يمكن أن يستمر وجود هذه الانعكاسات بالليل أيضاً، فكلما نظر الناس لهذه البيوت سواء بالنهار أو الليل وجدوها تتلألأ وربما خيل إليهم أن النور يخرج منها.

وفي هذه اللحظة تحدث الفتنة للناس، فمنهم من يخرج من الإيمان ويتنقل للكفر طمعاً في التمتع بهذه الزينة الدنيوية المبهرة، وهذا الفريق يشبه القوم من بني إسرائيل الذي اغتر بزينة قارون عندما خرج على قومه وتمنوا أن يكون لهم مثلها أوتى قارون، وفريق آخر ينتقل من الإيمان إلى الكفر لفساد عقيدته حيث يرى أن بيوت الكفار تتلألأ ليل نهار في حين أن بيوت المسلمين لا تكون على نفس الشاكلة فيعتقد أن هؤلاء الكفار على الحق وأن الله ﷻ قد كافئهم بأن جعل بيوتهم كالنجوم المنيرة.

وهنا يمكن أن نسأل سؤالاً هاماً: إذا كان استخدام معدن الفضة بخصائصه المتميزة السابقة يمكن أن يفتن الناس لدرجة تصل إلى جعلهم أمة واحدة على الكفر، فما الذي يمنع الكفار من استخدام هذه المادة حتى الآن؟

إن الإجابة على السؤال السابق تنبع من بعض خصائص الفضة سواء على مستوى تواجدها في الطبيعة، أو في بعض خصائصها الطبيعية، فمعدن الفضة يعتبر أندر معدن في القشرة الأرضية (تمثل نسبة وجوده حوالي ٠,٠٠٠٠٤ فقط)، باستثناء عنصر الزئبق فقط والذي يعتبر أقل تواجداً منها في عناصر تكوين الأرض، وهذا يعنى التكلفة العالية جداً في حالة استخدام الفضة في تشطيب (نهو) أسقف البيوت وحوائطها وأبوابها ونوافذها أو في بعض العناصر المعمارية الداخلية، لأن هذه العناصر المعمارية تكون ذات مساحات كبيرة مما يستلزم استخدام كميات كبيرة جداً من معدن الفضة لكسوتها.

وإذا كان من خصائص الفضة الطبيعية، أنها أكثر المعادن على الإطلاق قدرة على عكس الضوء (بنسبة حوالي ٩٥٪)، فإن هذا يؤدي إلى التأثير على حاسة البصر بمرور الوقت لمن ينظر إلى بيوت الكفار لو تم استخدام هذه المادة، أي أن استخدام معدن الفضة سيكون له من التأثير السلبي على ساكني هذه البيوت وهم الكفار لدرجة يمكن أن تصل إلى إضعاف حاسة الإبصار أو فقدها بمرور الوقت نتيجة للمعيشة في بيوت وأحياء سكنية تستخدم الفضة في تشطيبها.

وهذا هو ما سوف يحدث في حالة أن يكون الهواء غير ملوثاً، ولكن في حالة وجود مركبات الكبريت أو الأوزون في الهواء (خاصة في المناطق الصناعية أو المدن الكبرى) فإن بريق الفضة ينطفئ وهي الظاهرة المعروفة (بتطويس) الفضة، حيث يتسبب وجود هذه المركبات في الهواء في تكوين طبقة رمادية أو سوداء على سطح الفضة من كبريتيد الفضة تُفقد الفضة بريقها المعروف، ونظراً لتفاقم مشكلات تلوث الهواء في العصر الحديث بهذه المركبات الكبريتية فإن هذه الظاهرة أصبحت أكثر انتشاراً عما

مضى، وهو ما يُفقد معدن الفضة أهم خاصية له في سياق استخدامها في بيوت الكافرين وهى خاصية اللمعان وعكس الضوء المرئي.

ويمكن أن نضيف إلى العوامل السابقة التي تمنع استخدام معدن الفضة في بيوت الكافرين كما ورد بالآية الكريمة، عاملاً آخر وهو قدرة الفضة على نقل الحرارة وتوصيلها وتفوقها على أي فلز آخر في هذه الخاصية بما فيه النحاس أو الذهب، مما يعنى أن هذه الأسقف أو الحوائط أو الأبواب وغيرها من العناصر المعمارية عندما تسقط عليها أشعة الشمس فإن درجة حرارتها سترتفع بنسبة كبيرة تُعيق من استعمالها وهو ما يتعارض مع أداء وظائفها داخل هذه البيوت، بل ويؤدى إلى تحويل هذه البيوت إلى أفران حرارية يستحيل الإقامة فيها.

مما سبق يتضح لنا بعض جوانب الإعجاز القرآني في اختيار معدن الفضة بالذات، حيث إن بعض خصائصه ترشحه لأن يكون مادة مبهرة في شكلها خاصة تحت الضوء الطبيعي نهاراً أو تحت التعرض للإضاءة الصناعية ليلاً، ولكن له من الخصائص الأخرى التي ذكرناها عاليه مما تمنع استخدامه، وبذلك يتحقق قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَلَّمُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿الزخرف: ٣٣-٣٥﴾.

فمن رحمة الله ﷻ أن يختار معدن الفضة بالذات حيث له خصائص معينة لم تكن معروفة تماماً وكاملة في وقت نزول القرآن، وهذه الخصائص تمنع من أن يستخدمه الكافرون لفتنة عباد الله المؤمنين، وهذا هو الملمح الاعجازي الأول في الآيات الكريمة.

ومن زاوية أخرى فان الآية الكريمة تحتوى على وجه آخر من أوجه الإعجاز ألا وهو الإشارة المستقبلية إلى إمكانية استخدام المعادن بصورة أساسية في عناصر المباني المختلفة، كالأسقف والحوائط والأبواب وغيرها، وهذا سبق للقرآن الكريم حيث أن البشرية وقت نزول القرآن الكريم كانت تستعمل في إنشاء المباني مادة الحجر

أو الطوب أو الخشب بصفة أساسية، ولم تكن تعرف استعمال المواد المعدنية بصورة أساسية في إقامة المباني أو تشطيبها.

فلو كان هذا القرآن من قول البشر فكيف يمكن لأي إنسان أن يتخيل إمكانية استخدام هذه المعادن بصورة أساسية في المباني كما حدث في القرن العشرين، حيث نجد نماذج لمبانٍ تستخدم بعض أنواع المعادن في كسوة أسقف وحوائط المباني بصورة متكاملة، ويتم اعتبار هذا الأسلوب المعماري من أحدث الأساليب التصميمية في القرن العشرين. إن الإجابة ببساطة تكمن في أن هذا القرآن الكريم هو كلام الله المنزل على رسوله الكريم ﷺ.

فاك نوح عليه السلام في تركيا وحقائقها الثمانية:

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجِرَ ① فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ⑩ فَفَنَحَا أَيْتَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ⑪ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدِ فُئِدَ ⑫ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَجٍ وُدُسِرٍ ⑬ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ⑭ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ⑮ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ⑯ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ⑰﴾ (القمر: ٩-١٧).

أغلب التفاسير فسرت الضمير في قوله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ على أنه يعود إلى السفينة، ومن التفاسير ما رأى أن الضمير عائد على القصة نفسها والعبرة منها، ومنها ما ذكر أن الضمير قد يعود على السفينة أو القصة أو جنس السفن؛ أي أبقى الله جنس السفن من بعد سفينة نوح تحمل الناس حتى يومنا.

اكتشاف السفينة:

لقد تم بالفعل اكتشاف بقايا سفينة نوح وطابعها - كما تنبأ القرآن الكريم - فوق جبل في بلاد الأكراد جنوب تركيا على بعد ٨ كم من حدود العراق، وذلك على يد بعثة علمية قادها عالما آثار أمريكيان هاويان هما: "رون وايات" و"ديفيد فاسولد" بعد عمل طويل منذ عام ١٩٧٨ م. ولقد تبين بالفعل أن لهذا الكشف ثمانية حقائق سنجدتها تتطابق كلها مع ما ذكره القرآن الكريم:

١- موقع السفينة:

ذكر القرآن الكريم الموقع الذي بقيت فيه سفينة نوح ثم أتت الكشوف الأثرية الحديثة لتثبت ما ذهب إليه القرآن. ففي عام ١٩٤٨م حدث زلزال في منطقة الجودي بجنوب تركيا جعل أرضاً مستوية كان يزرعها فلاح تركي ترتفع مُظهرَةً شكل سفينة أو طابع سفينة كبيرة.

ثم التقط طيار صورة للموقع عام ١٩٥٩م أظهرت أثر السفينة، ثم وجدت بالفعل بعثة علمية أمريكية برئاسة "رون وايات" طابع السفينة كاملاً فوق جبل الجودي.

المعلومات السابقة مصدرها فيلم وثائقي أمريكي بعنوان:

"The Discovery of Noah's ark"، أي "اكتشاف سفينة نوح" وقد

صدر عام ١٩٩٧م).

٢- حجم السفينة:

المصطلح المفضل في القرآن الكريم لسفينة نوح هو "الفلك"، إذ ذكر ثمان مرات، والفلك قياساً اصطلاحاً للسفينة الكبيرة، وهو ما تحقق في الكشف سالف الذكر إذ تبين أن طوله ٥٥٠ قدماً أي أكبر من أية سفينة خشبية عرفها الناس وهي السفينة الأمريكية "وايومنج" التي وصل طولها إلى ٣٣٠ قدماً فقط وهي من سفن القرن التاسع عشر.

٣- شكل السفينة:

أخطأت التوراة المحرفة في وصفها لشكل سفينة نوح؛ إذ نجد فيها الطول ستة أضعاف العرض! فهي إذاً مستطيلة جداً وهم يرسمونها كذلك، ولو واجهت هذه السفينة أمواجاً عاتية لانفلقت؛ لأن المقدمة مستوية، هذا ما يجزم به علماء هندسة السفن و"الديناميكا المائية". وهذا أيضاً ما ذكره الفيلم الوثائقي الأمريكي سالف الذكر.

وبما أن القرآن هو المهيمن والمصحح لسابقه زمنياً من الكتب، فقد صحح هذا الخطأ بلطف شديد، إذ عبر القرآن الكريم عن وعاء نوح ثمان مرات بالفلك، وفي مرة

واحدة ذكر "السفينة" قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَبْجَيْنَهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: ١٥)؛ وذلك لإظهار جزئية شكل ذلك البناء الذي يمخر المياه والذي صنعه نوح، وهو أنه شكل السفن الحالية التي لها مقدمة شبه مدببة تقشر وجه الماء، فالسفن هو القشر في المعاجم. ولم ترد كلمة سفينة في القرآن مرة أخرى إلا في قصة موسى والخضر في سورة الكهف ثلاث مرات.

إن العهد القديم والإنجيل يصفانها بالتابوت أي الصندوق المستطيل مثل تابوت العهد. وذلك مستحيل؛ لأن ذلك يجعلها تتكسر أمام الأمواج. وصدّق شكل أثر السفينة على ما ذهب إليه القرآن الكريم وأنها ليست على هيئة صندوق كما تقول التوراة الحالية.

٤ - أبعاد السفينة:

لا يُستبعد بعد ذلك أن تكون هناك أبعاد وتفاصيل بناء بسيطة لكنها معجزة في السفينة فقد قال تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ (المؤمنون: ٢٧). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ (هود: ٣٧). أي إن نوح نفذ فقط الأوامر الإلهية لصناعة السفينة. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣١٩/٤): ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ يَعْنِي: السَّفِينَةَ ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أَي: بِمَرَأَى مِنَّا، ﴿وَوَحِّينَا﴾ أَي: وَتَعْلِيمِنَا لَكَ مَاذَا تَصْنَعُهُ.

وفي الفيلم الوثائقي المذكور آنفاً تشاهد كيف وجدوا أبعاد بقايا السفينة في الجودي في تركيا تستخدم الثوابت الرياضية المعجزة مثل الباي والفاي. وهي الثوابت الرياضية التي بها توزّع حبيبات الزهور ودرجات ميل قرون الأيائل وأمواج البحار. فأتى لنوح بهذه العلوم في ذلك الوقت؟ إنها وحي الله ﷻ.

وذكر كذلك الفيلم الوثائقي سالف الذكر أن هذه السفينة كان لها في أسفلها تجويف يسمى "شق القمر" يعمل أولاً على التهوية - مع حركة الماء أسفل وأعلى - كما أنه يعمل على امتصاص قمم الأمواج الحادة فلا تتمد السفينة ميلاً حاداً فتغرق. وهو ما

لا نستبعده لأنه من جملة الشكل والأبعاد المعجزين كما ذكر القرآن الكريم لتواجه هذه السفينة التي تفتقد البناء المعدني والشرع والمحرك بل والربان البشري أمواجاً كالجبال.

٥- استواء السفينة:

حين ظهرت صور طابع السفينة في موقع الجودي كانت مائلة نوعاً ما، والقرآن دقيق في لفظه وقد قال إن السفينة استوت ولم يقل فقط استقرت، والاستواء لا ميل فيه، لكنني حين تسمع شهادة الفلاح الكردي "رشيد" الذي اكتشف السفينة عام ١٩٤٨م يزول اللبس، فقد قال إن هذه الأرض كانت "مستوية" وكانت تزرع، لكن زلزال ذلك العام رفع هذه الكتلة في هزته الثالثة!!.

٦- مراسي السفينة:

ذكر الفيلم الوثائقي سالف الذكر وعلى لسان الباحث الأمريكي "ديفيد فاسولد" أن بعض القرى المجاورة لموقع الجودي بها عدد كبير من الصخور المستطيلة المنحوتة نحتاً بشرياً وبكل منها فتحة علوية لإدخال الحبال وهي مماثلة - كما يرى - للمراسي المستخدمة في السفن القديمة، مثل المرسى الفرعوني الذي وجد على الساحل اللبناني والمحفوظ الآن في المتحف الوطني في بيروت، كما أنها منتشرة في سواحل البحر الأبيض المتوسط لسفن ما قبل ١٢٠٠ عام قبل الميلاد، مع الفارق أن مراسي سفينة نوح أضعاف وزنها، وهذه القرى تقع على ارتفاع ٦٠٠٠ مترًا من سطح البحر وعلى بعد أميال عديدة منه، فما الذي جاء بها إلى هذا المكان؟

رأى هذا الباحث الأمريكي أن هذه المراسي تعود إلى سفينة نوح التي يقع طابعها وبقاياها قريباً من تلك القرى التي بها المراسي، كما رأى أن هذا هو تحقيق ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (هود: ٤١).

٧- ألواح السفينة:

قال تعالى عن سفينة نوح عليه السلام: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ (القمر: ١٣)، وهو هنا يتفق بديهةً مع سابقه زمنًا من الكتب من أن المادة الأساسية لصنع السفينة هي الأشجار، لكن القرآن الكريم تفرد بذكر هيئة أخشاب هذه الأشجار وهي الألواح، إذ من الممكن أن تكون السفينة قد صنعت من تجميع جذوع الأشجار كما هو حادث في بعض السفن الخشبية التي عرفها الإنسان.

لكن القرآن الكريم حدد هنا وقال: ﴿ أَلْوَاحٍ ﴾ أي ألواح خشبية، وبالطبع لم تبق هذه الألواح الخشبية على حالها عبر آلاف السنين، فقد "تصخرت" أي بقى شكل نسيج الخشب مع إحلال جزيئات الرمال (silica) بأنسجة الخشب فيما يعرف جيولوجيًا بـ selicificatoin، فيتحول اللوح الخشبي إلى لوح خشبي متحجّر selicified، وهو ما وُجد فعلاً في الموقع، والطبيعة لا نجد فيها لوحًا خشبيًا متحجّرًا بل لا بد أن يكون هذا اللوح من صنع الإنسان قبل أن يتصخر.

٨- دُسر السفينة:

من أهم ما اكتُشف في موقع السفينة بالجودي وذكره الفيلم الوثائقي سالف الذكر "المسامير" المعدنية، وقد وجدت كبيرة الحجم وعلى هيئة المسمار "البرشام" وبالطبع طراً عليها تغيرات مع الزمن مع تداخل مادة "السيليكا" من محيط السفينة الرملي.

وجدت ذلك بعثة الباحث الأمريكي "رون وايات" في أواخر سبعينات القرن العشرين حين استخدم لأول مرة "كاشف معادن" أشبه بكاشف الألغام في الموقع، ووجدوا دليلاً على ترسبات معدنية داخل الجدران ثم عاود الكرة عام ١٩٨٤م وأخذ عينة من تلك الترسبات وحللها في معامل مختصة فتبين أنها خليط معدني من صنع الإنسان ألا يذكرنا ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾؟ والفسار هو المسمار؟

وهذه الجزئية لم يذكرها أي كتاب سوى القرآن الكريم، مع أن قصة نوح كما أسلفنا تذكر ليس فقط في التوراة والكثير من مخطوطات أهل الكتاب، بل والكثير من أدبيات الشعوب القديمة.

ثم استخدم بعد ذلك باحث أمريكي وهو "ديفيد فاسولد" جهازًا آخر للكشف عن المعادن فجمع به النقاط التي بها معادن في موضع السفينة فأعطت شكلاً منتظماً لهذه المعادن أي أنها تربط بين ألواح منتظمة على هيئة مربعات (شبكة) داخل إطار شكل لسفينة!!

ولا خوف أن يقال إن الإنسان لم يكن يعرف المعادن في ذلك العهد؛ فقد اكتُشف أخيراً أن الإنسان اكتشف بل وصهر خامات المعادن منذ مائة ألف عام على الأقل.

وليست هذه الحقائق الثمانية هي كل حقائق هذا الكشف المعجز ولكنها أوضحها وأهمها، فقد وجدت كذلك البعثات المتكررة للباحثين الأمريكيين خلال ثلاثين عاماً فضلات الحيوانات التي صارت حفريات، كما وجدت عدة "ثقافات".

تساؤل:

كيف لبناء بسيط من الألواح الخشبية والدُّسُر المعدنية، بلا محرك ولا شراع، بلا قائد لأن مهمة نوح انتهت ببناء السفينة بوحي الله ﷻ وحمله فيها الناجين. أما السفينة فقد كانت تجرى بأعين الله تعاني أهوال زخات الماء وكأنها تمر تحت شلال من الشلالات الرهيبة.

ثم لا بد أنهم عانوا بعد ذلك من البرد الشديد نتيجة احتجاب أشعة الشمس، وكذلك ضوءها نتيجة السحب الكثيفة، فركاب تلك السفينة لم يروا لفترة طويلة ضوء الشمس ولم يعرفوا ليلاً ونهاراً. تسير بهم أو بالأحرى تجري في موج كالجبال. فتميل وترتفع وتهبط ولا تغرق. إنها لأهوال وكأنها من أهوال القيامة. نقول كيف لتلك السفينة البسيطة أن تتحمل كل ما ذكرناه آنفاً؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ أَرَكُبُوا فِيهَا إِسْمَ اللَّهِ جَرِدْنَهَا وَأَمْرُسْنَهَا إِنَّ رَبِّي لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (هود: ٤١).

الحجارة التي بُنيت منها الأهرامات:

يقدّر عدد الحجارة التي تم منها بناء هذا الهرم بعدة ملايين، وكل حجر يبلغ وزنه عدة أطنان، وقد بلغ ارتفاع هذا الهرم أكثر من ١٤٠ مترًا، ولقد حيرت الأهرامات كثيرًا من الباحثين طيلة قرون، إذ كيف تمكّن بشرٌ من حمل حجارة تزن آلاف الكيلو جرامات ونقلها لارتفاع أكثر من ١٤٠ مترًا؟

وبعد بحثٍ طويلة أجراه أحد العلماء الفرنسيين اقترح أن هذه الحجارة قد صُبّت من الطين في قوالب خشبية، وبعد سنوات قام أحد العلماء الأمريكيين بالتأكد من صدق هذه الفرضية باستخدام المجهر الإلكتروني وتحليل نماذج من حجارة الأهرامات. لقد استخدم الفراعنة تقنية الطين المسخن لصب هذه الحجارة، وبقيت هذه التقنية سرًا حتى كشفها القرآن الكريم، لتكون هذه الآية معجزة تشهد على صدق النبي محمد ﷺ.

إن النتيجة التي خرج بها العلماء هي أن تقنية صب الحجارة من طين كانت سائدة زمن الفراعنة، واستخدموها خلال آلاف السنوات في بناء الأهرامات والأبراج والصروح. وهذه التقنية كشفها القرآن من خلال آية جاءت على لسان فرعون يطلب من وزيره هامان أن يوقد له النار على الطين ليصنع صرحًا (بناء مرتفعًا): ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَنْهَمْنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنْ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص: ٣٨).

وهذه الآية لا تدل بالضرورة على أن فرعون موسى هو الذي بنى الأهرامات، بل تشير الآية إلى الآلية الهندسية التي كانت معروفة في ذلك الزمن وهي مزج الحجارة الكلسية بالماء (لتشكل الطين) وتسخينها لدرجة حرارة محددة، ومن ثم وضعها في قوالب خشبية وصب الحجارة المطلوبة في أماكنها، وليس حملها ورفعها.

فالقدماء استخدموا الطين (مزيج من التربة المتوافرة في منطقة بناء الهرم مع الماء وإضافة بعض المواد الأخرى لتثبيت وربط جزيئات التراب بقوة) وصب هذا "الإسمنت الطيني" في قوالب خشبية. مع استخدام الحرارة، وذلك للحصول على

حجارة قوية جدًا تقاوم عوامل الزمن وتصمد أمام تغير المناخ لآلاف السنين وتبدو للناظر وكأنها حجارة حقيقية.

وهذا ما تحدث عنه القرآن بدقة تامة، في قوله تعالى على لسان فرعون عندما قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَمُنُّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص: ٣٨).

هذا النص القرآني يؤكد أن فرعون استخدم هندسة البناء من طين والتي يسميها العلماء اليوم Geopolymer Concrete وعلى الرغم من وجود عدد من الفراعنة ووجود عدد كبير من الأبنية والأهرامات في مصر القديمة، إلا أن القرآن أشار إشارة لطيفة لاستخدام هذه التقنية في بناء الصروح، والصرح حسب معاجم اللغة العربية هو كل بناء مرتفع.

وبالفعل أي بناء مرتفع لا يمكن بناؤه إلا باستخدام هذه التقنية، لأنها أسهل أسلوب في ذلك الزمن، حيث يقوم المهندسون وقتها بتأمين الخلطات الترابية ونقلها بواسطة أعداد كبيرة من العمال ولكن يتم نقل الطين بكميات صغيرة يسهل حملها ورفعها لارتفاعات عالية وصبها ضمن قوالب. بشكل يشبه ما نستخدمه اليوم في الخرسانة الحديثة.

وأخيرًا فإن القرآن بذلك يكون أول كتاب يتحدث عن هندسة بناء الأبنية العالية باستخدام الطين والحرارة، سواء في زمن فرعون أو قبله أو بعده، ولكن الإشارة في القرآن دائمًا تأتي في سياق قصة من أجل أخذ العبرة والموعظة. وأنتك أيها الإنسان مهما بلغت من القوة والعلم والهندسة. فإن الله أقوى منك وقادر على إهلاكك بلمح البصر. فهل نتواضع أمام عظمة الخالق ﷻ؟

والسؤال الذي يطرح نفسه: من أين لمحمد ﷺ وهو الذي لم ير الأهرامات ولم يفحصها أو يحلل حجارتهما، من أين له بهذه المعلومة الدقيقة التي ورد ذكرها في القرآن؟ الجواب: الله تعالى هو الذي علمه، وأيدّه بهذه المعجزة لتكون دليلًا على صدق رسالته في عصرنا هذا!

فَمَحُونًا آيَةَ اللَّيْلِ:

أعدت شركة أمريكية فيلماً سينمائياً عن الجهود الأمريكية لغزو القمر - وعنوان هذا الفيلم "خطوة عملاقة لاكتشاف جيولوجيا القمر" ومن أول الفيلم إلى آخره يعرض كيف تمكن العلماء الأمريكيان من أن يكتشفوا أن القمر كان مشتعلاً من قبل، وأنه كان كتلة مشتعلة ثم بردت، وكيف دللوا على ذلك بأن أرسلوا أجهزة إلى القمر لقياس الموجات وأحدثوا موجات صوتية وتحركت الموجات في باطن القمر، وأن قلبه مازال مشتعلاً حتى الآن وأخذوا عينات الصخور من باطنه ومن المرتفعات ومن الجبال والوديان التي بالقمر، وحللوا ودرسوا فوصلوا إلى نتيجة أن القمر كان يوماً ما مشتعلاً وأنه انطفأ.

وأحسن عنوان لهذا قول الله هو تفسير قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحُونًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَّهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء: ١٢).

تفسير الآية:

وجعلنا الليل والنهار علامتين دالتين على وحدانيتنا وقدرتنا، فَمَحُونًا علامة الليل - وهي القمر- وجعلنا علامة النهار - وهي الشمس - مضيئة؛ ليبصر الإنسان في ضوء النهار كيف يتصرف في شؤون معاشه، ويخلد في الليل إلى السكن والراحة، وليعلم الناس - من تعاقب الليل والنهار- عدد السنين وحساب الأشهر والأيام، فيرتبون عليها ما يشاؤون من مصالحهم. وكل شيء بيناه تبييناً كافياً.

فذرروه في سنبله:

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمُ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَصْغَتْ أَحْلُمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلُمِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ

لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿٤٩﴾ (يوسف ٤٣ - ٤٩).

معنى الآيات:

وقال الملك: «إني رأيت في منامي سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع بقرات نحيلات من الهزال، ورأيت سبع سنبلات خضر، وسبع سنبلات يابسات، يا أيها السادة والكبراء أخبروني عن هذه الرؤيا، إن كنتم للرؤيا تُفسِّرون». قالوا: «رؤياك هذه أخلاط أحلام لا تأويل لها، وما نحن بتفسير الأحلام بعالمين».

وقال الذي نجا من القتل من صاحبي يوسف في السجن وتذكر بعد مدة ما نسي من أمر يوسف: «أنا أخبركم بتأويل هذه الرؤيا، فابعثوني إلى يوسف لآتيكم بتفسيرها». وعندما وصل الرجل إلى يوسف قال له: «يوسف، أيها الصديق، فسّر لنا رؤيا من رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات هزيلات، ورأى سبع سنبلات خضر وأخر يابسات؛ لعلني أرجع إلى الملك وأصحابه فأخبرهم؛ ليعلموا تأويل ما سألتك عنه، وليعلموا مكانتك وفضلك».

قال يوسف لسائله عن رؤيا الملك: «تفسير هذه الرؤيا أنكم تزرعون سبع سنين متتابعة جادّين ليكثر العطاء، فما حصدتم منه في كل مرة فادّخروه، واتركوه في سنبله؛ ليتّم حفظه من التّسوس، وليكون أبقى، إلا قليلا مما تأكلونه من الحبوب. ثم يأتي من بعد هذه السنين المجذبة عامٌ يُغاثُ فيه الناس بالمطر، فيرفع الله تعالى عنهم الشدة، ويعصرون فيه الثمار من كثرة الخصب والنماء».

الحقيقة العلمية:

يعد مفهوم تخزين البذور في السنابل نظامًا أساسيًا للحفاظ على الإنتاج في ظروف بيئية قاسية. وهذا ما يجمع بين الزراعة وتقنيات التخزين والحفاظ على المنتج. وقد أجري الدكتور عبد المجيد بلعابد وزملاؤه بجامعة الرباط بالمغرب بحثًا تجريبيًا حول بذور قمح تُركت في سنابلها لمدة تصل إلى سنتين مقارنةً مع بذور مجردة من

سنابلها، وأظهرت النتائج الأولية أن السنابل لم يطرأ عليها أي تغيير صحي وبقيت حالتها ١٠٠٪.

مع العلم أن مكان التخزين كان عادياً ولم يراعَ فيه أي شروط للحرارة أو الرطوبة أو غير ذلك. وفي هذا الإطار تبين أن البذور التي تُركت في سنابلها فقدت كمية مهمة من الماء وأصبحت جافة مع مرور الوقت بالمقارنة مع البذور المعزولة من سنابلها، وهذا يعني أن نسبة من وزن القمح المجرد من سنبله مكون من الماء مما يؤثر سلباً على مقدرة هذه البذور من ناحية زرعها ونموها ومن ناحية قدرتها الغذائية لأن وجود الماء يسهل من تعفنه وترديه صحياً.

ثم قام الباحثون بمقارنة مميزات النمو (طول الجذور وطول الجذوع) بين بذور بقيت في سنبلها وأخرى مجردة منها لمدة تصل إلى سنتين فتبين أن البذور في السنابل هي أحسن نمواً بنسبة ٢٠٪ بالنسبة لطول الجذور و ٣٢٪ بالنسبة لطول الجذوع.

ثم قام الباحثون بتقدير البروتينات والسكريات العامة التي تبقى بدون تغيير أو نقصان ففي البذور التي عُزلت من السنابل انخفضت كميتها بنسبة ٣٢٪ من البروتينات بعد سنتين وبنسبة ٢٠٪ بعد سنة واحدة. بينما لم تتغير هذه المركبات في البذور المحفوظة في سنابلها.

وجه الإعجاز:

قال تعالى: ﴿فَأَحْصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ إفادة أن التخزين بإبقاء الحبوب في سنابلها هو أحسن التقنيات والأساليب للحفاظ على الحبوب المحفوظة داخل السنابل من غير أن ينال منها الزمن.

هناك ملحوظتان علميتان في هذه الآية الكريمة:

1- تحديد مدة صلاحية حبة الزرع في خمس عشرة سنة هي حصيلة سبع سنوات يزرع الناس ويحصدون خلالها دأباً وتتابعاً وهي سنوات الخصب والعتاء، يليها سبع سنوات شداد عجاف هي سنوات الجفاف يليها سنة واحدة هي السنة الخامسة عشرة وفيها يغاث الناس وفيها يعصرون من الفواكه، وقد أفاد البحث العلمي

أن مدة ١٥ سنة هي المدة القصوى لاستمرار الحبوب محافظة على طاقة النمو والتطور فيها.

٢- طريقة التخزين وهو قوله تعالى: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ وهي الطريقة العلمية التي أجريت في البحث التجريبي. وبه يتبين أن أحسن وأفضل تخزين للبذور هي الطريقة التي أشار بها نبي الله يوسف عليه السلام وهي من وحي الله له.

ومن المعلوم أن هذه الطريقة لم تكن مُتَّبَعَةً في القدم وخاصة عند المصريين القدامى الذين كانوا يخزنون الحبوب على شكل بذور معزولة عن سنابلها، وهذا يعتبر وجهاً من وجوه الإعجاز العلمي في تخزين البذور والحبوب في السنابل حتى لا يطرأ عليها أي تغير أو فساد. وذكر القرآن لهذه الظاهرة يؤكد عظمتها ودقة ما فيه من علم، وأنه وحي من الله.

الإعجاز العلمي في التخطيط الاستراتيجي واعداد الموازنات:

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (٤٣) قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْمِلُونِ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿٤٩﴾.

عرف الفكر الإسلامي الموازنة التخطيطية وقدر الاحتياجات وال إيرادات اللازمة لتغطيتها كما ورد في قصة يوسف عليه السلام والتي حكاها القرآن الكريم. وقد أرسى يوسف عليه السلام ملك مصر موازنة تخطيطية توافرت لها الأصول العلمية والعملية وأزن فيها الانتاج الزراعي (الإيرادات) والنفقات الاستهلاكية بهدف مواجهة المخاطر

المحتملة من المجاعة المتوقعة. وقد وضع يوسف عليه السلام نظامًا استمر تطبيقه خمسة عشر عامًا، وفي الآيات المباركات نجد مشروعًا له ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: تستمر سبع سنوات حدد يوسف عليه السلام معالمها كالآتي:

- خطة الإنتاج: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ (الزراعة).
- مدة الإنتاج: ﴿سَبْعَ سِنِينَ﴾.
- مستوى الإنتاج: ﴿دَابًّا﴾ عملاً دائماً متواصلًا.
- زيادة المدخرات: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾.
- تقييد الاستهلاك: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾.

المرحلة الثانية: تستمر سبع سنوات حدد أهم معالمها كالآتي:

- تقييد وتنظيم الاستهلاك: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾.

- الاستعداد لإعادة الاستثمار: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي هذه هي البذور التي ينبغي أن تحافظوا عليها.

المرحلة الثالثة: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصُرُونَ﴾، أي

بيذرون ما احتفظوا به في سنبله من قبل سبع سنين، فإذا ما ارتفع النبات وغطى الأرض وزكا الثمر جمعه وعصروا زيوتهم وفاكهتهم.

ومن هذا نستشف أن خطة يوسف عليه السلام كانت تستهدف المجتمع بأسره

﴿تَزْرَعُونَ﴾ وإرادته الحكيمة متوجهة لإيجاد صفات في ذلك المجتمع تمكن من تحقيق الهدف المرسوم واجتثاث أي عائق في سبيل التنمية ومن ذلك:

١- زيادة ساعات العمل وزيادة استثمار الطاقة الإنتاجية للأمة خلال المرحلة

الأولى بأكملها، يتبين ذلك من خلال قوله: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾ والدأب في اللغة

يعني العادة والاستمرار. وهذا يستدعي محاربة البطالة بجميع أنواعها ولاسيما البطالة المقنعة التي تُظهر المجتمع بغير صورته الحقيقية ظاهره الرحمة وباطنه العذاب.

٢- تنمية الوعي الادخاري كما يُبينه قوله: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾.

لقد اكتملت للموازنة التي أرسى يوسف عليه السلام أسسها وقواعدها أركان الموازنة التخطيطية وتفصيل ذلك إن مفهوم الموازنة التخطيطية إنما يقوم على فكرة التوازن والموازنة، وقد قام يوسف عليه السلام بالموازنة بين الإنتاج الزراعي والاستهلاك في ضوء الظروف المتاحة وذلك بغرض تخطي الجذب والقحط.

إن موازنة يوسف عليه السلام قد توافر لها مبدأ المشاركة، باشتراك المستويات الإدارية في المسئولية مسئولية مباشرة عن تحقيق الخطة في مراحل إعدادها وتنفيذها. ولقد استنبط ذلك من مخاطبته لرسول الملك بقوله: ﴿تَزْرَعُونَ﴾، ﴿حَصَدْتُمْ﴾، ﴿فَذَرُوهُ﴾، ﴿تُحْصِنُونَ﴾، إذ الخطاب هنا بصيغة الجمع، أي للناس المخاطبين جميعاً وليس بصيغة المفرد. أي لجميع الناس والمسئولين وهذه إشارة إلى ضرورة اشتراك كافة المستويات الإدارية - عليا ووسطى وتنفيذية - في إعداد الموازنة التخطيطية.

إن موازنة يوسف عليه السلام قد توافر لها مبدأ توفير الحوافز، ومبدأ الواقعية في الأهداف، وتناسبها مع الإمكانيات، ذلك أنه وقد وضح للناس أن سنوات كساد سبع ستعقب الرخاء، حمل إليهم البشري تطمئنهم وتحفزهم، وهي أن هذه الأزمة إلى انقطاع، إذ سيأتي على الناس عام فيه يغاثون ويرزقون وفيه يعصرون، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصَرُونَ﴾.

فوائد العسل:

لقد حظي النحل والعسل بحظ وافر من اهتمام العلماء والمتخصصين، فلم تقتصر الدراسة على أنواع العسل وما يحمله من مواد نافعة لكثير من الأمراض والعاهات؛ بل تعدى ذلك إلى دراسة الكائن الذي يولد هذه المادة وهي النحل، ولم تكن هذه الدراسات وليدة اليوم أو أمس بل كان الاهتمام بها منذ قديم الزمن.

ولقد أثبتت البحوث الطبيّة والعلمية الآثار الفعّالة للعسل في علاج وشفاء الأمراض الكثيرة. وقد وردت في القرآن الكريم الإشارة إلى فائدة هذا السائل العجيب، في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِّي مِن كُلِّ النَّمْرَتِ فَاسْأَلِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٦٨ - ٦٩). وصرح عن النبي ﷺ أنه أوصى بتناول العسل، وقد أورد الأطباء بحوثاً متعددة عن الاستشفاء بالعسل.

لقد بيّن القرآن الكريم سيرة النحل في كلمات معدودات، فقد اتخذ النحل بوحى من الله تعالى بيوتاً من الجبال ثم انحدر منها إلى الأشجار، ثم إلى الخلايا التي يصنعها على نحو ما نعرفه اليوم، وتدل الدراسات العلمية المستفيضة لمملكة النحل أن إلهام الله تعالى لها يجعلها تطير بحثاً عن الغذاء فتبتعد عن خليتها آلاف الأمتار، ثم ترجع إليها ثانية دون أن تخطئها بالذهاب إلى خلية ثانية غيرها، علماً بأن الخلايا في المناحل تكون متشابهة ومرصوص بعضها إلى جوار بعض، وذلك لأن الله تعالى قد ذلل لها الطريق ومنحها من قدرات التكيف الوظيفي والسلوكي ما يعينها على الاستبصار في رحلات استكشاف الغذاء وجنيّه ثم العودة.

الحقائق العلمية:

تضم الخلية التي هي بمثابة مستعمرة يعيش فيها النحل، ملكة واحدة، وبضع مئات من الذكور، وعشرات الألوّف من الشغالات، وتطير النحلة الشغالة بحثاً عن الغذاء، فإذا وجدته عينت مكانه وأخذت معها عينة للخلية، وتقوم بنقل المعلومات لبقية الفريق عن طريق حركات معينة تحدد بها بعد مصدر الغذاء واتجاهه، فيسعى

النحل إليه مباشرة ويجمع ما يكفيه، ولكي تجمع النحل مائة جرام من العسل لا بد من زيارة نحو مليون زهرة.

ثم يقوم فريق آخر من الشغالات بالتهوية بأجنحتها لتطير الرطوبة ويتركز السائل فيصير عسلاً، وبعد ذلك يقوم فريق آخر من النحل بالتأكد من أن العسل قد نضج، فيغلق العيون السداسية بطبقة رقيقة من الشمع لتحتفظ به نظيفاً حتى تحتاج إليه في الشتاء عندما تخلو الحقول من الأزهار.

وقد ثبت أن اختلاف تركيب التربة والمراعي التي يسلكها النحل يؤثر تأثيراً كبيراً في لون العسل، فالعسل الناتج من رحيق أزهار القطن مثلاً يكون قائماً، بخلاف عسل أزهار البرسيم الذي يكون فاتح اللون، وعسل شجر التفاح ذي اللون الأصفر الباهت، وعسل التوت الأسود ذي اللون الأبيض كالماء، وعسل أزهار النعناع العطري ذي اللون العنبري، وغير ذلك.

وفي رحلة الاستكشاف لجمع الغذاء تستعين الشغالة بحواسها التي منحها الله إياها بحاسة شم قوية عن طريق قرني الاستشعار، وهي تمتاز على العين البشرية في إحساسها بالأشعة فوق البنفسجية، لذلك فهي ترى ما لا تراه عيوننا ولا يمكننا الكشف عنه إلا بتصويره بالأشعة فوق البنفسجية، ثم إذا حطت على زهرة يانعة استطاعت أن تتذوق رحيقها وتحدد بنفطتها مقدار حلاوته.

وفي رحلة العودة تهتدي النحلة إلى مسكنها بحاستي النظر والشم معاً، أما حاسة الشم فتتعرف على الرائحة الخاصة المميزة للخلية، وأما حاسة الإبصار فتساعد على تذكر معالم رحلة الاستكشاف، إذ يلاحظ أن النحلة عندما تغادر البيت تستدير إليه وتقف أو تحلق أمامه فترة وكأنها تتفحصه وتتمعنه حتى ينطبع في ذاكرتها، ثم بعد ذلك تطير من حوله في دوائر تأخذ في الاتساع شيئاً فشيئاً، وعندما تعود إلى البيت تخبر عشيرتها بتفاصيل رحلتها، وتدل زميلاتهما على مكان الغذاء فينطلقن تبعاً لجني الرحيق من الزهور والإكثار منه لادخاره لوقت الشتاء برده القارص وغذائه الشحيح.

ولعل أغرب ما اكتشفه العلم الحديث في عالم الحشرات هو أن للنحل لغة خاصة يتفاهم بها عن طريق الرقص شرحها عالم ألهاى ضمن كتابه المسمى " حياة النحل الراقص " بعد دراسات استمرت نحوًا من عام، فنال جائزة نوبل عام ١٩٧٣ م.

فقد تبين لهذا العالم أن للنحلة الشغالة في جسمها من الأجهزة ما يجعلها تستطيع قياس المسافات والأبعاد والزوايا بين قرص الشمس والخلية، ثم إنها تستخدم لغةً سرية في التخاطب عن طريق رقصات خاصة معبرة تُنبئ بها أخواتها عن وجود الرحيق الحلو وتحدد لهن موضعه تحديداً دقيقاً من حيث زاوية الاتجاه إليه وبعده عن بيتها.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ ﴾، الوحي: الإلهام والهداية، وبالفعل تجد أن سلوك النحل واختياره لمواقع سكنه واهتدائه لأماكن الغذاء وصناعته للعسل يتم بناء على إلهام وهداية من الله تبارك وتعالى، فنجد أن الشغالات تكون خادمة منظفة للمسكن في همة ونشاط، مربية تطعم الصغار وتسهر على راحتهم، مهندسة بارعة في البناء والتصميم، تفوق أمهر المهندسين وتتفوق على أجهزة العصر في دقة القياسات، حارسة أمينة تضحي بنفسها دون تردد أو فتور ضد أي عدو يهدد أمن العشيرة.

وقد يستأنس بعض الباحثين بوجود ياء الخطاب ﴿ أَتَّخِذِي ﴾، ﴿ كُلِّي ﴾، ﴿ فَاسْأَلِي ﴾ فيستدل بذلك على ما أثبتته العلم الحديث من أن العمل إنما يقوم به إناث النحل (الشغالات) وهو استئناس متحفَّظٌ عليه لغةً فالياء ليست ياء الأنثى، وإنما هي ياء خطاب الجنس الذي يشمل خطاب الذكور والإناث والمذكر والمؤنث، مع التسليم للحقيقة العلمية المتمثلة في أن من يقوم بالعمل بالفعل هن الشغالات الإناث، أما الذكور فإن عملها يقتصر على التسابق لتلقيح الملكة فقط في موسم التزاوج، ومهمة الملكة وضع البيض، أما الشغالة فهي أنثى عقيمة، وأجزاء فمها مهيأة لجمع الرحيق وأرجلها الخلفية معدة لجمع حبوب اللقاح، وهي مزودة بالغدد تحت البلعوم لإفراز الغذاء الملكي مع غدد إفراز الشمع وغدة الرائحة، والشغالات الكشافة هي التي تخرج للبحث عن مصادر الغذاء، ثم تعود لتخبر رفاقها بالمعلومات اللازمة عن هذا الغذاء.

ما هو العسل؟

العسل تخرجه النحلة من فمها، حيث تفرز النحلة يوميًا ما يقرب من عشرة جرامات عسل، ويحتاج صنع كيلوجرام واحد من العسل إلى حوالي ٣٠٠ نحلة تقوم بـ ٤٠ رحلة طيران، ويحتوي عسل النحل على خمس وزن تقريبًا ماء كما يحتوي على البروتين وحوالي أربعة أخماسه كربوهيدرات، كما يحتوي على مقادير من فيتامين "ب" المركب وفيتامين "ج" ومقادير من الصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والمغنيسيوم والمنجنيز والحديد والنحاس والفسفور والكبريت.

بعد أن تمتص النحلة الرحيق من الزهرة تخرج لسانها أثناء عودتها لكي تعرضه لأشعة الشمس للمساعدة على تبخر الماء منه وتركيزه، وعندما تصل النحلة إلى الخلية تبدأ عملية تركيب العسل، فتفرز عليه خمائر من لعابها تحوله من سكر القصب المسمى "سكروز" إلى سكر الفواكه المسمى "ليفيلوز" وإلى "دكستروز"، وهكذا توفر النحلة على الإنسان عملية هضم هذه المواد السكرية، حيث إنها تكون مهضومة مسبقًا في العسل، وقد لا تكون لذلك أهمية كبيرة للأصحاء الذين يستطيعون هضم السكر بسهولة، ولكنه في منتهى الأهمية للمرضى والضعفاء والناهين، إذ أنه أسهل هضمًا وأسرع امتصاصًا في الجسم كما أن النحلة تقوم بعملية أخرى أكثر أهمية وهي تثبيت الفيتامينات في العسل ومنعها من التحلل.

ومما تجدر الإشارة إليه أن العسل لا يمكث في المعدة طويلاً إذ أنه سريع الهضم كما يمتص بسرعة داخل الجهاز اللمفاوي ليصل إلى الدم.

فوائد العسل للجسم البشري:

إن كافة الأبحاث الحديثة تجريبية كانت أو علاجية أجمعت على اعتبار عسل النحل من أهم الأغذية فاعليةً في علاج الأنواع المختلفة من الأمراض، وأن فيه شفاء للناس كما ذكر كتاب الله الكريم.

ويعتبر العسل من المضادات الحيوية القاتلة للبكتيريا والجراثيم، فقد أظهرت العديد من الدراسات المخبرية أن العسل غير المسخن يتميز بفعل مضاد للجراثيم، وقد ثبت أن للعسل أثراً مبيداً للعديد من البكتريا السالبة والموجبة لصبغة جرام.

وقد تمت دراسة تأثير عشرة أنواع من أنواع العسل المحلي في الباكستان على خمسة وعشرين نوعاً من أنواع البكتريا المرضية وغير المرضية. وكانت نتائج الدراسة هي أن العسل يثبط نمو البكتريا بشكل واسع، ويوقف نمو الفطريات التي تمت دراستها.

ويحتوي العسل على عنصر الزنك الذي يلعب دوراً مهماً في تنشيط الخلايا المناعية، وللعسل دور فعّال في تنظيم ضغط الدم وزيادة نسبة الهيموجلوبين في الدم؛ ولذا يُستخدَم في علاج اضطرابات الجهاز الهضمي حيث يعمل العسل على إلغاء الحموضة الزائدة في المعدة والتي تؤدي غالباً إلى القرحة وقد استعمل كثير من الأطباء العسل في علاج قرحة المعدة والاثني عشر.

وقد أكدت الدراسات المخبرية والسريية أن العسل فعّال تجاه عدد واسع من الجراثيم، وليس له أي تأثيرات جانبية ضارة على أنسجة الجرح. وإضافةً إلى هذا فإنه يؤمّن تنظيفاً ذاتياً سريعاً للجرح، ويزيل الرائحة منه، ويحفز نمو الأنسجة التي تُلثم الجروح.

وإن خصائص العسل المضادة للالتهاب تخفف آلام الجروح بسرعة، كما تخفف من الوذمة المحيطة بالجرح، ومن خروج السوائل من الجرح، وتقلل من ظهور الندبات بعد شفاء الجروح.

وينصح الأطباء بإعطاء الطفل ملعقة عسل نحل يومياً ابتداءً من الشهر الرابع لميلاده، وذلك بخلطه باللبن (الحليب) وذلك لمقاومة احتمال نقص الحديد والكالسيوم في لبن الأم.

ويستعمل الأطباء الروس والصينيون مرهماً مركباً من العسل وزيت كبد الحوت بنسبة (١/٤) ويضاف إليه بعض المواد المطهرة، ولهذا المرهم آثار سريعة في

تخفيف آلام الجروح والثآمها، وفي منع التقيح، وهو مفيد جداً في الحروق ويجول دون ظهور الفقاقيع.

والعسل علاج للأرق ومهدئ للأعصاب؛ وذلك لأنه يحتوي على بعض العناصر المهدئة والمقوية بنسبة مقبولة مثل أملاح البوتاسيوم والصوديوم، وإذا أخذت ملعقة كبيرة من العسل قبل النوم فسوف تنام نومًا هادئًا لا يعتره القلق.

ويستخدم العسل في مستحضرات تجميل البشرة حيث يوجد الكثير من المراهم والكريمات لعلاج البشرة؛ يدخل العسل كعنصر أساسي في تركيبها.

وجه الإعجاز:

مما سبق بيانه علمياً من كون العسل فيه شفاءً وأنه متنوع وأن تنوعه متلازم مع أصناف الزهور التي يتناولها أو كل ذلك يتطابق مع ما سبق من دلالة النص القرآني، وبملاحظة جهل الناس في عصر التنزيل بتلك الحقائق فإن ذلك يُبرز وجهًا آخر من وجوه الإعجاز.

تنبیه:

إن كثيرًا من الأمم القديمة كالفراعنة واليونانيين والرومان كانوا يستعملون العسل في علاجاتهم، كما أن ذكر العسل قد ورد في الكتب السماوية السابقة، وإن إعجاز آية النحل لا يكمن في ذكر أن العسل شفاء للناس فحسب، ولكن الإعجاز كله يكمن في ثلاثة أمور:

الأول: أن الله تعالى لم يذكر العسل صراحة في الآية فقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ ولم يقل: (يخرج عسل) وترك الله تعالى للإنسان أن يدرس ماذا يخرج من النحل من عسل، وغذاء ملكي، وشمع، وسمّ نحل، يدرس الإنسان خصائص هذه المواد ويعلم تركيبها، وهذه هي مرحلة التعرف.

الثاني: أن في هذا الذي يخرج من النحل شفاء: ففي العسل شفاء، وفي غذاء الملكة شفاء، وفي الشمع شفاء، حتى في سم النحل ذاته شفاء. وكيف يتأكد الإنسان أن

في هذه المواد شفاء دون أن يبحث فيها ويتدبر، ويُجري الدراسات والأبحاث، ليتعرف على الخصائص العلاجية الشافية لهذه المواد. أفي هذه المواد ما يقتل الجراثيم الفتاكة، أم بها مُقوٌّ للمناعة، أم أنها تشفي العيون والجلد والأسنان، أم سوى ذلك؟ وهذه مرحلة البحث العلمي في المختبرات.

الثالث: قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، فلم يقل المولى - جل في علاه - شفاء لكل الناس، بل ترك الأمر مطلقاً لبحث العلماء عن الأمراض التي جعل الله في هذه المواد لها شفاء.

وفي هذا حثٌّ للإنسان أن يقوم بإجراء الدراسات لمعرفة الناس الذين تشفي أمراضهم هذه المواد. في كلمات ثلاث ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، معجزات ومعجزات: لفت فيها النظر إلى ما يخرج من بطون النحل. ثم قال: إن في هذا وذاك شفاء. وترك الأمر لنا لنعرف من يشفي بهذا ومن يشفي بذاك.

في كلمات ثلاث أرسى الله ﷻ قواعد البحث العلمي في الطب وعلم الأدوية. فحين يعتقد العلماء أن في نبات ما مادة دوائية، يدرسون تركيبها وخصائصها أولاً، ثم يجرون أبحاثاً في المختبرات، في الأنابيب وعلى حيوانات التجربة، ليتعرفوا على الخصائص الشافية فيها، وهذه هي المرحلة الثانية. ثم ينتقل البحث إلى الإنسان فتجربى الدراسات على أولئك المرضى الذين يمكن أن تكون لهم شفاء. ألم يختم الله تعالى آية النحل بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؟

الحبة السوداء وأسرارها العجيبة:

عَنْ ابْنِ شَهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، أَخْبَرَهُمَا: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «فِي الْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ، إِلَّا السَّامَ» قَالَ ابْنُ شَهَابٍ: «وَالسَّامُ الْمَوْتُ، وَالْحَبَّةُ السَّوْدَاءُ: الشُّونِيزُ». (رواه البخاري ومسلم). وفي رواية لمسلم: «مَا مِنْ دَاءٍ، إِلَّا فِي الْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ مِنْهُ شِفَاءٌ، إِلَّا السَّامَ».

والحبة السوداء هي حبة البركة، وقد اكتشف العلم الحديث تأثيرها العظيم على جهاز المناعة في الإنسان، فقد أظهرت الدراسات المخبرية أن الحبة السوداء تقوي جهاز المناعة، وبالتالي تزيد من قدرة الجسم على مقاومة الجراثيم والفيروسات التي تفتك به، كما تزيد من قدرة الجسم على مقاومة السرطان حيث تزيد نسبة الخلايا اللمفاوية التائية المساعدة وتحدث تحسناً في نشاط الخلايا القاتلة للأمراض.

الدراسات على الحبة السوداء:

أكثر من ١٥٠ بحثاً، تم نشره مؤخراً في الدوريات العلمية المختلفة عن فوائد استخدام حبة البركة، والتي تؤكد على الفوائد العديدة التي ذكرها القدماء عن هذا النبات. ويأتي معظم هذه الأبحاث من أوروبا وتحديداً النمسا وألمانيا، والتي تأتي في مقدمة الدول الداعية لإحياء طب الأعشاب كطب بديل، وهكذا ظهرت حبة البركة في مستحضرات طبية متنوعة بين أقراص وكبسولات وأشربة وزيوت في العديد من الدول الأوروبية، وكذلك الولايات المتحدة، هذا بالإضافة إلى بلدان العالم العربي والإسلامي.

ونُشرت أكثر من دراسة علمية في مجلات معترف بها عالمياً حول فائدة خلاصة الحبة السوداء في قتل عدد من الجراثيم في أطباق المختبر، أو في حيوانات التجربة. لم يتضح دور الحبة السوداء في المناعة الطبيعية حتى عام ١٩٨٦م، حين أجرى الدكتور أحمد القاضي وزملاؤه بالولايات المتحدة الأمريكية بحثاً عن تأثير الحبة السوداء على جهاز المناعة في الإنسان، ثم توالى بعد ذلك الأبحاث في شتى الأقطار وفي مجالات عديدة حول هذا النبات.

ونشرت مجلة "المناعة الدوائية" في عدد أغسطس ١٩٩٥م بحثاً حول تأثير الحبة السوداء على الخلايا اللمفاوية المدمرة للخلايا السرطانية الإنسانية في الخارج على عدة مطفرات، وعلى نشاط البلعمة لخلايا الدم البيضاء متعددة النواة، وقد أثبت البحث تأثيراً منشطاً لمستخلص الحبة السوداء على استجابة الخلايا اللمفاوية لأنواع معينة من الخلايا السرطانية، كما أثبت البحث أيضاً أن مستخلص الحبة السوداء يزيد من إنتاج

بعض الوسائط المناعية (انترليوكين ٣) من الخلايا اللمفاوية البشرية، عندما زرعت مع نفس الخلايا السرطانية السابقة بدون إضافة أي منشطات أخرى.

كما أثبت البحث أيضاً أن الحبة السوداء تزيد من إفراز انترليوكين نوع ١ - بيتا، مما يعني أن لها تأثيراً في تنشيط خلايا البلعمة. كما نشرت مجلة المناعة الدوائية في عدد سبتمبر ٢٠٠٠م بحثاً عن التأثير الوقائي لزيت الحبة السوداء ضد الإصابة بالفيروس المضخم للخلايا في الفئران. وظهر أن زيت الحبة السوداء له خاصية مضادة للفيروسات المضخمة للخلايا.

وجه الإعجاز:

أخبر النبي ﷺ أن في الحبة السوداء شفاء لكل داء، ووردت كلمة شفاء في صيغ الأحاديث كلها غير معرفة بالألف واللام، وجاءت في سياق الإثبات فهي لذلك نكرة تعم في الغالب، وبالتالي يمكن أن نقول أن في الحبة السوداء نسبة من الشفاء في كل داء.

وقد ثبت من خلال وصف الجهاز المناعة أنه النظام الوحيد والفريد الذي يمتلك السلاح المتخصص للقضاء على كل داء. وبما أنه لا توجد مادة مركبة أو بسيطة على وجه الأرض تملك خاصية المقدرة على التخلص من مسببات جميع الأمراض وشفائها حتى الآن - فيما نعلم - وتعمل عمل جهاز المناعة، فهو الجهاز الوحيد الذي يملك تقديم شفاء من كل داء - على وجه الحقيقة واليقين - بما يحويه من نظام المناعة النوعية أو المكتسبة التي تمتلك إنشاء الأجسام المضادة، وتكوين سلاح الخلايا القاتلة والمحللة المتخصصة لكل كائن مسبب للمرض.

وهذا الجهاز هو مثل بقية الأجهزة يتتابه العطب والخلل والمرض، فقد يعمل بكامل طاقته وكفاءته أو بأقل حسب صحته وصحة مكوناته، فما دام هذا الجهاز سليماً معافى في الجسم يستطيع القضاء على كل داء، يطلق الداء إما على المرض أو على مسبب المرض.

وحيث إن هناك مواد خلقها الله ﷻ تنشط هذا الجهاز وتقويه، أو تعالج وتصلح ما فيه، فيمكن أن توصف بما يوصف به هذا الجهاز نفسه. وبما أنه قد ثبت أن الحبة السوداء تنشط المناعة النوعية أو المكتسبة برفعها نسبة الخلايا المساعدة والخلايا الكابحة وخلايا القاتل الطبيعي - وكلها خلايا ليمفاوية في غاية التخصص والدقة - لما يقرب من ٧٥٪ في أحد البحوث، وبما أكدته الأبحاث المنشورة في الدوريات العلمية لهذه الحقيقة، حيث تحسنت الخلايا الليمفاوية المساعدة وخلايا البلعمة، وازداد مركب الإنترفيرون، وتحسنت المناعة الخلوية، وانعكس ذلك التحسن في جهاز المناعة على التأثير المدمر لمستخلص الحبة السوداء على الخلايا السرطانية وبعض الفيروسات، وتحسن آثار الإصابة بديدان البلهارسيا.

لذلك يمكن أن نقرر أن في الحبة السوداء شفاء من كل داء لإصلاحها وتقويتها لجهاز المناعة وهو الجهاز الذي فيه شفاء من كل داء، ويتعامل مع كل مسببات الأمراض، ويملك تقديم الشفاء الكامل أو بعضه لكل الأمراض، كما أن ورود كلمة شفاء في الأحاديث بصيغة النكرة يدعم هذا الاستنتاج، حيث تتفاوت درجات الشفاء تبعاً لحالة جهاز المناعة ونوع المرض وأسبابه ومراحله.

وبهذا يكون الحديث قد أخبر بحقيقة علمية قبل ألف وأربعمائة عام، ثم جاء العلم الحديث بوسائله وأدواته المتطورة ليثبت ويؤكد صحة هذه المعلومة التي أخذها بالقبول والتصديق عموم المؤمنون في ذلك الزمان الغابر في القدم، ليكون هذا الإعجاز العلمي بمثابة دليل قاطع على صدق ما نطق به النبي الأمي ﷺ قبل ألف وأربعمائة عام.

تنبيهات مهمة:

- يفيد منطوق ومفهوم نصوص الحبة السوداء أن فيها شفاء من الأمراض، فلا ينبغي أن يتناولها الإنسان إلا عند إصابته بالمرض، وألا يدفع الحماس للسنة أن يتناول الأصحاء كميات هائلة منها أو من

زيوتها بلا ضابط طلبًا للوقاية والحماية، مما قد يؤدي إلى عواقب لا
تحمد عقباها.

- ويجب أن يعرف المريض الجرعة الملائمة لمرضه، وأقصى كمية يمكن
أن يتناولها يوميًا، وكيفية تناولها، وأن يعرف أفضل طريقة للاستفادة
منها، مفردة أو مركبة مجروشة أو صحيحة وذلك بإشراف طبيب.

لون الجلد لا يُفضل به صاحبه:

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أُنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ
بِسَبَابٍ عَلَى أَحَدٍ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ وَلَدُ آدَمَ، طُفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمَلُّوهُ، لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ،
فَضْلٌ إِلَّا بِالدِّينِ أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ، حَسْبُ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فَاحِشًا بَدِيًّا، بَخِيلًا جَبَانًا»
(رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ).

(طُفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمَلُّوهُ)، (طُفُّ الصَّاعِ) هو ما قَرَّبَ من ملئه. أي: قريبٌ
بعضكم من بعض، وكلكم في الانتساب إلى أبٍ واحد بمنزلةٍ واحدة في النقص
والتفاصر عن غاية التمام، وشبههم في نقصانهم بالمكيل الذي لم يبلغ أن يملأ المكيال.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ
وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا
أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى» (رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ).

يمكن أن نلمس علمية الحديث، إذا علمنا أن جميع البشر، يولدون وعدد خلايا
الميلانين في بشرتهم متساوٍ، وأن هذا العدد ثابت عند جميع المواليد، سواء كانوا بيضًا أو
سودًا.

ولاشك أن اختلاف الألوان والألسن، إنما هو آية دالة على قدرة الله ﻋَظِيمًا،
والكتاب والسنة لا يعتبران اللون والشكل مزية لأحد، فإن ثبت في الطب أن لون
الجلد، لا أثر له على ذات الإنسان وقيمته، فهذا ما جاء به النبي ﷺ، في عصر كان أهله
يعتبرون السواد مذمة، بل إن الجاهلية إلى اليوم ترى أن الأبيض أعلى من الأسود، مع
أننا في عصر العلم كما يقولون!.

شق السمع والبصر:

كان النبي ﷺ إِذَا سَجَدَ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسَلَمْتُ سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» (رواه مسلم).

السمع والبصر في هذا الحديث المراد به العين والأذن، بدليل إضافته إلى الوجه، ولقد نطق هذا الحديث بما يحدث فعلاً في تكوين السمع والبصر.

تصل قناة السمع الخارجية ما بين صوان الأذن، وطبلة الأذن، وتتكون من طبانة الشق البلعومي الأول الذي يمتد على هيئة قمع حتى يصل إلى غشاء الطبلة.

وفي البداية تكون هذه القناة مقلبة ومصمتة، نتيجة امتلائها بالخلايا، مُكوِّنةً ما يُعرف باسم سدادة الصياخ، ثم تُمتص هذه السدادة وتزاح في الشهر السابع.

وفي العين تُقفل الجفون ويلتصق الجفنان، ثم في الشهر السابع تُشَقُّ، وتُفْتَح.

وكل ذلك يؤكد معنى شق سمعه وبصره، الذي وصفه حديث النبي ﷺ وهو يناجي ربه في سجوده.

إن هذا الحديث فيه إعجاز علمي واضح، على ما قاله الأطباء من كيفية خلق السمع والبصر، خاصة وأن النبي ﷺ قد عبر بلفظ: (شَقَّ) دون غيره من الألفاظ، وهو يدل على انصداع في الشيء.

الإعجاز العلمي في الأحاديث التي ذكرت الحمى:

جاء الإخبار عن الحمى في السنة النبوية في مواطن متعددة، فجاء في بعض الأحاديث أن الإنسان عندما يصاب بالمرض فإن جسده يتداعى بالحمى والسهر. وفي أحاديث أخرى تأتي الإشارة إلى علاج الحمى، وهو علاج واضح وصريح، كما أنه سهل وغير مكلف، ويمكن لأي مريض أن يزاوله ويطبقة في أي مكان ودون الحاجة إلى رقود في مستشفى، وهو مؤثر وشفائي، وهذه هي الشروط العلمية القياسية لوسائل العلاج الحديث. وفي أحاديث أخرى يأتي النهي عن سب الحمى.

وفي أيامنا هذه كشفت الأبحاث العلمية الحديثة عن حقائق كثيرة تتعلق بالحمى، ومن خلالها رأينا التطابق واضحاً جلياً مع ما جاءت به الأحاديث النبوية، مما يدل على سبق العلمي في هذه الأحاديث النبوية.

الأحاديث النبوية التي ذكرت الحمى:

أولاً: تداعي الجسد عند المرض بالحمى والسهر:

عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى» (رواه البخاري ومسلم).

(تَدَاعَى): أَي دَعَا بَعْضُهُ بَعْضًا إِلَى الْمَشَارَكَةِ فِي الْأَلَمِ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ تَدَاعَتِ الْحَيَاتَانُ أَي تَسَاقَطَتِ أَوْ كَادَتِ. (بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى): أَمَّا السَّهْرُ فَلِأَنَّ الْأَلَمَ يَمْنَعُ النَّوْمَ وَأَمَّا الْحُمَى فَلِأَنَّ فَقْدَ النَّوْمِ يُثِيرُهَا. وَتَشْبِيهُهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَسَدِ الْوَاحِدِ تَمَثِيلٌ صَحِيحٌ وَفِيهِ تَقْرِيبٌ لِفَهْمِهِمْ وَإِظْهَارٌ لِلْمَعَانِي فِي الصُّورِ الْمُرْتَبِئَةِ وَفِيهِ تَعْظِيمٌ حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ وَالْحُضُّ عَلَى تَعَاوُنِهِمْ وَمَلَاطِفَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

ثانياً: علاج الحمى بالماء:

أخبرت هذه الأحاديث عن علاج الحمى عن طريق إبرادها بالماء، فقال ﷺ: «الْحُمَى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ» (رواه البخاري ومسلم).

ثالثاً: النهي عن سب الحمى:

جاء في السنة النبوية النهي عن سب الحمى، فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ فَقَالَ: «مَا لَكَ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزْفِرِينَ». قَالَتْ: «الْحُمَى لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا». فَقَالَ: «لَا تُسَبِّ الْحُمَى فَإِنَّهَا تَذْهَبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يَذْهَبُ الْكَبِيرُ حَبْتِ الْحَدِيدِ». (رواه مسلم).

(تُزْفِرِينَ): تَرَعْدِينَ مِنَ الْبَرْدِ.

والسبب في النهي عن سب الحمى هو أنها نافعة للإنسان في الدارين، فهي مكفرة لذنوبه، ونافعة لبدنه كما كشف ذلك الطب الحديث، وقد تنبه لذلك بعض القدماء.

الحمى في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة:

يتم تشخيص الحمى بارتفاع في درجة حرارة الجسم وتحدث الحمى في حالة حدوث عدوان على جسم الإنسان سواءً عن طريق خلايا بكتيرية أو سرطانية أو فيروسات أو فطريات أو أي جروح أو أمراض داخلية، حيث تلتف الخلايا المناعية حول المكان المصاب أو العضو المريض وتتفاعل مع تلك الأجسام الغريبة وتولد عن هذه المعارك الشرسة مواد تسمى (بيروجينات).

وقد كشفت البحوث العلمية حقائق مذهلة عن تفاعل الجسم البشري لمواجهة المخاطر، حال الإصابة بالجرح أو بالمرض. كما تم اكتشاف الخطوط الدفاعية، والاستجابات الوظيفية التي تحدث بالجسم حال إصابة عضو من أعضائه بالمرض أو الجرح، تلك الاستجابات التي تتناسب مع درجة معاناة العضو المصاب تناسباً طردياً، فبقدر ما تكون شدة إصابة العضو بقدر ما يكون توجيه طاقات الجسم ووظائفه لمنع استفحال المرض أولاً، ولتحقيق الالتئام والشفاء التام ثانياً.

وأثبت العلم الحديث ظاهرة التداعي والانهدام التي تحدث في الجسم البشري حال المرض والإصابة، فعندما يصاب عضو من الأعضاء بجرح أو مرض فإن هذا العضو يشتكى ما ألم به، هذه الشكوى تتمثل في إشارات تنبعث منه إلى مراكز الجهاز العصبي الرئيسية التي تتحكم في وظائف الأعضاء، فتستجيب هذه المراكز بإرسال الأوامر إلى الغدد والأجهزة الحيوية، فتحدث حالة عامة من الاستنفار الذي يكون من نتائجه توجيه جميع الطاقات والعمليات الحيوية لخدمة العضو المصاب وإمداده بما يحتاجه لمواجهة المرض بدءاً بمحاصرة مصدر الخطر وكفه عن الانتشار ومن ثم القضاء عليه إن أمكن، ثم تحقيق الالتئام حتى يعود العضو إلى حالته.

وهذا التداعي يتحقق بالسهر والحمى، والسهر لا يعني يقظة العينين والذهن فحسب، ولكن يقظة جميع أجهزة الجسم وأعضائه وعملياته الحيوية، حتى إنها لتكون في حالة نشاط دائم، وسهر مستمر، والسهر بمعناه الوظيفي (الفسولوجي) يعني نشاط الأعضاء في وقت يفترض أنها تنام فيه، وهذا هو ما يحدث حال المرض والجراحة، وبصورة مستديمة طوال ساعات الليل، حتى لو أغمضت العينان وشرد الذهن أو نام، إلا أن الجسم لا يكون أبدًا في حالة نوم حقيقي، لأن جميع أجهزته وعملياته الحيوية تكون في نشاطها الذي كانت عليه حال اليقظة، فلا يحدث لها الخمود والتباطؤ الذي يحدث أثناء النوم في حال الصحة.

فليس السهر إذن بسبب الألم كما قد يظن العوام ولكنه عملية مستقلة ومهمة ولا بد منها لمواجهة المرض، وهو محصلة التنبيهات المتبادلة في الجهاز العصبي بين المراكز المختلفة، وللسهر مركز مستقل يشرف عليه ويضمن استمراره.

والحمى تحدث في حال المرض، سواء كان جرحًا، أو غزوًا ميكروبيًا، أو مرضًا داخليًا كالسرطان مثلاً، أما سبب الحمى فإنه نابع من الجسم ذاته، ومن مكان المرض حيث يؤدي التفاعل الخلايا المناعية حول العضو المصاب أو المريض، وتفاعلها في عمليات الالتهاب المختلفة ضد الميكروبات والأجسام الغريبة والضارة، يؤدي ذلك إلى تصاعد مواد تعرف باسم (البيروجينات)، التي تنطلق من الكريات البيضاء ومن أنسجة العضو المصاب، فتسري البيروجينات في الدم، وتصل إلى مراكز ضبط الحرارة في المخ لتؤثر في خلاياها تأثيرًا يعدّل من درجة انضباطها وتحسسها لاستشعار التغير في حرارة الدم، بحيث تتنبه عند درجة أعلى من الطبيعي، وتختلف هذه الدرجة تبعًا لدرجة استجابة الجسم والجهاز المناعي لهذا المرض أولاً، ثم لنوع المرض ودرجة الإصابة ثانيًا، والدليل على ذلك عدم ارتفاع الحرارة عند المصابين بهبوط وتدهور في جهازهم المناعي.

أي أن الحمى تحدث كجزء من تفاعل الجسم البشري لمواجهة المرض أو الإصابة، وهذا ما أثبتته العلم أخيراً، وقد كان المعتقد أن الحمى تحدث بتأثير المرض الداخلى إلى الجسم (بيروجينات خارجية).

فوائد الحمى:

توصل الطب الحديث في السنوات الأخيرة إلى اكتشاف عدد من الفوائد التي تنسب للحمى، وهي كالآتي:

١- تم اكتشاف أن قدرة الكثير من الميكروبات سواء البكتيريا أو الفطريات أو الفيروسات على الحياة تكون في أوساط حرارية محدودة، وارتفاع درجة الحرارة إما يدمرها أو يثبط نموها وتكاثرها.

٢- وتؤثر الحرارة أو الحمى بصورة قاتلة على الخلايا السرطانية والجرثومية بصور مختلفة من خلال:

- زيادة رشح الجدران الخلوية لهذه الخلايا المعادية.
- انخفاض درجة القلوية وارتفاع الحمضية فيتغير الأس الهيدروجيني بها.
- تدمير مراكز التنفس الخلوي بصورة غير رجعية.
- تغيير طبيعة التركيبة النووية والبروتينية داخل الخلية.
- تثبيط التكاثر الخلوي في كافة مستويات الانقسام بالتحسس الحراري.
- إبطال تأثير الخلايا السرطانية في كافة مراحل الاختناق الخلوي.
- تهدم هائل بنسبة ١٠٠٪ في البنية الوعائية (الدموية) للخلايا السرطانية، وفي نفس الوقت تستحث الحمى وتحسن من هذه البنية في الخلايا السليمة.
- عندما تصل درجة الحرارة إلى ٤١ درجة مئوية فإنها تستحث الديقان الخلوي داخل الخلايا السرطانية والمدمرة لها.

- ٣- تستحث الحمى الخلايا المناعية الآكلة والمحللة.
- ٤- ارتفاع الأجسام المضادة بعد تعرّف الجسم على العناصر المهاجمة له داخليًا.
- ٥- تتضافر أجهزة الجسم سواءً الجهاز العصبي والدوري والغدد الصماء والجهاز المناعي بكافة مستوياته المختلفة ومنها الكبد والطحال في إحداث وأحداث الحمى.
- ٦- تتعاون هذه الأجهزة كافة وتتكامل وتتداخل وظائفياً بالصورة التي تطرد مع العدوان على الجسم.
- ٧- تحتاج أنسجة الجسم لأكثر قدر ممكن من جزيئات الأكسجين لإتمام تفاعلاتها في حال المرض، وهذا الأكسجين يصل إلى الأنسجة محمولاً على الهيموجلوبين الموجود في كريات الدم الحمراء، ولا يفارق الأكسجين الهيموجلوبين إلا عند ضغط غازي معين وظروف أخرى، وارتفاع الحرارة يعدل من معدل افتراق الأكسجين عن الهيموجلوبين بحيث يتركه إلى الأنسجة عند ضغط أقل وبنسبة أكبر.
- ومن آخر ما وصل إليه العلم في العلاج الحراري (أو بالحمى) هو إنتاج جهاز يقوم بتسخين جسم المريض عن طريق تسخين الدم بصورة آمنة من التلوث ١٠٠٪ للقضاء على الفيروسات الكبدية والإيدز وغيرها والخلايا السرطانية والذي حقق نتائج مذهلة في علاج الاستسقاء الكبدي غير السرطاني والسرطاني.
- وقد ثبت علمياً أنه عند الإصابة بالحمى تزيد نسبة مادة (الأنترفيرون) لدرجة كبيرة، كما ثبت أن هذه المادة التي تفرزها خلايا الدم البيضاء تستطيع القضاء على الفيروسات التي هاجمت الجسم وتكون أكثر قدرة على تكوين الأجسام المضادة الواقية، فضلاً عن ذلك فقد ثبت أن مادة (الأنترفيرون) التي تفرز بغزارة أثناء الإصابة بالحمى لا تخلص الجسم من الفيروسات والبكتيريا فحسب ولكنها تزيد مقاومة الجسم ضد الأمراض وقدرتها على القضاء على الخلايا السرطانية منذ بدء تكوينها، وبالتالي حماية الجسم من ظهور أي خلايا سرطانية يمكن أن تؤدي إلى إصابة الجسم بمرض السرطان.

علاج الحمى بالماء:

كشف العلم اليوم أن التبريد بالماء يفيد في معالجة كل الحميات الانتانية، وأول ما ينصح به الطبيب اليوم هو عمل الكمادات بالماء البارد ووضع الثلج على رأس المحموم وغير ذلك.

والحمى هي كل ارتفاع لحرارة الجسم، ومن المعروف أن في الجسم مركزاً لتنظيم الحرارة في منطقة بالدماغ تعرف بـ "تحت المهاد" وهي تستشعر حرارة الدم، فإذا ارتفعت قليلاً زادت في إفراز العرق من الجلد ليتم خروج الحرارة من الجسم إلى الجو المحيط، ولكن إذا كانت حرارة الجو فوق الأربعين فلا يمكن لحرارة الجسم أن تخرج إلى الهواء المحيط، ولا بد من استخدام الماء البارد والمثلج.

ورغم أن للحمى أسباباً كثيرة إلا أنها في النهاية تكون بسبب مواد رافعة لحرارة تؤثر على منطقة تحت المهاد وتحدث الرعشة وتقلص العضلات فتزيد من ارتفاع الحرارة، ومن أشهر أسبابها ضربة الشمس والملاريا والأنفلونزا ونوبات البرد والحمى المالطية وغيرها، والمعالجة بالكمادات الباردة والماء المثلج نوع هام من العلاج للأعراض ذاتها، وإذا كانت الأدوية النوعية المضادة للحميات الانتانية لم تكتشف إلا في القرن التاسع عشر، وكذلك مخفضات الحرارة كالأسبرين والكينين فقد كان استعمال الماء البارد هو الوسيلة العلاجية الأولى، وإذا كان النبي ﷺ قد نبه إلى هذه الوسيلة العلاجية الهامة فالإعجاز في دعوته تلك أن تبريد الحمى بالماء ما يزال العلاج العرضي الأمثل والذي يُشرك حالياً مع الأدوية النوعية.

وجه الإعجاز:

يخبر النبي ﷺ بما يجب أن يكون عليه حال المسلمين وحال الأمة الإسلامية من تواد وتعاطف وتراحم؛ ولفهم وإدراك درجة هذا التراحم؛ ضرب لنا النبي ﷺ مثلاً من أنفسنا وهو مثال الجسد الواحد وما يحدث فيه عندما يشتكي عضو من أعضائه، وأخبرنا بأن الجسد يتداعى كله بالسهر والحمى من أجل هذا العضو، ولن يتوقف التداعي حتى تتوقف شكوى ذلك العضو.

والنبي ﷺ بما أوتى من جوامع الكلم وصف لنا ما يحدث في جملة شرطية قصيرة، فعل الشرط فيها: اشتكى، وجواب الشرط: تداعى، فكان الإعجاز علمياً ولغوياً، وذلك من خلال استخدامه ﷺ كلمات تصف حقيقة ما يحدث بجميع معانيها الواردة في اللغة، ولا توجد في لغة العرب كلمة واحدة تجمع حقيقة ما يحدث في الجسم البشري حال المرض إلا هذه الكلمات: اشتكى - تداعى. ولو بحثنا عن أفعال أخرى لتصف حقيقة ما يحدث لاحتجنا إلى عدة أفعال مكان الفعل الواحد (تداعى) مثلاً.

ونحن نسأل: هل وصف النبي ﷺ أمراً لم يكن يعرفه أهل العلم في زمانه؟! نقول نعم، لا في زمانه ولا بعد زمانه ﷺ بقرن أو عشرة قرون أو ثلاثة عشر قرناً، بل بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً من الزمان؛ فالحديث يخبر بحدوث شكوى للعضو المصاب على الحقيقة لا المجاز. فهل حقاً يشتكي العضو على الحقيقة؟ وكيف يشتكي العضو بلا لسان؟ وهل كان الناس يفهمون أن الشكوى على الحقيقة؟!

إن من يقرأ حقيقة ما يكشفه العلم من انطلاق نبضات عصبية حسية من مكان الإصابة والعضو المريض إلى الدماغ وإلى مراكز الحس والتحكم غير الإرادي وانبعث مواد كيميائية وهرمونات من العضو المريض، وبمجرد حدوث ما يهدد أنسجته، ومع أول قطرة دم تنزف أو نسيج يتهتك أو ميكروب يرسل سموه بين الأنسجة والخلايا، تذهب هذه المواد إلى مناطق مركزية في المخ والأعضاء المتحكمة في عمليات الجسم الحيوية.

إن من يعرف هذه الحقائق لا يستطيع إلا أن يصفها بأنها شكوى على الحقيقة وليست على المجاز، فالاشتكاء لغة: إظهار ما بك من مكروه أو مرضٍ ونحوه.

أليس هذا إخباراً وإعلاماً واستغاثة من ضرر أو نازلة ألمت بالشاكي، ولن تكون الشكوى لغة؟ أليست توجه للجهة التي يظن أنها تتحكم في مجريات الأمور وتملك من الإمكانيات ما تنقذ به الشاكي وترفع عنه ما ألم به وما نزل به من ضرر؟

إن الساعد الأيمن مثلاً إذا أصيب بالمرض فإنه لا يوجه شكواه إلى الساعد الأيسر أو إلى الرجل اليمنى؛ لأنها لا تملك توجيه وظائف الجسم لمواجهة المرض، وإنما

تنطلق النبضات والإشارات والهرمونات إلى المراكز الحيوية بالدماغ وهي التي توجه سائر الجسد لإغاثة العضو المشتكي، وإذا اشتكى العضو تداعى سائر الجسد لشكواه، والتداعي يحدث بمجرد الشكوى، فإن لم توجد شكوى لم يوجد تداع، «إِذَا اشْتَكَى ... تَدَاعَى».

وهذا ما يحدث فعلاً وبجميع معاني التداعي الواردة في اللغة العربية. فقد جاء التداعي في اللغة بعدة معانٍ، ومن تلك المعاني: التداعي بمعنى النداء والاستغاثة، ويأتي بمعنى تجمع وأقبل من جهات شتى، ويعني تهذم وانهار وهزل، ويعني: استعد وتجهز.

فالتداعي بمعنى النداء والاستغاثة نجده في مراكز الإحساس عندما تدعو مراكز اليقظة والتحكم فيما "تحت المهاد"، التي تدعو بدورها الغدة النخامية لإفراز الهرمونات التي تدعو باقي الغدد الصماء لإفراز الهرمونات التي تحفز وتدعو جميع أعضاء الجسم لتوجيه وظائفها لنجدة العضو المشتكي وعلى النحو الذي سبق وصفه.

والتداعي بمعنى التجمع والمسارة هو حقيقة ما يحدث من جميع أجهزة الجسم من توجه بكل أنشطتها وعملياتها الحيوية لخدمة العضو المصاب ومساعدته، وما يحدث في النظام المناعي لا يمكن إلا أن نسميه تداعياً، فإن خلية واحدة تقوم بدعوة كل خلايا الجهاز المناعي الأخرى بمجرد مقابلتها لجسم غريب بل وتدعوها إلى التكاثر والانقسام وتصنيع الأجسام المضادة.

والقلب مثلاً يسرع بالنبضات لسرعة تدوير الدم في الوقت الذي تنقبض الأوعية الدموية بالأجزاء الخاملة من الجسم وتتسع الأوعية الدموية المحيطة بالعضو المصاب لكي تحمل له ما يحتاجه من طاقة وأوكسجين، وأجسام مضادة، وهرمونات، وأحماض أمينية بناءة، هي خلاصة أعضاء الجسم المختلفة كالكبد، والغدد الصماء، والعضلات ومخزن الدهون أرسلت كلها لإمداد العضو المريض بما يحتاج لمقاومة المرض ومن ثم الالتئام.

والتداعي بمعنى التهذم والانهيار يصف فعلاً ما يحدث في سائر أجهزة الجسم، فهي تقوم بهدم بروتيناتها ومخزونها من المواد الدهنية والنشوية - بل وحتى بنيتها

الأساسية - لكي تعطي العضو المصاب ما يحتاج إليه من طاقة ومواد يحتاجها لمواجهة المرض الحادث له، ولقد ثبت ذلك علمياً بتناقص وزن المريض وهزاله على الرغم من استمرار التئام العضو المصاب، ويستمر ذلك إلى أن يتم الشفاء، وبعدها يبدأ بناء ما تهدم من سائر أعضاء الجسد فيما يعرف بطور إعادة البناء.

بل إن طور الهدم والتداعي لا بد من حدوثه حتى ولو قمنا بإعطاء المريض ما يحتاجه من عناصر غذائية سهلة الهضم أو مهضومة، وسواء أعطيناه بالفم أو بالحقن بالوريد، وكل ما استطاعه الأطباء هو التقليل من حدة الهدم وشدته حتى لا يدخل المريض في حالة فرط الانهدام، والتي قد تصل إلى انهيار في جميع وظائف الجسم والوفاة، والهدم يستمر إلى درجة تتناسب مع قوة المرض لدرجة أن العلماء حسبوها وقدروها في كل حالة ووجدوا تناسباً بين مقدار ما يفقده الجسم من وزنه وشدّة إصابة العضو.

وهذا التداعي يتحقق في السهر والحمى، والسهر لا يعني يقظة العين والذهن فحسب، ولكن يقظة جميع أجهزة الجسم وأعضائه وعملياته الحيوية حتى إنها لتكون في حالة نشاط دائم وسهر مستمر، والسهر بمعناه الوظيفي يعني نشاط الأعضاء في وقت المفترض فيه أنها تنام، وهذا هو عين ما يحدث في حال المرض والجراحة بصورة مستديمة طوال ساعات الليل والنهار، حتى لو أغمضت العينان وشرد الذهن أو نام إلا أن الجسم لا يكون أبداً في حالة نوم حقيقي؛ لأن جميع أجهزته وعملياته الحيوية تكون في نشاطها الذي كانت عليه حال اليقظة فلا يحدث لها الخمول والتباطؤ الذي يحدث أثناء النوم في حال الصحة والعافية.

والسهر موجود بمعناه، حتى لو نامت عين المريض أو تاه عن وعيه فإن جميع أجهزة الجسم ودوراته الدموية وتفاعلاته الاستقلابية، وجهازه التنفسي، والكلية والقلب تكون في حالة السهر الدائم أثناء المرض، ونعني بذلك أنها تكون في حالة نشاط مساوية لحالة اليقظة ومستمرة عليها طوال الليل والنهار إلى أن تزول شكوى العضو المريض.

ولم يكتشف العلم الحديث حقيقة واحدة تعارض ظاهر النص أو باطنه أو تسيير في نسق بعيد عنه، بل كان النص وصفاً دقيقاً جامعاً شاملاً لحقيقة ما يحدث، بل ما كان يجهل وضح العلم الحديث على أنه حقيقة واقعة لا تحتاج إلى تأويل.

وفي الحديث إعجاز آخر: فرسول الله ﷺ يخبرنا بالكيفية التي ينبغي أن يكون عليها المسلمون في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم، فمن أراد أن يفقه إلى أي مدى يطلب النبي ﷺ من المسلمين أن يتوادوا ويتعاطفوا ويتراحموا فعليه أن يسأل علماء الطب والجسم البشري، وأن يبحث وينظر كيف يفعل الجسم الواحد، وبقدر ما يعلم من حقيقة تفاعل الجسم البشري ويتأمل فيها؛ بمقدار ما يفقه مقصد الشريعة وأمرها، ومقدار التعاطف والتراحم المطلوب من المؤمنين.

ومن العجيب أن يستخدم العلماء الغربيون اسماً للجهاز العصبي الذي يتفاعل في حال تعرض الجسم للخطر والمرض بلغتهم وصفوا به حقيقة ما يفعله هذا النظام والجهاز وهو (sympathetic) فكانت ترجمتهم الحرفية: المتواد، المتعاطف، المتراحم، وهو عين ما سماه النبي ﷺ في الحديث: «تَوَادَّهِمْ وَتَرَاحَمِهِمْ وَتَعَاطَفِهِمْ».

أما الأحاديث التي جاءت في علاج الحمى عن طريق استخدام الماء، فقد طبقت الحقيقة العلمية اليوم، والتي تثبت أن الماء من أنجح الوسائل في خفض درجة حرارة الجسم.

وجاء في السنة النهي عن سب الحمى، وفي ذلك إشارة إلى الفوائد الموجودة في الحمى، وقد كشف العلم اليوم الفوائد المتعددة للحمى، بل أثبت العلم الحديث أن للحمى قدرة علاجية، وقد استخدمت في علاج بعض الأمراض. إن هذا كله يشهد بأن ما أخبر به النبي ﷺ هو وحي من عند الخالق العليم ﷻ.

التلبينة غذاء ودواء:

لاشك أن هدي النبي ﷺ في الطعام والشراب عظيم الفائدة لصحة الإنسان. ويُظهِر العلم يوماً بعد يوم هذه الفوائد من خلال الأبحاث المعملية والتجريبية الحديثة. ومن هديه ﷺ تناول حبوب الشعير خبزاً وحساءً وشراباً، وقد وصفه النبي ﷺ لمداداة المرضى وتخفيف الحزن والغم الذي يعتري النفس الإنسانية بين حين وآخر.

عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا كَانَتْ إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ مِنْ أَهْلِهَا فَاجْتَمَعَ لِذَلِكَ النِّسَاءُ ثُمَّ تَفَرَّقْنَ إِلَّا أَهْلَهَا وَحَاصَّتْهَا - أَمَرَتْ بِبُرْمَةٍ مِنْ تَلْبِينَةٍ فَطُبِخَتْ ثُمَّ صُنِعَ ثَرِيدٌ فَصَبَّتِ التَّلْبِينَةَ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَتْ: كُلْنَ مِنْهَا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «التَّلْبِينَةُ مَجْمَةٌ لِفُؤَادِ الْمَرِيضِ تُذْهِبُ بَعْضَ الْحُزَنِ». (رواهُ مُسْلِمٌ).

التلبينة: حساء (شربة أو مرق) يُعْمَلُ من من دقيق الشعير بنخالته، والفرق بينها وبين ماء الشعير أنه يطبخ صحاحاً والتلبينة تطبخ منه مطحوناً. وهو رقيق في قوام اللبن، ومنه اشتق اسمه، وقيل: سُمِّيَتْ تلبينة لشبهها باللبن لبياضها ورقتها.

والشعير: هو نبات حَوْلِيٌّ من الفصيلة النجيلية ويشبه في شكله العام نبات القمح وهو أقدم غذاء للإنسان.

(مَجْمَةٌ لِفُؤَادِ الْمَرِيضِ) يُرَوَى بوجهين بفتح الميم والجيم (مَجْمَةٌ)، وبضم الميم وكسر الجيم (مُجْمَةٌ)، والأول أشهر ومعناه مريحة له أي تريحه وتسكنه، من الإجمام وهو الراحة. (تُذْهِبُ بَعْضَ الْحُزَنِ): إنها تذهب ببعض الحزن بخاصية فيها من جنس خواص الأغذية المفرحة.

البحوث العلمية: توافقت البحوث الحديثة في مجال الغذاء والاستطباب

بالشعير مع هدي سيد الأنام ﷺ:

أولاً: قوله ﷺ: (التَّلْبِينَةُ مَجْمَةٌ لِفُؤَادِ الْمَرِيضِ):

قام معهد البحوث الزراعية بجامعة "ألبرتا" بكندا بإجراء بحث عن: أهمية المنتجات المحتوية على منتجات الشعير على صحة مرضى السكر (النوع الثاني غير الوراثي) وتحديد أهمية استخدام منتجات الشعير وتأثيرها على نسبة السكر والدهون في

الدم، وكانت النتيجة النهائية لهذا البحث توضيح أهمية غذاء الشعير وخبز الشعير كوسيلة لزيادة كمية الألياف المطلوبة للجسم القابلة للذوبان وغير القابلة للذوبان، لخفض نسبة السكر والدهون في الدم.

والكوليسترول: هو مركب دهني نتأوله في طعامنا، وتكوّنه أجسادنا ويجري في دمائنا وله حد طبيعي إن زاد عنه تترسب هذه الزيادة على جدران الأوعية الدموية وتضيقها، وتُعدّ زيادته أحد الأسباب المؤدية إلى الإصابة بأمراض القلب والشرايين. وأثبتت الدراسات العلمية فاعلية حبوب الشعير الفائقة في تقليل مستوى الكوليسترول في الدم من خلال عدة عمليات حيوية منها:

- تحتوي حبوب الشعير على مركبات مشابهة لفيتامين E الذي يعد من أشهر مضادات الأكسدة التي لها القدرة على تثبيط إنزيمات التخليق الحيوي للكوليسترول.
- تحتوي ألياف الشعير المنحلة على مادة هامة جدًّا وهي البيتا جلوكان (Beta-glucan) التي تتحد مع الكوليسترول الزائد في الأطعمة والأحماض الصفراوية مما يقلل وصوله إلى تيار الدم.
- وتشير نتائج البحوث إلى انخفاض نسبة الكوليسترول العام بنسبة ١٠٪، وانخفاض نسبة الكوليسترول منخفض الكثافة ldl إلى ٨٪، وارتفاع نسبة الكوليسترول عالي الكثافة hdl إلى ١٦٪.
- ينتج عن تخمر الألياف المنحلة في القولون أحماض تمتص من القولون وتتداخل مع استقلاب الكوليسترول^(١) فتعيق ارتفاع نسبته في الدم.
- الشعير ينظم امتصاص السكر إلى الدم مما يجد من ارتفاع السكر المفاجئ لاحتواء أليافه المنحلة القابلة للذوبان على بكتينات تكون مع

(١) استقلاب: أيض: تحوُّل الغذاء إلى طاقة.

الماء هلامًا لزجًا يبطئ من هضم وامتصاص النشويات والسكريات، كما أنه قليل السرعات غني بالألياف المنحلة وغير المنحلة، مما يقلل من الرغبة في تناول الأطعمة السكرية وغيرها، وهذا يساعد على تنظيم نسبة السكر في الدم.

• الشعير يكبح جماح ضغط الدم لسببين:

- ✓ يحتوي على كمية وافرة من عنصر البوتاسيوم حيث يخلق هذا العنصر التوازن اللازم بين الملح والماء داخل الخلية.
- ✓ الشعير مُدرُّ للبول مما يقلل من ضغط الدم.

ثانيًا: قوله ﷺ: «تُدْهِبُ بَعْضَ الْحُزْنِ»:

أثبت الباحثون أن الحزن والاكتئاب هو خلل كيميائي، كما أثبتوا أن هناك مواد لها تأثير في تخفيف الاكتئاب والحزن، مثل: عنصر البوتاسيوم والمغنيسيوم ومضادات الأكسدة والميلاتونين وبعض عناصر فيتامين (ب) المركب والسيراتونين، فما علاقة الشعير بذلك؟

يحتوي الشعير على عنصري البوتاسيوم والمغنيسيوم اللذين يؤدي نقصهما إلى سرعة الغضب والانفعال والشعور بالاكتئاب والحزن، وضبط عنصر البوتاسيوم والمغنيسيوم له تأثير في تخفيف الاكتئاب عن طريق تأثير هذين العنصرين على بعض الموصلات العصبية، وانظر إلى قوله ﷺ: «تُدْهِبُ بَعْضَ الْحُزْنِ»، وقول الباحثين: يؤدي إلى تخفيف الاكتئاب.

يشعر الإنسان بالميل إلى الاكتئاب عند تأخر العمليات الفسيولوجية للموصلات العصبية وهذا من أهم أسبابه نقص فيتامين (ب) المركب، والشعير يحتوي على كمية طبيعية من بعض فيتامين (ب) المركب، وهذا مما يساعد على التخلص والتخفيف من الاكتئاب.

إن علاج نقص مضادات الأكسدة مثل فيتامين (هـ) له تأثير فعال في علاج حالات الاكتئاب والشيخوخة وخاصة لدى المسنين، والشعير يجوي كمية كبيرة من مشابهاً فيتامين E المضادة للأكسدة وأيضا على فيتامين A المضاد للأكسدة.

يحتوي الشعير على الحمض الأميني "تريبتوفان"، الذي يسهم في تخليق أهم الناقلات العصبية وهو "السيروتونين"، والتي تؤثر بشكل واضح في الحالة النفسية والعصبية للمريض.

إن من المذهل حقاً أن نرصد التطابق الدقيق بين ما ورد في فضل التلبينة على لسان نبي الرحمة ﷺ وما أظهرته التقارير العلمية الحديثة التي توصي بالعودة إلى تناول الشعير كغذاء يومي؛ لما له من أهمية بالغة للحفاظ على الصحة والتمتع بالعافية. فهي تخفض الكولسترول وتعالج القلب وعلاج للاكتئاب وعلاج للسرطان وتأخر الشيخوخة وعلاج ارتفاع السكر والضغط وملين ومهدئ للقولون.

اللبن ومنتجاته وعلاقته بصحة الإنسان؛

النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى أخبرنا منذ أكثر من أربعة عشر قرناً بما توصل إليه العلم الحديث بعد رحلة شاقة من الأبحاث والدراسات حول أهمية اللبن الغذائية والصحية للإنسان، وأن اللبن غذاء كامل أو هو أكمل غذاء للإنسان، ولا يوجد ما هو خير منه للإنسان.

فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُنِيَ بَلْبَنٍ فَشَرِبَ فَقَالَ: «إِذَا أَكَلَّ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيُقِلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ. وَإِذَا سَقَى لَبَنًا فَلْيُقِلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ. فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُجْرَى مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا اللَّبَنُ». (رواه أبو داود، وحسنه الألباني).

إن اللبن هو خير الأغذية، فهو أول ما يتغذي به الرضيع وتُمنّى به الأبدان، سائغاً للشاربين. لقد أشار النبي ﷺ إلى قيمة اللبن الغذائية المتميزة في زمن لم يدرك الناس فيه تركيب اللبن وما يحتويه من عناصر غذائية هامة. ولا يخفى على أحد أهمية اللبن بالنسبة للناقهين وكذلك لكبار السن حيث يكون اللبن جيداً ومغذياً يعطي لهم

كثيرا من المغذيات بطريقة سهلة التمثيل، ويمدهم بفيتامين (د) والذي قد يكون مفيداً لكبار السن الذين لا يستطيعون الخروج إلى ضوء الشمس.

• منتجات الألبان والفم والأسنان وهشاشة العظام:

لوحظ انخفاض حدوث تسوس وسقوط الأسنان بزيادة تناول اللبن خاصة وإن إضافة الفلورايد إلى اللبن أكثر تأثيراً في منع تسوس الأسنان من إضافته إلى الماء. وذكر تقرير خبراء المركز الصحي الأمريكي أفضلية منتجات الألبان كمصدر للكالسيوم.

• منتجات الألبان وضغط الدم:

أظهرت الأبحاث أن الغذاء المكوّن من منتجات الألبان الفقيرة في الدهون والخضروات والفاكهة له تأثير مفيد على ارتفاع ضغط الدم.

• التأثير الوقائي لمنتجات الألبان ضد السرطانات:

تشير الكثير من الدراسات إلى دور بروتينات اللبن في الوقاية من السرطانات، وقد أظهرت نتائج مشجعة قدرة منتجات اللبن على منع تكوين الأورام في القولون والثدي.

أكل زيت الزيتون والادّهان به:

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وآله: «كُلُوا الزَّيْتِ وَأَدِّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ» (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(كُلُوا الزَّيْتِ) أَي مَعَ الْخُبْزِ وَاجْعَلُوهُ إِدَامًا. (وَأَدِّهِنُوا بِهِ) أَمْرٌ مِنَ الْإِدِّهَانِ بِتَشْدِيدِ الدَّالِ، وَهُوَ اسْتِعْمَالُ الدَّهْنِ. يُقَالُ ادَّهَنَ رَأْسَهُ: أَي طَلَاهُ بِالدَّهْنِ وَتَوَلَّى ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، وَلَا يَخْفَى أَنَّهُ لَا يَخْتَصُّ بِالرَّأْسِ وَلَا يَشْتَرِطُ التَّوَلَّى بِنَفْسِهِ.

(فَإِنَّهُ) أَي الزَّيْتِ يَحْصُلُ (مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) يَعْنِي زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُوْرٌ عَلَى نُورٍ، ثُمَّ وَصَفَهَا بِالْبَرَكَةِ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا وَانْتِفَاعِ أَهْلِ الشَّامِ بِهَا، وَقِيلَ: لِكَوْنِهَا تَنْبُتُ فِي الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا لِلْعَالَمِينَ. وَيَلْزَمُ مِنْ بَرَكَةِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ بَرَكَةُ ثَمَرَتِهَا وَهِيَ الزَّيْتُونُ وَبَرَكَةُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَهُوَ الزَّيْتُ.

وفي هذا الحديث أمران:

الأول: الأمر بأكل الزيت، وكذلك الزيتون لأنه أصل له.

والثاني: الأمر بالادهان به، والادهان لا شك يكون بالزيت.

والزيتون يحتوي على الأحماض الدهنية الأمينية ومنها الفينيل والإينين الذي يعطي التيروزين (وهو مشتق من الألانين) وهو من الأحماض العطرية الأساسية والفينيل الأئين يعطي التيروزين، وهو من أحماض الميلانين في الجلد وهذه الصبغة (الميلانين) هي التي تصبغ البشر حسب كميتها في الجلد؛ فإذا كانت صبغة كثيفة أعطت الجلد الأسود، وإذا خفت أعطت اللون الأصفر وإذا غابت تمامًا (شدوذ ومرض) أعطت اللون الأبيض للشعر والجلد والرموش.

ولهذا الصبغة (الميلانين) أهمية كبيرة للإنسان فالأفريقي يعيش في منطقة شديدة الحرارة ساطعة الشمس وهذا يتطلب حماية للناس، هذه الحماية تتوفر بتوفر اللون الأسود (الميلانين)، وهذا ملحوظ في الشخص القمحي اللون عندما يقف في الشمس طويلاً فإنه يسمر، لأن الاسمرار وسيلة دفاع عن الجلد ضد الشمس، وهذا سبق علمي خطير، حيث أن شجرة الزيتون تعطي الزيت والأحماض الأمينية، ومنها الأحماض المسئولة عن إعطاء اللون الأسود (الصبغ الجلدي).

الزيتون والعلم الحديث:

لأول مرة في التاريخ اجتمع ستة عشر من أشهر علماء الطب في العالم في مدينة روما في الحادي والعشرين من شهر أبريل عام ١٩٩٧م ليصدروا توصياتهم وقراراتهم الموحدة حول موضوع "زيت الزيتون وغذاء حوض البحر المتوسط"، وأصدر هؤلاء العلماء توصياتهم في بيان شمل أكثر من ثلاثين صفحة استعرضوا فيها أحدث الأبحاث العلمية في مجال زيت الزيتون وغذاء حوض البحر المتوسط، وأكدوا في بيانهم أن تناول زيت الزيتون يسهم في الوقاية من مرض شرايين القلب التاجية وارتفاع كولسترول الدم، وارتفاع ضغط الدم، ومرض السكر، والبدانة.

وقد دهش الباحثون حديثاً حينما اكتشفوا أن سكان جزيرة كريت في البحر المتوسط هم أقل الناس إصابة بأمراض القلب والسرطان في العالم أجمع، ودهشوا أكثر حينما عرفوا أن أهالي جزيرة كريت يستهلكون زيت الزيتون أكثر من أي شعب آخر، فحوالي ٣٣٪ من السعرات الحرارية التي يتناولونها يومياً تأتي من زيت الزيتون.

ورد في كتاب "٨ أسابيع للوصول إلى الصحة العامة": يحتوي الزيتون على الأحماض الدهنية غير المشبعة، وحيدة الرابطة المزدوجة، وهو ما يميزه عن بقية الزيوت وأنه يجب استبدال كل أنواع الدهون التي يتناولها الإنسان، وخاصة بعد سن الأربعين بزيت طازج، حيث ثبت ومن خلال التجارب المستفيضة أنه سبب في علاج كثير من الأمراض بإذن الله ومن هذه الأمراض ما يلي:

فزيت الزيتون الأسود الصافي نجده مسجلاً في دستور الأدوية في فرنسا، فهو دواء معترف به رسمياً، يذيب الدهون ويساعد في تقوية الكبد، وعلاج الكبد الدهني، وبذلك يزيد من النشاط ومن ناحية أخرى فقد ذكر الكتاب أن الدواء المعروف في الأسواق باسم Essential Fort يحتوي على نسبة عالية من زيت الزيتون، وهو الذي يوصف أساسياً لمرضى الكبد، كما أنه يحسن من وظائف الكبد، وخاصة أنه مضاد للسموم، ومن هنا فهو يزيد من قدرة الكبد على القيام بإزالة السمية.

واكتشف علماء يابانيون أن تعريض الجلد لزيت الزيتون ذي النوعية الجيدة بعد التعرض للشمس يقلص من احتمالات الإصابة بسرطان الجلد. ويعتبر زيت الزيتون غنياً بالمواد المانعة للتأكسد التي يُعتقد أنها تمتص التأثيرات الضارة للإشعاعات فوق البنفسجية، لكنه لا يمنع الأشعة فوق البنفسجية من اختراق الجلد.

وأجريت دراسة على ٧٦ شخصاً غير مصاب بأية أمراض قلبية لمعرفة تأثير زيت الزيتون على ضغط الدم فوجد الباحثون أن ضغط الدم قد انخفض بشكل واضح عند الذين تناولوا زيت الزيتون في غذائهم اليومي، وكان انخفاض ضغط الدم أشد وضوحاً عند الذين تناولوا ٤٠ جراماً من زيت الزيتون يومياً.

وذكرت دائرة المعارف الصيدلانية الشهيرة "مارتندل" أن زيت الزيتون مادة ذات فعل ملين لطيف، ويعمل كمضاد للإمساك، كما أن زيت الزيتون يلفظ السطوح الملتهبة في الجلد، ويستعمل في تطرية القشور الجلدية الناجمة عن الأكزيما وداء الصدف. وإذا شرب بالماء الحار سكن المغص، ويعالج القولون، ويطرد الديدان، ويفتت الحصى ويصلح الكلى، والاحتقان به يسكن المفاصل، ويعالج أوجاع الظهر، ويمنع الشيب ويصلح الشعر ويمنع سقوطه، ويقطع العفن ويشد الأعضاء، والاكتحال به يقلع البياض ويحد البصر، وينفع من الجرب السلاق.

وجه الإعجاز:

ما تقدم يؤكد أهمية زيت الزيتون وفوائده، وبعد أن كان ينتج بكميات قليلة ولا يؤبه له كانت نتائج هذه الأبحاث كالدعاية له فصار الطلب عليه كثيرًا وارتفعت أسعاره كثيرًا.

وقد أمرنا نبينا الأكرم ﷺ بتناوله والإدهان به قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان بقوله: «كُلُوا الزَّيْتِ وَأَدِّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ»، يأمرنا بتناوله وهو غير شاك ولا يخاف أن تظهر بعد أيام أو أشهر أمراض أو عاهات جراء تناوله، ولا شك أن الذي يأمرك بأمر هو غير متيقن منه فإنه يضع لنفسه نوعًا من الإحتراطات والتحوطات بأن يحيل الخبر إلى قائله أو يخبرك بأن هذا العلاج في طور التجربة كما تفعل كثير من مراكز الأبحاث اليوم.

فالسؤال إذن من الذي أخبر نبينا محمدًا ﷺ بقيمة زيت الزيتون، والتي أثبتها البحوث العلمية الحديثة، وقد أمر ﷺ بذلك وهو رجل أمي لا يحسن القراءة ولا الكتابة، ويعيش في زمن لم تكن فيه أي من وسائل البحوث والتقنية المتوفرة اليوم، لا في بلاد الحجاز ولا في أي مكان من العالم؟

المشي حافياً أحياناً:

عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يَأْمُرُنَا أَنْ نَحْتَفِيَ أحياناً». (رواه أبو داود، وصححه الألباني). (نَحْتَفِيَ): أي نمشي حفاةً بدون حذاء.

إن للمشي آثار إيجابية على المستوي الجسدي، والنفسي، والعقلي، والروحي. وأمرنا رسولنا صلى الله عليه وآله وسلم أن نفعل حيناً بعد حين، نوعاً خاص من المشي، وهو المشي حافياً.

ما هو الرفلكسولوجي؟

الرفلكسولوجي (Reflexology) تترجم بالعربية بعلم الانعكاس، وفي بعض المراجع المترجمة أو المعربة يعرف بعلم الإرتكاس. وهو علم يهتم بدراسة وممارسة الضغط - بطريقة علمية - على نقاط معينة في اليدين والقدمين، تسمى بمناطق ردات الفعل. ويُصنف هذا العلم من الطب المكمل للطب الكلاسيكي الذي تتداوى به.

ويهدف علم الانعكاس إلى مساعدة الجسم على استعادة توازنه الطبيعي. ويُنشئ ظروفاً إيجابية تساعد على معالجة نفسه بنفسه، لانعكاس الحالة الصحية على القدمين، وبسبب الاتصال الوثيق بين مختلف الأعضاء، والأعصاب، والغدد في الجسم، وبين مناطق ردات الفعل المعينة في باطن القدم والأصابع وأطرافها وجوانب القدمين، وذلك بواسطة الشبكة الحصية. حيث يوجد بالقدمين ٧٢٠٠ نهاية عصبية، تتصل بباقي أجزاء الجسم من خلال الحبل الشوكي والدماغ.

عمل علم الانعكاس:

يقوم عمل هذا العلم على تنشيط النقاط الخاصة برّد الفعل المنعكس الموجودة بالقدمين أو اليدين، وذلك بالضغط بالأصابع أو أداة خشبية، ويؤثر هذا الضغط مباشرةً على الغدد، والأعصاب، وبقية أعضاء الجسم، والتي بدورها تسهل جريان الدورة الدموية، والطاقة الحيوية بشكل أفضل. ومن هذه التأثيرات: التخلص من التوترات العضلية، والنفسية، والعقلية، التي تؤثر سلباً على الصحة العامة.

فرضيات وقواعد:

إذا استبدلنا أدوات العلاج بعلم الإنعكاس - إبهام المعالج أو القطعة الخشبية - بضغط الجسم على الحصى والحجارة. وبفرض صحة المكان (يقصد به خلو المكان من الملوثات والتي قد تسبب الضرر كالزجاج المكسر مثلاً) مقابل نظافة أدوات العلاج بالانعكاس. وبالمقارنة مع أهم قواعد علم الانعكاس وهي: أن يتم تنشيط النقطة المتصلبة أو المؤلمة في القدم - بالضغط عليها - بشرط أن لا تتجاوز الضغطة على نصف الدقيقة، وأن يتم علاج أي نقطة متصلبة أو مؤلمة حتى وإن لم يعرف المعالج أو المريض إلى أي عضو تتبع، لأنه لو لم تكن هناك مشكلة في العضو التابع لهذه النقطة في القدم، لَمَا كانت هناك نقطة متصلبة أو ألم، وأن لا نعالج النقطة الواحدة أكثر من مرتين يومياً.

هذه القواعد يمكن توفرها في المشي حافياً أيضاً عن طريق علاج النقط المتصلبة وغيرها، ولكن تتم معالجة المناطق عشوائياً، ولن تكون مدة الضغط لأكثر من نصف دقيقة إلا إذا تعمد عدم المشي. إلا أنه في المشي حافياً لن يكون هناك علاج للنقاط التي في ظهر وبجانب القدمين. ومع ذلك فإنه من الممكن أن نستنتج بعض الفوائد لهذا النوع من المشي بالمقارنة مع علم الإنعكاس وبصورة عامة ومختصرة كما يلي:

المشي حافياً وأثره على الجسم:

الضغط على مناطق رَدّ الفعل في القدم لبعض الوقت أثناء المشي حافياً، يحث الكبد، والقولون، والجلد، والرئتين، على القيام بوظائفهم الحيوية، ويستخرج السموم الموجوده فيها بعيداً عن الجسم.

كما أنه يمكننا - كما يناظره في علم الإنعكاس - أن نتعرف على وجود الخلل في أي عضو في الجسم، حتى وإن لم يتم الكشف عن وجود علة في ذلك العضو، وذلك بشدة الألم الحاصلة عند نقطة رد الفعل دون غيرها في القدم. إن عملية ضغط الجسم على نقطة الانعكاس، تقوم بإرسال موجة من النشاط - أكسجين وغذاء... - والتي تحفز الجهاز الدوري، والأعصاب؛ لمساعدة العضو المصاب والقضاء على التجلطات والاحتقانات التي توجد فيه.

المشي حافيا وأثره على النفس والعقل:

هذا النوع من المشى يمد الجسم بالحيوية والطاقة اللازمة. فمثلا: تدفق الدم لخلايا الجسم المحمّل بالأكسجين، والطاقة، يحارب كافة حالات التعب المزمن والكسل. ويعمل أيضاً على إزالة الأحاسيس السلبية. ويعيد التوازن العضوي والفكري. وهذا بدوره يساعد على تجلي الأفكار، وزيادة القدرة على التركيز والانتباه، ويساعد على إزالة الضغط النفسي الذي يدمر مناعة الجسم، ويجعله عرضة للإصابة بالأمراض العضوية.

المشي حافياً والطاقة:

غالبا ما تكون النقاط في القدمين مؤلمة أكثر مما هي في اليدين وبقية أعضاء الجسم، لأنه بحسب قانون الجاذبية، ووقوفنا الكثير على قدمينا، ترسب مواد معينة تسبب إغلاق لمسارات أو تيارات الطاقة الكهرومغناطيسية، والضغط على هذه النقاط المتصلبة يساعد على فتح القنوات لهذه الطاقة. ويتسنى - بالاتصال المباشر - لذبذبات الطاقات المنبعثة من المعادن والألوان الموجودة في الحصى والحجارة أن تسير هذه الطاقات في مداراتها بحركة طبيعية، فتعود بذلك الحيوية إلى جميع الأعضاء التابعة لهذه المسارات.

المشي حافياً وأثره على الروح:

الجانب الروحي يسمو بالطاعات. والمشى حافياً هو طاعة لأمر رسولنا ومعلمنا ﷺ. وإن عملية تذكّر الأجر - الذي أعده الله ﷻ لمن أطاع أمره ابتغاء وجهه الله الكريم - في الدنيا والآخرة أيضا يزيد من قوة الإيمان واطمئنان القلب.

علم الانعكاس محدود الإمكانيات:

وكما أن علم الانعكاس محدود الإمكانيات - إذ لا يستطيع بواسطته إيقاف أي علاج بالأدوية أو الامتناع عن إجراء أي عملية جراحية - فإنه يمكن القول بإمكانية محدودة المشى حافياً أيضاً. ويمكن اعتبار المشى حافياً لبعض الوقت علاجاً مكتملاً، ووقائياً، كما هو الحال في علم الانعكاس. وهذا واضح في نصائح بعض أطباء الطب

الحديث لبعض الحالات الطبية: كالفطريات في الأقدام، أو ما يسمى بمرض قدم الرياضيين، أو دوالي الساقين أو القدم المفلطحة المؤلمة.

أما السؤال كم من الوقت نحتاج أن نمشي؟ وكم عدد المرات التي نمشيها في الأسبوع؟ فالإجابة عليها تعتمد على: طبيعة الأرض ومقاييس الحصى الذي سوف نسير عليها، وعلى سُمك جلد القدم، والوزن، والعمر، ومقدار الضغط على القدم، وكيفية توزيع هذا الضغط. والإجابة على هذه التساؤلات تكمن في كلمةٍ من أوتى جوامع الكلم ﷺ: «أحياناً». فهي تفي بالغرض كما يفهمها المطبق لهذه السنة. ومن أفضل المعايير الدينية والعقلية: كل إنسان على نفسه بصيرة، ولا ضرر ولا ضرار.

إن المصدق برسالة الرسول ﷺ، والمطيع لأوامره، له الأجر في الدنيا والآخرة. وكما أن عدم معرفة الحِكم من تطبيق أي سنة لا يعني الحرمان من الحصول على منافعها، فإن معرفة الحِكمة أو الفوائد المرجوة من تطبيقها تزيد من قوة الإيمان.

الإعجاز العلمي في سؤرها:

أكد الرسول ﷺ في العديد من الأحاديث الصحيحة أن القطط طاهرة غير نجسة، وكان يسميها من الطوافين والطوافات في البيوت، وكان يتوضأ من الماء الذي شربت منه القطعة واعتبره طاهراً. فاهرة طاهرة البدن، طاهرة الريق، ريقها طاهر، فسؤرها طاهر، أي بقية شراها، أو بقية ما تأكله طاهر.

عَنْ كَبْشَةَ بِنْتِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ - وَكَانَتْ تَحْتَ ابْنِ أَبِي قَتَادَةَ (١) - أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ دَخَلَ فَسَكَبَتْ لَهُ وَضُوءًا فَجَاءَتْ هَرَّةٌ فَشَرِبَتْ مِنْهُ فَأَصْغَى لَهَا الْإِنَاءَ (٢) حَتَّى شَرِبَتْ، قَالَتْ كَبْشَةُ: فَرَأَيْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَقَالَ: «أَتَعْجَبِينَ يَا ابْنَةَ أَخِي». فَقُلْتُ: «نَعَمْ». فَقَالَ إِنَّ

(١) وَكَانَتْ تَحْتَ ابْنِ أَبِي قَتَادَةَ: أي أنه أبا قَتَادَةَ ﷺ كان والد زوجته.

(٢) فَأَصْغَى لَهَا الْإِنَاءَ: أي أماله.

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجْسٍ؛ إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ». (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

وَعَنْ دَاوُدَ بْنِ صَالِحِ بْنِ دِينَارِ التَّمَّارِ عَنْ أُمِّهِ أَنَّ مَوْلَاهَا أَرْسَلَتْهَا بِهَرِيَسَةَ إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَوَجَدَتْهَا تُصَلِّي فَأَشَارَتْ إِلَيْهَا أَنْ ضَعِيهَا فَجَاءَتْ هِرَّةٌ فَأَكَلَتْ مِنْهَا فَلَمَّا انصرفت أكلت من حيث أكلت الهرة فقالت إن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجْسٍ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ». وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ بِفَضْلِهَا. (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصْغِي إِلَى الْهَرَّةِ الْإِنَاءَ حَتَّى تَشْرَبَ، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ بِفَضْلِهَا» (رواه الدارقطني وغيره، وصححه الألباني).

والسؤال الذي يطرح نفسه:

هل كان الرسول الأُمِّي ﷺ طبيباً مخبرياً ليقول إن الهرة طاهرة وليست بنجس، وقال إن لعاب الكلب نجس، وهذا شيء معروف للجميع اليوم وأثبت علمياً، فكيف علم بأنه لا يوجد في الهرة جراثيم؟ إن الحقائق العلمية والتجريبية الموثقة عن الهرة مطابقة لما جاء به النبي ﷺ قبل أربعة عشر قرناً.

إن من عادات القط المعروفة تنظيفه لنفسه حتى إن العالم "باستير" قال إن القطط حيوانات نظيفة بسبب قضايمهم يومهم في تنظيف أنفسهم، ولا يوجد منطقة في جسم القط إلا ويصلها هذا التنظيف.

ونظراً لتعرض جلد القط للبيئة الخارجية لن يكون من المفاجئ أن نعلم أن هناك خلايا فيه تعمل عمل دفاعي مثل الكريات البيضاء، والجلد يحوي خلايا عديدة تعدل من حساسية خلايا الأدمة. أما سطح اللسان فهو مغطى بعدد من التتواتر المدببة المنشارية الشكل، وهذه التتواتر المعقوفة الكبيرة المخروطية يجعلها مبرد حقيقي أو فرشاة مفيدة جداً لتنظيف الجلد. فالقطط مجهزة بأفضل آلة للتنظيف وهي اللسان فالسطح الخشن يزيل الشعر الميت وينظف الوبر المتبقي.

إنه ليس من المستغرب أن القط يجب الحليب ولكن طريقة استعماله للسانه للعلق الحليب من الصعب تصورها، وعندما تتحسس لسان القط ستجد أنه مغطى بتتوءات حادة تعمل عمل أسنان المشط وكان البعض يظن أن هذه التتوءات تستخدم كجيوب صغيرة لتحمل السائل إلى الفم لكي يتم ابتلاعه ولكن بدلاً من هذه الطريقة التي تصور البعض أن القط يشرب بها فإن القط يجعل بطن اللسان لسطح السائل أو الحليب حيث يحمل السائل عليه بطريقة لا تجعل أي شيء منه يعود للوعاء.

وقد قام أحد الباحثين بفحص مجموعات مختلفة من العينات لأعمار مختلفة من القطط ومن أماكن مختلفة من جسم الحيوان (الظهر - باطن الكف والقدم - محيط الفم - الذيل) حيث أخذ مسحات للدراسة وتم زراعتها على أوساط الزرع الخاصة بالجراثيم (سلبية جرام - إيجابية جرام - وسط EMB - وسط Moler henton - وسط Blood agar)، وقد تم أخذ عينات خاصة من الجدار الداخلي للفم وسطح اللسان وتوصل للنتائج التالية:

١- كل النتائج المأخوذة من السطح الخارجي كانت سلبية حتى بعد إعادة الزرع لعدة مرات.

٢- نسبة المزرعات التي أعطت نتيجة سلبية كانت ٨٠٪ بالنسبة للعينات التي أخذت من جدار الفم.

٣- أخذت عينات من سطح اللسان وكانت نتيجتها سلبية.

٤- نوع الجراثيم التي ظهرت أثناء الدراسة بشكل عام كانت من الزمر الجرثومية التي تعتبر من الزمر الطبيعية التي تتعايش عند الإنسان بنسب محددة (أنتروباكتري - ستريبتوكوكس - ستافيلوكوكس) وكانت بأعداد أقل من ٥٠٠٠٠٠ مستعمرة (خمسين ألف مستعمرة).

٥- لم يظهر لديه في الزراعة أي زمرة جرثومية معقدة.

إن التحليل المخبري الموثق من عدة مصادر يثبت أن الهر ليس عليه جراثيم ولا ميكروبات وأن لعابها طاهر مطهر.

أقوال أطباء مختصين بعلم الجراثيم:

قال الدكتور جورجس مقصود (رئيس قسم المخابر في مشفى البيطرة): «نادراً ما تجد جراثيم على السطح الخارجي للقط وإن وجد فإن القط سيكون مريضاً». والقطط تكره الماء وتبتعد عنه لأن الماء هو موطن مثالي للبكتريا وخصوصاً إن كان راكداً والقطط تحافظ على درجة حرارتها ثابتة فتبتعد عن الشمس ولا تقترب من الماء لكي لا تنتقل البكتيريا لها وهذا يعلل عدم وجود جراثيم على فراء القطط الذي تحتفظ به جاف دائماً.

وجه الإعجاز:

من هذه النتائج الطبية والتجارب التي أجريت في المختبرات المختصة بالجراثيم يتبين أن الهر جسده نظيف بالكامل، وأن الله ﷻ زوّد هذا القط بغدد تحمي جلده من الجراثيم وبلسانٍ فيه تنوعات يساعد على تنظيف الجسد ويصل إلى كل الأماكن تقريباً، وحتى قمة الرأس ينظفه القط بظهر كفه، ويتبين كذلك أن لعابه فيه نسبة جراثيم أقل مما عند الإنسان بمقدار الربع وفيه مادة معقمة ومطهرة، وأنه عندما يشرب من وعاء يشرب منه الإنسان لا يسقط شيء من فمه في هذا الوعاء.

ومن الأحاديث النبوية الشريفة التي مرت علينا يظهر لنا أن النبي ﷺ عندما اعتبر سؤر الهرة طاهر وتوضأ به أنه أعطانا إشارة طبية إلى طهارة هذا الهر وإلا لَمَا كان توضأ بسؤره. فسبحان الله كيف عرف النبي ﷺ أن الهر ليس بنجس لو لم يكن رسول الله ﷺ وهو الذي لا ينطق عن الهوى.

علاج عرق النساء:

ما هو عرق النساء؟ هو مرض يصيب الإنسان فيقعه تقريباً عن الحركة بسبب آلام شديدة تقع في أسفل الظهر عند الورك الأيمن أو الأيسر أو كليهما. وسمي بذلك: لأن ألمه يُنسي ما سواه.

إن مرض عرق النساء ليس بالجديد بل هو مرض قديم ومعروف، وأما علاجه فإن العلماء اليوم قد وجدوا له ما يخففه أو يعالجه ويزيله، إلا أن هذا المرض القديم لم

يكن يُعرَف له علاج ناجع ومفيد سوى النوم بالفراش والاستسلام له، ولكن نجد أن رسولنا ﷺ وقد عاش في القرن السادس الميلادي أي قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة أوصى المريض بعرق النسا بعلاج لم يعرفه من قبله أحد.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال الطبرستاني: « شَفَاءُ عِرْقِ النَّسَا أَلِيَّةٌ شَاةٌ أَعْرَابِيَّةٌ تُذَابُ ثُمَّ تُجَزَّأُ ثَلَاثَةً أَجْزَاءٍ ثُمَّ يُشْرَبُ عَلَى الرَّيْقِ فِي كُلِّ يَوْمٍ جُزْءٌ ». (رواه ابن ماجه في سننه، والحاكم في المستدرک وصححه، وأقره الذهبي والألباني).

من وصايا الحديث النبوي هذا نستخلص بأن الإلية يجب أن تكون لكبش عربي ويتم تقطيعها إلى أوصال صغيرة ثم تذاب ثم يقسم زيتها إلى ثلاثة أقسام ثم يشرب كل قسم في يوم على الريق أي قبل تناول أي شيء قبله.

بيان الشروط الواردة في الحديث النبوي الشريف:

١- جاء في علاج عرق النسا أن تكون إلية شاة عربية وهي التي ترعى في الطبيعة وتعيش على النباتات الطبيعية والحشائش الغنية بمادة أميغا ٣ مثل نبات الشيح والقيصوم فالشاة الأعرابية بالغريزة ترعى الأعشاب المفيدة، وتبتعد عن الأعشاب السامة.

ولقد اكتشف العلم الحديث أكثر من ٧٠٠ دواء من الأعشاب البرية فالشاة الأعرابية ترعى على النباتات البرية المفيدة وتهضمها وتحول زيوتها المفيدة إلى دهون تتركز في إليتها.

٢- يتم تقطيع الإلية إلى أوصال صغيرة ثم تذاب ثم يقسم زيتها إلى ثلاثة أقسام ثم يشرب كل قسم في يوم على الريق أي قبل تناول أي شيء قبله، فما الحكمة العلمية المستقاة من هذه الشروط التفصيلية؟

أما في قوله (تُذَابُ) ففائدة ذلك هو لتعقيم الإلية برفع درجة الحرارة إلى درجة متوسطة كافية لقتل البكتريا والجراثيم إضافة لتذويب الدهون الغير مشبعة، ولكن دون الوصول إلى درجة حرارة عالية مثل ما يحدث في عملية القلي بالزيوت، حيث يتغير الشكل الهندسي للدهون الغير المشبعة من شكل الجيد للجسم البشري والمتوفر في

الحالة الطبيعية للزيوت النباتية، إلى الشكل غير الطبيعي والذي تتحول فيه هذه الدهون إلى مواد ضارة بصحة الإنسان.

أما تقسيمها إلى ثلاثة أقسام لا أكثر ولا أقل فإن زيادة الجرعة إلى أكثر من ثلاثة قد يؤدي إلى تزنج وفساد الدهن بتعرضه للتأكسد الذي يكتشف بتغير طعمه، وأما إنقاص الجرعات إلى أقل من ثلاث فهو لأن الكمية الكبيرة من هذا الزيت الحيواني قد يؤدي تناولها دفعة واحدة إلى حدوث أعراض أو إصابة بتصلب الشرايين المفاجئ أو ما يسمى بالجلطة.

٣- وأما قوله (عَلَى الرَّيْقِ) فبيّن أهمية أن يتناول الإنسان السائل الدهني على الريق حيث إن تناول الإنسان السائل على الريق يعني عدم وجود دهن آخر يمكن أن ينافس دهن الإلية ويعرقل استئثارها بالعديد من السوائل والأنزيمات المهمة، مثل سوائل المرارة والبنكرياس التي تعمل على تسهيل مرور الدهون عن طريق جدار القناة الهضمية إلى داخل الجسم، ومثل الإنزيمات التي تعمل ضمن الجدار الخلوي كي تحول دهون الإلية من نوع "أوميغا ٣" إلى "البرستجلنديينات" النافعة من الصنف الثالث والتي تخفف الالتهابات والآلام الناتجة عن مرض عرق النساء.

دور الدهون في علاج عرق النساء:

قام الدكتور زهير بن رباح قرامي؛ وهو طبيب متخصص في مجال أمراض الروماتويد والروماتيزم - وهو يعمل حالياً في مستشفى خاص رئيساً لقسم العلاج الطبيعي - قام بمعالجة بعض من ابتلى بعرق النساء، فتحقق له أن تناول هذه الألية بالكيفية التي أرشد لها الرسول الكريم ﷺ قد أفضى لنتائج طيبة؛ ولذلك فإنه قد أنجز بحثاً بعنوان "علاج عرق النساء بألية شاة أعرابية" إذ ذكر فيه آليّة الاستشفاء بألية الشاة الأعرابية، وكيف أن هذه الألية تحتوي على مجموعة من الدهون منها نوع مفيد جداً في هذا المجال اسمه (أوميغا ٣).

كما أنه ذكر بعض الحكّم التي يشير إليها الرسول ﷺ عندما يرشد إلى اختيار الشاة الأعرابية، وأن يتم تناولها شرباً بعد الإذابة وأن يتم ذلك على ثلاث دفعات كل

يوم دفعة؛ مبيناً كذلك ما الذي يحدث لدهن الألية عند امتصاص الأمعاء لها وبخاصة لدى تناولها على الريق. وقد شفع بحثه بشهادات بعض الذين حصل لهم الشفاء بتعاطي هذه الوصفة النبوية.

وجه الإعجاز:

إن من يعطي وصفة طبية لآخر فهو أحد اثنين إما أن يكون طبيباً وإما أن يكون قد أخبر من مصدر آخر أعلم بهذا المرض منه! ورسولنا محمد ﷺ لم يكن طبيباً ولم يُعرَف عنه أنه كان يمارسه بل لا يُعرَف في زمنه مَنْ كان يصف العلاج بهذه الصورة ممن كان يمارس الطب في زمنه، فإن وصفة العلاج التي مرت بنا هي فريدة من نوعها لم يسبق أن دونها أحد من الحكماء ولا الأطباء. بقي إذن الاحتمال الآخر وهو أن الله ﷻ هو الذي أخبر النبي محمداً ﷺ.

التداوي بأبوال الإبل:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نَفَرًا مِنْ عُكْلِ ثَمَانِيَّةٍ، قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَاسْتَوْخَمُوا الْأَرْضَ فَسَقَمَتْ أَجْسَامُهُمْ، فَشَكُوا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «أَفَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِيْنَا فِي إِبِلِهِ، فَتَصِيبُونَ مِنَ اللَّبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا» قَالُوا: «بَلَى»، فَخَرَجُوا فَشَرِبُوا مِنْ اللَّبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَصَحُّوا. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

ومعنى (استَوْخَمُوا الْأَرْضَ): أي استثقلوها ولم يناسبهم سُكْنَاهَا.

ومما جاء في التداوي بأبوال الإبل أن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي أَبْوَالِ الْإِبِلِ وَاللَّبَانِهَا شِفَاءً لِلدَّرْبَةِ بَطُونُهُمْ» (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ، وَحَسَنَهُ الْأَرْنَؤُوطُ، وَضَعَفَهُ الْأَلْبَانِي).

والدَّرْبُ: هو الداء الذي يَعْرِضُ لِلْمَعْدَةِ فَلَا تَهْتَضِمُ الطَّعَامَ وَيَفْسُدُ فِيهَا وَلَا تُمَسِّكُهُ، أي هو فساد المعدة حتى لا يثبت الطعام فيها، وقيل من معانيها: الدَّرْبُ: داءٌ يَكُونُ فِي الْكَبِدِ بَطِيءُ الْبُرءِ.

وأجاز جمهور العلماء التداوي بأبوال الإبل.

إن الجمل يستطيع تحمل درجات الحرارة حتى ٧٠ درجة مئوية فوق الصفر، والجمل ذو السنمين يتحمل برودة تصل إلى ٤٠ درجة تحت الصفر!

والجمل يستطيع شرب الماء العذب والمالح! ولديه القدرة على تحمل العطش لأكثر من شهر. ويستطيع الجمل السير في الصحراء مهما كانت الظروف من غبار وعواصف وحرارة. وقد أثبت العلماء حديثاً الفوائد العظيمة في ألبان الإبل وأبوالها وذلك في علاج العديد من الأمراض، وهذا ما حدثنا عنه الرسول الكريم ﷺ.

حقائق علمية مذهشة في الجهاز البولي للإبل:

إن الكليتين في الإنسان وفي سائر الحيوانات تعمل على طرد مادة البولينا (اليوريا) وطرحها في البول، بينما يختلف الأمر كلياً في الإبل، فكليته لها القدرة على التحكم في إخراج اليوريا مع البول، والقدرة الأكثر عجباً هي أن الكليتين لا تكتفي بمنع خروج اليوريا مع البول فقط بل تخلصانها من البول وتعيدها إلى الدم حتى تعود إلى المعدة بألية عجيبة ليتم تصنيعها داخل المعدة وإنتاج البروتين، وهذه الصفة خاصة بالإبل، ولها أهمية كبيرة في تحمّل الإبل للجوع، وبذلك تصبح المادة السامة (اليوريا) مصدرًا غذائيًا جيدًا عند الإبل حيث يضاف ذلك البروتين المصنّع في المعدة إلى النباتات الفقيرة بالبروتين والتي لا يوجد غيرها في المراعي، وخاصة في سنوات القحط والجفاف.

وعند زيادة كمية اليوريا عن حاجة الإبل فإن الكمية الزائدة من اليوريا تخرج مع البراز ولا تعود إلى الكليتين، وهذا الأمر يجعل بول الإبل خالياً من الأضرار الناتجة عن تناول المادة السامة (اليوريا).

ومن الحكمة الإلهية أن الإبل تتغذى على النباتات بطريقة مختلفة عن سائر الحيوانات الأخرى بسبب خلقها المتميز بإذنه تعالى، لذا فإنها تتغذى على نباتات مختلفة بالإضافة إلى أن خفافها تحملها إلى مناطق بها نباتات لا تستطيع غيرها من الحيوانات الوصول إليها، كما أن طريقة تغذيتها بقضمها من كل نبات قزمة أيضاً يُظهر حكمة إلهية لإظهار تنوع المواد الفعالة المتواجدة في النباتات في أبوالها وسيحصل عليها

الإنسان جاهزة في أبوالها بدلاً من محاولة فصلها بالطرق الشاقة والمكلفة من قبل الإنسان.

وقد تم عزل بكتريا من بول الإبل وأثبتت التجارب البحثية أن تلك البكتريا تمتلك قدرة عالية على مكافحة بعض الميكروبات الممرضة شملت البكتريا الفطريات والخميرة الممرضة، وهذه البكتريا ستضفي على أبوال الإبل دوراً في العلاج سواء عن طريق المكافحة الحيوية لمسببات الأمراض أو عن طريق ما تفرزه من مضادات حيوية.

القدرة العلاجية لبول الإبل في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة:

استطاع العلم أن يتوصل إلى كثير من الحقائق العلمية التي كانت غائبة عن أذهان الناس وعن معارفهم إلى وقت ليس بالبعيد، فمن خلال الاكتشافات الطبية والتأثير المخبرية توصل العلماء إلى كثير من الفوائد العلاجية في أبوال الإبل، ولا يزال البحث مستمرًا إلى يومنا هذا، ومما جاء في ذلك:

١- بول الإبل يعالج أنواعاً من السرطان:

أجريت تجربة علمية ومخبرية في كلية الزراعة في جامعة الكويت وذلك بالتعاون مع مكتب الطب الإسلامي في الكويت عام ١٩٨٨م، حيث أجريت في هذه التجربة عملية حقن نباتات مسرطنة بتراكيز مختلفة من بول الإبل، وذلك بغرض إمكانية تثبيط نمو الخلايا السرطانية ببول الإبل. وهذه الدراسة استندت إلى أن البدو في الكويت والصحراء العربية يعالجون السرطان ببول الإبل.

وقد خلصت هذه التجربة إلى أن بول الإبل قد أوقف نمو الخلايا السرطانية بعد عدة أسابيع من استعماله وأنه يمكن أن يفيد في علاج سرطان الجهاز الهضمي وسرطان الدم.

٢- بول الإبل علاج نافع لداء الاستسقاء وأمراض الكبد:

من التجارب الجيدة في ذلك التجارب التي أجراها عميد كلية المختبرات الطبية بجامعة الجزيرة السودانية البروفسور أحمد محمد أحمداني، وقد أجريت على (٢٥) مريضاً، حيث جرى تشخيص لأكباد المرضى قبل بداية الدراسة بالموجات الصوتية،

وتم اكتشاف أن كبد خمسة عشر مريضاً من الخمسة وعشرين مريضاً في حالة تشمع، وبعضهم كان مصاباً بتليف الكبد بسبب مرض البلهارسيا، وطريقة العلاج كانت عن طريق إعطاء جرعة يومية محسوبة من بول الإبل (بمقدار ١٥٠ مل) مخلوطة مع لبنه.

وقد استجاب جميع المرضى للعلاج باستخدام بول الإبل، وبعد خمسة عشر يوماً من بداية التجربة انخفضت بطون أفراد العينة وعادت لوضعها الطبيعي، وشفوا تماماً من الاستسقاء، وهو تجمع السوائل في تجويف الجسم نتيجة مشاكل في الكبد.

وبعض أفراد العينة من المرضى استمروا برغبتهم في شرب جرعات بول الإبل يومياً لمدة شهرين آخرين، وبعد نهاية تلك الفترة أثبت التشخيص شفاءهم جميعاً من تليف الكبد، وقال البروفسور أحمداني في ندوة نظمتها جامعة الجزيرة: إن بول الإبل يحتوي على كمية كبيرة من البوتاسيوم، كما يحتوي على زلال وماغنسيوم، إذ إن الإبل لا تشرب في فصل الصيف سوى أربع مرات فقط ومرة واحدة في الشتاء، وهذا يجعلها تحتفظ بالماء في جسمها لاحتفاظه بمادة الصوديوم، إذ إن الصوديوم يجعلها لا تدر البول كثيراً؛ لأنه يرجع الماء إلى الجسم، وأوضح أن مرض الاستسقاء ينتج عن نقص في الزلال، أو في البوتاسيوم، وبول الإبل غني بهما، وأشار إلى أن أفضل أنواع الإبل التي يمكن استخدامها بولها في العلاج هي الإبل البكرية.

٣- بول الإبل ودوره في علاج أمراض الجهاز الهضمي:

من التجارب الحديثة في ذلك التجربة التي أجرتها الدكتورة سناء أحمد خليفة، حيث قامت تجربتها على دراسة التغيرات النسيجية المرضية في أمعاء الأرانب والتي تظهر عند إصابة الحيوانات ببكتريا القولون ثم دراسة تأثير المعاملة بعقار "الباكترِيم" وأيضاً بأبول الإبل على الأنسجة المصابة وذلك من خلال تتبع التغيرات النسيجية والخلوية والكيميائية نسيجية بتلك الأنسجة ولمعرفة القيمة العلاجية لكل منها.

وأظهرت هذه التجربة المقدره العاليه لبول الإبل في القضاء على هذه البكتريا وإيقاف الإسهال، مع ملاحظة عدم وجود أي آثار جانبية سلبية على الأرانب التي عولجت ببول الإبل. وخلصت الدكتورة سناء خليفة في نهاية تجربتها إلى أن بول الإبل له

فعالية عالية ضد الميكروبات الممرضة والتي تسبب أمراضًا مختلفة للإنسان والحيوان والنبات، وأنه يمكن استخدام بول الإبل كمضاد فعال ضد الإسهال للإنسان والحيوان.

٤- بول الإبل وعلاج الأمراض الجلدية:

أثبتت التجارب الحديثة قدرة بول الإبل في علاج بعض الأمراض الجلدية، فقد قامت الدكتوراة أحلام العوضي بتجربة في عام ١٩٩٨م على بعض الأشخاص لعلاجهم بأبوال الإبل وتم علاجهم من عدد من الأمراض الجلدية بالإضافة إلى الجروح.

وذكرت الدكتوراة أحلام أن بول الإبل استخدم لعلاج السعفة (التينيا) والدمامل والجروح التي تظهر في جسم وشعر الإنسان سواءً في الرأس أو الوجه بالإضافة إلى علاج القروح التي تكون يابسة أو رطبة يسيل منها الصديد.

٥- اكتشاف مضاد حيوي ذو فعالية عالية من بول الإبل:

توصلت منال القطان من خلال أطروحتها التي أشرفت عليها الدكتوراة أحلام العوضي عام ٢٠٠٢م إلى مستحضر طبي من بول الإبل، وتمت تسميته (أ- وزرين)، وأثبتت التجارب المعملية أن بول الإبل في صورته الطبيعية حتى لو صيغ في صورة مستحضر طبي ظهرت له فعالية عالية للقضاء على الفطريات، والبكتريا والخميرة المسببة للأمراض الجلدية، وأثبت المستحضر فعالية في علاج العديد من المتطوعين خاصة أن منهم من لم يفلح معهم العلاج الطبي بصورة فعالة وهي حالات إصابة الأظافر بالفطريات والخميرة، كما كان للمستحضر دور فعال في علاج الجروح، الشقوق الشرجية، الحساسية، والدمامل.

ومن مزايا المستحضر كما تقول الدكتوراة أحلام: أنه غير مكلف، ويسهل تصنيعه، ويعالج الأمراض الجلدية: كالإكزيما، والحساسية، والجروح، والحروق، وحب الشباب، وإصابات الأظافر، والسرطان، والتهاب الكبد الوبائي، وحالات الاستسقاء، بلا أضرار جانبية، وقالت: إن بول الإبل يحتوي على عدد من العوامل

العلاجية كمضادات حيوية (البكتيريا المتواجدة به والملوحة واليوريا)، فالإبل تحتوي على جهاز مناعي مهياً بقدرة عالية على محاربة الفطريات والبكتريا والفيروسات، وذلك عن طريق احتوائه على أجسام مضادة.

٦- بول الإبل يطيل الشعر ويمنع تساقطه ويزيل القشرة:

أجرت الباحثة السودانية منى شيخ إدريس في جامعة "الأحفاد للبنات" عام ١٩٨٩م دراسة على بول الإبل؛ والسبب في دراستها هذه أنها وجدت أن النساء البدويات في القبائل التي ترعى الإبل - خاصة في المغرب العربي- يغسلن شعرهن بصورة منتظمة ببول الإبل الذي يعمل كمنظف يزيل القشرة، ويمنع التساقط، ويعتقدن أنه يطيل الشعر.

وخلصت دراستها إلى أن بول الإبل يحتوي على قدر عالي من مركبات الكبريت والثيوسلفيت، وهي أهم مكونات الشامبو ومنظفات الشعر بالإضافة إلى تجربة عملية لعلاج مرض الجرب في الجمال ببول الإبل، فتوصلت منى إلى نتائج مذهلة في إنبات الشعر في الجمال التي أصابها الجرب.

وتواصل الدكتورة أحلام العوضي في سرد فوائد بول الإبل فتقول: كما أن في بول الإبل علاجاً لأوجاع البطن وخاصة المعدة والأمعاء، وأمراض الربو وضيق التنفس، وانخفاض نسبة السكر في المرضى بدرجة ملحوظة، وعلاج الضعف الجنسي، ويساعد على تنمية العظام عند الأطفال، ويقوي عضلة القلب، ويستخدم كمادة مطهرة لغسل الجروح والقروح، وخاصة بول الناقة البكر، ولنمو الشعر وتقويته وتكاثره ومنع تساقطه، ولمعالجة مرض القرع والقشرة، كما يستخدم بول الإبل في مكافحة الأمراض بسلالات بكتيرية معزولة منه، وقد عولجت به فتاة كانت تعاني من التهاب خلف الأذن يصاحبه صديد وسوائل تسيل منها، مع وجود شقوق وجروح مؤلمة، كما عولجت به فتاة لم تكن تستطيع فرد أصابع كفيها بسبب كثرة التشققات والجروح، وكان وجهها يميل إلى السواد من شدة البثور.

وتقول الدكتورة أحلام أيضًا: إن أبوال الإبل تستخدم أيضًا في علاج الجهاز الهضمي، وأشارت إلى أن الأبحاث التي أجرتها هي على أبوال الإبل أثبتت فاعليتها في القضاء على الأحياء الدقيقة كالفطريات والخمائر والبكتيريا.

هذه هي بعض الفوائد العلاجية لبول الإبل، ولا تزال هناك الكثير من الدراسات العلمية التي تجرى على بول الإبل، وسيكشف لنا المستقبل عن نتائج هذه الدراسات.

وجه الإعجاز:

بعد هذا السرد لهذه الفوائد العلاجية التي توصل إليها العلم الحديث في مجال التداوي ببول الإبل، نعلم أنه لم يبقَ هنالك أي محل لأدنى شك في أن أبوال الإبل لها قدرة علاجية فاعلة على مستويات متعددة، وخصوصًا أمراض الجهاز الهضمي وأمراض الكبد والأمراض الجلدية.

وهذا كله يتوافق مع التوجيهات النبوية والتي أشارت إلى أن أبوال الإبل - من دون سائر الأبوال - لها قدرة علاجية، ولم تكتفِ الأحاديث بالإشارة إلى ذلك فقط، بل نجدها تصف بول الإبل لعلاج حالات مرضية معينة.

سؤال وجوابه:

قد يقول قائل إن العصر الذي عاش فيه النبي ﷺ كان من الطبيعي أن يشرب الناس حليب الإبل، وقد أمر بشرب حليب الإبل ليس لحكمة طيبة بل لأنه عادة!

والجواب: إن العصر الذي عاش فيه النبي ﷺ كانت تنتشر فيه الكثير من أنواع الغذاء والشراب، فلماذا حرّم الخمر؟ ولماذا حرّم أكل السباع وأكل لحم كل ذي ظفر؟ ولماذا لم يأمر قومه بأكل لحم الحمار مثلاً؟ إذاً عندما سنّ النبي الأعظم أكل التمر وشرب ألبان الإبل وغير ذلك من الهدى النبوي الشريف إنما تقصّد هذه الأنواع لما فيها من الفائدة والشفاء.

الحجامة:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: «الشَّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيْيَةِ نَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيْ» (رواه البخاري).

وقد أوصت الملائكة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمه بالحجامة: فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: «مَا مَرَرْتُ لَيْلَةً أُسْرِي فِي بَيْمَلٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا كَلُّهُمْ يَقُولُ لِي عَلَيَّ يَا مُحَمَّدُ بِالْحِجَامَةِ». (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني).

الحجامة هي سحب الدم الفاسد من الجسم الذي يسبب مرض معين أو قد يسبب مرض في المستقبل بسبب تراكمه وامتلائه بالأخلاق الضارة.

والحجامة تنقي الدم من الأخلاق الضارة التي هي عبارة عن كريات دم هرمية وضعيفة لا تستطيع القيام بعملها على الوجه المطلوب من إمداد الجسم بالغذاء الكافي والدفاع عنه من الأمراض فبالحجامة تسحب هذه الأخلاق الضارة من كريات الدم الحمراء والبيضاء ليحل محلها كريات دم جديدة.

تكرار الحجامة:

إن تكرار الدواء، ومنه الحجامة، وأخذه على شكل جرعات متتالية ينبغي أن يكون حسب خبرة الطبيب المعالج ونوع المرض وإمكانية بُرئه، لأن كثيراً ممن يأخذون بالأسباب التي أمرنا بها شرعاً يغفلون عن هذا الأمر.

الحالات التي تفيد فيها الحجامة:

تفيد الحجامة فيما يقرب من ثمانين حالة ما بين مرض وعرض، وذلك طبقاً لنتائج الخبرة العملية التي سجلها الممارسون، كالروماتيزم، والنقرس، والشلل النصفي، والكلية، وضعف المناعة، والبواسير وتضخم البروستاتا، والغدة الدرقية، والضعف الجنسي، وارتفاع ضغط الدم، وقرحة المعدة، والقولون العصبي، والتبول اللاإرادي في الأطفال فوق خمس سنوات، وضيق الأوعية الدموية، وتصلب الشرايين، والسكر، ودوالي الساقين والخصية، والسمنة، والنحافة، والعقم، والصداع الكلي

والنصفي، وأمراض العين، والكبد، والكلى، وضعف السمع، والتشنجات، وضمور خلايا المخ، ونزيف الرحم، وانقطاع الطمث، وغير ذلك كثير.

استطبابات الحجامة في هدي النبوة:

١- **بَيْعُ الدَّمِ:** قال رسول الله ﷺ: «إِذَا هَاجَ بِأَحَدِكُمْ الدَّمُ فَلْيَحْتَجِّمْ؛ فَإِنَّ الدَّمَ إِذَا تَبَيَّعَ بِصَاحِبِهِ يَقْتُلُهُ». (أخرجه ابن جرير الطبري في "تهذيب الآثار" وهو في "السلسلة الصحيحة" للألباني).

والتبيغ هو التهيج، والمعنى زيادة الدم أو تهيجه وأكثر ما يحدث في ارتفاع التوتر الشرياني المترافق باحتقان الوجه والملتحمتين والشفنتين واليدين والقدمين ويحدث أيضًا في فرط زيادة كرات الدم الحمراء والتي تحدث بأسباب عديدة.

٢- **أوجاع الرأس أو الصداع:** عَنِ سَلْمَى خَادِمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: مَا كَانَ أَحَدٌ يَشْتَكِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعًا فِي رَأْسِهِ إِلَّا قَالَ: «اِحْتَجِّمْ». وَلَا وَجَعًا فِي رِجْلَيْهِ إِلَّا قَالَ «اخْضِبْهُمَا». (رواه أبو داود، وحسنه الألباني).

٣- **الشقيقة (الصداع النصفي):** عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اِحْتَجَّمَ وَهُوَ مُحْرِمٌ فِي رَأْسِهِ مِنْ شَقِيقَةٍ كَانَتْ بِهِ. (رواه البخاري).

٤- **علاج الوثء - وهو التواء المفصل العنيف:** عَنِ جَابِرِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اِحْتَجَّمَ عَلَى وَرِكِهِ مِنْ وَثْءٍ كَانَ بِهِ. (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

٥- **علاج الآلام:** عَنِ أَنَسِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اِحْتَجَّمَ وَهُوَ مُحْرِمٌ عَلَى ظَهْرِ الْقَدَمِ مِنْ وَجَعٍ كَانَ بِهِ. (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

6- علاج الخراج:

عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ قَالَ: جَاءَنَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه فِي أَهْلِنَا وَرَجُلٌ يَشْتَكِي خُرَاجًا بِهِ أَوْ جِرَاحًا فَقَالَ: «مَا تَشْتَكِي؟»، قَالَ: خُرَاجٌ بِي قَدْ شَقَّ عَلَيَّ. فَقَالَ: «يَا غُلَامُ ائْتِنِي بِحَجَّامٍ». فَقَالَ لَهُ: «مَا تَصْنَعُ بِالْحَجَّامِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟». قَالَ: «أُرِيدُ أَنْ أُعْلِقَ فِيهِ مِحْجَمًا». قَالَ: «وَاللَّهِ إِنَّ الدُّبَابَ لَيُصِيبُنِي أَوْ يُصِيبُنِي الثَّوْبُ فَيُؤْذِنِي وَيَشُقُّ عَلَيَّ».

فَلَمَّا رَأَى تَبَرُّمَهُ مِنْ ذَلِكَ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَّتِكُمْ حَبِيرٌ فِي شَرْطَةِ مَحْجَمٍ أَوْ شَرْبَةٍ مِنْ عَسَلٍ أَوْ لَدَعَةٍ بِنَارٍ». قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا أَحَبُّ أَنْ أَكْتُوبِي». قَالَ: فَجَاءَ بِحَجَّامٍ فَشَرَطَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ. (رواه مسلم). (الخُراج): تجمع صديديٍّ محدود في جزء متورِّم ملتهب من الجسم ينشأ عادةً من عدوى بكتيريَّة.

آلية تأثير الحجامة:

تشابه آلية تأثير الحجامة آلية تأثير الإبر الصينية والنقاط الانعكاسية في الجسم حيث تبنى آلية هذه الوسائل على نظرية مسارات الطاقة في الجسم وهي نظرية صينية قديمة تفترض وجود مسارين للطاقة أحدهما يسمى (الين) والآخر يسمى (اليانج) وذلك في مفهوم عام من الطاقة يسمى (تشاي) أو القوة الحيوية، وهذان المساران متكاملان على الرغم من كونها متعارضين، ويجب أن يكونا في حالة توازن حتى ينعم الجسم بالصحة والقوة.

وهذه القوة الحيوية تدور في الجسم في مسارات تشابه مسارات الدم واللمف والأعصاب، وسَمَّوْها خطوط "الميريديان" أو خطوط الطول والعرض، ويمكن رصد هذه المسارات الآن بالطرق الإلكترونية ووسائل أخرى، وهناك ٢٦ دائرة رئيسة من خطوط "الميريديان" وكل دائرة مقترنة بوظيفة أو عضو من وظائف وأعضاء الجسم. وتشكل خطوط "الميريديان" شبكة تغطي كل الجسم من الأمام والخلف والأطراف العليا والسفلى، ويوجد عليها ٣٦١ نقطة يمكن استخدامها لإحداث التوازن المفقود في بعضها فيشفى العضو المعطوب.

وقد صُمِّمَت أجهزة حديثة للجمع بين العلاج بالحجامة الجافة والعلاج بالإبر الصينية وتوضع على نفس نقاط الحجامة ونقاط الإبر الصينية.

ويعالج بهذه الأجهزة أمراض الشريان التاجي في القلب وارتفاع ضغط الدم، وخفقان القلب، وارتفاع الدهون في الدم، والتهاب المعدة وقرحة المعدة والاثني عشر، والإسهال المزمن، والتهاب الكبد المزمن، وحصوات المرارة، والتهاب البروستاتا،

والعجز الجنسي، والشلل النصفي للوجه، والصداع والشقيقة، وتصلب الرقبة وآلامها وعرق النساء، وآلام أسفل الظهر، والانزلاق الغضروفي وآلام فقرات الظهر، ومرض الروماتويد، وآلام القدم، ودوار البحر والسيارات، والاضطرابات العقلية عند المسنين، وإسهال الرضع، وآلام الأسنان، وضعف السمع، والتهابات الخصية المصحوبة بتجمع مائي، والربو والالتهابات الرئوية والسعال والنزلات الشعبية، وحتى نزلات البرد.

وأهم الأمراض التي يمكن أن تفيد في علاجها الحجامة الرطبة الآلام الروماتيزمية المزمنة، الصداع المزمن نتيجة لارتفاع ضغط الدم، ضغط الدم المرتفع، البواسير، الإكزيما الحادة والمزمنة وبعض الأمراض الجلدية، هبوط القلب المصحوب بارتشاح في الرئتين، أمراض الصدر والقصبه الهوائية وآلام المرارة والأمعاء وآلام الخصية، وانقطاع الطمث الأوّلي والثانوي.

كما تساعد الحجامة الحافة والرطبة في تسكين الآلام وتخفيف الاحتقان بصفة عامة في كثير من الأماكن في الجسم خصوصاً في بعض أمراض الرئة الحادة، واحتقانات الكبد، والتهابات الكلية، والتهاب غشاء التامور، والآلام العصبية القطنية والوربية، والوجع الناحس.

العلاج بالحجامة في الطب الحديث:

تنتشر في كثير من البلاد الأوروبية والأمريكية جامعات ومعاهد لتعليم الطب البديل أو الطب المكمل ومراكز علاجية كثيرة مبنية على وسائله المتعددة وتحتل الحجامة موقعاً بارزاً بين هذه الوسائل تعليمياً وتطبيقاً.

الأبحاث العملية والسريية:

أجرى عدد من الأطباء والباحثين عدة أبحاث سريرية على كثير من المرضى خصوصاً أولئك الذين يعانون من أمراض استعصى على الطب الغربي التقليدي علاجها، وقد أجريت عدة أبحاث عملية لتقييم هذه الوسيلة علاجياً، وكان أبرز هذه الأبحاث بحث للدكتور عصام المقدم أخصائي الجراحة العامة بمستشفى التأمين

الصحي بالقاهرة ألقاه في "المؤتمر العالمي للطب البديل"، والذي أقامته إحدى المستشفيات العسكرية بالمنطقة الشمالية بالمملكة العربية السعودية.

أجرى الدكتور عصام المقدم بحثه على سبعين مريضاً يعانون من أمراض واختلالات عديدة، وقد عولج بعض هؤلاء المرضى بالحجامة بمفردها وبعضهم بالحجامة والعلاج التقليدي مصاحباً لها، وقد تحسنت حالة ٥٦٪ منهم تحسناً واضحاً، وتحسنت حالة ٤٣٪ منهم تحسناً أقل من الأول، ومن لم يستفد من الحجامة ١٪ فقط من هؤلاء المرضى.

وتؤكد أحاديث النبي ﷺ وهذه الأبحاث العملية أن الحجامة طريقة علاجية فعالة وبسيطة وغير مكلفة لبعض الأمراض وأنها ليست الوسيلة الوحيدة لعلاج جميع الأمراض كما يظن كثير من الناس؛ بل هي إحدى الوسائل العلاجية التي تفيد في بعض الأمراض بنسبة من الشفاء تقل أو تكثر تبعاً لظروف وأسباب عديدة.

وجه الإعجاز:

استخدمت الحجامة في عدد من الحضارات القديمة وعرفها العرب في جاهليتهم وأقرهم الرسول ﷺ على استخدامها ثم انتقلت إلى أوروبا عبر الوجود الإسلامي في الأندلس واستمر استخدامها إلى اليوم وقد أوصى رسول الله ﷺ باستخدامها في حالات أوجاع الرأس الشديدة (الصداع) التي سببها ارتفاع ضغط الدم والصداع الوعائي، وحالات الصداع النصفي (المعروف بالشقيقة) وحالات تهيج الدم نتيجة لارتفاع التوتر الشرياني وزيادة عدد كريات الدم الحمراء وفي حالات الالتواء العنيف للمفاصل وحالات الآلام الشديدة.

وقد أكدت البحوث الطبية كل ذلك، وتعتبر الحجامة شبيهة بعمل الإبر الصينية أو التدليك فتؤثر على الجزء المصاب أو الذي يعاني من الآلام إذ تنطلق نبضات حسية من مكان الإصابة أو الألم على هيئة استغاثة إلى مراكز الحس والتحكم غير الإرادي بالدماع فتنبعث في الحال أعداد من المواد الكيميائية والهرمونات من الجزء المصاب أو المريض إلى مناطق مركزية في المخ فيرسل المخ على الفور إلى الأجهزة

المتحكمة في عمليات الجسم الحيوية المختلفة أمرًا بإسعاف الجزء المصاب أو المتألم وإعاقته على تجاوز إصابته أو مرضه بالوسائل المناسبة، وأفضل العلاج ما يقوم به جسد الإنسان بذاته لمختلف الأجزاء فيه كما أثبتت البحوث الطبية المختلفة.

إن هذا الكم من المعلومات الدقيقة والتي تؤكد أن للحجامة تأثيرًا مباشرًا وسريعًا في تحقيق تغييرات إيجابية فعالة في جسم الإنسان، بالإضافة إلى ما ينتج عنها من إزالة لأمراض عديدة، إن هذا التوافق في نتائج الأبحاث الحديثة وبين نتائج عملية الحجامة القديمة، لم يكن وليد يوم وليلة بل هو حصاد جهود مضيئة وبحوث كثيرة وتجارب متكررة أخذت الوقت الكبير للوصول إلى صحة نتائج هذه العملية البسيطة والمسماة الحجامة.

إن هذه العملية العلاجية أمر بها نبينا الأُمِّي ﷺ قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا في بيئة بدوية ليس لديها أبسط مقومات البحث التجريبي كالذي نجده اليوم من المختبرات والأجهزة الدقيقة والتكنولوجيا المتقدمة، ومع ذلك نجد كل هذه النتائج المذهلة التي إن دلت على شيء إنما تدل على أن نبينا ﷺ هو رسول الله بحق وأنه لا ينطق عن الهوى بل هو رسول يوحى إليه الوحي فيبلغه من غير زيادة أو نقصان.

أحاديث تحنيك المولود:

يظهر اهتمام الدين الإسلامي بتحنيك المولود من خلال الروايات التي تذكر حرص النبي ﷺ على تحنيك حديثي الولادة، حتى أصبح ذلك سنة ثابتة عنه ﷺ.
فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُؤْتِي بِالصَّبِيَّانِ فَيَبْرِكُ عَلَيْهِمْ وَيُحْنِكُهُمْ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا حَمَلَتْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ، قَالَتْ: فَخَرَجْتُ وَأَنَا مَتِيمٌ، فَاتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَنَزَلْتُ قُبَاءً فَوَلَدْتُ بِقُبَاءٍ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَوَضَعْتُهُ فِي حَجْرِهِ، ثُمَّ دَعَا بِتَمْرَةٍ فَمَضَعَهَا، ثُمَّ تَقَلَّ فِي فِيهِ فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ دَخَلَ جَوْفَهُ رَيْقُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ حَنَّكَهُ بِالتَّمْرَةِ، ثُمَّ دَعَا لَهُ فَبَرَكَ عَلَيْهِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي

الإسلام، فَفَرِحُوا بِهِ فَرَحًا شَدِيدًا، لِأَنَّهُمْ قِيلَ لَهُمْ إِنَّ الْيَهُودَ قَدْ سَحَرَتَكُمْ فَلَا يُؤَلِّدُ لَكُمْ. (رواه البخاري ومسلم).

الْحَنَكُ من الإنسان والدابة باطن أعلى الفم من داخل، والتَّحْنِيكُ أن تمضغ التمر ثم تدلكه بَحَنَكِ الصبي داخل فمه.

واتفق العلماء على استحباب تحنيك المولود عند ولادته بتمر، فإن تعذر فما في معناه وقريب منه من الحلوى، فيمضغ المحنك التمر حتى تصير مائعة بحيث تبتلع ثم يفتح فم المولود ويضعها فيه ليدخل شيء منها جوفه.

تحنيك المولود في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة:

وقد كشف العلم الحديث عن فوائد تحنيك المولود، وأثبت أن له دورًا وقائيًا وعلاجيًا للمولود، إن مستوى سكر الجلوكوز في دم الأطفال اليافعين والبالغين يتراوح ما بين ٧٠ - ١٢٠ ملليجرام لكل ١٠٠ مليلتر من الدم في حالة الصيام، ويرتفع بعد الأكل أو شرب مواد سكرية إلى أقل من ١٨٠ ملليجرام خلال ساعة، ثم يعود ليهبط لمستواه خلال ساعتين.

أما بالنسبة للمولودين حديثًا فإن مستوى السكر في الدم يكون منخفضًا، وكلما كان وزن المولود أقل كلما كان مستوى السكر منخفضًا، وبالتالي فإن مواليد الخداج - وزنهم أقل من ٢,٥ كجم - يكون مستوى السكر لديهم منخفضًا جدًا، بحيث يكون في كثير من الأحيان ٢٠ ملليجرام لكل ١٠٠ مليلتر من الدم.

وأما المواليد أكثر من ٢,٥ كجم فإن مستوى السكر في الدم لديهم يكون عادة فوق ٣٠ ملليجرام، ويعتبر هذا المستوى - ٣٠ ملليجرام أو أقل عند من يكون وزنهم أكثر من ٢,٥ كجم، أو ٢٠ ملليجرام أو أقل عند المواليد الخداج - هبوطًا شديدًا في مستوى سكر الدم، وقد يؤدي ذلك إلى الأعراض الآتية:

- أن يرفض المولود الرضاعة.
- ارتخاء العضلات.
- توقف متكرر في عملية التنفس وحصول ازرقاق في الجسم.

- اختلاجات ونوبات من التشنج.
- وقد يؤدي ذلك إلى مضاعفات خطيرة مزمنة وهي:
 - تأخر في النمو.
 - تخلف عقلي.
 - شلل دماغي.
 - إصابة السمع أو البصر أو كليهما.
 - نوبات صرع متكررة (تشنجات).

وإذا لم يتم معالجة الحالة في حينها قد تنتهي بالوفاة، رغم أن علاجها سهل وهو إعطاء سكر الجلوكوز مذاباً في الماء إما بالفم إذا كان المولود قادراً على البلع، أو بواسطة الوريد إذا لم يكن قادراً على البلع، مع معالجة الإنتانات والأمراض الأخرى المصاحبة، مع توفير الأكسجين بالحضانات وخاصة لدى مواليد الخداج.

وجه الإعجاز:

إن قيام الرسول ﷺ بتحنيك الأطفال المواليد بالتمر بعد أن يأخذ التمرة في فيه ثم يحنكه بها ذاب من هذه التمرة بريقه الشريف فيه حكمة بالغة، فالتمر يحتوي على السكر (الجلوكوز) بكميات وافرة وخاصة بعد إذابته بالريق الذي يحتوي على أنزيمات خاصة تحول السكر الثنائي (سكروز) إلى سكر أحادي، كما أن الريق ييسر إذابة هذه السكريات وبالتالي يمكن للطفل المولود أن يستفيد منها.

وبما أن معظم أو كل المواليد يحتاجون للسكر (الجلوكوز) بعد ولادتهم مباشرة فإن إعطاء الطفل التمر المذاب يقي الطفل من مضاعفات نقص السكر الخطيرة والتي سبقت الإشارة إليها.

إن استحباب تحنك الطفل بالتمر هو علاج وقائي ذو أهمية بالغة، وهو إعجاز طبي لم تكن البشرية تعرفه وتعرف مخاطر نقص السكر، وإن المولود - وخاصة إذا كان خداجاً - يحتاج دون ريب بعد ولادته مباشرة إلى أن يعطى محلولاً سكرياً، وقد دأبت

مستشفيات الولادة والأطفال على إعطاء المولودين محلول الجلوكوز ليرضعه المولود بعد ولادته مباشرة، ثم بعد ذلك تبدأ أمه بإرضاعه.

إن هذه الأحاديث الشريفة المتعلقة بتحنيك الأطفال تفتح آفاقاً مهمة جداً في وقاية الأطفال وخاصة الخداج من أمراض خطيرة جداً بسبب إصابتهم بنقص سكر الجلوكوز في دمائهم، وأيضاً فإن إعطاء المولود مادة سكرية مهضومة جاهزة يوضح إعجازاً طبياً لم يكن معروفاً في زمنه ﷺ ولا في الأزمنة التي تلتها حتى اتضحت الحكمة من ذلك الإجراء في القرن العشرين.

نعم الإدام الخل:

جاء في بعض الأحاديث النبوية الإخبار عن بعض الأنواع من الأطعمة، وبيان ما لها من فائدة، ومن تلك المطعومات الخل، فقد مدحه النبي ﷺ وبين أن له مكانة سيادية، وأنه من خير ما يأتدم به الإنسان. ونحن اليوم نسمع عن كثير من البحوث العلمية التي تمتدح الخل وتعدد ما فيه من فوائد.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ «نِعْمَ الْأُدْمُ - أَوْ الْإِدَامُ - الْخَلُّ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَ أَهْلَهُ الْأُدْمَ فَقَالُوا: «مَا عِنْدَنَا إِلَّا خَلٌّ». فَدَعَا بِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ بِهِ وَيَقُولُ: «نِعْمَ الْأُدْمُ الْخَلُّ، نِعْمَ الْأُدْمُ الْخَلُّ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وَعَنْ طَلْحَةَ بْنِ نَافِعٍ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى مَنْزِلِهِ فَأَخْرَجَ إِلَيَّ فَلَقَا مِنْ خُبْزٍ فَقَالَ: «مَا مِنْ أَدْمٍ؟». فَقَالُوا: «لَا، إِلَّا شَيْءٌ مِنْ خَلٍّ». قَالَ «فَإِنَّ الْخَلَّ نِعْمَ الْأُدْمُ». قَالَ جَابِرٌ: «فَمَا زِلْتُ أُحِبُّ الْخَلَّ مُنْذُ سَمِعْتُهَا مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ». وَقَالَ طَلْحَةُ: «مَا زِلْتُ أُحِبُّ الْخَلَّ مُنْذُ سَمِعْتُهَا مِنْ جَابِرٍ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(نِعْمَ) كلمة مدح، (الأدْم) بِضَمِّ الهمزة والدال، وَيَجُوزُ إِسْكَانُهَا، جَمْعُ إِدَامٍ، والإدام هو ما يؤتدم به الخبز، أي يطيب أكله به ويتلذذ الأكل بسببه، مائعاً كان أو جامداً.

والخلُّ معروف، وهو حامض الخليك، وهو عبارة عن سائل قابل للمزج بالماء بأي نسبة. وقد عُرِفَ الخل منذ القدم حيث كان يصنع من التمر منذ ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد، واستُخِدم في روما القديمة بمفرده أو مع الملح أو عسل النحل كمادة مضافة للأغذية لغرض الحفظ.

وقد وُصف الخل في الطب الحديث بأنه مرطب ومنعش، ومُدِرٌّ للبول والعرق ومنبه للمعدة ومحلل لألياف اللحم والخضراوات الخشنة، كما أنه يعطى كترياق للتسمم بالقلويات، ويطبق ظاهراً كعلاج للثعلبة والقرعة، ويغسل به القروح والجروح الجلدية، ويدلك به جلد الصدر والبطن بعد تمديده كمنشط عام، ويمسح به جبين المريض المصاب بالحمى تخفيفاً للصداع.

وقد ينشق عن طريق الأنف لإنعاش المريض المصاب بالغشي، ويغرغر به الفم والبلعوم لشد اللثة وقطع نزيها وتطهير الفم. ويعد خل التفاح من أحسن أنواع الخل.

وثبت أن الخل فعلاً قاتل للجراثيم، كما أن الخل له فعالية مضادة للجراثيم ضد العديد من الجراثيم الممرضة للإنسان وحتى الجراثيم المقاومة، ومنها جراثيم المكورات العنقودية الذهبية، والسالمونيلا، وجراثيم المكورات المعوية الحساسة والمقاومة للفانكوميسين، والمكورات العنقودية الحساسة والمقاومة للمثليين.

وقد أشار بعض الباحثين إلى أن تعاطي الخل مع الغذاء يعتبر أحد المعالجات لتفادي التسمم الغذائي، وأشاروا إلى أن الخل ثبط وبشكل كامل نمو ٣٤ عترة بكتيرية strain، وظهر أن الخل بتركيز ١ . . % كان كافياً لتثبيط نمو جميع العترة البكتيرية.

ولوحظ أن الخل يخفض سكر الدم عند إعطائه عن طريق الفم.

وعلى الجانب الآخر فإن للخل فعلاً مضاداً للالتهابات، فحينما يطبق موضعياً المستحضر الحاوي على الصبر والخل، فإنه يثبط الالتهابات الحادة المحدثه بغرس الكاراجينان والهستامين والسيروتونين والنستاتين، وكذلك الالتهاب المحدث بغرس القطع القطنية، ولوحظ أن الفعالية المضادة للالتهابات لـ ١٠٠٠ ملجم / كجم من هذا المستحضر تعادل فعالية ٣٠٠ ملجم / كجم من الأسبرين.

ولللخل قدرة على زيادة عمليات الأيض ^(١) داخل الجسم، مما يساعد في استهلاك مزيد من الطاقة كما يحصل أثناء الرياضات الخفيفة، مما يساعد في تخفيف الوزن، خاصة لمن لا يستطيعون ممارسة الرياضة مثل كبار السن ومن يعانون من مشاكل مفصلية تُعجزهم عن ممارسة الرياضة.

والجرعة المناسبة لذلك هي ملعقتا طعام تؤخذ مباشرة في الفم، أو تخفف في كوب ماء صغير، أو تضاف إلى صحن سلطة؛ كي نتجنب حرقة المعدة لمن كانت معدتهم حساسة، ولا صحة للقول بأن الخل يؤدي إلى حدوث قرحة المعدة.

وهناك فوائد أخرى للخل هي:

- للأوجاع العضلية والمفصلية: توضع كمادات من الخل على مناطق الألم.
- يخفف آلام كسعة النحل بوضع كمادات من الخل الممزوج بالملح.
- مطهر للفم: تخلط ثلاث ملاعق خل في كوب ماء ويمضغ بها ٣ مرات يومياً.
- يستعمل كمضاد للتسمم بالمواد القلوية (المنظفات).
- يخفف السخونة بوضع كمادات منه على الرأس.
- ينظف اللسان المكسو بالطبقات السوداء نتيجة تعاطي المضادات الحيوية وغيرها.
- يساعد في وقف الإسهال: يتم تناول ثلاثة فناجين صغيرة من الخل يومياً، ويعود ذلك لخصائص الخل القابضة نوعاً ما، وإلى تأثيره المطهر للأمعاء.

(١) الأيض: الاستقلاب: تحوُّل الغذاء إلى طاقة.

وجه الإعجاز:

يتضح من السرد السابق مدى أهمية الخلق، وما له من فوائد متعددة وهامة، وبالتالي فهو مادة نافعة تستحق المدح والتأكيد على استخدامها في الإئتداف، وهو ما نبهنا إليه نبينا محمد ﷺ قبل فترة طويلة جداً؛ حرصاً منه ﷺ على الدلالة على كل ما فيه نفعنا ومصلحتنا. وهذا التطابق الواضح بين حديث نبينا محمد ﷺ وبين ما اكتشفه العلم الحديث هو أحد الأدلة المتجددة والبيانات المتتابعة على صدق هذه الرسالة، وأنها من عند الذي أحاط علماً بكل شيء ﷻ.

حديث المفصل:

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةِ مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ وَحَمِدَ اللَّهَ وَهَلَّلَ اللَّهَ وَسَبَّحَ اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ وَعَزَلَ حَجْرًا عَنِ طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْمًا عَنِ طَرِيقِ النَّاسِ وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنِ مُنْكَرٍ عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ السَّلَامَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحَزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ». (رواه مسلم).

المفصل هو الالتقاء بين أي عظمتين أو عظمة وغضروف أو غضروفين في أي موضع بجسم الإنسان ما دام بينهما فاصل.

استدل بهذا الحديث على الإعجاز العلمي للسنة؛ لأن عدد المفاصل المذكورة في الحديث النبوي، هو نفس العدد الذي توصل إليه علم الطب الحديث. فبعد أربعة عشر قرناً من الزمان، أثبت العلم الحديث في التشريح للأعضاء، أن جسم الإنسان يحتوي على (٣٦٠) مفصلاً، موزعة على جميع مناطق الجسم في الإنسان البالغ، كما ورد في الحديث الشريف.

ويستدل بهذا الحديث على أمراً آخر وهو أن لفظة «خلق» على وزن «فعل» إنما يدل دلالة واضحة، على أن عملية تعظم الأنسجة العضروفية بعظام الجنين، واستمرارها حتى البلوغ، وإلا لم يذكر عدد عظام الجسم الأولية (٣٦٠)، التي تنتهي إلى (٢٠٦) في الإنسان البالغ.

عودة جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً كما كانت:

في قوله عليه السلام الذي رواه مسلم: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا»، إشارة إلى عودة جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً، وهذا ما نشهد تباشيره في أيامنا هذه، وهو عودة أرض الجزيرة العربية إلى خصوبتها وخضرتها بعد مرور القرون العديدة عليها، وهي صحراء جرداء قاحلة.

هذا الحديث بأنه يحوي حقيقتين علميتين تتعلقان بأرض العرب:

إحدهما: أن أرض العرب كانت أرضاً خصبة، وأكدها الدراسات العلمية فقد نشرت مجلة (أهلا وسهلا) في عددها الصادر في شهر يناير ١٩٨٨م مقالة تحت عنوان: "الأثار في المملكة تكشف غموض عشرة آلاف سنة" جاء فيها: «وهناك من الدلائل ما يثبت أن صحارى الجزيرة العربية كانت في أوقات سابقة أكثر ملاءمةً للمعيشة مما أصبحت عليه بعد ذلك، وحتى وقت متأخر نسبياً أي إلى حوالي عشرة آلاف عام خلت كان الربع الخالي الذي يعد من أشد صحارى العالم جفافاً يزرخ بالعديد من فصائل الحيوانات مثل الغزال وبقر الوحش والأسد وفرس الماء مما يكون أمثالها في أراضٍ إفريقية».

والحقيقة الثانية في الحديث الشريف أن أراضي العرب ستعود أراضي خصبة ذات مروج وأنهار كما كانت قبل عشرة آلاف عام، وقد عادت فعلاً وانتشرت فيها المزارع الكبيرة وأنشئت فيها السدود الكثيرة وامتدت منها أقنية الماء كالأنهار.

إن علماء الغرب درسوا تاريخ الأرض في الماضي فوجدوا أنها تمرّ بأحقاب متعددة من ضمن هذه الأحقاب المتعددة حقبة تسمى العصور الجليدية، وهو أن كمية من ماء البحر تتحول إلى ثلج وتتجمع في القطب المتجمد الشمالي ثم تزحف نحو الجنوب وعندما تزحف نحو الجنوب تُغطي ما تحتها وتُغيّر الطقس في الأرض، ومن ضمن تغيير الطقس تغيير يحدث في بلاد العرب فيكون الطقس بارداً وتكون بلاد العرب من أكثر بلاد العالم أمطاراً وأنهاراً.

التقى عالمٌ مسلمٌ بعالمٍ من أشهر علماء الجيولوجيا، ومتخصِّصٌ في المنطقِ الواقعة بين إفريقية، والجزيرة العربية، فسأله هذا العالمُ المسلمُ: «هل عندك دليلٌ على أنَّ أرضَ العربِ كانتْ بساتينَ وأنهارًا؟»، فقال: «هذا معروفٌ عندنا، وهذا شيءٌ يعرفُهُ العلماءُ المتخصِّصون»، قال له: «ما الدليلُ؟»، قال: «في الجزيرة العربيةِ رواسبُ نهريةٌ، تلاحظُ في أماكنَ عدَّة، وقد عُثِرَ على قريةٍ مدفونةٍ تحتَ الرَّمالِ في الرُّبْعِ الخالي، وفيها مناطقٌ متحجِّرةٌ، وقد عُثِرَ على مناطقٍ أخرى متحجِّرةٍ، فلما فُحِصَتْ إذا هي جذوعُ لأشجارٍ كبيرةٍ».

وهذا كله يؤكِّدُ أنَّ هذه البلادَ كانتْ بساتينَ وأنهارًا، فمنطقةُ الرُّبْعِ الخالي، هذه الصحراءُ الجرداءُ القاحلةُ كانتْ مُفعمَةً بالبساتينِ والأنهارِ، وهذا شيءٌ ثابتٌ عندَ علماءِ الجيولوجيا، الذين وجدوا ما يؤكِّدُ ذلك.

ثم سأله سؤالاً آخر فقال: «هل عندك دليلٌ على أنَّ بلادَ العربِ ستعودُ بساتينَ وأنهارًا؟»، فقال: «هذا شيءٌ أيضًا معروفٌ عندنا»، فقال: «وما الدليلُ؟»، قال: «إنَّ كتلَ الجليدِ الضخمةَ تتجهُ نحوَ الجنوبِ، وهذا الذي سبَّبَ قبلَ أعوامٍ شتاءً قارسًا جدًّا في أوربة وأمريكا، وإنَّ اتجاهَ هذه الكتلِ الجليديةِ نحوَ الجنوبِ سوفَ يغيِّرُ مناخَ الأرضِ، ويتغيَّرُ مناخُ الأرضِ سوفَ تتغيَّرُ خطوطُ المطرِ، ولا بدَّ أن يأتي يومٌ تعودُ بلادُ العربِ فيه كما كانتْ، مُروجًا وأنهارًا».

فقال هذا العالمُ المسلمُ لهذا العالمِ الجيولوجي: ما قولك في رجلٍ قال قَبْلَ ألفِ وأربعمئة عامٍ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا».

إنَّ دِقَّةَ الحديثِ في كلمة (تعودُ)، يعني أنَّها كانتْ، وبهذه الكلمة يعني أنَّها ستكون، وتعود؛ لقد كانتْ مُروجًا وأنهارًا، وستعودُ مُروجًا وأنهارًا كما كانتْ، هذا حديثٌ صحيحٌ، فبُهِتَ هذا العالمُ الأجنبيُّ، لأنَّ هذه الحقائقَ عرفها في هذه السَّنواتِ العشرِ الأخيرة، فما بالُ هذا النبيِّ ﷺ عَرَفَ هذه الحقيقةَ التي تحتاجُ إلى بحثٍ طويلٍ، وإلى درسٍ طويلٍ، وإلى رحلاتٍ شاقَّةٍ في أعماقِ الصَّحراءِ، وإلى تنقيبٍ، ودراسةٍ لطبيعةِ المناخِ في الأرضِ؟

إِنَّ مِنْ بَلَاغَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا». تُسْتَشْفَى مِنْ كَلِمَةِ (تَعُودَ)، فَلَوْ قَالَ: (حَتَّى تَصْبِحَ) لَدَلَّ ذَلِكَ أَنَّ الْمَاضِي لَمْ يَدْخُلْ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، وَلَوْ قَالَ: كَانَتْ، فَالْمُسْتَقْبَلُ لَمْ يَدْخُلْ، أَمَا كَلِمَةُ (تَعُودَ) وَحَدَا فِيهَا الَّتِي أُدْخِلَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ.

المسح على رأس اليتيم:

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ يَشْتَكِي قَسَاوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحِبُّ أَنْ يَلِينَنَّ قَلْبُكَ؟». فَقَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «ارْحَمِ الْيَتِيمَ، وَأَمْسَحْ رَأْسَهُ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُلِينُ قَلْبَكَ، وَتَقْدِرُ عَلَى حَاجَتِكَ» (رواه أبو نعيم في "الحلية" وصححه الألباني). وفي رواية: «إِنْ أَرَدْتَ تَلْيِينَ قَلْبِكَ، فَاطْعِمِ الْمَسَاكِينَ، وَأَمْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وحسنه الألباني).

وأكدت الدراسات العلمية وتطبيقاتها على الحيوان والإنسان أن الطفل الذي يلمس مقارنة بالطفل الذي لا يلمس، يزيد وزنه بمعدل ٤٧٪، وجهازه العصبي ينضج أسرع، ويكون أكثر نشاطاً، ويتشافى من الأمراض والالتهابات أسرع. وأثبت علم النفس أن للمسّات أثر عميق في نفسية وسلوك الإنسان، فهي الأساس لاعتبار الناس والاعتراف بوجودهم وإعطائهم قيمتهم.

وجه الإعجاز في الإرشاد النبوي إلى المسح على رأس اليتيم، يكمن في أمرين:

الأول: في المسح على رأس اليتيم: فمنطقة الرأس هي منطقة الاتصال المحيطي بالآخرين، ففيها الجهاز العصبي، فعندما يضع الشخص (الماسح) يده على رأس اليتيم يحدث اتصال بينهما، فهو عند المسح يقوم بإزاحة وإزالة تلك الشحنات السلبية التي يحملها ذهن اليتيم، وبتكرار تلك العملية يهدأ ذهن اليتيم ويطمئن ويرتاح جسده، والبديع في تلك العملية أنه يحدث لكلا الشخصين (الماسح واليتيم) آثاراً إيجابية في ذات الوقت.

الثاني: في الأثر على الماسح: في تخلصه من الأمراض القلبية مثل القسوة، فمن ابتلي بداء من الأخلاق الذميمة يكون تداركه بما يضاده من الدواء، فالتكبر يداوى

بالتواضع، والبخل بالساحة، وقسوة القلب بالتعطف والرقه. فالعلاقة هي علاقة تبادل (أخذ وعطاء) (قسوة ولين)، فكلما قسى قلب المرء عليه أن يلينه بالمسح على رأس اليتيم، وكلما أراد حاجة، عليه أن يسعى في تلبية حاجات الآخرين.

لماذا حرم الإسلام مصافحة الرجال للنساء؟

قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ رَجُلٍ بِمِخِيطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ». (رواه الطبراني، وصححه الألباني، والمخيط: الإبرة).

وقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْيَدُ زِنَاهَا اللَّمْسُ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وصححه الأرئوط، وأورده الألباني في "السلسلة الصحيحة").

وقد ثبت علمياً أن سطح الجلد عند الإنسان يحتوي على ملايين الخلايا التي تنقل الأحاسيس إلى الدماغ، فإذا لامست يد الرجل يد المرأة بدأت الإشارات الناتجة عن الملامسة تسري باتجاه الدماغ حيث يقوم بتحليلها وربطها مع صاحب أو صاحبة اليد. وعندما تتكرر هذه العملية فإن الدماغ يحتزن هذه المعلومات بشكل يحرك عاطفة الرجل أو المرأة مما يترك تأثيراً وانفعالات نفسية تبقى مختزنة لفترات طويلة.

إن الانفعالات النفسية المتعلقة بمصافحة النساء للرجال وبالعكس قد تتطور وتثير الغرائز الكامنة لدى الجنسين مما يدفع لمزيد من الانفعالات العاطفية والتي قد تكون سبباً في تطور العلاقة بين الجنسين مما يؤدي إلى الوقوع في الفاحشة. وعلى أقل تقدير قد تسبب المصافحة المتكررة بين الرجل والمرأة والاختلاط المتكرر بينهما إلى تشويش الذهن وتأثر عملية اتخاذ القرارات عند الطرفين.

تبرج المرأة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَأَسْيَاتِ عَارِيَاتٍ مُمِيلَاتٍ مَائِلَاتٍ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا». (رواه مسلم).

أثبتت البحوث العلمية الحديثة أن تبرج المرأة وعريها يعد وبألاً عليها حيث أشارت الإحصائيات الحالية إلى انتشار مرض السرطان الخبيث في الأجزاء العارية من أجساد النساء ولا سيما الفتيات اللاتي يلبسن الملابس القصيرة.

فلقد نُشر في "المجلة الطبية البريطانية": أن السرطان الخبيث "الميلانوما الخبيثة" والذي كان من أندر أنواع السرطان أصبح الآن في تزايد وأن عدد الإصابات في الفتيات في مقتبل العمر يتضاعف حالياً حيث يُصنَّب به في أرجلهن وأن السبب الرئيس لشيوع هذا السرطان الخبيث هو انتشار الأزياء القصيرة التي تعرض جسد النساء لأشعة الشمس فترات طويلة على مر السنة ولا تفيد الجوارب الشفافة أو النايلون في الوقاية منه. وقد ناشدت المجلة أطباء الأوبئة أن يشاركوا في جمع المعلومات عن هذا المرض وكأنه يقترب من كونه وباء.

وهذا المرض ينتج عن تعرض الجسم لأشعة الشمس والأشعة فوق البنفسجية فترات طويلة وهو ما توفره الملابس القصيرة أو ملابس البحر على الشواطئ ويلاحظ أنه يصيب كافة الأجساد وبنسب متفاوتة ويظهر أولاً كبقعة صغيرة سوداء وقد تكون متناهية الصغر وغالباً في القدم أو الساق وأحياناً بالعين ثم يبدأ في الانتشار في كل مكان واتجاه مع أنه يزيد وينمو في مكان ظهوره الأول فيهاجم العقد الليمفاوية بأعلى الفخذ ويغزو الدم ويستقر في الكبد ويدمرها.

وقد يستقر في كافة الأعضاء ومنها العظام والأحشاء بما فيها الكليتان ولربما يعقب غزو الكليتين البول الأسود نتيجة لتتهتك الكلى بالسرطان الخبيث الغازي. وقد ينتقل للجنين في بطن أمة ولا يمهل هذا المرض صاحبه طويلاً كما لا يمثل العلاج بالجراحة فرصة للنجاة كباقي أنواع السرطان حيث لا يستجيب هذا النوع من السرطان للعلاج بجلسات الأشعة.

من هنا تظهر حكمة التشريع الإسلامي في ارتداء ثياب العفة والاحتشام فهو خير وقاية من عذاب الدنيا المتمثل في هذا المرض فضلاً عن عذاب الآخرة.

الإعجاز العلمي في ارتداء الحجاب:

أثبتت دراسة علمية حديثة أن المرأة التي ترتدي الحجاب وتحرص عليه، تكون في حالة نفسية أفضل (فيما يتعلق بنظرتها الإيجابية لنفسها) من تلك التي لا ترتدي الحجاب، ولكن لماذا؟

هذا السر تكشفه جامعة "Westminster" من خلال دراسة علمية نُشرت في المجلة البريطانية لعلم النفس، وذلك من خلال إجراء استقصاء على مئات الفتيات المحجبات وغير المحجبات، وتبين للباحثين أن الفتاة المحجبة تتمتع بقدر كبير من احترام الذات والإحساس بالأمان!

كما أظهرت الدراسة أن انشغال المرأة ذات الحجاب أقل بكثير فيما يتعلق بوزن الجسم والمرأة المحجبة أقل قلقاً فيما يتعلق بالمظهر الخارجي وأقل إنفاقاً على الأزياء! وقد أجريت دراسات كثيرة حول انتشار سرطان الجلد في الدول الغربية، وبخاصة بسبب تعرض النساء لكميات كبيرة من الأشعة فوق البنفسجية الخطيرة القادمة من الشمس، ولذلك ينصح الأطباء بعدم كشف أجزاء من جسد المرأة وذلك لوقايته من هذا المرض الخطير.

في دراسة جديدة (٢٠١٥) تبين أن التعرض لأشعة الشمس أكثر ضرراً للمرأة البالغة من الأطفال، أي ينبغي على المرأة أن تبدأ بالحذر بعد سن البلوغ!! فتسارع للالتزام بالحجاب وعدم إظهار أي جزء من جسدها، وهذا إعجاز نبوي واضح يتجلى في القرن الحادي والعشرين!

الرضاع:

قال رسول الله ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ» (رواه البخاري ومسلم). هذا الحديث الكريم يبين أن الطفل الذي يرضع من امرأة غير أمه يصبح محرماً عليها، كذلك على بناتها اللواتي رضعن معه. أي كأنه ابنها وبناتها كأنهن أخواته.

عندما قام العلماء بتحليل حليب الأم لاحظوا وجود مواد لا توجد في الحليب العادي، وتختلف من امرأة لأخرى. عندما يتجرع الطفل هذه المواد يتكون لديه أجسام

مناعية بعد عدة رضعات فقط. وهذا يعني أن الطفل الذي رضع من امرأة عدة رضعات فإنه يكتسب بعض الصفات الوراثية المناعية من هذه الأم لتصبح بمثابة أم له. هذه الصفات الوراثية التي اكتسبها الرضيع من المرأة تشبه تلك التي اكتسبها أولادها الحقيقيين منها ليصبحوا وكأنهم أخوة له. لذلك يحرم زواج الإخوة بالرضاعة لأنهم يملكون نفس الصفات الوراثية وهذا قد يؤدي إلى أمراض وراثية خطيرة لذلك نجد الرسول الكريم ﷺ قد حرم زواج الأخوة بالرضاعة قبل أربعة عشر قرناً، واليوم جاء العلم الحديث ليؤكد صدق كلام هذا النبي الكريم ﷺ وصدق تحريمه.

تؤكدُ الهندسة الوراثية أنّ الرضاعة تنقلُ بعضَ الجيناتِ من المُرْضِعَةِ إلى الرضيع. وهذه القرابةُ التي جَعَلَهَا النبيُّ ﷺ في السُّنَّةِ كقرابةِ النسبِ، وجَعَلَهَا القرآنُ أيضًا كذلك، هذه القرابةُ سببها العلميُّ انتقالُ الجيناتِ من حليبِ الأمِّ المُرْضِعِ إلى الرضيعِ، هذه الجيناتُ تحترقُ خلايا الرضيعِ، وتندمجُ معها في سلسلةِ الجيناتِ التي عندَ الرضيعِ، وتصلُّ إلى مُورثاته.

لقد أثبتت الأبحاث العلمية التي أجريت حديثاً وجود أجسام في لبن الأم المرضعة الذي يترتب على تعاطيه تكوين أجسام مناعية في جسم الرضيع بعد جرعات تتراوح من ثلاث إلى خمس جرعات. وهذه هي الجرعات المطلوبة لتكوين الأجسام المناعية في جسم الإنسان، حتى في حيوانات التجارب المولودة حديثاً والتي لم يكتمل نمو الجهاز المناعي عندها.

فعندما ترضع اللبن تكتسب بعض الصفات الوراثية الخاصة بالمناعة من اللبن الذي ترضعه، وبالتالي تكون مشابهة لأخيها أو لأختها من الرضاع في هذه الصفات الوراثية. ولقد وُجد أن تكوُّن هذه الجسيمات المناعية يمكن أن يؤدي إلى أعراض مرضية عند الإخوة في حالة الزواج.

إن القرابة من الرضاعة تثبت وتنتقل في النسل. والسبب الوراثية ونقل الجينات، أي أن قرابة الرضاعة سببها انتقال جينات (عوامل وراثية) من حليب الأم واختراقها لخلايا الرضيع واندماجها مع سلسلة الجينات عند الرضيع يساعد على هذه النظرية أن

حليب الأم يحتوي على أكثر من نوع الخلايا ومعلوم أن المصدر الطبيعي للجينات البشرية هو نواة الخلايا DNA كما يحتتمل أن الجهاز الوراثي عند الرضيع يتقبل الجينات الغريبة لأنه غير ناضج، حاله حال عدة أجهزة في الجسم، لا يتم نضجها إلا بعد أشهر وسنوات من الولادة وإذا صح تفسير قرابة الرضاعة بهذه النظرية فإن لها تطبيقات في غاية الأهمية والخطورة.

التسمية عند الذبح:

توصل فريق من كبار الباحثين وأساتذة الجامعات إلى اكتشاف علمي يبين أن هناك فرقاً كبيراً من حيث العقامة الجرثومية بين اللحم المكبّر عليه واللحم غير المكبّر عليه، أي الذي قيل عند ذبحه: (بسم الله، الله أكبر).

وقام فريق طبي يتألف من ٣٠ أستاذاً باختصاصات مختلفة في مجال الطب المخبري والجراثيم والفيروسات والعلوم الغذائية وصحة اللحوم والباثولوجيا التشريحية وصحة الحيوان والأمراض الهضمية وجهاز الهضم بأبحاث مخبرية جرثومية وتشريحية على مدى ثلاث سنوات لدراسة الفرق بين الذبائح التي ذكر اسم الله عليها ومقارنتها مع الذبائح التي تذبح بنفس الطريقة ولكن بدون ذكر اسم الله عليها.

وأكدت الأبحاث أهمية وضرورة ذكر اسم الله (بسم الله الله أكبر) على ذبائح الأنعام والطيور لحظة ذبحها، وكانت النتائج المدهشة والمفاجئة والتي وصفها أعضاء الطاقم الطبي بأنها: معجزات تفوق الوصف والخيال.

وقال مسئول الإعلام عن هذا البحث: إن التجارب المخبرية أثبتت أن نسيج اللحم المذبوح بدون تسمية وتكبير من خلال الاختبارات النسيجية والزراعات الجرثومية مليء بمستعمرات الجراثيم، ومحتقن بالدماء؛ بينما كان اللحم المسّمى والمكبّر عليه خالياً تماماً من الجراثيم ومعقماً ولا يحتوي نسيجه على الدماء.

وقال إن هذا الاكتشاف الكبير يمثل ثورة علمية حقيقية في مجال صحة الإنسان وسلامته المرتبطة بصحة ما يتناوله من لحوم الأنعام والتي ثبت بشكل قاطع أنها تزكو وتطهر من الجراثيم بالتسمية والتكبير على الذبائح عند ذبحها^(١).

بَيَّتْ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعُ أَهْلِهِ:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ بَيَّتْ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعُ أَهْلِهِ، يَا عَائِشَةُ بَيَّتْ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعُ أَهْلِهِ، أَوْ جَاعَ أَهْلِهِ». قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا. (رواه مسلم).

في هذا الحديث إشارة بيّنة ودلالة ظاهرة على العلاقة المتلازمة بين تناول التمر، المعروف بطعمه وحلاوته، وحصول الشبع الذي هو نقيض الجوع وخلافه. وقد أفاض علماء الحديث وشراحه في تفسير هذا الحديث وتبيان مراميه وتوضيح معانيه. وعلى الرغم مما قيل في معنى الحديث وما اختلف حوله في خصوصه أو عمومه، إلا أنه يحوي إشارة واضحة إلى تلك العلاقة المباشرة بين تناول التمر وحصول الشبع.

في الحديث إثبات للجوع لمن لا يتناول التمر، وفي وصفهم بالجوع «جِيَاعُ أَهْلِهِ» دلالة صريحة على تحقق الجوع عند غياب هذا الطعام. مع أن هذا الحديث يُعدُّ من الأحاديث المختلف عليها من حيث المقصود والمراد به؛ إذ إن الكثيرين لا يتناولون التمر ولا يشعرون بالجوع، بل هم متخمون من فرط الشبع، الأمر الذي يفتح الباب لمعنى آخر غير المعنى الظاهر.

فالمعنى الذي يتفق مع الحقيقة العلمية لفسولوجيا الجوع والشبع هي نفى الجوع ممن يتناول التمر وليس إثبات الجوع لمن لا يتناوله. فالأخذ بظاهر الحديث،

(١) وهل هذا الاكتشاف الكبير - إن صحَّ - ينطبق أيضًا على الحيوانات والطيور المريضة؟! تثبتوا برحمكم

وهو تحقيق الجوع لمن لا يتناول التمر، لا يتساق مع الحقيقة العلمية والمشاهدة الواقعية من أن الكثيرين لا يشعرون بالجوع على الرغم من عدم تناولهم للتمر، بل إن منطوق الحديث يحمل المعنى المخالف وهو نفي للجوع عن أهل البيت الذين يتناولون التمر.

ولعل ظاهر الحديث يتساق مع واقع المسلمين والناس آنذاك في عصر النبوة حيث كان التمر القوت الرئيس والغذاء الأساس لدى الناس وكان اعتمادهم عليه كغذاء أساسي كفيل بذرء خطر الجوع عنهم، وخاصة في جزيرة العرب حيث محدودية أنواع الطعام والشراب مقارنةً مع غيرها من البلاد.

وبالنظر إلى فيسيولوجيا الجوع والشبع، وكذا النظر في مكونات التمر ومحتوياته، يمكن أن نقف على أسرار الهدي النبوي في هذا الحديث الشريف وما انبنى عليه من حِكَم وآيات. ففسيولوجيا الجوع والشبع تستند إلى قدرة الجسم على تحسس الحاجة إلى تناول الطعام والشراب، وكذا تحسس الاكتفاء منه.

إن الربط المباشر الوارد في الحديث الشريف بين تناول التمر وحصول الشبع، وهو نقيض الجوع وخلافه، يمثل دلالة علمية واضحة وإشارة بيّنة على سبق نبوي معجز في تقرير حقيقة علمية مفادها: أن التمر وما يحويه من مكونات مُمثّلة بالسكر يمثل غذاءً موائماً لدرء خطر الجوع وما ينبنى عليه من نقص لسكر الدم وما يتبعه من تغيرات سلبية ضارة على صحة الجسم.

من أسرار تقديم اليمين:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ التَّيْمَنَ مَا اسْتَطَاعَ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ فِي طُهُورِهِ وَتَرَجُّلِهِ وَتَنْعَلِهِ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). (الترجل): تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه.

وعن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا غُلَامُ، سَمَّ اللَّهُ، وَكُلَّ يَمِينِكَ وَكُلَّ مِمَّا يَلِيكَ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّهَا حُلِبَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم شَاةً دَاجِنٌ وَهِيَ فِي دَارِ
 أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَشِيبَ لَبْنَهَا بِمَاءٍ مِنَ الْبِئْرِ الَّتِي فِي دَارِ أَنَسٍ، فَأَعْطَى رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم
 الْقَدَحَ فَشَرِبَ مِنْهُ، حَتَّى إِذَا نَزَعَ الْقَدَحَ مِنْ فِيهِ، وَعَلَى يَسَارِهِ أَبُو بَكْرٍ وَعَنْ يَمِينِهِ أَعْرَابِيٌّ
 فَقَالَ عُمَرُ - وَخَافَ أَنْ يُعْطِيَهُ الْأَعْرَابِيَّ - : «أَعْطِ أَبَا بَكْرٍ، يَا رَسُولَ اللَّهِ عِنْدَكَ». فَأَعْطَاهُ
 الْأَعْرَابِيَّ الَّذِي عَلَى يَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: «الْأَيْمَنَ فَالْأَيْمَنَ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(شِيبَ لَبْنَهَا بِمَاءٍ): أَي حُلِطَ لَبْنَهَا بِمَاءٍ.

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ
 بِيَمِينِهِ وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ». (رواه مسلم).

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم بِشِمَالِهِ فَقَالَ:
 «كُلْ بِيَمِينِكَ». قَالَ: «لَا أَسْتَطِيعُ»، قَالَ: «لَا أَسْتَطَعْتُ». مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ. قَالَ: فَمَا
 رَفَعَهَا إِلَيَّ فِيهِ. (رواه مسلم).

(لَا أَسْتَطَعْتُ): أَي دَعَا صلى الله عليه وآله وسلم عَلَيْهِ بِأَنْ اللَّهُ تَعَالَى يَصِيبَهُ بِأَمْرٍ لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ رَفْعَ
 يَدِهِ الْيَمْنَى إِلَى فَمِهِ، فَلَمَّا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم لَهُ ذَلِكَ أَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ فَلَمْ يَرْفَعْهَا إِلَى فَمِهِ
 بَعْدَ ذَلِكَ صَارَتْ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ قَائِمَةٌ كَالْعَصَا، لَا يَسْتَطِيعُ رَفْعَهَا لِأَنَّهُ اسْتَكْبَرَ عَلَى دِينِ
 اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم.

هذه الأحاديث توافق ما ثبت علمياً أن كل حركة في جسم الإنسان، تدور
 حسب نظام دقيق بحيث تبدأ الحركات من الجهة اليمنى، إلى الجهة اليسرى، ثم تتلاشى
 وتنتهي، وضرربوا لذلك أمثلة وهي:

١- حركة الدم: تبدأ أول نقطة فيها، داخل جهاز الدورة الدموية، من القلب
 عندما تتقلص العضلات القلبية لتضخ الدم، فيبدأ سير الدم النقي من تجايف البطن
 إلى الشريان الأبهري، الذي يتجه بشكل مقوس من الجهة اليمنى إلى الجهة اليسرى،
 بحيث يجعل جريان الدم مبتدئاً من اليمين ومنتهاً إلى اليسار، بعد أن تتشعب الأوعية

الدموية وتتفرع من الدقيق إلى الأدق، حتى تتلاشى حركة الدم، وتصبح غير منظورة بالعين المجردة.

٢- حركة الأمعاء: تبدأ من باب المعدة الإثني عشر، بحيث يكون اتجاه الحركة للمواد الغذائية، من اليمين إلى اليسار.

٣- حركة القولون في الأمعاء الغليظة: تبدأ من نقطة الجهة اليمنى باتجاه الناحية اليسرى، إذ تنقلص لدفع المواد المتبقية، من عملية الامتصاص، إلى الجهة اليسرى المقابلة، بعد أن تجمعت في الخزان الأعور الكبير، فتتحرك المواد، من الجهة اليمنى إلى اليسرى، وإلى القولون المستعرض المتوازي، وهكذا.

٤- حركات التنبهات العصبية - العجبية الصنع - في المراكز العصبية، والأسلاك الحسية والحركية المتصلة بها: تبدأ دورتها من الجهة اليمنى، وتنتهي في الطرف الأيسر، عند أداء وظيفتها الطبيعية الفسيولوجية.

إن النبي ﷺ قد أرسله الله بهذا الدين العظيم، دين الفطرة، ومن تعاليمه: التيامن، وحيث إنه قد ثبت علمياً: أن الجسم البشري مفطور على التيامن، في حركة أجهزته، فإن تعاليم الدين، توافق الفطرة الخلقية، وهذا من معجزات النبي ﷺ، حيث إن ما جاء به من تعاليم، موافق لما ركبه الله في مخلوقاته، والله أعلم.

إن الحديث الشريف، قد أظهر هذه الظاهرة العلمية في الكيان البشري، التي لم تكتشف إلا بعد مرور قرون عديدة، منذ أن قالها النبي ﷺ.

التيامن والتياسر بين استجابات الدين وسلوك الجسيمات الذرية:

أثبت علم الفيزياء الحديث أن جهة اليمين واليسار ليسا سواسية فالجسيمات الذرية التي تتكون منها كل ذرة في الكون تفرق بين اليمين واليسار.

لقد كان من المسلّم به خلال عصور طويلة أن المكان الفيزيائي يتمتع بما يسمى التناظر المكاني أو مبدأ انحفاظ التماثل حيث يعني ذلك أن الاتجاه إلى اليمين أو

الاتجاه إلى اليسار سيّان وأن الاختيار بين اليمين واليسار عندما تكون الظروف متطابقة هي مجرد مسألة إنسانية بحثة دون أن تكون موجودة في الطبيعة.

لقد تبين بما لا يدع مجالاً للشك أن التمييز بين الجهات اليمنى واليسرى هو واحد من الخصائص الطبيعية التي تحكم عالم الجسيمات الذرية والتي بالتالي تشكل منها كل ذرة في كون الله الفسيح.

لقد أحدث الاكتشاف صدمة كبيرة في أوساط الفيزياء بعدما تم التأكد من أن الجسيمات الذرية تفضل اتجاهات معينة دون غيرها وتميز بين اليمين واليسار ونال مكتشفو هذا المبدأ جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٥٧م وهما العالمان الصينيان (Yang) و (Lee) من جامعة كولومبيا في نيويورك.

إن النظرية العلمية التي قادت إلى هذا الاكتشاف الكبير اقترحت في البداية لتفسير بعض الظواهر الغريبة الناتجة عن تحلل الجسيمات الذرية تحت تأثير ما يسمى بـ (القوة النووية الضعيفة) حيث كان يصعب تفسير بعض الانبعاثات الذرية تحت تأثير هذه القوة من تجربة لأخرى مما حير العلماء كثيراً وبرزت هذه النظرية كأحد الحلول لهذا الإشكال ولكنه كان حلاً غريباً لم يقتنع به أحد من الفيزيائيين حتى الكبار منهم وعلى رأسهم (Pauli) صاحب مبدأ الاستبعاد للإلكترونات الذي قال لهما: «حسناً، أنتما مازلتما شائين وبإمكانكما أن تتحملا عندما يسخر منكم الجميع».

قام العالمان بتطوير النظرية رياضياً ثم جرى التحقق من صحتها عملياً في مختبرات جامعة كولومبيا على يد العاملة الصينية أيضاً (Wu) حيث تم استخدام مادة (الكوبالت - ٦٠) التي تطلق جسيمات (بيتا) وتم تبريد المادة إلى درجة حرارة منخفضة جداً هي (٠,٠١) من الكالفن حتى يمكن رصد اتجاه مرور جسيمات بيتا أثناء انطلاقها.

بعدما جرى التحقق من اتجاه مرور هذه الجسيمات ثبت أنها فعلاً تفضل الاتجاه إلى إحدى الجهتين دون الأخرى برغم تطابق الظروف وكأنها هذه الجسيمات تقرر الجهة

التي تحب أن تسلكها ذاتياً وباختيار محض ليس له ما يفسره سوى أن الجسيمات فضلت جهة دون أخرى.

وقد ثبت بعد ذلك في تجارب أخرى أن الجسيمات المضادة تفضل جهة معاكسة لما تفضله الجسيمات الاعتيادية. فمثلا في حال (الإلكترون) فإنه يعتبر يميني في سلوكه بينما (البوزيترون) وهو الجسيم المضاد للإلكترون في الشحنة والمطابق له في كل الخصائص الأخرى، هذا الجسيم يعتبر يساري في سلوكه.

وأجريت التجربة كذلك عن ظاهرة تفكك (الميون) وهو جسيم ذري يتفكك إلى (إلكترون) و(نيوترينو) مما جعل النظرية تصبح محققة تماما ويحصل صانعاها على جائزة نوبل في الفيزياء ويصاب الجميع بالذهول فقد ثبت أن الطبيعة تميز بين اليمين واليسار وليسا متطابقين أو أن المسألة عشوائية كما كان يُظنّ من قبل.

إن الإسلام بما فيه من إشارات وتعاليم سواء بالقرآن الكريم أو السنة المطهرة قد سبق لذلك التمييز بين الاتجاهات وبين أن الشمال ليس كاليمين في مواضع عدة حيث إن كل فئة من الناس تستوجب تصنيفها لاتجاه محدد حسب ما تكهّن بداخلها من إيمان أو كفر والعياذ بالله.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُومِ أَقْرَبُ وَأُكْتَبِيهِ ۗ﴾ (١٩) ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حِسَابِيَّةٌ ۗ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٢١) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۗ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (٢٤) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلِيْنِي لِمَ أُوتِيَ كِتَابِيهِ ۗ﴾ (٢٥) ﴿لَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَّةٌ ۗ يَلِيْتَهَا كَأَنَّ الْقَاضِيَةَ﴾ (٢٧) ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ ۗ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ (الحاقة: ١٩ - ٢٩).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ (٣٥) ﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ (٣٦) ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ (٣٧) ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (الواقعة: ٣٦ - ٣٨). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ (٤١) ﴿فِي سُمُورٍ وَحَمِيمٍ﴾ (٤٢) ﴿وَضَلَّ مِنْ يَحْمُورٍ﴾ (٤٣) ﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ (الواقعة: ٤١ - ٤٣).

كما أن سنة المصطفى ﷺ وسيرته شددت على استحباب التيامن للمسلمين وتفضيله حيث إنه مما صح عن الرسول ﷺ أنه كان يحب التيامن ويقدمه في كل أموره وشؤونه الحياتية وشعائره من وضوء وغيره.

فَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيْمَنُ فِي تَنْعَلِهِ وَتَرْجُلِهِ وَطُهُورِهِ وَفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ. (رواه البخاري). (تَنْعَلِهِ): أَي لُبْسِ نَعْلِهِ. (وَتَرْجُلِهِ) أَي تَرْجِيلِ شَعْرِهِ وَهُوَ تَسْرِيحُهُ وَدَهْنُهُ.

وَيَبِّنُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وهو يحب التيامن إلى المؤمنين الذين يعمر الإيمان قلوبهم - أن الشيطان الذي يسكن الكفر والجحود في قلبه يستحب التياسر والميل ناحية استخدام الجهة اليسرى في شؤونه، فَقَالَ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

فكأنما كل مخلوق يميل إلى تفضيل جهة معينة تبعاً لما يضمه في داخله.

وسبحان الله فقد كانت نظرية (Yang) و (Lee) تحمل دلالات كبيرة جداً في هذا السياق، فقد بينت النظرية أن كل جسيم ذري يفضل أن يتجه إلى إحدى الجهتين إما يميناً أو يساراً تبعاً لنوع الشحنة التي يحملها.

وجه الإعجاز:

إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد أشارت إلى التفريق بين جهة اليمين وجهة اليسار حتى عندما تبدو الجهتان متطابقتان في كل شيء وفضلت جهة اليمين على اليسار، وبعد مرور ما يقارب الأربعة عشر قرناً من الزمان يكتشف العالم باستخدام أفضل العقول وأجهزة التجارب عالية التطور أن جهة اليمين وجهة اليسار بالفعل ليستا متطابقتين في العالم الطبيعي بل هما مختلفتان بحيث إن الجسيمات داخل الذرة تفرق بين الجهتين وكل جسيم لديه جهة يجذبها على الأخرى بحسب الشحنة التي يحملها.

إن ذلك كله يدل على أن هذا الدين الحنيف وجميع تعاليمه المطهرة هي من عند خالق الكون الواحد الأحد الذي خلق كل شيء كبيراً كان أو صغيراً وأعطى كل شيء صفاته وسلوكه التي قدرها له منذ بداية الخلق، فسبحانه وتعالى عما يشركون.

الأقمار الصناعية تشهد نبوة محمد ﷺ :

عندما دخل اليمينيون في دين الله أفواجًا أرسل لهم النبي ﷺ معلمين يعلمونهم الدين كان منهم علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري، ووبر بن يُحَنَس الخزاعي وغيرهم رضي الله عنهم. وقد أمر رسول الله ﷺ وبر بن يحنس الخزاعي الذي وجهه إلى صنعاء أن يبني لهم مسجدًا، عُرف بمسجد صنعاء، وحدد الرسول ﷺ أوصاف المسجد، فحدد موضعه في صنعاء، وحدد علامة واضحة هي جبل ضين الذي يبعد عن صنعاء حوالي (٣٠) كم وبتحديد جبل ضين حدد لهم زاوية الميل بين موضع المسجد والجبل كما حدده - أي الجبل - جهة القبلة المسجد.

ولما كان الرسول ﷺ - المعصوم من الخطأ - هو الذي حدد الصفات التي يكون عليها المسجد من حيث دقة الموقع، وزاوية الميل نحو الكعبة، وجهة المسجد بالنسبة للكعبة، فلاشك أن هذا التوجيه سيكون دقيقًا، لذلك كان أهل اليمن ولا يزالون يعتبرونه أفضل مساجد اليمن، لأنه بنى طبقًا لتوجيهات الرسول ﷺ ووصفه. وإذا كان من أهم صفات المسجد ضبطً قبلته نحو الكعبة، فقد حدد الرسول ﷺ الأوصاف والمعالم التي جعلت المصلى في مسجد صنعاء وكأنه يراها وهذا من تمام بناء المسجد. وبهذا الوصف الدقيق من الرسول ﷺ يكون قد حدد خطأ مستقيمًا من موضع مسجد صنعاء إلى الكعبة في المسجد الحرام بمكة المكرمة.

الشروط المطلوبة لرسم خط بين مدينتين متباعدتين:

إن المسافة بين صنعاء ومكة هي (٨١٥ كم) تقريبًا فإذا أردنا رسم خط مستقيم بين مكة وصنعاء فلا بد مما يلي:

- وجود خريطة تعتمد على الصور الحقيقية لسطح الأرض المأخوذة بالطائرات أو الأقمار الصناعية وذلك لنتمكن من تحديد موقع المسجد، وموقع مكة تحديدًا دقيقًا.
- لابد من معرفة خطوط الطول وخطوط العرض على سطح الكرة الأرضية لمعرفة زاوية الميل بين الموقعين بالنسبة للشمال المغناطيسي.

- لا بد من معرفة مقدار ارتفاع مكة وصنعاء عن سطح البحر لتتمكن من معرفة درجة الإنحناء الناتج عن السطح الكروي لسطح الأرض. فالخريطة المسطحة للأرض لا تمثل الحقيقة لأن الأرض كروية وليس مسطحة، ووضع الخرائط المسطحة - إذا كانت دقيقة - تُفقدنا المسافة أو الجهة بين أي موقعين متباعدين على سطح الأرض.

متى تمكن الإنسان من استيفاء هذه الشروط:

- لم يتمكن الإنسان من وضع الخرائط الدقيقة للأرض إلا في القرن العشرين الميلادي بعد أن صنع الطائرات والصواريخ بعيدة المدى التي تحمل الأقمار الصناعية وآلات التصوير الدقيقة، وغيرها من الأجهزة.
- ولم يتمكن الإنسان من وضع خطوط الطول والعرض الدقيقة للأرض إلا في القرن العشرين بعد أن تمكن من وضع الخرائط الدقيقة لسطح الأرض بأكمله، مشتملاً على البحار والجزر والقارات.
- ولم يتمكن من معرفة المرتفعات والمنخفضات على سطح الأرض إلا في القرن العشرين بعد أن امتلك الأجهزة الدقيقة التي تحدد له ارتفاع كل جبل وانخفاض كل وادي على سطح الأرض.

هل توفرت هذه الشروط في زمن الرسول ﷺ؟

الجواب لا. ويعرف ذلك كل عاقل فضلا عن الباحثين والدارسين؛ فتأمل إلى أول خريطة للأرض وضعها الإدريسي في عام (١١٥٤م) بعد الهجرة النبوية بحوالي خمس قرون ونصف، لقد وضع اليمن جنوب شرق الجزيرة ووضع عُمان شمال شرق الجزيرة. وتأمل في الخريطة التي وضعها "جيوفاني لردو" بعده بثلاثة قرون وتأمل في خريطة الجزيرة العربية المأخوذة بالأقمار الصناعية لترى الفرق بين موقع مكة واليمن، فضلاً عن الفرق بين موقع مكة وصنعاء. علماً بأن الإدريسي و"جيوفاني لردو" من رواد البشرية في رسم خريطة الأرض!! بعد زمن النبي ﷺ بقرون.

إن الإنسان لم يتمكن من تحديد الإحداثيات لكل موقع في الأرض بدقة -
ليتمكن من رسم خط مستقيم بين مدينتين متباعدتين - إلا بعد صناعة الطائرات
وآلات التصوير الدقيقة، ووضع خطوط الطول والعرض، واكتشاف الأجهزة التي
تحدد ارتفاع المدن عن سطح البحر، وصناعة الصواريخ بعيدة المدى التي تتمكن من
حمل الأقمار الصناعية إلى خارج الغلاف الجوي. وكل هذه الشروط لم تتوفر للإنسان
الإنسان إلا بعد أربعة عشر قرناً من بعثة النبي ﷺ.

ملاحظة:

- أول قمر صناعي اطلق في تاريخ البشرية هو سبوتنك (Sputnik)
أطلقته روسيا في عام ١٩٥٧ م.
- وفي العام ١٩٥٨ م أطلقت الولايات المتحدة قمرها الصناعي الأول
الذي سمي بالمكتشف.

الرسول ﷺ يحدد إحداثيات، وقبة مسجد صنعاء:

وقبل أربعة عشر قرناً من الزمان حدد الرسول ﷺ إحداثيات مسجد صنعاء
فحدد الرسول ﷺ موقع المسجد ومكانه، وحدد الزاوية الصحيحة بالنسبة لمكة، كما
حدد القبلة الدقيقة للكعبة.

روى الطبراني في (المعجم الأوسط) عَنْ وَبَرِ بْنِ يُحْنَسِ الْخَزَاعِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ
لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا بَنَيْتَ مَسْجِدَ صَنْعَاءَ، فَاجْعَلْهُ عَنْ يَمِينِ جَبَلٍ، يُقَالُ لَهُ:
ضِيْنٌ» (قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢ / ١٢: «رواه الطبراني في الأوسط، وإسناده
حسن»).

فقول الرسول ﷺ: «فَاجْعَلْهُ عَنْ يَمِينِ جَبَلٍ، يُقَالُ لَهُ: ضِيْنٌ» يحدد زاوية
ميل المسجد الدقيقة نحو الكعبة.

مسجد صنعاء وموقعه اليوم:

أولاً: لقد حافظ أهل اليمن قديماً وحديثاً على موقع المسجد الذي أمر به رسول
الله ﷺ أن يبني فيه وذلك بالحفاظ على معالم حدوده التي حدّها رسول الله ﷺ لبنائه

مثل الصخرة الملممة أحد حدّي المسجد وموقعه اليوم بين ساريتين من سواري المسجد تسمى أحدهما (المسمورة) والأخرى (المنقورة).

ثانياً: كل توسعة وقعت للمسجد لم يتأثر بها مسجدها القديم الذي حدّه رسول الله ﷺ بل كانت عن يمينه وشماله وأمامه ويفصل بينهما ساحة واسعة في الوسط وقد ذكر ذلك الرازي في كتابه "تاريخ صنعاء".

برنامج جوجل إرث (Google Earth):

إن برنامج جوجل إرث - والموجود على شبكة الإنترنت - يوفر لجميع مشتركي الشبكة الوصول إلى معظم المواقع على الأرض - دول أو مدن أو قرى - مع تعيين هذه المواقع وتقريبها وتوضيحها وذلك عبر صور ثلاثية الأبعاد التقطت من الأقمار الصناعية والطائرات وهي صور حقيقية لها وذلك بحسب ما ورد على موقع البرنامج على شبكة الإنترنت.

تطبيق حديث رسول الله ﷺ على برنامج جوجل إرث (Google Earth).

أولاً: قد ذكر رسول الله ﷺ وحدّد في الحديث موضعين (موقع مسجد صنعاء وجبل ضين) وهذين الموضعين هما من ضمن المواضع التي تم تغطيتها بالأقمار الصناعية في برنامج جوجل إرث.

ثانياً: لو أننا أخرجنا خطاً مستقيماً من وسط المسجد - الموقع الذي حدده رسول الله ﷺ لبنائه - ثم انطلقنا به على استقامته حتى نمرّ به من قمّة جبل ضين ثم أرسلناه أيضاً على استقامته خطاً واحداً منطلقاً من قبلة مسجد صنعاء الذي وصفه الرسول ﷺ والمحدّد الآن بالمسمورة والمنقورة ماراً هذا الخط بقمة جبل ضين فإننا سنجد أنه يصل إلى مكة أولاً ثم يستقرّ في جدار الكعبة متوسّطاً ما بين الركن والحجر الأسود.

فتكون النتيجة خط مستقيم من قبلة المسجد الذي أمر الرسول ﷺ ببنائه ماراً بقمة جبل ضين ليصل إلى وسط الكعبة المشرفة.

وجه الإعجاز في حديث النبي ﷺ:

لا يستطيع إنسان أن يرسم خطأ مستقيماً على السطح الكروي للأرض بين مدينتين متباعدين إلا إذا توفرت له الخرائط الدقيقة المأخوذة بالطائرات والأقمار الصناعية وآلات التصوير الدقيقة، وعلم بخطوط الطول والعرض للكرة الأرضية وعرف ارتفاع المدن عن سطح البحر، ولم يتيسر كل هذا للإنسان إلا بعد أربعة عشر قرناً من زمن الرسول ﷺ لكن الرسول ﷺ وقبل ألف وأربع مائة عام حدد خطأ مستقيماً بين مسجد صنعاء وجبل ضين والكعبة عندما حدد أوصاف المسجد الذي أمر ببنائه في صنعاء.

فلو أننا أخرجنا خطأ مستقيماً من وسط المسجد - الموقع الذي حدده ﷺ لبنائه - ثم انطلقنا به على استقامته حتى نمرّ به من قمة جبل ضين ثم أرسلناه أيضاً على استقامته خطأً واحداً منطلقاً من قبلة مسجد صنعاء الذي وصفه الرسول ﷺ والمحدد الآن بالمسمورة والمنقورة ماراً هذا الخط بقمة جبل ضين فإننا سنجد أنه يصل إلى مكة أولاً ثم يستقرّ في جدار الكعبة متوسطاً ما بين الركن والحجر الأسود فتكون النتيجة خط مستقيم من قبلة المسجد الذي أمر الرسول ﷺ ببنائه ماراً بقمة جبل ضين ليصل إلى وسط الكعبة المشرفة.

فحدد الموضع والمكان بقوله: «فمُر ببناء المسجد لهم في بستان باذان من الصخرة التي في أصل غمدان» - فيما كتبه ﷺ لوبر بن يحنس بأن يبني حائط باذان مسجداً ويجعله من الصخرة إلى موضع جدره (١)، وحدد ﷺ زاوية ميل مسجد صنعاء من جبل ضين والكعبة بقوله ﷺ: «فاجعله عن يمين جبل، يُقال له: ضين»، وحدد الجهة الدقيقة للكعبة باستعمال معلم واضح لأهل صنعاء القديمة هو جبل ضين.

(١) نسب الباحث هذا الحديث للحافظ الرازي في كتابه "تاريخ صنعاء" دون أن يتأكد من صحته، بل إنه حتى لم يذكر رقم الصفحة في ذلك المرجع. والواضح من إشارة الباحث أن الرازي ذكره بدون إسناد.

وجاءت الطائرات والصواريخ والأقمار الصناعية تصور الأرض بمدنها وجبالها وبحارها فقدمت لنا صورة حقيقة للأماكن الثلاثة التي بينها رسول الله ﷺ مسجد صنعاء، جبل ضين، الكعبة - فإذا بها تقع على خط مستقيم رغم بعد المسافة وكروية الأرض وعدم توفر الشروط والوسائل العلمية زمن النبي ﷺ، وكل ذلك تم بعبارة سهلة وعلامة واضحة جلية وعمل متقن دقيق، وهو ﷺ لم يزر اليمن ولا رأى جبل ضين، ولا شاهد بستان باذان ولا الصخرة الملممة (١) ولا يعلم الناس في زمنه المسافة التي تفصل بين مكة وصنعاء.

كل ما سبق يشهد أن ما قاله النبي ﷺ ليس في مقدور بشر في عصره وحتى بعد عصره بقرون طويلة وإنما هو الوحي والعلم الإلهي.

الإعجاز في حديث عريض القفا:

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ أَهْمَا الْخَيْطَانِ». قَالَ: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا إِنْ أَبْصَرْتَ الْخَيْطَيْنِ». ثُمَّ قَالَ: «لَا بَلْ هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ» (رواه البخاري).

عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَدِيِّ، قَالَ: أَخَذَ عَدِيُّ عِقَالًا أبيض، وَعِقَالًا أسودَ حَتَّى كَانَ بَعْضُ اللَّيْلِ نَظَرَ فَلَمْ يَسْتَبِينَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: جَعَلْتَ تَحْتَ وَسَادِي عِقَالَيْنِ، قَالَ: «إِنَّ وَسَادَكَ إِذَا لَعَرِيضُ أَنْ كَانَ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ، وَالْأَسْوَدُ تَحْتَ وَسَادَتِكَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (البقرة: ١٨٧). قَالَ لَهُ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَجْعَلُ تَحْتَ وَسَادَتِي عِقَالَيْنِ عِقَالًا أبيض وَعِقَالًا أسودَ أَعْرِفُ اللَّيْلَ مِنْ

(١) انظر الهامش السابق.

النَّهَارِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ وَسَادَكَ لَعَرِيضٌ إِنَّمَا هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ». (رواهُ مُسْلِمٌ).

وفي رواية: فَضَحِكَ فَقَالَ: «إِنَّ وَسَادَكَ لَعَرِيضٌ طَوِيلٌ إِنَّمَا هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ». (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

معنى الحديث:

(عِقَالٍ): أَي حَبَلٍ. فِي قَوْلِهِ "إِنَّ وَسَادَكَ لَعَرِيضٌ" قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا يُرِيدُ أَنَّ نَوْمَكَ لِكَثِيرٍ، وَكُنِيَ بِالْوِسَادَةِ عَنِ النَّوْمِ لِأَنَّ النَّائِمَ يَتَوَسَّدُ، أَوْ أَرَادَ أَنَّ لَيْلَكَ لَطَوِيلٌ إِذَا كُنْتَ لَا تُمْسِكُ عَنِ الْأَكْلِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الْعِقَالُ، وَالْقَوْلُ الْآخِرُ أَنَّهُ كُنِيَ بِالْوِسَادَةِ عَنِ الْمَوْضِعِ الَّذِي يَضَعُهُ مِنْ رَأْسِهِ وَعُنُقِهِ عَلَى الْوِسَادَةِ إِذَا نَامَ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ فَلَانٌ عَرِيضٌ الْقَفَا إِذَا كَانَ فِيهِ عِبَاوَةٌ وَعَفْلَةٌ.

وَقَدْ رُوِيَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى "إِنَّكَ عَرِيضُ الْقَفَا" وَجَزَمَ الزَّخَّشَرِيُّ بِالتَّوِيلِ الثَّانِي فَقَالَ: إِنَّمَا عَرَضَ النَّبِيُّ ﷺ قَفَا عَدِيٍّ لِأَنَّهُ عَفَلَ عَنِ الْبَيَانِ، وَعَرَضَ الْقَفَا مِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى قِلَّةِ الْفَطْنَةِ، وَأَنْشَدَ فِي ذَلِكَ شِعْرًا.

وَقَدْ أَنْكَرَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ الْقُرْطُبِيُّ فَقَالَ: «حَمَلَهُ بَعْضُ النَّاسِ عَلَى الذَّمِّ لَهُ عَلَى ذَلِكَ الْفَهْمِ وَكَأَنَّهُمْ فَهَمُوا أَنَّهُ نَسَبَهُ إِلَى الْجَهْلِ وَالْجَفَاءِ وَعَدَمِ الْفِقْهِ، وَعَضَّدُوا ذَلِكَ بِقَوْلِهِ "إِنَّكَ عَرِيضُ الْقَفَا" وَلَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا قَالُوهُ لِأَنَّ مَنْ حَمَلَ اللَّفْظَ عَلَى حَقِيقَتِهِ اللَّسَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْأَصْلُ إِنْ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ دَلِيلُ التَّجَوُّزِ لَمْ يَسْتَحِقَّ ذَمًّا وَلَا يُنْسَبُ إِلَى جَهْلِ، وَإِنَّمَا عَنَى - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ وَسَادَكَ إِنْ كَانَ يُعْطَى الْخَيْطَيْنِ اللَّذَيْنِ أَرَادَ اللَّهُ فَهُوَ إِذَا عَرِيضٌ وَاسِعٌ، وَلِهَذَا قَالَ فِي أَثَرِ ذَلِكَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ»، فَكَأَنَّهُ قَالَ: فَكَيْفَ يَدْخُلَانِ تَحْتَ وَسَادَتِكَ؟ وَقَوْلُهُ "إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا" أَي إِنَّ الْوِسَادَةَ الَّتِي يُعْطَى اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَرْقُدُ عَلَيْهِ إِلَّا قَفَا عَرِيضٌ لِلْمُنَاسَبَةِ.

قال الحافظ ابن حجر: وَتَرَجَّمَ عَلَيْهِ ابْنُ حَبَّانَ " ذِكْرُ الْبَيَانِ بِأَنَّ الْعَرَبَ تَتَفَاوَتْ لُغَاتُهَا " وَأَشَارَ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ عَدِيًّا لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ فِي لُغَتِهِ أَنَّ سَوَادَ اللَّيْلِ وَيَبَاضَ النَّهَارِ يُعَبَّرُ عَنْهُمَا بِالْحَيْطِ الْأَسْوَدِ وَالْحَيْطِ الْأَبْيَضِ. وَسَاقَ هَذَا الْحَدِيثَ (١).

الحقائق العلمية:

- مركز الإبصار يقع في القفا من القشرة الدماغية.
 - أعضاء الإحساس ممثلة بمساحة على القشرة الدماغية، وتمثيل العين هنا فقط للإحساس (كاللمس) أما تمثيل العين فيما يخص النظر فهو في القفا.
 - هذه المساحة من القشرة الدماغية تتناسب مع المهارة المطلوبة.
 - الرؤية تُقدَّرُ بالزاوية التي تقابل الجسم المرئي على الشبكية.
 - خلايا الشبكية نوعان (قضبانية ومخروطية) قضبانية الشكل هي وحدها المسؤولة عن الرؤية الليلية ولا تستطيع أن ترى سوى الأبيض والأسود. أما المخروطية فهي المسؤولة عن رؤية الألوان ولكنها لا ترى في الليل على الإطلاق.
- تبدأ الرؤية عندما تسقط أشعة الضوء المنكسرة من الجسم المرئي فتُكوِّنُ صورة على شبكية العين فتقوم خلايا الشبكية (قضبانية ومخروطية) بتحويل هذه الصورة إلى موجات أو إشارات عصبية التي تنقل عن طريق عصب العين إلى القشرة الدماغية (مركز النظر) الموجودة في القفا حيث يقوم هذا المركز بتحويل هذه الإشارات مرة أخرى إلى صورة تعكس تماما الجسم المرئي بكل تفاصيله الدقيقة.

(١) انظر: "فتح الباري" لابن حجر (٤/ ١٣٣).

في كل شبكية عين ١٠٥ مليون خلية منها ٥ مليون فقط مخروطية الشكل. أما عدد ألياف عصب العين فهو واحد مليون فقط التي تنقل إلى مليون خلية في القشرة الدماغية (مركز النظر) مع العلم أن القشرة الدماغية بكاملها تتكون من ٢٠ بليون خلية تنتشر على حوالي ٢ متر مربع .

مركز النظر يقوم بوظائف كثيرة إلى جانب حدة النظر منها تحديد شكل الجسم المرئي واللون والبعد والموقع والاسم وكذلك التنسيق مع المراكز الدماغية الأخرى وهلم جرا. ولذلك فإن مساحة مركز النظر لا بد أن تكون أعرض من ناتج العملية الحسابية للمعطيات السابقة.

الاستدلال:

أولاً: الحديث قال: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا» (ولم يقل كبير القفا لأن المساحة وليس الحجم هي الأهم وفي ذلك إعجاز).

ثانياً: الحديث قال: «إِنَّ وَسَادَكَ إِذَا لَعَرِيضٌ أَنْ كَانَ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ، وَالْأَسْوَدُ تَحْتِ وَسَادَتِكَ» (ولم يقل مثل الخيط الأحمر من الخيط الأصفر ولو قال ذلك لما كان هنا إعجاز لأنه لا يمكن أن يراهما ولو كان قفاه بعرض السماء والأرض وفي ذلك إعجاز أيضاً).

ثالثاً: لزيادة الرؤية في النهار فإنه لا يحتاج لعرض القفا كما يحتاجه للرؤية الليلية حيث إن كل خلية مخروطية يقابلها ٢٠ خلية قضيبية (الرؤية الليلية). فهذا فإننا نجد أن بعض الكائنات البحرية (مثل الأخطبوط) فإن مركز النظر يحتل لديها أكثر من نصف مساحة القشرة الدماغية لأنها تعيش في ظلام دامس.

رابعاً: ما هي المساحة اللازمة التي تمكننا من رؤية الخيط الأبيض من الخيط الأسود؟ وهل يمكن أن نخمن؟ يبدو أن ذلك بالإمكان. اللفظ الثاني للحديث يقول: «إِنَّ وَسَادَكَ لَعَرِيضٌ طَوِيلٌ» وهو يتكلم أيضاً عن مساحة.

فمتوسط الوسادة هو ٩٠ سم إلى متر في ٤٠ سم إلى ٥٠ سم وبعملية حسابية بسيطة فإن ذلك يساوي حوالي ١٨ - ٢٥٪ من القشرة الدماغية وهذه النسبة ربما تكون

كافية ذلك أن الأخطبوط الذي يرى في قعر البحار مع تلكم الظلمات فمركز النظر لديه يشكل حوالي ٥٠٪ من القشرة الدماغية.

الإعجاز التشريعي في أكل لحم الجمل؛

عندما يُعرض الإنسان عن أوامر ربه تبدأ المشاكل، وهذا ما حدث عندما أعرض الناس عن أكل لحم الجمل. فبدأت هذه الجمال تفتك بالبيئة والموارد الطبيعية، فقد ذكرت دراسة أجرتها منظمة أسترالية معنية بشؤون البيئة أن الجمال البرية تعيثُ فساداً في القارة وتدمر موارد المياه والمحميات الطبيعية.

وأوصى "مركز أبحاث معرفة الصحراء التعاوني"، في العاصمة الأسترالية، باستهلاك لحوم الجمال، كوسيلة لتقليل أعداد الجمال البرية التي تصل أعدادها إلى مليون رأس، تتلف ٣,٣ مليون كيلومتراً مربعاً من الأراضي في قلب أستراليا.

وتقوم أضخم "مملكة" للجمال في ثلاث ولايات والمناطق الشرقية بأستراليا، وتلك الأعداد تتنامى بحوالي ٨٠ ألف رأس سنوياً. ونظراً لأن الجمال حيوانات حذرة ومراوغة، ولأن المناطق التي تستوطنها خالية من السكان. فمعظم الناس يجهل أعدادها ومدى الضرر الذي تسببه.

وتقدر الدراسة تكلفة الأضرار التي تحدثها الجمال بـ ١٥ مليون دولار سنوياً في منطقة تغطي ثلث القارة الأسترالية، بالإضافة إلى ملايين الدولارات التي يفقدها قطاع الرعي سنوياً جراء تضرر موارد المياه. وأوصى "موري ماكجريجور" باستهلاك لحوم الجمال كوسيلة لخفض الأعداد الهائلة من تلك الحيوانات قائلاً: «لحومها لذيدة مثل لحم البقر كما أنها غذاء صحي».

وحذر الباحث جلين إيدواردز، من وزارة البيئة والموارد الطبيعية في المناطق الشمالية، ومُعدّ الدراسة، من الأضرار غير الملحوظة التي توقعها الجمال بالموارد الطبيعية للبلاد. وتطرق إلى التأثير المدمر لمليون رأس من الجمال البرية، تتضاعف كل تسعة أعوام.

إن الله تعالى عندما شرع لنا أكل لحم الجمل إنما يريد لنا وللبيئة الخير، لأن هذه الجمال ليست مثل بقية الحيوانات (النمر مثلاً) فالجمل خلق من أجل أن نأكله، ولما أعرض الناس في أستراليا عن أكله تزايدت أعداده بشكل كبير مما أدى إلى مخاوف تدمير البيئة هناك.

بينما خلق الله النمر والفهد والدب. وغيرها من المخلوقات لتكون جزءاً من النظام البيئي، ولما بدأ الإنسان يصطادها بوحشية بدأت تنقرض شيئاً فشيئاً. وهنا نستطيع أن نقول إن الله تعالى خلق الأرض بنظام متوازن، وعندما خالف الإنسان هذا النظام رأينا التلوث والأعاصير والزلازل والاحتباس الحراري وذوبان الجليد، وبدأت الأوبئة ولا توجد طريقة لعلاج ذلك إلا بالعودة إلى تعاليم الله تعالى.

أثر ماء الرجل وماء المرأة في خلق الجنين؛

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَاءُ الرَّجُلِ أبيضٌ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرٌ فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَنِي الرَّجُلِ مَنِي الْمَرْأَةِ أَذْكَرًا يَأْذِنُ اللَّهُ، وَإِذَا عَلَا مَنِي الْمَرْأَةِ مَنِي الرَّجُلِ آتْنَا يَأْذِنُ اللَّهُ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

هذا الحديث يُثبت أن للمرأة ماءً كما أن للرجل ماءً، وأن كلاهما يشتركان في تكوين الجنين، فمني الرجل ومني المرأة يشتركان في تخليق الجنين وفي صفاته ومنها الإذكار والتأنيث، وهذا ما كشفه الطب الحديث وصوّرته آلات التصوير الدقيقة من أن الماء الذي يحمل البويضة لونه أصفر. كما ثبت علمياً أن الحيين المنوي للرجل وبويضة المرأة هما الناقلان للصفات الوراثية عن طريق المورثات الموجودة في الصبغيات.

أصل الجسد البشري؛

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ، وَالْحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ» (رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني).

إن العلم الحديث قد أثبت أن جسم الإنسان مكون من عناصر الأرض، وقد وجد بالتحليل أن جسم الإنسان يتكون من نفس مركبات الأرض وهي: (ماء - سكر - بروتينات - دسم - خمائر - فيتامينات - هرمونات - كلور - كبريت - فسفور - مغنسيوم - كلس (جير) - بوتاسيوم - صوديوم - حديد - نحاس - يود - ومعادن أخرى).

وهذه المعادن تتركب مع بعضها لتكون العظام والعضلات، وعدسة العين، وشعرة الرأس، والضرس، والدم، والغدد اللعابية، وأشياء أخرى في جسمك.

الفروق الفطرية بين الناس ترجع إلى تكوينهم البدني؛

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «التَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَتَّهُوا» (رواه البخاري ومسلم).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ، وَالْحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ» (رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني).

هذان الحديثان يشيران إلى الفروق الفطرية الوراثية، كالألوان، والطباع، والاستعدادات المزاجية، والانفعالية، الفروق الفطرية فروق في التكوين الفطرية.

وهذا يلتقي مع ما أثبتته الدراسات الحديثة، من وجود فروق تشريحية في بشرة الفطرية تسبب اختلاف ألوانهم، كما أثبتت أيضاً انتقال الألوان الفطرية إلى النسل، وفقاً لقوانين الوراثة التي توصل إليها (مندل Mendel).

والدراسات الحديثة، مثل دراسات (إيفان بافلوف Ivan Pavlov) و(كلفن هول Calvin hall) على الحيوانات، أثبتت أن الفروق في الاستعدادات المزاجية والانفعالية، ترجع إلى فروق في التكوين البدني والتشريحي، لهذه الحيوانات.

ونحن نلاحظ أيضًا وجود مثل هذه الفروق، في الاستعدادات المزاجية، والانفعالية الفروق الفطرية فمن الناس من هو سريع الانفعال، شديد التهيج، ومنهم من هو كثير الهدوء، بطيء الانفعال، ولاشك أن جزءًا كبيرًا من هذه الفروق، يرجع إلى فروق في التكوين البدني، وفي طبيعة تكوين الجهازين العصبي، والغدي.

أثر الأثر الوراثي، وما يستحب أن يتخير لنطفه:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: «تُنَكِّحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا؛ فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ» (رواه البخاري ومسلم).
وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ وَأَنْكِحُوا الْأَكْفَاءَ وَأَنْكِحُوا الْيَهُمَّ» (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني).

هذان الحديثان يتفقان مع ما كشفه علم الوراثة من أن الأب والأم يشتركان في تكوين الجنين بالمنصفة، فبويضة المرأة فيها (٢٣) كروموسوم، والحيوان المنوي فيه العدد نفسه من الكروموسومات، وهذه الكروموسومات تحمل المورثات، التي تكسب الجنين صفاته الخلقية والخلقية؛ فلذا حث النبي صلى الله عليه وآله وسلم على تخير الزوجة، لما لها من الأهمية في النسل والذرية.

مدى فعالية وسائل منع الحمل:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم عَنِ الْعَزْلِ فَقَالَ: «مَا مِنْ كُلِّ الْمَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ خَلْقَ شَيْءٍ لَمْ يَمْنَعْهُ شَيْءٌ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).
وفي رواية: «مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا، مَا مِنْ نَسَمَةٍ كَانَتْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَهِيَ كَانَتْ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

وهذا يتفق مع ما كشفه العلم الحديث، من إمكانية حدوث الحمل رغم موانع الحمل المختلفة، إنه إعجاز كامل، لا يتصوره إلا من درس وسائل منع الحمل، ونسبة النجاح فيها، فمن وسائل منع الحمل وسائل قديمة معروفة مثل (العزل)، ومنها وسائل حديثة مثل حبوب منع الحمل، واللولب الذي يدخل إلى الرحم، والموانع الميكانيكية لدى المرأة والرجل، والمراهم، واللبوس المهبل، (التحاميل)، وأخيرًا: عملية التعقيم

بقطع قناتي الرحم، وربطهما، حتى لا تتمكن الحيوانات المنوية من الوصول إلى البويضة.

إن إعجاز حديث المصطفى ﷺ في أن جميع وسائل منع الحمل، لا تستطيع منع خلق الولد إذا أَرَادَهُ اللهُ ﷻ، إن العزل وسيلة شائعة منذ أقدم العصور، ونسبة الفشل بهذه الطريقة تبلغ اثنين وعشرين بالمائة. ونحن نعلم الآن أن لكل وسيلة من وسائل منع الحمل، نسبة تفشل فيها، فرغم هذه الموانع، يحصل الحمل إذا قدر الله ذلك، بل إن إحدى النساء قالت إنها أجرت عملية تعقيم بقطع قناتي الرحم وربطهما، في لندن، ثم لم تلبث بضعة أشهر إلا وهي حامل، وذلك مقررٌ في الكتب والمجلات الطبية، وتصل نسبة فشل هذه العملية (٥٥ بالمائة) إذا كانت العملية عن طريق المهبل، ولكنها تهبط إلى واحد بالمائة فقط، إذا أجريت العملية عن طريق فتح البطن، وبواسطة جراح ماهر.

وسجل كثير من الباحثين نسبة فشل تصل إلى (٧, ٣ بالمائة) مع جراحين مَهْرَةٍ، وقد أجريت لامرأة عمليات تعقيم متعددة، ومع ذلك حملت حملاً طبيعياً، بل لقد سُجِّلت حالة حمل بعد عملية استئصال للرحم. وعليه فإن الحديث النبوي الشريف، إعجاز كامل في تقرير هذه الحقيقة العلمية.

إن من علامات حكمة رسول الله ﷺ في هذا الموضوع: أن العزل لا يفيد في منع الحمل، ولكن أهم من ذلك الحالات النادرة جداً، التي يستمر فيها الحمل، بالرغم من عمليات التعقيم بربط البوقين، والتوسيع، وكحت الرحم.

تقديم السمع على البصر:

كان النبي ﷺ إِذَا سَجَدَ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسَلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَّرَهُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» (رواه مسلم). السمع والبصر في هذا الحديث المراد به العين والأذن، وهذا الحديث فيه إعجاز علمي من جهة ترتيبه السمع قبل البصر.

نمو البصر:

يغطي العدسة البصرية محفظة من الطبقة المتوسطة (الميزودرم)، وتسمى عندئذ (المحفظة العدسية الوعائية)؛ لأنه تتخللها الأوعية الدموية التي تضمّر في الشهر السابع، وتشق هذه المحفظة في وسطها، مكوّنة فتحة وفرجة، تعرف باسم (حدقة العين) أو (البؤبؤ).

ويكتمل نمو الجفون في الشهر الثالث، ويلتصق الجفنان منذ ذلك الوقت، إذ لا حاجة للجنين في الرؤية في ذلك الظلام الدامس، ولحماية العين مما يحيط بها من السائل الأمنيوسي (الرهل). وفي الشهر السابع تنفتق الجفون مرة أخرى، استعدادًا لخروج الجنين إلى الدنيا.

نمو السمع:

يكتمل نمو السمع منذ الشهر الرابع في الجنين، ومنذ ذلك الوقت المبكر، يسمع الجنين الأصوات الخارجية، وقرقرة أمعاء أمه، أما البصر فيتأخر في النمو، وعندما يولد الطفل، يستطيع أن يبصر الأشياء، ولكن إدراكه للمبصرات ضعيف وضئيل، أما إدراكه للسمعيات، فجيد منذ الولادة، بل وقبل الولادة، وذلك مما يفسر تقديم السمع على البصر في القرآن الكريم وفي الحديث.

فَدَكَّرُ الرَّسُولَ شَقَّ السَّمْعَ قَبْلَ شَقِّ الْبَصْرِ، إِنَّمَا يَتَّفِقُ مَعَ مَعْطِيَاتِ عِلْمِ الْأَجْنَةِ، الَّتِي تَبِينُ أَنَّ تَكْوِينَ السَّمْعِ فِي الْجَنِينِ يَسْبِقُ تَكْوِينَ الْبَصْرِ.

توريت السمع والبصر:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ لِأَصْحَابِهِ: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يُحَوِّلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتِكَ، وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا

تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمًّا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تَسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا». (رواه الترمذي، وحسنه الألباني).

(وَاجْعَلْهُ): أَي الْمَذْكُورَ مِنَ الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْقُوَّةِ. (الْوَارِثَ): أَي الْبَاقِيَ (مِنَّا) أَي بِأَنْ يَبْقَى إِلَى الْمَوْتِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى اجْعَلْ تَمْتُّعَنَا بِهَا بَاقِيًا مَأْثُورًا فِيمَنْ بَعَدَنَا.

الاستدلال:

هذا الحديث سبق ما كشفه علم الجينات والوراثة فلو أخذنا مشيخة وكبرناها، ثم كبرنا الجزء العلوي منها، لرأينا بداخله سلماً لوليباً، وفي كل سلمة تقدير صفة من صفات الإنسان، مثل: لون العين، الشعر، شكل الأنف، شكل الأذن، ...، وعندما تلتقي مشيخة الرجل مع مشيخة المرأة يحدث اتحاد، وفي مشيخة الرجل خصائص أسلافه، وفي مشيخة المرأة خصائص أسلافها، فمثلاً يكون في أسلاف الأم صفة عين قوية، وصفة عين ضعيفة، يعني: الجزئية التي ستورث صفات العين فيها مُورث قوي، تكون نتيجته عين قوية، وفيها مُورث ضعيف تكون نتيجته عين ضعيفة، وكذلك الجزئية التي ستورث صفة السمع، فيها مُورث قوي، يعطي سمعاً قوياً، وفيها مُورث ضعيف، يعطي سمعاً ضعيفاً.

فإذا اتحدت هذه المشائج التي تحمل مُورثات الصفات، سيظهر أي الصفات ستتغلب، الضعيفة، أم القوية، فإذا تغلبت الصفة القوية، ورثها الولد، فإن كانت قوية في البصر، ورث بصراً قوياً، وإن كانت في السمع، ورث سمعاً قوياً، وإن تغلبت الصفة الضعيفة، ورثها الولد سواء كانت في السمع، أو في البصر، أو غيرها.

وهذه القضية لا يعرف لها الأطباء قانوناً محددًا، ولذا فهم يقولون: صفات سائدة، وصفات متنحية، تتنحى صفة، وتسود صفة، وقد تكون السائدة ضعيفة، وقد تكون قوية.

ولذا نعلم معنى الدعاء الذي نردده: «وَمَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَفُؤُوتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا»: الذي يُورث في أبنائنا.

علاقة الناصية بسلوك الإنسان:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أُمَّتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَا ضِيقُ حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رِبِيعَ قَلْبِي، وَثُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُرْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا» (رواه الإمام أحمد، وصححه الألباني).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَأْمُرُهُمْ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَنَامَ أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ» (رواه مسلم).

وَقَالَ ﷺ: «إِذَا أَفَادَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً أَوْ حَادِمًا أَوْ دَابَّةً فَلْيَأْخُذْ بِنَاصِيَتِهَا وَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهَا وَخَيْرِ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ». (رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني).

هذه الأحاديث تؤكد أن الناصية هي مركز التوجيه والضبط؛ وهذا يتفق مع ما كشفه تشريح المخ الحديث، من أن مقدمة المخ، أو الفص الأمامي منه، والذي يقع خلف الجبهة، هو الخاص بعلاقة الناصية والشخصية.

وقد كان الظن لسنوات عديدة أن الأجزاء الأمامية، أو الجبهية من المخ - والتي تسمى الفصوص، أو الفلقات الجبهية - هي مناطق صامتة من المخ، وأن دورها ضئيل في التحكم في وظائف الجسد، وكان سبب وجود هذه الأفكار، هو أنه عند قطع أو بتر الألياف العصبية الداخلية والخارجية من الفلقات الجبهية، فإنه لم يكن يلاحظ تغيرٌ مذكور في نشاطات الحيوانات.

وقد لوحظت تأثيرات مشابهة، على الناس الذين تعرضت فلقاتهم الجبهية لتدمير أوتبر للألياف المرتبطة بها، خلال الحوادث.

وزاد في ترسيخ فكرة أن الفلقات الجبهية صامتة أن استشارة الأجزاء الداخلية فيها لا يترتب عليها أي حركة في جسم الناصية.

وقد عُرف خلال الخمسين عامًا الأخيرة أن الفلقات الأمامية تختص ببعض الوظائف العقلية في الناصية والحيوان.

وقد بيّنت دراسات رسوم المخ الإلكترونية، ودراسات وظائف الأعضاء الكهربائية، أن من تعرضت فلقاتهم الجبهية للتلف، فإنهم غالبًا ما يعانون من تناقص في قدراتهم العقلية، وقد يعانون من هبوط في المعايير الأخلاقية، وييدي المرضى علامات من الابتهاج، والرضا عن النفس، وكثيرًا ما يُبدون أمارات تبجح، وتقلص قدراتهم على التركيز، والمبادرة والتحمل، وتتناقص بدرجة كبيرة قدرة المريض على حل المشاكل، وبخاصة التي تحتاج إلى قدرات عقلية خاصة، وتتأثر قدرة المريض على الحكم على موقفه، وينحصر قلقه على الحاضر، وعلى نفسه.

ويجاز فإنه من المعلوم الآن أن الفلقات الأمامية، هامة جدًا للعقل؛ لأنها ترتبط بالعمليات العقلية العليا، فنحن نقوم بعمل الخطط داخل هذه الفلقات. وهكذا فإنها تؤثر في أفعال ووظائف أجزاء المخ الأخرى، مثل أفكارنا، ومشاعرنا، وأحاسيسنا.

ولعله للأسباب السابقة أمرنا الله بالسجود، أي بوضع ناصيتنا (جبهتنا) على الأرض...، وهذا الأمر بإجراء السجود، يعني أن علينا أن نضع مركز إرادتنا وأخذ القرار على الأرض؛ لإظهار الخضوع الكامل لله تعالى.

صلاح القلب صلاح للجسد:

قال عليه السلام: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» (رواه البخاري ومسلم).

في هذا الحديث إعجاز طبي، إذ أن أي مرض يصيب القلب، يؤثر دون ريب على سائر الجسد، فالقلب هو الذي يضح الدم الفاسد (غير المؤكسد) إلى الرئتين، حيث يُطرد ثاني أكسيد الكربون، ويتحد الأوكسجين بصبغة الدم (الهيموجلوبين)، الموجودة في كرات الدم الحمراء، ثم يعود الدم المنقى (المؤكسد) من الرئتين إلى البطن الأيسر، فيضخه عبر الأورطي (الأبهر) إلى كل أجزاء الجسم.

فإذا ضعفت هذه الدورة، نتيجة لأي مرض يصيب القلب، فإن الأنسجة لا تجد حاجتها من الأوكسجين، والأوكسجين يستخدم لإحراق السكريات، والدهون؛ لإطلاق الطاقة، ولولاه لتوقفت حركة الخلايا والأنسجة، وأدى ذلك إلى موتها وهلاكها، ففساد هذه المضخة الموضوعة في الجانب الأيسر من الفص الصدري، يؤدي إلى فساد الجسد كله.

قال عليه السلام: هذا الكلام قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وقبل أن يعرف الناس شيئاً عن الدورة الدموية في الإنسان، وعن دور القلب الهام في حياة الإنسان. إن صحة الجسد وسقمه ترتبط بصحة وسقم القلب الحسي، وأما القلب المعنوي، فيرتبط به الأخلاق والشمائل، وهناك جانب آخر، وهو أن الجسد يتأثر أيضاً من حيث الصحة والسقم بالقلب المعنوي، وهذا أمر مُشاهد، فإننا نرى الإنسان المهموم الحزين، نحيل الجسم متعب البدن، بخلاف المعافى.

ظاهرة الخسوف والكسوف:

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: «انكسفت الشمس يوم مات إبراهيم - أحد أبناء النبي عليه السلام - فقال الناس: «انكسفت لموت إبراهيم فقال رسول الله عليه السلام: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينگسفان لموت أحدٍ ولا لحياته فإذا رأيتموهما فادعوا الله وصلوا حتى ينجلي» (رواه البخاري ومسلم).

فلو أن ساحرًا أو كذابًا أو مشعوذًا حدث معه هذا الموقف لاستغله واعتبره دليلاً على صدقه، ولكن المعصوم عليه السلام لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

الاستدلال:

هذا الحديث يلتقي مع التفسيرات العلمية لظاهرة الخسوف، ويرفض كل تصور يخالف ذلك التصور العلمي، فلظاهرة الخسوف تفسيرات علمية، تلتقي مع قول الرسول عليه السلام، الذي حارب الخرافات، وقضى على كل التفسيرات التي غلفتها الأساطير قبل نزول القرآن.

والذي يحدث علمياً: أن القمر حين يكون بدرًا - ويعزز ذلك وجوده على دائرة البرج تماماً - فإن الأرض تحجب الشمس عنه، لأنها تلقي ظلالاً وراءها بسبب تسلط أشعة الشمس عليها، ويبلغ عرض منطقة الظل التي يوجد القمر بها خمسة آلاف وسبع مائة ميل، في حين قطر القمر يبلغ ألفين ومائة وستين ميلاً فقط، ولذلك يقطع القمر منطقة الظل هذه، في ثلاثين ساعة وأربعين دقيقة.

ويحدث الخسوف مرتين في السنة، أو مرة على الأقل، تتكرر كل مائتين وثلاثين وعشرين شهراً قمرياً، أي كل ثمان عشرة سنة وأحد عشر يوماً وثلث، وتسمى هذه الدورة في الفلك: ساروس (SAROS)، أما الخسوف الكلي فلا يحدث للقمر إلا إذا دخل القمر كله شيئاً فشيئاً في ظل الأرض المنحني، وعندئذٍ يحتجب كل ضوء الشمس عنه، فيبدو شبه معتم، إذ أن القمر أثناء الخسوف يكون كالمخنوق، فينعكس منه ضوء نحاسي أحمر باهت، وسبب هذه الحمرة أن ضوء الشمس حين يمر بغلاف الأرض، تنكسر أشعته خلاله، ويحول التراب الجوي للأرض دون مرور اللون الأزرق، كما لا يسمح إلا للون الأحمر بالمرور، ومن هنا اكتسب القمر اللون الأحمر الباهت عند الخسوف، كما تكتسب الشمس نفس هذا اللون، ولكن بدرجة فاقعة عند الأصيل والغروب، وقد يكون اللون معتمًا أو أحمر قانيًا، فهذا يتوقف على الأحوال الجوية السائدة في الغلاف الغازي المحيط بالأرض حينذاك، على سكون العواصف أو نشاطها وإثارها للأتربة.

وقد رفض الدين الإسلامي كل تصور يخالف ذلك التصور العلمي، وقد رأينا كيف رفض رسول الله ﷺ أي تصور يصدر عن الخرافات بشأن ظاهرة الخسوف، وهذا خير دليل على أن الإسلام يدعوا إلى النظرة العلمية، ونبذ الخزعبلات والخرافة. إن النبي ﷺ قد وضع حدًا لسخافات واعتقادات المنجمين، ولاعتقادات العامة في أسباب الكسوف وغيرها، لكنه لم يذكر تفصيلات الخسوف في الموضوع الذي ذكر فيه الحديث.

يُظْهِرُ فِيهِمُ السَّمْنَ؛

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ». قَالَ عِمْرَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَلَا أَدْرِي أَقَالَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً». «ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ» (١) وَيَجُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ وَيَنْدُرُونَ وَلَا يُوفُونَ وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السَّمْنُ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

ومعنى الحديث أن خير الأجيال والقرون من عاشوا مع النبي ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وبعد هذا تظهر أجيال وقرون في دينها نقص ومن مظاهر ذلك أنهم يشهدون ولا يُسْتَشْهَدُونَ ولا يوفون بنذورهم ويخونون الأمانة، وأيضًا يَظْهَرُ فِيهِمُ السَّمْنُ فهم يكثرن الطعام فيصبح الكثيرون منهم أجسامهم بدينة.

وحاليا أصبحت السمنة مشكلة في تزايد مستمر وتفاقم، لآلاف السنين كانت السمنة شيئاً من النادر رؤيته. وفي القرن العشرين انتشرت السمنة إلى الحد الذي جعل منظمة الصحة العالمية في عام ١٩٩٧ تعتبر السمنة وباءً عالمياً. وفي عام ٢٠٠٥ أظهرت

(١) قَدْ تَأَوَّلَ الْعُلَمَاءُ هَذَا تَأْوِيلَاتٍ أَصَحُّهَا: أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ مَعَهُ شَهَادَةٌ لِأَدَمِيِّ عَالَمٍ بِهَا فَيَأْتِي فَيَشْهَدُ بِهَا قَبْلَ أَنْ تُطْلَبَ مِنْهُ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى شَاهِدِ الزُّورِ فَيَشْهَدُ بِهَا لَا أَصْلَ لَهُ وَلَمْ يُسْتَشْهَدْ. وَالثَّلَاثُ: أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ يَنْتَسِبُ شَاهِدًا وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَةِ. وَالرَّابِعُ: أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ يَشْهَدُ لِقَوْمٍ بِالْحِنَّةِ أَوْ بِالنَّارِ مِنْ غَيْرِ تَوْقُفٍ، وَهَذَا ضَعِيفٌ. [انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١٢/١٧)].

تقديرات منظمة الصحة العالمية أن هناك على الأقل ٤٠٠ مليون إنسان تحطّوا مرحلة الطفولة يعانون من السمّنة، ومعدلات السمّنة أكثر في النساء من الرجال.

وفي عام ٢٠٠٨ قالت منظمة الصحة العالمية إن هناك ١,٥ بليون إنسان فوق سن العشرين يعاني من زيادة الوزن. وهكذا نرى أن السمّنة قد ظهرت في البشر في القرن العشرين الميلادي كما أخبر رسول الله ﷺ منذ أكثر من ١٤٠٠ عام. واليوم معدلات السمّنة في بعض الدول العربية تقارب أو تتجاوز معدلات الولايات المتحدة. والسؤال هو: كيف علم النبي ﷺ أن الناس من بعده سيظهرون فيهم السمّنة؟

علاقة الصلاة في الصغر وآلام أسفل الظهر:

نصّ النظرية: إذا بدأ الإنسان في تليين أسفل ظهره في سن مبكرة، واستمر في هذا التمرين وحافظ عليه أثناء الكبر فإنّ فرصته في الإصابة بالآلام الشديدة والانزلاقات الغضروفية في أسفل الظهر ستتقلص بشكل كبير.

ملخص الدراسة:

آلام أسفل الظهر من المشاكل الشائعة في البالغين غالباً ما تظهر بسبب فقدان الليونة من الرباط الطولي الخلفي في الظهر وكذلك النسيج الليفي الذي يشكل الطبقات الخارجية من القرص الغضروفي عندما تفقد هذه الأنسجة القدرة على التمعط فإنّها تتمزق عند حصول حركة خاطئة تساعد على تهتكها. والحركة التي تضع ضغطاً على هذه الأنسجة هي ثني الظهر للأمام والرّكّب مفرودة. هذا التمزق نادر جداً في الأطفال لأن أنسجتهم مرنة وتمعّط (١) عند الانحناء.

الفرضية:

إذا حافظنا على ميزة مرونة الرباط والغضاريف الموجودة في الأطفال، فهل سيقبل هذا من نسبة الإصابة بالآلام أسفل الظهر والانزلاقات الغضروفية في الكبار؟

(١) تمعّط الشّيء: امتدّ وطال.

البحث الميداني:

أجري بحثٌ ميدانيٌّ على ١٨٨ من البالغين وقد تم سؤالهم إذا كانوا يشتكون من آلام أسفل الظهر أو عرق النساء وعن شدة الألم إن وجد، ثم سُئِلوا عن صلاتهم متى انتظموا فيها ولم يقطعوها؟

لقد اثبتت النتائج بشكل قاطع وملحوظ صحّة هذه الفرضية واكتسب الطب هذه النظرية، حيث أن ٦, ٢٪ فقط ممن يصلون قبل سن العاشرة قد عانوا من آلام قوية أسفل الظهر، بينما ٧٠٪ ممن لا يصلون إطلاقاً يعانون من آلام قوية.

قُبلت هذه الدراسة ونوقشت في "المؤتمر القطري العالمي الثاني للأطفال" في الدوحة في إبريل سنة ٢٠٠٠م، وفي "المؤتمر الدولي السادس لجراحة الظهر"، والذي عقد في أنقرة من الرابع الى السابع من سبتمبر عام ٢٠٠٢م، وذلك بإشراف نخبة من أطباء الظهر العالميين، كما نُشرت في مجلّة "الظهر" الأوروبية.

من دون العبادات يأمر الإسلام أطفال المسلمين بالصلاة في سنٍّ مبكّرة هي السابعة وعلى أقصى تقدير العاشرة. طريقة الصلاة وفي الركوع بالذات يتعرض الرباط والغضاريف لعملية تليين على الأقل سبعة عشر مرة يومياً وذلك أثناء تأدية الصلوات الخمس. ولهذا فإن أطفال المسلمين لا شعورياً يحافظون على ليونة ومطاطية هذه الأنسجة منذ عمر مبكرة وهذا يمنع تيبسها في الكبر وبالتالي يمنع تمزقها.

الأربطة الطولية خلف الفقرات والأنسجة الليفية في الغضاريف تحافظ على بقاء الغضروف في مكانه الآمن بين الفقرات وتمنع انزلاقه. أما إذا تمزقت هذه الأنسجة نتيجة لحركة خاطئة فإنّ جزءاً من الغضروف (وهي النواة الداخلية) تنزلق إلى الخلف حيث يوجد النخاع الشوكي والتفرعات العصبية، وكل هذا يكون مصحوباً بالآم مبرحة. وإذا تطورت المشكلة فإنها تصل إلى ضعف تدريجي في الأعصاب. هذا التأثير على الأعصاب هو ما يعرف بعرق النساء، وهو يتفاوت بين التتميل والألم والشلل. أما مساوئ الحركة الخاطئة فهي معروفة ولهذا نجد أن وقاية الظهر تتركز على تجنب هذه الحركة.

من الناحية الأخرى نحن نعرف أن الأربطة المرنة تستطيع أن تستوعب مقداراً أكبر من الحركة، فنجد لاعب الجمباز يستطيع أن يفتح رجله بسهولة لأنه قام بتمغيط أربطة الوركين من عمر مبكر، ولاعب الجمباز الذي يبدأ بالتمرين في سن مبكرة يكون أكثر تفوقاً من أقرانه الذين يمارسون هذه اللعبة في سن متأخرة. أمّا إذا فتحنا بالقوة رجلي إنسان بالغ لم يسبق تدريبه، فإننا على الغالب سنسبب له تمزقات في أربطته وربما عضلاته.

يتمتع الأطفال بلياقة كبيرة مقارنةً بالبالغين، وسبب هذه اللياقة هو أن أنسجتهم مرنة. وإذا ما حافظنا على هذه الخاصية من الطفولة فإنّه من المنطقي أن تظلّ هذه الأنسجة مرنة فتقاوم الحركات الشديدة. أما إذا أهملت أو بمعنى أصحّ إذا حرمت من التمرين المستمر فإنها ستتبيس عند الكبر، فإذا تعرضت لشدّ قويّ بسبب حركات شديدة فإنها قد تتمزق وهذا يسبب آلام مبرحة.

وهذه المعلومات متناسقة مع أن الصلاة هي الفرض الوحيد المطلوب تطبيقه بحزم على أطفال المسلمين الصغار، ففي الحديث الشريف: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ» (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

إذا بدأ الأولاد بالركوع مرات عديدة كل يوم ابتداءً من السن السابعة وعلى الأكثر السن العاشرة، فإن الأربطة الطولية خلف الفقرات وألياف الغضروف الخلفية تحافظ على ليونتها فيصعب تمزقها في الكبر ويبقى الغضروف أمنًا بين الفقرات، وهكذا تتقلص مشكلة صعبة تعاني منها فئة كبيرة من الناس.

سبحان الله جاءت هذه المعلومات الدقيقة والبالغة الأهمية والمعقدة الفائدة على لسان النبي ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا. فهذه أول دراسة تُظهر الأهمية العلمية للصلاة المبكرة وظهر هذا الفرق الكبير بين الذين يحافظون على ليونة ظهورهم من سن مبكرة وغيرهم ممن حُرِموا من هذه النعمة في طفولتهم. أمّا من بدأ الصلاة متأخرًا فوضعه غير مطمئن إطلاقاً وهو غير آمن.

نتيجةً لهذا الاكتشاف العلمي تبلورت معجزتان إسلاميتان جديدتان ظلتا مخفيّتين لأكثر من ألف وأربع مائة سنة وهما تصميم الإسلام على الانتظام في الصلاة قبل سنّ العاشرة، وكذلك الركوع في الصلاة فهو معجزة إسلامية أخرى.

الصلاة والوقاية من مرض دوالي الساقين:

إن دوالي الساقين هو خلل شائع في أوردة الساقين، يتمثل في ظهور أوردة غليظة ومتعرجة وممتلئة بالدماء المتغيرة اللون على طول الطرفين السفليين، ومن المؤلم أنها تصيب ما يقرب من عشرة إلى عشرين بالمائة من الجنس البشري. والصلاة تعد عاملاً مؤثراً في الوقاية من دوالي الساقين عن طريق ثلاثة أسباب:

الأول: أوضاعها المتميزة المؤدية إلى أقل ضغط واقع على الجدران الضعيفة لأوردة الساقين السطحية.

الثاني: تنشيطها لعمل المضخة الوريدية الجانبية، ومن ثم زيادة خفض الضغط على الأوردة المذكورة.

الثالث: تقوية الجدران الضعيفة عن طريق رفع كفاءة البناء الغذائي بها، ضمن دفعها لكفاءة التمثيل الغذائي بالجسم عموماً.

الفصل التاسع
أخطاء
في الإعجاز العلمي

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ

قَالَ تَعَالَى:

﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥٣).

أخطاء في الإعجاز العلمي

إن الذين يتكلمون أو يكتبون في الإعجاز العلمي لهم جهود مشكورة، وهم يشترطون شروطاً صحيحة في ذاتها، إلا أن بعضهم يقع منهم الإخلال بشيء من تلك الشروط من حيث يدري أو لا يدري.

فبعضهم لا يقتصر على ما يتعلق بالأمور المشاهدة (عالم الشهادة) وإنما يتعداه إلى الكلام في الأمور الغيبية (عالم الغيب). وهذا لا شك أنه خَوْضٌ فيما لا يُحسنه الإنسان مهما أوتي من العلم. وبعضهم يخوض في مثل هذه الأمور ضارباً بكلام السلف وبتفسيرهم عرض الحائط، بل قد يضرب بعقائد المسلمين منذ أكثر من ألف سنة عرض الحائط.

أحدهم خاض في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فاطر: ١). فزعم أن هذا في عالم الميكروبات، وهذا لا شك أنه مخالفة صريحة للقرآن، وجهل بالعقيدة، وجُرأة على القول على الله بغير علم.

وأحدهم فسر قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٩﴾ وجعل فيها رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِبِينَ ١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحَفِظْنَا ذَلِكَ تَقْدِيرَ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت: ٩ - ١٢) فقال:

«والاستواء الإلهي رمز للسيطرة الكلية، والقصد بإرادة الخلق والتكوين، والتسوية للكون بأرضه وسماؤه ...»، ويقول في موطن بعد هذا: «والدحو لغة: هو المد

والبسط والإلقاء، وهو كناية عن الثورات البركانية العنيفة التي أخرج بها ربنا ﷺ من جوف الأرض كلاً من غلافها الغازي والمائي والصخري».

وقائل هذا الكلام من فضلاء من تكلم في الإعجاز العلمي، وهو قد ذكر شروطاً؛ منها:

١ - أن الظاهر مُقَدَّم على التأويل، فمن أين ظهر له مفهوم الاستواء، ومفهوم الدحو الذي هو تأويل مجازي وليس حقيقة؟

٢ - أنه اشترط حسن فهم النص من القرآن الكريم وفق دلالات ألفاظ اللغة العربية، فأين وجد في اللغة أن الدحو بمعنى الإلقاء.

٣ - أنه اشترط البُعد عن القضايا الغيبية، وهل ما يتحدث فيه من القضايا المشاهدة أم من القضايا الغيبية؟ فمن أين له أن الدحو هو الثورات البركانية العنيفة التي خرجت من جوف الأرض؟! أليس هذا مخالفاً لما يشترطه؟

وبعض من يكتبون في الإعجاز العلمي يتعسفون في الاستدلال وتطويع النصوص لتوافق العلوم الحديثة، فيدخلون هذا المجال باعتقاد مُسبق، ثم يحاولون الاستدلال له. يدخلون إلى القرآن والسنة بمقررات سابقة تجعلهم يلوون عنق النص إلى هذه المقررات من حيث لا يشعرون. ثم تتغير النظرية فيتغير التفسير، فيكون قد ركب تفسير الآية على نظرية معينة، والنظرية قد يُكتشف خطأها، فماذا نفعل وقد فسرنا القرآن على هذا؟! فلا بد أن يقال ما يوافق كلام السلف، لا ما يخالف كلام السلف.

وهذا يعني ضرورة العناية بضبط مسيرة هذه البحوث، وتنقيتها من التكلف، أو محاولة ليّ أعناق الآيات والأحاديث من أجل موافقتها للحقيقة العلمية، وذلك لأن القرآن أعز وأكرم عندنا من ذلك؛ لأنه كلام الله الخالق ﷻ، وعلم الخالق بخلقه هو الحق المطلق الكامل الشامل المحيط بكل علم آخر، وهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ويجب أن لا يغيب عن النظر ونحن ندرس ما في القرآن الكريم والسنة النبوية من تلك الإشارات الكونية أو الغيبية، أن القرآن الكريم لم ينزل ليكون كتاب علوم

كونية أو دلالة على حوادث غيبية، بل هو كما أخبر ﷺ كتاب هداية وبيان وإيضاح ورشاد، فلا يضير القرآن الكريم أن لا يوجد فيه شيء من تلك المسائل، إذًا فنحن لسنا بحاجة إلى أن نتكلف أمرًا لم يدل عليه القرآن الكريم بشكل جلي.

إن من المهلكات التي لن تفيد الإسلام بل تضره أشد الضرر الجري وراء العواطف في سبيل الحصول على إعجاز علمي جديد، فكم من مُعادٍ لقضية الإعجاز العلمي سوف يتهم العاملين في هذا المجال بالغش والتدليس بالرغم من وجود أبحاث صحيحة، وفيها ما يغني عن الجري وراء الخرافات.

نماذج من الأخطاء في الإعجاز العلمي

* من الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير الرتل والفتق من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَنَقَّهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

فقد ذهب بعض المعاصرين المعتنين بالإعجاز العلمي إلى تفسير هذه الآية بما يسمى بنظرية "الانفجار الكوني العظيم" وهي نظرية من بين عدة نظريات في نشأة هذا الكون، ومع كونها نظرية لم تثبت صحتها إلى اليوم، فإنه حاول التقريب بين الآية وتلك النظرية، مع أن كلمة الفتق من الناحية اللغوية لا تعنى أبداً الانفجار ولم تستخدم كلمة الفتق في القرآن أو السنة بهذا المعنى، ثم أن كلمة الانفجار تؤدي إلى الفصل الكامل بين أجزاء الشيء الواحد مع الهدم والعشوائية في البناء.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ١١). حيث فسر أحد الباحثين الدخان الوارد في الآية بآثار الدخان الأول الذي نتج عن عملية الانفجار العظيم للكون من على بعد عشرة مليارات من السنين الضوئية، وهي حالة دخانية معتمة سادت الكون قبل خلق الأرض والسموات.

وقال إن التقنيات المتطورة من مثل الصواريخ العابرة لمسافات كبيرة في السماء والأقمار الصناعية التي تطلقها تلك الصواريخ والأجهزة القياسية والتسجيلية الدقيقة، التي تحملها قد ساعدت على الوصول إلى تصوير الدخان الكوني الأول الذي نتج عن عملية الانفجار العظيم، والتي وُجدت بقايا أثرية له على أطراف الجزء المدرك من الكون، وعلى أبعاد تصل إلى عشرة مليارات من السنين الضوئية لتثبت دقة التعبير القرآني بلفظة دخان، التي وصف بها حالة الكون قبل خلق السموات والأرض.

وقال إنه بعد الانفجار العظيم تحول الكون إلى غلالة من الدخان الذي خلقت منه الأرض والسموات.

تعقيب: مرة أخرى نظرية "الانفجار الكوني العظيم" هذه مجرد نظرية من بين عدّة نظريات في نشأة هذا الكون، ولم تثبت صحتها إلى اليوم، فكيف نفسرها الآية.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في الادعاء بأن القرآن الكريم قد تحدث عن الثقوب السوداء في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْحُجُسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنُسِ﴾ (التكوير: ١٥ - ١٦). حيث ذهب أحد المعتنين بالإعجاز العلمي في تفسير هاتين الآيتين إلى مذهب جديد لم يسبق إليه، وهذا المذهب الذي ذهب إليه إنما كان بسبب ما ظهر عنده من العلم الجديد في دراسة النجوم. فجعل الحُجوس بمعنى الاختفاء الكامل. وليس من شك أن أصل الحُجوس الاختفاء، لكن زيادة قيد (الكامل) لا دليل عليه من نقل ولا عقل ولا لغة، وإنما هو بسبب هيمنة تلك القضية الفلكية على ذهنه أثناء تفسيره لهذه الآية.

وجعل الكنوس من مادة كَنَسَ يَكْنِسُ، ومنها المِكنَسَةُ، ولم يجعله من كناس الطَّيِّبِ (أي: بيته) كما ذهب إليه بعض مفسري السلف وغيرهم. والمعنى الذي ذهب إليه في معنى الكنوس حادثٌ، وإنما قاده إليه تلك القضية الفلكية التي لا يتناسب معها جعلُ الكنوس من الكِناس، وإنما يناسبها جعله من الكُنُسِ.

وهذا الاختيار لهذين المعنيين ما كان ليكون لو لم يكن له معرفة بما يُسمى بالثقوب السوداء التي هي حالة من حالات النجوم ذكرها الفلكيون المعاصرون. فلو لم يعرف هذا ما كان ليطرأ عليه هذا المعنى البتة، وهذا يدلُّك على أن هذا هو أسلوب الاعتقاد المُسبق، ثم الاستدلال له.

مفسر (الحُنس) و(الكنس) بمرحلة خطيرة من مراحل حياة النجوم لم تكتشف إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين يسميها علماء الفلك اليوم باسم الثقوب السوداء (Black Holes). فقال إنها خانسة؛ أي: دائمة الاختفاء والاستتار بذاتها، وهي كائنة لصفحة السماء، تبتلع كل ما تمر به من المادة المنتشرة بين النجوم، وكل ما

يدخل في نطاق جاذبيتها من أجرام السماء، وهي جارية في أفلاكها المحددة لها، فهي خُسن جوار كُسن، وقال إن هذا التعبير أبلغ بكثير من تعبير الثقوب السود الذي اشتهر وذاع بين المشتغلين بعلم الفلك.

وقال إن من العجيب أن العلماء الغربيين يسمون هذه الثقوب السود تسمية مجازية عجيبة تنطبق انطباقاً دقيقاً على الوصف القرآني: «الخنس الجوار الكنس» كما فصلناه آنفاً، وذلك حين يسمونها بالمكانس الشافطة العملاقة التي تبتلع (أو تشفط) كل شيء يقترب منها إلى داخلها.

تعقيب:

أليس في السياق ما يشير إلى النجوم بعمومها؟ فهي التي تتصف بالخنوس؛ أي: التأخر عند ظهورها في أول الليل بسبب اختفائها في ضوء النهار، ثم هي دائمة الجريان في فلكها، ثم هي تكنس في آخر الليل؛ أي: تدخل في كناسها، وهو ضوء النهار المشرق، فهذه النجوم تتناسب مع الآيات الكونية المرئية للناس أجمعين، وهي ما جاء في الآيات بعدها: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ﴾ (التكوير: ١٧ - ١٨)، بخلاف تلك النجوم الشافطة التي لا يراها إلا أقل الناس، بل أندرهم، والقسم في غالب القرآن يأتي بشيء ظاهر للناس، أو شيء له أثر ظاهر، أو شيء قد علم من طريق السمع؛ كالملائكة.

تفسير السلف لهاتين الآيتين:

لقد ذهب السلف في تفسير هذه الأوصاف إلى مذهبين:

الأول: أنها النجوم والكواكب، ويكون خنوسها بتأخرها عن الظهور أول الليل، وكنوسها بدخولها في ضوء الصباح بعد آخر الليل، وجريانها كائن في كل أحوالها.

الثاني: أنها بقر الوحش والظباء، ويكون خنوسها بتأخرها إذا رأت إنسيًا، وكنوسها بدخولها في كناسها؛ أي: بيتها، وجريانها في الغيطان والحقول.

ويلاحظ على هذين التفسيرين أنها ذكرا أمراً يعرفه من نزل عليهم الخطاب، ولا يحتاجون فيه إلى أدوات وآلات ليظهر لهم ذلك الأمر الخفي في هذه الأوصاف، وهذا الاختلاف بينهم من قبيل اختلاف النوع، وجائز أن يراد به هذا أو ذلك، وسبب الاختلاف الاشتراك في الوصف بين النجم والكواكب من جهة، والبقر الوحش والظباء من جهة أخرى. وإن كان التفسير الأول أنسب لمقام ذكر الآيات الكونية بعدها، غير أن الثاني محتمل أيضاً.

*** ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤١).** حيث قال أحد الباحثين إن الوهن هنا لم يقصد به وهن المادة المكونة لبית العنكبوت (الشبكة العنكبوتية)، ولكنه وهن الصلات الاجتماعية والتفكك الأسري لبית العنكبوت حيث سيطرة الأنثى على الذكر.

وقال إن العلم قد أثبت بالقياس أن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الصُّلب بثلاث مرات، وأقوى من خيط الحرير وأكثر مرونة، وهذا الخيط يحمل أوزاناً أكبر منه بعشرات المرات، فيكون نسيج العنكبوت بالنسبة لاحتياجه وافيًا بالعرض وزيادة، وهو بالنسبة إليه قلعة آمنة، وهذا من نتائج تصنيف العلم الحديث للمواد؛ إذ يضع نسيج العنكبوت ضمن مجموعة البوليمرات أو اللدائن الطبيعية، وقد ذكر القرآن بعض المواد مثل المعادن؛ الحديد والذهب والفضة والنحاس، وكذلك الفخاريات؛ كالصخر والجبال والصلصال والطين وغيرها، بالإضافة إلى مجموعة اللدائن، ومن ضمنها خيط العنكبوت وبيوت النحل وغيرها.

وقال إن العلم كشف مؤخراً أن أنثى العنكبوت هي التي تنسج البيت وليس الذكر، وهي حقيقة بيولوجية لم تكن معلومة أيام نزول القرآن، وإذا ما لاحظنا الآية الكريمة: ﴿اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾، وتاء التأنيث الساكنة دلالة على الأنثوية؛ أي: هي المسؤولة عن اتخاذ البيت وإدارة شؤونه.

وقال إن الضعف والوهن هنا دلالة اجتماعية وليست مادية، وأن الآية خُتمت بالقول: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أنهم لا يعلمون هذا، وسيعلمونه مستقبلاً بعد تقدم العلم التطبيقي والتجريبي.

وقال إن هنا سرّاً بيولوجياً كشف عنه العلم، فحقيقة أن بيت العنكبوت هو أبعد البيوت عن وصفه، بالأمان والسكينة والطمأنينة، فالأنثى تقتل ذكرها بعد التلقيح وتأكله، والأبناء يأكلون بعضهم بعد الخروج من البيض. ولهذا يعمد الذكر إلى الفرار بجلده بعد أن يلقح أنثاه، ولا يحاول أن يضع قدمه في بيتها، وتغزل أنثى العنكبوت بيتها ليكون فخاً وكميناً ومقتلاً لكل حشرة تفكر أن تقترب منه، أو تدخله زائراً كانت أم سائلاً فإنها تقتل وتلتهم، وهذا سر هذه المذبحة، والوهن كلمة عربية تعبر عن غاية الجهد والمشقة والمعاناة، وهذا شأن من يلجأ لغير الله ليتخذ منه معيناً ونصيراً.

تعقيب:

أولاً: يلاحظ أن الباحث لم يرجع إلى المفسرين ولا إلى اللغويين لتقرير ما يحتاج إلى تقرير، ولمعرفة مدى قرب تفسيره من تفسير هؤلاء السالفين، فهل يا ترى نحن في غنى عن تفسيرهم وفهمهم للقرآن؟!

ثانياً: يلاحظ انطلاق الباحث من العلم التطبيقي أو التجريبي إلى القرآن، فهو يريد التوفيق بين ما جاء في العلم التجريبي مع ما جاء في القرآن، وهذا ظاهر جداً في مقالته هذه، وهو لم يذكر غير رأيه المبني على العلم التجريبي المعاصر.

ثالثاً: نَفِي علم السابقين بكون أنثى العنكبوت هي التي تنسج البيت غير سديد، فإن عدم علمنا برأيهم لا يعني العدم، فلو ورد منهم إثباتٌ خلاف ذلك أو نفيه لصح ما ذكره الباحث هنا.

وليُعلم أن الذين نزل عليهم الخطاب عربٌ يفهمون تعبيراته وخطاباته، فإن كان التعبير ببناء التأنيث دلالة على الأنثوية - كما قال الباحث - فذلك مما يدركه العربي بلا ريب، فهذا لسانه، وهو أدرى به، وسيفهم أن المتخذ للبيت هو الأنثى؛ لأن الله

نسب إليها الاتخاذ، وكون هذه القضية لم يدركها المعاصرون إلا بالملاحظة والتجربة لا يعني أن السابقين لا يعرفونها.

رابعاً: إن هذا التفسير خروج عن المتبادر للذهن، والمعروف من حال بيت العنكبوت، فهو ضعيفٌ لا محالة، وما كشفه العلم الحديث لا يغيّر من واقع وهن بيت العنكبوت الذي يمكن إزالته بقشّة فضلاً عن عودٍ، فأَيُّ وهن بعد هذا؟ وهذا المعنى هو الذي فهمه المفسّرون، ولم يعرّجوا على هذا المعنى الذي ذكره الباحث.

خامساً: إن هذا التفسير الحادث يدل السياق على عدم إرادته، فالآية سيقت للدلالة على ضعف الكفار في اتخاذهم أولياء من دون الله، وأنهم كمثل العنكبوت الذي يعتمد على بيته الذي لا يقف أمام قشّة ولا هبة ريح، وليس المجال مجال تشبيه بالوهن الاجتماعي الذي ذهب إليه الباحث، فما وجه الربط بينه وبين اتخاذ الأولياء من دون الله، وتخصيص الباحث الوهن بالدلالة الاجتماعية ونفي المادية تحكّم، وإنما صدر منه لأجل هذه المعلومات الحديثة عن العنكبوت.

سادساً: نفى العلم في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يعود إلى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخْتَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ (العنكبوت: ٤١) فيكون: لو كانوا يعلمون هذا المثل المضروب لهم في أنهم اتخذوا أولياء لا يُعتمدُ عليهم. ويحتمل أن يعود إلى أو هن البيوت، ويكون المعنى: لو كانوا يعلمون أن أو هن البيوت بيت العنكبوت.

وعلى كلا الاحتمالين نفى عنهم العلم، وهذا ظاهر النصّ، لكن قول الباحث: «وسيعلمونه بعد تقدم العلمي التطبيقي والتجريبي» فما لا يدلُّ عليه نظْمُ الجملة لا من قريب ولا من بعيد أبداً. وإنما قال ما قال بتأثير هذه المعلومات العنكبوتية التي ظهرت في هذا العصر، فهو قد اعتقد بهذه المعلومات، ثم استدل لها.

*** ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير قوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ﴾ (الرحمن: ٣٣) فقالوا إن السلطان هو العلم وبواسطته نفذ الإنس من الأقطار.**

تعقيب:

أولاً: إن هذه الآية تتحدث عن يوم القيامة، وتبين قدرة الله ﷻ على محاسبة الإنس والجن ومجازاتهم ولا يستطيع أحد أن ينجو منه إلا بسلطان، أى قدرة عظيمة أو ملك قوى، وليس ذلك لأحد إلا الله ﷻ. قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر: ١٦).

وتأمل سياق الآيات: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ۝٣١﴾ فَإِنِّي آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ۝٣٢﴾ يَمَعَشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ ۝٣٣﴾ فَإِنِّي آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ۝٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿ (الرحمن: ٣١ - ٣٥).

والمعنى: سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكما التي عملتموها في الدنيا، أيها الثقلان - الإنس والجن -، فنعاقب أهل المعاصي، ونُثيب أهل الطاعة. فبأي نِعَم ربكما - أيها الثقلان - تكذبان؟ يا معشر الجن والإنس، إن قَدَرْتُم على النفاذ من أمر الله وحكمه هارين من أطراف السموات والأرض فافعلوا، ولستم قادرين على ذلك إلا بقوة وحجة، وأمر من الله تعالى، وأنى لكم ذلك، وأنتم لا تملكون لأنفسكم نفعاً ولا ضرراً؟ . فبأي نِعَم ربكما - أيها الثقلان - تكذبان؟ يُرْسَلُ عليكم هب من نار، ونحاس مذاب يُصَبُّ على رؤوسكم، فلا ينصر بعضكم بعضاً يا معشر الجن والإنس. فبأي نِعَم ربكما - أيها الثقلان - تكذبان؟

ثانياً: هل نفذ الإنس بعلمهم من أقطار السموات؟ أو نفذوا فقط - إلى الآن - من أقطار الأرض وجاذبيتها؟ إن كل ما أمكن الوصول إليه من معلومات عن طريق الآلات الحديثة لا يعدو أن يكون في سماء الدنيا، فإن الكشوف الفلكية والكواكب وأبعادها وسرعة ضوئها ودورانها ما زالت في إحدى السموات وهى الدنيا، الشمس تبعد عن الأرض ٩٣ مليون ميل، فهل يستطيعون أن ينفذوا من أقطار السماء الدنيا كلها ثم يتطلعون إلى بقية السموات؟

ثالثاً: ماذا يترتب على هذا الكلام من قبح؟ يترتب عليه أن الله ﷻ يتحدى الإنس والجن، ثم بعضهم يقبلون التحدي ويخترعون أشياء وينفذون، هل من المعقول أن الله يتحدى الجن والإنس ويقبلون التحدي، ويتغلبون فعلاً، ويصعدون من أقطار السماوات والأرض؟!!

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي استدلال أحدهم بقوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن: ٣٣) على كروية الأرض قائلاً إن التعبير بالأقطار يُثبت كروية الأرض وكروية السموات، لأن القطر هو الخط الموصل بين نقطتين على المحيط ماراً بمركز الدائرة، والأقطار لا تكون إلا للدوائر وهذا بالتالي يثبت الكروية.

تعقيب:

إن القطر الذي يتحدث عنه هذا الباحث اصطلاح هندسى لم تعرفه العرب، فهم يعرفون القطر بأنه الجهة والناحية لا الخط المذكور، والنفاذ من الأقطار يكون بالخروج من الجهات والمنافذ لا من الخطوط التي يتصورها المهندسون.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي حمل أحدهم صورة وردة على قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (الرحمن: ٣٧)، فقال:

«في الواحد والثلاثين من أكتوبر من عام (١٩٩٠) عرضت إحدى أقوى وكالات الفضاء في العالم من خلال مرصد عملاق عبر موقعها المعلوماتي صورة لا يشك الناظر إليها لحظة أنها وردة ذات أوراق حمراء قانية، مُحاطةً بوريقات خضراء زاهية، وفي الوسط كأس أزرق اللون، أمّا حقيقة هذه الصورة فهي صورة لانفجار نجم عملاق اسمه عين القط، يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية، وفي هذا الموقع المعلوماتي آلاف الصور الملونة التي رصدها المرصد العملاق لعجائب الفضاء، ولكن ما علاقة هذه الصورة بإعجاز القرآن؟

في القرآن الكريم آية من سورة الرحمن، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (الرحمن: ٣٧)، لو تتبعنا تفسيرها في معظم كتب التفاسير قبل نشر الصورة لما وجدت فيها ما يشفي غليلك، ذلك لأن في القرآن آيات لما تُفسَّر. وإن انشقاق هذا النجم يُشبهه وردة متألقة، بل إن صورة هذا النجم عند انفجاره هو تفسير هذه الآية، بشكل أو بآخر، هذا لون من ألوان الإعجاز.

تعقيب:

القرآن يُفسَّر بعضه بعضاً، وخير ما فُسر به القرآن هو القرآن. وهذه الآية جاءت ضمن سياق آيات تتحدث عن يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَمَعَشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِذْ اسْتَعْتَمُوا أَنْ تَفْجُرُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَأَنْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَإِنِّي آتِيءُ الْآلَةَ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْطُ مَنْ نَرَاهُ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَإِنِّي آتِيءُ الْآلَةَ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَإِنِّي آتِيءُ الْآلَةَ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَإِنِّي آتِيءُ الْآلَةَ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَإِنِّي آتِيءُ الْآلَةَ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٤٤﴾ فَإِنِّي آتِيءُ الْآلَةَ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ٣٣-٤٥).

وانشقاق السماء إنما يكون يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةً وَاحِدَةً ﴿١٣﴾ وَحَمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَفِيهَا يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٣-١٨). فدلَّت هذه الآيات على أن انشقاق السماء لا يكون إلا يوم القيامة. ولا يجوز لأحد أن يقول في القرآن بمجرد رأيه.

ثم إنه لا ينبغي أن تُسارع في نشر مثل هذه الأشياء لأنه ربما ثبت عكسها أو ربما كانت من الخدع أو من تركيب الصور.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بتناقص القمم والهامات العليا للجبال، وهي التي تمثل الأطراف الرأسية لقشرة الأرض، وهذه الأطراف العليا تتناقص في الارتفاع تبعاً لتآكلها ونحتها المستمرين بفعل عوامل التجوية والتعرية، وتتناقص أطراف الكرة الأرضية عند القطبين.

ومعلوم أن تناقص الأطراف العليا في الارتفاع نتيجة التآكل لا يرى ولا يُحسّ به، هذا على تقدير حصوله، فإن هذا يحصل بعد السنين الطويلة بشكل يسير قد لا يُشعر به. فهل يُلفت نظر العباد وتفكرهم إلى أشياء دقيقة لا يُحس بها أكثر الخلق وتقوم على الخرص والظن؟ فكلام الله يُصان عن هذا التفسير.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (الرعد: ٤١).

قال العلماء في تفسيرها: أَيَسُّكَ الْمُشْرِكُونَ، مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، بِصِدْفِكَ فِيمَا أَنْذَرْتَهُمْ بِهِ؟ وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّنَا نَنْتَحِ لَكَ الْأَرْضَ بَعْدَ الْأَرْضِ، وَنُظْهِرُ الْإِسْلَامَ عَلَى الشَّرْكِ، فَتَضِيقُ الدُّنْيَا عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَيَتَحَقَّقُ مَا وَعَدَكَ اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّصْرِ وَالْغَلْبَةِ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ بِمَا يُرِيدُ، وَلَا مُعَقَّبَ عَلَى أَحْكَامِهِ، وَلَا مُبَدَّلَ لَهَا، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير وَضَعَ الْمِيزَانَ في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٧) بقانون الجذب بين الكواكب واتزانها. فقالوا إن (نيوتن) اكتشف أن للسماء قانوناً محكماً دقيقاً يحكم أجرام السماء هو قانون الجذب وأن محصلة هذا الجذب بين الكواكب هو الاتزان بينها (الميزان).

تعقيب: قال ابن تيمية (في مجموع الفتاوى ١٢ / ٢٤٩): «وجمهور المفسرين على أن المراد بالميزان العدل».

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير لفظ ﴿لَمُوسِعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧) بأن الله ﷻ لا زال يوسّع

في بناء هذا الكون. وقالوا إنه اكتُشف في هذا العصر أن الكون يتمدد، وأن نجوم السماء لا تزال تُخلق، وأن مدن النجوم يتباعد بعضها عن بعض وبهذا عُرف أن السماء لا تزال تتسع.

تعقيب:

القول بتمدد الكون قائم على نظرية (الانفجار الكوني العظيم) وهذه مجرد نظرية من بين عدّة نظريات في نشأة هذا الكون، ولم تثبت صحتها إلى اليوم، فكيف نفسر بها الآية؟

ولو ثبت يقيناً أن الكون يتمدد، فهل دلالة الآية على تمدد الكون ظنية أو قطعية؟ لا شك أن هذه الدلالة ظنية؛ لأن من يقول بهذا التفسير لا يمكنه أن يجزم في إثبات هذه الدلالة. وإذا كانت الدلالة ظنية، فإن دعوى السبق تبقى ظنية أيضاً.

لقد وُصِفَ ربنا السماء في كتابه، فذكر لمس الجن لها، وذكر البناء والأبواب، وذكر الانشقاق والانفطار، وما في خلق السماء من عجائب الأمور. وذكر نبينا ﷺ انفتاح أبوابها لروح المؤمن وغلقتها عن روح الكافر، وقد صعد إليها ﷺ، وسما فوقها وعلى عليها، واستقبلته ملائكتها.

فالسما والأرض خلقهما الرحمن قبل استوائه على عرشه وكان قبل ذلك عالٍ عليه وعلى مخلوقاته وإنما حصل الاستواء بعد خلق السموات والأرض في ستة أيام.

إن تفسير لفظ «لَمُوسِعُونَ» عند السلف على وجهين:

الأول: بنيناها واسعة الأرجاء، وهذا إخبار عن حال السماء في السعة.

الثاني: بنيناها وإنا لقادرون على بنائها، من الوُسع؛ أي: القُدرة.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في الربط بين عملية البناء الضوئي

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ (يس):

٨٠). حيث قال أحد الباحثين: ظاهرة الآية واضحة لكل إنسان وبالذات في عصر

نزول القرآن الكريم فإن المصدر الوحيد للوقود في جميع أنحاء العالم كان الشجر

الأخضر ومشتقاته الذي يجف ويتحول إلى خشب، والناس كانوا يستعملون هذا الخشب للتدفئة والطهي.

وفي هذا العصر وما كشفه العلم مما يقوم به الشجر الأخضر - أوكد الأخضر - من وظائف في غاية الدقة والتعقيد وفي منتهى الإبداع والتي لا تستطيع جميع مصانع البشر حتى تقليدها إلى يومنا هذا، يفتح الباب أمام تفسيرات أخرى يدل على إعجاز علمي رائع في الشجر الأخضر.

إن عملية التركيب الضوئي التي تتم في الورقة الخضراء عملية في غاية الأهمية للنبات والإنسان والحيوان، أليس الأوكسجين هو وقود الحياة، وتستعمله البلايين من الكائنات الحية في كل آنٍ ومصيرُهُ حتمي إلى النضوب لو لم يعوّض، فمَن يعوضه غير الشجر الأخضر، والشجر الأخضر ينقذنا من ثاني أكسيد الكربون ويزودونا بالأوكسجين الذي نوقد به نارنا ونار خلايانا في أجسامنا.

*** ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ (الحجر: ١٤ - ١٥).** والربط بين الآية وما قيل من أن أحد رواد الفضاء ذكر أنه عندما يخرج من الغلاف الهوائي للأرض ويدخل خارج الغلاف الهوائي أن هناك ظلام دامس وأن الشمس تبدو في تلك المنطقة باهتة جدًا والنجوم ضعيفة جدًا والسواد هو الغالب عليه وأن هذا الرائد يقول أثناء صعوده: الآن يقل الضوء، الآن سُدَّتْ أَبْصَارُنَا وَأَغْلَقْتَ، لا نرى شيئًا، قد أصبحنا عميًا، لأنه ليس هناك من انعكاسات لأشعة تأتي إلينا».

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤ / ٥٢٨): «يُحْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُوَّةِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لِلْحَقِّ: أَنَّهُ لَوْ فَتَحَ هُمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ، فَجَعَلُوا يَصْعَدُونَ فِيهِ، لَمَّا صَدَّقُوا بِذَلِكَ، بَلْ قَالُوا: ﴿سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ كَثِيرٍ، وَالضَّحَّاكُ: سُدَّتْ أَبْصَارُنَا. وَقَالَ قَتَادَةُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَخَذَتْ أَبْصَارُنَا. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: شَبَّهَ

عَلَيْنَا، وَإِنَّمَا سُجِّرْنَا. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: عَمِيَتْ أَبْصَارُنَا. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: «سُكِرَتْ أَبْصَارُنَا»
السُّكْرَانُ الَّذِي لَا يَعْقِلُ». اهـ.

فالذي يُجرب به رواد الفضاء أنهم إذا ارتفعوا وجدوا ظلمة وأنهم يقولون: سُدَّتْ
أبصارنا وأغلقت لا نرى شيئاً، فهم - إن صحت نسبة ذلك الكلام إليهم - يخبرون عن
ظلمة يدخلون فيها إذا ارتفعوا في الفضاء.

أما الذي تخبر عنه الآيتان فإنها معناه أن الله ﷻ لو فتح لهم باباً من السماء المبنية
ذات الأبواب ثم أقدرهم ﷻ على الصعود حتى وصلوا إلى السماء ودخلوا بابها
واستمروا في الصعود لقالوا الذي ذكر الله عنهم.

يعني أنه من شدة مكابرتهم وعنادهم ينكرون هذه الحقائق العظيمة لو حصلت
لهم كما ذكر ﷻ، فأين هذا من هذا؟ فالرب سبحانه يخبر في الآيتين عن الكفار أنهم لو
صعدوا ورأوا بأعينهم صدق خبر الرسول محمد ﷺ بأن يُفتح لهم باب السماء
فيرجون فيه ويرون آيات السماء «لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ»
يقولون ذلك جحوداً ومكابرة وعناداً.

فالقصة كلها ليس فيها ذكرٌ ظلمات أثناء الصعود بل بالعكس فيها إِبْصَارٌ
حقيقي ونظر تام على تقدير حصولها فإنهم رغم ما يبصرونه ويشاهدونه بأعينهم عن
قرب من آيات ربهم الذي أرسل إليهم هذا الرسول الكريم ﷺ يلجّون في عتوهم
وعنادهم ويقولون ما ذكر الله عنهم.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي ما زعمه أحدهم في تفسير قوله تعالى:
«وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
تَفْعَلُونَ» (النمل: ٨٨) حيث قال:

«حمل معظم المفسرين دلالة الآية على المستقبل البعيد حين يتم تدمير العالم
استعداداً للقيامة والحساب، وقال بعضهم إن قوله تعالى: «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ
تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ» هو خطاب للنبي ﷺ خاصةً أطلعه الله فيه على سر من أسرار الكون

ولم يُبَيِّحْ به لعجز الناس عن إداركه في ذلك الزمن، وحقيقته: أن الأرض تدور حول الشمس دورة في كل يوم وليلة، ودورتها هي تسير معها الجبال فيها قطعاً فيرى المرء الجبال يحسبها جامدة وهي تمر مع الأرض من السحاب والمرور غير السير فالسير يوم الفناء أما المرور يقال: مرّ بفلان يحمله معه ولا يقال سار به. واستدلوا على هذا المعنى بقوله ﷻ بعد ذلك: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

وقالوا إن الجبال تتحرك تبعاً لحركة كوكب الأرض؛ باعتبار الجبال جزءاً منه، ولا نشعر بحركة الجبال لأننا نتحرك معها، فهذا من العلم الذي أودع في القرآن ليكون معجزة من الجانب العلمي يدركها أهل العلم.

فهذه الجبال التي يراها الرائي فيحسبها جامدة هي في الواقع على غير هذا الظاهر؛ إنها تتحرك في انتظام كما يمر السحاب، حقيقة لا ترى بالعين، والتعبير ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فيه دعوة إلى البحث عن هذه الحقيقة؛ حقيقة كامنة تشهد بجلال الله، ولا تنكشف إلا بالعلم والنظر إلى ما خلف صفحة هذا الوجود من نظام، نظراً يملأ القلوب روعةً وخشوعاً ورهبةً، والتعبير ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ تقرير لتأكيد روعة الصنعة وإحكامها بنظم مقدرة.

فالإنسان كان يحسب ويظن أن الجبال جامدة، فأخبره علام الغيوب أن هذه الجبال التي نحسبها جامدة تتحرك وتمرّ من السحاب، وجاء تشبيه الجبال بالسحاب لأنّ السحاب إنما يتحرك بحركة الرياح وليس له حركة من تلقاء نفسه، والجبال كذلك ليس لها حركة من تلقاء نفسها، بل تتحرك بحركة الأرض، فأخبر تعالى بهذه الآية الكريمة عن حقيقة حركة الجبال، وعن حقيقة حركة الجبال تبعاً لحركة الأرض.

وقوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ يشير إلى عدم إحساس البشر بحركة الجبال، لأنّ وضعها ثابت بالنسبة إلى الأرض، وبالنسبة إلى البشر، فيحسبها البشر ثابتة، لكنّ الجبال تتبع الأرض في حركتها ودورانها، فتكون متحركة قياساً إلى شيء آخر يقع خارج الكرة الأرضية.

تعقيب:

أولاً: إن من الخطأ، بل من تحريف القرآن عن مواضعه، تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٨٨) بأنه دليل على دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس.

إن من فسر الآية بذلك فقد قال على الله ﷻ بلا علم، بل قال ما يخالف قول الله عز وجل؛ لأن الآية نزلت بيانا لأحوال يوم القيامة عند النفخ في الصور، وليس ذلك في عالم الدنيا، بدليل قوله تعالى في الآية التي قبلها: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَنْوَاهُ دَاخِرِينَ﴾ (النمل: ٨٧)، ثم قال بعدها: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

لقد نسي الباحث أن الحديث عن ظاهرة مرور الجبال يوم القيامة ورد في آيات أخرى من سور القرآن وهي سورة الواقعة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ (الواقعة: ١ - ٦).

فتفسير آية سورة النمل بدوران الأرض مخالفٌ لسياق الكلام، وخروجٌ بها عن نظائرها من آيات القرآن الواردة في نفس الموضوع، بل مخالفٌ لظاهر الآية نفسها، فإن الدوران لا يقابل الجمود، بل الذي يقابل جمود الجبال وجعلها رواسي للأرض كونها هباءً منبثاً كالعهن المنفوش تطيرها الرياح فتمر مر السحاب بعد أن كانت أحجاراً صلبة متماسكة مستقرة على الأرض أوتادا لها، فكيف يُجعل الخطأ في بيان المراد من الآية معجزة يثبت بها أن محمداً ﷺ رسول الله، وأن القرآن تنزيل من رب العالمين؟!!

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي ما زعمه أحدهم في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (يونس: ٥)، وقوله تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي

جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿الفرقان: ٦١﴾، فقال إن هذا دليل على أن نور القمر مستفادٌ من نور الشمس وأن ذلك دليل على إعجاز القرآن.

تعقيب:

هذا استنباط باطل فإنه ليس في الآيتين دليل على ذلك، ولا فهم العرب منهما هذه النظرية العلمية، وهم أهل العربية، وأعرفُ باللغة التي بها نزل القرآن، وكونُ نور القمر مستفادٌ من نور الشمس لا يتوقف ثبوته على القرآن، بل عُرف من طريق آخر كحادث خسوف القمر المتكرر على مر الزمان، ومعرفة ذلك في متناول البشر؛ لكونه متصلًا بعلم التسيير وهو من علم الفلك، فيعرفه من له دراية بعلم الفلك، فكيف يجعل ذلك دليلاً تثبت به الرسالة وإعجاز القرآن؟!

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي ما زعمه أحدهم من أنه اخترع قطرة عيون من قوله تعالى: ﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (يوسف: ٩٣).

الإعجاز المزعوم:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفِي عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (يوسف: ٨٤). لقد فسر بياض عين يعقوب عليه السلام بالمياه البيضاء أو الكتاركتا. وأوضح أن هناك علاقة بين الحزن والإصابة بالمياه البيضاء حيث إن الحزن يسبب زيادة هرمون "الأدرينالين" وهذا يعتبر مضادًا "للأنسولين" وبالتالي فإن الحزن الشديد أو الفرح الشديد يسبب زيادة مستمرة في هرمون الأدرينالين الذي يسبب بدوره زيادة في سكر الدم وهو أحد أسباب العمامة، هذا بالإضافة إلى تزامن الحزن مع البكاء.

وأوضح أن هناك صعوبات في علاج هذا المرض الذي يتمثل بالدرجة الأولى في الجراحة لأنه لا توجد له أدوية فعالة، ولهذا كان الحل عنده في قميص يوسف عليه السلام (قميص الشفاء)، وبعد التفكير في ماذا يمكن أن يوجد في قميص يوسف عليه السلام، من شفاء! كان الاهتداء إلى العرق وكان البحث في مكونات عرق الإنسان حيث أخذنا

العدسات المستخرجة من العيون بالعمليات الجراحية التقليدية وتم نفعها في العرق فوجدنا أنه تحدث حالة من الشفافية التدريجية لهذه العدسات المعتمة.

ثم كان السؤال التالي: هل كل مكونات العرق فعالة في هذه الحالة؟ أم إحدى هذه المكونات؟ وبالفعل أمكن التوصل إلى إحدى المكونات الرئيسية وهي مركب من مركبات البولينا (الجواندين) والتي أمكن تحضيرها كيميائياً. وبإجراء التجارب على حيوانات التجارب المستحدث بها عتامة أو بياض لعدسة العين عن طريق الإشعاع أو عن طريق ما يسمى (بالعتامة المتسببة بالجلالكتورز) وُجد أن وضع هذه المركبات المحضرة كيميائياً تسبب بياضاً لعدسة العين، كما أظهرت الفحوص الطبية باستخدام المصباح الشَّقِيّ (Slit Lamp) وكذلك التصوير بالموجات فوق الصوتية وانعكاس الضوء الأحمر من عدسة العين.

وقال إن هذه القطرة ليست لها أية آثار جانبية بالمرة على حيوانات التجارب وكذلك بالنسبة للإنسان سجلت النتائج التي أجريت على ٢٥٠ متطوعاً زوال هذا البياض ورجوع الإبصار في أكثر من ٩٠٪. أما الحالات التي لم تستجب فوجد بالفحص الإكلينيكي أن بروتين العدسة حدث له شفافية لكن توجد أسباب أخرى مثل أمراض الشبكية هي التي تسببت في عدم رجوع قوة الإبصار إلى حالتها الطبيعية.

كما قال إنه يمكن استخدام هذه القطرة في علاج بياض قرنية العين.

وقد زعم أنه قام بتسجيل براءة هذا الاختراع حيث يقول: «أرسلتُ صورة البحث إلى براءة الاختراع الأوروبية ثم الأمريكية وتولى الأمر أحد بيوت الخبرة هناك، ثم شكلت لجنة لامتحان الاختراع وقد أجاز من براءة الاختراع الأوروبية عام ١٩٩١ ومن براءة الاختراع الأمريكية عام ١٩٩٣».

الرد العلمي على هذا الإعجاز المزعوم:

في البداية هناك العديد من التساؤلات وهي:

- هل العرق الذي بقميص يوسف عليه السلام هو الذي شفى والده يعقوب من العمى أو ابيضاض العين؟

- وهل أي قميص به عرق كان سيلقى على وجه يعقوب عليه السلام كان سيؤدى إلى شفائه؟
- أم لأن يوسف عليه السلام نبي؟
- أم لأنه الابن المفقود الذي تسبب حزن أبيه على فقده إلى فقدان بصره؟
- قد كان يعقوب عليه السلام نبياً أيضاً فلماذا لم يستخدم قميصه هو؟
- هل أي عرق يوضع في أي عين يؤدى إلى شفائها؟

وحرصاً على اتباع المنهج العلمي السليم عند التدليل على إعجاز الآيات القرآنية، تمت مناقشة هذه الأسئلة وغيرها علي (صفحة الفكر الديني) بجريدة "الأهرام" المصرية من خلال صفوة من أطباء العيون وكبار العلماء في ندوة علمية طبية ناقشت على صفحاتها خلال أسبوعين متتالين هذه القضية.

الأطباء يرفضون هذه القطرة بحجج قوية!!

بعرض هذا الكلام على الأستاذ الدكتور سيد سيف عميد "المعهد القومي لليزر" ورئيس أقسام الرمد بطب "القصر العيني" قال: «علاج المياه البيضاء ليس له سبيل حتى الآن سوي إجراء الجراحة لإزالة العدسة المعتمة ويمكن زرع عدسة بدلاً منها أو استبدالها بعدسة لاصقة تبعاً للحالة. أما العلاج الكيماوي عن طريق القطرات فلم يثبت صحته حتى الآن. وقد قامت بعض شركات الأدوية الألمانية والأمريكية واليابانية بعمل قطرات من مركبات معروفة لعلاج هذه الحالة لكنها لا تجدي في العلاج. والحقيقة أنني فوجئت بالكلام المنشور عن طريق قطرة من العرق بل ومستوحاة من القرآن الكريم، فهذا كلام غير علمي بالمرّة وحتى إثارته لا تكون على صفحات الجرائد العادية لكن له المسارات العلمية المعروفة، لأن عيون الناس أمانة ويجب أن لا نخون الأمانة ...»

والأخطر من ذلك إقحام القرآن على أنه دليل على صدق القرآن وهذا مالا يقبل أبداً. أما عن مسألة العرق وما به من مادة البولينا - والكلام مازال على لسان الأستاذ الدكتور سيد سيف - فكنت قد قرأت للدكتور "يورك إيدر" وهو صاحب

أكبر موسوعة علمية عن الرمد على مستوى العالم عن إمكانية إذابة عدسة العين في البولينا وبدأ التفكير في عمل أبحاث حول تذويب العدسة كيميائياً، وقام بها الدكتور مصطفى نصار وثبت أنها تسبب التهابات شديدة في القرنية والقزحية (ننّ العين) فتوقفنا عن هذه الأبحاث».

وأضاف الأستاذ الدكتور طه الشيوى رئيس قسم الرمد بكلية طب القصر العيني: «من الناحية العلمية هناك ثلاث نقاط:

١- هذه المواد التي يخرجها الجسم أدخلها في صورة عرق أو غيره هي مواد سامة يتخلص منها الجسم... فكيف أدخلها له مرة أخرى؟

٢- كيف تدخل القطرة العدسة الداخلية للعين وبالتركيز المطلوب؟

٣- حتى إذا فُرض أننا أذبنا الجزء المعتم من العدسة هل الشبكية لن تتأثر؟ وأين ستذهب الأجزاء المذابة؟ كما أن الخلايا المتبقية ستكبر مرة أخرى».

أما الأستاذ الدكتور معزز المرزوقي مستشار الرمد وعضو "المجلس الأعلى للشئون الإسلامية" فيبدأ في تحليل الموضوع من الناحية المنطقية ثم يسترسل إلى الناحية الطبية فيقول: «ليس من المعقول أن يظل عرق يوسف موجوداً بالقميص طوال هذه الرحلة من مصر إلى الشام، وحتى لو فُرض أن القميص مملوء بالعرق فهل دخل العرق كله في عين يعقوب. كما أن أكثر البلاد إصابة بالمياه البيضاء هي البلاد الحارة والمفروض أن العرق في أعينهم طوال النهار، فلماذا لم يشْفهم عرقهم».

ثم قال: «ويكاد يُجمع الأطباء على أن عودة إبصار يعقوب معجزة بكل المقاييس... وكما نعلم أن المعجزة الإلهية فوق العلوم وفوق كل المقاييس لأنها متعلقة بالله تعالى وب" كن فيكون"».

ويقول الأستاذ الدكتور ممتاز حجازي أستاذ طب وجراحة العيون "بالقصر العيني": «القول بأن عرق يوسف عليه السلام الذي كان بقميصه هو الذي شفى عيني أبيه يعقوب عليه السلام عندما ألقاه على وجهه قولٌ فيه سذاجة شديدة ويتعارض مع العقل والمنطق، لأنه ليس بالضرورة في قوله تعالى: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ أن يكون قد أصيب

بالمياه البيضاء فقد يكون تعبيرًا يفيد الكف عن الإبصار، كما أن الكف عن الإبصار قد يحدث نتيجة الحزن أو الصدمات العصبية».

ثم يتساءل الأستاذ الدكتور ممتاز حجازي: «ومن أين جاء الافتراض بأن القميص كان به عرق؟ أو أن العرق ظل طوال هذه الرحلة؟ وكيف لامس القميص العين بدون أن تغلق الجفون ودون أن تصاب العين بقرحة إصابية؟ وأي مدة ظل فيها القميص ملامسًا للعين حتى يصل إلى العدسة الداخلية للعين وبالتركيز الكافي؟».

ولتوضيح خطأ الآلية التي تعتمد عليها هذه القطرة المخترعة يقول الدكتور مصطفى نصار - مدرس طب وجراحة العيون بجامعة "المنوفية":

«تركيب العدسة الداخلية للعين معجزة؛ لأن الأحماض الأمينية التي يتركب منها بروتين العدسة الداخلية للعين ملفوفة ومغلّفة داخل بعضها لحمايتها. والذي يحدث في حالة عتامة العدسة الداخلية للعين أن هذه اللفة تفرد وبذلك تتعرض للأكسدة بفقدانها للهيدروجين فتتكون رابطة من مواد جديدة ... هذه الرابطة هي التي تسمى بالمياه البيضاء تسبب في عتامة العدسة الداخلية.

ولعلاج هذه الحالة بدون جراحة لابد من اكتشاف مركب يستطيع كسر هذه الرابطة وإعادةها إلى حالتها الأولى، وهو أمر في غاية الصعوبة، ليس هذا فقط بل لابد من إعادة الخلايا إلى وضعها الأول من الالتفاف بعد أن فتحت ... وهكذا يتضح لنا استحالة علاج المياه البيضاء وكما يدعى البعض بالعرق الذي يحتوي على اليوريا والجيودين على أساس أنهما قادران على إذابة البروتين ... لأن المطلوب ليس إذابة البروتين وإنما المطلوب هو إعادة ترتيب الخلايا إلى ما كانت عليه وكذلك عودة شكلها الملتف».

يتضح مما سبق افتقار هذا البحث إلى المنهجية العلمية أو حتى المنطقية:

- فلو كان في العرق مادة تزيل "المياه البيضاء" لاكتفى كل إنسان بعرقه الخاص، ولما ظهر هذا المرض أصلاً لأن عرق الانسان كثيرًا ما يدخل عينيه في يوم شديد الحرارة.

- كيف نصدق أن قميص يوسف ظل مبللا بالعرق (ولم يجف) رغم أن العير سافرت به طويلاً من مصر الى فلسطين في صحراء جافة حارقة!!
- عودة يعقوب عليه السلام بصيراً معجزة ربانية ليس للعرق دخل فيها، وإلا سيخرج علينا بعد فترة من يدعي أن في عرق إبراهيم مادة مضادة للحريق جعلت النار حوله تصبح بردا وسلاما!!
- ومن قال أصلاً إن يعقوب كان مصابا ب"المياه البيضاء"؟ في حين أن ابيضاض العين تعبير قديم استعملته العرب للإشارة للعمى!!

إن هذه (القطرة القرآنية) المزعومة مجرد نموذج لادعاءات كثيرة قد تفتح الباب لأعداء الإسلام لتكذيب القرآن والطعن فيه.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نَكُونِ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَّكَبُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿الزخرف: ٣٣-٣٥﴾.

فقد تعرّض بعض الباحثين لهذه الآيات الكريمة، فمنهم من رأى أن المقصود بالسقف المصنوعة من الفضة في الآية الكريمة هو الخلايا الشمسية الحديثة التي تصنع مكوناتها من الفضة، أما بالنسبة للمعارج والأبواب والسرر المتخذة من الفضة، فهذا أمر ممكن تحقيقه صناعيا لمن آتاهم الله المال وغرثهم الحياة الدنيا وزخرفها.

أما بعض الباحثين الآخرين فقد فسروا عبارة (سقف من فضة) في هذه الآيات الكريمة على أنه المقصود منها هي سفن الفضاء المصنوع غلافها الخارجي من عدة طبقات من معدن الفضة، وأن هذه السفن لها أبواب وأماكن جلوس بداخلها، ورأوا أن وجه الإعجاز العلمي في هذه الآيات الكريمة هو التنبؤ بظهور سفن الفضاء في العصر الحديث.

إن ما يُلفت النظر في تفسير الباحثين السابقين لكلمة (سقف) أنهم تركوا حقيقة اللفظ واستعملوا بدلا منه المجاز، والسقف (بفتح السين وسكون القاف) غطاء المنزل

ونحوه وهو أعلاه المقابل لأرضه، والسقف جمعه سقوف وأسقف، وجاء في بعض المعاجم أيضا أن السقف جمعه سُقْف (بضم السين وضم القاف)، وأنكر بعض اللغويين والمفسرين أن تكون كلمة (سُقْف) جمعاً لكلمة (سَقْف) (بفتح السين)، وقالوا إنها جمع الجمع لكلمة (سُقوف) أو أنها جمع (سقيفة).

ولا يمكن أن يفهم من كلمة (سقف) الواردة في الآية الكريمة أنها هي الخلايا الشمسية التي توضع فوق أسطح المنازل للاستفادة من الطاقة الشمسية، كما أنه لا يمكن أن تكون هي سفن الفضاء التي اخترعها الإنسان في القرن العشرين، بل يجب أن تفهم في سياق معناها الحقيقي الذي كان يعرفه العرب وقت نزول القرآن وهو أيضا ما يتفق مع المعنى اللغوي ومع سياق باقي الألفاظ والمفردات التي وردت في الآية الكريمة وهي: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ ﴿أَبْوَابًا﴾ ﴿وَسُرُرًا﴾، ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ وهي كلها عناصر معمارية تتصل ببناء البيوت أو المساكن.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآيات (٢٢٦ / ٧): « قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَي: لَوْلَا أَن يَعْتَقِدَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْجَهْلَةَ أَنَّ إِعْطَاءَنَا الْمَالَ دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّتِنَا لِمَنْ أَعْطَيْنَاهُ، فَيَجْتَمِعُوا عَلَى الْكُفْرِ لِأَجْلِ الْمَالِ - هَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ، وَالسُّدِّيِّ، وَغَيْرِهِمْ - ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أَي: سَلَامٌ وَدَرَجًا مِّنْ فِضَّةٍ - قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ: وَابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُمْ - ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾. أَي: يَصْعَدُونَ. ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ أَي: أَغْلَاقًا عَلَى أَبْوَابِهِمْ ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكُونَ﴾ أَي: جَمِيعُ ذَلِكَ يَكُونُ فِضَّةً، ﴿وَزُخْرَفًا﴾، أَي: وَذَهَبًا. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ.

ثم قال: ﴿وَإِن كُئِلْ ذَلِكَ لَمَا مَتَعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا﴾ أَي: إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الرَّائِلَةِ الْحَقِيرَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَي: يُعَجَّلُ لَهُمْ بِحَسَنَاتِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا مَا كَلَّ وَمَشَارِبَ، لِيُؤَافُوا الْآخِرَةَ وَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنَةٌ يَّجْزِيهِمْ بِهَا.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَي: هِيَ لَهُمْ خَاصَّةٌ لَا يُشَارِكُهُمْ: فِيهَا أَحَدٌ غَيْرُهُمْ». اه باختصار.

* ومن الأخطاء الفاحشة في الإعجاز العلمي قول أحدهم إن الإعجاز العلمي يكشف عن انفلونزا الطيور في القرآن الكريم، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَفَكَهَةَ مِمَّا يَخَيْرُوتَ ۝۲۰ وَحَرْمِطَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (الواقعة: ٢٠-٢١) قائلاً: «إن الآية تقول إن الناس سيفتقدون لحوم الطيور في زمن من الأزمان لسبب مجهول حتى أنهم سيتشوقون لها جداً، ولعل ذلك السبب مرض ما إذا أَكَلَتْ تُوْدِي إِلَيْهِ فَيُحْظَرُ أَكْلُهَا أَوْ بِسَبَبِ انْقِرَاضِهَا لمرض أو إبادة جماعية لها، وأن الله في الجنة سيجزي المؤمنون لحوم الطيور التي كانوا يشتاقون إليها في الدنيا جزاءً إيمانهم به.

وقد ذكر ذلك الله تعالى لحوم الطير خصوصاً دون لحوم البقر أو الإبل أو الماعز فقال تعالى في سياق آيات النعم التي سينعم الله بها على المؤمنون في الجنة ﴿وَفَكَهَةَ مِمَّا يَخَيْرُوتَ ۝۲۰ وَحَرْمِطَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ فما الذي سيجعل الناس يشتهون لحوم الطير في الجنة خاصة إلا أن يكونوا قد حُرِّمُوا مِنْهَا فِي الدُّنْيَا وَهَلْ نَحْنُ نَتَشَوَّقُ فَقَطْ لِلْحَوْمِ الطَّيْرِ فِي الدُّنْيَا وَلَا نَتَشَوَّقُ مِثْلًا لِلْفَاكِهِةِ الَّتِي ذَكَرْتُ فِي الْآيَاتِ وَلَكِنْهَا لَمْ تَقْتَرَنَ بِلَفْظِ يَشْتَهُونَ - مع أننا نتشوق للفاكهة وغيرها من المأكولات واللحوم الألد في بعض الأحيان من لحوم الطير.

ولماذا لحوم الطير عامة وليس الدجاج أو البط أو الحمام فالظاهر من الآية أن سبب الاشتهاة سيكون بسبب افتقاد الناس للحوم الطيور عامة بجميع أنواعها. أي أنه إن كان سبب الاشتهاة مرض فإنه سيعم جميع أنواع الطيور وليس نوع واحد وذلك بسبب استطاعة الطيور السفر والهجرة ونقل المرض إلى جميع أنواع الطيور في العالم وفي أي مكان - بالضبط كما يحدث الآن - عكس جنون البقر مثلاً الذي كان محصوراً وأمكن السيطرة عليه لعدم طيران البقر مثلاً مثل الطيور المهاجرة.

فنحن نرى اليوم بأعيننا الناس وهم يرمون الدجاج والبط والحمام والعصافير والسَّمَانَ والأوزَّ الحَيَّ والمجمد وغيره والحسرة تملأ أعينهم وهم في أشد

الحاجة لأكل لحمه اللذيذ، ألا ترون أن تلك إشارة قرآنية لما يحدث الآن فلو استمرت الدول في إعدام الطيور بهذه الطريقة سيؤدي ذلك لانقراضها كما انقرضت الكثير من الحيوانات من قبل ويصبح لحم الطير ذكري نتشوق إليها كلما سمعنا عنها، وفي الجنة سيكون لحم الطير جزاء ومكافأة دونا عن سائر لحوم البقر والأغنام التي توجد في الجنة أيضا ولكن لم يذكر لنا الله في القرآن أننا سنتشوق لها.

فكما ترون الآن الناس تركت لحوم الطير واتجهت لشتى أنواع اللحوم الأخرى في تصديق عجيب للقرآن دون أن يقصدون ليصبح لحم الطير قريبا من اللحوم التي نشتاق إليها جميعا. فسبحان من ذكر تلك الآية المعجزة، التي نحفظها عن ظهر قلب:

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾.

تعقيب:

الخطأ في هذا الفهم من وجوه:

الأول: الجُزْمُ بأن ذلك هو المقصود من الآية.

الثاني: أنه تَقَوُّلٌ على الله بغير علم.

الثالث: أنه لو فرض صحّة ذلك في أهل آخر الزمان، أو في زمان مُعَيَّن تُفَقَدُ فيه لحوم الطيور، فكيف بالأمم الماضية؟ بل كيف بسواد هذه الأمة وكثرتها منذ زمن رسول الله ﷺ إلى زمان تظهر فيه "انفلونزا الطيور"؟! وما زال الناس يأكلون الطيور إلا ما ندر، فأين هو ذلك الاشتياق؟!

الرابع: أن لفظ ﴿يَشْتَهُونَ﴾ لم يرد في الطيور فحسب، بل هو وارد في غيرها من اللحوم والفواكه مما نفاه الباحث! وذلك كقوله تعالى في الفواكه: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (الطور: ٢٢)، وكقوله تعالى في الفواكه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (المرسلات: ٤١ - ٤٢)، بل جاء اللفظ بها هو أعم من ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ (فصلت: ٣١).

وقوله تَعَالَى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الزخرف: ٧١).

فلم يقتصر الأمر على "الطيور" بل جاء في عموم اللحوم والفواكه، بل في كل ما تشتهيه نفوس المؤمنين في الجنة. فلا يصح القول إذاً أن قوله تعالى: ﴿وَلَحِيزَ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يُرَادُ به "انفلونزا الطيور"، ولا أن في الآية إشارة إليه، لا من قريب ولا من بعيد. وعلى الإنسان أن يترى في القول بتفسير القرآن، وأن لا يقول فيه برأيه.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير قوله تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا يَوْمَ عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧)، حيث حمله بعضهم على النظرية النسبية، وربط بينها وبين قول علماء الفلك إن وحدات الزمن التي يستخدمها الناس لتقدير الوقت في دنيانا مرتبطة بالأرض ودورانها حول محورها مرة كل ٢٤ ساعة، وحول محورها كل سنة، فإذا ما غادر أحد الأرض إلى أي جرم سماوي آخر اختلفت الوحدات الزمنية طويلاً وقصرًا، وقالوا إن الآية الكريمة تشير إلى هذه الحقيقة العلمية وإلى أن الزمن مختلف في مقداره، وأن هناك سنوات فلكية نسبية يمكن التفرقة بينها، فالسنة الشمسية على الأرض تحسب بمقدار الزمن الذي تقطع فيه الأرض دروة كاملة حول الشمس في ٣٦٥ يوماً شمسيًا على حين أن السيارات القريبة من الشمس مثل عطارد فإنه يقطع دورته حول الشمس في ٨٨ يومًا، على حين أن بلوتو وهو أبعد الكواكب السيارة من الشمس وأبطؤها حركة يتم دورته حولها في ٢٥٠ سنة من سنواتنا، فالأيام في ملك الله مختلفة طويلاً وعدداً.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير قوله تَعَالَى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٥)، والربط بينها وبين سرعة الضوء، والقول بأن السرعة التي تجري بها الملائكة في الكون مطابقة تمامًا لسرعة الضوء، وسرعة الملائكة من الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا الله ﷻ.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ

بِأَيِّ مَن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدْرُوهَا نَقِيرًا﴾ (الإنسان: ١٥-١٦)، والربط بينه وبين ما ذكره العلماء من خواص الفضة، وأن معامل تعبئة الزجاجات الغازية تجعل في آخر مرحلة من تصنيعها للمواد أنابيب من الفضة، يجري الماء فيها من أجل التعقيم من الجراثيم، فالفضة تقضي على الجراثيم الموجودة في الماء، خاصة إشعاعية، فإما أن يمرر الماء في أنابيب من الفضة، وإما أن توضع فيه بعض قطع الفضة. وأن هذا الفلز قاتل للبكتريا، وبمجرد تماس الماء مع معدن الفضة فإنه يطهر مما به من جراثيم.

ثم قال: «لم ذكر الله عز وجل الفضة، ولم يذكر الذهب، والذهب أثمن، والذهب أنية من أواني أهل الجنة؟! هذه إشارة قرآنية إلى خواص الفضة، وهذه الآية تؤكد أن الأصول العلمية موجودة في كتاب الله ﷻ».

تعقيب:

ما علاقة الآية بخواص الفضة؟ إن الحياة الآخرة ليست كالحياة الدنيا فهي غيب لا يعلمه إلا الله ﷻ، أما في الدنيا فقد قال ﷺ: «لَا تَشْرَبُوا فِي آيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا، فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَنَا فِي الآخِرَةِ» (رواه البخاري ومسلم).

ولماذا التركيز على الفضة وهناك في الجنة آنية من الذهب، فعن عبد الله بن قيس رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليه وآله قال: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءَ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ». (رواه البخاري ومسلم).

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير قوله صلوات الله عليه وآله: «أَلَا مِنْ أَسْرَاطِ السَّاعَةِ كَلَامُ السَّبَّاحِ الْإِنْسِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُكَلِّمَ السَّبَّاحُ الْإِنْسِ، وَيُكَلِّمَ الرَّجُلُ نَعْلَهُ، وَعَدَبَةَ سَوْطِهِ، وَيُخْبِرُهُ فِخْذُهُ بِمُجْدِثِ أَهْلِهِ بَعْدَهُ» (رواه ابن حبان وصححه الألباني). (عدبة سوطه) أي طرفه.

فقد فسر أحدهم قوله ﷺ: «وَيُكَلِّمُ الرَّجُلَ نَعْلَهُ، وَعَذَابَةَ سَوْتِهِ، وَيُخْبِرُهُ فَخِذُهُ بِحَدِيثِ أَهْلِهِ بَعْدَهُ» بأنه قد يكون المراد أجهزة الاتصال وآلات التسجيل وأجهزة التجسس المختلفة. وقال إن أجهزة الاتصال كثيرة الأشكال والأنواع وتنزل في كل فترة بمميزات مختلفة وتقوم بالتحدث مع الإنسان وشكل سماعاتها مثل عذبة السوط ومثل شراك النعل.

تعقيب:

هذا تأويل بعيد جداً، فتكليم السباع لبني آدم في آخر الزمان حق على حقيقته. وكذلك تكليم الفخذ، وعذبة السوط، وشراك النعل، فكله حق على حقيقته وهو من خوارق العادات التي تكون عند اقتراب الساعة، وليس من صناعة الأدميين.

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مِنْ صِنَاعَةِ الْآدَمِيِّينَ فَقَدْ تَكَلَّفَ غَايَةَ التَّكْلِيفِ. وَقَدْ قَالَ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِيَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَأَقْتُلْهُ، إِلَّا الْعَرَقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ» (رواه مسلم). فهذا نظير ما ثبت عن النبي ﷺ من تكليم السباع والفخذ والنعلين والسوط لبني آدم في آخر الزمان. وكله حق على حقيقته.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي قول أحدهم:

قام العالم توماس إديسون مخترع المصباح الكهربائي، بأكثر من ألف تجربة قبل أن ينجح في اكتشافه، الذي لم يتكلم بالنجاح إلا بعد أن هداه الله إلى وضع زجاجة حول المصباح، لتغطي السلك المتوهج، وتزيد من شدة الإضاءة، ويصبح المصباح قابلاً للاستخدام من قبل الناس، ولو كان هذا العالم يعلم ما في القرآن الكريم من آيات معجزات، لعلم أن مصباحه بحاجة إلى أن يغطي بزجاجة، كي ينجح ويضئ لمدة طويلة كما يجب، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ (النور: ٣٥).

تعقيب:

مَنْ قَالَ إِنَّ الْمُصْبَاحَ لَا يَشْتَعَلُ إِلَّا إِذَا كَانَ دَاخِلَ زُجَاجَةٍ؟!
 لَقَدْ كَانَتْ الْمَصَابِيحُ فِي الْقَدِيمِ تُضِيءُ وَتَشْتَعَلُ مِنْ غَيْرِ وُجُودِ زُجَاجٍ!
 إِلَّا أَنَّ الْمُصْبَاحَ يَجْعَلُ شُعْلَةً تَلِكُ الْمَصْبَاحَ ثَابِتَةً وَأَكْثَرَ إِضَاءَةً. هَذَا مِنْ جِهَةٍ.
 وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ. مَاذَا لَوْ جَاءَ الْعِلْمُ الْحَدِيثُ بِمَصَابِيحٍ تُضِيءُ مِنْ غَيْرِ زُجَاجٍ.
 وَهَذَا مُحْتَمَلٌ، فَإِلَى وَقْتٍ قَرِيبٍ كَانَتْ الْمَصَابِيحُ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ، وَالْآنَ عَشْرَاتُ الْأَنْوَاعِ!
 فَقَدْ يَأْتِي زَمَنٌ وَيُضِيءُ الْمَصَابِغُ مِنْ غَيْرِ وُجُودِ زُجَاجَةٍ. فَيَرْجِعُ هَذَا عَلَى الْقُرْآنِ
 بِالتَّكْذِيبِ. وَأَنَّ مَا فَهَمْتُمُوهُ مِنْ وُجُودِ الْمَصْبَاحِ فِي زُجَاجَةٍ ثَبَتَ عَكْسَهُ.
 وَلَكِنْ لَوْ قِيلَ: هَذَا مِمَّا يُسْتَأْنَسُ بِهِ، وَأَنَّ الْمَصْبَاحَ يَكُونُ أَكْثَرَ إِضَاءَةً، وَاشَدَّ
 تَوَهُّجًا لَوْ كَانَ فِي زُجَاجَةٍ؛ لَبَقِيَتْ الْآيَةُ مُحْتَمَلَةً لِأَكْثَرِ مِنْ مَعْنَى. وَبِالتَّالِي فَلَوْ ثَبَتَ هَذَا أَوْ
 بَطُلَ. فَالْآيَةُ بَاقِيَةٌ تَحْتَمِلُ أَكْثَرَ مِنْ مَعْنَى. كَمَا أَنَّا أَبْقَيْنَا عَلَى مَا فَسَّرَهَا بِهِ السَّلْفُ، مِنْ
 الصَّحَابَةِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي قول أحدهم:

بذلت وكالة الفضاء الأمريكية كثيرا من الجهد، وأنفقت كثيرا من المال، لمعرفة
 إن كان هنالك أي نوع من الحياة على سطح القمر، لتقرر بعد سنوات من البحث
 المضني والرحلات الفضائية، أنه لا يوجد أي نوع من الحياة على سطح القمر ولا ماء
 ولو درس هؤلاء العلماء الأمريكيان كتاب الله، قبل ذلك، لكن قد وفر عليهم ما بذلوه،
 لأن الله تبارك وتعالى قال في كتابه العزيز: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ
 الْقَدِيمِ﴾ (يس: ٣٩). والعرجون القديم هو جذع الشجرة اليابس، الخالي من الماء
 والحياة.

تعقيب:

تفسير الآية بأن العرجون القديم "هو جذع الشجرة اليابس، الخالي من الماء
 والحياة" يُخَشَى أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ. وَرَجِمَ اللَّهُ الْإِمَامَ أَحْمَدَ إِذْ

كان يقول: «إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام». يعني لا تتكلم في مسألة من مسائل العلم لم يتكلم بها أحد من قبلك.

ثم إن سياق الآيات ليس في وصف القمر، بل في الحديث عن منازل مثل البدر والهلal. وتشبيه القمر بالعرجون القديم في تقوسه وحاله آخر الشهر أي أنه كعود عذق النخل القديم اليابس. قال البغوي في تفسير الآية: «والعرجون عود العذق الذي عليه الشرايح، فإذا قدم عتق يبس وتقوس واصفر؛ فشبه القمر في دقته وصفرته في آخر المنازل به». اهـ.

وهذا هو تفسير أكثر السلف، فالتشبيه ليس لأجل أن العذق لا حياة فيه، بل لكونه متقوساً ضعيفاً.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي استدلالهم بهذا الحديث:

عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلاً وَلَا عَقِيباً» (رواه مسلم).

قالوا: هذا الحديث يوافق ما أثبتته العلم من أن البالغين الذين يعانون من تشوهات خلقية، سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً، لا يُنجبون أبداً عند تزاوجهم، وأن الأجنة التي تولد ممسوخة، تولد ميتة، أو تعيش لبضعة أيام ثم تموت. وإذا كانت الإصابة أخف، مثلما يكون في حالة (ترنر TURNER) - الذي لا يوجد فيها إلا كروموسوم (صينغ أو جسيم ملون) واحد للجنس، وهو كروموسوم (X) - فإن صاحبة هذه الحالة تظهر كأنثى، ولكنها لا تحمل ولا تلد مطلقاً.

وكذلك حالة (كلينفلتر KLEINFELTER)، حيث يكون كروموسوم الجنس على هيئة (XXY)، أي يحمل شارتي الأنوثة، وشارة واحدة للذكورة، فيكون صاحب هذه الحالة، ذكراً في الشكل، ولكنه بارد الهممة، خائر العزيمة، تبدو عليه آثار الأنوثة، وهو عقيم وعقيم.

ومن ذلك كله، يتبين لنا الإعجاز العلمي فيما أخبر به رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، وقرره العلم الآن.

تعقيب: هل تحديد عمر الكون بمليارات السنين (٥, ١٣ مليار سنة)، معلومة

يقينية حتى نفسرها حديث النبي ﷺ؟

*** ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في الربط بين دوران الأرض**

والحديث الذي رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو قال حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحَى وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرَهَا قَرِيبًا».

قال أحد الباحثين: اكتشف العلم الحديث أنه سيكون هناك ارتباك في دوران

الأرض سيؤدي إلي طلوع الشمس من مغربها حيث بمعرفة كل من سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس في أيامنا الراهنة، ومعدل تباطؤ سرعة هذا الدوران مع الزمن، توصل العلماء إلي الاستنتاج الصحيح أن أرضنا سوف يأتي عليها وقت تجبر فيه علي تغيير اتجاه دورانها بعد فترة من الاضطراب، فمنذ اللحظة الأولى لخلقها إلي اليوم وإلي أن يشاء الله تدور أرضنا من الغرب إلي الشرق، فتبدو الشمس طالعة من الشرق، وغاربة في الغرب، فإذا انعكس اتجاه دوران الأرض طلعت الشمس من مغربها وهو من العلامات الكبرى للساعة ومن نبوءات المصطفى ﷺ.

*** ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير حديث الدجال الذي**

رواه مسلم عن النّوّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، وَفِيهِ: قُلْنَا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا لَبِئْتُهُ فِي الْأَرْضِ؟». قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قُلْنَا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟». قَالَ: «لَا، أَقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ».

فقال أحد الباحثين إن استطالة الأيام ثم قصرها وانتظامها بعد ذلك إعجاز

كوني في هذا الحديث، وقال إن من الأمور العجيبة أن يأتي العلم التجريبي في أواخر القرن العشرين ليؤكد أنه قبل تغيير اتجاه دوران الأرض حول محورها أمام الشمس

ستحدث فترة اضطراب نتيجة لتباطؤ سرعة دوران الأرض حول محورها، وفي فترة الاضطراب تلك ستطول الأيام بشكل كبير ثم تقصر وتتنظم بعد ذلك.

*** ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التكلف في الربط بين أيام البيض وصيامها**

وما قيل بأنه حقيقة علمية، بناءً على قول باحث!!!

ما ورد في السنة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «أَوْصَانِي خَلِيلِي صلى الله عليه وآله وسلم بِثَلَاثِ صِيَامٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَكَعَتِي الصُّحَى، وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَنَامَ». (رواه البخاري ومسلم).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ نَصُومَ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ الْبَيْضِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ». (رواه النسائي، وحسنه الألباني).

قال أحدهم:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ نَصُومَ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ الْبَيْضِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ، وَخَمْسَ عَشْرَةَ».

سُقَّتْ هَذَا الْحَدِيثَ لِأَرْبَطَ رِبْطًا مُحْكَمًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَقِيقَةِ عِلْمِيَّةٍ، وَهِيَ أَنَّهُ ثَبَتَ أَنَّ هُنَاكَ عِلَاقَةً بَيْنَ حَرَكَةِ الْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ وَدَوْرَةِ الْقَمَرِ، فَقَدْ جَاءَ بَاحِثٌ وَأَخَذَ مَلَفَاتِ دَوَائِرِ الشَّرْطَةِ فِي الْأَيَّامِ الَّتِي تَقَابُلُ أَيَّامَ الْبَيْضِ، فَوَجَدَ أَنَّ نَسَبَ الْحَوَادِثِ أَعْلَى بِكَثِيرٍ مِنْ بَقِيَّةِ الْأَيَّامِ، فَالْإِنْسَانُ حِينَما يَصُومُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَلَا سِيَّما هُوَ لَاءِ الَّذِينَ يَشْكُونُ مِنْ عَصَبِيَّةِ الْمَزَاجِ، فَإِنَّ صِيَامَ أَيَّامِ الْبَيْضِ، أَيِ الثَّلَاثِ عَشَرَ، وَالرَّابِعَ عَشَرَ، وَالْخَامِسَ عَشَرَ لَهُ تَأْثِيرٌ فِيهِمْ، وَالَّذِي يَأْتِي بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم كَمَا تَعْلَمُونَ لَيْسَ مِنْ خَبْرَتِهِ، وَلَا مِنْ اجْتِهَادِهِ، وَلَا مِنْ ثِقَافَتِهِ، وَلَا مِنْ عِلْمِهِ الشَّخْصِيِّ، إِنَّمَا هُوَ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ عز وجل، رُبَمَا كَانَ هُنَاكَ عِلَاقَةٌ بَيْنَ دَوْرَةِ الْقَمَرِ، وَاضْطِرَابِ الْإِنْسَانِ، فَالْصِّيَامُ قَدْ يَهْدِيءُ مِنْ اضْطِرَابِ النَّفْسِ، وَمِنْ رُغُونَتِهَا.

وقال آخر:

ظَهَرَتْ فِي الْأَعْوَامِ الْأَخِيرَةِ أَبْحَاثٌ عِلْمِيَّةٌ كَثِيرَةٌ مَفَادُهَا أَنَّ الْقَمَرَ عِنْدَمَا يَكُونُ بَدْرًا، أَيِ فِي الثَّلَاثِ عَشَرَ وَالرَّابِعَ عَشَرَ وَالْخَامِسَ عَشَرَ، يَزْدَادُ التَّهْيِجَ الْعَصْبِيَّ وَالتَّوْتَرَ

النفسي إلى درجة بالغة. ويقول الدكتور "ليبر" عالم النفس بميامي في الولايات المتحدة: «إن هناك علاقة قوية بين العدوان البشري والدورة القمرية وخاصة بينه وبين مدمني الكحول، والميالين إلى الحوادث وذوي النزعات الإجرامية، وأولئك الذين يعانون من عدم الاستقرار العقلي والعاطفي».

ويشرح "ليبر" نظريته قائلاً: «إن جسم الإنسان مثل سطح الأرض يتكون من ٨٠٪ من الماء والباقي هو المواد الصلبة». ومن ثمَّ فهو يعتقد بأن قوة جاذبية القمر التي تسبب المد والجزر في البحار والمحيطات تسبب أيضًا هذا المد في أجسامنا عندما يبلغ القمر أوج اكتماله في أيام البيض.

ويقول الدكتور "ليبر" في كتابه "التأثير القمري" إنه نبه شرطة ميامي، كما طلب وضع أخصائي التحليل النفسي في "مستشفى جاكسون التذكاري" في حالة طوارئ تحسباً للأحداث التي ستقع نتيجة الاضطرابات في السلوك الإنساني، والمتأثرة بزيادة جاذبية القمر.

الرد على هذا الإعجاز المزعوم:

مع صحة الحديث الخاص بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، إلا أنه لا يصحّ ما قيل من الإعجاز العلمي التجريبي المذكور أعلاه، للأسباب التالية:

أولاً: البحث تنقصه المراجع مما يشكك في مصداقية البحث بمنتهى السهولة، فلو كان البحث يستند إلى علم قوى لفاخر الباحث بمصدر معلوماته.

ثانياً: يزعم البحث أن هناك أبحاثاً كثيرة تثبت تأثير القمر على الإنسان ولم يأت منها إلا بقول عالم واحد، ولم يذكر اسمه بالكامل، أو منصبه العلمي، أو المجلة العلمية التي نشرت البحث.

ثالثاً: حتى وإن صح من الناحية العلمية الربط بين القمر والنواحي النفسية للإنسان (وهو غير صحيح)، فالحديث لا يوجد به أي ربط بين الصيام وتأثير القمر على النواحي النفسية، من الذي يجزم بأن النبي ﷺ أمر بصيامها لارتباطها بتأثير القمر.

رابعًا: إذا كان صيام هذه الأيام يقى من شر مستطير فلماذا لم يفرضها النبي ﷺ كما فرض شهر رمضان، فمعلوم أن صيام هذه الأيام محمول على الندب (الاستحباب) لا على الوجوب، فالنبي ﷺ كان يعرض له عارض فلا يصومها مما يدل على عدم الوجوب، وهذا متفق عليه. فهل من المنطق أن النبي ﷺ يعلم أن البشر يتأثرون بالقمر ويرتكبون أفعالاً إجرامية ثم لا يجعل صيام هذه الأيام فريضة.

وهذه الأيام الثلاثة يجوز أن تُصام متوالية أو متفرقة، ويجوز أن تكون من أول الشهر، أو من وسطه، أو من آخره، والأمر واسع والله الحمد، فعن مُعَاذَةَ الْعَدَوِيَّةَ أَنَّهَا سَأَلَتْ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ: «أَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ؟». قَالَتْ: «نَعَمْ». فَقُلْتُ لَهَا: «مِنْ أَيِّ أَيَّامِ الشَّهْرِ كَانَ يَصُومُ؟». قَالَتْ: «لَمْ يَكُنْ يُبَالِي مِنْ أَيِّ أَيَّامِ الشَّهْرِ يَصُومُ». (رواه مسلم).

لكن اليوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر أفضل، لأنها الأيام البيض الواردة في حديث أبي ذر رضي الله عنه السابق.

فإذا كان النبي ﷺ لم يهتم بأن تكون الثلاثة أيام في منتصف الشهر فلماذا نعظم هذه الأيام القمرية، ونقيم عليها إعجازاً مزعوماً؟

خامسًا: إذا كان القمر يؤثر على الناحية النفسية للبشر بالليل وليس بالنهار، فلماذا لم يأمر النبي ﷺ بصيام الليل بدلا من النهار، حيث يكون التعرض لجاذبية القمر أكبر وتأثيره على ماء الجسد أقوى من فترة النهار التي لا يتعرض فيها الجسد لجاذبية القمر.

سادسًا: يقول البحث «إن جسم الإنسان مثل سطح الأرض يتكون من ٨٠٪ من الماء والباقي هو المواد الصلبة». ومن ثم فهو يعتقد بأن قوة جاذبية القمر التي تسبب المد والجزر في البحار والمحيطات تسبب أيضًا هذا المد في أجسامنا عندما يبلغ القمر أوج اكتماله في أيام البيض.

وإذا صح هذا الكلام على المستوى النظرى فلن يتحقق على المستوى العلمى العملى، حيث إن ماء الأرض في أى بحر متصل (أى كتلة واحدة كبيرة) ويمكن أن

يحدث تأثير جذب واضح من القمر عليه، أما في جسم الانسان فغالبا الماء يوجد بداخل الخلايا وبالتالي فهو منفصل بحدود الخلايا، كما أن الماء بداخل الأوعية الدموية يخضع لعدة قوانين ربما جعلت تأثير القمر محدودًا.

وقد أكدت بعض الدراسات العلمية على أن العلاقة بين القمر والإنسان مجرد سراب، وهناك العديد من الأبحاث التي تثبت أن تأثير القمر على الانسان خرافة منشؤها:

- الإعلام (من خلال أفلام الخيال).
- خرافة موروثه من بعض الفولكلور الشعبي لبعض الأمم البائدة كالبابلية.
- الاعتقاد الخاطيء في أن القمر يؤثر على ماء الانسان الذي يمثل ٨٠٪ من وزن الانسان.

وقد نفى أحد الباحثين هذا الاعتقاد الخاطيء معللاً ذلك بأن قوة جذب القمر على الإنسان ضعيفة بسبب بُعده الشديد عنا، حتى إن قوة الجذب بين أم وطفلها المحمول بين يديها تفوق قوة جذب القمر بمقدار ١٢ مليون مرة. كما أن ماء البحار حُرٌّ بينما ماء الانسان مرتبط غير حر ولا متصل بعضه ببعض.

وعلى موقع "مجلة العلوم الأمريكية" نفى أحد الباحثين بشدة أن تكون هناك علاقة بين القمر وماء الانسان وعدها من الخرافات للأسباب التالية:

- البعد الشديد بين القمر والانسان، مما يستحيل معه وجود قوة جذب معقولة بين القمر وماء الانسان، بل إن بعوضة على ذراع الانسان لها قوة جذب على الإنسان أكثر من القمر بكثير.
- القمر يؤثر على الماء المفتوح في البحار والمحيطات فقط، وليس على الماء المحدود بالخلايا.
- قوة جذب القمر في أى يوم من الشهر القمري ثابتة ولا تتغير إلا بتغير بُعد القمر عنا.

ومن الأبحاث العربية الحديثة التي تدعم الكلام السابق بحث رافع للدكتور حسن محمد صندوقجي، استشاري أمراض الباطنية والقلب في "مركز الأمير سلطان للقلب في الرياض"، وهى بعنوان "تأثيرات القمر على صحة الإنسان ... خرافة أم حقيقة؟" (١).

وقد أكد فضيلة الدكتور على أن من يطلع على موروثات الأمم السابقة يجد من بينها من يعتقد في القمر تأثيراً بالغاً، وخاصة إن كان مكتملاً، وذلك التأثير في سلوك العنف، والإجرام، والتسبب في نوبات الصرع، وتأثيره في خصوبة المرأة، وغيرها. ومن يطلع على بعض البحوث المعاصرة يجد تأييداً لتلك الموروثات من قبل بعض الأطباء والباحثين، ويؤيدون ذلك في أبحاثهم، حتى غدا ذلك - عند كثيرين - عقيدة لا تترجح، وقناعة لا يُشك فيها.

وقد تتبع الدكتور حسن تلك الدراسات المثبتة لذلك التأثير، ونقل أسماء القائلين بها، ومراكزهم العلمية، ثم ذكر الدراسات التي تُردّ على تلك السابقة، والتي تُبين خطأها، وأيدها، وبين أنها هي الصواب.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير قول رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «تَقِيءُ الْأَرْضُ أَفْلَادَ كَبِدِهَا أَمْثَالَ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَتَلْتُ. وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ رَجْمِي. وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ يَدِي ثُمَّ يَدْعُوهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا». (رواه مسلم). حيث قال أحدهم إن وصف ما تلقىه الأرض أَمْثَالَ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ينطبق على البترول في العصر الحديث، وفي هذا التفسير تكلف ظاهر وصرّف للفظ عن حقيقته.

(١) وهو منشور على جريدة الشرق الأوسط بتاريخ الأحد ١١ شوال ١٤٢٩ هـ، ١٢ أكتوبر ٢٠٠٨، العدد ١٠٩١١.

قال أحد الباحثين: معنى الحديث كما فهمه قدامى أهل العلم أن كنوز الأرض ستخرج من بطنها إلى ظهرها وهذه الكنوز ستكون مثل أسطوانات من الذهب والفضة أى أنها لن تكون حقيقةً أسطوانات من الذهب والفضة ولكنها ستكون مثل أسطوانات من الذهب والفضة، فهل هناك كنوز خرجت من باطن الأرض إلى ظهرها في زمننا هذا ويمكن أن نقول عنها أنها مثل أسطوانات من الذهب والفضة؟ نعم هذا الوصف ينطبق على البترول بصورة ملفتة للنظر.

فلا شك أن النفط هو كنوز الأرض وأنه في عصرنا الحالى مصدر للثروة في العديد من الدول كدول الخليج العربي وهو بالفعل يخرج من بطن الأرض. وتشبيهه خروجه بالقيء هو تشبيه دقيق جداً بالفعل.

فالإنسان يتقيأ ما أكله من الطعام والبترول تكوّن من النباتات والحيوانات التي كانت تعيش في المحيطات من ملايين السنين وعندما ماتت هذه الكائنات هبطت أجسادها إلى طبقات الأرض في قيعان المحيطات وتحللت وتكون منها النفط والغاز الطبيعي.

فكأن هذه الكائنات بعد موتها طعام أكلته الأرض وهضمته فكوّنت منه النفط والغاز الطبيعي وبطبيعة الحال فعندما يخرج النفط مرة أخرى من بطن الأرض بعد ملايين السنين فكأنها هى تُخْرَج ما في بطنها من طعام فيكون أدق لفظ يمكن استخدامه هنا هو تقيء الأرض.

سبحان الله. بالفعل اللفظ النبوي دقيق بصورة مذهشة. لا يوجد لفظ أدق من (تَقْيءُ الأَرْضُ) يمكن استخدامه هنا.

نأتى إلى (أَمْثَالُ الأُسْطُوانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ). طبعاً تشبيه النفط بالذهب والفضة مفهوم لأنه مصدر للشراء. والملفت للنظر أن البشر بغير اطلاع منهم على الحديث استخدموا نفس التشبيه النبوي الدقيق في وصف النفط فوصفوه بالذهب الأسود.

نأتى إلى (الأسطوان) وهى جمع أسطوانة، وطبعا شكل الأسطوانة معروف. والنفط يوضع في براميل أو أسطوانات مما يوضح دقة التشبيه.

وهكذا نرى أن لفظ (تَقِيءُ الأَرْضُ) دقيق في وصف خروج البترول من الأرض، وأن تشبيه البترول بالذهب والفضة هو تشبيه دقيق لأن النفط مصدر للثراء وقد اعتاد الناس أن يطلقوا عليه الذهب الأسود، وأن النفط يوضع في براميل أو أسطوانات مما يوضح دقة التشبيه (أَمْثَالُ الأَسْطُوانِ).

تعقيب:

١- إن آخر هذا الحديث يردُّ هذا التفسير، فهل عندما ظهر البترول حدث ما قاله النبي ﷺ: «يَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَتَلْتُ. وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِي. وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَطَعْتُ يَدِي ثُمَّ يَدْعُوهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا». فهل تركت الدول أو الأفراد البترول فلم يأخذوا منه شيئا؟ وهل قالوا ما جاء في الحديث؟ فهل قتل أحد أحدا بسبب البترول؟ وهل قطع أحد رحمه بسبب البترول؟ وهل قُطِعَت يد أحد بسبب البترول؟ فلا يصح تفسير أول الحديث بمعزل عن آخره.

٢- أما قوله في تفسير قوله ﷺ: (أَمْثَالُ الأَسْطُوانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ) أن الكنوز ستكون مثل أسطوانات من الذهب والفضة أى أنها لن تكون حقيقةً أسطوانات من الذهب والفضة ولكنها ستكون مثل أسطوانات من الذهب والفضة، فيقال في الرد عليه: ظاهر معنى الحديث أن الكنوز التي ستخرج إنما هي من الذهب والفضة، والمعنى أن الذهب والفضة يكونان في العِظَمِ وَالْكَثْرَةِ مثل الأسطوانات. وليس المعنى أنها ما يخرج ليس من الذهب والفضة.

معنى الحديث:

(تَقِيءُ الأَرْضُ): مُضَارِعٌ مِنَ التَّقْيِءِ أَي تُلْقِي الأَرْضُ.

(أَفْلاذَ كِبِدْهَا) جَمْعُ الفِلْدَةِ وهى القِطْعَةُ مِنْ كَبِدِ البَعِيرِ، وَقِيلَ: هِيَ القِطْعَةُ مِنَ اللَّحْمِ، وَقِيلَ هِيَ القِطْعَةُ المَقْطُوعَةُ طَوَلاً، وَمَعْنَى الحَدِيثِ التَّشْبِيهِ، أَي تُخْرِجُ مَا فِي

جَوْفَهَا مِنْ الْقِطْعِ الْمُدْفُونَةِ فِيهَا. وَسُمِّيَ مَا فِي الْأَرْضِ كَبِدًا تَشْبِيهَا بِالْكَبِدِ الَّتِي فِي بَطْنِ
الْبَعِيرِ لِأَنَّهَا أَحَبُّ مَا هُوَ مُحَبَّبٌ فِيهَا، كَمَا أَنَّ الْكَبِدَ أَطْيَبُ مَا فِي بَطْنِ الْبَعِيرِ وَأَحَبُّهُ إِلَى
الْعَرَبِ. فَالْمَعْنَى تَطَهَّرَ كُنُوزَهَا وَتَخَرَّجَهَا مِنْ بَطْنِهَا إِلَى ظُهُورِهَا. وَالْأَسْطُوان - بِضَمِّ
الْهَمْزَةِ وَالطَّاءِ وَهُوَ جَمْعُ أُسْطُوانَةٍ - وَهِيَ السَّارِيَّةُ وَالْعَمُودُ، وَشَبَّهَهُ بِالْأَسْطُوانِ لِعِظَمِهِ
وَكَثْرَتِهِ.

(وَيَجِيءُ الْقَاتِلُ): أَيُّ قَاتِلِ النَّفْسِ. (فِي هَذَا): أَيُّ فِي طَلَبِ هَذَا الْغَرَضِ لِأَجْلِ
تَحْصِيلِ هَذَا الْمَقْصُودِ. (وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ): أَيُّ قَاطِعِ الرَّحِمِ. (ثُمَّ يَدْعُوهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ
شَيْئًا): أَيُّ: يَبْرُكُونَ مَا قَاءَتْهُ الْأَرْضُ مِنَ الْكَنْزِ أَوْ الْمَعْدِنِ.

* ومن الأخطاء الفاحشة في الإعجاز العلمي قول أحدهم:

أنا طبيب عيون وقد تعمقت كثيرا في حديث الرسول الكريم ﷺ الذي يقول
فيه: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيْحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا وَإِذَا سَمِعْتُمْ
نَهْيَ الحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

ومن هذا الحديث يتضح لنا أن قدره الجهاز البصري للإنسان محدودة وتختلف
عن القدرة البصرية للحمير، والتي بدورها تختلف في قدرتها عن القدرة البصرية
للدِّيكة، وبالتالي فإن قدرة البصر لدى الإنسان محدودة لا ترى ما تحت الأشعة الحمراء
ولا ما فوق الأشعة البنفسجية، لكن قدرة الدِّيكة والحمير تتعدى ذلك.

والسؤال هنا: كيف يرى الحمار والديك والجن والملائكة؟

الجواب: هو أن الحمير ترى الأشعة الحمراء، والشيطان وهو من الجن خلق
من نار أي من الأشعة تحت الحمراء، لذلك ترى الحمير الجن ولا ترى الملائكة، أما
الدِّيكة فترى الأشعة البنفسجية والملائكة مخلوقة من نور أي من الأشعة البنفسجية،
لذلك تراها الدِّيكة، وهذا يفسر لنا لماذا تهرب الشياطين عند ذكر الله ﷻ. والسبب هو
أن الملائكة تحضر إلى المكان الذي يذكر فيه الله فتهرب الشياطين.

والسؤال: لماذا تهرب الشياطين عند وجود الملائكة؟ الجواب: لأن الشياطين
تتضرر من رؤية نور الملائكة. بمعنى آخر، إذا اجتمعت الأشعة فوق البنفسجية

والأشعة الحمراء في مكان فإن الأشعة الحمراء تتلاشى.

وعن ابن عباس وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يرى بالليل في الظلمة كما يرى بالنهار في الضوء (١).

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: أَبْصَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم حَنْظَلَةَ بن الرَّاهِبِ وَحَمْرَةَ تُغَسِّلُهَا الْمَلَائِكَةُ. (رواه الطبراني وحسنه الألباني).

وعن أنس رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: «رُصُّوا صُفُوفَكُمْ، وَقَارِبُوا بَيْنَهَا، وَحَادُوا بِالْأَعْنَاقِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرَى الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ مِنْ خَلَلِ الصَّفِّ، كَأَنَّهَا الْحَذْفُ». (رواه الإمام أحمد في المسند، وأبو داود، وصححه الألباني). (الحذف): هي الأغنام السوداء الصغار.

هذه الأحاديث الثلاثة تبين لنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يتمتع بميزة وهي:

في الحديث الأول أنه كان يرى بالليل كرؤيته بالنهار، وهذا ما توصل إليه العلم بعد ١٤٢٠ عام. وذلك عن طريق المناظير الليلية التي ترى بالليل، ورغم ذلك فإن الرسول يتفوق بصرياً على هذه المناظير، لأنه كان يرى بالليل بكل وضوح كرؤيتنا نحن بالنهار، أما المناظير الليلية المصنوعة الآن فإنها لا ترى بالليل بشكل واضح، فأكثر هذه المناظير تكون فيها الرؤيا ذات لون واحد، أخضر أو أحمر مثلاً.

أما في الحديث الثاني، وهو رؤيته للملائكة، فهذا يثبت أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يرى الأشعة فوق بنفسجية، وإلى الآن وبعد ١٤٢٠ عام لم يتمكن العلم من اختراع جهاز يرى الأشعة فوق بنفسجية، وإلا لكانوا رأوا الملائكة.

أما الحديث الثالث، فأعتقد أنه قد اتضح لكم ولا يحتاج إلى شرح.

(١) هذا الحديث رواه ابن عدي في "الكامل في ضعفاء الرجال"، والبيهقي في "دلائل النبوة"، وقال الألباني: (موضوع).

وقال تعالى في وصف حور العين: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرَتٌ أَلْطَرَفِ عَيْنٍ﴾ (الصفات: ٤٨). عندما اجتمعت كلمتا ﴿قَصْرَتٌ﴾ و﴿عَيْنٌ﴾ في آية واحدة تبادر إلى ذهني موضوع قَصْر النظر، وهي الحالة التي لا يرى المصاب بها إلا عن قرب، وكبر حجم العدسة هو أحد الأسباب الهامة لِقَصْرِ النظر، الذي في نفس الوقت يُضفي لصاحبه حسناً وبهاءً، وقصير النظر لا يستطيع رؤيه الأشياء البعيدة بوضوح بدرجة تتفاوت بتفاوت شدته.

تعقيب:

أولاً: هذا الموضوع يتضمّن تكلفاً وتعسفاً وتفسيرات غريبة لنصوص الوحيين (الكتاب والسنة). ويتضمّن رجماً بالغيب، فمن الذي أخبره أن الملائكة خُلقت من الأشعة البنفسجية؟! ومن الذي أخبره بأن الشياطين خُلقت من أشعة حمراء أيضاً؟! نعم، النبي ﷺ أخبرنا أن الملائكة خُلقت من نور (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وتجاوز ذلك يُعَدُّ رجماً بالغيب، ويُخشى على المتخوِّص فيه أن يهلك أو أن يزيغ.

ثانياً: إنه يزعم أنه لا يُمكن رؤية الملائكة، وهذا غير صحيح. فقد ثبت عن غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم رؤية الملائكة ومصافحتهم. وهذا يردّ القول بأنها خُلقت من أشعة لا يُمكن للبشر رؤيتها.

ثالثاً: تفسير قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرَتٌ أَلْطَرَفِ عَيْنٍ﴾، بالمصطلح الطبي المعروف وهو قَصْر النظر بحيث لا يستطيع صاحبه رؤية الأشياء البعيدة، لا نعلم أحداً من أهل العلم قال به، وقد ذكر ابن القيم أن المفسرين كلهم على أن المعنى: قصرن أطرافهن على أزواجهن، فلا يطمحن إلى غيرهم. وفي هذا إشارة إلى أن رؤيتهن لغيرهم ممكنة^(١).

(١) قال الشيخ السعدي في تفسيره (ص ٧٠٢): أي: وعند أهل دار النعيم، في محلّتهم القريبة، حور حسان، كاملات الأوصاف، قاصرات الطرف، إما أنها قصرت طرفها على زوجها، لعفتها وعدم مجاوزته لغيره، ولجمال زوجها وكماله، بحيث لا تطلب في الجنة سواه، ولا ترغب إلا به، وإما لأنها قصرت طرف زوجها

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي استدلال أحدهم على ما أثبتته العلم الحديث من أنه لا يوجد فراغ في الكون، بهذا الحديث: عَنِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقُّ لَهَا أَنْ تَنْظُرَ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ» (رواه الإمام أحمد في المسند، والترمذي، وصححه الألباني).

قال الباحث: «القرآن الكريم يتحدث في آيات كثيرة ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (مريم: ٦٥)، ليس هناك فراغ، ليس هناك مناطق خالية كما كان يتخيله العلماء؛ في سورة الحجر ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر: ٨٥)، انظروا إلى لفظة: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، التي يؤكد عليها القرآن الكريم، تأكيداً شديداً في آيات كثيرة متعددة...».

وذكر عدداً من الآيات، ثم قال: «ثم يأتي العلم ليؤكد أن المادة تنتشر في فسحة هذا الكون، وأنه لا يوجد شيء اسمه فراغ، حتى المسافات التي تنتج عن تباعد هذه المجرات تباعدًا هائلًا عن بعضها، تتخلق فيها المادة في الحال لتملأها، ولولا ذلك ما وصلتنا أضواء هذه النجوم، فتأكد العلماء في السنوات الأخيرة من هذا القرن، أنه لا يوجد شيء اسمه فراغ، بل إن هذه المسافات البينية الشاسعة الهائلة، التي تتكون نتيجة تباعد هذه المجرات، تمتلئ بالمادة مباشرةً.»

عليها، وذلك يدل على كمالها وجمالها الفائق، الذي أوجب لزوجها، أن يقصر طرفه عليها، وقصر الطرف أيضاً، يدل على قصر النفس والمحبة عليها، وكلا المعنيين محتمل، وكلاهما صحيح، وكل هذا يدل على جمال الرجال والنساء في الجنة، ومحبة بعضهم بعضاً، محبة لا يطمح إلى غيره، وشدة عفتهم كلهم، وأنه لا حسد فيها ولا تباغض، ولا تشاحن، وذلك لانتفاء أسبابه. ﴿عَيْنٌ﴾ أي: حسان الأعين جميلاتهما، مِلَاحُ الْحِدَقِ.

ومن العلماء الفلكيين البارزين في عصرنا هذا عالم بريطاني اسمه "فريد هويل"، وهو من أشهر علماء الفلك المعاصرين، وله نظريات علمية كثيرة صحيحة مسماة باسمه، وبعد أن بلغ سن السبعين تقريباً، تفرغ لمراجعة كتاباته ومعلوماته، فألف كتاباً اسمه "الكون الذكي"، يقول فيه: «كنا ننكر وجود الخالق، فإذا بالخالق يؤكد وجوده بامتلاء الفراغات الناتجة عن اتساع هذه المجرات، بمادة تتخلق من حيث لا ندري، فهذه شهادة بأن الذي خلق هذا الكون، هو الذي يخلق هذه المادة؛ ليملاً بها هذه المسافات الشاسعة، التي تتكون بين المجرات المتباعدة عن بعضها».

وفي الحديث الصحيح يقول الرسول ﷺ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقُّ لَهَا أَنْ تَتَّظَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جِبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ». لا يوجد فراغ، الكون مزدحم بالخلق، ولكنه خلق لا ندركه، لا نعرفه، ليست لدينا الوسائل للإمام به، والعلماء في العالم كله يقولون إن الكون فراغ، بعد نطاق الغلاف الغازي للأرض لا يوجد شيء...!! من الذي علم محمداً ﷺ ذلك، إذا لم يكن موصولاً بخالق السماوات والأرض».

تعقيب:

أولاً: بنى الباحث استدلاله على نظرية لأحد علماء الفلك!! وهذه النظرية قد يأتي في المستقبل من يطعن في صحتها، فهل يصح أن نربط بها تفسير كلام الله ﷻ؟

ثانياً: الحديث لا يدل على ما ذهب إليه الباحث، فالحديث يتحدث عن السماء، وعن الملائكة، والباحث يتكلم عن اكتشاف مادة تملأ الكون المنظور والمسافات بين أجرامه.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي الاستدلال بذكر الطير الأبايل في سورة "الفيل" على أن القرآن قد دل على وجود الطائرات النفاثات التي تحمل القذائف وتقذف بها على الجيوش المعادية. ولا يخفي ما في هذا الاستدلال من التكلف والقول في القرآن بغير علم، وحمل القرآن على غير محامله. وما أعظم ذلك وأشد خطره.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير حديث الدجال الذي رواه مسلم عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه وفيه: قُلْنَا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟»، قَالَ: «كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرْتَهُ الرَّيْحُ». والزعم أن الحديث يدل على وجود الطائرات في آخر الزمان. وأن سرعة الدجال في الأرض إنما تكون على مثل الطائرات.

وهذا مردود بما جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال في الدجال: «وَلَهُ حِمَارٌ يَرْكَبُهُ عَرُضُ مَا بَيْنَ أُذُنَيْهِ أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا» (رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح علي شرط البخاري ومسلم).

وفي النَّصِّ على ركوب الدجال على الحمار، ومجيئه عليه أبلغ رد على من زعم أنه يجيء على الطائرات أو غيرها مما صنعه الأدميون، وركوبه على الحمار الموصوف بما تقدم ذكره أبلغ في الاقتتان به من ركوبه على الطائرات وغيرها مما قد عرفه الناس واعتادوا ركوبه، وسيره على الحمار العظيم الجسم قد يكون أسرع من سير الطائرات بكثير، والذي يظهر أن مركوب الدجال وما يُجره الله على يديه من الأمور الغريبة إنما يكون ذلك من خوارق العادات، لا من الأمور العادية التي قد عرفها الناس وذلك أبلغ في الابتلاء والامتحان.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير حديث أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَتَفَعَّ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ». (رواه البخاري ومسلم). (الأجاذب): هي الأرض التي لا تُنبت كلاً. (القيعان): الأرض التي لا نبات فيها.

وقد استدل أحدهم بهذا الحديث على سبق الحديث العلمي، لعلم التربة والجيولوجيا والجغرافيا والطبيعة، وتكلم على أنواع التربة بالتفصيل، فذكر الأنواع التي

وردت في الحديث، وأقسام كل نوع، وتركيبها الكيميائي، ثم ذكر عقب أكثر من فقرة: أن النبي ﷺ أخبرنا بهذا منذ ألف وأربع مائة سنة.

التعليق:

إدخال الباحث للحديث في مجال الإعجاز العلمي، وقوله إن أنواع التربة المذكورة في الحديث، إنما عُرِفَتْ بجلاء بواسطة العلم المعاصر؛ فيه نظر، فالنبي ﷺ يبين أنواع الناس في استقبال الهدى والعلم الذي جاء به، بمثل محسوس مُشَاهَد، خاصة للعرب أهل الرعي والزراعة؛ فذكر لهم أمراً يعرفونه حق المعرفة، فلا يحتاج الأمر لكل هذا العناء.

*** ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي استدلال أحدهم على الإعجاز العلمي للسنّة بحديث عائشة رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الرَّحْمُ شِجْنَةٌ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَتْهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).**

فقال - بعد أن ذكر الحديث، وفسر الشجنة بأنها فروع الشجر المتشابك - : «وهذا ما أثبتته علم التشريح، من أن الرحم موضوع في وسط حوض المرأة، حتى يكون محمياً ومصوناً من كل أذى ... وهو عضو عضلي أجوف ...»، وذكر وصف الرحم وتشريجه، إلى أن قال: «وللرحم قناتان، على كل جانب واحدة، وتنتهي قناة الرحم بانتفاخ يعرف باسم (البوق)، الذي يحيط بالمبيض بمجموعة من الأهداب».

ثم قال: «من هذا يظهر لنا الرحم كفرع شجرة متشابك، وهو ما أخبر عنه الرسول ﷺ بقوله: «الرَّحْمُ شِجْنَةٌ»، مما يعد وصفه إعجازاً علمياً، لاسيما قبل أن نعرف علماً يسمى علم التشريح، الذي يصف أجزاء الجسم البشري بالدقة والبيان الواضح».

تعقيب:

الرحم في الإنسان عبارة عن عضو عضلي مجوف ذو جدار سميك يتصل من أعلى بقناة فالوب، ويشبه الرحم ثمرة الكمثرى المقلوبة في الشكل والحجم ويبلغ طوله حوالي ٧ سم وعرضه حوالي ٥ سم. ويتمدد الرحم خلال فترة الحمل ويتضاعف ٢٢ مرة من ٥٠ جرامًا قبل الحمل وحتى ١١٠٠ جرام عند الولادة ليتسع للجنين الذي ينمو بداخله.

والاستدلال بهذا الحديث، يتوقف على معرفة المراد بالرحم في الحديث؛ وفي المعاجم اللغوية أن الرحم تطلق على العضو الذي يخلق فيه الجنين، وتطلق على الأقارب، وهي في هذا الحديث مقرونة بالصلة أو القطيعة، وهذه القرينة تصرفها إلى أن المراد بها القرابة.

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي تعسف أحدهم في الاستدلال على حجم الأرض بالنسبة للكون بحديث: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ». (رواه الترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني).

فقال أحد الباحثين إن هذا الحديث يوافق ما أثبتته علم الفلك الحديث، من أن الأرض شيء صغير جدًا جدًا، بالنسبة للأجرام الكونية ذات الأعداد الهائلة.

تعقيب:

المراد القيمة المعنوية للعالم، وليس المراد الحجم، ولذا قد ينعكس هذا الدليل، فيدل على الكبر والضخامة في الحجم، يعني مع كبر الأرض وضخامتها، فهي لا تساوي جناح بعوضة. ويؤيد هذا أن الحديث ورد بلفظ «الدنيا»، ولم يرد بلفظ «الأرض». والدنيا: "نقيض الآخرة"، و"سميت الدنيا لدنوها".

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي تعسف أحدهم في الاستدلال على كلام الجيولوجيين بهذا الحديث: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا فَإِنَّهُ يُطَوِّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ» (رواه البخاري) ورواه مسلم بلفظ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ طَوَّقَهُ فِي سَبْعِ أَرْضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

معنى الحديث:

التطويق المذكور في الحديث يَحْتَمِلُ أَنْ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَحْمِلُ مِثْلَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ، وَيُكَلِّفُ إِطَاقَةَ ذَلِكَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ يُجْعَلُ لَهُ كَالطَّوْقِ فِي عُنُقِهِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٨٠)، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَّهُ يُطَوَّقُ إِثْمَ ذَلِكَ وَيَلْزَمُهُ كَلْزُومِ الطَّوْقِ بِعُنُقِهِ^(١).

استدل أحدهم بهذا الحديث على ما قاله الجيولوجيون من أن الأرض سبع طبقات، وذكر أن طبقات الأرض هي:

- ١ - الطبقة الهوائية.
- ٢ - الطبقة المائية.
- ٣ - السيلال (القشرة الأرضية).
- ٤ - السيميا (طبقة من السلوكيات الخفيفة والثقيلة).
- ٥ - السيميا الحديدية (سيحا) وهي طبقة من الأكاسيد والبريتيدات.
- ٦ - النيجا (سائل من الحديد والنيكل).
- ٧ - النواة المركزية.

تعقيب:

عَدُّ الهواء والماء من طبقات الأرض، خطأ - وخاصة عندما نتحدث عن تركيب الأرض - وهو يخالف الحديث، والصواب أن الهواء والماء من أغلفة الأرض، والأرضين الست هي تحت أرضنا هذه؛ وذلك منطوق الحديث، ومن تأمل ألفاظ روايات الحديث اتضح له الأمر، وهو إجماع أهل الحديث والسنة.

(١) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١١/٤٨-٤٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد خلق الله سبع أرضين بعضهن فوق بعض، كما ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ ظَلَمَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، وقد ذكر أبو بكر الأنباري الإجماع على ذلك، وأراد به إجماع أهل الحديث والسنة»^(٢).

*** ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي تعسف أحدهم في الاستدلال على أن مكة هي مركز اليابس من الأرض بقول رسول الله ﷺ عنها: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَيْرٌ أَرْضَ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ»** (رواه الترمذي، وصححه الألباني). ولا علاقة واضحة بين الحديث، وبين ما استدل به عليه.

*** ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي استدلال أحدهم على أثر عمر الأم على أطفالها بحديث معقل بن يسار رضي الله عنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي أَصَبْتُ امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ وَجَمَالٍ وَإِنَّهَا لَا تَلِدُ أَفَاتَزَوَّجُهَا؟»، قَالَ «لَا». ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَنَهَاها، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّلَاثَةَ، فَقَالَ: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَّمَ».** (رواه أحمد وأبو داود والحاكم، وصححه وولفقه الذهبي والألباني).

فقد استدل أحدهم بهذا الحديث فقال: «تزداد نسبة ميلاد أطفال البلاهة (Mongol)، كلما تقدمت سنّ الأم الحامل، بينما تكون نسبة حدوثه عند الأم التي تبلغ (٢٥) سنة (١:١٥٠٠) تزداد نسبة حدوثه عند الأم التي تبلغ (٣٥) إلى (١): (٣٥٠) وترتفع هذه النسبة إذا بلغت أثر (٤٠) سنة إلى (١:٣٠)، وصدق رسول الهدى محمد ﷺ إذ يقول: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَّمَ».

(١) حديث صحيح رواه الإمام أحمد بلفظ: «مَنْ ظَلَمَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ طَوَّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ». ورواه البخاري بلفظ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا فَإِنَّهُ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ». ورواه مسلم بلفظ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ طَوَّقَهُ فِي سَبْعِ أَرْضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(٢) مجموع الفتاوى (٥٩٥/٦).

تعقيب:

العلة لتزوّج الودود الولود، منصوصٌ عليها في الحديث، وهي تكثير المسلمين؛ لياهي بهم محمد ﷺ الأمم يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أَمِنْ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (رواه البخاري ومسلم).

ولذا المقصود هو المرأة الولود، سواء كانت صغيرة أم كبيرة - وإن كانت للصغيرة مزية - وقد حث النبي ﷺ على تزوج الأبقار؛ وذلك لأن من فوائده كثرة الأولاد، حيث إن فترة إنجاب الصغيرة أطول من الكبيرة.

ثم إنه إذا تزوج الصغيرة فإنها بعد مدة ستصبح كبيرة، فهل يقال لهما: توقفا عن الإنجاب!

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي استدلال أحدهم بهذا الحديث: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ نَسَمَةً، قَالَ مَلَكُ الْأَرْحَامِ مُعْرَضًا^(١): يَا رَبِّ، أَذْكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي اللَّهُ أَمْرَهُ. ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَيَقْضِي اللَّهُ أَمْرَهُ. ثُمَّ يَكْتُبُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَا هُوَ لَاقٍ حَتَّى التَّكْبَةَ يُنْكَبُهَا» (رواه ابن حبان، وصححه الألباني). (النَّكْبَةُ يُنْكَبُهَا): المصيبة يصاب بها.

استدل أحدهم بهذا الحديث، فعرض صورةً لجنين يبلغ من العمر أربعة أشهر ونصف تقريباً، على جبينه خطوط تشبه بصمات الأصابع، ثم قال: «ألا ترى إلى هذا الكتابة المنقوشة، بدقة بارعة على جبينه، ووجهه إنها شعيرات دقيقة، مرسومة بمهارة فائقة، والغريب أنه لا يوجد اثنان على وجه الأرض، تتشابه فيهم هذه الكتابة، حتى ولو كانا توأمين». ثم ذكر الحديث.

(١) يقال: عَرَضَ لَهُ الْأَمْرُ، أي: خَطَرَ لَهُ.

تعقيب:

هل هذه الخطوط هي كتابة الملك؟ الجواب بـ (لا) ممكن، والجواب بـ (نعم) ممكن. وكلاهما يفتقر إلى الدليل. إن الأسلوب العلمي يقتضي التأكد بدليل نقلي، أو عملي تجريبي، من أن هذه الخطوط على جبين الجنين، هي المعنية بهذا الحديث؛ لأن نص الحديث لا يفيد ذلك بالضرورة، فقد يكون المراد كتابة لا تُرى؛ لأن كتابة الملك غيب، ولا نعلم كيفيتها.

من الأخطاء الاعتماد على الأحاديث الضعيفة

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي الاعتماد على الأحاديث الضعيفة ومحاولة التوفيق بينها وبين بعض الحقائق أو النظريات العلمية، مع أنه يجب على من أراد الاستدلال بالأحاديث النبوية، التأكد من ثبوتها، ولكن بعض الكتاب - هداهم الله - يأخذهم الحماس للدين، أو التكاثر والتهاون في الثبوت، فيقعون فيما ينعكس عليهم ويكون خلاف المراد، والله المستعان.

ومن أمثلة تلك الأخطاء المبنية على الاستدلال بالأحاديث الضعيفة:

المثال الأول:

قول أحد الباحثين: «عندما خلق الله القارات بدأت في شكل قشرة صلبة رقيقة تطفو على مادة الصهير الصخري، فأخذت تميد وتضطرب، فخلق الله الجبال البركانية التي كانت تخرج من تحت تلك القشرة، فترمي بالصخور خارج سطح الأرض، ثم تعود منجذبةً إلى الأرض وتتراكم بعضها فوق بعض مكونة الجبال، وتضغط بأثقالها المتراكمة على الطبقة اللزجة فتغرس فيها جذراً من مادة الجبل، الذي يكون سبباً لثبات القشرة الأرضية واتزانها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (لقمان: ١٠) إشارة إلى الطريقة التي تكونت بها الجبال البركانية بإلقاء مادتها من باطن الأرض إلى الأعلى ثم عودتها لتستقر على سطح الأرض. ويجلي حديث الرسول ﷺ هذه الكيفية، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدٌ، فَخَلَقَ الْجِبَالَ فَعَادَ بِهَا عَلَيْهَا» الحديث.

فتأمل في قول النبي ﷺ المبيّن لكيفية خلق الجبال: «فَعَادَ بِهَا عَلَيْهَا»، أي أن خلقها كان بخروجها من الأرض وعودتها عليها. وهل شهد الرسول ﷺ خلق الأرض وهي تميد؟ وتكوين الجبال البركانية عن طريق الإلقاء من باطن الأرض

وإعادتها عليها لتستقر الأرض؟ ألا يكفي ذلك دليلاً على أن هذا العلم وحي أنزله الله على رسوله النبي الأمي في الأمة الأمية، في العصر الذي كانت تغلب عليه الخرافة والأسطورة؟

وقال أيضاً: «هذه حقيقة كونية، لم يعرفها العلماء إلا في أواخر الأربعينات من هذا القرن، وقد تحدث عنها القرآن بإفاضة، وتحدث عنها الرسول ﷺ بإفاضة، وإن دل ذلك على شيء، فإنها يدل دلالة قاطعة على أن القرآن كلام الله ﷻ، وعلى أن نبينا محمد ﷺ موصول بالوحي لا ينطق عن الهوى».

تعقيب:

هذا الحديث لا يثبت، فقد أخرجه الترمذي، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَّا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ». ورواه الإمام أحمد في مسنده، وضعفه الألباني والأرنؤوط.

المثال الثاني:

استدلال أحد الباحثين بحديث: «لَا يَرَكَّبُ الْبَحْرَ إِلَّا حَاجٌّ أَوْ مُعْتَمِرٌ أَوْ غَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ تَحْتَ الْبَحْرِ نَارًا وَتَحْتَ النَّارِ بَحْرًا» على إنه إعجاز علمي للسنة، فقالوا إن العلم الحديث قد أثبت هذه الحقيقة التي أخبر بها الحديث، فقد أثبتت أجهزة التصوير العلمية الحديثة الدقيقة لتصوير أعماق البحار، أن في قيعان البحر العميقة ناراً ملتهبة.

واستدل بهذا الحديث باحث آخر على كروية الأرض، فقال: «وذكر رسول الله ﷺ أن الأرض كروية، وأن باطنها فيه نار، إذ قال لمن أراد السفر في البحر الأحمر: «لا تركب البحر...»، أي تحت البحر الأحمر، المائع الناري في جوف الأرض، ومن جهة ثانية بعد المائع الناري، يأتي المحيط الهادي، فلو مررنا خطأً مستقيماً عمودياً من البحر الأحمر، لاخترق الأرض من البحر الأحمر إلى المائع الناري، إلى المحيط الهادي، مما يثبت أيضاً أن الأرض كروية».

تعقيب:

أولاً: هذا الحديث ضعفه الألباني والأرنؤوط.

ثانياً: نلاحظ الاندفاع غير المنضبط في كلام الباحث الثاني، مما أدى به إلى التقول

على الرسول ﷺ وإليك بيان ذلك:

أ- أين ذكر الرسول ﷺ أن الأرض كروية، وأن باطنها فيه نار؟!

كان الأولى أن يقول: يدل الحديث على كذا، أو يفهم منه كذا.

ب - عدم رجوعه إلى المصادر الأصلية، أدى به إلى أن يفهم أن النبي كان يخاطب شخصاً معيناً حاضراً؛ لأن اللفظ الذي أورده هو: «لا تركب» بضمير المخاطب، ولم أجد في سنن أبي داود ولا غيره، وإنما فيه لفظ: «لا يركب» بضمير الغائب. وهذا الخطأ جعله يخطئ في تعيين البحر، بأنه البحر الأحمر، ولو رجع إلى المصادر الأصلية، ووقف على اللفظ الوارد فيها، لما وقع فيما وقع فيه.

٣- وعلى فرض صحة كلامه، فهل تأكد من صحة الحديث ليني على ذلك

ما أراد؟!

٤- وحتى على فرض صحة الحديث، فإنه لا يدل على ما استدل به عليه؛

وذلك:

- أن الحديث يقول: «ناراً» وهو يقول: «مائع ناري».
- وأن وجود المائع الناري في جوف الأرض، يجعل البر والبحر يغطيان هذا المائع، فلو مررنا خطأً مستقيماً عمودياً من البر، في جهة من الأرض، ليخترقها ويمر بالمائع الناري، فيمكن أن يخرج إلى البر من الجهة الأخرى، ولو مررناه من البحر من هذه الجهة، فيمكن أن يخرج إلى البر من الجهة المقابلة، أو العكس، وحينئذ لا يكون لتنصيب الحديث على البحر فائدة.

أما كروية الأرض فأمرٌ مُجمَعٌ عليه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (١٥٠/٥).

المثال الثالث:

استدلال أحد الباحثين بحديث: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرَّت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضَّت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودَّت فهي سوداء مُظلمة» على ما اكتشفه الباحثون في عام ١٩٧٣م من أن في السماء نجومًا سوداء وأنها أشد حرارة من النجوم المشتعلة بلون أبيض، وأن النجوم البيضاء أشد حرارة من النجوم الحمراء التي تشتعل بلون أحمر.

وقالوا إن الباحثين قد عرفوا أن النار السوداء هي أشد أنواع الحرارة التي عرفت حتى اليوم، ولقد أخبر الرسول ﷺ بهذا الحديث الذي يحمل هذه الحقيقة في وقت ما كان يتصور فيه أحد من البشر أن هناك نارًا سوداء على الإطلاق.

وقال باحث آخر: سُئل رئيس أكبر وكالة فضاء في العالم سؤالاً عن السيدم، وعن كُتله المتوهجة الحمراء والبيضاء والسوداء، فقال هذا العالم: «الشمس المشتعلة أنواع ثلاثة؛ شمسٌ مشتعلة باللون الأحمر كشمسنا، وهي في منتصف عمرها، وقد مضى على اتقادها خمسون مليار سنة، وستبقى خمسين مليار سنة أخرى، إنها في منتصف عمرها.

وهناك شمسٌ بعد أن تمرَّ بمرحلة الاحمرار يزداد حجمها زيادةً كبيرةً، ثم تنكمش انكماشاً عظيماً فجأةً، بواقع من مائة إلى واحدٍ من حجمها الأصلي، وعندئذ تصبح بيضاء اللون، وتُشعُّ نوراً أبيض، ولكنه أشدُّ حرارةً بكثيرٍ من اللون الأحمر، فالشمس التي يتغيَّر لونها من اللون الأحمر إلى اللون الأبيض حرارتها أشدُّ بكثيرٍ من حرارة الحمراء.

وبعد ذلك تمرُّ هذه الشمس في مرحلةٍ ثالثة، هي مرحلة التكدس، كما يتكدس المتر المكعب من الحديد بحجم ذرة، لا ترى بالعين، ولا بالمجهر، ومعنى ذلك أن كثافة

هذه الشمس تصبح عالية جداً، ويصبح جذبها شديداً جداً، لدرجة أن النور لا يستطيع منها، ولا يخرج.

سمّاها العلماء الآن الثقوب السوداء، هذه لها قوة جذبٍ مخيفة، فلو أن الأرض دخلت في دائرة جذبها لأصبحت بحجم بيضةٍ مع وزنها نفسه. تصوّر الأرض بقاراتها الخمس، والبحار التي تكون ٧٢٪ من مساحة الأرض، هذه الكتلة الضخمة كلها لو جذبها ثقبٌ أسودٌ لأصبحت بحجم البيضة.

هذه مرحلةٌ ثالثة، حيث لا يستطيع منها نورٌ، وفيها قوة جذبٍ مخيفة، وحرارتها لا تُوصف.

ماذا يكون موقفنا من السنة إذا مرّ بنا حديثٌ شريفٌ قد أتى بهذه الحقيقة قبل ألف وأربعمائة سنة؟ يقول عليه السلام فيما رواه الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمّرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة».

هذا من دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وآله، كيف عرف أن النار أوقد عليها ألف سنة حتى احمّرت؟

تعقيب: هذا الحديث ضعفه الألباني.

ولو قدر أنه صحيح فليست هذه النجوم هي نار جهنم.

نعوذ بالله من التكلف والقول على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وآله بغير علم.

المثال الرابع:

الاستدلال على الإعجاز الغيبي بقصة وعِد النبي صلى الله عليه وآله لسراقة بن مالك رضي الله عنه

بسواري كسرى، وأنه صلى الله عليه وآله قال لسراقة: «كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟». فلما أتى عمر رضي الله عنه بسواري كسرى ومنطقه وتاجه دعا سراقة بن مالك فألبسه إياهما، وقال له: «ارفع يدك»، فقال: «الله أكبر والحمد لله الذي سلبها كسرى بن هرمز، وألبسها سراقة الأعرابي».

قال الباحث: فَمَنْ أَخْبَرَ مُحَمَّدًا بْنَ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْإِنْسَانَ الْهَارِبَ مِنَ الْقَتْلِ بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يَغْنَمُ أُمَّتَهُ كَنُوزِ كَسْرَى وَتَاجِهِ وَيَلْبَسُهَا سَرَاقَةُ الْأَعْرَابِيِّ. **تعقيب:** هذه القصة لا تثبت ^(١) رغم شهرتها في كتب السيرة ^(٢).

المثال الخامس:

استدلال أحد الباحثين على الهدى النبوي في مباشرة النساء بحديث: «لَا يَقَعَنَّ أَحَدُكُمْ عَلَى امْرَأَتِهِ كَمَا تَقَعُ الْبَهِيمَةُ؛ وَلِيَكُنْ بَيْنَهُمَا رَسُولٌ». قيل: «وما الرسولُ؟». قال: «الْقُبْلَةُ وَالْكَلامِ». وربط الباحث بين ذلك والدراسات الحديثة فقال:

«قد قالت دراسة علمية حديثة إن القبلية ليست مجرد بادرة رومانسية بين الأزواج، بل هي مؤشر بيولوجي أساسي تتعلق بالانجذاب الجنسي، وهي تثير تفاعلات واسعة بين مجموعة كبيرة من الهرمونات التي قد تؤدي إلى نجاح العلاقة أو فشلها بعد القبلية الأولى.

وتفترض الدراسة أن القبلية مسؤولة عن نقل مذاق وروائح وأصوات معينة، تساعد على بناء انطباع الشركاء حيال بعضهم البعض، كاشفة أن الأبحاث تشير إلى أن النساء ينجذبن إلى الرجال من أصحاب أجهزة المناعة ذات التركيبة المختلفة عن أجهزتهن، وأن اكتشاف ذلك يتم من خلال القبل!

وتشير إحصائية عمل عليها الدكتور "جوردون جالوب"، أستاذ علم النفس في جامعة "ألبارني" الأمريكية أن ٥٩ في المائة من الرجال و٦٦ في المائة من السيدات كشفن أن انجذابهم نحو شركائهم انتهى بعد القبلية الأولى. وتُظهر أرقام "جالوب" أيضًا إلى أن القبلية لها أهمية كبيرة لدى النساء، تفوق مكانتها لدى الرجال، كما تشير البيانات إلى أن نسبة النساء اللواتي قلن إن القبلية مقدمة أساسية للجماع يفوق بكثير نسبة الرجال من

(١) أما أصل القصة وهي لحاق سراقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصدِّيق فهي ثابتة رواها البخاري، ومسلم.

(٢) انظر: "ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية" للدكتور محمد بن عبد الله العوشن، (ص: ٨٥).

أصحاب الرأي عينه!!

وتؤكد الدكتورة "هيلين فيشر"، أن أبحاثها تشير إلى وجود ثلاثة أنظمة مؤثرة على عمل الدماغ في عملية الحب، وهي نظام الجنس والنظام الرومانسي ونظام الارتباط. حيث أن النظام الجنسي يدفعنا إلى البحث عن شركاء للتكاثر، في حين يدفعنا النظام الرومانسي إلى الاكتفاء بشريك واحد، أما نظام الارتباط، فهو المسؤول عن قدرتنا على "تحمل" هذا الشريك طوال الفترة الكافية لحصول التكاثر.

إن القبة تقوم بتحفيز هذه النظم الثلاث بشكل متزامن، وهذا يؤكد أن القبة هي المحك الحقيقي لإمكانية نجاح العلاقة أو فشلها. وربطت الطيبة الأمريكية الأمر بارتباط القبة بمنطقة دماغية تدعى Somatosensory Cortex وتمتد من أقصى الدماغ إلى أقصاه، ما يجعلها قادرة على الاتصال بالحواس الخمس، وتلقي إشارات من الفم والشفاه واللسان والأنف واليدين.

ومن هنا نفهم أكثر لماذا أمر النبي ﷺ الأزواج بممارسة القبة قبل إتيان زوجاتهم، لأن ممارسة الجنس لا تعني مجرد الاستمتاع وتحقيق شهوات ورغبات في نفس الزوجين، إنما هي عملية منظمة ولها هدف وفائدة.

تعقيب:

هذا الحديث ضعّفه الألباني في "سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة" (١٣/ ١٧٩) برقم ٦٠٧٥.

المثال السادس:

الاستدلال بالحديث الموضوع الذي فيه أن رسول الله ﷺ كان يرى بالليل في الظلمة كما يرى بالنهار في الضوء^(١). والزمع بأن هذا ما توصل إليه العلم بعد ١٤٢٠ عامًا، وذلك عن طريق المناظير الليلية التي ترى بالليل، ورغم ذلك فإن الرسول ﷺ

(١) هذا الحديث رواه ابن عدي والبيهقي في (دلائل النبوة) وقال الألباني: «موضوع».

يتفوق بصريا على هذه المناظير، لأنه كان يرى بالليل بكل وضوح كرؤيتنا نحن بالنهار، أما المناظير الليلية المصنوعة الآن فإنها لا ترى بالليل بشكل واضح، فأكثر هذه المناظير تكون فيها الرؤيا ذات لون واحد، أخضر أو أحمر مثلاً.

المثال السابع:

الاستدلال بالحديث الضعيف الذي فيه أن الله ﷻ قال: «أَبْتُ الْعِلْمَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ حَتَّى يَعْلَمَهُ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ، وَالْعَبْدُ وَالْحُرُّ، وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ بِهِمْ، أَخَذْتُهُمْ بِحَقِّي عَلَيْهِمْ»، والزعم أن في هذا الحديث إخباراً عن وجود الراديو في آخر الزمان.

ولو أنه استدل به على وجود المطابع وكثرتها في جميع أنحاء الأرض، وانتشار الكتب المطبوعة في شتى العلوم، وانتشار التعليم في المدن والقرى لكان أقرب إلى مطابقة ما جاء في الحديث. ولكن الحديث لا يثبت، ويغني عنه قول رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «أَنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ ... طُهُورَ الْقَلَمِ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وقال الأرئوط: إسناده حسن). وقد تقدم في الفصل الرابع "الإعجاز الغيبي".

المثال الثامن:

ادعاء أن النبي ﷺ قد أخبر بوجود آلة التصوير والاستدلال لذلك بما جاء في حديث: «من اقترب الساعة اثنتان وسبعون خصلة - فذكرها ومنها - وحُلِيت المصاحف وصوّرت المساجد وطوّلت المنابر» وهذا الحديث قد رواه أبو نعيم في "الحلية" وهو حديث ضعيف.

وحيث كان الحديث ضعيفاً فلا ينبغي الجزم بأن النبي ﷺ أخبر بما جاء فيه، ولو كان الحديث صحيحاً لكان له وجه غير ما ذكره وهو زخرفة المساجد. وقد كان التصوير بالأيدي موجوداً بكثرة قبل أن توجد آلة التصوير.

المثال التاسع:

القول بأن المظاهرات بدل الغزو والجهاد قد ذكرها النبي ﷺ، واستدل بهذا الحديث الضعيف: «ثَلَاثٌ إِذَا رَأَيْتَهُنَّ فَعِنْدَكَ عِنْدَكَ: إِخْرَابُ الْعَامِرِ، وَإِعْمَارُ الْخَرَابِ،

وَأَنْ يَكُونَ الْغَزْوُ رِفْدًا، وَأَنْ يَتَمَرَّسَ الرَّجُلُ بِأَمَانَتِهِ تَمَرَّسَ الْبَعِيرُ بِالشَّجَرَةِ» (رواه الطبراني في "المعجم الكبير" بإسناد ضعيف). ورواه ابن أبي عاصم في "الجهاد" بلفظ: "وَأَنْ يَكُونَ الْغَزْوُ فِدَاءً"، وهو تصحيف، وإسناده ضعيف أيضًا. وقد رواه البغوي وابن عساكر بلفظ: «إن من أشراط الساعة إخراب العامر، وإعمار الخراب، وأن يكون الغزو فداءً، وأن يتمرس الرجل بأمانته كما يتمرس البعير بالشجرة». وإسناده ضعيف أيضًا.

معنى الحديث:

(وَأَنْ يَكُونَ الْغَزْوُ رِفْدًا): أى أن خراج الغزو يوزع حسب الهوى والقربات بأن يميّز قومًا دون غيرهم لا حسب الاستحقاق. وقيل: المراد بالرغد في الغزو: الإعانة عليه بالاستئجار وبذل العطاء. (يَتَمَرَّسَ الرَّجُلُ بِأَمَانَتِهِ تَمَرَّسَ الْبَعِيرُ بِالشَّجَرَةِ): أى يتلعب ويتعبت بها كما يتحكك البعير بالشجرة ويتعبت بها. وقيل: أراد أن يمارس الفتن ويشادها فيفر بدينه، ولا ينفعه غلوه فيه، كما أن الأجر إذا تحكك في الشجرة أدمته ولم تبرئه من جربه. (البعير): ما صلح للركوب والحمل من الإبل، وذلك إذا استكمل أربع سنوات، ويقال للجمل والناقة. (الأشراط): العلامات.

وفي الحديث تم تصحيف عبارة "وَأَنْ يَكُونَ الْغَزْوُ فِدَاءً" إلى "وَأَنْ يَكُونَ الْغَزْوُ نِدَاءً". ومع الضعف وبعد التصحيف قال الباحث: إن النداء هو رفع أصوات المتظاهرين: يحيا فلان أو يسقط فلان أو يكون كذا وكذا. وهم يعدّون هذه النداءات بأعلى أصواتهم مع تظاهراتهم غزواً وجهاداً أو أعظم من الغزو والجهاد.

المثال العاشر:

استدلال أحدهم على كروية الأرض بحديث لا أصل له، وهو أن رسول الله ﷺ سئل: «هذه المغارب أين تغرب، وهذه المطالع من أين تطلع؟»، فقال: «هي على رسلها، لا تبرح ولا تزول، تغرب عن قوم، وتطلع على قوم، تغرب عن قوم، وتطلع على قوم، فقوم يقولون: غربت، وقوم يقولون: طلعت».

لقد استدل بهذا الحديث الذي لا أصل له على كروية الأرض، فقال: «فلو كانت مسطحة لقال: تطلع وتغرب على جميع سكان الأرض، في زمن واحد».

أما كروية الأرض فأمر مُجمَعٌ عليه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (١٥٠/٥).

المثال الحادي عشر:

استدل أحدهم على ما أثبتته العلم الحديث من الجهات بالنسبة للأجرام السماوية، بهذا الحديث الضعيف:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ وَأَصْحَابُهُ إِذْ أَتَى عَلَيْهِمْ سَحَابٌ فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا؟». فَقَالُوا: «اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ». قَالَ: «هَذَا الْعَنَانُ، هَذِهِ رَوَايَا الْأَرْضِ يَسُوقُهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْكُرُونَهُ وَلَا يَدْعُونَهُ». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَكُمْ؟». قَالُوا: «اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ». قَالَ: «فَإِنَّهَا الرَّقِيعُ سَقْفٌ مَحْفُوظٌ وَمَوْجٌ مَكْفُوفٌ». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا؟». قَالُوا: «اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ». قَالَ: «بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟». قَالُوا: «اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ». قَالَ: «فَإِنَّ فَوْقَ ذَلِكَ سَمَاءَيْنِ وَمَا بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ». حَتَّى عَدَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ مَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟». قَالُوا: «اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ». قَالَ: «فَإِنَّ فَوْقَ ذَلِكَ الْعَرْشَ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ بُعْدٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءَيْنِ».

ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الَّذِي تَحْتَكُمْ؟». قَالُوا: «اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ». قَالَ: «فَإِنَّهَا الْأَرْضُ». ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الَّذِي تَحْتَ ذَلِكَ؟». قَالُوا: «اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ». قَالَ: «فَإِنَّ تَحْتَهَا الْأَرْضَ الْأُخْرَى بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ». حَتَّى عَدَّ سَبْعَ أَرْضِينَ بَيْنَ كُلِّ أَرْضَيْنِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّكُمْ دَلَيْتُمْ رَجُلًا بِحَبْلِ إِلَى الْأَرْضِ السُّفْلَى لَهَبَطَ عَلَى اللَّهِ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد: ٣). (رواه الترمذي، وضعفه الألباني).

استدل به أحدهم فقال: "ويؤخذ من قوله ﷺ بسياق مكان الأرضين، بقوله: «تحتكم» أنه يمثل بذلك الحقيقة التي أدركها العلم الحديث، من أن من كان في أعلى الأجرام السماوية، في المجموعة الشمسية، أنه يرى أرضنا من فوقه، فقوله ﷺ لا

يتناقض مع أي محسوس في هذا الوجود، سواء كان في الأرض، أو في السماء، وسواء كان في صريح منطوق الرسول ﷺ أو في مفهومه، لأنه قد أوتي جوامع الكلم ﷺ.

تعقيب:

الحديث لا يثبت، وعلى فرض صحة الحديث، فلا علاقة لقول النبي ﷺ بما استدل عليه.

المثال الثاني عشر:

الاستدلال على أثر زواج الأقارب الوراثي بحديث: «اغربوا ولا تضووا». وبحديث: «لا تنكحوا القرابة، فإن الولد يخلق ضاويًا». والحديثان لا أصل لهما.

(اغربوا) أي تزوجوا الغرائب، (لا تضووا): تأتوا بأولاد ضاوين مهازيل وكان عندهم أن ابن الرجل من ابنة عمه، يكون صغيرًا ضعيفًا، وإذا كانت غريبة، كان أقوى لولدها وأطول.

استدل بعضهم بهذين الحديثين على أنهما يتفقان مع ما كشفه علم الوراثة، من أن زواج الأقارب، يؤدي إلى أمراض وأضرار تصيب النسل. واستدل عدد كبير من الأطباء، والكتّاب بهذين الحديثين على اتفاق كلام النبي ﷺ مع ما كشفه علم الوراثة، من أن زواج الأقارب، يؤدي إلى أمراض وأضرار تصيب النسل.

فبعضهم أجمل الكلام فقال: «إن زواج الأقارب يؤدي إلى هُزال الذرية وضعفهم»، وبعضهم فصل فقال إن الجنين، يتكون من اندماج الحيوان المنوي - وهو يحمل (٢٣) كروموسومًا - مع البويضة - وهي تحمل العدد نفسه من الكروموسومات، وهذه الكروموسومات تحمل عددًا هائلًا من الصفات الوراثية.

وهذه الصفات الوراثية تنقسم إلى: صفات سائدة: أي قادرة على الظهور على الجنين، أو صفات متنحية: أي ضعيفة لا تظهر بمفردها على الجنين، إلا إذا تقابل اثنان منهما، وبما أن الصفات الوراثية قد تكون سائدة، وقد تكون متنحية، فإن الصفات المتنحية لا تكون ظاهرة، لا في الأب، ولا في الأم، فإذا اتفق وكان الأب والأم كلاهما

يحملان إحدى هذه الصفات المتنحية؛ فإن ربع أولادهم - تقريباً - ستظهر فيهم هذه الصفة المتنحية، بصورة واضحة جلية، وذلك لاجتماع الصفتين في كليهما.

وهذا ما يجعل الزواج بين الأقارب يُظهر الصفات والأمراض المتنحية، التي كانت مخفية، إذ إن كلا من الأب والأم المتقاربين في النسب، يحملان كثيراً من الصفات المشتركة والمتنحية - بحيث إنها لا تظهر عليهم - ولذا إذا اقترنا بالزواج، فإن احتمال ظهور هذه الصفات المتنحية، يصبح كبيراً جداً.

ومثلاً، فإن بعض الأمراض الوراثية، النادرة في المجتمع، يكون احتمال ظهورها في الزوجين البعيدي النسب، لا تزيد عن واحد في الألف، بينما يرتفع احتمال ظهور ذلك المرض الوراثي النادر إلى (٣٥٪)، عندما يكون الزوجان أولاد عم أو خال، أو عمّة أو خالة.

والأمراض الوراثية المتنحية كثيرة جداً، منها الأمراض التي بها خلل في الأيض (الاستقلاب) مثل مرض ويلسون، ومرض تيساك، والبرص الوراثي، والبول الأسود، وعددها يزيد عن مائة مرض معروف لدى الأطباء المختصين.

ولذا فإن الأمراض الوراثية، وخاصة منها ذات الصفات المتنحية، إنما تظهر بصورة جلية وبنسبة أكبر، عند زواج الأقارب.

وذكروا قاعدتين لعلم الوراثة وهما:

الأولى: إذا تباعد مصدر المورثات في التزاوج، قوي النتائج، وقد أُسْتُنبَطَت هذه القاعدة، من نتائج تجارب التزاوج بين الحيوانات، وكذلك من تجارب تلقيح النبات.

الثانية: إذا حمل كل من الأب والأم نفس المورث المعيب، سمح هذا للمرض الوراثي المسود أن يظهر في النتائج، باحتمال واحد من أربعة في كل مناسبة، واحتمال أن يحمل كل من الأب والأم نفس المورث المعيب، يتزايد كلما قربت درجة القرابة بينهما.

وذكروا أنه - في دراسات متعددة، سبق أن أجريت في دولة الكويت - تبين أن نسبة حدوث الولادات المبكرة، أعلى في زيجات الأقارب (9.89٪) عنها في زيجات

الأبعاد (٤٦, ٧ ٪)، ومتوسط وزن المولود في زيجات الأقارب (3274) جم، أقل من متوسط الوزن في زيجات الأبعاد (٣٣٢٦) جم.

ونسبة حدوث بعض الأمراض الوراثية، في زيجات الأقارب، أعلى منها في زيجات الأبعاد، وكان أهم هذه الأمراض - من ناحية الأهمية العلمية - هو نوع الضعف العقلي المسمى (الطفل المنغولي)، حيث كان هناك (١٤) حالة بين (٣٩٨٩) زيجة بين الأقارب، أي نسبة (٥, ٣/ألف) في مقابل (٦) حالات بين (٧٤٣٦) زيجة بين زيجات الأبعاد، أي نسبة (٨, ٠/ألف).

والجديد في هذا البحث، أن مرض (الطفل المنغولي) ينتج عن خلل في انقسام الصبغيات، والاستنتاج العلمي هنا أن هذه الحالة تتأثر بمورث مسود، وعلى ذلك يزيد حدوثها بين زيجات الأقارب.

ونقلوا عن جريدة الأهرام: أن الدكتور/ فؤاد الشرييني قام بدراسة جاء فيها: أن زواج الأقارب تسبب في إصابة الأطفال باضطرابات أجهزة المناعة والحساسية، التي تُضعف مقاومة الأطفال للميكروبات، ومن أهم الأمراض: (أنيميا البحر المتوسط)، وهو نوع من النقص في الهيموجلوبين (فقر الدم)، ومرض السكري، والنقرس، والاضطرابات الكيماوية، وضعف الإبصار، وهذه من الأمراض التي تظهر في الجيل الثاني مباشرة، ولقد بلغت نسبة ضعف الإبصار بالوراثة إلى (٥٠٪) من مجموع حالات ضعف الأبصار، ويكون للأطفال بالوراثة استعداد لمرض القلب، والربو الشعبي، والصرع، والصمم، ولا يشترط أن يكون أحد الأبوين مصابًا، ولكن تكفي قرابتهما لينال الطفل ما كان عند الجدود.

ومن الدراسات التي قام بها معهد الصحة العالي، دراسة جاء مفادها: أن حالات تسمم الحمل، ووفيات أطفال المهد والرضع، تتضاعف في زواج الأقارب عن غيره.

تعقيب:

لعل من يسمع هذا التهويل، في أضرار زواج الأقارب، يقول وداعاً يا زواج الأقارب، لا لقاء بعده، ولكن ليس كل ما قالوه صحيح:

أولاً: إن النصوص التي دعموا بها آراءهم في زواج الأقارب ليس لها أصل، ولا تصح، بل إن النصوص الشرعية الصحيحة على عكس هذا الذي ذهبوا إليه، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ أَتَيْتَ أُجُورَهُمْ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ (الأحزاب: ٥٠).

وكذلك فعل النبي ﷺ، فقد تزوج من أقربائه، وزوج بناته لأقربائه، ثم لو كان في زواج الأقارب ضرر، لبيّنه النبي ﷺ.

ثانياً: إن ما ذكره من أضرار وأمراض، ناتجة عن زواج الأقارب؛ لم يسلم بها عدد من أقرانهم من الأطباء.

فقد قدم الدكتور/ أحمد شوقي إبراهيم، والدكتور/ محمد كمال نجيب، والدكتورة/ صديقة علي العوضي، بحثاً بعنوان: "زواج الأقارب ما له وما عليه" إلى "المؤتمر الطبي الإسلامي الدولي عن الشريعة الإسلامية، والقضايا الطبية المعاصرة"، والذي عقد في القاهرة عام ١٩٨٧م، بالتعاون بين الأزهر وكلية الطب بجامعة عين شمس. وقد جاء فيه أننا إذا نظرنا إلى زواج الأقارب، من الناحية الوراثية البحتة، نجد أن زواج الأقارب، في حد ذاته، لا يعتبر العامل المؤثر على صحة الإنسان، ولكنه يلعب مثل دور مفتش المباحث في إظهار الجريمة، فدور زواج الأقارب هو تجميع الجينات المريضة الموجودة في أفراد الأسرة، وإظهار تأثيرها في الجيل الذي ينتج عن هذا النوع من الزواج.

ونظراً لما لزواج الأقارب من أهمية علمية، فقد قام مركز الأمراض الوراثية بالكويت، بعمل بحثين عنه:

البحث الأول: تحديد حجم مشكلة زواج الأقارب في دولة الكويت، وتأثير هذا النوع من الزيجات، على الإجهاض، وموت الجنين، سواء كان قبل الولادة مباشرة أو بعدها، وأسفر البحث عن الآتي:

أولاً: من بين (٥٠٠٧) أسرة كويتية شملها البحث، من مختلف مناطق الكويت، ومثلة للأسرة الكويتية تمثيلاً إحصائياً، كانت نسبة زواج الأقارب (٥٤٪)، منهم (٥, ٣٠٪) أولاد عمومة وما شابهها.

ثانياً: بين البحث وجود زيادة طفيفة في نسبة موت الأطفال، خلال الأسبوع الأول والشهر الأول، الناتجين عن زواج الأقارب (٢, ١٤٪، ٩٧, ٢٪ تبعاً)، عن نسبة موت الأطفال في خلال هذا العمر الناتجين من زواج الأبعاد (٩٧, ١٣٪، ٥٤, ٢٪)، إلا أننا نلاحظ أن الفرق غير ذي مدلول إحصائي.

ثالثاً: لا يوجد نمط محدد في زيادة الإجهاض، ونزول الأجنة ميتة، كلما ازدادت درجة القرابة، وكان الاستنتاج من هذا البحث هو: أنه لا يوجد نمط في الزيادة في الإجهاض وموت الجنين، كلما ازدادت درجة القرابة.

أما البحث الثاني فكان عن نسب الخلل الكروموسومي، بأطفال الأزواج الأقارب بعد إعلان كثير من الدوائر، بوجود علاقة بين زواج الأقارب والخلل في الصبغيات.

وافترض هذا الفرض، اعتماداً على وجود أكثر من فرد، في العائلة الواحدة يعاني من خلل كروموسومي، ولقد عزى السبب إلى وجود جين متنحٍ، بسبب عدم انفصال الصبغيات أثناء الانقسام، وأن هذا الجين يظهر تأثيره في زواج الأقارب، الذي يؤدي إلى وجود هذا الجين، بجرعة مزدوجة، في الذرية الناتجة عن زيجات الأقارب.

فتم اختيار عشوائي لمائة أسرة، تبين بالتحليل (السيولوجي)، أن أحد أفرادها يعاني من خلل الصبغيات، وقام المركز بالتحليل الإحصائي لهذه العينة، وبالمقابل تم اختيار مائة أسرة أخرى، اختياراً إحصائياً كعينة مقارنة، وتم التوصل إلى الآتي:

أولاً: أن نسبة زواج الأقارب بين المرضى هي ٤٦٪، وفي العينة المقارنة ٣٤٪. ثانياً: أنه لا يوجد فرق ذو مدلول إحصائي في الإجهاض، أو ولادة الجنين ميتاً، في العينة الناتجة من زواج الأقارب، عنها في العينة الناجمة من زواج الأبعد. ثالثاً: يوجد فرق إحصائي بين عمر الأم، في العينة الناجمة من زواج الأقارب، والتي نجمت من زواج الأبعد، وهذا الفارق يرجعه كثير من العلماء على أنه المسبب في خلل الصبغيات.

رابعاً: قام الباحث بتحليل هذه النتائج، بطرق إحصائية عديدة، مفترضاً أن زواج الأقارب له تأثير في الخلل الصبغي، لكن كانت النتائج ترفض هذا الافتراض. من هذا استنتج الباحث عدم وجود مثل هذا الجين، وبالتالي فإن زواج الأقارب لا يلعب دوراً هاماً في مثل هذه الأمراض، وإذا كان له دور، فإن هذا الدور ليس عن طريق وجود جين متنح، وتتفق هذه النتائج مع النتائج التي توصل لها بعض العلماء مثل:

“ Kwiterovich et al (1966), Matsunaga (1966), Forssman and akesson (1967), Stene (1977) and Juberg & Daois (1978) ” .

وهنا تجدر الإشارة إلى أهمية مدة ممارسة زواج الأقارب في المجتمع، وهل هي ظاهرة تاريخية قديمة، واسعة الانتشار، أو قريبة العهد قليلة الحدوث؟ وإذا كانت هذه العادة قائمة من قديم الزمان، فإن زواج الأقارب لا بد أنه أفضى - من زمن بعيد - إلى إظهار الأمراض، وهي كثيراً ما تكون قاتلة، بمعنى أنه خلص المجتمع فعلاً من مورثين مرضيين، ونقاه بمرور الزمان من الجينات المرضية، أما إذا كان زواج الأقارب، ممنوعاً في المجتمع أو نادراً، فإن هذا المنع سوف يؤدي إلى بقاء كثير من الأفراد، يحملون المورثات المرضية، وبالتالي فإن فرصة احتمال تزاوج شخصين غير أقرباء، يحملان المورثات المرضية لمرض معين، تكون كبيرة، ومن ثم ظهور هذا المرض في هذه المجتمعات، وخير مثال على ذلك مرض Cystic Fibrosis Of Pancreas، وهذا المرض محكوم بمورث متنح، منتشر في بريطانيا، رغم ندرة زواج الأقارب فيها، ويرجع

ذلك إلى وجود نسبة عالية من حاملي المرض، مما يؤدي إلى زيادة فرصة تزاوج حاملي هذا المرض، وبالتالي ظهوره بين ذريتهم.

كما سبق يتضح أن المنع والإباحة، لن يمنعا ظهور الأمراض الوراثية منعاً مطلقاً، والتي تتحكم فيها الجينات المرصية المتنحية، شرط وجود هذه الجينات في المجتمع، أي: العملية هي تضحية جيل محل جيل آخر، فإذا لم يوجد زواج الأقارب، فإن الأجيال القادمة هي التي سوف تعاني من هذه الأمراض، أما إذا كان هذا النوع من الزيجات موجوداً، فإن الأجيال الأولى هي التي سوف تعاني، من أجل نقاء الأجيال القادمة، وكأن الله تعالى أراد بهذه الإباحة المتحفظة، أن يعمل على الاتزان الطبيعي، فالإباحة الكاملة تؤدي في النهاية إلى ظهور الأمراض، أما الوسط فهو يساعد على الاتزان الطبيعي.

وهذا البحث الذي قدموه من الأهمية بمكان، وذلك لأنه من الأبحاث الحديثة، ولأنه قد طرح في مؤتمر دولي، وهذه المؤتمرات لا تُقبل فيها الأبحاث، إلا بعد المرور على لجان متخصصة في نقد الأبحاث وتقويمها.

كما أنه موافق لرأي الدكتور/ أحمد الكباريتي - وهو أستاذ علم الوراثة بجامعة الكويت سابقاً - فقد نشرت جريدة المسلمون في العدد (٨٢) بتاريخ ٢٥/ذي الحجة/١٤٠٦هـ) مقالاً بعنوان: "زواج الأقارب بين العلم والدين" للدكتور أحمد السالوس، قال فيه: «قد دعيت إلى الاشتراك في ندوة، موضوعها: "زواج الأقارب بين العلم والدين"، وأسند بيان الجانب العلمي للدكتور/ أحمد الكباريتي - أستاذ علم الوراثة بجامعة الكويت آنذاك - وكان عليّ أن أتحدث في الجانب الديني، وقبل أن أبدأ النتيجة التي انتهت إليها، أذكر أولاً ما وصل إليه الدكتور/ الكباريتي:

تناول الدكتور/ الكباريتي الجانب العلمي في الموضوع، حيث قلب الشائع الذي يقول بأن زواج الأقارب يسبب الأمراض الوراثية، وقال: «إن هذا اعتقاد خاطئ، ودلل على ذلك بنظريات حديثة تؤكد ذلك، وقال: إنه نتيجة للبحث العلمي، في مجتمع ينتشر فيه زواج الأقارب، وآخر يكثر فيه زواج الأبعد، وثالث يكثر فيه الزواج بين

أجناس مختلفة، ثبت عدم وجود أي فرق بين هذه المجتمعات، من حيث انتشار الأمراض الوراثية، هذه خلاصة ما ذكره أستاذ علم الوراثة».

ثم قال الدكتور/ السالوس: «وعندما قمت بدراستي للموضوع، انتهيت إلى نتيجة لا تتعارض مع النتيجة السابقة، على الرغم مما شاع قديماً وحديثاً، من أن زواج الأقارب يأتي بنسل ضعيف».

وذكر أن النبي ﷺ زوّج وتزوّج من أقاربه، فكيف ينهى عن شيء، ويفعله هو نفسه ﷺ وهو ليس من خصوصياته؟!!

ثم نقل عن ابن حزم رحمه الله أنه قال: «وَإِنَّمَا تَخَيَّرْنَا نِكَاحَ الْأَقَارِبِ، لِأَنَّهُ فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يُنْكَحْ بَنَاتِهِ إِلَّا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي عَبْدِ شَمْسٍ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١) (١).

من الأخطاء التكاف فيما يسمونه الإعجاز العددي

* ومن الأخطاء في الإعجاز العلمي التكلف فيما يسمونه الإعجاز العددي، وقد شُغِفَ به كثير من الناس فنشروا في الصحف والمجلات وشبكات الإنترنت قوائم بألفاظ تكررت مرات تتناسب مع لفظها، أو تساوى عددها مع ما يضادها، كما زعموا في تكرار لفظة "يوم" (٣٦٥) مرة، ولفظ "شهر" (١٢) مرة، وهكذا فعلوا في ألفاظ أخرى نحو "الملائكة والشياطين" و"الدنيا والآخرة" إلخ.

وقد ظنَّ كثيرٌ من الناس صحة هذه التكرارات وظنوا أن هذا من إعجاز القرآن، ولم يفرقوا بين "اللطيفة" و"الإعجاز"، فتأليف كتابٍ يحتوي على عدد معيّن من ألفاظٍ معيَّنة أمرٌ يستطيعه كل أحدٍ، فأين الإعجاز في هذا؟

والإعجاز الذي في كتاب الله ﷻ ليس هو مثل هذه اللطائف، بل هو أمر أعمق وأجلّ من هذا بكثير، وهو الذي أعجز فصحاء العرب وبلغاءهم أن يأتوا بمثل القرآن أو بعشر سورٍ مثله أو بسورة واحدة، وليس مثل هذه اللطائف التي يمكن لأي كاتب أن يفعلها - بل وأكثر منها - في كتاب يؤلفه، فليُتنبّه لهذا.

إن التوافقات العددية في القرآن الكريم ليست من الإعجاز، ويمكن أن نطلق عليها مصطلح الظاهرة العددية في القرآن الكريم، فهي ظواهر عددية في القرآن الكريم، وليست أمرًا معجزًا يُدرج ضمن بحوث الإعجاز، وعليه فيجب أن يفرق بين الظاهرة العددية في القرآن وبين الإعجاز العددي فيه.

وقد جرَّ هذا الفعل بعض أولئك إلى ما هو أكثر من مجرد الإحصائيات، فراح بعضهم يحدد بتلك الأرقام "زوال دولة إسرائيل" وتعدى آخر إلى "تحديد يوم القيامة"، ومن آخر ما افتروه على كتاب الله تعالى ما نشره من أن القرآن فيه إشارة إلى "تفجيرات أبراج نيويورك"! من خلال رقم آية التوبة وسورتها وجزئها، وكل ذلك من العبث في كتاب الله تعالى، والذي كان سببه الجهل بحقيقة إعجاز كتاب الله تعالى.

وبالتدقيق في إحصائيات أولئك الذين نشروا تلك الأرقام وُجد أنهم لم يصيبوا في عددهم لبعض الألفاظ، وُوجِدَت الانتقائية من بعضهم في عدّ الكلمة بالطريقة التي يهواها، وكل هذا من أجل أن يصلوا إلى أمرٍ أرادوه وظنوه في كتاب الله تعالى.

وقد قدّم الدكتور "أشرف عبد الرزاق قطنه" دراسة نقدية على الإعجاز العددي في القرآن الكريم، وأخرجه في كتاب بعنوان: "رسم المصحف والإعجاز العددي، دراسة نقدية في كتب الإعجاز العددي في القرآن الكريم" وخلص في خاتمة الكتاب الذي استعرض فيه ثلاثة كتب هي: (١) كتاب "إعجاز الرقم ١٩" لمؤلفه باسم جرار، (٢) كتاب "الإعجاز العددي في القرآن" لعبد الرزاق نوفل، (٣) كتاب "المعجزة" لمؤلفه عدنان الرفاعي، وخلص المؤلف إلى نتيجة عبّر عنها بقوله:

«وصلتُ بنتيجة دراستي إلى أن فكرة الإعجاز العددي "كما عرضتها هذه الكتب" غير صحيحة على الإطلاق، وأن هذه الكتب تقوم باعتماد شروط توجيهية حيناً وانتقائية حيناً آخر، من أجل إثبات صحة وجهة نظر بشكل يسوق القارئ إلى النتائج المحددة سلفاً، وقد أدت هذه الشروط التوجيهية أحياناً إلى الخروج على ما هو ثابت بإجماع الأمة، كمخالفة الرسم العثماني للمصاحف، وهذا ما لا يجوز أبداً، وإلى اعتماد رسم بعض الكلمات كما وردت في أحد المصاحف دون الأخذ بعين الاعتبار رسمها في المصاحف الأخرى، وأدت كذلك إلى مخالفة مبادئ اللغة العربية من حيث تحديد مرادفات الكلمات وأضدادها»^(١).

وقد ذكر الدكتور فهد الرومي أمثله على اختيار الدكتور عبد الرزاق نوفل الانتقائي للكلمات حتى يستقيم له التوازن العددي، ومن ذلك قوله: إن لفظ اليوم ورد في القرآن (٣٦٥) مرة بعدد أيام السنة، وقد جمع لإثبات هذا لفظي "اليوم"، "يوماً"

(١) رسم المصحف والإعجاز العددي، دراسة نقدية في كتب الإعجاز العددي في القرآن الكريم، (ص ١٩٧).

وترك "يومكم" و"يومهم" و"يومئذ"؛ لأنه لو فعل لاختلف الحساب عليه! وكذلك الحال في لفظ "الاستعاذة" من الشيطان ذكر أنه تكرر (١١) مرة، يدخلون في الإحصاء كلمتي "أعوذ" و"فاستعد" دون "عدت" و"يعوذون" و"أعيذها" و"معاذ الله" (١).

وبعض الدراسات التي يتوصل لها بعض الباحثين ليست ذات قيمة علمية، أي أنها ليست ذات معنى علمي مفيد، بل هي عبثٌ يُنزه عنه كلامُ الله ﷻ، وتضان الدراسات المتعلقة به عن مثله، وهالكٌ مثلاً ذكره أحد أشهر المهتمين بالدراسات العددية في القرآن الكريم حيث يقول: «إنَّ سورة النمل تُستهلَّ بـ (طس) وقد لفت انتباهنا أنَّ حرف الطاء يتكرر في السورة ٢٧ مرّة، وهذا هو ترتيب سورة النمل في المصحف، وأنَّ تكرار حرف السين في سورة النمل هو ٩٣ وهذا هو عدد آيات السورة، وأنَّ المجموع هو: (٩٣ + ٢٧) = ١٢٠ وهذا هو جُمْل (٢) كلمة (نمل)» أ. ه كلامه.

فهذا المثال على فرض التسليم بصحة ما تضمنه من أرقام وحساب، فإن المحصلة النهائية له ليست ذات قيمة علمية أو عملية، فضلاً عن أنها ليست أمراً معجزاً في ذاتها، فأين هذا من وصف ربنا جل وعلا لكتابه الكريم بقوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩).

(١) انظر: "اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر" (٢ / ٦٩٩، ٧٠٠) بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ.

(٢) انظر الكلام عن حساب الجُمَّل في الصفحات التالية.

من الأخطاء فيما يسمونه الإعجاز العددي: إقحام حساب الجُمَّل في القرآن الكريم:

من أوضح الأمثلة على الأخطاء فيما يسمونه الإعجاز العددي استدلال بعضهم بحساب الجُمَّل على الإعجاز العددي في القرآن الكريم. فما هو حساب الجُمَّل؟ حساب الجُمَّل طريقة لتسجيل الأرقام والتواريخ باستخدام الحروف الأبجدية، إذ يعطى كل حرف رقماً معيناً يدل عليه. ومن تشكيلة هذه الحروف ومجموعها يصلون إلى ما تعنيه من تاريخ مقصود، فمثلاً بدلاً من كتابة التاريخ يكتبون كلمات لو أبدلنا كل حرف بقيمته وجدنا ذلك التاريخ. وبالعكس كانوا يستخدمون الأرقام للوصول إلى النصوص.

وهو حساب استُخدم في بلاد الهند قديماً، وعند اليهود؛ فالأبجدية العبرية تتطابق مع الأبجدية العربية حتى حرف التاء (أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت) أي تتكون من ٢٢ حرفاً وتزيد العربية: (ثخذ، ضطغ).

طريقة الحساب: تقوم هذه الطريقة على إعطاء كل حرفٍ من حروف الهجاء قيمة عددية ثابتة ولا تتغير، فالحروف الرقمية تمثل كل الحروف الأبجدية (٢٨ حرفاً) وكل حرف له مدلوله الرقمي، وتبدأ برقم ١ وتنتهي عند الرقم ١٠٠٠ وهي موضوعة في الجدول التالي:

أ	1	ح	8	س	60	ت	400
ب	2	ط	9	ع	70	ث	500
ج	3	ي	10	ف	80	خ	600
د	4	ك	20	ص	90	ذ	700
هـ	5	ل	30	ق	100	ض	800
و	6	م	40	ر	200	ظ	900
ز	7	ن	50	ش	300	غ	1000

ثم بعد ذلك يلجأون إلى التركيب للتعبير عن الأعداد من ٢٠٠٠ وحتى ٩٠٠٠, ٠٠٠٠، وذلك عن طريق القاعدة المرتكزة على حرف الغين (غ) كما في الجدول التالي.

100,000	قغ	2000	بغ
200,000	رغ	3000	جغ
300,000	شغ	4000	دغ
900,000	ظغ	9000	طغ
1,000,000	غغ	10,000	ينغ
		20,000	كغ

فمثلاً إذا أرادوا كتابة الرقم (١٢٤٠) كتبوا "مرغ"، لأن الميم ٤٠، والراء ٢٠٠، والغين ١,٠٠٠.

وقد وظّف المسلمون حساب الجُمَّل في تثبيت التاريخ، فبعد انتشار الإسلام وتوسُّع رقعة الخلافة الإسلامية وقيام دولتها الكبرى دعت الحاجة إلى الحساب واستخدام الأرقام للعدِّ، فاقتبس عندها المسلمون من فتوحاتهم حساب الجُمَّل. وقد استمر حساب الجُمَّل زمنًا طويلاً، يستعمله العرب في علومهم، وتجارتهم، وجداولهم الفلكية، وحساب أوزانهم، وكذلك في التأريخ للمعارك، والوفيات والأبنية وغيرها.

حساب الجُمَّل وعبقريته استخدامه:

يقال إنه عندما توفي السلطان الظاهر برقوق أول سلاطين المماليك البرجية، قام بعض الظرفاء بصياغة عبارة تحدد تاريخ وفاته فقال: «وفاة برقوق في المشمش»، وعندما نحسب تاريخ وفاة برقوق وهي "في المشمش" يكون الناتج:

"وفاة برقوق ٨٠١" هجرية وذلك صحيح.

ويقال أيضًا إن شاعرًا يسمى الدلنجاوي مات فرثاه صديقٌ له فقال:

سَأَلْتُ الشُّعْرَ هَلْ لَكَ مِنْ صَدِيقٍ وَقَدْ سَكَنَ الدَّلْنَجَاوِيُّ لِحَدَّهُ
فَصَاحَ وَخَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ وَأَصْبَحَ رَاقِدًا فِي الْقَبْرِ عِنْدَهُ
فَقُلْتُ لِمَنْ يَقُولُ الشُّعْرَ أَقْصِرُ لَقَدْ أَرَّخْتُ: مَاتَ الشُّعْرُ بَعْدَهُ

ويتضح لنا أن تاريخ الوفاة يكون في معرفة حساب العبارة "مات الشعر بعده"،

فيكون الحساب:

$$(١١٢٣) = (٥ + ٤ + ٧٠ + ٢ + ٢٠٠ + ٧٠ + ٣٠٠ + ٣٠ + ١ + ٤٠٠ + ١ + ٤٠)$$

وذلك يعني أن الشاعر الدلنجاوي توفي في عام ١١٢٣ للهجرة.

إقحام حساب الجُمَّل في القرآن الكريم:

وقد حاول بعض الباحثين إقحام حساب الجُمَّل في القرآن الكريم، وكأن الله تعالى رتب كلمات كتابه وحروفه وآياته وسوره بناءً على هذا الحساب. ويجب علينا أن ننزه كتاب الله ﷻ عن هذا العبث، فهذه الحسابات من اصطلاح البشر وتختلف من شعب لآخر.

أهم عيوب أبحاث حساب الجُمَّل:

١- أنه لا يوجد منهج ثابت في أي بحث حتى الآن، وهذا الأمر طبيعي لأن الباحث لو حاول اتباع منهج ثابت وعلمي في حساب الجُمَّل، فإنه لن يحصل على شيء! لأن هذا الحساب لا يقوم على شيء! وجميع النتائج التي وصل إليها الباحثون في هذا النوع من أنواع الحساب مضطربة وغير مضطردة، أي لا توجد لها قاعدة علمية ثابتة. فتجد أحدهم يسوق مائة مثال ولا تكاد تجد مثالين متطابقين من حيث المنهج، فهو يجمع الحروف في المرة الأولى، وفي المثال الثاني يجمع أرقام السور، وفي المثال الثالث

يجمع أرقام الآيات مثلاً، وفي الرابع يعدّ الكلمات وفي الخامس يعدّ السور أو الآيات وفي السادس يجمع أرقام السور مع أرقام الآيات وفي السابع يحصي ترتيب الكلمات وهكذا

...

والسؤال: لماذا لا يجمع أرقام السور دائماً؟ لماذا لا يجمع أرقام الآيات دائماً؟ ولماذا لا يتبع منهجاً ثابتاً؟ إن هذا الاضطراب في المنهج وعدم الثبات هو أكبر دليل على أن هذا الحساب خاطئ، والله تعالى أعلم.

٢- هنالك خلل في هذا الحساب وهو أنه لا توجد له قاعدة للتقييم، فلماذا يأتي حرف الألف ومن ثم حرف الباء ومن ثم حرف الجيم وفق قاعدة أبجد هوز؟ يجب أن يكون لدينا إجابات منطقية، لأن الهدف من الإعجاز الرقمي هو إقناع الملحدّين بصدق القرآن، فكيف نقنعهم بشيء لا أساس له؟

٣- حساب الجُمَّل نفسه لا يقوم على أساس منطقي، فهو مجرد اصطلاح من جماعة من الناس، ولكنه اصطلاح تحكُّمي محض، لا يقوم على منطق من عقل أو علم. فمن الذي رتب الحروف على هذا النحو: أ ب ج د هـ و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت ث خ ذ ض ظ غ؟ ولماذا لم تُرتب هكذا: أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز إلخ؟ أو تترتب على أي نحو آخر؟

ومن الذي جعل للألف رقم (١) والباء رقم (٢) وهكذا آحاداً إلى حرف ط، ثم أعطى للحرف (ي) رقم (٢٠) وللحرف ك (٣٠) وهكذا الزيادة بالعشرات إلى الحرف الذي يعادل (١٠٠) وبعده تكون الزيادة بالمئات. لماذا لم تكن الزيادة آحاداً إلى آخر الحروف؟ ولماذا لم تبدأ بعشرة أو بمائة أو بألف؟ ولماذا لم تكن هكذا: أ (١)، و ب (١٠)، و ج (٢٠) وهكذا؟ ولماذا لم تكن هكذا: ١، ١٠، ١٠٠، ١٠٠٠ إلخ...؟ ولماذا ولماذا؟ كل هذا تحكم من واضعيه المصطلحين عليه. صحيح أنه لا مشاحة في الاصطلاح، ولكن هذا لا يُلزم أحداً.

٤ - يحتجون بحديث ضعيف:

يحتج أصحاب حساب الجُمَّل بحديث ضعيف ورد عن النبي ﷺ، يقول الإمام الحافظ ابن كثير رحمته في تفسيره للحروف المقطعة «آلَمَ»: «وَأَمَّا مَنْ زَعَمَ أَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمُدَدِ، وَأَنَّهُ يُسْتَخْرَجُ مِنْ ذَلِكَ أَوْقَاتُ الْحَوَادِثِ وَالْفِتَنِ وَالْمَلَاحِمِ، فَقَدْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَطَارَ فِي غَيْرِ مَطَارِهِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَدْلُ عَلَى بُطْلَانِ هَذَا الْمُسْلَكِ مِنَ التَّمَسُّكِ بِهِ عَلَى صِحَّتِهِ.

وَهُوَ مَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ، صَاحِبُ الْمُعَاذِي، حَدَّثَنِي الْكَلْبِيُّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَبَّابٍ، قَالَ: مَرَّ أَبُو يَاسِرٍ بْنُ أَحْطَبَ، فِي رِجَالٍ مِنْ يَهُودَ، بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ يَتْلُو فَاتِحَةَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿آلَمَ ۝١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١ - ٢) فَاتَى أَحَاهُ حَيِّيَّ بْنَ أَحْطَبَ فِي رِجَالٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ: «تَعْلَمُونَ - وَاللَّهِ - لَقَدْ سَمِعْتُ مُحَمَّدًا يَتْلُو فِيهَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿آلَمَ ۝١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ»، فَقَالَ: «أَنْتَ سَمِعْتَهُ؟»، قَالَ: «نَعَمْ».

فَمَشَى حَيِّيُّ بْنُ أَحْطَبَ فِي أَوْلِيَاكَ النَّفَرِ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: «يَا مُحَمَّدُ، أَلَمْ يَذْكَرْ أَنَّكَ تَتْلُو فِيهَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ: ﴿آلَمَ ۝١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ؟». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَلَى». فَقَالُوا: «جَاءَكَ بِهَذَا جِبْرِيلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟»، فَقَالَ: «نَعَمْ». قَالُوا: «لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ قَبْلَكَ أَنْبِيَاءَ مَا نَعْلَمُهُ بَيْنَ لِنَبِيِّ مِنْهُمْ مَا مُدَّةٌ مُلْكِهِ وَمَا أَجَلُ أُمَّتِهِ غَيْرِكَ».

فَقَامَ حَيِّيُّ بْنُ أَحْطَبَ، وَأَقْبَلَ عَلَى مَنْ كَانَ مَعَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: «الْأَلِفُ وَاحِدَةٌ، وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ، وَالْمِيمُ أَرْبَعُونَ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً، أَفَتَدْخُلُونَ فِي دِينِ نَبِيِّ، إِنَّمَا مُدَّةٌ مُلْكِهِ وَأَجَلُ أُمَّتِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً؟».

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، هَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ؟»، فَقَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: «مَا ذَلِكَ؟». قَالَ: ﴿الْمَصَّ﴾ (الأعراف: ١)، قَالَ: «هَذَا أَثْقَلُ وَأَطْوَلُ، الْأَلِفُ وَاحِدَةٌ، وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ، وَالْمِيمُ أَرْبَعُونَ، وَالصَّادُ سَبْعُونَ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ

وَمِائَةٌ سَنَةٍ. هَلْ مَعَ هَذَا يَا مُحَمَّدٌ غَيْرُهُ؟» قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: «مَا ذَاكَ؟». قَالَ: «الرَّ». قَالَ: «هَذَا أَثْقَلُ وَأَطْوَلُ، الْأَلِفُ وَاحِدَةٌ، وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ، وَالرَّاءُ مِائَتَانِ. فَهَذِهِ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ وَمِائَتَا سَنَةٍ. فَهَلْ مَعَ هَذَا يَا مُحَمَّدٌ غَيْرُهُ؟» قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: «مَاذَا؟». قَالَ: «الرَّ». قَالَ: «فَهَذِهِ أَثْقَلُ وَأَطْوَلُ، الْأَلِفُ وَاحِدَةٌ، وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ، وَالْمِيمُ أَرْبَعُونَ، وَالرَّاءُ مِائَتَانِ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ وَمِائَتَانِ»، ثُمَّ قَالَ: «لَقَدْ لَبَّسَ عَلَيْنَا أَمْرُكَ يَا مُحَمَّدُ، حَتَّى مَا نَدْرِي أَقَلِيلًا أَعْطِيتَ أَمْ كَثِيرًا». ثُمَّ قَالَ: «قَوْمُوا عَنْهُ».

ثُمَّ قَالَ أَبُو يَاسِرٍ لِأَخِيهِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، وَلَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْأَحْبَارِ: «مَا يُدْرِيكُمْ؟ لَعَلَّهُ قَدْ جُمِعَ هَذَا لِ مُحَمَّدٍ كُلُّهُ إِحْدَى وَسَبْعُونَ وَإِحْدَى وَثَلَاثُونَ وَمِائَةٌ وَإِحْدَى وَثَلَاثُونَ وَمِائَتَانِ وَإِحْدَى وَسَبْعُونَ وَمِائَتَانِ، فَذَلِكَ سَبْعُمِائَةٍ وَأَرْبَعُ سِنِينَ». فَقَالُوا: «لَقَدْ تَشَابَهَ عَلَيْنَا أَمْرُهُ»، فَبَزَعُمُونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِيهِمْ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (آل عمران: ٧).

فَهَذَا (١) مَدَارُهُ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ السَّائِبِ الْكَلْبِيِّ، وَهُوَ مِمَّنْ لَا يُخْتَجُّ بِمَا انْفَرَدَ بِهِ، ثُمَّ كَانَ مُقْتَضَى هَذَا الْمُسْلَكِ إِنْ كَانَ صَحِيحًا أَنْ يُحْسَبَ مَا لِكُلِّ حَرْفٍ مِنَ الْحُرُوفِ الْأَرْبَعَةِ عَشَرَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، وَذَلِكَ يَبْلُغُ مِنْهُ جُمْلَةٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنْ حُسِبَتْ مَعَ التَّكْرُرِ فَاتَمَّ وَأَعْظَمُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ (٢).

ومع ضعف الحديث يمكن أن يُطرح سؤال:

إذا كان النبي ﷺ لا يعرف مدة هذا الدين، وكثير من الناس سألوه عن يوم القيامة فنزلت عليه آيات كثيرة تؤكد أنه لا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله، فكيف يوافقهم النبي ﷺ على حساباتهم أن الحروف المقطعة بحساب الجُمَّل هي مدة هذا

(١) أي هذا الحديث.

(٢) تفسير ابن كثير، (١/ ٣٨). وهذه القصة قد ضعفها أيضًا السيوطي في "الدر المشهور" (٢/١) والشوكاني في "فتح القدير" (١/ ٣١)، وأحمد شاكر في تحقيقه لـ "تفسير الطبري" (١/ ٢١٨).

الدين؟ المنطق يفرض في هذا الموقف أن يرد عليهم ﷺ بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٧).

ومن غير المعقول أن النبي ﷺ يوافق اليهود على حسابهم ليوم القيامة، لأن الذي يقرأ هذا الحديث يفهم منه موافقة النبي ﷺ على أن الحروف المقطعة كأنما نزلت لتحديد يوم القيامة، وهذا ما فهمه أحد شياطين الإنس - وهو رشاد خليفة الذي ادعى النبوة - عندما أسرع في حساب الحروف المقطعة في أوائل السور وفق حساب الجمل، فكان مجموع الحروف بعد إبدال كل حرف بقيمته هو ١٧٠٩ وبما أن هذا العدد ليس من مضاعفات الرقم ١٩، أضاف واحداً ليصبح العدد ١٧١٠ وهو موعد قيام الساعة بالتاريخ الهجري، ولكنه لم يذكر لنا من أين جاء بهذا الواحد الإضافي!!؟

نقد بعض الأمثلة:

كل باحث في هذا الحساب يسوق الكثير من الأمثلة وهو يظن أنه اكتشف معجزة من كتاب الله تعالى بناء على هذا الحساب، وينسى أن عالم الأرقام يحوي الكثير من المصادفات. ولذلك يمكن الاستشهاد ببعض الأمثلة التي يقدمها أصحاب هذا الحساب لنرى اضطراب المنهج لديهم وعدم وجود منهج ثابت في البحث. ففي إحدى المقالات، يسوق الباحث عدداً من الأمثلة، لتحلل هذه الأمثلة باختصار ونرى أنها مجرد مصادفات.

المثال الأول:

جَمَلٌ كلمة (أبيض) هو ٨١٣ ولو بحثنا عن السور التي وردت فيها مشتقات هذه الكلمة (أبيضت، الأبيض، تبيض...) وقمنا بجمع أرقام السور كان الناتج ٨١٣ نفس جَمَلٌ الكلمة.

التعليق:

لماذا جمع أرقام السور، ولم يجمع أرقام الآيات مثلاً؟ ولماذا أخذ جمل كلمة (أبيض) مع العلم أن هذه الكلمة لم ترد في القرآن بهذه الصيغة بل وردت كلمة (الأبيض)، لماذا لم تحسب جمل كلمة (الأبيض) والجواب ببساطة: لأن الباحث لو اتبع منهجاً علمياً فلن يصل إلى أي حقيقة رقمية إعجازية!

ولماذا اختار الباحث هذه الكلمة بالذات وطبق عليها قانون جمع أرقام السور؟ لماذا لم يدعم نظريته بكلمات أخرى يسير فيها على نفس المنهج؟ وهل يستمر الباحث في هذا المنهج بجمع أرقام السور أم أنه يلجأ لمنهج آخر لينضبط معه الحساب؟ لنقرأ المثال التالي.

المثال الثاني:

جمل كلمة (الحديد) هو ٥٧ ورقم سورة الحديد هو ٥٧ في القرآن والوزن الذري للحديد هو ٥٧ تقريباً. ولو أخذنا تكرار كلمة (حديد) في القرآن وقمنا بحساب ترتيب كل كلمة في السورة وجمعنا تراتيب هذه الكلمات كان الناتج ٣٢٥٨ والجذر التربيعي لهذا العدد هو ٥٧ تقريباً.

التعليق:

لماذا غير الباحث منهجه فلم يتم بجمع أرقام السور كما فعل مع كلمة (أبيض)؟ لماذا اكتفى برقم سورة الحديد فقط؟ ولماذا أخذ ترتيب كلمات (الحديد) في القرآن؟ ولماذا جمع هذه التراتيب ثم أخذ الجذر التربيعي؟ لماذا لم يفعل ذلك مع بقية الأمثلة؟ ولماذا لم يطبق هذا المنهج على بقية السور أو بعضها على الأقل؟ وبما أن القرآن يحوي ١١٤ سورة فإنه من الممكن أن يحدث توافق ما بين اسم سورة مع جمل هذه السورة وهذا التوافق مصادفة! وبخاصة أننا لو طبقنا هذا القانون على بقية السور لم تنضبط! وهذا يثبت أن العملية بأكملها مصادفة لا أكثر ولا أقل.

المثال الثالث:

رقم سورة النمل هو ٢٧ وعدد آياتها هو ٩٣، وهذه السورة تبدأ بالحرفين (طس) وقد تكرر حرف الطاء في هذه السورة ٢٧ مرة نفس رقم السورة، وتكرر حرف السين ٩٣ مرة نفس عدد الآيات، وجمَّل كلمة (نمل) هو ١٢٠ ومجموع عدد آيات سورة النمل مع رقم هذه السورة هو ١٢٠ وكذلك مجموع حروف (طس) في السورة هو ١٢٠ نفس جملة كلمة (نمل).

التعليق:

لماذا قام الباحث هنا بجمع عدد الآيات مع رقم السورة بخلاف المثاليين السابقين؟! ولماذا حذف التعريف من اسم السورة (النمل) فحسب جمَّل كلمة (نمل) من دون ال تعريف؟ ألا يدل هذا على أن الباحث يقوم بانتقاء أية أرقام تصادفه، المهم أن تتفق الأرقام مع بعضها؟

إن كلمة (نمل) لم ترد في القرآن بهذه الصيغة، بل وردت كلمة (النمل) وكلمة (نملة) أما كلمة (نمل) فلم ترد في القرآن، فلماذا أخذ جمَّل هذه الكلمة ولم يأخذ جمَّل كلمة (النمل)؟ هل يجوز له تغيير كلمات القرآن لتنضبط مع حساباته؟ هل الإعجاز أن نغيّر في كلام الله تعالى؟

المثال الرابع:

وهنا يلجأ الباحث إلى الجمع بين الكلمات عندما لا تنضبط الكلمة بمفردها، فمجموع جملة اسم (موسى) واسم (هارون) هو ٣٧٧ ومجموع أعداد كلمات الآيات التي ورد فيها أحد هذين الاسمين في سورة القصص فقط هو ٣٧٧، ولو جمعنا أرقام السور حيث وردت كلمة (هارون) في القرآن كله وجدنا ٣٧٧ أيضًا.

ولو جمعنا أرقام الآيات التي وردت فيها كلمة (هارون) ولكن هذه المرة اخترنا السور التي تبدأ بحرف الطاء فقط، فيكون مجموع أرقام الآيات هو ٣٧٧.

التعليق:

لماذا يجمع هنا عدد كلمات الآيات؟ ولماذا اختار الآيات الواردة في سورة القصص فقط دون سائر السور؟ مع العلم أن هذين الاسمين أي (موسى وهارون) وردا في العديد من السور؟

ثم لماذا اختار الباحث السور التي فيها اسم (هارون) وجمع أرقامها، أين السور التي ورد فيها اسم (موسى) ما دمنا نحسب جمل الكلمتين معاً؟ ببساطة الباحث وضع أمامه هذا الرقم ٣٧٧ وبدأ يبحث عن أي شيء له علاقة بهذا العدد، أين المنهج العلمي؟

ولماذا عاد الباحث من جديد فاختار السور التي تبدأ بحرف الطاء فقط دون بقية سور القرآن. ولماذا لم يجمع أرقام السور كما فعل سابقاً بل جمع أرقام الآيات هذه المرة؟؟

إنه منهج مضطرب بل شديد الاضطراب! وهكذا لا نكاد نجد مثالين متطابقين من حيث المنهج، بل تارة يجمع أعداد الكلمات ثم يجمع أرقام السور ثم يختار سورة دون سائر السور، ثم يجمع رقم السورة مع عدد الآيات وأحياناً يكتب برقم السورة وأحياناً يكتب بترتيب الكلمة داخل الآية، ثم يحصي الكلمة في القرآن كله، وأحياناً يحصيها في سور محددة... وهكذا دون أن يكون هنالك أي ثبات في المنهج! وكأنهم الأول والأخير للباحث هو أن يثبت مشروعية حساب الجمل، لماذا؟ ولماذا لا يبحث عن الإعجاز في القرآن نفسه، والقرآن غزير بالعجائب والأسرار؟

هل هذا هو الإعجاز الذي تقدمه لغير المسلمين في عصر التكنولوجيا الرقمية ونفتخر به في كتابنا؟ هل نقدم القرآن للغرب في مثل هذه الحسابات المضحكة؟ أين الإعجاز في ذلك؟ وإذا كانت هذه النتائج لم تقنع المسلمين فكيف نقنع بها غير المسلمين؟

إن القرآن يحوي أكثر من سبعين ألف كلمة، فهل تأتي بكلمة مثل كلمة (أبيض) وهي أصلاً لم ترد في القرآن بهذه الصيغة، ونحسب جملها ثم نجمع أرقام السور التي وردت فيها مشتقات هذه الكلمة ونقول إن هذا هو الإعجاز العددي؟

ثم تأتي بسورة النمل فنحذف منها التعريف ونجعلها (نمل) وهذه الكلمة لم ترد في القرآن بهذه الصيغة ونقول إن جمل هذه الكلمة أي (نمل) يساوي مجموع عدد آيات السورة ورقمها؟

أما أن هؤلاء الباحثين في حساب الجُمَّل أن يبعدوا هذه السخافات عن كتاب الله تعالى؟ أما أن لهم أن يدركوا أن هذا الحساب لا أساس له من العلم أو المنطق؟

هكذا زعموا الوصول إلى هذه النتيجة، ولكن بالبحث عن كلمة (السحر) ومشتقاتها في القرآن الكريم باستخدام برنامج "المكتبة الشاملة" وجدت أنها تكررت ٤٠ مرة وليس ٦٠ كما زعموا. وبالبحث عن كلمة (فتنة) ومشتقاتها في القرآن الكريم باستخدام برنامج "المكتبة الشاملة" وجدت أنها تكررت ٥٧ مرة وليس ٦٠ كما زعموا. أضف إلى ذلك أن الفتنة في القرآن ليست مقصورة على السحر، بل تُطلق على الكفر وعلى الفتن الصغار والكبار، فمن إطلاق الفتنة على الكفر قوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ١٩١). وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ٢١٧).

ومن إطلاق الفتنة في القرآن على الفتن الصغار قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (الأنفال: ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (التغابن: ١٥). وقد تطلق الفتنة على ما يتعلق بالعذاب الأخروي، كقوله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ (الصافات: ٦٢ - ٦٣). والفتنة أُطلقت على السحر في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۗ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۗ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ (البقرة: ١٠٢).

المثال الثالث:

قالوا إن كلمة (اليوم) ذُكرت في القرآن ٣٦٥ مرة. وبالبحث عن كلمة (يوم) ومشتقاتها في القرآن الكريم باستخدام برنامج "المكتبة الشاملة" وجدت أن كلمة (يوم) قد تكررت ٢١١ مرة، و(اليوم) ٧٣ مرة، و(يوماً) ١٦ مرة، و(يومين) ٣ مرات، و(الأيام) ٣ مرات، فالمجموع: ٣٠٦ وليس ٣٦٥.

كما أنهم قد يعتبرون اللفظ أحيانا دون ما يُقَابِلُه من معنى، فإنه قد يعتبرون اليوم الآخر في حساب الأيام، وقد يعتبرون الأيام بمثابة كلمة يوم، ثم هذا الناتج المتوصل إليه أي إعجاز فيه؟! فالعدد (٣٦٥) ماذا يُمثِّل؟!!

إن السَّنة المعتبرة عند المسلمين هي السنة الهجرية، وهي أقل من ذلك!

المثال الرابع:

الاستدلال بسورة الإسراء على أن زوال إسرائيل سنة ٢٠٢٢ ، بطريقة هي أقرب إلى التكهّنات منها إلى طريقة القرآن وحقائقه. وتم فيها إقحام الرقم (١٩) في أكثر من موضع بتكلف شديد! حتى أنه إذا لم ينفع الرقم (١٩) قُسم إلى قسمين، وهو قولهم (١٩) عبارة عن (٩ + ١٠)! ويُخشى أن يكون إقحام هذا الرقم أن يكون من خرافات وتكهّنات البهائية - وهي ديانة وثنية - تُقدّس الرقم (١٩)!!

المثال الخامس:

الادعاء بأن هناك توافقا عدديا عجيبا بين رقم سورة الحديد، وهو سبعة وخسون (٥٧) في القرآن الكريم، والوزن الذري لمعدن الحديد في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ (الحديد: ٢٥).

المثال السادس:

الاستدلال على إخبار القران بما وقع لأبراج أمريكا في ٢٠٠١/٩/١١ بقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنِيتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٠). وبأن سورة التوبة رقم تسعة في ترتيب المصحف، والسورة في الجزء الحادي عشر ١١. ورقم (١١٠) يجمع الحادي عشر بحذف الصفر، وعدد أدوار البنائيتين.

وهذا بلا شك تكلفٌ مذمومٌ وصرفٌ لألفاظ القرآن عن مدلولها الحقيقي، ولو سلكننا هذا المسلك لأنصرفت أكثر آيات القرآن عن مدلولها إلى معانٍ باطلة وخلت من مضامينها الشرعية.

لنا أرقام تقبل القسمة على ١٩، وإذا أضفنا لها مجموع حروف «بسم الله الرحمن الرحيم»
(٣ + ٤ + ٦ + ٦)، نجدها تقبل القسمة أيضًا على ١٩.

هذا يُزعم أنه إثباتٌ حِفْظٌ للقرآن، ومآله تحريفُ القرآن. وهذه طريقة البهائية، وهي فرقة مارقة تنتسب إلى الإسلام زورا وبُتانا، وتُقَدِّس الرقم (١٩)! وكان أحد أدعيائها، وهو رشاد خليفة - قال بهذا القول، ثم آل به الأمر إلى أمرين:

الأول: ادّعاء النبوة!

الثاني: ادّعاء أن القرآن فيه زيادة؛ لأن عدد آيات سورة التوبة لم يقبل القسمة على (١٩)!

إن هناك تخبُّطٌ كبير في هذا الزعم بأن القرآن يحوي "شفرة رقمية" تحميه من التحريف، فعلى سبيل المثال: ما قيل في عدد أحرف البسملة، وأنها (١٩) وليس الأمر كذلك. ففي القول أعلاه (مجموع حروف «بسم الله الرحمن الرحيم» (٣ + ٤ + ٦ + ٦) وليس الأمر كذلك، فإن الحرف المشدد عبارة عن حرفين، فَحَرَفٌ "الراء" في (الرحمن) وفي (الرحيم) عبارة عن حرفين، وكذلك حرف المدّ في (الرحمن) لم يتم احتسابه في العدّ. فلو كتبنا البسملة من أجل العدّ لكانت (بسم الله الرحمن الرحيم). فيكون مجموع حروف البسملة (٣ + ٤ + ٨ + ٧). فسقط بذلك ما بنوا عليه من وهم!

كما أن تلك الدراسة المزعومة لا تَمَّتْ لطريقة القرآن بِصِلَة؛ لِمَا فيها من التكلّف، فإن العدد (١٩) لا يقبل القسمة إلاّ بعد تكلّف بالغ! وقد تكفّل الله بحفظ كتابه على مدى أكثر من ألف وأربعمائة عام من غير حاجة إلى هذه الطريقة المتبدعة المتكلّفة!

المثال الثامن:

التكلّف والتعسّف في الوصول بعد عمليات حسابية إلى الزعم بأن القرآن يحدد عمر النبي ﷺ، وها هنا قول أحد الباحثين باختصار مع التعليق عليه في الهامش:

«سوف نكتشف معجزة رائعة تتجلى في كتاب الله تعالى. فنحن نعلم أن نبينا ﷺ عاش ٦٣ سنة، وعندما نجد حروفاً محددة في القرآن تتكرر بحيث تشكل

أعدادًا من مضاعفات العدد ٦٣ فهذا يعني أن الذي رتب حروف القرآن هو الله وليس محمدًا، لأنه لا يمكن لإنسان أن يعرف كم سيعيش!!

فالنبي ﷺ لا يعلم أنه سيعيش ٦٣ سنة، وبالتالي فإن وجود مضاعفات لهذا العدد في حروف وكلمات القرآن يعني أن الله تعالى قد رتب حروف القرآن، بحيث يأتي العصر الذي نعيشه اليوم ويكثر الإلحاد والتشكيك، وتتجلى هذه المعجزة لتكون دليلًا لكل مشكك أن هذا القرآن هو كلام الله، وأن الإسلام هو رسالة الله للبشر جميعًا.

إن السورة الوحيدة في القرآن الكريم التي تحمل اسم النبي الكريم هي سورة "محمد" ﷺ. ترتيب هذه السورة في القرآن هو ٤٧ وعدد حروفها كما رسمت في القرآن (الرسم العثماني) ٢٣٦٠ حرفًا.

ولكن هناك حروف محددة تكررت بطريقة عجيبة، وهي حروف اسم السورة أي حروف اسم (محمد)! فلو بحثنا في هذه السورة عن حرف الميم نجده قد تكرر في هذه السورة ٢٢٣ مرة، أما حرف الحاء فقد تكرر ٢٣ مرة، وحرف الدال تكرر ٣٥ مرة. الآن دعونا نكتب اسم (محمد) وتحت كل حرف مقدار تكراره في سورة محمد:

م	ح	م	د
٢٢٣	٢٣	٢٢٣	٣٥

وهنا دعونا نقوم بعملية جمع هذه الحروف، أي نقوم بجمع تكرار حروف اسم (محمد) في سورة (محمد) لنجد ما يلي: $٢٢٣ + ٢٣ + ٢٢٣ + ٣٥ = ٥٠٤$ حروف.

العجيب أن هذا العدد من مضاعفات عمر النبي ﷺ أي من مضاعفات العدد

$$٦٣ \text{ كما يلي: } ٥٠٤ = ٨ \times ٦٣$$

(١) يهدم كل تلك الإحصائيات أن الحرف المشدد عبارة عن حرفين، فَحَرْفُ " الميم " في (محمد) عبارة عن حرفين، وكذلك باقي الحروف المشددة من هذه الكلمة في السورة كلها.

وهذا يعني أن السورة الوحيدة التي سماها الله تعالى باسم نبيه الكريم (محمد) وضع فيها عددًا محددًا لحروف الميم والحاء والذال وهي حروف اسم (محمد) بحيث أننا عندما نقوم بجمعها تعطينا عددًا من مضاعفات العمر الذي عاشه النبي محمد ﷺ أي من مضاعفات العدد ٦٣، والنتيجة هو العدد ٨ وهذا سر سنكتشفه بعد قليل.

والآن قد يقول قائل إن هذه مصادفة. ولذلك دعونا ننتقل إلى سورة أخرى وهي السورة التي نزلت في أوائل الدعوة إلى الله تعالى وهي سورة المدثر، التي خاطب الله بها حبيبه محمدًا: ﴿تَبٰٓٔٓهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (المدثر: ١).

الغريب أن كلمة (المدثر) تشير إلى النبي ﷺ، ولو قمنا بنفس الأمر السابق وبحثنا عن حروف كلمة (المدثر) سوف نجد أن حروف هذه الكلمة تكررت في سورة المدثر بطريقة عجيبة.

لنكتب حروف هذه الكلمة وتحت كل حرف مقدار تكراره في سورة المدثر:

ا	ل	م	د	ث	ر ^(١)
١٦٢	١٠٤	٧١	٢٦	١٠	٦٨

إن مجموع هذه الأرقام هو:

$$١٦٢ + ١٠٤ + ٧١ + ٢٦ + ١٠ + ٦٨ = ٤٤١ \text{ حرفاً.}$$

أي أن عدد حروف كلمة (المدثر) وهو النبي الكريم، يساوي ٤٤١ وهذا العدد

$$\text{من مضاعفات عمر النبي أي } ٦٣ \text{ كما يلي: } ٦٣ \times ٧ = ٤٤١$$

(١) يهدم كل تلك الإحصائيات أن الحرف المشدد عبارة عن حرفين، فَحَرَفُ "الذال" في (الْمُدَّثِّر) عبارة عن حرفين وكذلك حَرَفُ الثاء وباقي الحروف المشددة من هذه الكلمة في السورة كلها.

ونقول سبحان الله! كيف يمكن أن تأتي حروف محددة في سور محددة لتشكل أعداداً من مضاعفات عمر النبي الكريم؟ والنتاج هنا هو الرقم ٧ وهذا له مدلول، بعكس الناتج السابق في سورة محمد وهو الرقم ٨ فلماذا؟

عندما نتأمل سورة محمد نجد فيها حديثاً مطولاً عن مواصفات الجنة، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (محمد: ١٥).

ونحن نعلم بأن عدد أبواب الجنة ثمانية، وبالتالي فإن حروف اسم محمد في سورة محمد هو ٥٠٤ ويساوي ٦٣ × ٨ أي عمر النبي الكريم × عدد أبواب الجنة (١).

ولكن ماذا عن سورة المدثر؟ إذا تأملنا سورة المدثر نجد فيها تفصيلاً عن نار جهنم ذات السبعة أبواب: قَالَ تَعَالَى: ﴿سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا بُقْعَىٰ وَلَا نَذْرٌ ﴿٢٨﴾ لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (المدثر: ٢٦ - ٣٠).

وبالتالي فإن حروف كلمة المدثر تكررت في سورة المدثر ٤٤١ مرة أي ٦٣ × ٧ أي عمر النبي الكريم × عدد أبواب النار (٢).

فمن أطاع هذا النبي دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار!

(١) الملاحظ أن السورة تكلمت أيضاً عن عذاب أهل النار، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (محمد: ١٥). وقال تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (محمد: ١٢).

(٢) الملاحظ أن السورة تكلمت أيضاً عن نعيم أهل الجنة، قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَمْحَبَتِ الْيَاسِينَ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّتٍ يَسَاءُ لَوْنٌ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (المدثر: ٣٨-٤١).

هذا ليس كل شيء، فلو قمنا بعدّ الحروف من أول القرآن الكريم وحتى نهاية سورة محمد سوف نجد أن عدد حروف اسم محمد في هذه السور (الـ ٤٧) يبلغ كما يلي:

م	ح	م	د ^(١)
٢٢٨٢٣	٣٤٩٦	٢٢٨٢٣	٥٠٣٨

ومجموع هذه الحروف $٥٤١٨٠ = ٥٠٣٨ + ٢٢٨٢٣ + ٣٤٩٦ + ٢٢٨٢٣$

والعجيب أن هذا العدد ٥٤١٨٠ هو من مضاعفات عمر النبي ٦٣ كما يلي:

$$٨٦٠ \times ٦٣ = ٥٤١٨٠$$

أي أن حروف اسم محمد تكررت من أول القرآن ولنهاية سورة محمد بحيث تشكل عددًا من مضاعفات عمر النبي محمد ﷺ، إنها أعداد يعجز البشر عن الإتيان بمثلها.

أحيانًا يأتي العدد ٦٣ وهو عمر النبي الكريم بصورة غير مباشرة عبر الحروف المقطعة. ففي سورة عظيمة هي سورة الروم التي بشر الله فيها المؤمنين بالنصر القريب، نجد هذه السورة تبدأ بقوله تعالى: ﴿الْم ١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آدْنَى الْأَرْضِ﴾ (الروم: ١-٢). ولو قمنا بعدّ حروف الألف واللام والميم^(٢) في سورة الروم سوف نجد:

ا	ل	م
٤٩٣	٣٩٠	٣١٤

إن مجموع هذه الحروف المقطعة هو $١١٩٧ = ٣١٤ + ٣٩٠ + ٤٩٣$ حرفًا

وهذا العدد من مضاعفات العدد ٦٣ عمر النبي الكريم كما يلي:

(١) يهدم كل تلك الإحصائيات - إن كانت صحيحة - أن الحرف المشدد عبارة عن حرفين، فَحَرَفٌ "الذال" عبارة عن حرفين، وكذلك باقي الحروف المشددة من هذه الكلمة في السور كلها.
(٢) هذه المرة (الم) وليس حروف كلمة محمد (الميم والحاء والميم والذال)!!!.

$$19 \times 63 = 1197$$

ولا يخفى على أحد أن الناتج ١٩ هو عدد حروف البسملة^(١). أي أن عدد حروف (الم) في سورة الروم التي تبدأ بهذه الحروف هو عدد من مضاعفات عمر النبي الكريم والناتج هو ١٩ عدد حروف (بسم الله الرحمن الرحيم).

وهنا من جديد نتساءل: كيف تأتي هذه الأعداد دائماً من مضاعفات عمر النبي الكريم ﷺ، هل هي المصادفة، أم تقدير العزيز العليم؟ إن كل من يدعي أن هذه الأعداد قد جاءت بالمصادفة فعليه أن يأتي بكتاب غير القرآن تتحقق فيه مثل هذه المعجزات العددية^(٢). وبالطبع لن يأتي لأن الله ﷻ قال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور: ٣٤)، ولن يستطيع أحد أن يأتي بمثل بلاغة القرآن أو مثل أعداد القرآن أو مثل علوم القرآن.

المثال التاسع:

الزعم أن في قوله تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (الكهف: ٢٥) إعجاز علمي حيث إن عدد (٣٠٠) هو للحساب الشمسي، وإن عدد (٣٠٩) هو للحساب القمري!

فقالوا: «إِنَّ السَّنَةَ الشَّمْسِيَّةَ هِيَ مَدَّةٌ تَنْقُضِي بَيْنَ مُرُورَيْنِ مُتتَالِيَيْنِ لِلشَّمْسِ فِي نَقْطَةِ اعْتِدَالٍ وَاحِدٍ، وَمَقْدَارُ هَذِهِ السَّنَةِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَخَمْسَةٌ وَسِتُونَ يَوْمًا، وَأَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَاثْنَانِ وَعِشْرُونَ بَعْدَ الْفَاصِلَةِ، هَذِهِ السَّنَةُ الشَّمْسِيَّةُ بِالذِّقَّةِ، وَبِمُرُورِهَا يَحْدُثُ الصَّيْفُ، وَالخَرِيفُ، وَالشِّتَاءُ، وَالرَّبِيعُ.»

(١) يقولون إن مجموع حروف «بسم الله الرحمن الرحيم» (٣ + ٤ + ٦ + ٦) وليس الأمر كذلك، فإن الحرف المشدد عبارة عن حرفين، فَحَرْفُ " الرَاء " في (الرحمن) وفي (الرحيم) عبارة عن حرفين، وكذلك حرف المدّ في (الرحمن) لم يتم احتسابه في العدّ. فيكون مجموع حروف البسملة (٣ + ٤ + ٨ + ٧) = ٢٢.

(٢) كيف تكون معجزات وهي مبنية على أخطاء في العدّ.

أما السنة القمرية فتتكوّن من ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوماً، وبعد الفاصلة ستة وثلاثون ألفاً وسبعمئة وثمانون، وهي المدة بين كُسُوفَيْنِ مُتَوَالِيَيْنِ مقسومةً على عددِ الحركاتِ القمريةِ الدائريةِ، والفرقُ بين السنةِ الشمسيةِ والقمريةِ عشرةُ أيامٍ، وبعدَ الفاصلةِ ثمانمائة وخمسة وسبعون ألفاً، ومئة وسبعة وثلاثون، وبذلك يقعُ في كلِّ ثلاثِ ثلاثين سنةً فرقٌ قدره ثلاثمائة وثمانية وخمسون يوماً، أو نحو سنة تقريباً، وعلى ذلك فإنَّ كلَّ مائة سنة تزيدُ ثلاثَ سنواتٍ، وتكون الثلاثمائة سنةِ الشمسيةِ يقابلها ثلاثمائة وتسع سنواتٍ قمرية، هذا حسابُ الفلكيينِ الدقيقِ، ستة أرقامٍ بعدَ الفاصلةِ.

وهذه الحقيقةُ الكونيةُ ثابتةٌ، والتي اطمأنَّ إليها العلمُ الحديثُ، واستقرَّ عليها، وقد سبقَ إليها القرآنُ في سَرِّهِ لقصةِ أصحابِ الكهفِ في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾، هذه سنواتٌ شمسيةٌ، ﴿وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾، هذه سنواتٌ قمريةٌ، إنه شيءٌ دقيقٌ جداً، وبحساباتٍ دقيقةٍ في مرصدٍ عملاقةٍ، بحساباتٍ فلكيةٍ بالغةِ الدقةِ بستةِ أرقامٍ بعدَ الفاصلةِ، وبعدَ الحسابِ الدقيقِ فإنَّ ثلاثمائة سنةِ شمسيةٍ تساوي ثلاثمائة وتسعَ سنواتٍ قمرية.

وقد ردَّ على هذا القول الشيخ محمد بن صالح العثيمين فقال:

«﴿وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾ ازدادوا على الثلاث مائة وتسع سنين، فكان مكثهم ثلاث مائة وتسع سنين، قد يقول قائل: "لماذا لم يقل ثلاث مائة وتسع سنين؟" فالجواب: هذا بمعنى هذا، لكن القرآن العظيم أبلغ كتاب، فمن أجل تناسب رؤوس الآيات قال: ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾، وليس كما قال بعضهم بأن السنين الثلاثمائة بالشمسية، وازدادوا تسعاً بالقمرية؛ فإنه لا يمكن أن نشهد على الله بأنه أراد هذا، من الذي يشهد على الله أنه أراد هذا المعنى؟ حتى لو وافق أن ثلاثمائة سنين شمسية هي ثلاث مائة وتسع سنين بالقمرية فلا يمكن أن نشهد على الله بهذا؛ لأن الحساب عند الله تعالى واحد.

وما هي العلامات التي يكون بها الحساب عند الله؟ الجواب: هي الأهلة، ولهذا

نقول: إن القول بأن "ثلاث مائة سنين" شمسية، (وازدادوا تسعاً) قمرية قول ضعيف:

أولاً: لأنه لا يمكن أن نشهد على الله أنه أراد هذا.

ثانياً: أن عدة الشهور والسنوات عند الله بالأهلة، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (يونس: ٥)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٨٩). انتهى^(١).

إن الحساب بالقمر والأهلة هو المعروف عند الأنبياء وأقوامهم، ولم يُعرف الحساب بالشمس إلا عند جهلة أتباع الديانات، وللأسف وافقهم كثير من المسلمين اليوم. فالحساب الشمسي حساب متوارث عن أمم وثنية، ولم يكن معتبراً لدى الأنبياء ﷺ، وإنما الحساب المعتبر في الشرع هو الحساب بالقمر والأهلة، وهو الأدق والأضبط، ومما يدل على أن المعروف في شرائع الأنبياء هو الحساب بالقمر والأهلة حديث واثلة بن الأسقع رحمته الله عن النبي ﷺ قال: «أُنزِلَتْ صُحُفٌ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنزِلَتْ التَّوْرَةُ لِسِتِّ مَضِينَ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْإِنْجِيلُ لِثَلَاثِ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنزِلَ الْفُرْقَانُ لِأَرْبَعِ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ» (رواه الإمام أحمد في المُسند، وذكره الألباني في "الصحيحة" (١٥٧٥).

وهذا لا يُعرف إلا إذا كان الحساب بالقمر والأهلة، ويدل عليه أيضاً حديث ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ فَرَأَى الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَقَالَ: «مَا هَذَا؟»، قَالُوا: «هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى» (رواه البخاري ومسلم).

وقد صرَّح الحافظ رحمته الله أنهم كانوا لا يعتبرون الحساب بالشمس^(٢).

(١) تفسير سورة الكهف.

(٢) انظر: "فتح الباري" (٤ / ٢٩١)، وانظر (٧ / ٣٢٣).

وقال ابن القيم رحمته تعليقا على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالْحِسَابَ﴾ (يونس: ٥)، وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس: ٣٨-٣٩):

«ولذلك كان الحساب القمري أشهر وأعرف عند الأمم وأبعد من الغلط، وأصح للضبط من الحساب الشمسي، ويشترك فيه الناس دون الحساب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالْحِسَابَ﴾ ولم يقل ذلك في الشمس، ولهذا كانت أشهر الحج والصوم والأعياد ومواسم الإسلام إنما هي على حساب القمر وسيره حكمة من الله ورحمة وحفظاً لدينه لاشتراك الناس في هذا الحساب، وتعذر الغلط والخطأ فيه، فلا يدخل في الدين من الاختلاف والتخليط ما دخل في دين أهل الكتاب»^(١).

وربما يفهم من العبارة الأخيرة لابن القيم رحمته أن أهل الكتاب كانوا يعتمدون الحساب بالشمس، وهذا قد صرح الحافظ ابن حجر رحمته برده بعد أن نسبه لابن القيم^(٢)، والواقع أنه لم يكن معتبراً في شرعهم وإنما وقع لهم بعد ذلك لدى جهلتهم» انتهى.

وفي فوائد قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٨٩)، قال الشيخ ابن عثيمين رحمته: «ومنها: أن ميقات الأمم كلها الميقات الذي وضعه الله لهم - وهو الأهلة - فهو الميقات العالمي؛ لقوله تعالى: ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾؛ وأما ما حدث أخيراً من التوقيت بالأشهر الإفرنجية: فلا أصل له من

(١) مفتاح دار السعادة، (ص ٥٣٨ - ٥٣٩).

(٢) انظر: "فتح الباري" (٧ / ٣٢٣).

محسوس، ولا معقول، ولا مشروع؛ ولهذا تجد بعض الشهور ثمانية وعشرين يومًا، وبعضها ثلاثين يومًا، وبعضها واحدًا وثلاثين يومًا، من غير أن يكون سبب معلوم أوجب هذا الفرق؛ ثم إنه ليس لهذه الأشهر علامة حسية يرجع الناس إليها في تحديد أوقاتهم، بخلاف الأشهر الهلالية فإن لها علامة حسية يعرفها كل أحد^(١).

التاريخ الهجري رمز لهوية أمتنا الإسلامية:

التاريخ الهجري ليس مجرد طريقة لحساب الزمن، بل هو رمز لهوية أمتنا الإسلامية؛ فتاريخنا مرتبط بأحداث عظيمة، مرتبطة بالشهور الهجرية؛ مثل: شهر رمضان المبارك، الذي صار رمزًا للانتصارات والفتوحات الخالدة في بدرٍ وفتح مكة وحطين وعين جالوت، والقارئ الملاحظ لسير الأمم، يرى أن التاريخ من أهم ما تحرص عليه؛ لذلك يقوم علماء الدين في مختلف الملل والنحل على التقويم والعناية به من حيث الحساب والمواقيت، والأعياد والمناسبات، وبداية كل شهر ونهايته، وأحوال السنين، والبسط والكبس، كما حصل من رهبان الرومان، وسدنة المجوس، وحاخامات اليهود، وباباوات النصارى، وكما فعل أيضًا الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أقر تاريخًا جديدًا للأمة الإسلامية، ينطلق من بداية الهجرة النبوية الشريفة من مكة إلى المدينة.

التقويم هو نظام عد زمني لحساب التواريخ للأيام، يتم فيه حساب التواريخ بناءً على معايير مختلفة في التقاويم المتنوعة؛ فهناك تقويم يعتمد على الشمس، وموقع الأرض (التقويم الميلادي)، ومنها ما يعتمد على ميلاد ونهاية القمر (التقويم الهجري)، كما أن هناك تقويمًا يعتمد على القمر والشمس معًا، وهناك تقاويم تعتمد على كواكب معينة، وغيرها ما لا يعتمد على أي عامل واضح.

(١) تفسير سورة البقرة (٢ / ٣٧١).

التقويم الميلادي:

ترجع نشأة التقويم الميلاديّ إلى الرُّومان الذين كانوا يعتمدون على التقويم القمريّ حتّى سنة ٤٥ ق. م، وكان شهر مارس بداية السنّة، وكانت السنة ٣٥٤ يوماً، وحتّى تتفق السنّة مع الفصول الأربعة؛ كان الرُّومان يُضيفون شهراً كلّ سنتين، لكن هذا النّظام أدّى إلى حدوث اضطرابات ومنازعات سياسيّة.

وفي سنة ٤٦ ق. م اعتمد "يوليوس قيصر" على نصيحة الفلكيّ المصريّ "سوسيجينس" الذي اقترح أن يكون طول السنّة ٣٦٥ يوماً لمدة ثلاث سنوات «التقويم اليولياني»، تليها سنّة رابعة يكون طولها ٣٦٦ يوماً، وتُعرف باسم "سنّة كبيسة"؛ أي: السنّة التي تقبل القسمة على أربعة بدون باق، وبذلك يصير طول السنة في المتوسط ٣٦٥ وربع يوم، وهذا يعني أن السنة اليوليانيّة تزيد عن السنة الحقيقية بمقدار ٠,٠٠٧٨ يوماً، و١١ دقيقة، و١٤ ثانية؛ أي يوم كامل كل ١٢٨ سنة، وهذا يعني أيضاً أن التاريخ طبقاً للتقويم اليولياني سيكون متأخراً قليلاً عن التاريخ الحقيقيّ.

إلا أن عملية تراكم الخطأ مع مرور السّنات كانت واضحة، ولا يمكن أن تتماشى مع الواقع، وبالفعل ففي ١٠/٥/١٥٨٢م؛ أي: بعد مرور حوالي ١٦ قرناً من بدء التاريخ اليولياني، لُوِحِظَ أنه تأخّر عن التاريخ الحقيقيّ بمقدار ١٠ أيام، الأمر الذي أدّى إلى لزوم ضبطه؛ حيث أُضيف هذا الفرق ليُصبح التاريخ الجديد "١٥/١٠/١٥٨٢م، وهو التاريخ المفترض أن يكون، وتمّت هذه الإضافة بأمر من البابا "جريجوري الثالث عشر"، وكان هذا بداية تعديل التقويم اليوليانيّ إلى التقويم الجريجوري، حيث جُعِلَت السنة ٣٦٥ يوماً لثلاث سنواتٍ متتالية "سنة بسيطة"؛ بحيث تجمع الكُسور في السنة الرّابعة لتصبح ٣٦٦ يوماً "سنة كبيسة".

ولكي لا نرجع إلى نفس مشكلة التأخّر عن التاريخ الحقيقيّ، فقد اشترط للقرون "السنوات المئتين" في هذا التقويم أن تقبل القسمة على ٤٠٠ بدلاً من ٤؛ لتُصبح سنّة كبيسة، بهذه الطريقة أصبحت السنة في التقويم الجريجوري ٢٤٢٥, ٣٦٥ يوم،

مقابل ٢٤٢٢, ٣٦٥ يوم في السنة الحقيقية؛ أي: بفرق قدره ٠, ٠٠٠٣ يوم، أو يوم واحد كل ٣٣٣٣ سنة.

وبناءً على هذا التعديل؛ فإنَّ السنوات المئويَّة؛ مثل ١٤٠٠، ١٥٠٠، ١٦٠٠... لا تُعدُّ سنواتٍ كبيسةً إلاَّ إذا قُبِلتِ القسمة على (400) بدون باقٍ، بينما السنوات العادية تقسم على (4) فقط؛ لكي تُعرَف أنَّها كبيسة، وعلى هذا الأساس كانت سنوات ١٧٠٠ م، ١٨٠٠ م، ١٩٠٠ م سنواتٍ عادية، أمَّا سنة ٢٠٠٠ م، فهي سنة كبيسة، ويكون شهر فبراير فيها ٢٩ يومًا.

وجديرٌ بالذكر أنَّ "التعديل الجريجوري" لا يعدُّ آخرَ تعديلٍ بل يتوقَّع الفلكيون ضرورةً تعديل التقويم الميلاديَّ كلَّ أربعة آلاف سنة؛ بسبب الاختلافات الطَّيفيَّة في مُدَّة دورة الأرض حول نفسها وحول الشمس، هذا فضلاً عن أنَّ الخطأ الحسابيَّ في النِّظام الشمسي يحتاج إلى متخصصين للكشف عنه، كما يحتاج المتخصصون إلى قرونٍ لكي تبدو لهم تلك الأخطاء المتراكمة.

من أخطاء التقويم الميلادي:

من الخطأ الكبير في التقويم الميلاديَّ زعمُ أصحابه أنَّ ميلاد المسيح عليه السلام كان في فصل الشتاء، وموسم الثلوج والأمطار، والبرِّد والرَّعد، ولكنه كان في حقيقة الأمر في أوج فصل الصيف الحارِّ، وهو موسم نزوح البلح؛ حيث أوحى الله تعالى لمريم أن تهزَّ النخلة فيتساقط عليها البلح النَّاضج، قال تعالى: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِمِجْذِ النَّخْلَةِ فُتَسْقِطْ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ (مريم: ٢٥)، ومعلومٌ أنَّ الرُّطب ينضج في موسم الصيف، مع شدَّة الحرارة، وبالرجوع إلى هذه القصة في موضعها من الأناجيل؛ نجد أنَّ الرُّعاة كانوا في البرية يرعون الغنم؛ "حيث العشب الأخضر، والسماء الصافية في المساء، والنجوم تتلألأ"، وكلُّ ذلك لا يكون في الشتاء، والفرق بين التوقيتين حوالي خمسة أشهر.

أيضاً؛ فإنَّ طول السنة الشمسيَّة منذ أن خلَق اللهُ الأرض والشمس والقمر، وإلى أن تقوم الساعة هو (364) يوماً، و٢٣ ساعة، و٥٥ دقيقة، و١٢ ثانية، وليس كما زعم الفلكيون قديماً وحديثاً، حين جعلوها من مرحلةٍ لمرحلة، من ٢٥، ٣٦٤ يوم، ثم

٢٥, ٣٦٥ يومًا في نظام الإصلاح اليولياني، ثم ٢٤٢٥, ٣٦٥ يومًا في نظام الإصلاح الجريجوري، وكل ذلك أخطاء بشرية فلكية متوالية في تحديد طول السنة الشمسية، كان لها أثرها السلبي على تحديد مكان الشمس في أفلاكها، وبروجها ومن ثم على تحديد ميقات بداية الفصول الأربعة، واختلاف الطقس والمناخ بين النظرية والتطبيق؛ حيث بلغ الفرق والخطأ منذ عهد "يوليوس قيصر" عام ٤٥ ق.م حتى عام ٢٠٠٤ م حوالي 520 يومًا.

ومن أمثلة العتب التاريخي في التقويم الميلادي: ما فعله "يوليوس قيصر"، عندما نقل بداية السنة من شهر مارس إلى شهر يناير في سنة ٤٥ ق.م، وقرّر أن يكون عدد أيام الأشهر الفردية ٣١ يومًا، والزوجية ٣٠ يومًا، عدا شهر فبراير ٢٩ يومًا، وإن كانت السنة كبيسة يُصبح ثلاثين يومًا، وتكريماً ليولوس قيصر سُمي شهر "كونتيلس" الشهر السابع، باسم "يوليو"، وكان ذلك في سنة ٤٤ ق.م، وفي سنة ٨ ق.م غير شهر "سكستيلس" باسم "أغسطس"؛ تمجيداً "لأغسطس قيصر"، القيصر الذي انتصر على أنطونيو في موقعة أكتيوم سنة ٣١ ق.م، ومن أجل مزيد من التكريم؛ فقد زادوا يومًا في شهر أغسطس؛ ليصبح ٣١ يومًا بأخذ يوم من أيام فبراير، وترتب على هذا التغيير توالي ثلاثة أشهر بطول ٣١ يومًا 7، 8، 9 نتيجة لذلك؛ أخذ اليوم الحادي والثلاثين من كل من شهرَي سبتمبر ونوفمبر، وأضيفا إلى شهرَي أكتوبر وديسمبر.

التقويم الهجري:

التقويم القمري تقويم ربّاني سماوي كوني توقيفي، قديم قدم البشرية، ليس من ابتداء أحد الفلكيين، وليس للفلكيين سلطان على أسماء الشهور العربية القمرية، ولا على عددها أو تسلسلها أو أطوالها، وإنما يتم كل ذلك في حركة كونية ربّانية، وتمّ تحديد عدد الشهور السنوية في كتاب الله القويم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ (التوبة: ٣٦)، وفي الوقت الذي عبثت أصابع الفلكيين بتقويم الأمم الأخرى في كل جزئية من جزئياتها، وأسماء شهورها، وأطوالها وهيئاتها وتسلسلها، فإنه لا سلطة

للفلكيين، أو غيرهم على التقويم القمري؛ بحيث لا يستطيع أحدٌ استبدال اسم شهرٍ بشهر، أو موقع شهرٍ بشهر، أو زيادة يومٍ فيه، أو نقص يومٍ منه؛ فهو تقويمٌ كامل، لا يحتاج إلى تعديلٍ أو تصحيح، وهو ربّاني من تقدير العزيز العليم.

ومن مميزات التقويم الهجري أن تاريخنا الإسلامي الحافل، وأمورنا الدينية كلها ترتبط بالشهور القمرية، فالحج والصيام والزكاة، وعدة الطلاق كلها ترتبط بالشهور القمرية، وعلى سبيل المثال - وليس الحصر - فإنّ الزكاة تُدفع إذا بلغ المأل نصابها، وحال الحول؛ أي: العام الهجري، ولو اعتمدنا على السنة الميلادية، فمعنى ذلك أننا نقص من حقوق مستحقي الزكاة؛ لأن كل ٣٢ سنة ميلادية تعادل ٣٣ سنة هجرية، فإذا كان لدينا زكاة تعتمد على السنة الميلادية التي تزيد ١١ يوماً على السنة الهجرية، فإننا نضيع زكاة سنة هجرية كل ٣٢ سنة ميلادية!

بين الرؤية والحساب:

يُعيب أنصار "الحساب" على "الرؤية" أن لها سلباتٍ كثيرة، منها: الخطأ البشري الذي قد يقع فيه الشهود، والوهم الذي قد يعترهم، أو الكذب الذي قد يتعمده بعضهم، أو الهوى الذي قد يُسيطر على قلوبهم، فيدفعهم لاجتناب الصدق والصواب.

وكل ذلك واردٌ، وأكثر منه، ولكن الحساب أيضًا لا يخلو من تلك السلبات والمخاوف والمحاذير، وربّما كانت أخطاء الفلكيين على مدار السنين الخالية أكثر من أخطاء شهود العيان، وأبلغ في إبعاد المسلمين عن الحق والصواب، وما زالت بياناتهم الفلكية شاهدة على أخطائهم، بل وما زالت برامج حساباتهم المعدة لتغذية الكمبيوتر، والكتب المحملة بالجدول الرقمية الزمنية تشهد عليهم بارتكاب الأخطاء المُرّبة.

هذا فضلًا عن أن نظام الحساب القمريّ أيسر للبشر، وأسهل من النظام الشمسي، ولذلك جعله الله تعالى أساسًا لحساب الزمن، ومعرفة أوائل الشهور، وإحصاء عدد السنين، وتقدير الأيام من دون الشمس؛ لحكمة ربّانية بالغة، أو أكثر من

حكمة؛ فمظاهر التغير في القمر واضحة، وكل إنسان يمكنه ملاحظتها، بخلاف التغيرات التي تطرأ على الشمس، ولا يدرِكها سوى المتخصصين.

المؤامرة:

لا يخفى على أهل العلم دور أعداء الإسلام في تحجيم التقويم الإسلامي، ومحاولات طمسه وإخراجه من الساحة، وزعزعة ثقة المسلمين به؛ لاستبدال غيره به؛ لأغراض لا تخفى على منصف، يُغذّيها الحقد الأعمى، والعداء المستمر ضد كل ما يمتُّ إلى الحضارة الإسلامية بصلة، ولقد استمرت المؤامرة لطمس التاريخ الهجري وإزالتة، وتجهيل الشعوب الإسلامية به قرونًا متوالية؛ ففي القرن الثامن عشر الميلادي عندما أرادت الدولة العثمانية تحديث جيشها وسلاحها، طلبت مساعدة الدول الأوروبية العظمى؛ (فرنسا، وألمانيا، وإنكلترا... إلخ)، فوافقوا على مساعدتها بشرط؛ منها: إلغاء التقويم الهجري في الدولة العثمانية، فرضت لضغوطهم، وفي القرن التاسع عشر عندما أراد خديوي مصر أن يستقرض مبلغًا من الذهب من إنكلترا وفرنسا؛ لتغطية مصاريف فتح قناة السويس، اشترطتا عليه ستة شروط؛ منها: إلغاء التقويم الهجري في مصر؛ فتمّ إلغاؤه سنة ١٨٧٥م، وأثناء فترة وقوع أغلب الدول الإسلامية في براثن الاستعمار الغربي، حرص الأخير على التعتيم على كل ما هو إسلامي، واستمرّ الحال كما هو عليه في أغلب هذه الدول؛ بتأثير مناهج التربية الغربية الاستعمارية.

الفَصِيلَةُ الْعَاشِرَةُ
أَكَاذِيبٌ مَتَعَلِقَةٌ
بِالْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ

أَشْبَهْتُ إِيَّاكَ يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ
أَشْبَهْتُ إِيَّاكَ يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ

قَالَ تَعَالَى:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥٣).

أكاذيب متعلقة بالإعجاز العلمي

انتشرت في الآونة الأخيرة على شبكة الإنترنت وغيرها بعض الأفكار الخاطئة حول معجزات وهمية صدّقتها كثير من المسلمين لدرجة أنها أصبحت عندهم بمثابة "حقائق" بل وساهموا في نشرها عبر شبكة الإنترنت وغيرها، بسبب تسرعهم في قبول أي فكرة إعجازية قبل التثبت والتحقق منها. وأغلب من ينشر هذه الموضوعات لا يحركهم إلا حماسهم وعواطفهم الدينية، فكثيرا ما نجد تلك الإعجازات لا نصيب لها من الحقيقة.

ومن ذلك ما انتشر عبر المواقع والمنتديات من مواضيع تحتوي على صور وملفات صوت وفيديو تعبر عن معجزات كخروج نافورة من الرمال في الصحراء، وظهور لفظ الجلالة على جلود الماعز، وسحابة ترسم لفظ الجلالة.

إن آيات الله في هذا الكون كثيرة، فكل ذرة فيه تشهد له ﷻ بالعظمة والجلال، وتنطق له بالوحدانية. وقد جاءت دعوة التأمل والتدبر في عشرات الآيات في القرآن الكريم، تحث على النظر في آيات الكون الظاهرة للعيان، لتتفكر فيها فترجع منها باليقين بالخالق، وبالإيمان بوحدانيته سبحانه.

والسمة المشتركة بين هذه الآيات هي الظهور للعموم، فالسما والأرض والجبال والشمس والقمر والأنعام والمطر والنفس وغيرها، كلها آيات يشترك في رؤيتها ومعرفتها جميع البشر، ويتمكن كل إنسان من إدراك عظمتها ودلالاتها على الرب الخلاق، وإن كان فيها للعالم من الأسرار التي يختص بها دون العامي، ولكنها بادية للجميع، يستخرج منها كل بحسبه.

أما ما ينتشر اليوم من حديث عن "معجزات الطبيعة" ومنها الأمثلة التي السابق ذكرها، كظهور لفظ الجلالة على بيضة أو على جلود الماعز، فمن حيث قدرة الله تعالى، فإن الله على كل شيء قدير، هذا بالنظر إلى قدرة الله تعالى، وأما بالنظر إلى وقوع

هذه "المعجزات"! فإن أكثر ما ينتشر اليوم منها لا حظ له من التوثيق والتوكيد، وأغلب ما يتناقله الناس منها إنما هي أحاديث مجالس، وصور منتديات، لا يُدرى مصدرها ولا منشؤها.

أفبمثل هذه الحكايات يحتج المسلم على صحة دينه وعقيدته؟!!

وهل نقصت عنده أدلة الفطرة واليقين كي يلجأ إلى تلك الإشاعات؟!!

والموقف الصحيح من هذه الأخبار، هو التوقف فيها، فلا نصدّقها، لاحتمال أنها كذب، ولا نكذّبها، لاحتمال أنها صدق، ما لم يكن عندنا دليل واضح على صدقها أو كذبها فنجزم به حينئذٍ.

فينبغي على المسلم العاقل - الذي يعي ضوابط التلقي والاستدلال - التأمّن في الإيذان بها والتصديق لها، فضلا عن نشرها ودعوة الناس إلى التسييح بعجبها.

غير أن الذي وقع خلاف ذلك، حيث انساق كثيرون وراء هذه "الحكايات"، فراحوا ينشرونها ويتحدثون بها في المجالس، ويتناقلونها في هواتفهم المحمولة ورسائلهم، ثم يفاخرون بعد أيام أنها كذب مصنوع مخلق، نشره بعض المتحمسين للدين - جهلاً وسذاجةً -، أو بعض الملحدّين الحاقدين - استهزاءً وسخريةً -، مما كان السبب في فتنة الكثيرين، والله المستعان.

فالذي ننكره هو التسرع في إثباتها، وإلباسها لبوس الإعجاز والتحدي، ودعوة الناس إليها، واتخاذها شكل الظاهرة المتفشية التي لا حدود لها، فكل يوم يحمل منها قصة جديدة وحكاية.

حتى وصل الحال إلى صور من السخافة التي يترفع عن تصديقها العقل السليم، ترى ذلك في حكاية "صوت زئير الأسد" الذي يسمع فيه بعضهم - شططاً وتكلفاً - صوت لفظ الجلالة.

وأشنع من ذلك وأسوأ: ما بلغ في بعض البلاد من التبرك والتمسح والاستشفاء بشجرة ظهر على جذعها لفظ الجلالة، ثم تبين بالبحث أنه منحوت بفعل

فاعل يريد إضلال الناس. فعلى المسلمين التوقف عن ترويج مثل هذه الشائعات، التي قد تكون سبباً لإضلال الناس.

ونحن المسلمين لا نشك في صحة ديننا وصدق النبي ﷺ ولسنا بحاجة لإثباتات علمية على ذلك! ولكن عندما نخاطب غير المسلمين بالإعجاز العلمي فإنهم يحتاجون لأدلة علمية لتأييد بها قولنا، فإذا ما جئناه بدليل علمي ثم ثبت لهم خطأ هذا الدليل فقد يتعرضون للشك والارتياب، ومن هنا كانت ضرورة التحري والتدقيق والبحث عن الدليل العلمي قبل المساهمة في نشر أي معلومة متعلقة بالإعجاز العلمي.

أمثلة على تلك المعجزات الوهمية:

المثال الأول:

الفتاة التي مسخها الله!

سرت شائعة ملفقة منذ مدة بأن فتاة استهزأت بالقرآن فمسخها الله وحوّلها إلى مخلوق بدائي، ورسوموا صورة لها هي في الأصل تمثال في أحد المتاحف. ولكن وللأسف انتشرت هذه الكذبة بسرعة البرق، ولو أن كل واحد من الذين ساهموا في نشر هذه الأكذوبة سأل أهل العلم لما سمع أحد بهذه الفتاة ولما انتشرت هذه البدعة وغيرها من الأكاذيب التي يسخر منا أعداء الإسلام بسببها.

المثال الثاني:

النبات الذي أصدر ذبذبات صوتية رسمت اسم (الله)!

إنها أكذوبة تقول بأن العلماء اكتشفوا أن بعض النباتات تصدر ذبذبات صوتية ولدى تحليلها على جهاز القياس الخاص بهذه الذبذبات رسمت اسم (الله)!

فقد انتشر في كثير من المنتديات موضوع "معجزة إلهية تحير العلماء في أمريكا" وهو كذبة ملخصها أنه في بحث علمي نشر في المجلة العلمية المشهورة "Journal of Plant Molecular Biology"، وجد فريق من العلماء الأمريكيين أن بعض النباتات الإستوائية تصدر ذبذبات فوق صوتية تم رصدها وتسجيلها بأحدث الأجهزة العلمية المتخصصة.

وكان العلماء الذين أمضوا قرابة ثلاثة سنوات في متابعة ودراسة هذه الظاهرة المحيرة قد توصلوا إلى تحليل تلك النبضات فوق الصوتية إلى إشارات كهروضوئية بواسطة جهاز الرصد الإلكتروني oscilloscope، وقد شاهد العلماء النبضات الكهروضوئية تتكرر أكثر من ١٠٠ مرة في الثانية!!!!

وأشار البرفسور "وليام براون" الذي كان يقود فريقاً متخصصاً من العلماء لدراسة تلك الظاهرة، أنه بعد النتائج التي تم التوصل إليها لم يكن هناك تفسير علمي لتلك الظاهرة. وقد قمنا بعرض نتائج بحثنا على عدد من الجامعات والمراكز العلمية المتخصصة في الولايات المتحدة وأوروبا، ولكنهم عجزوا عن تفسير تلك الظاهرة وأصيبوا بالدهشة.

وفي المرة الأخيرة تم إجراء تلك التجربة أمام فريق علمي من بريطانيا، وكان من بينهم عالم بريطاني مسلم من أصل هندي. وبعد خمسة أيام من التجارب المخبرية التي حيرت الفريق البريطاني وقف العالم البريطاني المسلم وقال:

«نحن المسلمون لدينا تفسيراً لهذه الظاهرة ومنذ ١٤٠٠ سنة».

اندهش العلماء من كلام ذلك العالم وألحوا عليه أن يفسر لهم ما يريد أن يقوله. فقرأ عليهم قوله تَعَالَى: ﴿سُبْحٰنَ لَهٗ السَّمٰوٰتِ السَّبْعِ وَالْاَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَاِنْ مِنْ شَيْءٍ اِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهٖ وَّلٰكِنْ لَا تَفْقَهُوْنَ سَبْحَهُمْ اِنَّهٗ كَانَ حَلِيْمًا عَفُوْرًا﴾ (الإسراء: ٤٤). وما هذه النبضات الكهروضوئية إلا لفظ الجلالة كما هو ظاهر على شاشة الجهاز!!!!».

وقد ساد الصمت والذهول في القاعة التي كان يتحدث بها العالم المسلم. وقد قام المسؤول عن فريق البحث البروفسور "وليام براون" بالتحدث مع العالم المسلم لمعرفة هذا الدين الذي أنبأ الرسول الأمي قبل ١٤٠٠ سنة بهذه المعجزة. فشرح له العالم المسلم الإسلام وقام بعد ذلك بإعطائه القرآن وتفسيره باللغة الإنجليزية.

وبعد ذلك بعبدة أيام عقد البروفسور "وليام براون" محاضرة في جامعة "كارنيجي-ميلون". وقال البرفسور: «لم أر مثل هذه الظاهرة طوال فترة عملي التي استمرت ٣٠ سنة ولم يستطع أي من العلماء في فريق البحث تفسير هذه الظاهرة، ولا

توجد اي ظاهرة طبيعية تفسرها، والتفسير الوحيد وجدناه في القرآن. لا يسعني حيال ذلك الا أن أقول أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله». لقد أعلن العالم إسلامه وسط دهشة الحضور. (انتهى ملخص الكذبة).

المثال الثالث:

جذوع الأشجار ترسم عبارة (لا إله إلا الله):

صورةٌ رسمها أحد الهواة تصوّر الأشجار وجذوعها ترسم عبارة (لا إله إلا الله)، وانتشرت الأكذوبة بين الناس أن هذه الصورة حقيقية وهي لغابة في ألمايا (انظر كيف يختارون بلداً غير إسلامي ليكون الأثر أكبر). وتُنسج حولها الأكاذيب فقد أسلم فلان وشفى فلان بسبب زيارته لها... و... و... كل واحد حسب قوة خياله.

المثال الرابع:

انهيار البرجين: هل ذكره القرآن؟

سرت شائعة أخرى عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر أن القرآن تحدث عن تاريخ انهيار برجى التجارة العالميين في الولايات المتحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَىٰ شَفَا حَرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (التوبة: ١٠٩). فقالوا إن هذه الآية وردت في سورة التوبة التي ترتيبها في المصحف ٩ وتقع في الجزء ١١، وقالوا بأن هذه الآية دليل على أنها تتحدث عن أحداث ٩/١١ وأن اسم الشارع الذي يقع فيه البرجان هو (جرف هار)، وأن عدد الكلمات من بداية سورة التوبة حتى هذه الآية هو ٢٠٠١ كلمة وهو نفس العام الذي وقع فيه الحادث!

والحقيقة أن هذه الأرقام يختلط فيها الصواب بالخطأ، فرقم سورة التوبة هو ٩ ورقم الجزء الذي تقع فيه هو ١١ هذا صحيح، ولكن بقية المعلومات في الرواية غير صحيحة، فخلطوا هذه الأرقام لتكون الأكذوبة مقنعة! ولكن ما علاقة هذه الآية التي تتحدث عن المسجد الضرار الذي أسسه المنافقون على غير تقوى الله، وتشير إلى أن كل

إنسان يبني أعماله في الدنيا على غير تقوى الله فإن هذه الأعمال ستنهار وتهوي به في نار جهنم يوم القيامة. فما علاقة انهيار بناء يوجد مثله آلاف الأبنية بهذه الآية؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرِّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا نَقُومُ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ وَاللَّهِ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُيُوتَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَّهَرَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُيُوتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿التوبة: ١٠٧-١١٠﴾.

ثم إن عدد كلمات سورة التوبة ليس ٢٠٠١ وعدد الكلمات من بداية السورة حتى الآية المذكورة ليس ٢٠٠١ وهذا العدد ليس له وجود في السورة أصلاً، كذلك لا يوجد في أمريكا شارع اسمه (جرف هار).

المثال الخامس:

أكذوبة ملخصها شاب تفحّم من عذاب القبر بعد ٣ ساعات!

المثال السادس:

من المعجزات المزعومة هذه الأكاذيب:

- أن جهاز تخطيط القلب يرسم اسم (الله)!! وهذه الأكذوبة يساهم في نشرها بعض المسلمين، فقد انتشرت على المنتديات أن القلب يصدر ترددات رسمت اسم (الله) على جهاز التخطيط.
- وأن فتاة على أذنها اسم (الله).
- وأنهم وجدوا اسم (الله) على غيمة أو نبتة أو ثمرة أو على سطح القمر أو غير ذلك.

- وأن حمامة بيضاء مكتوب على أحد الجناحين اسم الجلالة (الله) وعلى الجناح الآخر (محمد).
- وأن الأقمار الصناعية كشفت أن شكل جبل أحد الذي يبلغ طوله حوالي ٧ كلم على شكل اسم محمد.

هناك فرق بين الصور الفنية التي يجربها المؤمن ويوجد فيها جمالاً ما، وبين المعجزات. فالصور الملتقطة لغيمة رسمت اسم (الله) أو موجة رسمت اسم (الله) أو نبات شوكي رسم اسم (الله) ... مثل هذه الصور - إن كانت صحيحة - يمكن عرضها ليس كمعجزات بل كصور طبيعية مثلها مثل أي صورة تدعو المؤمن للتفكير في خلق الله وعظمة الخالق.

فهذه الأشياء سواء كانت صحيحة أم خاطئة فالمؤمن في غنى عنها، لأن قدرة الله ﷻ أكبر بكثير من ذلك، والله قادر على أن يجعل اسمه على كل شيء، ولكن الله أودع في كل ذرة وفي كل خلية وفي كل شيء من حولنا نظاماً محكماً يشهد على عظمة ووحدانية الخالق ﷻ.

المثال السابع:

صور لنور مقبرة شهداء أحد:

زعموا أن هناك معجزة من معجزات الله تتجلى في المدينة المنورة. وذلك كل ليلة تحديداً في مقبرة شهداء أحد. ويقال إنها تبدأ الساعة الثانية بعد منتصف الليل. هكذا زعموا مع أن نور القبور لا يشعر به الأحياء، لأن القبر أول منازل الآخرة فما يجري في القبر له حكم الآخرة الذي لا يمكن أن يشعر به أحد من أهل الدنيا، سواء في ذلك النعيم أو العذاب. والصور يسهل التصرف فيها عن طريق برنامج (الفوتوشوب) وغيره، وهذا معلوم للجميع.

المثال الثامن:

صورة لانشقاق القمر:

بعض القراء وبسبب وقت الفراغ الكبير لديهم لا يجدون تسليّة سوى أن يجلسوا على برنامج (الفوتوشوب) ويسرحوا بخيالهم فيأخذون صورة للقمر ثم يتلاعبون بها فيحدثون شقًا طويلاً يقسم القمر إلى نصفين، ثم ينشرونها على أنها معجزة! وهل الذي شق القمر أحد من البشر حتى يقال إنه عاد والتّم وبقيت آثار الالتصاق؟!!

إن معجزة انشقاق القمر أمرٌ ثابتٌ و يقيني بالنسبة لنا كمسلمين، فالله ﷻ حدثنا عن انشقاق القمر ونحن نصدق كل ما جاء في القرآن. ولكن البعض بالغ في هذا الأمر واعتبر أن علماء وكالة "ناسا" صرحوا بأن القمر انشق نصفين ثم عاد! فينبغي علينا أن نراعي الدقة العلمية والتوثيق أثناء النقل عن علماء الغرب.

المثال التاسع:

إسلام أول رائد فضاء لأنه سمع صوت الأذان على سطح القمر:

من الإشاعات أن رائد الفضاء "نيل أرمسترونج" قد أعلن إسلامه لأنه سمع صوت الأذان على سطح القمر! ولكن الذي وضع هذه الإشاعة نسي أن القمر لا يحوي أي غلاف جوي وأن الصوت لا ينتشر في الفراغ!

تقول الشائعة إن أول رائد فضاء هبط على القمر عام ١٩٦٩ قد سمع الأذان، وعندما كان في رحلة في إحدى الدول العربية سمع صوت الأذان فسأل: «ما هذا؟»، فقليل له: «أذان المسلمين». فقال: «لقد سمعتُ نفس الصوت على القمر»، فأعلن إسلامه! ولكي تكون الكذبة مُتقنة فقد قامت وكالة "ناسا" بطرده من عمله نتيجة لإسلامه، فقال: «خسرتُ عملي ولكن وجدت الله!».

وبعد البحث تبين أن رائد الفضاء لم يُطرد من عمله، وتبين أنه لا زال على دينه، ثم إن الذي يجلل هذه الإشاعة يراها متناقضة مع نفسها. فكيف يمكن لرائد فضاء أن يسمع صوتًا على القمر وهو قد درس قوانين انتشار الصوت، كيف يسمع هذا الصوت

ويمر عليه مرور الكرام فلا يسجله ولا يتحدث به ولا يخبر به أحدًا، ولا يسجل براءة اكتشافٍ جديدٍ يُنسب إليه، ثم ينتظر سنوات حتى يسمعه مرة أخرى في دولة عربية ويسأل ما هذا الصوت، وكأن الذي صعد إلى القمر هو إنسان عادي وليس باحثًا وعالمًا!

إن أي إشاعة تحمل بصمات صاحبها، فالذي وضع الإشاعة نسي أن الصوت لا ينتشر في الفراغ، وسطح القمر لا يحوي أي هواء أو غلاف جوي فمن أين جاء الصوت، وماذا عن بقية الفريق الذي كان معه، ولماذا اختارت الإشاعة هذا الرجل (أرسترونج)؟ طبعًا لأنه الأشهر!

المثال العاشر:

إن مكة هي مركز الجاذبية الأرضية!

تقول الكذبة أن أحد العلماء الأمريكيين وبعد جهود كبيرة ودراسات مستفيضة توصل إلى أن مركز جاذبية الأرض يقع في مكة المكرمة، ولكن المعلومة لم تذكر اسم العالم وما هي التجربة التي قام بها وكيف توصل إلى هذا الاكتشاف، بل بكل بساطة يذكرون الاكتشاف على أنه حقيقة علمية.

هناك خطأ علمي كبير في هذه المعلومة لأن الأرض لها حقل جاذبية ومركز هذا الحقل هو مركز الأرض، أو بعبارة أدق مركز ثقل الأرض، ومركز الأرض يقع في باطن الأرض، ولا يمكن أن يكون على سطحها. وكذلك أي كوكب أو نجم فإن مركز جاذبيته يقع في مركز ثقله أي في باطنه.

وبالطبع كلما طلب أحد الدليل العلمي على صدق هذا الخبر فإننا نسمع عبارات مثل: إن علماء الغرب الملحدون يُخفون هذه المعلومات! ونحن لا ننكر أن الباحثين الأمريكيين يخفون الكثير من الحقائق العلمية، ولكن نسينا الهدف الأصلي من الإعجاز العلمي وهو إقناع غير المسلمين بحقيقة الإسلام الرائعة، فكيف نقنعهم بصدق المعجزة إذا لم يكن لدينا برهان علمي عليها؟

المثال الحادي عشر:

شعاعٌ يضيءُ السَّماءَ يخرج من البيت العتيق!

وهناك كذبةٌ أخرى تقول إنه قد ظهر شعاع قوي من مكة المكرمة وأضاء السماء وقد التقطه القمر الصناعي الأمريكي وعرض الصورة على موقع وكالة "ناسا" ثم حذفها بعد أيام خوفاً من تأثيرها على غير المسلمين!!

وهذه الكذبة لا أساس لها، لأن وكالة الفضاء الأمريكية "ناسا" لا تعرض أي صورة مباشرة بل تخضع للدراسة والتحليل وهذه العملية تأخذ بعض الوقت، وهناك صور كثيرة لم تعرضها الوكالة حتى الآن لأنها تعتبرها معلومات سرية. لذلك فإن مثل هذه الصورة لو كانت حقيقية لما عرضتها الوكالة من الأساس، ولكن هذه الصورة هي مجرد أكذوبة، والله تعالى لو أراد أن يضيء بيته الحرام بشعاع لراه جميع الناس.

المثال الثاني عشر:

الشمال المغناطيسي والشمال الجغرافي متطابقان في مكة المكرمة:

وهناك كذبة يقولون فيها إن التوقيت العالمي يجب أن يبدأ من مكة المكرمة وليس من "جرينتش"، لأن الشمال المغناطيسي والشمال الجغرافي متطابقان في مكة المكرمة وهي المدينة الوحيدة التي تتميز بهذا الأمر.

إن هذه المعلومات التي تسيء للمعجزة أكثر مما تنفع، فالشمال المغناطيسي متحرك وليس ثابتاً، أي أننا لو وضعنا إبرة مغناطيسية اليوم لتوجهت باتجاه الشمال المغناطيسي، نفس الإبرة وقبل مائة سنة كان لها اتجاه آخر، وهكذا فإن الشمال المغناطيسي للأرض متغير!

المثال الثالث عشر:

مكة هي مركز الطاقة الكونية:

كذبة أخرى عن مكة المكرمة، وهي أن مكة هي مركز الطاقة الكونية!!!! ومع أن الطاقة الكونية هي مجرد افتراض وليست حقيقة علمية، إلا أننا نجد من يقول إن مركزها هو في مكة المكرمة!

ما هو اسم العالم الذي أثبت ذلك وما هو البحث الذي قام به وكيف توصل إلى ذلك؟ وغالبًا ليس هناك جواب، لأن طاقة الكون لم يتم التقاطها أو تسجيلها بل هي فرضية، ومع أن هذه المعلومة قد تكون صحيحة فالله ﷻ قادر على كل شيء، ولكن نريد البرهان العلمي لتتمكن من إقناع غير المسلمين.

المثال الثالث عشر:

مكة هي أول بقعة ظهرت من اليابسة!

وهذه كذبة أخرى ذكرها أحد الباحثين ولكن بدون دليل علمي، حيث قال: إن الأرض كانت مغطاة بالبحار بشكل كامل، ثم بدأت اليابسة بالظهور وأول ما ظهر من اليابسة هو مكة المكرمة. ولذلك اختارها الله لتكون أم القرى ويكون فيها أول بيت وُضع للناس!

المثال الرابع عشر:

أصوات المعذبين:

يقول الخبر: إن أحد العلماء الملحدون في سيبيريا نزل تحت الأرض محاولاً دراسة الصخور على عمق ١٤ كيلو متر، وتسجيل أصوات تحرك الصفائح الأرضية، وفجأة اخترقت آلة الحفر بعض الصخور وفتحت فجوة وخرجت حرارة شديدة ولهب بدرجة حرارة ١١٠٠ درجة مئوية، وهذه الحرارة أكبر بكثير من حرارة قشرة الأرض. وقد قام بتسجيل أصوات صرخات لأناس يتألمون وهم يعدّبون.

وقال الدكتور "Azzacove": «ظننا أن الأصوات التي سجّلناها جاءت من الأجهزة إلا أنه تبين أنها أصوات لملايين البشر يتألمون، وتبيّن أننا نحفر في أبواب جهنم!!»

وما كان من هذا العالم الملحد إلا أن قام بنشر الشريط الذي سجّله، وقام بعض الناس بتصديقه، ولكن الغريب أن الملحد لم يعلن إسلامه! وقد تلقفت الخبر بعض المواقع المسيحية واعتبروا فيه إثباتاً على وجود جهنم تحت الأرض. كما تلقفته بعض المنتديات الإسلامية واعتبروا فيه دليلاً على صدق عذاب القبر.

وقد نشرت الخبر جريدة "Amminusastia" الفنلندية. ولكن لم يعترف أحد من العلماء بهذا الاكتشاف، بل نُشر على مواقع مسيحية كدليل على أن نار جهنم موجودة تحت الأرض، ويستخدمون هذا الاكتشاف لإثبات أن ما جاء في كتابهم المُحرّف يطابق العلم، وهذا غير صحيح، لأن هذا الاكتشاف العلمي مزيف وغير صحيح، ولا يعلم مكان جهنم إلا الله تعالى.

المشكلة فينا أن البعض منا يفكر بالعواطف لا بالعقول، فنساق وراء أي خبر، المهم أن يثير عواطفنا، ومن الواضح أن هذا العالم الروسي يكذب، وأن الشريط الذي نشره ما هو إلا تسجيل قام بتلفيقه لكسب بعض الشهرة.

والحقيقة أننا لم نعلم شيئاً عن هذا الملحد سوى أنه سجل الشريط واختفى، وما هي الحكمة من هذه "الكرامة" لهذا الملحد إذا لم يتنفع بها، ولماذا خصّه الله بها دون سائر العباد؟ لو كانت هذه القصة صحيحة لكان الأولى بالملحد أن يعتنق الإسلام ولكنه لم يفعل!

وهل يمكن لآلات التسجيل أن تلتقط الأصوات التي تصدر عن عذاب القبر، ولو كان كذلك لماذا لا تتكرر هذه التجربة؟

وما هو الإثبات العلمي على صدق هذا الشريط وهل قام أحد علماء الصوتيات بفحصه لمعرفة أنه ملفق أم لا؟ وكيف يوافق بعض المسلمين على صحة ما في الشريط

دون تبيان وثبتت من حقيقة الأمر، ولمجرد سماع الشريط؟ إن مثل هذه الأمور تسيء للإعجاز العلمي ولا ينتفع بها إلا أعداء الدين فيجدوا فرصة كي يسخروا من عقولنا. ولنا أن نتصوّر كيف أن أحد الملحدّين يقوم بإحداث ثقب في جدران جهنم، هل يُعقل أن نصدق مثل هذا الكلام الساذج؟! صحيح أن عذاب القبر ثابت ومؤكّد إلا أن كلفيته مجهولة بالنسبة للبشر، وما هذه الكذبة إلا محاولة للاستخفاف بعقول المؤمنين.

المثال الخامس عشر:

الآية ٥٧ من سورة الأحزاب والرقم التسلسلي التجاري للمنتجات الدانماركية:

انتشر عبر رسائل الجوال وعبر الرسائل البريدية وفي المنتديات موضوع (آية ٥٧ من سورة الأحزاب الذي يطابق الرقم التسلسلي التجاري لجميع المنتجات الدانماركية). وهذه صورة من الصور التي انتشرت عبر رسائل الجوال، وهي:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾
 هذه الآية (٥٧) في سورة الأحزاب وهو الرقم التسلسلي التجاري لجميع المنتجات الدانماركية! فهل بعد القرآن من بيان؟

وقد علق الشيخ عبدالرحمن السحيم، عضو مركز الدعوة والإرشاد بالرياض، على هذا الكلام قائلاً: «يُحْشَى على قائل هذا القول من الكُفر بالله، لأنه اتَّخذ القرآن هُزْوَاً. وهذا عبث لا يليق بالقرآن، ولا يدلّ عليه القرآن؛ لأن ترقيم آيات القرآن ليس محلّ إعجاز. ولأن ترقيم الآيات مُخْتَلَفٌ فيه بين علماء القراءات. فأرقام الآيات ليست محلّ إعجاز ولا تحدّ، ولا يجوز الاستدلال بها على شيء. كما أن الإعجاز العددي أصلاً سببٌ في زلل بعض العلماء الذين اعتبروا عدد الآيات».

المثال السادس عشر:

أصل الخطوط الموجودة في باطن الكف:

قالوا إن تقطيع النساء المذكورات في سورة يوسف أيديهن هو الأثر الذي في أيدينا في اليمنى على شكل (١٨) وفي اليسرى على شكل (٨١)، فمجموعهما عدد أسماء الله الحسنی، والفرق بينهما عمر رسول الله ﷺ.

وكل هذه الأشياء لا أصل لها، فهذه الخطوط من خلقة الله ﷻ.

المثال السابع عشر:

لفظ الجلالة والدم والقفص الصدري:

ومن الأكاذيب ما يتناقله البعض من أن القفص الصدري للإنسان إذا اتحد يشكل كلمه "لا إله الا الله" بالأضلع، وأن دم الإنسان يكتب اسم الله أكثر من مليون مرة في كل دقيقة، فقالوا: حيث إن الدم يتكون من كرات الدم البيضاء والحمراء، وهذه الكرات تتحد ببعضها وتتلامس داخل حركة دائمة وآلية لا تتوقف ليلا ونهارا سواء كنت نائماً او متقيظاً، وقد بحث العلماء في شكل هذه الكرات البيضاء والحمراء عند اتحادها، فوجدوها تشكل شكلاً دائرياً وعند تكبيره وجدوا انه اسم الله ﷻ وقد كتب بطريقة دائرية، والإعجاز الكبير أنه مكتوب باللغة العربية.

ومثل هذا يُنقل بحسن نيّة، بلا زمام ولا خطام! ومن غير بيّنة ولا دليل، ولا تثبت في العموم الغالب! ومثل ينتشر لغرابته، ولا غرابة أن تنتشر الخرافة ويُعرض كثير من الناس عن الحق الصّراح! وقد ينشر مثل هذا من في قلبه مرض للطعن في دين الله أولاً، وبِحَمَلته والصالحين ثانياً.

المثال الثامن عشر:

هيكل العظمي على هيئة محمد:

صورة تبين أن أجسادنا تشهد بنبوة محمد ﷺ فالهيكل العظمي لنا على هيئة اسم كلمة محمد، وكذلك كف اليد على هيئة كلمة لفظ الجلالة.

وهذا من تحريف الأجسام والألفاظ عن مواضعها الصحيحة. وعظمة الله تعالى تتجلى في كل شيء، ولا نحتاج أن نشكل الأجسام والأشكال حتى تتوافق مع ما نريد لأننا ربنا نسيء أكثر مما نصلح. ويكفي ما ذكره الله ﷻ من تسبيح كل شيء بحمده.

المثال التاسع عشر:

خطوط الكف تفرز مادة إذا لُعت فإنها تقوم بتسهيل عملية الهضم:

ومن الأكاذيب المتعلقة بذلك ما زعمه البعض من أن العلماء قد اكتشفوا حديثاً أن الجسم بعد الأكل يقوم بفرز مادة إذا لُعت فإنها تقوم بتسهيل عملية الهضم ومنع حالة الخمول. وأن هذه المادة تأتي من تلك الخطوط.

وهذه خيالات وأوهام! ولا يجوز نشر مثل هذه الأوهام، ولا التعلّق بها، ولو كان في نشرها خيرٌ لدلّ النبي ﷺ أمته عليه.

والتعلّق بمثل هذه الأشياء هو شأن العرّافين والكهّان والدّجالين الذين يزعمون أنهم يقرءون الأُكُفّ، ويُجربون بأشياء لها علاقة بِسعادة الإنسان وشقاوته، أو لها علاقة بأُمور مستقبلية.

ولا علاقة لهذه الأرقام والكفّ بِ "لَعْق الأصابع"؛ لأن السنة جاءت بِلَعْق الأصابع، وليس بِلَعْق الكفّ وراحة اليد. وليس صحيحاً أن خطوط الكفّ تقوم بإفراز تلك المادة.

هل صحيح أن الأصابع تقوم بإفراز تلك المادة؟

مما اعتبره البعض إعجازاً علمياً الربطُ بين ما صحَّ في السنة من استحباب لعق الأصابع وما قيل من أنه قد ثبت علمياً أن لعق الأصابع بعد انتهاء الأكل مفيد صحياً، وأن العلماء قد اكتشفوا آثاراً من إنزيم "الأميليز" الذي يهضم النشويات في أطراف أصابع اليد، وأنه إذا ما لُعت الأصابع فإن هذا الإنزيم يقوم بتسهيل عملية الهضم ويمنع حالة الخمول.

ولكن هذا الكلام في حاجة إلى تثبُّت، فلم أجد مع طول البحث ما يؤكد صحته، فإنزيم "الأميليز" يتم إفرازه مع اللعاب في الفم. ولم يذكر قائلو هذا الكلام - مع كثرتهم - مرجعاً علمياً واحداً ينسبونه إليه.

بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الموسوعة الميسرة في
الإعجاز العالَمِي
في القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة

قائمة المراجع

أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمد رسول الله

قال تعالى:

﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥٣).

قائمة المراجع

بالإضافة إلى كتب التفسير، والحديث، والفقه، واللغة:

- أبحاث هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية.
- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري، د. فهد الرومي.
- أثر القرآن الكريم في سلوك العرب وغير العرب، للدكتور إسماعيل عبد الرحمن.
- اختلاط الماء بالأرض الهامدة، د. قطب عامر فرغلي.
- ادعواهم لأبائهم، عبد الدائم الكحيل.
- استعمال السواك لنظافة الفم وصحته، دراسة سريرية وكيميائية، د. محمود رجائي وزملاؤه، أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الأول للطب الإسلامي، العدد الأول، المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، الكويت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- أسرار الحبة السوداء تتجلى في الطب الحديث، د. حسان شمسي باشا.
- أسرار العسل تتجلى في الطب الحديث، د. حسان شمسي باشا.
- أصل الماء، إعداد: قسطاس إبراهيم النعيمي، مراجعة: علي عمر بلعجم.
- أصول التفسير وقواعده، الأستاذ خالد العك.
- أضرار الخمر على القلب والأوعية الدموية، د. شبيب الحاضري.
- أضرار الميسر بين الشريعة والحياة، إعداد/ انجوغو صمب، داعية وباحث إسلامي من السنغال.
- أطوار الجنين ونفخ الروح، د. عبد الجواد الصاوي.
- إعجاز التشريع الإسلامي في مُحاربة الزنا والتحرش الجنسي بالردع والوقاية، للدكتور محمود نجا.
- إعجاز القرآن الكريم، أ. د. فضل حسن عباس وسناء فضل عباس.
- إعجاز القرآن في القضايا المحورية لعلم الاجتماع، (دراسة نموذجية في الضبط الاجتماعي)، الدكتور طارق الصادق عبد السلام والدكتور جمال الدين عبد

- العزیز شریف.
- إعجاز القرآن، د. السيد محمد الحكيم.
- إعجاز تكوين اللبن، أ.د. رمضان مصري هلال.
- إعجاز علمي أم مصدقات القرآن العلمية؟! مصطفى محمد ياسين، موقع الألوكة www.alukah.net.
- اقتلوا هذا الفاسق، د. سميحة علي مراد، د. هدى محمد لطفي.
- أكل زيت الزيتون والادهان به، إعداد: قسطاس إبراهيم النعيمي، مراجعة: علي عمر بلعجم.
- الإيقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين السيوطي.
- الأحاديث النبوية التي استدلت بها على الإعجاز العلمي في الإنسان، والأرض والفلك، للدكتور أحمد حسن الحارثي.
- الأربعون العلمية، عبد الحميد محمود طهماز.
- الأرض دائمة الحركة ودلالة ذلك في القرآن الكريم، د. سيد عمارة.
- الاستشفاء بالعسل، إعداد: قسطاس إبراهيم النعيمي. مراجعة: علي عمر بلعجم.
- الإسلام والوقاية من الأمراض، د. عز الدين فراج.
- الإشارات العلمية في القرآن الكريم (بين الدراسة والتطبيق)، د. كارم السيد غنيم.
- الإشارات العلمية في القرآن الكريم، المستشار مدحت حافظ إبراهيم.
- الإعجاز الإلهي في خلق الإنسان وتفنيد نظرية داروين، د. محمد نبيل النشواني.
- الإعجاز التأثري للقرآن الكريم، للدكتور خالد محمد القضاة.
- الإعجاز التشريعي في أطول آية من القرآن، لعبد الدائم الكحيل.
- الإعجاز التشريعي في تحريم لحم الخنزير، إعداد/ عادل الصعدي. مراجعة/ عبد الحميد أحمد مرشد.
- الإعجاز التشريعي في تخصيص مكة المكرمة بالقبلة، إعداد/ عادل الصعدي.

- الإعجاز التشريعي لنظام الميراث في القرآن الكريم، وأثره الاقتصادي والاجتماعي، للدكتور أحمد يوسف سليمان.
- الإعجاز الطبي في أحاديث الرسول عن عجب الذنب، د. محمد علي البار.
- الإعجاز العلمي، الأهداف والوسائل، هيئة الإعجاز العلمي.
- الإعجاز العلمي إلى أين؟ مقالات تقويمية للإعجاز العلمي، د. مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار.
- الإعجاز العلمي، ضوابط وحدود، فهد عبدالرحمن اليحيى.
- الإعجاز العلمي في الإسلام والسنة النبوية، محمد كامل عبد الصمد.
- الإعجاز العلمي في أحاديث النوم على الشق الأيمن، إعداد/ عادل الصعدي. مراجعة: علي عمر بلعجم.
- الإعجاز العلمي في أحاديث تحنيك المولود، إعداد/ عادل الصعدي. مراجعة: علي عمر بلعجم.
- الإعجاز العلمي في أحاديث منع التداوي بالخمير، د. محمد علي البار.
- الإعجاز العلمي في أحاديث في عجب الذنب، إعداد/ عادل الصعدي، مراجعة: قسطاس إبراهيم النعيمي، علي عمر بلعجم.
- الإعجاز العلمي في الأحاديث التي ذكرت الحمى، إعداد/ عادل الصعدي. مراجعة: علي عمر بلعجم.
- الإعجاز العلمي في الإسلام، محمد كامل عبدالصمد.
- الإعجاز العلمي في التخطيط الاستراتيجي واعداد الموازنات، الدكتور خلف عبد الله.
- الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. صالح أحمد رضا.
- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، محمد السيد أرنؤوط.
- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، مناهج جامعة المدينة العالمية، مرحلة: الماجستير.
- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، للدكتور عبد البديع حمزة.

- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، تاريخه وضوابطه، للدكتور عبد الله المصلح.
- الإعجاز العلمي في النصوص الشرعية التي ذكرت الذباب، إعداد/ عادل الصعدي. مراجعة: علي عمر بلعجم.
- الإعجاز العلمي في حديث "بيت لا تمر فيه"، د. "معز الإسلام" عزت فارس أستاذ مساعد، قسم التغذية السريرية، كلية العلوم الطبية التطبيقية، جامعة حائل، المملكة العربية السعودية.
- الإعجاز العلمي في حديث الثلث، د. عبد الجواد الصاوي.
- الإعجاز العلمي في حديث: الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين، جمع وترتيب: قسطاس إبراهيم النعيمي.
- الإعجاز العلمي في سؤر الهرة، محمد لجين الزين.
- الإعجاز العلمي في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾، إعداد/ عادل الصعدي. مراجعة: علي عمر بلعجم.
- الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾، من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة تركيا ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، الأستاذ الدكتور/ مصطفى إبراهيم حسن، أستاذ علم الحشرات الطبية، مدير أبحاث ناقلات الأمراض، كلية العلوم - جامعة الأزهر.
- الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿تَثِيرَ سَحَابًا﴾، أ.د. سلامه عبد الهادي.
- الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾، إعداد/ عادل الصعدي. مراجعة: علي عمر بلعجم.
- الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُفْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾، د. وائل الشيمي و د. محمد الديب.
- الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾، إعداد: قسطاس إبراهيم النعيمي.

- الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النُّجْمُ الثَّاقِبُ﴾، إعداد: عادل الصعدي. مراجعة: علي عمر بلعجم.
- الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، إعداد/ عادل الصعدي. مراجعة: علي عمر بلعجم.
- الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾، إعداد: قسطاس إبراهيم النعيمي. مراجعة: علي عمر بلعجم.
- الإعجاز العلمي للسنة النبوية في أسرار مسواك عود الآراك وتأثيره على صحة الفم ومناعة الخلايا البشرية، د. مشاري بن فرج العتيبي.
- الإعجاز العلمي للقرآن الكريم بين القبول والمعارضة، للدكتور كارم السيد غنيم، موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة quran-m.com.
- الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في السمع والبصر والفؤاد، أ.د. صادق الهلايلي.
- الإعجاز العلمي للقرآن والسنة في دلالة: غيظ الأرحام، د. عبد الجواد الصاوي.
- الإعجاز الغيبي في السنة النبوية، د. شهاب الدين محمد أبوزهو.
- الإعجاز الغيبي في القرآن الكريم، د. راغب السرجاني.
- الإعجاز الغيبي في وصف قتال اليهود من وراء الجُدُر، د. محمود عبد الله نجا.
- الإعجاز القرآني "وجوهه.. وأسراره"، د. عبد الغني محمد سعد بركة.
- الإعجاز القرآني في أحكام الحيض والاستحاضة، أ.د. محمد عبد اللطيف سعد.
- الإعجاز المزعوم، د. محمود عبد الله نجا.
- الإعجاز في التذكية (الذبح)، إعداد: قسطاس إبراهيم النعيمي.
- الإعجاز في الجبال، إعداد: قسطاس إبراهيم النعيمي. مراجعة/ علي عمر بلعجم.
- الإعجاز في الكون، القرآن الكريم والحديث عن الثقوب السوداء، للدكتور زغلول النجار.

- الإعجاز في حديث عريض القفا، د. أمين ردمان الهلالي.
- الإعجاز في علاج عرق النساء، إعداد وترتيب: قسطاس إبراهيم النعيمي. مراجعة: محمد المحمدي.
- الإعجاز في ماء زمزم، إعداد: قسطاس إبراهيم النعيمي. مراجعة: علي عمر بلعجم.
- الأعمار الصناعية تشهد بنبوّة محمد، الشيخ عبد المجيد الزنداني.
- آلام الظهر والتدليك، للدكتور حسان جعفر.
- الأمواج الداخلية وظلمات البحر العميقة، الشيخ عبدالمجيد الزنداني، ووليام هاي.
- الإنسان بين العلم والدين، شوقي أبو خليل.
- البحوث القاصرة في الإعجاز وآثارها السلبية، عبد الكريم علي الفهدي.
- البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي.
- التخلق البشري، للدكتور كيث مور.
- التداوي بأبوال الإبل، إعداد/ عادل الصعدي. مراجعة: قسطاس إبراهيم النعيمي. علي عمر بلعجم.
- التداوي بالصوم، ه. م. شيلتون، ترجمة ونشر، دار الرشيد.
- التفسير العلمي في الميزان، د. أحمد عمر أبو حجر.
- التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية.
- التفسير والمفسرون، نعيم الحمصي.
- التقويم الهجري رمز الهوية الإسلامية، د. خالد النجار.
- التلبينة: غذاء ودواء، د. رامي عبد الحسيب.
- التيامن والتياسر بين استحبابات الدين وسلوك الجسيمات الذرية، سعيد حمود اليامي.
- الجوانب الطبية للعزل في الفقه الإسلامي، للدكتور سعيد محمود العوضي.

- الحبة السوداء (حبة البركة) *Nigerla Sativa*، إعداد: قسطاس إبراهيم النعيمي، مراجعة: علي عمر بلعجم.
- الحبة السوداء شفاء من كل داء، أحمد القاضي وأسامة قنديل.
- الحبة السوداء شفاء من كل داء، د. عبد الجواد الصاوي.
- الحجامة، إعداد: قسطاس إبراهيم النعيمي. مراجعة: علي عمر بلعجم.
- الحديث النبوي وعلم النفس، للدكتور محمد عثمان نجاتي.
- الحروق في القرآن الكريم، أ.د. محمود العطيني.
- الحقائق الطبية في الإسلام، للدكتور عبد الرزاق الكيلاني.
- الحكمة العلمية في تحريم النمص والوشم والتفلج، أ.د. منال جلال عبد الوهاب.
- الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم، أحمد جواد.
- الداء والدواء في جناحي الذباب، الأستاذ الدكتور / مصطفى إبراهيم حسن.
- الربا وآثاره الاقتصادية، د. عبد المجيد عبد الله دية.
- الرضاة التامة بين العلم والقرآن، لعبد الدائم الكحيل.
- الرفق بالحيوان بين الهدى النبوي الصادق ودعاوى الغرب الكاذبة، د. عبد الرحيم الشريف.
- السحاب الركامي، الشيخ عبد المجيد بن عزيز الزنداني، د. محمد أيمن عبد الله، د. مصطفى محمد إبراهيم، د. محمود عمراني حنش، د. أحمد عبد الله مكي.
- الشجر الأخضر ونار الحياة، د. عبد الله عبد الكريم صالح.
- الشجرة المباركة من خلال يقين القرآن وبحوث العلماء، محمد محمد فائد.
- الشيخوخة.. تنكيس في الخلق، د. محمد دودح.
- الصلاة في الصغر وآلام أسفل الظهر، د. محمد وليد الشعراني، استشاري جراحة المفاصل والعظام / الدوحة - قطر.
- الصوم الطبي النظام الغذائي الأمثل، آلان كوت.

- الصيام معجزة علمية، للدكتور عبد الجواد الصاوي.
- الطب النبوي والتهاب الجيوب الأنفية، د. هشام بدر الدين المشد.
- الطب النبوي والعلم الحديث، للدكتور محمود ناظم النسيمي.
- الطب الوقائي، د. فواز محمد حيدر.
- العظام في القرآن الكريم، وليد بن صالح العديني.
- العلاج بالتلبينة، عبد الكريم التاجوري.
- العلم الحديث حجة للإسلام أم عليه؟ الدكتور عبد الله عبد الرحيم العبادي.
- العلم طريق الإيمان، للشيخ عبد المجيد الزنداني.
- الفرقان في بيان إعجاز القرآن، عبد الكريم بن صالح بن عبد الكريم الحميد.
- القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم.
- القرآن وعلوم الأرض، محمد سميح عافية.
- القشرة والشيب والحناء، للدكتور حسان شمس باشا.
- القطرة القرآنية أو قطرة العرق اختراع جديد هللت له الصحف العربية فما هي حقيقة هذه القطرة؟ هل هي فرقة صحفية أم حقيقة واقعة؟ د. محمد السقا عيد، استشاري أمراض عيون، موقع e3jaz.way2allah.com.
- الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين، د. المعتز المرزوقي.
- الكون والإعجاز العلمي للقرآن، د: منصور حسب النبي.
- المدخل إلى الدراسات القرآنية، أبو الحسن الندوي.
- المطارق الكونية آية من آيات الله، عبد الدائم الكحيل.
- المنهج الإيماني للدراسات الكونية، الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر.
- المنظار الهندسي للقرآن الكريم، د. مهندس خالد فائق العبيدي.
- المنهجية في بحوث الإعجاز العلمي، للدكتور عبد الحفيظ الحداد.
- الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر.
- موضحة القبيحة الأظافر الطويلة، بقلم الدكتور محمد نزار الدقر.

- النفاذ من أقطار السماوات والأرض، أ. د. زغلول النجار.
- النهي عن الجلوس على مائدة يشرب الخمر عليها، عبد الدائم الكحيل.
- الهدى النبوي في العلاج بالقسط، بقلم الدكتور محمد نزار الدقر.
- الهدى النبوي في منع وعلاج الغضب سبق طبي وإعجاز علمي، د. محمد عبد اللطيف العجرودي.
- الوَشْمُ ... رؤية شرعية وطبية وخلقية، الدكتور محمد أحمد عبد الغني.
- الموضوع من منظور علم النقاط الانعكاسية، د. ماجدة عامر.
- انحسار الرضاعة ... خسارة مناعية، د. محمد علي البار.
- أنواع الإعجاز الغيبي في القرآن، للدكتور عبد الحي الفرماوي.
- أهمية نوم القيلولة، عبد الدائم الكحيل.
- أوجه الاتفاق والاختلاف بين الصيام الشرعي والتجويد!! د. عبد الجواد الصاوي.
- بابا الفاتيكان في الميزان، علي بن نايف الشحود.
- بيت المسلم وبيت العنكبوت، معجزة علمية، بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا موسى.
- تأثير الصيام الإسلامي على مرضى الكلى والمسالك البولية، نشرة الطب الإسلامي، العدد الرابع - أعمال وأبحاث المؤتمر العالمي الرابع عن الطب الإسلامي - منظمة الطب الإسلامي، الكويت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.
- تأثير العسل الشبطي على نمو الكائنات الدقيقة، أ. د نبيه عبد الرحمن باعشن.
- تأصيل الإعجاز العلمي، هيئة الإعجاز العلمي.
- تأملات في تفسير معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، د. صلاح رشيد.
- تجربتي مع الإعجاز العلمي في السنة النبوية، صالح بن أحمد رضا.
- تحليلات كيميائية مقارنة وتجارب سريرية لعلاج الاستسقاء بأبوال الإبل، لمحمد أوهاج محمد (بحث مقدم في المؤتمر السابع للهيئة العالمية للإعجاز

- (العلمي).
- تسكين المياه في الأرض، د. أحمد عبدالعزيز مليحي.
- تفسير الشيخ أحمد حطية، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.
- تفوق الطب الوقائي في الإسلام، عبد الحميد القضاة، بحث مقدم للمؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة - إسلام آباد - باكستان ١٤٠٧هـ.
- تقويم الأعمال التي تناولت الإعجاز العلمي والطبي في السنة النبوية، أحمد أبو الوفا عبد الآخر.
- تميز بول الغلام الرضيع من دلائل النبوة الخاتمة، أصيل محمد علي، الدكتور أحمد محمد صالح.
- تنبيه الألباب إلى حديث الذباب، الأستاذ الدكتور كارم السيد غنيم.
- تنبيهات على رسالتين للشيخ أبي بكر الجزائري، حمود بن عبد الله بن حمود بن عبد الرحمن التويجري.
- توحيد الخالق، عبد المجيد عزيز الزندان.
- جنان تبوك التي تنبأ بها النبي ﷺ، يوسف عبد الرحمن، إعداد فراس نور الحق، مدير موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن.
- حركة الأرض بينة على التوحيد، د. محمد دودح.
- حساب الجُمَّل .. ماله وما عليه، عبد الدائم الكحيل.
- حقائق علمية في القرآن أفحمت المكابرين، د. محمد دودح.
- حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة، محمد بن خليفة التميمي.
- حقيقة صعود الإنسان إلى القمر، عبد الدائم الكحيل.
- حِكْم صحية في محرمات قرآنية - تحريم تناول الدم المسفوح، للدكتور كارم السيد غنيم.
- حلية الطبيب المسلم، د. وسيم فتح الله.

- حول الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في العصر الحديث، محمد المهدي محمود علي.
- ختان الإناث رؤية طبية، د. ست البنات خالد محمد علي.
- خلافاً لما هو شائع طبيًا... الكحول لا يقي من أمراض القلب، د. حسن محمد صندقجي صحيفة الشرق الأوسط الندبية في عددها العدد ٩٩٩١ الصادر في الخميس ٠٧ ربيع الاول ١٤٢٧ هـ ٦ ابريل ٢٠٠٦.
- خلق الإنسان بين الطب والقرآن، للدكتور محمد علي البار.
- خلق الكون من العدم، إعداد: رياض عيدروس عبد الله. مراجعة: قسطاس إبراهيم.
- دراسة بريطانية تؤكد فوائد اللحية للرجل، عبد الدائم الكحيل.
- دراسة حول الصوم الطبي، النظام الغذائي الأمثل. د. آلان كوت. إعداد فاروق أفبيق وآخرين.
- دروس من تعاليم رسول الله ﷺ في الوقاية من الأمراض الطفيلية، د. جورج. س. نيلسون، عبد الحميد الزنداني، بحث مقدم للمؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة - إسلام آباد - باكستان ١٤٠٧ هـ.
- دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري والرد عليها، عبد المحسن بن زبن بن متعب المطيري.
- دلائل إعجازية في غض البصر، د. حسني حمدان الدسوقي حمامة.
- دلائل النبوة، منقذ بن محمود السقار.
- دلائل النبوة في ضوء المعارف الحديثة، محمود مهدي الاستانبولي.
- دوران الأرض، إعداد: قسطاس إبراهيم النعيمي.
- رحلة الإيمان في جسم الإنسان، الدكتور حامد محمد حامد.
- رحلة إيمانية مع رجال ونساء أسلموا، عبد الرحمن محمود.
- رحيق العلم والإيمان، د. أحمد فؤاد باشا.
- رعاية الحيوان بين الإسلام والواقع المعاصر، للدكتور محمد عبد الحلیم عمر.

- زيت الزيتون... أسرار وإعجاز، د. حسان شمسي باشا.
- سقف من فضة.. لماذا الفضة؟ د. م. يحيى وزيري.
- سلسلة لقاءات الباب المفتوح، محمد بن صالح العثيمين.
- سنن الله الكونية، للدكتور محمد أحمد الغمراوي.
- سورة الواقعة ومنهجها في العقائد (دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم)، المؤلف: محمود محمد غريب.
- ضوابط بحوث الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، هيئة الإعجاز العلمي.
- ضيق الصدر والتصعد في السماء، د. عبد الجواد الصاوي.
- ظاهرة طبيّة تحيّر علماء أمريكا! عبد الدائم الكحيل.
- ظلمات وأمواج البحار العميقة، إعداد/ عادل الصعدي. مراجعة: علي عمر بلعجم.
- ظهر منكروا السنة (القرآنيون) وصدق رسول الله ﷺ، فراس نور الحق.
- ظهور نار الحجاز من علامات الساعة، فراس نور الحق.
- عجائب وأسرار العلاج بأبوال الإبل، للدكتورة أحلام العوضي (بحث مقدم في المؤتمر السابع للهيئة العالمية للإعجاز العلمي).
- عجب الذئب.. اكتشافات جديدة، أ.د. مصطفى عبد المنعم.
- علاج عرق النسا بألية شاة أعرابية الدكتور زهير بن رباح قرامي.
- عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، محمد السيد جبريل.
- عودة جزيرة العرب مروجًا وأنهارًا، م. جمال عبد المنعم الكومي.
- غشاء السيل.. معجزة نبوية، عبد الدائم الكحيل.
- فتاوى دار الإفتاء المصرية.
- فتاوى للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله السحيم، عضو مركز الدعوة والإرشاد بالرياض.
- فتاوى للشيخ محمد العويد.
- فتح قبرص واستشهاد أم حرام الأنصارية، فراس نور الحق.

- فذروه في سنبله، د. عبدالمجيد بلعابد.
- فكرة إعجاز القرآن، د: مصطفى مسلم.
- فَلَا أُفْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ، د. زغلول النجار.
- قبسات من الطب النبوي، حسان شمسي باشا.
- قتال المسلمين للترك، فراس نور الحق.
- قضية الإعجاز العلمي في القرآن، د. حسني حمدان الدسوقي حمامة، موقع الألوكة www.alukah.net.
- قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بين المؤيد والمعارض، للدكتور زغلول راغب النجار.
- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، د. عبد الرحمن حبنكة الميداني.
- قواعد تناول الإعجاز العلمي والطبي في السنة وضوابطه، للدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح.
- قيام الليل.. وفوائده الصحية، د. عطية فتحى البقرى.
- كان النبي ﷺ يأمرنا أن نحتمفي أحياناً، د. إبراهيم بن أحمد الصبيحي.
- كيف تكتب بحثاً في الإعجاز العلمي، د. عبدالحفيظ الحداد.
- كيف عالج الإسلام مرض السمنة والوزن الزائد؟ عبد الدائم الكحيل.
- لسان العرب، ابن منظور.
- لغز الثأوب، د. زهير جميل قزاز.
- لفظة قرآنية في علم الآثار، د. باسم طارق جمال.
- لماذا حرم الإسلام مصافحة الرجال للنساء؟ عبد الدائم الكحيل.
- لماذا حرم الله رضاع الإخوة؟ عبد الدائم الكحيل.
- لماذا نهى النبي عن تربية الكلاب في المنزل؟ عبد الدائم الكحيل.
- لمحات إعجازية عن أبواب السماء وظلمة الفضاء، أ.د. زغلول محمد النجار.
- لمحات باهرة حول ظلمة الفضاء في القرآن الكريم، د. محمد دودح.
- ما هي أهمية التداوي بالبان الإبل؟ عبد الدائم الكحيل.

- ماء زمزم وحكمة الاستشفاء بها، د. هدى محمد لطفي.
- مباحث في إعجاز القرآن، د مصطفى مسلم.
- مباحث في علوم القرآن، مناع القطان.
- مجلة الإعجاز العلمي، الصادرة عن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
- مجموع الفتاوى، ابن تيمية.
- مختصر أشراط الساعة، الأستاذ الدكتور خليل إبراهيم ملاً خاطر العزّامي، أستاذ الحديث وعلومه بـ"جامعة طيبة" بالمدينة المنورة.
- مراحل الجنين، إعداد/ عادل الصعدي، مراجعة: قسطاس إبراهيم النعيمي، علي عمر بلعجم.
- مرض ترقق العظام والوقاية منه حسان جعفر.
- مرور الجبال كمرور السحاب، د. محمد دودح.
- معجزة الصلاة في الوقاية من مرض دوالي الساقين، د. توفيق علوان.
- معجزة القرآن الكريم، للشيخ محمد متولي الشعراوي.
- معجزة إنزال الحديد وبأسه الشديد في القرآن الكريم، أ. د. عبد الله محمد البلتاجي.
- معجزة تشكّل البرد... إشارات قرآنية رائعة، عبد الدائم الكحيل.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل.
- مقالات في جهاز المناعة للدكتور خالد أبو الخير والدكتورة فاتن الزامل والدكتور هاشم عروة.
- مقدمة حول الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية، صفاء علي عباس محمد، موقع الألوكة www.alukah.net.
- ملامح الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في مجال علوم البحار، د. أمين مصطفى غيث، د. محمد صالح.

- من إعجاز القرآن والسنة في الطب الوقائي والكائنات الدقيقة الوقاية من انتشار الأمراض والأوبئة، د. عبد الجواد الصاوي.
- من الأسرار العلمية للتعاليم النبوية، د. رجاء محمود ملياني.
- من الإشارات الكونية في القرآن الكريم، «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ»، د. مسلم شلتوت.
- من الإعجاز العلمي في السنة النبوية سنن الفطرة نموذجًا، د. حذيفة أحمد الخراط.
- من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. حسن أبو العينين.
- من أوجه الإعجاز العلمي في الصيام، د. عبد الجواد الصاوي.
- من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. زغلول النجار.
- من بديع الإعجاز التشريعي في الإسلام: «وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ»، د. عبدالرحيم الشريف.
- من رعاية الطفولة في الإسلام تحنيك المولود وما فيه من إعجاز علمي، للدكتور محمد علي البار.
- من روائع الإعجاز في القرآن، للدكتور جمال الدين الفندي.
- من صور الإعجاز الهندسي في القرآن الكريم، يوسف محمد غريب.
- من علم الطب القرآني (الثوابت العلمية في القرآن الكريم)، د. عدنان الشريف.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُّرقاني.
- مواعيد علامات الحمل في القرآن الكريم، د. محمد دودح.
- موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي الشريف، عبد الرحيم مارديني.
- موقع الإسلام سؤال وجواب، بإشراف الشيخ محمد صالح المنجد.
- موقع الشبكة الإسلامية، بإشراف الدكتور عبد الله الفقيه.
- موقع الكحيل للإعجاز العلمي www.kaheelv.com.
- موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

- موقع جامعة الإيمان www.jameataleman.org.
- موميا فرعون، إعداد/ عادل الصعدي، مراجعة: علي عمر بلعجم
- نحل العسل وشفاء الأمراض، للدكتور أحمد لطفي عبد السلام.
- نحل العسل، للدكتور عبد الخالق وفا.
- ندوة "الأهرام" حول ضوابط الإعجاز العلمي في القرآن والسنة والتي أثارها جريدة "الأهرام القاهرية" خلال أسبوعين متتالين على صفحة "الفكر الديني" في أغسطس عام ١٩٩٦م.
- نشأة الذرية معجزة علمية، د. محمد دودح.
- نطق الجهاد والإعجاز في ذلك، إعداد: عبد الكريم علي الفهدي، مراجعة: د. قسطاس إبراهيم النعيمي.
- نظام الإرث في التوراة والقرآن، الدكتور منصور العبادي.
- نعم الإدام الخل، بقلم الدكتور محمد نزار الدقر.
- نعم الإدام الخل، عادل الصعدي.
- هل أشار القرآن إلى تحديد نوع الجنين؟ عبد الدائم الكحيل.
- والأرض ذات الصدع، إعداد/ عادل الصعدي، مراجعة: علي عمر بلعجم.
- والأرض ذات الصدع، للدكتور زغلول النجار.
- والجبال أوتادا، إعداد/ عادل الصعدي. مراجعة: علي عمر بلعجم.
- والجبال أوتادًا، د. حسن باحفظ الله.
- وأنزلنا الحديد، الشيخ/ عبد المجيد الزنداني.
- وتكلم الجلد، الدكتور إبراهيم خليل.
- وجه الإعجاز في سلوك الناصية، الدكتور يحيى ناصر خواجي.
- وسطية الإعجاز العلمي بين الإفراط والتفريط، للدكتور محمود عبد الله نجا.
- ولوغ الكلب في الإناء، قسطاس إبراهيم النعيمي.
- يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ... د. زغلول النجار.

الفهرس

٦	كلمات ليست عابرة
٩	المقدمة
	الفصل الأول
١٥	القرآن الكريم المعجزة الخالدة
١٧	آيات الأنبياء
٢١	من دلائل نبوة النبي ﷺ
٢٣	إعجاز القرآن
٢٤	وجوه إعجاز القرآن
	الفصل الثاني
٣١	الإعجاز التأثري للقرآن الكريم
٣٤	أثر القرآن الكريم على المؤمنين
٣٥	وجل في القلوب
٣٧	سجود وخشوع
٣٨	قشعريرة الجلود
٤٠	أمثلة على تأثير القرآن الكريم في نفوس المؤمنين
٤١	من مظاهر تأثر المؤمنين
٤٢	القرآن الكريم هدى وشفاء ورحمة للمؤمنين
٤٢	تأثير القرآن في نفوس الكفار
٤٤	تأثير القرآن في هداية غير المسلمين
٤٥	آمنوا بعد سماع القرآن
	نموذجان لغير المسلمين المعاصرين كان القرآن الكريم سبباً في تربية وتهذيب أنفسهم، وذلك بالعودة بهم إلى رحاب التوحيد والإيمان
٤٦	الأول: محمد جون ويستر رئيس البعثة الإسلامية الإنجليزية

- ٤٧ الثاني: القس إبراهيم خليل فيلبس (إبراهيم خليل أحمد)
- ٤٨ أثر القرآن فيمن لا يعرفون من اللغة العربية شيئاً
- ٤٩ أثر القرآن الكريم على المنافقين
- ٥٠ تأثير القرآن الكريم على الملائكة
- ٥٢ أثر القرآن الكريم في الجنّ
- ٥٢ أثر القرآن الكريم على الجماد
- إِعْجَازُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي الْفَضْلِ الْتَالِثِ
- ٥٥ الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة
- ٥٧ الشريعة الإسلامية خيرٌ كلها
- ٥٨ بعض الأدلة الجزئية على هذه الحقيقة
- من محاسن الشريعة فَرَضَ الحِجَابَ عَلَى الْمَرَاةِ الْمُسْلِمَةِ وَمَنَعَ الْاِخْتِلَاطَ بَيْنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ غَيْرِ الْمَحَارِمِ ٦٥
- ٦٨ دعوات غربية لتطبيق الشريعة الإسلامية
- ٧٢ الآثار الاقتصادية السيئة للربا
- ٧٩ أضرار الميسر بين الشريعة والحياة
- ٨٤ إعجاز القرآن في الضبط الاجتماعي
- ١٠٦ إعجاز التشريع الإسلامي في مُحَارَبَةِ الزَّانَا وَالتَّحْرِشِ الْجَنَسِيِّ
- ١٠٨ دلائل إعجازية في غض البصر
- ١١٢ من بديع الإعجاز التشريعي في الإسلام: وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ
- ١١٥ من إعجاز القرآن والسنة في الطب الوقائي والكائنات الدقيقة
- ١٣٧ سنن الفطرة ونظافة الفرد
- ١٦٢ الإعجاز التشريعي في تحريم لحم الخنزير
- ١٧٥ الإعجاز التشريعي في التذكية (الذبيح)
- ١٨٥ الحكمة التشريعية في تحريم النمص والوشم والتفلج

- ١٨٩ الرفق بالحيوان بين الهدي النبوي الصادق ودعاوى الغرب الكاذبة
- ١٩٩ الخمر داء وليس بدواء
- ٢٠٧ النهي عن الجلوس على مائدة يشرب الخمر عليها
- ٢٠٩ حكمة التشريع الإسلامي في تحريم الوطء في الحيض
- ٢١٢ كيف عالج الإسلام مرض السمثة والوزن الزائد؟
- ٢٢٧ الإعجاز التشريعي لنظام الميراث في القرآن الكريم
- ٢٣٥ الإعجاز التشريعي في أحكام العدة وبراءة الأرحام
- ٢٤٠ ادعواهم لآبائهم
- ٢٤٤ الرضاة التامة بين العلم والقرآن
- ٢٥٥ الإعجاز التشريعي في تنظيم العمليات التجارية
- ٢٧٠ من أوجه الإعجاز التشريعي في الصيام
- ٢٨٢ الإعجاز التشريعي في أحاديث النوم
- ٢٨٣ أهمية نوم القيلولة
- ٢٨٥ الهدي النبوي في منع وقوع الغضب وعلاجه إذا وقع
- ٢٩٤ هدي الإسلام في العطاس والتثاؤب
- الإعجاز الغيبي في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة
- ٢٩٩ الإعجاز الغيبي
- ٣٠١ أنواع الإعجاز الغيبي في القرآن والسنة
- ٣٠٢ نماذج من الإعجاز الغيبي في القرآن والسنة
- ٣٠٦ إخبار القرآن بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين
- ٣٠٩ تحدي العرب بأنهم سيعجزون، ولن يأتوا بمثل هذا القرآن
- ٣٠٩ القرآن يكذب وعود المنافقين لليهود
- ٣٠٩ الإخبار بانتشار الإسلام وظهور أمره على الأديان، وبلوغه إلى الآفاق
- ٣١٠ إخبار النبي ﷺ عن كيفية ومكان وفاة بعض معاصريه

- ٣١٤ الإخبار بانتشار الإسلام وظهور أمره على الأديان، وبلوغه إلى الآفاق
- ٣١٦ الإخبار عن انتصار المسلمين في غزوة بدر
- ٣١٧ إخبار القرآن عن دخول المؤمنين مكة
- ٣١٩ صدق الوعد بفتح قريب ومغانم كثيرة فيه
- ٣٢٠ الإخبار عن جلاء اليهود من خيبر
- ٣٢١ إخباره القرآن الكريم عن فتح بلاد منيعة
- ٣٢١ الإخبار عن هلاك كسرى وقيصر، وأنه لا كسرى ولا قيصر بعدهما
- ٣٢١ الإخبار عن فتح الشام والعراق وفارس واليمن
- ٣٢٣ الإخبار عن فتح مصر
- ٣٢٤ فتح قبرص واستشهاد أم حرام الأنصارية
- ٣٢٥ غزو الهند
- ٣٢٥ الإخبار بفتح القسطنطينية
- ٣٢٦ إخباره ﷺ بأخبار الفتن
- ٣٢٦ الإشارة إلى ضعف المسلمين وتداعي أعدائهم عليهم
- الإخبار عن حال الخلافة: نبوة ثم خلافة على منهاج النبوة ثم ملك عاص ثم ملك جبري ثم خلافة على منهاج النبوة
- ٣٢٩ جبري ثم خلافة على منهاج النبوة
- ٣٣٠ وصف قتال اليهود من وراء الجُدُر
- ٣٣٤ قدوم أويس القرني
- ٣٣٥ ظهور نار الحجاز من علامات الساعة
- ٣٣٧ الإخبار عن ظهور الفتن وكثرة الكذب والقتل وتقارب الأسواق
- ٣٣٨ الإخبار عن أشياء تحققت في عصرنا
- ٣٤٠ الإشارة إلى المخترعات المذهلة
- ٣٤٣ كون التحية على المعرفة
- ٣٤٣ يُسَمُّوْنَهَا بغير اسمِهَا
- ٣٤٣ كاسيات عاريات

- ٣٤٥ ابتكار السيارات
- ٣٤٦ ظهور منكري السنة (القرآنيين)
- الإعجاز العلمي ضوابط ومحاذير
- ٣٤٩ الإعجاز العلمي ضوابط ومحاذير
- ٣٥١ حقائق الكون بين العلم الشرعي والعلم التجريبي
- ٣٥١ قضايا العلم التجريبي بين الشرع والعلم الحديث
- ٣٥٢ ضوابط شرعية للتعامل مع الآيات الكونية
- ٣٥٥ ما هو الإعجاز العلمي؟
- ٣٦٢ الإعجاز العلمي بين المجيزين والمانعين
- ٣٦٥ هل نحن بحاجة إلى الإعجاز العلمي؟
- ٣٦٥ أوجه الإعجاز العلمي في القرآن والسنة
- ٣٦٦ بعض ثمرات البحوث في ميدان الإعجاز العلمي في القرآن والسنة الصحيحة
- ٣٧٠ ضوابط منهجية للباحثين في الإعجاز العلمي
- ٣٧٩ القواعد التي يجب مراعاتها عند تفسير القرآن تفسيراً علمياً
- ٣٨٢ ضوابط قبول التفسيرات المبنية على العلوم الكونية والتجريبية
- ٣٨٣ أهم معالم منهج تفسير النصوص الحديثة
- ٣٨٦ الإعجاز العلمي بين الإفراط والتفريط
- ٣٩٤ محاذير في الإعجاز العلمي؟
- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم
- ٣٩٩ الإعجاز العلمي في القرآن الكريم
- ٤٠٤ إخبار القرآن عن مراحل تكوّن الجنين
- ٤٠٩ إخبار القرآن الكريم عن كروية الأرض
- ٤١٢ إخبار القرآن عن العلاقة بين الإحساس وجلد البشر
- ٤١٣ حكمة تقليب أصحاب الكهف
- ٤١٥ السحاب الركامي

- ٤٢٢ الرِّيحَ لَوَاقِحَ
- ٤٢٦ تسكين المياه في الأرض
- ٤٢٨ البَحْرِ الْمَسْجُورِ
- ٤٣٢ الإعجاز في الجبال
- ٤٣٥ إعجاز تكوين اللبن
- ٤٣٩ الإِعْجَازُ الْعِلْمِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)
- ٤٤٤ الإعجاز العلمي للقرآن والسنة في دلالة غيض الأرحام
- ٤٤٨ وجعلنا من الماء كل شيء حي
- الإِعْجَازُ الْعِلْمِيُّ فِي السَّنَةِ الصَّحِيحَةِ
- ٤٥١ الإعجاز العلمي في السنة الصحيحة
- ٤٥٣ إشارة النبي ﷺ إلى أن الأمراض الفتاكة عندما تظهر الفواحش في الناس ويعلنوا بها
- ٤٥٥ ما من كل الماء يكون الولد
- ٤٥٥ مراحل تكوين الأجنة في الأرحام
- ٤٥٦ من قوانين الوراثة التي اكتُشفت حديثاً
- ٤٥٧ من أسرار الذباب
- ٤٦٨ لعاب الكلب وقوة مفعول التراب لتنظيفه
- ٤٦٩ تمييز بول الغلام الرضيع
- ٤٧١ ماء زمزم
- ٤٧٩ الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين
- ٤٨٣ عَجْبُ الذَّنَبِ

الْفَضِيلَةُ الْقَامِنُ

- ٤٨٩ بحوث في الإعجاز العلمي في حاجة إلى مزيد من التأصيل والدراسة
- ٤٩١ البحوث القاصرة في الإعجاز وآثارها السلبية
- ٤٩٦ نماذج من البحوث التي تحتاج إلى مزيد من التأصيل والدراسة
- ٤٩٦ انشقاق القمر
- ٥٠٠ أخفض منطقة على سطح الأرض
- ٥٠٢ البعوضة وما فوقها
- ٥٠٥ لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ
- ٥٠٧ وأنزلنا الحديد
- ٥٠٨ نشأة الذرية
- ٥١٠ إخبار القرآن عن الظلمات الثلاث
- ٥١٠ البرزخ المائي بين البحرين
- ٥١٥ إخبار القرآن عن أمواج البحر اللجي
- ٥١٩ القرآن يُخبر عن قلة الأوكسجين في طبقات الجو العليا
- ٥٢١ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ
- ٥٢٣ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ
- ٥٣١ المادة وقرين المادة
- ٥٣٣ ظاهرة طبيّة تحيّر علماء أمريكا!
- ٥٣٥ مَا تَحْتَ الثَّرَى
- ٥٣٩ الشبخوخة تنكيس في الخلق
- ٥٣٩ من صور الإعجاز الهندسي في القرآن الكريم
- ٥٤٠ موميا فرعون
- ٥٤٢ القرآن الكريم وذكر حكام مصر القدماء والتفريق بين كلمة الملك والفرعون
- ٥٤٥ اسم هامان

٥٤٦	مواقع النجوم
٥٤٩	البصمة وتسوية البنان
٥٥٣	النجم الطارق
٥٥٨	انسلاخ النهار
٥٥٩	الخوف والمطر
٥٦١	تخصيص مكة المكرمة بالقبلة
٥٦٥	القرار المكين
٥٦٧	هل أشار القرآن إلى تحديد نوع الجنين؟
٥٦٩	السراب
٥٧٠	سُقفا من فضة
٥٧٦	فُلك نوح ﷺ، في تركيا وحقائقها الثمانية
٥٨٢	الحجارة التي بُنيت منها الأهرامات
٥٨٤	فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ
٥٨٤	فذرره في سنبله
٥٨٧	الاعجاز العلمي في التخطيط الاستراتيجي واعداد الموازنات
٥٩٠	فوائد العسل
٥٩٦	الحبة السوداء وأسرارها العجيبة
٦٠٠	لون الجلد لا يُفضّل به صاحبه
٦٠١	شق السمع والبصر
٦٠١	الإعجاز العلمي في الأحاديث التي ذكرت الحمى
٦١٢	التليينة غذاء ودواء
٦١٥	اللبن ومنتجاته وعلاقته بصحة الإنسان
٦١٦	أكل زيت الزيتون والادّهان به
٦٢٠	المشي حافياً أحياناً

- ٦٢٣ الإعجاز العلمي في سؤر الهرة
- ٦٢٦ علاج عرق النسا
- ٦٢٩ التداوي بأبوال الإبل
- ٦٣٦ الحقامة
- ٦٤١ أحاديث تخنيك المولود
- ٦٤٤ نعم الإدام الخل
- ٦٤٧ حديث المفاصل
- ٦٤٨ عودة جزيرة العرب مروجًا وأنهارًا كما كانت
- ٦٥٠ المسح على رأس اليتيم
- ٦٥١ لماذا حرم الإسلام مصافحة الرجال للنساء؟
- ٦٥١ تبرج المرأة
- ٦٥٣ الإعجاز العلمي في ارتداء الحجاب
- ٦٥٣ الرضاع
- ٦٥٥ التسمية عند الذبح
- ٦٥٦ بَيْتٌ لَا تَمُرُّ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ
- ٦٥٧ من أسرار تقديم اليمين
- ٦٥٩ التيامن والتياسر بين استحبابات الدين وسلوك الجسيمات الذرية
- ٦٦٣ الأقمار الصناعية تشهد بنبوة محمد صلوات الله عليه وآله
- ٦٦٩ الإعجاز في حديث عريض القفا
- ٦٧٢ الإعجاز التشريعي في أكل لحم الجمل
- ٦٧٣ أثر ماء الرجل وماء المرأة في خلق الجنين
- ٦٧٣ أصل الجسد البشري
- ٦٧٤ الفروق الفطرية بين الناس ترجع إلى تكوينهم البدني
- ٦٧٥ أثر الأم الوراثي، وما يستحب أن يتخير لنطفه

- ٦٧٥ مدى فعالية وسائل منع الحمل
- ٦٧٦ تقديم السمع على البصر
- ٦٧٨ توريث السمع والبصر
- ٦٧٩ علاقة الناصية بسلوك الإنسان
- ٦٨١ صلاح القلب صلاح للجسد
- ٦٨١ ظاهرة الخسوف والكسوف
- ٦٨٣ يَظْهَرُ فِيهِمُ السَّمْنُ
- ٦٨٤ علاقة الصلاة في الصغر وآلام أسفل الظهر
- ٦٨٧ الصلاة والوقاية من مرض دوالي الساقين
- الفصل التاسع**
- ٦٨٩ أخطاء في الإعجاز العلمي
- ٦٩٤ نماذج من الأخطاء في الإعجاز العلمي
- ٦٨٤ من الأخطاء التعسّف في تفسير الرتق والفتق من قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾
- ٦٩٤ من الأخطاء التعسّف في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾
- ٦٩٥ من الأخطاء التعسّف في الادعاء بأن القرآن الكريم قد تحدث عن الثقوب السوداء في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْحُسْبِ ۝١٥ الجوار الكنس﴾
- ٦٩٧ من الأخطاء التعسّف في تفسير وهن المادة المكوّنة لبيت العنكبوت بوهن الصلات الاجتماعية والتفكك الأسري لبيت العنكبوت
- ٦٩٩ من الأخطاء تفسير السلطان في قوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾

- من الأخطاء الاستدلال تَعَالَى: ﴿يَمَعَشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ على كروية الأرض ٧٠١
- من الأخطاء حمل أحدهم صورة وردة على قوله تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ ٧٠١
- من الأخطاء التعسف في تفسير قوله تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بتناقص القمم والهامات العليا للجبال ٧٠٣
- من الأخطاء التعسف في تفسير وَضَع الميزان في قوله تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٧) بقانون الجذب بين الكواكب واتزانها ٧٠٣
- من الأخطاء التعسف في تفسير لفظ ﴿مُوسِعُونَ﴾ في قوله تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧) بأن الله ﷻ لا زال يوسّع في بناء هذا الكون ٧٠٣
- من الأخطاء التعسف في الربط بين عملية البناء الضوئي وقوله تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ ٧٠٤
- من الأخطاء التعسف في تفسير قوله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ ٧٠٥
- من الأخطاء ما زعمه أحدهم في تفسير قوله تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ ٧٠٦
- من الأخطاء ما زعمه أحدهم في تفسير قوله تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (يونس: ٥)، وقوله تَعَالَى: ﴿نَبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ٧٠٧
- من الأخطاء ما زعمه أحدهم أنه اخترع قطرة عيون من قوله تَعَالَى: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ ٧٠٩

- من الأخطاء في الإعجاز العلمي التعسف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ﴾ ٧١٤
- من الأخطاء الفاحشة قول أحدهم إن الإعجاز العلمي يكشف عن انفلونزا الطيور في القرآن الكريم، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَفَكَهَمَهُ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَعَدَّ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ٧١٦
- من الأخطاء التعسف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، حيث حمله بعضهم على النظرية النسبية ٧١٨
- من الأخطاء التعسف في تفسير قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، والقول بأن السرعة التي تجري بها الملائكة في الكون مطابقة تماماً لسرعة الضوء ٧١٨
- من الأخطاء التعسف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِبَاطِنَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا نَقِيرًا﴾، والربط بينه وبين ما ذكره العلماء من خواص الفضة ٧١٩
- من الأخطاء التعسف في تفسير قوله ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُكَلِّمَ السَّبَّاحُ الْإِنْسَانَ، وَيُكَلِّمَ الرَّجُلُ نَعْلَهُ، وَعَدَبَةَ سَوْطِهِ، وَيُخْبِرُهُ فِخْذُهُ بِحَدِيثِ أَهْلِهِ بَعْدَهُ» ٧١٩
- من الأخطاء الربط بين ما قام به العالم توماس إديسون مخترع المصباح الكهربائي، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ ٧٢٠
- من الأخطاء قول أحدهم الربط بين عدم وجود أي نوع من الحياة على سطح القمر، وقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ ٧٢١
- من الأخطاء التعسف في الاستدلال بهذا الحديث: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِسَخِّ نَسْلًا وَلَا عَقِبًا» ٧٢٣

- من الأخطاء التعسّف في الربط بين تقدير العلماء لعمر الكون وحديث: «بُعِثْتُ وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» ٧٢٣
- من الأخطاء التعسّف في الربط بين دوران الأرض وحديث: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا» ٧٢٤
- من الأخطاء التعسّف في تفسير حديث الدجال ٧٢٤
- من الأخطاء التكلف في الربط بين أيام البيض وصيامها وما قيل بأنه حقيقة علمية ٧٢٥
- من الأخطاء التعسّف في تفسير حديث: «تَقَى الْأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا أَمْثَالَ الْأَسْطُوانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ» بالبتروك في العصر الحديث ٧٢٩
- من الأخطاء الفاحشة التعسف في تفسير حديث: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيحَا الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهيقَ الحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا» ٧٣٢
- من الأخطاء استدلال أحدهم على ما أثبتته العلم الحديث من أنه لا يوجد فراغ في الكون، بحديث: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَيْطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ» ٧٣٥
- من الأخطاء الاستدلال بذكر الطير الأبايل في سورة الفيل على أن القرآن قد دل على وجود الطائرات النفاثات التي تحمل القذائف وتقاذف بها على الجيوش المعادية ٧٣٦
- من الأخطاء التعسّف في تفسير حديث إِسْرَاعِ الدِّجَالِ فِي الْأَرْضِ والزعم أن الحديث يدل على أن سرعة الدجال في الأرض إنما تكون على مثل الطائرات ٧٣٧
- من الأخطاء التعسّف في تفسير حديث: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، ...» ٧٣٧
- من الأخطاء التعسف في الاستدلال بحديث: «الرَّحِمُ شِجْنَةٌ» ٧٣٨
- من الأخطاء تعسف أحدهم في الاستدلال على حجم الأرض بالنسبة للكون بحديث: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ» ٧٣٩
- من الأخطاء التعسف في الاستدلال على كلام الجيولوجيين بحديث: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنْ الْأَرْضِ ظَلَمًا فَإِنَّهُ يُطَوِّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ» ٧٣٩

- من الأخطاء التعسف في الاستدلال على أن مكة هي مركز اليابس من الأرض بحديث: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَيْرٌ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ» ٧٤١
- من الأخطاء الاستدلال على أثر عمر الأم على أطفالها بحديث: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ فَإِنِّي مُكَائِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ» ٧٤١
- من الأخطاء التعسف في الاستدلال بحديث: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ نَسَمَةً، قَالَ مَلَكُ الْأَرْضِ مُعْرِضًا: يَا رَبِّ، أَذْكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي اللَّهُ أَمْرَهُ. ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَيَقْضِي اللَّهُ أَمْرَهُ. ثُمَّ يَكْتُبُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَا هُوَ لَاقٍ حَتَّى النُّكْبَةَ يُنْكِبُهَا» ٧٤٢
- من الأخطاء الاعتماد على الأحاديث الضعيفة ٧٤٤
- أمثلة للأخطاء المبنية على الاستدلال بالأحاديث الضعيفة ٧٤٤
- حديث: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدٌ، فَخَلَقَ الْجِبَالَ فَعَادَ بِهَا عَلَيْهَا» ٧٤٤
- حديث: «لَا يَرْكَبُ الْبَحْرَ إِلَّا حَاجٌّ أَوْ مُعْتَمِرٌ أَوْ غَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ تَحْتَ الْبَحْرِ نَارًا وَتَحْتَ النَّارِ بَحْرًا» ٧٤٥
- حديث: «أَوْقَدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءٌ مُظْلِمَةٌ» ٧٤٧
- قصة وَعَدِ النَّبِيُّ ﷺ لِسُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ خَدِيغَةَ عَنْهُ بِسَوَارِي كَسْرَى ٧٤٨
- حديث: «لَا يَقَعَنَّ أَحَدُكُمْ عَلَى امْرَأَتِهِ كَمَا تَقَعُ الْبَهِيمَةُ؛ وَلِيَكُنْ بَيْنَهُمَا رَسُولٌ». قيل: «وما الرسول؟». قال: «الْقُبْلَةُ وَالْكَلام» ٧٤٩
- الحديث الموضوع الذي فيه أن رسول الله ﷺ كان يَرَى بِاللَّيْلِ فِي الظلمه كما يرى بالنهار في الضوء ٧٥٠
- حديث أن الله ﷻ قَالَ: «أَبُتُّ الْعِلْمَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ حَتَّى يَعْلَمَهُ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ، وَالْعَبْدُ وَالْحُرُّ، وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ بِهِمْ، أَخَذْتُهُمْ بِحَقِّي عَلَيْهِمْ»، والزعم أن في هذا الحديث إخبارًا عن وجود الراديو في آخر الزمان ٧٥١
- حديث: «من اقترب الساعة اثنتان وسبعون خصلة - فذكرها ومنها - وحُلِيت المصاحف وصُورَت المساجد وطولت المنابر» ٧٥١

- حديث: «ثَلَاثٌ إِذَا رَأَيْتَهُنَّ فَعِنْدَكَ عِنْدَكَ: إِخْرَابُ الْعَامِرِ، وَإِعْمَارُ الْخَرَابِ، وَأَنْ يَكُونَ
الْغَزْوُ رِفْدًا، وَأَنْ يَتَمَرَّسَ الرَّجُلُ بِأَمَانَتِهِ تَمَرَّسَ الْبَعِيرُ بِالشَّجَرَةِ» ٧٥١
- حديث أن رسول الله ﷺ سئل: «هذه المغارب أين تغرب، وهذه المطالع من أين
تطلع؟»، فقال: «هي على رسلها، لا تبرح ولا تزول، تغرب عن قوم، وتطلع على قوم،
تغرب عن قوم، وتطلع على قوم، فقوم يقولون: غربت، وقوم يقولون: طلعت» ٧٥٢
- حديث «هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا؟». فَقَالُوا: «اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ». قَالَ: «هَذَا الْعَنَانُ هَذِهِ
رَوَايَا الْأَرْضِ يَسُوقُهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْكُرُونَهُ وَلَا يَدْعُونَهُ» ٧٥٣
- حديث: «اغتربوا ولا تضووا» ٧٥٤
- وحديث: «لا تنكحوا القرابة، فإن الولد يخلق ضاويًا» ٧٥٤
- من الأخطاء في الإعجاز العلمي التكلف فيما يسمونه بالإعجاز العددي ٧٦٢
- من الأخطاء فيما يسمونه الإعجاز العددي إقحام حساب الجُمَّل في القرآن الكريم ٧٦٥
- ما هو حساب الجُمَّل؟ ٧٦٥
- حساب الجُمَّل وعبقريته استخدامه ٧٦٦
- إقحام حساب الجُمَّل في القرآن الكريم ٧٦٧
- أهم عيوب أبحاث حساب الجُمَّل ٧٦٧
- يحتجون بحديث ضعيف ٧٦٩
- نقد بعض الأمثلة المتعلقة بحساب الجُمَّل ٧٧١
- أمثلة أخرى على الأخطاء فيما يسمونه الإعجاز العددي ٧٧٦
- التاريخ الهجري رمزٌ لهوية أمتنا الإسلامية ٧٨٩
- من أخطاء التقويم الميلادي ٧٩١
- بين الرؤية والحساب ٧٩٣
- المؤامرة ٧٩٤
- إِلْفَضْلِكُ الْعَاجِشِ
- أكاذيب متعلقة بالإعجاز العلمي ٧٩٥
- أمثلة على تلك المعجزات الوهمية ٧٩٩

- ٧٩٩ الفتاة التي مسخها الله!
- ٧٩٩ النبات الذي أصدر ذبذبات صوتية رسمت اسم (الله)!
- ٨٠١ جذوع الأشجار ترسم عبارة (لا إله إلا الله)
- ٨٠١ انبيار البرجين هل ذكره القرآن؟
- ٨٠٢ شاب تفحّم من عذاب القبر بعد ٣ ساعات!
- ٨٠٢ جهاز تخطيط القلب يرسم اسم (الله)!!
- الأقمار الصناعية كشفت أن شكل جبل أحد الذي يبلغ طوله حوالي ٧ كلم على شكل اسم محمد ٨٠٣
- ٨٠٤ صور لنور مقبرة شهداء أحد
- ٨٠٤ صورة لانشقاق القمر
- ٨٠٤ إسلام أول رائد فضاء لأنه سمع صوت الأذان على سطح القمر
- ٨٠٥ إن مكة هي مركز الجاذبية الأرضية!
- ٨٠٦ شعاع يضيء السماء يخرج من البيت العتيق!
- ٨٠٦ الشمال المغناطيسي والشمال الجغرافي متطابقان في مكة المكرمة
- ٨٠٧ مكة هي مركز الطاقة الكونية
- ٨٠٧ مكة هي أول بقعة ظهرت من اليابسة!
- ٨٠٧ أصوات المعذنين
- ٨٠٩ الآية ٥٧ من سورة الأحزاب والرقم التسلسلي التجاري للمنتجات الدانماركية
- ٨١٠ أصل الخطوط الموجودة في باطن الكف
- ٨١٠ لفظ الجلالة والدم والقفص الصدري
- ٨١٠ هيكلك العظمي على هيئة محمد
- ٨١١ خطوط الكف تفرز مادة إذا لُعتت فإنها تقوم بتسهيل عملية الهضم
- ٨١١ هل صحيح أن الأصابع تقوم بإفراز تلك المادة؟
- ٨١٣ المراجع
- ٨٣١ الفهرس

صَدْرُ الْمُؤَلَّفِ

أَوْهَى عَلَى الْمَلِكِ

أَوْهَى مِنْ بَيْتِ الْعُنْكَبُوتِ

جَمْعٌ وَتَرْغِيبٌ

بَشَائِعُ تَرْغِيبٌ

دَارُ الْفَتْحِ الْأَسْلَامِيِّ

دَارُ الْخَلْفَاءِ الرَّاشِدِينَ

صَدْرُ الْمُؤَلَّفِ

الْمُهَيَّبِ

مَهَارَاتٍ وَفُنُونٍ

جَمْعٍ وَتَرْثِيبِ

بِتَحْقِيقِ

دَارِ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ

دَارِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ